

مَنْهَجٌ

الشيخ محمد الحصري الحسيني

في مواجهة الانحرافات العقديّة والفكرية

تأليف

و محمد بن ابراهيم احمد

المجلد الأول

دار ابن خزيمة

منهج  
الشيخ محمد الخضر حسين

ح محمد بن إبراهيم الحمد ، ١٤٣٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد، محمد إبراهيم

منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات

العقدية والفكرية . / محمد إبراهيم الحمد - الرياض، ١٤٣٥ هـ

١٠٤٤ ص ، ١٧ X ٢٤ سم

رمك ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٦٢٥١-٢

١- حسين، محمد الخضر، ت١٣٧٧هـ - أ- العنوان

١٤٣٥/٨٥٦١

٩٢٢،١ ديوي

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٨٥٦١

رمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٦٢٥١-٢

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

دار ابن خزيمة

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

المملكة العربية السعودية - الرياض  
المنزل - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان  
هاتف: ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٢ - فاكس: ٤٧٦٠٧٩٥



## المقدمة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد

فإن جهاد القلم والكلمة من أعظم الجهاد، وأمضى الأساليب في الدعوة إلى دين القيمة، وإن أعظم ذلك ما كان في شأن تبيان العقيدة الصحيحة، وتخليصها مما ألصق بها من بدع، وكشف ما ألحق بها من شبهات تصدُّ عنها، أو تنفّر عن سلوك سبيلها؛ فبذلك تستبين السبيل، وتقوم الحجة، وتتضح المحجة، ويُصَفَّى الحقُّ مما أضيف إليه من شوائب الباطل، فيبقى نيراً صافياً زلالاً بعيداً من أكدار الضلالات، وأوضار الأهواء.

وبذلك يثبت الإيمان في القلوب، ويُتَقَدَّ ضحايا التقليد والجهل والتبعية العمياء. ولا ريب أن ذلك من أعظم ما يبعث على الاعتزاز بالحق، والفرح باليقين، والبعد عن التخبط في دياجير الظلمة والضلال.

ومن هذا المنطلق قام علماء الإسلام في مختلف الأعصار والأمصار بإبصار ذلك العمل الجليل؛ حيث بينوا الحق، وأشفقوا على الخلق، وهتكوا سجف الباطل، وكشفوا عوار الضلالات.

ولا يزال الله -عز وجل- يغرس لهذا الدين غرساً؛ حيث يقيض -بلطفه وكرمه- من يجدد أمر الدين، ويحسن عرضهُ، ويتصدى لمن يحاول الطعن فيه، أو النيل منه.

وإن من أولئك السّراة في العصور المتأخّرة الشيخ العلامة محمد الخضر حسين التونسي ١٢٩٣-١٣٧٧هـ الذي كانت له إسهامات جليّة، في بيان حقائق الإسلام، ومواجهة الانحرافات العقديّة والفكرية في عصره؛ حيث قام بذلك الجهد الجبار طيلة سنيّ عمره المبارك يُسّعه في ذلك قلمه البليغ، وبيانه الساحر الأخاذ، وخلقه النبيل، وساحته الطاهرة، وغيرته الصادقة؛ فقد كان العالم المتفنّن، والقاضيّ النزيه، والمفكر الحر، والمجاهد الصادق.

ولقد عاش في مرحلة مفصلية من حياة الأمة عاصر خلالها سقوط الخلافة الإسلاميّة، ووقف على حال المتغيرات التي عصفت بالمسلمين إبان تلك الفترة؛ فكان من أعدل الشهود على سبر تلك الأحوال، ومن خير المتصدّين لتلك الغواشي التي خيمت على أجواء الأمة.

وكتبه، وآثاره، والدراسات حوله شاهدة على ذلك ناطقة به.

ولما عزمْتُ على إعداد رسالتي للماجستير في تخصص العقيدة والمذاهب المعاصرة استخرت الله، واستعنت به -عز وجل- واستشرت بعض أهل العلم والاختصاص في موضوع الرسالة، فوقع الاختيار على دراسة هذا العالم في ناحية من نواحي حياته العلميّة والعملية؛ ليكون موضوع الرسالة؛ فجاء عنوان البحث حاملاً المسمى التالي:

(منهج الشيخ محمد الخضر حسين في مواجهة الانحرافات

العقدية والفكرية).

أملاً أن يكون لهذا البحث نصيبٌ من الجِدَّة، والطرافة، والأهمية، والله المستعان وعليه التكلان.

### مشكلة البحث:

للشيخ محمد الخضر حسين جهدٌ في مواجهة الانحرافات العقديّة والفكرية في عصره كالبدع، والشركيات، وقضايا الإلحاد، والعلمانية، ومفهوم الحرية ونحوها من القضايا الشائعة في عصره، والتي واجهها، وكان له موقف منها. ويهدف البحث إلى تحديد ودراسة المنهج الذي سار عليه الشيخ في مواجهاته تلك. وإذا كان له منهجٌ مُحدّدٌ فهل ذلك المنهج من الاطراد، والتميز؛ بحيث يكون جديراً بالدراسة والبحث؟

وهل المادة العلمية في ذلك كافية؛ لِيَتَوَسَّلَ من خلالها إلى نتائج ذات قيمة علمية ومنهجية في ميدان الدراسات العقديّة والفكرية؟ ويفترض الباحث أن تكون الإجابة عن تلك التساؤلات بالإيجاب، وهو ما سيسعى إلى إثباته من خلال هذا البحث.

### أهمية البحث:

يمكن إجمال أهمية البحث فيما يلي:

١. أن هذا الموضوع يبحث في شخصية علمية أكاديمية موسوعية فذة؛ حيث تقلدت مناصب علمية كان أعلاها مشيخة الأزهر، الذي يكاد أن يكون أعلى منصب علمي في العالم الإسلامي.
٢. أن هذه الشخصية عاشت في مرحلة حرجة من حياة الأمة، وتلك المرحلة تمثل انعطافاً خطيراً، وتحولاً كبيراً.

وتلك الشخصية -وهو الشيخ الخضر- قد وعى تلك الفترة، وسبر أحوالها، ورصد تغيراتها، وواجه كثيراً من انحرافاتهما؛ فكان الوقوف على منهجه في ذلك من الأهمية بمكان؛ فدراسة تلك الشخصية من هذه الناحية تبرز منهجه في المواجهة، وتبين ما فيه من تميز.

٣. أن تلك الشخصية جمعت بين العلم الشرعي المتين، والبصيرة في قضايا الفكر في عصره، وتلك ميزة قل أن توجد في شخصية.

٤. أن كثيراً من تلك القضايا التي واجهها الشيخ كانت في بواكير نشأتها؛ فكان من المهم تجلية موقفه منها، ومنهجه في مواجهتها.

#### أهداف البحث:

١. أن القضايا العقدية والفكرية التي واجهها الشيخ الخضر لا تزال تطرح بين الفينة والأخرى إلى يومنا هذا؛ فتناول تلك القضايا من هذه الناحية يسهم في تقريبها، والوقوف على أطوارها.

٢. الإفادة من منهج الشيخ الخضر في مواجهاته العقدية والفكرية.

٣. سد النقص في الدراسات المتخصصة التي تتناول الجانب العقدي والفكري في آثار الشيخ الخضر.

٤. الإسهام في إلقاء مزيد من الضوء على تلك الشخصية الفذة التي كانت من أعظم أسباب التواصل بين المشرق العربي والمغرب العربي في وقته.

#### الدراسات السابقة:

هناك دراسات وكتابات عديدة حول الشيخ محمد الخضر حسين، وقد تناولت تلك الدراسات جوانب معينة من سيرة الشيخ دون أن تحمل طابع التخصص في أغلبها.

وأهم تلك الدراسات ما يلي :

١. (الشيخ محمد الخضر حسين : حياته ، وجهوده في الدعوة إلى الله -تعالى-)  
للأستاذ: رشيد محمود التليبي ، وهي رسالة علمية نوقشت في جامعة الأزهر كلية  
أصول الدين - القاهرة ، بإشراف د. محمد عبدالسميع جاد عام ١٤٠٣هـ -  
١٩٨٤م ، وجاءت تلك الرسالة في (٥٤١) صفحة.

وقد تطرق الباحث فيها إلى سيرة الشيخ الخضر ، وحياته ، ورحلاته ، وجهوده  
في الدعوة إلى الله ، والإصلاح الديني ، والسياسي ، والاجتماعي ، والعلمي.  
كما تحدث عن جهوده في ميدان الصحافة ، والتأليف ، والمحاضرات ،  
وتأسيس الجمعيات ، وذلك من خلال استعراض تلك الجهود إبان إقامة الشيخ  
الخضر في تونس ، أو الشام ، أو مصر.

ولم يتطرق الباحث لمنهج الشيخ في إثبات العقيدة ، أو منهجه في مواجهاته  
للالنحرافات العقيدية والفكرية سوى ذكر يسير لبعض آرائه في علم الكلام  
والتصوف.

وبالجملة فالرسالة عنيت بسيرة الشيخ ، وبالجانب الإصلاحي العملي له دون  
المنهجي والفكري.

ثم إن كثيراً من تراث الشيخ والدراسات حوله خرجت بعد هذه الدراسة؛  
فبقي شيء ليس باليسير من ذلك لم يُتناول بالدراسة والبحث.

٢. كتاب: محمد الخضر حسين : حياته ، وآثاره للأستاذ محمد مؤاعده : وهذا  
الكتاب بحث جامعي بإشراف الأستاذ المنجي الشملي ، وقد صدر عام ١٩٧٤م ،

ويعد أول وأهم الدراسات المنهجية التي كتبت عن الشيخ الخضر؛ حيث تصدى الأستاذ مواعده للبحث في حياة الشيخ الخضر وآثاره، واهتم بدراسة شخصية الشيخ؛ لأنه -كما يقول-: «عَلَّمْ بارز من أعلام الإسلام في العصر الحديث، شارك مشاركة فعالة في الحركة الفكرية سواء في الغرب، أو في المشرق العربي، وارتبط اسمه بأسماء عدد كبير من رجالات الدين، والذين قاموا بدور هام في ميادين دينية، ولغوية، وأدبية، وسياسية».

ولم يكن قبل هذا الكتاب دراسة شاملة تبين مراحل حياة الشيخ الخضر المختلفة، وما كان لها من تأثير في تكوين شخصيته الثقافية المتكاملة. ولذلك يمكن عدُّ هذه الدراسة تمهيداً يساعد على معرفة الرجل، والتعمق في آثاره، ومواقفه، ووضعه في إطار ضمن الحركة الفكرية الإسلامية -كما يقول الأستاذ مواعده-.

وقد اعتمد المؤلف لإعداد هذه الدراسة على جميع المصادر التي أمكنه الحصول عليها من كتب ومجلات، واتصل بعدد من معاصري الشيخ من العلماء، والطلاب، وغيرهم خصوصاً ممن عاصروه في سنواته الأخيرة في مصر. وقد خرجت هذه الدراسة عام ١٩٧٤م -كما مر-.

ولا ريب أن آثار الشيخ الخضر تُبَعَثُ بين الفينة والأخرى؛ حيث خرج بعد ذلك التاريخ رسائل أخرى، ودراسات عن الشيخ الخضر أبانت عن أشياء من مكنونات آثاره، وسيرته.

ومهما يكُ من شيء فإن عمل الأستاذ مواعده هذا يبقى من أهم الدراسات التي عنيت بالشيخ الخضر، وإن لم تكن تلك الدراسة خاصة بمنهج الشيخ في إثبات العقيدة، ومواجهة الانحرافات العقديّة والفكرية، وإن كان الباحث قد عني في القسم الثالث بشيء من ضبط اتجاهات الشيخ الفكرية، غير أن ذلك لا يكفي في الوقوف على منهجه المحدد الواضح الذي سار عليه في مواجهاته العقديّة والفكرية.

٣. كتاب: الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر: للمحامي الأستاذ علي الرضا الحسيني ابن أخي الشيخ الخضر.

وقد انتخب محتوى هذا الكتاب من نخبة تناولت سيرة الشيخ الخضر في مقال، أو رسالة، وروعي في انتقائها - كما يقول جامعها - ما يلي:

أ. أفراد البحث المنتقى بموضوع لم يتطرق إليه الآخر.

ب. اختيار الكتاب من أقطار عدة، من: تونس، ودمشق، والقاهرة، والجزائر.

ج. التسلسل التاريخي في نشر البحث وصدوره.

د. الإشارة إلى المرجع والمصدر لكل بحث في الهامش من صفحته الأولى.

ويلاحظ القارئ التشابه والتكرار بين كل الدراسات من جهة السيرة الذاتية للشيخ الخضر، كالولادة، وتواريخ التعلم والتعليم، والتنقل، والمهام، والأعمال التي قام بها، ونحو ذلك من مجملات سيرة المترجم له.

ومع ذلك فإن لكل بحث من تلك الأبحاث ميزةً عن غيره، وتلك الأبحاث -بمجموعها- تعطي صورة عامة واضحة لحياة الشيخ، وشيء من إنتاجه العلمي والفكري.

وقد احتوى ذلك الكتاب على خمس عشرة رسالة ما بين بحث، أو دراسة، أو مقالة عن الشيخ الخضر، وأهم تلك الرسائل ما يلي:

أ. محمد الخضر حسين: بقلم زين العابدين السنوسي: وهي أول ترجمة عن حياة الإمام طلَّعتْ على الناس -كما يقول الأستاذ علي الرضا الحسيني-.

ب. محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق دراسة - مختارات: بقلم أبو القاسم محمد كرو.

وهي دراسة مستفيضة، وتعد من أهم وأقدم الدراسات التي كتبت عن الشيخ الخضر.

٤. كتاب: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين: اعتنى به المحامي علي الرضا الحسيني.

٥. كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين: اعتنى به المحامي علي الرضا الحسيني.

٦. ملقئ الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر: اعتنى به المحامي علي الرضا الحسيني.

٧. الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي: اعتنى به المحامي علي الرضا الحسيني.

وهذه الكتب الأربعة الأخيرة قريبة من الكتاب الذي سبقها، وهو كتاب (الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر) من جهة أنها تحتوي على مقالات، وكتابات، ودراسات حول الشيخ محمد الخضر حسين. وسيأتي مزيد حديث عنها في الفصل الثاني من الباب الأول، وذلك عند الحديث عن مؤلفاته.

فهذا شيء من تلك الدراسات التي كتبت عن الشيخ الخضر، ولا يوجد -حسب علمي- دراسة متخصصة في منهجه في إثبات العقيدة، ومواجهة الانحرافات العقيدية والفكرية، وما يدور في ذلك الفلك.

### خطة البحث:

هذا البحث يشتمل على مقدمة، وتمهيد، وخمسة أبواب، وخاتمة، وذلك كما يلي:

### المقدمة:

وفيها: مشكلة البحث، وأهميته، وأهدافه، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهجه، وإجراءاته، ومصادره.

### تمهيد: عصر الشيخ محمد الخضر

وفيه مدخل وثلاثة مطالب:

مدخل: مراحل حياة الشيخ محمد الخضر

المطلب الأول: حال العالم الإسلامي

المطلب الثاني: حال البلاد التونسية

المطلب الثالث: حال البلاد المصرية

## الباب الأول: الشيخ محمد الخضر: حياته ومؤلفاته

وفيه فصلان:

### الفصل الأول: حياة الشيخ محمد الخضر

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نشأته

المبحث الثاني: أعماله

المبحث الثالث: أخلاقه وصفاته

### الفصل الثاني: مؤلفات الشيخ محمد الخضر

وفيه: - تمهيد: ملحوظات حول علميته ومؤلفاته

- مؤلفاته: عرض وتعريف ودراسة: وفيه: دراسة شاملة، وتعريف بجميع

مؤلفات الشيخ محمد الخضر

## الباب الثاني: منهج الشيخ محمد الخضر في إثبات العقيدة

وفيه ثلاثة فصول:

### الفصل الأول: منهج الشيخ محمد الخضر في تلقي العقيدة وإثبات أهميتها

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: منهجه في التلقي والاستدلال.

المبحث الثاني: مصادره في تلقي العقيدة.

المبحث الثالث: منهجه في إثبات أهمية العقيدة.

### الفصل الثاني: منهج الشيخ محمد الخضر في إثبات أصول العقيدة

وفيه تمهيد ، وثلاثة مباحث :

المبحث الأول: منهجه في إثبات الوجدانية لله.

المبحث الثاني: منهجه في إثبات الإيمان بالملائكة، والكتب.

المبحث الثالث: منهجه في إثبات الإيمان بالرسول، واليوم الآخر،

والقدر.

**الفصل الثالث: منهج الشيخ محمد الخضر في إثبات المسائل المتعلقة بالعقيدة**

وفيه تمهيد ، وثلاثة مباحث :

المبحث الأول: منهجه في باب الإيمان.

المبحث الثاني: منهجه في باب العبادة.

المبحث الثالث: منهجه في بابي: الصحابة والإمامة.

**الباب الثالث: منهج الشيخ محمد الخضر في الرد على المخالفين**

وفيه فصلان :

**الفصل الأول: مصادر الشيخ محمد الخضر ووسائله في الرد على المخالفين**

وفيه مبحثان :

المبحث الأول: مصادره في الرد على المخالفين

المبحث الثاني: وسائله في الرد على المخالفين

**الفصل الثاني: أساليب الشيخ محمد الخضر في الرد على المخالفين**

وفيه تمهيد ، وثلاثة مباحث :

المبحث الأول: أساليبه الأدبية

المبحث الثاني: أساليبه البيانية

المبحث الثالث: أساليبه المنهجية

الباب الرابع: مواجهات الشيخ محمد الخضر للفرق والدعاوى الضالة، والانحرافات العقيدية وفيه فصلان:

الفصل الأول: مواجهات الشيخ محمد الخضر للفرق والدعاوى الضالة في عصره وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مواجهته لفرقتي البابية والبهائية

المبحث الثاني: مواجهته لفرقة القاديانية

المبحث الثالث: مواجهته للتنصير

المبحث الرابع: مواجهته للروحانية الحديثة (دعوى تحضير الأرواح)

الفصل الثاني: مواجهات الشيخ محمد الخضر للانحرافات العقيدية

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: موقفه من الفلسفة

المبحث الثاني: موقفه من التصوف

المبحث الثالث: موقفه من التشيع

المبحث الرابع: مواجهته للشرك والبدع

المبحث الخامس: مواجهته للإلحاد

الباب الخامس: موقف الشيخ محمد الخضر من القضايا الفكرية المعاصرة

وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

تمهيد:

الفصل الأول: موقف الشيخ محمد الخضر من العلمانية

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

تمهيد: مفهوم العلمانية

المبحث الأول: معاصرته لظهور العلمانية في بلاد الإسلام

المبحث الثاني: إثباته صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان

المبحث الثالث: مواجهته للعلمانية

الفصل الثاني: موقف الشيخ محمد الخضر من قضية الحرية

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: جهوده في التأصيل لقضية الحرية

المبحث الثاني: مفهوم الحرية عنده

المبحث الثالث: موقفه من الحرية الحقة وحرية الفوضى

الفصل الثالث: موقف الشيخ محمد الخضر من قضية التغريب وقضية تحرير المرأة

وفيه مبحثان :

المبحث الأول: موقفه من قضية التغريب

المبحث الثاني: موقفه من قضية تحرير المرأة

الخاتمة: وتشتمل على مجمل ما احتواه البحث ، وعلى عدد من التوصيات.

منهج البحث :

سيتبع الباحث في بحثه مسلكاً يجمع بين التبع والاستقراء ، والتحليل ،

والوصف في محاولة تجمع ما بين المنهج التاريخي ، والاستقرائي ، والتحليلي ،

والوصفي.

## إجراءات البحث:

يتلخص عمل الباحث في إجراءات هذا البحث فيما يلي:

١- ترقيم الآيات القرآنية، وبيان سورها بعد ذكر الآية مباشرة في أعلى الصفحة؛ حتى لا تكثر الهوامش.

٢- تخرج الأحاديث النبوية، وبيان ما ذكره أهل الاختصاص في شأنها إن لم تكن في الصحيحين أو أحدهما؛ فإن كانت كذلك اكتفيت بالعزو إليهما أو إلى أحدهما، واكتفيت بالعزو إلى رقم الحديث إذا كان الكتاب الحديثي مرقماً؛ فأكتفي برقمه، ووضعه بين قوسين.

أما إذا كان غير مرقم فأشير إلى الجزء والصفحة إذا كان ثم أجزاء؛ هكذا على سبيل المثال: ٢٠/١، أو إلى رقم الصفحة إذا لم يكن ذا أجزاء؛ هكذا: ص ٢٠.

٣- العناية بإخراج البحث في حلة قشبية منظمة.

٤- الحرص على ترابط البحث، وتماسك أجزائه.

٥- العناية بسلامة الأسلوب، وتيسيره، وسيره على قواعد اللغة العربية،

والحرص على جعله حالاً بين حالين: بين الوحشي الغريب، والسوقي القريب.

٦- مراعاة قواعد الإملاء من علامات ترقيم ونحوها مما ييسر فهم المقصود،

ويعين على إبعاد اللبس.

٧- الترجمة للأعلام غير المشهورين ممن لهم صلة وثيقة بموضوع البحث،

وممن لم تكن لهم ترجمة في البحث؛ إذ قد يُحتاج إلى تعريف ببعض الأعلام

الوارد ذكرهم، ولكن قد يكون له تعريف في أصل البحث في موضع أو أكثر، أو

قد ترد الإشارة إلى شيء من سيرته، أو سنّه، أو تاريخ وفاته؛ فيكتفى بذلك دون أن تخصص له ترجمة في الهامش.

ولو ترجم لكل اسم أو كتاب يمر في البحث لصار أكبر مما هو عليه الآن.

٨- الاقتصار على ذكر اسم الكتاب، والمؤلف، والناشر، وتاريخ الطبعة،

ورقمها عند أول رجوع للكتاب.

وإذا كان هناك اشتباه بين الكتب، وحُشي اللبس أُعيد ذكر الكتاب والمؤلف فحسب.

أما كتب الشيخ الخضر فسيكون العزو إليها حسب ما هو موجود في موسوعة

الأعمال الكاملة له، وذلك بالعزو إلى كل كتاب على حدة.

وإذا كان العزو إلى أحد الكتب التي خرجت مفردة قبل إخراج موسوعة

الأعمال الكاملة فسيوضّح ذلك عند الرجوع إلى أي منها.

وإلا فالأصل أن المصدر الأساس لكتب الشيخ هو (موسوعة الأعمال الكاملة

للإمام محمد الخضر حسين) التي جمعها وضبطها ابن أخيه المحامي علي الرضا

الحسيني، وصدرت عن دار النوادر سوريا - لبنان - الكويت، الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

وهذه الموسوعة وضع فيها كل كتاب على حدة من جهة أن له عنواناً خاصاً،

وترقيماً خاصاً، وفهرساً خاصاً داخل الموسوعة.

كما أن الموسوعة تحمل ترقيماً تسلسلياً عاماً، إضافة إلى الترقيم الخاص لكل

كتاب؛ فإذا أُحيل إلى كتاب بعينه فسيكون العزو حسب ترقيمه الخاص، وإذا

أحيل إلى الموسوعة فسيكون العزو إليها حسب الجزء والترقيم العام.

٩- إلحاق البحث بالفهارس التي يتطلبها البحث ، من فهرس للآيات ، والأحاديث ، والأعلام المترجم لهم ، وفهرس الموضوعات.

### مصادر البحث

يمكن إجمال مصادر البحث فيما يلي :

١. تراث الشيخ محمد الخضر حسين العلمي ، ويتمثل في مؤلفاته التي جمعت في (موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين) التي صدرت عن دار النوادر ، وجاءت في خمسة عشر مجلداً؛ فهذه المجموعة تضم جميع مؤلفات الشيخ المطبوعة.
  ٢. كتب الشيخ الخضر التي خرجت مفردة في فترات متباينة ، فيفاد منها في صحيح ، أو مقابلة ، أو قد يكون في بعض مقدماتها دراسة ، أو مزيد فائدة.
  ٣. الدراسات التي كتبت عن الشيخ الخضر ، وقد مرّ ذكر لشيء منها.
  ٤. كتب السلف في العقيدة ، والأديان ، والفرق ، والمذاهب ، وكتب التراث عموماً ، وكتب السنة ، وعلوم القرآن ، وكتب التراجم ، واللغة ، والغريب ، والأدب؛ حيث يستفاد منها في المقارنة ، ودراسة بعض الألفاظ ، والمصطلحات ، والشخصيات الواردة في البحث.
  ٥. الكتب المعاصرة التي تعنى بدراسة المرحلة التي عاش فيها الشيخ الخضر ، أو تعنى بدراسة الشخصيات التي واجهها.
- فهذه -تقريباً- هي أهم مصادر البحث.
- وفي ختام هذه المقدمة لايسعني إلا أن أتوجه بأوفى الشكر وأتمه للمولى القدير على تيسيره ولطفه وإعانتته.

ثم أشكر لوالديَّ حرصهما على تعليمي ، والعناية بشأني؛ منذ نشأتي إلى أن فارقا الدنيا؛ فجزاهما الله عني خير الجزاء وأوفاه.

كما أشكر جامعة القصيم ممثلة بمعالي مديرها ، وفضيلة عميد الدراسات العليا ، وفضيلة عميد كلية الشريعة ، وفضيلة رئيس قسم العقيدة على ما بذلوه من جهد ، وتذليل للعقبات.

كما أشكر أستاذي وشيخي الأستاذ الدكتور عبدالله بن صالح المشيخ المشرف على هذه الرسالة على ما لقيته منه من تواضع ، وعلم ، وأدب ، وحرص ، ومتابعة؛ فقد أهدت من علمه ، وحلمه ، وكرمه ، وتوجيهه؛ فجزاه الله عني خير الجزاء.

كما أشكر للمناقشين الكريمين على تفضلهم بقبول المناقشة ، وهما أ.د. ناصر ابن عبدالرحمن الجديع الأستاذ بكلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ، و د. صالح بن عبدالعزيز التويجري الأستاذ المشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم.

وأشكر كل من أعان على إتمام هذا البحث بمشورة ، أو نصح ، أو فائدة ، أو مراجعة. وأخص بالشكر الأخ الأستاذ خالد بن أحمد السبت والأخ الأستاذ محمد ابن عبدالله الفايز.

والله المستعان ، وعليه التكلان ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

الزلفي : ص.ب : ٤٦٠

١٤٣٦ / ١ / ٢٠ هـ

جامعة القصيم - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية -

قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

WWW.TOISLAM.NET  
ALHAMAD@TOISLAM.NET  
@M\_ALHAMAD



## تمهيد : عصر الشيخ محمد الخضر

وفيه مدخل وثلاثة مطالب :

مدخل: مراحل حياة الشيخ محمد الخضر

المطلب الأول: حال العالم الإسلامي

المطلب الثاني: حال البلاد التونسية

المطلب الثالث: حال البلاد المصرية



## تهديد: عصر الشيخ محمد الخضر

## مدخل: مراحل حياة الشيخ الخضر

لعل من المفيد جداً لدراسة أحد من الناس أن يُنظر إلى الظروف والأحوال التي نشأ فيها؛ فذلك مما يعين على القراءة الصحيحة، والفهم السليم لآرائه، ومواقفه؛ فالبيئة، والظروف التي ينشأ فيها الإنسان لا يمكن أن تكون بمعزلٍ عن تأثيره بها، وتأثيره فيها خصوصاً إذا كان ذا مكانة علمية، أو سياسية، أو اجتماعية.

والشيخ محمد الخضر حسين جزائري الأصل، تونسي المولد والنشأة؛ فتونس مسقط رأسه، ومنشأ تعلمه وتعليمه وتربيته، والشام مهاجره، ومصر مستقر نواه.

وقد ارتأى الدارسون لسيرة الشيخ الخضر تقسيم حياته إلى ثلاث مراحل<sup>(١)</sup> :  
المرحلة الأولى: وهي المرحلة التونسية: وتخص سنوات حياته التي قضاهها في تونس منذ ولادته، وطفولته إلى تعلمه، وتعليمه.

وهي مرحلة يمكن تسميتها: بفترة التعلم والتكوين، وتمتد من سنة ١٢٩٣هـ ١٨٧٣م إلى ١٣٣١هـ ١٩١٢م وهي السنة التي غادر فيها تونس إلى بلاد المشرق العربي بعد أن طوى في تونس قسماً مهماً وثرياً من حياته.

وكانت سنّه آنذاك تقرب من الأربعين؛ حيث تكونت شخصيته العلمية، وغزرتُ معارفه؛ مما جعله يبحث عن مجالات أوسع، وآفاق أرحب.

المرحلة الثانية: حياته في البلاد السورية: وتمتاز هذه المرحلة بكثرة تنقلاته بين بلدان عربية وأوربية أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث تنقل أثناءها ما بين سوريا، والآستانة، وبرلين؛ ولذلك يمكن أن يطلق عليها مرحلة التنقل والترحال، وتمتد من سنة ١٣٣١هـ ١٩١٢م إلى ١٣٣٩هـ ١٩٢٠م وهي السنة التي غادر فيها سوريا إلى مصر.

١- انظر: محمد الخضر حسين حياته وآثاره لمحمد مواعده، الدار الحسينية للكتاب ط ٢،

المرحلة الثالثة: وهي حياته في البلاد المصرية، وتشمل حياته التي قضاها في مصر، واستقر بها نهائياً، وتمتد من سنة ١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م إلى حين وفاته سنة ١٣٧٧هـ - ١٩٢٠م.

ويمكن أن تسمى هذه المرحلة مرحلة المجد الثقافي والعلمي؛ لأنها الفترة التي برزت فيها مكانته، وتقلد أثناءها مناصب عالية، أكدت غزارة علمه، وعمق ثقافته<sup>(١)</sup>. لذا فإن دراسة عصر الشيخ ههنا ستناول حال العالم الإسلامي عموماً، وحال البلاد التونسية التي عاش فيها الشيخ زهاء أربعين عاماً، وحال البلاد المصرية التي عاش فيها ثمانية وثلاثين عاماً.

أما المرحلة الثانية فهي قصيرة بالنسبة للمرحلتين الأولى والثانية، وقد تخللها - كما مر- تنقل وترحال، كما ستأتي إشارات في البحث إلى تلك المرحلة. ولا ريب أن الفترة التي عاشها الشيخ وما سبقها من عقود شهدت أحداثاً جساماً، وتغيرات شتى تكاد تكون من أعظم ما مرَّ في الأمة عبر تاريخها.

وفيما يلي إلقاء نظرة على عصر الشيخ، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: حال العالم الإسلامي.

المطلب الثاني: حال البلاد التونسية.

المطلب الثالث: حال البلاد المصرية.

والذي يعني من ذلك ليس مجرد التأريخ لفترة مرَّت بها البلاد المذكورة. وإنما المقصود من ذلك بحث لنوعية الفترة بأحداثها، وتطوراتها؛ لِيُسْتَخْلَصَ من ذلك ما تركته تلك الأحداث والتطورات من آثار على شخصية الشيخ الخضر تأثراً، وتأثيراً<sup>(٢)</sup>.

١- انظر: محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١١ و ٥٨-٥٩.

٢- انظر: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير. هيا العلي، دار الثقافة

قطر، الدوحة، ١٩٩٤م، ص ٣٩.

## المطلب الأول: حال العالم الإسلامي

الحديث عن العالم الإسلامي في تلك الفترة يقتضي أن يكون عن الدولة العثمانية؛ إذ هي دولة الخلافة، والعالم الإسلامي آنذاك ينضوي تحت لوائها خصوصاً البلاد العربية؛ فالدولة العثمانية عندما استولت على تلك البلاد كانت قد وصلت إلى أوج قوتها، وأقصى حدود اتساعها؛ ذلك أن طور الاستيلاء والتوسع في هذه الدولة قد بلغ مدهاء في عهد السلطان العاشر سليمان القانوني، أو كما يسميه الأوربيون (سليمان العظيم)<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن الدولة العلية قد انقطعت أنفاسها عندما وصلت إلى أسوار فينّا، فلم تتوسع بعد ذلك توسعاً يُذكر.

بل بدأ الضعف يدبُّ إليها، فأخذت تتقلص، وتراجع شيئاً فشيئاً، فصارت تفقد البلاد العربية الواحدة تلو الأخرى؛ حيث استولت فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠م، واستولت إنجلترا على عدن سنة ١٨٣٩م.

وبعد نحو أربعين عاماً احتلت فرنسا تونس ١٨٨١م، واحتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢م، وبعد ثلاثة عقود استولت إيطاليا على طرابلس الغرب سنة ١٩١٢م.

وفي الأخير خرجت بقية البلاد العربية من حوزة الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى التي امتدت من عام ١٩١٤م - ١٩١٨م<sup>(٢)</sup>.

١- انظر ترجمته في تاريخ الدولة العثمانية العلية لإبراهيم حليم، مؤسسة الكتب الثقافية ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٨٧، والتاريخ الإسلامي لمحمود شاکر، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ١٠٤/٨، وموسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية ط ١٠، ١٩٩٢م، ٦٥٨/٥، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان، ترجمة نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٦٨م، ص ٤٥٠ و ٤٥٧.

٢- انظر البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، لساطع الحصري ص ٩-١٢، وموسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي ٦٩٧/٥.

وهكذا بدأت أحوال الدولة العثمانية في الاختلال شيئاً فشيئاً، وذلك منذ عهد سليمان القانوني في أواخر القرن السادس عشر الميلادي. وأول بداية ذلك الاختلال كان في نظام الانكشارية<sup>(١)</sup> الذي تحول في آخر الأمر إلى آلة فوضى وفساد<sup>(٢)</sup>.

وتبع ذلك فساد أمور الإدارة بوجه عام، وضعفت لذلك الحكومة المركزية، وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا النظام إلى نتائج سيئة؛ لأنه يفسح المجال أمام الولاة ومطامعهم؛ فالحكومة المركزية تميل أحياناً إلى استرضاء الوالي وتبقيه في منصبه تحت بعض الشروط، وتنجح أحياناً إلى الشدة، وتأمّر ولاية الولايات المجاورة بإرسال حملات عسكرية؛ لتأديبه وإخضاعه لأوامر السلطنة.

والوالي الذي ينجح في الحركة التأديبية بناء على أوامر السلطة كثيراً ما يطالب الحكومة بأن تكافئه على عمله، إما بإقطاعه بعض المقاطعات الغنية، وإما بتولية أحد أبنائه، أو أقربائه<sup>(٣)</sup>.

والوقائع التي حدثت في مصر في عهد محمد علي باشا شاهد على ذلك؛ فهي دليل

١- الانكشارية هم: جند أنشأه العثمانيون على نظام خاص، وأكثرهم نصارى من غلمان البلاد المفتوحة الذين فقدوا أهلهم؛ فرباهم الأتراك تربية إسلامية عسكرية؛ ليكونوا جنداً لهم، دون أن يكون لهم عصبية جنسية، أو دينية، وكان لهذه الفرقة تقسيم وتنظيم خاص ليس له مثيل، ولكنهم في نهاية أمرهم تمردوا، وفسدت طبيعتهم، وتغيرت أخلاقهم، وصاروا مصدر قلق، وأصبحوا يتدخلون في شؤون الدولة، وتعلقت أفئدتهم بشهوة السلطة، وانغمسوا باللذات والمحرمات، فصاروا إلى حالة من الضعف والانحطاط، فكانت نهايتهم على يد السلطان محمود الثاني عام ١٢٤١هـ. انظر مصر العثمانية لجورجي زيدان، دار الهلال، عدد ٥١٧، رجب يناير ١٩٩٤م، ص ٦٥-٦٦، والدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط د. علي الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٢- انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٣٩، والتاريخ الإسلامي لمحمود شاكر، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ١١٢/٨.

٣- انظر تاريخ مصر الحديث لجورجي زيدان، مطبعة الهلال، ط ٣، ١٩٢٥م، ص ١٦٠، والسلطان عبد الحميد الثاني د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ص ٢٤-٣٣، ومنهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة لتامر متولي، دار ماجد عسيري، المملكة العربية السعودية، جدة، ط ١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ص ٣١-٣٣.

على الحالة التي وصلت إليها الدولة العلية؛ إذ لا يمكن أن نفهم تلك الأحداث على حقيقتها ما لم تؤخذ بنظر الاعتبار حالة الدولة العلية يومئذ.

ففي منتصف القرن الثاني عشر الهجري بدايات القرن السابع عشر الميلادي كانت حالة الدولة العثمانية قد بلغت أشد حالات فسادها بينما كانت أوروبا تتقدم في كل النواحي المدنية؛ لذلك قال بعض المفكرين العثمانيين بضرورة الاستفادة من التقدم الغربي الأوروبي؛ لضمان المحافظة على وحدة الدولة العثمانية، وعلى دوامها، واستمرارها.

ومن ثم أصبحت البلاد أمام بداية حركة إصلاحية تستلهم الغرب.

وأول حركة إصلاحية بهذا المفهوم كانت في عهد السلطان أحمد الثالث<sup>(١)</sup>.

ويعد هذا العهد -بحركته الإصلاحية- ابتداء نفوذ الثقافة الغربية في الدولة العثمانية؛ حيث أخذت الدول الأوروبية تكتسب في بلاد المسلمين ميادين للعلاقات الثقافية بجانب علاقاتها السياسية بالدولة<sup>(٢)</sup>.

لذلك أخذت الدولة بإرسال السفراء إلى باريس وفيينا بقصد التعرف على أوروبا، وتوالت محاولات السلاطين الإصلاحية في الدولة العثمانية، غير أن تشخيص المرض لم يكن صحيحاً؛ فلذلك لم يكن الدواء ناجعاً؛ لقد كان تشخيص رجال الدولة للفساد الحاصل على المستوى الثقافي، والديني، والسياسي خاطئاً من الأساس؛ ذلك أن الذي ساد تصوُّره وقتها هو أن الدولة العثمانية تُهزَم في الحروب؛ فالوسيلة الوحيدة -إذاً- لإعادة البنيان تكمن في إقامة جيش قوي فحسب.

١- انظر ترجمته في: الدولة العثمانية العلية لإبراهيم حليم ص ١٥٨ ، والسلطان عبد الحميد الثاني

محمد حرب ص ١٧ .

٢- انظر السلطان عبد الحميد الثاني لمحمد حرب ص ٢٠ .

لقد قام هذا الجيش -نفسه- بالتمرد على السلطان؛ نتيجة إنشائه جيشاً قوياً جديداً على النظام الأوربي.

وبقيت أحوال الدولة هكذا تتدهور من سييء إلى أسوأ إلى أن جاء عبدالحميد الثاني، وحاول أن يصنع شيئاً آخر به سقوط الدولة ثلاثين عاماً<sup>(١)</sup>.

إن المرض الحقيقي للدولة العلية لم يكن في جيشها الضعيف، ولكن كان في الفساد العام الذي ضرب بأطنابه على الدولة في تلك الفترة.

وأعظم ذلك الفساد فساد دينها الذي دب إليه الضعف، واستشرت فيه الخرافات التي تغلغت في أرجاء الدولة حتى وصلت إلى رأس الدولة العلية.

وهذا الفساد الذي أصاب الدولة العلية سرى أثره إلى بقية العالم الإسلامي؛ فقد كان يسود العالم الإسلامي يومئذ فساد النظام، واستبداد الحكام؛ لذلك دبّت الشيخوخة في جسمه بعد أن حطّمته الحوادث، وأنهكته الفتن والكوارث، وصار المسلم يعاني الفقر والجهل والمرض؛ فحياته الاجتماعية تعسة، واقتصاده متدهور، مثقل بالديون يعاني الفوضى وسوء التدبير.

وصار فهم المسلم للإسلام منحرفاً بعيداً عن روح الإسلام الخالص، وقد شمل الانحراف العقيدة، والعبادة، والتشريع، ولم يبقَ لكثير من المسلمين من دينه سوى رسوم ليست من الإسلام في شيء.

ثم إن الحياة العلمية في البلاد الإسلامية قد بعُدت عن الابتكار، وانغلقت على نفسها، واقتصرت على حفظ بعض المتون وشرحها فحسب.

أما علوم العصر فقد خلت منها المعاهد العلمية فتحجّرت العقول، وتبدّلت الأفهام، وانتشرت الأوهام والخرافات<sup>(٢)</sup>.

١- انظر السلطان عبدالحميد الثاني لمحمد حرب ص ١٠٥، ومنهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة ص ٣٣.

٢- انظر شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره د. بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ص ٨٧، ومنهج الشيخ محمد رشيد رضا ص ٣٤.

وقد اجتمع إلى ذلك كله تضامراً القوي اليهودية، والصليبية للقضاء على الخلافة العثمانية؛ باعتبارها التجسيد الحي للأمة الإسلامية وقتذاك؛ فأخذ الغرب يقطع أجزاءها - كما مر وكما سيأتي في المطالب التالية - وصار يشعل الثورات داخل الدولة العثمانية، فحَرَضَ شعوب البلقان على الثورة منذ عام ١٨٠٤م، وأمدهم بالمساعدات حتى انفصلت عن الخلافة سنة ١٨٧٨هـ.

كما حَرَضَ اليونان على الثورة منذ عام ١٨٢٠م حتى استقلت عن تركيا عام ١٨٣٠م.

ولم يكتف الغرب بذلك، بل شجع الحركات الانفصالية داخل الدولة بين الترك والعرب، وحرك الثورة العربية بواسطة عملائه، وأثاروا فتنة القوميات والعصبيات الإقليمية بغرض التفرقة والتفتيت<sup>(١)</sup>.

ثم انتهت حركات التطويق والإغارات والتفتيت بإنهاء وجود الدولة الإسلامية في طورها الأخير - ويعنى بذلك الخلافة الإسلامية - على يد اليهودي مصطفى كمال أتاتورك.

وقد مهد لذلك السقوط ما قام به رأس الرمح الموجه للقدس بيد: ثيودور هرتزل الذي ظلَّ ست سنوات كاملات يحاول بجهد المواصل، ورجاء المتوسل الملحَّ أن يتمكن من مقابلة السلطان عبدالحميد عام ١٩٠١م ليضع خدمات اليهود في خدمة الدولة؛ تمهيداً لحصوله من السلطان على تصريح لصالح اليهود<sup>(٢)</sup>.

١- انظر الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية - دراسة حول كتاب: النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة لشيخ الإسلام مصطفى صبري - تقديم ودراسة د. مصطفى حلمي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط ٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ٢٦-٢٧، وانظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د. محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة ط ٨، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م ١٨/١-٦٢.

٢- انظر المرجع السابق ص ٢٨، وجذور البلاء لعبدالله التل، دار الإرشاد، بيروت، ط ١، ١٣٩٠هـ، ص ٦٥٠.

ومن العروض المغربية التي قدمها هرتزل للسلطان عبدالحميد ما يلي: ١. مساعدة السلطان على أسطول بحري. ٢. معاضدته في سياسته الأوربية. ٣. إنشاء جامعة عثمانية في القدس تغني عن الذهاب إلى جامعات أوربا، وبذلك لا يتعرض الطلبة للنزعات الجديدة. ٤. تحسين أوضاع السلطنة العمرانية. ٥. عقد قرض مالي؛ لتغطية تكاليف المشروعات المقررة.

كل ذلك مقابل منح اليهود حق استيطان فلسطين، وإقطاعهم جزءاً من أرضها. وقد أخفق هرتزل في إقناع السلطة؛ رغم ما اعترف به من رشوة قدمها للوزراء، وللحاشية ومن وساطات توصل بها<sup>(١)</sup>.

حينئذ أخذ هرتزل يتحين الفرص مع السعي الذي لا يهدأ، وكتب يقول: «إن الأمور تتأزم في تركيا، إذا ازداد هذا التأزم بخصوص المسألة الشرقية، وانتهى إلى حد يقضي بتقسيم تركيا في المؤتمر الأوربي فقد نتمكن من أخذ قطعة من أرض محايده لأنفسنا»<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن هذه الأرض بطبيعة الحال سوى فلسطين التي وصلوا إليها عن طريق القسطنطينية<sup>(٣)</sup>.

وكان الأخطبوط اليهودي يعمل في دأب؛ مستغلاً أحوال العالم الإسلامي المنهارة؛ ليخطوا الخطوة تلو الأخرى؛ ولهذا ترى تلاحق الأحداث، وصلتها ببعض؛ فقد انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا، برئاسة هرتزل عام ١٨٩٧م،

١- انظر جذور البلاء ص ١٥٠، وانظر القومية العربية في ضوء الإسلام، دار طيبة، الرياض، ص ١٠٢-١٠٣، وانظر تفصيل ذلك في: القول المفيد في حكم السلطان عبدالحميد، لمحمد وحيد، دار الوراق، دار النيرين، بيروت، الرياض، دمشق، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص ٢٢٧-٢٦٢، والمخططات الماسونية العالمية، د. محمد أحمد دياب، دار المنار، القاهرة، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، ص ٨٥-٨٧.

٢- انظر الأسرار الخفية ص ٢٨، وانظر لورانس العرب لزهدي الفاتح ص ٤٢، و ٤٨، و ٤٩.

٣- انظر الأسرار الخفية ص ٢٨.

وتلاه عام ١٩١٦م عقد معاهدة (سايكس بيكو) بين بريطانيا وفرنسا؛ لاقسام بلاد المسلمين التي كانت تابعة للخلافة.

وفي نفس العام قامت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين؛ للتخلص من حكم الأتراك، واستقلال البلاد العربية؛ فكانت نتيجتها وبالأعلى العرب والمسلمين.

وفي عام ١٩١٧م صدر وعد بلفور؛ ليمنح اليهود حق إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين.

وفي عام ١٩١٨م انهزمت تركيا، واحتل الإنجليز فلسطين<sup>(١)</sup>.

وهكذا تفككت أجزاء الخلافة، وتقطعت أوصالها حتى آلت إلى ما آلت إليه من الانهيار التام.

فهذه - بإيجاز - هي حال العالم الإسلامي إبان تلك الفترة، وهذه الحال ألفت بظلالها على الشيخ الخضر، فكان له مواقف ستبين في غضون هذا البحث - بإذن الله -.

١- انظر المرجع السابق ص ٢٨-٢٩، وخطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، عبد الله التل، دار القلم، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٢٣٠-٢٣١، والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/٢٨٠.

### المطلب الثاني: حال البلاد التونسية

الحديث عن تلك المرحلة من تاريخ تونس يطول، وهو ليس ببعيد في الجملة- عن حال العالم الإسلامي عموماً.

وليس من غرض الدراسة ههنا التفصيل في تاريخ تلك الحقبة، وإنما المقصود ذكر أهم الملامح في تلك الفترة.

ولا ريب أن أبرزها هو الاحتلال الفرنسي لتونس.

وقد سبق ذلك الاحتلال أحوالاً سياسية عصبية؛ فقد كانت آنذاك حالة اضطراب، وفتن؛ فالبلاد ترزح تحت وطأة الدين الخارجية، والعبث، والارتشاء، والفساد قد عمّ البلاد، وأثقل كاهل التونسيين بالضرائب.

يضاف إلى ذلك ضعف الدولة العثمانية، وشيوع الجهل، وعموم الفوضى، وسوء الحالة الاقتصادية.

ومن هنا بدأت أطماع الدول الاستعمارية تظهر بصورة سافرة.

وقد برزت دعوات إصلاحية تنادي بالنهضة الشاملة، غير أن تلك الدعوات كانت تصطدم بكثير من العقبات الداخلية والخارجية إلى أن بسط الاستعمار الفرنسي نفوذه على تونس<sup>(١)</sup>.

وكان عمرُ الشيخ محمد الخضر حسين حين اجتاحت القوات الفرنسية الأراضي

التونسية ثمان سنوات، وذلك عام ١٨٨١ م.

ثم تواصلت بعد ذلك سياسة الفرسة والإدماج القاضية بطمس معالم الهوية الإسلامية، والسيادة القومية التونسية شيئاً فشيئاً؛ لتغزو ما بقي من أنظمة الحكم، والإدارة، وتجعل أبناء البلاد يفقدون كل شيء، خصوصاً بعد أن تدفقت جموع

١- انظر مهرجان ابن عاشور لـ: بلقاسم حسن مقالات، وأبحاث، تونس ١٩٨٤م، ص ١، وانظر

الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير د. هيا العلي ص ٣٥-٣٦.

الجالية الفرنسية؛ نتيجة أخذ السلطة الاستعمارية بسياسة ترغيب الجاليات الأوربية الأخرى في اعتناق جنسيتها الفرنسية، واعتبار هذه الجالية تونس وطناً لها.

وفي الفترة من عام ١٩٢٥م - ١٩٢٦م قامت السلطات الفرنسية باتخاذ إجراءات ضد الصحافة، والحريات العامة؛ فأخمدت صوت الحزب الدستوري.

ولعل من أهم الأحداث التي مرّت بها مراحل تاريخ تونس إبّان الاحتلال الفرنسي - محاولة فرنسا إغراء التونسيين بالتجنس بالجنسية الفرنسية بعد أن استصدرت السلطات الفرنسية فتوى بأن هذا العمل لا يتعارض مع الدين الإسلامي، ثم ما تبع ذلك من وقوف الشعب لهذه المحاولات بالمرصاد، واعتباره الانتماء إلى الجنسية الفرنسية خروجاً من الدين، وتنكراً للوطن، والقومية العربية.

ولقد سبق هذه الأحداث بروز تيارين إصلاحيين في تونس؛ فكان لهما أبلغ الأثر على الحياة العلمية، والفكرية، والسياسية في تونس؛ وذلك في العشر السنوات الأولى من القرن العشرين الميلادي؛ حيث امتازت تلك الفترة بحركة ثقافية، وسياسية قوية سيطرت على الحياة الفكرية في تونس، وصهرت مختلف عناصر النخبة المثقفة الموجودة وقتئذ، سواء منها من تثقف بثقافة عربية صرفة، وهم خريجو جامع الزيتونة. أو من تثقف بثقافة مزدوجة: عربية وفرنسية، وهم خريجو المدرسة الصادقية<sup>(١)</sup>.

هذا وإن كان هدف هذه الحركة الواسعة واحداً - فإنه يمكن تقسيمها إلى تيارين - كما يقول الأستاذ محمد مواعده<sup>(٢)</sup>:

١. تيار الإصلاح الديني الاجتماعي.

٢. تيار الإصلاح السياسي.

يقول الأستاذ محمد مواعده عن التيار الأول: «أما تيار الإصلاح الديني والاجتماعي فإن جذوره تمتد إلى القرن التاسع عشر، وخاصة في الربع الأخير منه

١- انظر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير ص ٣٦-٣٧.

٢- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٤٥.

عند ظهور حركة جمال الدين الأفغاني ١٨٣٣-١٨٩٧م، وتلميذه الأستاذ الإمام محمد عبده ١٨٤٩-١٩٠٥م بالمشرق العربي، وبرز مجلة (العروة الوثقى) التي هي لسان الجمعية السرية التي تحمل نفس الاسم؛ فقد وجدت هذه الحركة الإصلاحية صدىً في كل الأوساط الثقافية، وتجاوباً تجاوز ما وجدته في مختلف بلدان العالم الإسلامي الأخرى، وذلك لوجود تيار إصلاحى قديم بالبلاد التونسية سبق انتشار حركة الأفغاني وعبده»<sup>(١)</sup>.

ويواصل الأستاذ مواعده كلامه قائلاً: «تجدر الإشارة في هذه المناسبة إلى الجهود الكبيرة التي بذلها الوزير المصلح خير الدين ت ١٨٨٩م في الميدان الاجتماعي، والسياسي، وكذلك ما بذله بعده نخبة من المثقفين اللامعين منهم محمد بيرم الخامس ١٨٤٠-١٨٨٩م، ومحمد السنوسي ١٨١٢-١٩٠٠م وخاصة الأخير الذي أصبح عضواً في جمعية (العروة الوثقى) السرية، وزعيماً للحركة الإصلاحية في تونس في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر.

وقد وقعت عدة أحداث دعمت هذا الاتجاه الإصلاحى الدينى، منها: زيارة الأستاذ الإمام محمد عبده الأولى إلى تونس، والتي دامت من ٦ ديسمبر سنة ١٨٨٤م إلى ٤ جانفي ١٨٨٥م»<sup>(٢)</sup>.

أما التيار الثاني وهو تيار الإصلاح السياسي، فيقول عنه الأستاذ مواعده: «لقد كان هذا التيار منصهراً ضمن التيار الأول، وكانت عناصره المثقفة البارزة مندجحة متعاونة مع عناصره في مختلف الجمعيات التي كانت موجودة في ذلك العهد أي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والربع الأول من القرن العشرين.

وتميز الاتجاه السياسي، وبرز رواد الحركة القومية التونسية في مرحلتها الأولى خلال سنة ١٩٠٧م وخاصة منذ تأسيس جريدة «التونسي» يوم ٧ فيفري من هذه

١- المرجع السابق ص ٤٢.

٢- المرجع السابق ص ٤٢-٤٣.

السنة وهي لسان حركة (الشباب التونسي) التي تأثرت بحركة (الشباب التركي) وحركة (الشباب الإيراني) والتي كان يقودها الزعيم علي باش حامبة ١٨٧٩-١٩١٨م ذلك لأن عناصر هذه الحركة كانت ملتفة حول جريدة (الحاضرة) ومشاركة بصورة فعالة، ونشطة في تسيير وتوجيه جمعية (الخلدونية) و (نادي قدماء الصديقة) ثم أحدثت تجمعاً مستقلاً ذا صبغة سياسية وطنية له اتجاه مضبوط، ووسيلة يعبر بها عن برامج وأفكاره في خصوص المشكلة القومية.

ولذلك نجد عنوان افتتاحية العدد الأول بجريدة (التونسي) هو (برنامجنا) الذي يمكن تلخيصه في مطلبين:

١. المشاركة (تشريك التونسيين في تسيير شؤون البلاد).

٢. المساواة بين الفرنسيين والتونسيين»<sup>(١)</sup>.

ومن خلال ما مضى يتبين أن الاحتلال الفرنسي لتونس قد احتل الصدارة في مجريات الأحداث في العصر الحديث، وأن هذا الاحتلال كان هو الجرح الغائر في جسد هذا الشعب الذي حاول بكل ما أوتي من قوة مقاومته، والتصدي له.

وأن هذا الاحتلال مجبروته وقسوته أظهر قدرة هذا الشعب على التفاني، والمقاومة، وأبرز الكثير من الأسماء اللامعة التي قامت بدور خطير في تلك الأحداث<sup>(٢)</sup>.

والذي يعنينا في هذه الدراسة هو موقف الشيخ محمد الخضر حسين من هذه الأحداث، وهل كان له إسهام فيها؟ وإن كان كذلك فما نوع هذا الإسهام؟ والإجابة عن ذلك سيكون ضمن غرضون هذا البحث، ولكن لا بأس أن يُبين شيء من ذلك هنا -على سبيل الإيجاز-.

يقول الأستاذ محمد مواعده بعد أن تكلم على التيارين: تيار الإصلاح الديني الاجتماعي، وتيار الإصلاح السياسي: «إن ما بيناه بإيجاز عن الحركة الإصلاحية الدينية والسياسية بتونس في بداية هذا القرن يوضح ما قامت به النخبة المثقفة التونسية

١- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٤٧-٤٨.

٢- انظر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير ص ٣٩.

من جهود في هذا الميدان، وما سيطر على حياتها الفكرية من مشاغل، وما كانت تتبناه من مبادئ.

وإذا كان الشيخ محمد الخضر حسين أحد أفراد هذه النخبة فما نوع مساهمته ومداهها في هذه الحركة؟<sup>(١)</sup>.

ثم يجيب الأستاذ مواعده عن هذا التساؤل قائلاً: «ينتمي الشيخ محمد الخضر إلى مجموعة المثقفين الزيتونيين - كما هو معلوم -.

ولذلك نجد مشاركته ضمن تيار الإصلاح الديني والاجتماعي كبيرة، سواء ما قام به من أعمال، وبذله من جهود في ميدان إصلاح التعليم الزيتوني، أو بتأسيسه مجلة السعادة العظمى»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن يقول: «ورغم أن موقف الشيخ محمد الخضر حسين في المجلة لم يكن هو نفس موقف المحافظين، بل قاومه البعض منهم، لكن هذا العمل يعتبر مساهمة في الحركة الفكرية تساير تيار الإصلاحيين، ولا تساند مواقفهم وآراءهم»<sup>(٣)</sup>.

والحقيقة أن موقف الشيخ الخضر لا يقتصر على ما ذكره الأستاذ محمد مواعده من مجرد كونه منتمياً إلى مجموعة المثقفين الزيتونيين، أو أن له مشاركة ضمن تيار الإصلاح الديني والاجتماعي فحسب.

بل كان له دور فاعل في مقاومة الاستعمار، وله موقف من محاولة التجنيس، ويتضح ذلك من خلال كثير من كتاباته وإسهاماته في ذلك الشأن، سواء في مرحلته التونسية، أو السورية، أو المصرية.

ومنها ما كان من مواقفه من الاستعمار الذي ضاق به ذرعاً؛ بسبب نشاطه، ومطالباته بالحرية - كما سيأتي في أبواب من هذا البحث - وقد امتد ذلك النشاط بعد مبارحته لتونس.

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٤٩ - ٥٠ .

٢ - المرجع السابق ص ٤٩ .

٣ - انظر المرجع السابق ص ٥٠ .

ومنها ما جاء في مقالة له في جريدة السياسية القاهرية العدد ٣٩٣ في ٢٥/جمادى الثانية سنة ١٣٤٢هـ، بعنوان (الحالة السياسية في تونس محاولة إدماج التونسيين في الجنسية الفرنسية).

ومما جاء فيه قوله: «رأت فرنسا كيف أنفذت بالتسلط على التونسيين كل ما تملك من قسوة، فبدا لها أن تفتح في سور سياستها الضاغطة منفذاً يردّدون منه أنفاس الحرية، ويمرقون منه إلى مستوى الكرامة عندها، فلم تسمح لها طبيعة الاستعمار لسوء حظهم- إلا بأن تخلع عليهم ثياب التجنس بالقومية الفرنسية»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال: «اشتد حق التونسيين لهذا القانون، فجاءت صحفهم طافحة باحتجاجات بالغة، ومقالات تغلي كالمراجل غيظاً وجزعاً، وتندر الشعب بما يجره ذلك القانون في أذياله من العواقب المشؤومة على حال الاجتماع والسياسة، ولكن عميد فرنسا في تونس تلقى ذلك السخط العام وشرار الشكوى المتطائر حوله بمنتهى الاستخفاف والغطرسة؛ كأنه لا يدري أن الأمة التونسية قد ارتقى بها الشعور والاعتبار بتاريخها المجيد إلى صفوف أولي العزم من الأمم، فإذا أحست مكيدة تدبر لها، أو مظلمة تحمل على عاتقها أرهفت حدّ الرأي والعزيمة، ولا تنفك تصارع من يحاول حرمانها من التمتع بما تتمتع به أمثالها من الأمم المستقلة؛ حتى تفوز بغيبتها، ويطلع فجر الحرية الصادقة في أفق سياستها.

ومن شاء أن يقضي العجب فليقضه من جواب ذلك العميد إذ تظاهر بالعجب من هذه الثورة الفكرية المزعجة، قائلاً: إن فرنسا لم تضع هذا القانون على وجه الإكراه، وللتونسي الذي يراه مخالفاً لدينه أن يحتفظ بقوميته»<sup>(٢)</sup>.

ثم حذر الشيخ الخضر من عاقبة ذلك الإدماج، واعتبر بما كان للجزائر من جرائه، وقال بعد ذلك: «لقد كان في قصص هؤلاء المتفرنسين عبرة لأولي الألباب من التونسيين، وهي ما جعلتهم يحذرون من أن تمسخ نفوس منهم، وتصير بطبيعة

١- الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٥٨.

٢- المرجع السابق ص ٥٨.

التجنس الفرنسي كالحوافي، بل القوادم للسلطة المستعمرة، فيزداد الشعب من بلائهم حقناً على حنق، وربما عجل به ذلك الحنق المتراكم إلى أن تنقلب أناته عزماً نافذاً، وأنفاسه المكتومة شرراً متصاعداً، فَيُنْحَلَّ وكاءُ فتنةٍ تفشل يد القوة الحاكمة عن وقف سيلها الجارف، وإعادة الراحة إلى قرارها المكين.

فإذا عمي على فرنسا سوء طالع هذا القانون، وأصررت على نفاذه؛ بالرغم من احتجاجات الأمة، ومظاهر استيائها الأليم - فقد بقي في يد زعمائها سبل لعلاج هذا الداء الفاتك، لا تستطيع أية قوة تسدها في وجوههم، ومن بين هذه السبل: تلقين الشعب واجباته الإسلامية الاجتماعية، وجعله على بصيرة من أن مقتضى التجنس بالقومية الفرنسية أن يقاتل تحت راية فرنسا، وإن كانت هاجمة على جماعة من إخوانه لغة وديناً، وهم في عقر دارهم آمنين.

ولا جرم أن الانضمام إلى صفوف المخالفين - إذا اشتبكوا في حرب مع المسلمين - نزول إلى حضيض الارتداد على الإسلام، ونكت لليد من عروته الوثقى»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال: «فامتشاق الطائفة المتنورة عزماً لا يُغمد، وإشراهم في قلوب الوطنيين كراهة الانسلاخ عن الوطنية، والاندماج في قومية المستعمر - مما يقتل عنق ذلك القانون، ويجعله كالمرقوم على صحيفة غدير ماء تحفق عليه أرواح عاصفة.

وليس لفرنسا وقتئذ إلا أن تعض سياستها ندماً على وضع قانون تعدي به على مملكة مستقلة، ولم تجن منه ثمرة، بل غرست به أضغاناً بالقلوب، ومخازي في صحف التاريخ، وليست الأضغان في قلوب الرجال الناهضين إلا شراراً لا يلبث أن يتأجج، ويندلج منه لهيب فتنة شعواء»<sup>(٢)</sup>.

فهذا - بإيجاز - هو حال البلدان التونسية في أواخر القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، وشيء من تأثير الشيخ الخضر به، وتأثيره فيه.

١- الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٦٠.

٢- المرجع السابق ص ٦٠-٦١.

## المطلب الثالث: حال البلاد المصرية

الحالة السياسية والاجتماعية، والعلمية، والدينية في مصر في أواخر القرن التاسع عشر الهجري، وبداية القرن العشرين الميلادي كانت مسبوقه بأحوال كانت إرهاباً لتلك الحالة.

ولعل أبرز ما في ذلك ما كان من شأن الحملة الفرنسية على مصر؛ فلقد هبّت مصر من سيئاتها فزعة مذعورة حين دوت في آفاقها مدافع نابليون سنة ١٧٩٨م، وأخذت تُقلّب الطرف دهشة في هذه الجيوش العجيبة، والوجوه الغريبة؛ فكان أول عهد لها بالإفرنج بعد عصر صلاح الدين الأيوبي.

ولكن شتان بين العهدين؛ ففي الأول كانت قوة عزيزة لا تزال فيها أثاره من علم وأدب، وكانت أوروبا لا تزال تتحسس طريقها نحو النور<sup>(١)</sup>.

لقد اصطحب نابليون معه كلَّ عُدَدِ الاستعمار، والاستغلال، والإيقاظ. وكانت دهشة المصريين جدُّ عظيمة مما رأوا من مظاهر هذه المدنية الجديدة؛ إذ أنشأ نابليون مسرحاً للتمثيل كانوا يمثلون فيه رواية فرنسية كل عشر ليال، ومدارس لأولاد الفرنسيين، وجريدتين، ومصانع، ومعملاً للورق، وأسس مراصد فلكية، وأماكن للأبحاث الرياضية، والنقش والتصوير في حي الناصرية، كما أسس مكتبة عامة جُمِعَتْ كُتُبها من بعض المساجد والأضرحة، وفيها كثير من الكتب الفرنسية التي أحضرتها الحملة معها.

كما أنشأ المجمع العلمي المصري على نظام المجمع العلمي الفرنسي. وقد بذل الفرنسيون غاية جهدهم في تقريب المصريين إليهم، وترغيبهم في أسباب الحضارة.

١- انظر في الأدب الحديث لعمر الدسوقي، دار الفكر، ط ٨، ١٩٧٣م، ٢١/١.

لقد كانت حملة نابليون هزة عنيفة لمصر أيقظتها من سباتها الطويل. ولقد نظم نابليون شؤون مصر الداخلية تنظيماً حسناً يشهد له بالنبوغ الإداري فوق نبوغه الحربي على الرغم من قصر المدة التي أقامها بمصر حيث ذهب عام ١٨٠١م

بيد أن شراسة رجال الحملة، واستخفافهم بالشعب المصري، ودينه، وتقاليده، وانتهاكهم حرمة الأهالي جهاراً، ونهبهم القرى الآمنة، وإفزاز أهلها، وفرض الضرائب على الأوقاف الخيرية التي كان يصرف ريعها على المساجد، وطلاب العلم، وفرضها كذلك على المساجد - كل ذلك جعل قلوب المصريين تنفر من نابليون وإصلاحاته وعلمه، وتتنظر إليه نظر الناهب المستبد؛ فثاروا في أكتوبر سنة ١٧٩٨م، فأخذ ثورتهم في قسوة عارمة، وانتهك حرمة المساجد.

ثم حاول عبثاً بعد ذلك أن يتألف قلوبهم، أو يستميلهم إلى المدينة الغربية، وإن كلفوا بها بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر، واتخذوا ما وضعه لهم أساساً للإصلاح الداخلي<sup>(١)</sup>.

ثم أتاحت الفرصة لمصر كي تنهض، وتنبوأ مركزها بين أمم العالم باستيلاء محمد علي على عرش مصر؛ حيث هبط أرضها مع الجيوش الإنجليزية، والتركية التي حشدت لمنازلة نابليون، وإخراجه من مصر.

لقد كان محمد علي جندياً ألبانياً عسكرياً بحتاً، وكان أمياً لا يحسن الكتابة<sup>(٢)</sup>. وقد أعجب منذ نعومة أظفاره بأوروبا، وخاصة فرنسا أيما إعجاب، وحاول أن ينشئ دولة قوية خالصة لنفسه وذريته من بعده، فأفادت منه مصر، وإن كان قد

١- انظر الأدب الحديث ٢٤/١، وسموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، أنور الجندي، دار الجليل، بيروت، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٥٠-٥١.

٢- انظر مصر الحديثة لجورجي زيدان ص ١٩٩، والإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي، لجنة التأليف والنشر، ط ٣، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٣٧٣.

حكمها حكماً استبدادياً.

وكان محمد علي طموحاً يريد أن يرى مصر في أسرع وقت لا تقل في حضارتها وقوتها عن دول أوربا؛ فوضع أسس نهضة شاملة: في الجيش، والصناعة، والزراعة، والتعليم، والإدارة؛ حتى يكون البحث عاماً يدفع بعضه بعضاً، ووجد أن خير وسيلة تنهض بالشعب المصري الاهتمام بالتعليم؛ فسلك في سبيل تعليم الشعب كافة الطرق من بعثات، وطباعة، وفتح مدارس، وتأسيس صحافة، ونقل آثار الأمم الغربية في العلوم والآداب<sup>(١)</sup>.

ولهذا تعد مصر الحديثة ابنة محمد علي وأسرته.

وقد عاش الشيخ محمد الخضر حسين أطول فترات مكثه في مصر تحت ظل حكم تلك الأسرة، إلى أن قامت الثورة المصرية.

وما من ريب أن لتلك الموجة التي ركبها محمد علي وأولاده من بعده من استلهاهم الحضارة الغربية في سبيل الإصلاح والبناء، وما ابتعثوه من بعثات، وما استقدموه من رجال يحملون آراء بلدانهم؛ لينشروها في بلاد المسلمين، وينظر إليهم نظرةً المنقذ للبلاد، الساعي إلى نهضتها - لا ريب أن لهذا كله أبلغ الأثر في نشوء حالة جديدة، وأفكار لم تعهدها بلاد المسلمين<sup>(٢)</sup>.

يضاف إلى ذلك ما كان في تلك البلاد من بدع، وخرافات، وعقائد باطلة تنخر في جسد الأمة، وتمزق أوصالها.

١- انظر تفصيل ذلك في الأدب الحديث ١/٢٤١-٣٠، ومصر الحديثة لجورجي زيدان ص ١٦٨-١٩٧، والانحرافات العقيدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارها في حياة الأمة، لعلي بن بحيت الزهراني، دار الرسالة للنشر والتوزيع، مكة، ص ١٦٠-١٧٩.

٢- انظر الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين، المكتب الإسلامي، ط ١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ص ١٢-١٥، ومنهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة ص ٥١، والدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ص ٣٧٢-٣٨٢.

ولقد ظهر على الساحة في ذلك الوقت أفكار، ورؤى لم تكن موجودة من قبل؛ فمن ذلك أن عقلية الإلحاد انتقلت من أوروبا إلى مصر؛ ذلك أن الأوربيين في العصر الحديث صار لهم قوة وغلبة على أمم العالم، وقد كانوا من قبل قد اعتنقوا المسيحية الجديدة.

وبعد اطلاعهم على نتائج بحوثهم الحديثة، ورقيهم في الصناعات، واطلاعهم على موقف الكنيسة من هذا التقدم بدا لعقلائهم أن دينهم الذي اعتنقوه لا يتفق مع العلم والعقل، ثم طردوا هذه النتيجة على كل دين؛ فحدثت القطيعة بين العلم والكنيسة؛ فكان ذلك منشأ الإلحاد في أوروبا، وانتقل إلى مصر من خلال الغزاة المستعمرين، أو الذين ابتعثوا إلى أوروبا متعلمين<sup>(١)</sup>.

لذا فشت عقلية الإلحاد بين المتعلمين المصريين في المدارس الجديدة التي لم يكن فيها صبغة دينية<sup>(٢)</sup>.

ولم يتوقف الأمر عند مسألة الإلحاد التي تعد نقضاً لأصول الدين، بل تعدى ذلك إلى مسائل أخرى؛ حيث نادى جماعة من المتعلمين على الطريقة الحديثة بطرح الفروع الفقهية بدعوى عدم مناسبتها للحالة العصرية؛ فظهر حول حجاب المرأة كتابان لقاسم أمين<sup>(٣)</sup> هما (تحرير المرأة) و (المرأة الحديثة)<sup>(٤)</sup>.

١- انظر موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ١٦٦/١ و ٢١٦ .

٢- انظر الإسلام والحضارة الغربية ١١-١٢ .

٣- هو قاسم بن محمد أمين المصري، ١٢٧٩هـ-١٣٢٦هـ، ١٨٦٣م-١٩٠٨م.

كردي الأصل، ولد ببلدة طره بمصر، وانتقل مع أبيه إلى الإسكندرية، فنشأ بها، وتعلم، ثم بالقاهرة، وأكمل دراسة الحقوق في دمويليه بفرنسا، وعاد إلى مصر سنة ١٨٨٥م، وتوفي في القاهرة، له كتابا: (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) وكان لصدورها دوي. انظر الأعلام للزركلي ط ١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ١٨٤/٥، وانظر الاتجاهات الوطنية ١١١/١ و ٢٩٣-٣١١، و ٢٤٨-٢٥٥ .

٤- سيأتي الحديث عن هذه المسألة في الباب الخامس عند الحديث عن موقف الشيخ الخضر من قضية

تحرير المرأة .

كما ظهرت دعوات لنبد الحكم بما أنزل الله، والمطالبة بالعلمانية، وأبرز ما كتب في ذلك كتاب الشيخ علي عبدالرازق<sup>(١)</sup> (الإسلام وأصول الحكم)<sup>(٢)</sup>. وشاع في ذلك الوقت الطعن في الشريعة الإسلامية، واعتقاد عدم صلاحيتها لهذا الوقت<sup>(٣)</sup>، وشاع الانحراف في تأويل القرآن الكريم، والطعن في مقام النبوة، وفي السنة النبوية<sup>(٤)</sup>، كما ظهرت دعوات كثيرة تناقض الإسلام كدعوات التنصير<sup>(٥)</sup>، والدعوة إلى اعتناق المذاهب الهدامة كالدعوة إلى البابية والبهائية<sup>(٦)</sup> والقاديانية<sup>(٧)</sup> ونحوها.

كما شاع في ذلك دعوات تنادي بالتغريب<sup>(٨)</sup>، وتطعن باللغة العربية، وتنادي

- 
- ١- هو علي بن حسن بن أحمد عبد الرازق ١٣٠٥هـ - ١٣٨٦هـ، ١٨٨٨م - ١٩٦٦م، ولد بـ: أبي جرج من أعمال المنيا، وتعلم في الأزهر، ثم أكسفورد، ألف كتاب (الإسلام وأصول الحكم) وأثار ضجة كبيرة، وسحبت منه شهادة الأزهر، وانصرف إلى المحاماة، وانتخب عضواً في مجلس النواب؛ لمجلس الشيوخ، وعين وزيراً للأوقاف، وسيأتي مزيد بيان لسيرته، والمعارك التي واجهها. انظر الأعلام ٣٢٥/٦، ومن أعلام العصر د. محمد رجب البيومي الدار المصرية اللبنانية ط ١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص ٣١١-٣٠٥.
  - ٢- انظر رسائل الإصلاح للإمام محمد الخضر حسين ١٨٤، والهداية الإسلامية ص ٢٠٤، وكتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ١٠١.
  - ٣- انظر الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ٧.
  - ٤- انظر دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٢١، والشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ٧٩، و ص ١٣٩.
  - ٥- انظر رسائل الإصلاح ص ١٨١، والهداية الإسلامية ص ١٧٨-٢١٦، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٩٦.
  - ٦- انظر دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٨٠١-٨٠٢، ورسائل الإصلاح ص ١١٧، والقاديانية والبهائية ص ٦٨-٨٨.
  - ٧- انظر بلاغة القرآن ص ٢٦٧-٢٧١، والقاديانية والبهائية ص ٥-٦٧، وكتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ٢٠٤.
  - ٨- انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٨١، و ص ٩٨.

باستعمال اللهجات العامية<sup>(١)</sup>، زيادة على ذلك ما كان من استثناء البدع، والانحرافات التي كانت فاشية في أكثر مجتمعات المسلمين<sup>(٢)</sup>. ولقد بدا جلياً أثر ذلك على الشيخ محمد الخضر حسين الذي كان ينظر في تلك الأحوال، ويواجهها بما أوتي من وسائل، وقوة - كما ستبين في غضون هذا البحث..

فهذه - بإيجاز - هي حال العصر الذي عاش فيه الشيخ الخضر.

١- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٤٢، ودراسات في اللغة العربية للشيخ محمد الخضر حسين.

٢- انظر أسرار التنزيل ص ٤٥، و ص ٣٦٦، وبلاغة القرآن ص ٦٣٧، والانحرافات العقدية في القرنين

الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ص ٢٦٩-٤٢٧.

الباب الأول: الشيخ محمد الخضر: حياته ومؤلفاته

وفيه فصلان:

الفصل الأول: حياة الشيخ محمد الخضر

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نشأته

المبحث الثاني: أعماله

المبحث الثالث: أخلاقه وصفاته

الفصل الثاني: مؤلفات الشيخ محمد الخضر

وتحته: تمهيد: ملحوظات حول علميته ومؤلفاته

-مؤلفاته: عرض وتعريف ودراسة



### الفصل الأول: حياة الشيخ محمد الغزير

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نشأته

المبحث الثاني: أعماله

المبحث الثالث: أخلاقه وصفاته



## الفصل الأول: حياة الشيخ محمد الخضر

## المبحث الأول: نشأته

المطلب الأول: اسمه ومولده ونسبه

أولاً: اسمه: أما اسمه الذي اشتهر به فهو محمد الخضر حسين، وهو المعروف في الأوساط العلمية والثقافية<sup>(١)</sup>. وهو الاسم المعروف المشهور الذي ارتضاه، وكان يمضي رسائله، ومقالاته، ومؤلفاته به.

وهو الاسم الذي عرّفه الناس به، ولم يختلف فيه أحدٌ ممن ترجم له<sup>(٢)</sup>. أما اسمه الأصلي الذي سمي به فهو محمد الأخضر بن الحسين. وقد اختلف مَنْ ترجم له في سبب إبدال الأخضر بالخضر، يقول الأستاذ محمد مواعده: «أبدلت كلمة الأخضر بالخضر منذ طفولته، وأظن أن سبب ذلك رغبة في اختصار الاسم»<sup>(٣)</sup>.

وقد يكون سمي بذلك تيمناً بالخضر -عليه السلام-<sup>(٤)</sup>. وقد أشار الأستاذ مواعده -أيضاً- أن كلمة ابن حُذِفَ بعد سفره إلى المشرق العربي؛ مسaire للطريقة الشرقية في التسمية، مثل: عباس محمود العقاد، وطه حسين<sup>(٥)</sup>،<sup>(٦)</sup>.

- ١- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٣. وانظر التراجم له في كتاب محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٣١، و ص ٥١، و ص ٨١.
- ٢- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٣.
- ٣- انظر المرجع السابق ص ١٣.
- ٤- أشار إلى ذلك -أيضاً- الأستاذ محمد مواعده: انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٣.
- ٥- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٣.
- ٦- هو طه بن حسين بن علي بن سلامة الدكتور في الأدب، ولد في قرية الكيلو في محافظة المنيا بالصعيد المصري عام ١٣٠٧هـ/١٩٨٩م، وتوفي ١٣٩٣-١٩٧٣م، أصيب بالجدري في الثالثة من عمره فكف بصره، وبدأ حياته في الأزهر ١٩٠٢م، ثم بالجامعة المصرية القديمة. ونال شهادة الدكتوراه في كتابه (ذكرى أبي العلاء) وسافر في بعثة إلى باريس، فتخرج بالسوريون عام ١٩١٨م. وعاد إلى مصر. وعين محاضراً في كلية الآداب بجامعة القاهرة، ثم عميداً للكلية، فوزيراً للمعارف. له كتب منها (حديث الأربعة) و (في الشعر الجاهلي) وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبرى، وسيأتي مزيد حديث عنه. انظر الأعلام ٢٣١/٣ والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٣١٢/١ و ٢٦/٢ و ١٧٢ و ٢٩٦.

وهناك رأي حول إبدال اسمه؛ حيث يقول الأستاذ كمال العريف: «وقد أبدل اسمه فيما بعد إلى محمد الخضر حسين بناءً على اقتراح الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور»<sup>(١)</sup>.  
ثانياً: مولده: ولد الشيخ محمد الخضر رحمته الله في مدينة نفطة من مقاطعة الجريد بتونس. وكانت ولادته في ٢٦ / رجب / ١٢٩٣ هـ على أصح الأقوال؛ حيث إن ذلك التاريخ المذكور في ترجمة أحمد تيمور باشا<sup>(٢)</sup> للخضر؛ حيث ترجم له تيمور في كتاب أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث<sup>(٣)</sup>.

ويظهر أن الشيخ الخضر هو الذي كتب هذه الترجمة التي ذكر فيها التاريخ الآنف، وأعطاهما صديق عمره أحمد تيمور باشا، المتوفى سنة ١٣٤٨ هـ، والذي أوصى الخضر أن يدفن بجواره، فدفن بجواره. وهذا ما يؤكد ويرجح أنه ولد في ذلك التاريخ<sup>(٤)</sup>.

وكما اختلف في عام ميلاده اختلف كذلك في يوم ميلاده، فقيل: ولد في ٢٩ / رجب / ١٢٩٣ هـ، وقيل: في ٢٦ / رجب، وقيل: ٢٧ / رجب، ولعل الأقرب أنه ولد في ٢٦ / رجب / ١٢٩٣ هـ<sup>(٥)</sup>.

١- انظر الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر ٢٠٢.

٢- هو أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور، ١٢٨٨-١٣٤٨ هـ / ١٨٧١-١٩٣٠ م.

عالم بالأدب، باحث، ومؤرخ مصري من أعضاء المجمع العلمي العربي، مولده ووفاته بالقاهرة من بيت فضل ووجاهة، كردي الأصل، مات أبوه وعمره ثلاثة أشهر، فربته أخته عائشة، وسمي حينه (أحمد توفيق) ودُعي في طفولته بتوفيق، ثم اقتصروا على أحمد، واشتهر بأحمد تيمور، وتلقى العلوم في مدرسة فرنسية، وأخذ الأدب من علماء عصره، وجمع مكتبة قيمة، وكان رضي النفس. كريماً، متواضعاً، توفيت زوجته وهو في التاسعة والعشرين من عمره، ولم يتزوج بعدها؛ مخافة أن تسيء الثانية لأولاده، وانقطع إلى خزنة كتبه يتقب فيها، ويعلق، ويفهرس إلى أن أصيب بفقد ابن له اسمه محمد سنة ١٣٤٠، فجزع. ولازمته أزمة قلبية انتهت بوفاته، وتألقت بعد وفاته لجنة لنشر مؤلفاته. ومن كتبه: (التصوير عند العرب) و (تصحيح لسان العرب) و (تصحيح القاموس المحيط) و (لعب العرب). انظر تراجم الرجال ص ١٢٤-١٣١. والأعلام ١/١٠٠.

٣- انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ٣٠٥.

٤- انظر الشيخ محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٣-١٤، وكتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ١٩٠.

٥- انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٣٣، ومحمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٣-١٤.

ثالثاً: نسبه: أما نسبه فهو محمد الخضر بن الحسين بن علي بن أحمد بن عمر ابن الموفق بن محمد بن أحمد بن علي بن عثمان بن يوسف بن عمران بن يوسف ابن عبدالرحمن بن سليمان بن أحمد بن علي بن أبي القاسم بن علي بن أحمد بن حسن ابن سعد بن يحيى بن محمد بن يونس بن لقمان بن علي بن مهدي بن صفوان بن يسار ابن موسى بن عيسى بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبدالله الكامل ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

أما أبوه فهو الحسين بن علي من مردي الشيخ مصطفى بن عزوز صاحب الطريقة الرحمانية.

وجده للأب الشيخ علي بن عمر، وهو من العلماء، وأصله من عائلة العمري من قرية (طولقة) وهي واحة من واحات الجنوب الجزائري<sup>(٢)</sup>.

أما أمه فهي السيدة الصالحة حليلة السعدية بنت الشيخ مصطفى بن عزوز، وهي من الشهيرات بالتقى، والعلم والصلاح، ولدت في تونس سنة ١٢٧٠هـ، وتوفيت بدمشق سنة ١٣٣٥هـ، فرثاها ابنها الشيخ محمد الخضر بقصيدة عنوانها (بكاء على قبر) وتقع في ثلاثة وعشرين بيتاً، ومما قاله فيها:

قَطُبَ الدَّهْرُ فَا بَدَيْتُ ابْتِسَامَا      وَا نْتَضَى الْخَطْبُ فَمَا قَلَّتْ سَلَامَا  
إلى أن قال:

أَفَلَا يَبْكِي الْفَتَى نَازِحَةً      سَهَرَتْ مِنْ أَجْلِهِ اللَّيْلُ وَنَامَا  
وَأَنْتِ شَتَّتِ تَرَشُّفَهُ مِنْ أَدَبٍ      مُذْ لَهَا عَنِ لَبِنِ الثَّدِيِّ فِطَامَا  
بُنْتُ عَزْرُوزَ لَقَدْ لَقَنْتِنَا      خَشِيَةَ اللَّهِ وَأَنْ نَرَعِيَ الدَّمَامَا  
وَدَرِينَا مِنْكَ أَلَا نَشْتَرِي      بِمَعَالِينَا مِنَ الدُّنْيَا حَطَامَا

١- انظر سلسلة ذلك النسب وعموده، وشهوده في كتاب كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ص ١٣-٢٤.

٢- انظر محمد الخضر حسين حياته وأثاره ص ١٣-١٤.

ودرينا منك أن الله لا يخذل العبد إذا العبد استقاماً  
 ودرينا كيف لا نعنوا لمن حارب الحق وإن سل الحساما  
 إلى أن قال في آخرها:  
 فادخلي في سلف قُمتِ على هديه الحق وأحسنت القياما  
 واسعدي نُزلاً إلى الملقى إلى يوم لا نخشى على الأُنس انصراما<sup>(١)</sup>

وأما جده للأُم فهو الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز، وأصله من قرية تسمى البرج من قرى وادي سوف بواحات الجنوب الجزائري. وقد استقر ببلدة نفطة التونسية سنة ١٢٥٧هـ، وأحدث بها مدرسته الحافلة، وأنشأ بها بيوتاً لسكن المنقطعين لقراءة القرآن، وتعلّم العلم، وحشد لها العلماء الأعلام من كل جهة؛ ليدرسوا فيها فنون العلم على اختلاف مشاربها. وكانت شهرة الشيخ مصطفى العلمية والدينية تملأ الأصقاع، كما كانت له مكانة عالية لدى السلطة الحاكمة، خاصة لدى الباي محمد الصادق الذي كانت مدة ولايته مابين ١٨٥٩م - ١٨٨٢م<sup>(٢)</sup>.

أما خال الشيخ محمد الخضر حسين فهو الشيخ العلامة محمد المكي بن عزوز ذو الشهرة الواسعة في تونس، والجزائر، وفي الآستانة. وقد انتخب في عهد الوزير خير الدين باشا لِحُطَّة الإفتاء ببلدة نفطة، وهو في عهد الشباب؛ ثم انتقل إلى تونس للتدريس بجامعة الزيتونة، ثم ارتحل إلى دار الخلافة بتركيا، واستقر بالآستانة إلى نهاية حياته، ونال شهرة علمية عالمية؛ فهو من كبار علماء عصره؛ حيث اشتهر بالحديث، والفقه، والأصول، والأدب،

١- انظر ديوانه: خواطر الحياة ٢٢٣-٢٢٥.

٢- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٥-١٦، وكتاب الإرث الفكري للإمام محمد الخضر

مع الصلاح الظاهر، والتجرد لطلب الحق<sup>(١)</sup>.

وكان من أكثر الناس أثراً على الشيخ الخضر، وأمنّهم عليه في العلم<sup>(٢)</sup>.  
وقد توفي العلامة محمد المكي بن عزوز في الآستانة سنة ١٣٣٤هـ، وورثاه  
الشيخ محمد الخضر بقصيدة عنوانها (ههنا شمس علوم).

وقد قالها بعد عودته من ألمانيا إلى الآستانة بعد وفاة خاله بشهرين، فزار قبره،  
ورثاه بهذه القصيدة التي يقول طالعتها:

رباً شمس طلعت في مغرب وتواری في شرق سناها

ههنا شمس علوم غربت بعد أن أبلت بترشيش ضحاها<sup>(٣)</sup>

وكان للشيخ أربعة إخوة، وثلاث أخوات.

أما الإخوة فهم الشيخ محمد الجنيدي، وهو أكبرهم سناً، وقد عاد إلى  
تونس، ثم الجزائر، ودفن في مدينة طولقة.

ويليه الشيخ محمد الخضر، ويليه الشيخ محمد العروسي، وقد توفي بدمشق،  
ويليه العلامة اللغوي محمد المكي بن الحسين الذي عاد من دمشق إلى تونس،  
ودفن فيها، ويليه العلامة اللغوي الشيخ زين العابدين الذي دفن في دمشق.

وأما الأخوات فهن زبيدة، وميمونة، وفاطمة الزهراء، وقد دُفِنَ في دمشق<sup>(٤)</sup>.

١- يشهد له بتجرده، وطلبه الحق ما جاء في المكاتبات بين العلامتين القاسمي والألوسي؛ حيث أثبتنا  
عليه، وذكرنا شيئاً من تجرده، وصدقه، وفضله، ورجوعه إلى مذهب السلف بعد أن تبين له الحق، وكذلك  
إنصافه لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتبته عما يثار حولها من الأكاذيب. انظر تفصيل ذلك في  
كتاب: الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الألوسي جمع وتحقيق الشيخ محمد ابن  
ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ١٠١-١١٧.

٢- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٧-١٨، والإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين  
٣٠٦.

٣- ترشيش: اسم قديم من أسماء تونس. انظر ديوان: خواطر الحياة ص ٢٥٨.

٤- انظر كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ١٨٣، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين ص ٣٤.

وقد كانت دمشق مهاجر الأسرة المكونة من ثلاثين فرداً ما بين شيوخ وأطفال، تتقدمهم والددة الشيخ الخضر السيدة حليلة السعدية، وذلك عام ١٩١٣هـ. وسبب الهجرة -كما يقول الأستاذ علي الرضا الحسيني- رغبة الإمام في الانتقال إلى الشرق بعد أن ضاق عليه الخناق في تونس، وملاحقة السلطات الاستعمارية له، وحيث مجال عمله هناك أوسع نطاقاً. وسبب آخر هو نظرة المغاربة إلى بلاد الشام؛ حيث يدعونها (الشام الشريف)<sup>(١)</sup>.

١- انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٣٥.

## المطلب الثاني: تلقيه العلم

نشأ الشيخ محمد الخضر حسين في كنف تلك العائلة الكريمة، وهي عائلة علم وثقافة، ودين وأدب - كما مرَّ ذلك قبل قليل -.

وكانت بلدته نفطة ذات واحات النخيل الجميلة الفيحاء، والمياه المتدفقة الصافية في ذلك العهد - مقراً للعلم والعلماء؛ فكانت تُلقَّب بالكوفة الصغرى؛ تشبيهاً بمدينة الكوفة المركز العلمي الشهير بالعراق؛ لما كانت تعج به من فرق مختلفة، ومن حلقات العلم، والتدريس والمناظرة<sup>(١)</sup>.

ويوجد بهذه البلدة - نفطة - عدد كبير من الجوامع والمساجد يتجاوز الأربعين، وكان أغلبها مواطن علم يُتلى فيها كتاب الله، وتُلقى دروس الفقه، والحديث، واللغة، والأدب، ويجتمع فيها العلماء للتباحث والمناظرة.

وكان يسكن في البيوت التي تحيط بالمساجد طلاب العلم الذين كانوا يتوافدون من الجزائر خاصة، ومن عدد من أنحاء البلاد التونسية؛ للتحصيل والدرس.

ولم يكن الطالب القادم يخشى الحاجة المادية؛ إذ كان يتكفل بمساعدته عائلة من العائلات المجاورة للجامع إذا لم يكن لهذا الجامع أوقاف يُنْفَق منها على الطلاب. وكان كل ذلك حباً في العلم، وتشجيعاً على التعلم<sup>(٢)</sup>.

وكانت برامج الدراسة تتمثل في حفظ القرآن الكريم، ومتون اللغة، والفقه، وفي حضور حلقات الدرس التي كانت تُنظَّم في الفقه، والتوحيد، والنحو، والصرف، والحديث.

وكانت بلدة نفطة منطقة واحات يعيش أهلها حياة الفلاحة، لكن صاحب الجاه، والحظوة لم يكن الفلاح الذي يمتلك الأراضي الشاسعة، بل إن رجل العلم

١- انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٣٣، ومحمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٨.

٢- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٨-١٩.

هو الذي يحتل تلك المكانة؛ فقد كان صاحب الكلمة المسموعة، والرأي الراجح<sup>(١)</sup>. ولقد تربى الشيخ الخضر في هذه البيئة العامة التي يسيطر عليها العلم، وتغمرها الثقافة والأدب، ويحيط بها الوازع الديني الإيماني من كل جانب. كما تربى في تلك البئية العائلية -عائلة ابن عزوز- التي اشتهرت -كما مر- بالعلم، والثقافة، والأدب إلى جانب السياسة والجهاد<sup>(٢)</sup>.

وقد أشار الشيخ محمد الخضر إلى تأثيره بالإطار الأدبي الذي كان موجوداً في نفطة مدة طفولته؛ فقال في مقدمة ديوانه الشعري خواطر الحياة: «نشأت في بلدة الجريد بالقطر التونسي، يقال لها نفطة، وكان للأدب المنظوم والمثور في هذه البلدة نعمات تهب في مجالس علمائها، وكان من حولي من أقاربي وغيرهم من يقول الشعر، فتذوقت طعم الأدب من أول نشأتي، وحاولت في سن الثانية عشرة نظم الشعر»<sup>(٣)</sup>.

ولا ريب أن من يأتي على رأس أولئك العلماء الأدباء أستاذه وخاله العلامة محمد المكي بن عزوز الذي كان مهتماً به اهتماماً خاصاً، ويرعاه رعاية كاملة. وفي هذا الوسط العائلي تُلقن الأم أبناءها علوم الشريعة، واللغة، وتحرك أشواقهم بالحديث عن الأزهر الذي كان محط الأنظار، ومظهر الإعجاب. ومن غرائب ما يمر بالناظر في سيرة الشيخ الخضر -كما روى الشيخ وروى بعض أقاربه- أن أمه حليلة السعدية بنت الشيخ مصطفى بن عزوز كانت تُرقّصه وهو صغير، وتداعبه بقولها:

إن شاء الله يا أخضر تكبر وتروح الأزهر

١- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٩، والإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ٤٠.

٢- انظر الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ٣٩.

٣- انظر خواطر الحياة ص ٧.

وبعد ما يقرب من ثمان وسبعين سنة وفي شهر المحرم من سنة ١٣٧٢ هـ يصبح ذلك الوليد التونسي إماماً للجامع الأزهر!!<sup>(١)</sup>.

وهكذا تربي الشيخ الخضر في هذه البيئة العلمية الأدبية؛ فحفظ القرآن الكريم على مؤدبه الخاص الشيخ عبدالحفيظ اللموشي، ودرس بعض العلوم الدينية واللغوية على عدد من العلماء، وعلى رأسهم خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز. ولما بلغ الشيخ السنة الثالثة عشرة من عمره انتقلت أسرته من نفطة إلى تونس العاصمة، وذلك في أواخر سنة ١٣٠٦ هـ<sup>(٢)</sup>.

ويرى الأستاذ محمد مواعده أن سبب ذلك الانتقال هو حرص العائلة على تمكين الشيخ الخضر من مواصلة الدرس والتعلم بجامع الزيتونة مع إخوته الآخرين؛ إذ كان جامع الزيتونة قبلة طلاب العلم من جميع الأمصار<sup>(٣)</sup>.

وفي ٤/ رجب/ ١٣٠٧ هـ دخل الشيخ الخضر جامع الزيتونة، وحصل على شهادة التطويح يوم الأحد ١٤/ صفر عام ١٣١٦ هـ.

وفي جامع الزيتونة درس الشيخ على كبار شيوخه الذين كانوا أعلام ذلك العصر في تونس، كالشيخ سالم بوحاجب، وعمر بن الشيخ، ومحمد الوزير، وأحمد بوخريص، وخاله الشيخ محمد المكي بن عزوز، والشيخ محمد بن يوسف، والشيخ الطيب النيفر، والشيخ محمد النجار<sup>(٤)</sup>.

١- انظر أحاديث في رحاب الأزهر ص ٥ و ص ٢٣٩، والإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ٣٩-٤٠.

٢- انظر الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ٤٠، ومحمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٩-٢٠.

٣- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٢١، والإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ٤٠.

٤- انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٣٣، والإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ٤٢، وقد ترجم الشيخ الخضر لهؤلاء العلماء، وتعرض لسيرهم في كثير من مؤلفاته خصوصاً في كتابه (تونس وجامع الزيتونة).

وقد قرأ على هؤلاء العلماء وغيرهم الكثير من الكتب في شتى الفنون. وبمجرد إلقاء نظرة في دفتر شهاداته الشيخ الذي يتضمن تصحيح مشايخه له فيما درسه عليهم من كتب يتضح كثرة تلك الكتب، وتنوعها.

فما جاء في دفتر شهاداته في جامع الزيتونة إبان دراسته فيه: قراءته كتاب القطر، والكفاية، وكتاب الشيخ المكودي على الخلاصة تصحيح الشيخ محمد صالح الشريف، والأربعين النووية، وبانت سعاد، والخزرجية في العروض، ومقامات الحريري، والجزرية في التجويد تصحيح الشيخ محمد المكي بن عزوز، ولامية الأفعال، والأشموني، والمطالع القطرية، ومختصر السعد تصحيح الشيخ إسماعيل الصفايحي، والسمرقندية بشرح الملوي، وإيساغوجي، والخبيصي على التهذيب تصحيح الشيخ مصطفى ابن خليل، والدردير على المختصر الخليلي تصحيح الشيخ محمد المكي بن عزوز، والحلي على جمع الجوامع تصحيح الشيخ مصطفى رضوان، والوسطى، والبيقونية بشرح الزرقاني تصحيح مصطفى بن خليل، والمطول والتاودي على العاصمية - الشامية - تصحيح الشيخ أحمد بو خريص، والشفا بشرح الشهاب تصحيح الشيخ محمد جعيط، وشرح القطب على متن الشمسية تصحيح أحمد بن مراد، والشيخ التاودي على التحفة تصحيح الشيخ عمر بن الشيخ، وغيرها كثير من الكتب<sup>(١)</sup>.

بل لم يقتصر الشيخ الخضر على الدارسة الزيتونية فحسب، بل تابع دروسه باهتمام، وكان يحضر بعض حلقات الدروس الأخرى زيادة على البرنامج الأصلي؛ رغبة في التعمق والاطلاع.

وقد كان محلّ رعاية خاصة من طرف جلّ الشيوخ المدرسين، وخاصة البارزين منهم؛ نظراً لما لمسوا فيه من النجابة، والنبوغ، والألمعية، ولِمَا لخاله الشيخ محمد المكي ابن عزوز من المكانة، والشهرة؛ حيث كان ابن عزوز يلقي دروساً بجامع الزيتونة تطوعاً، وكانت من أكثر الدروس شهرة، ويحضرها بعض الشيوخ، وعدد كبير من الطلاب<sup>(٢)</sup>.

١ - انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٧٨-١٦٠ .

٢ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٢٥ .

هذا وقد تأثر الشيخ محمد الخضر بعدد من شيوخه العلماء الذين كان حريصاً لا على متابعة دروسهم فحسب، بل كان كذلك على حضور مجالسهم، والاستماع إلى أحاديثهم ومناظراتهم في شتى فنون الأدب، واللغة والدين. وأبرز هؤلاء الشيوخ ثلاثة: وهم الشيخ سالم بوحاجب<sup>(١)</sup>، والشيخ عمر ابن الشيخ<sup>(٢)</sup>، والشيخ محمد النجار<sup>(٣)</sup>.<sup>(٤)</sup>

١- هو الشيخ سالم بن عمر بوحاجب النبيلي ١٢٤٣-١٣٤٢هـ-١٨٢٧-١٩٢٤م، من أكابر علماء الزيتونة في وقته، تولى التدريس بجامع الزيتونة، ثم الفتيا سنة ١٣٢٣هـ، ثم عين كبيراً لأهل الشورى المالكية، له شرح على ألفية ابن عاصم في الأصول، وديوان خطب، ورسائل وتقريرات على البخاري واشترك مع خير الدين باشا في تحرير كتابه: (أقوم المسالك في معرفة أحوال المحالك) وله نظم جيد، وكان ذا حافظه واعية، وذهن وقاد.

ترجم له الخضر ترجمة وافية عنوانها: (سالم بوحاجب آية من آيات العبقريه). انظر الأعلام ٧١/٣، وتونس وجامع الزيتونة ص ١٨٢-١٩٠.

٢- هو الشيخ عمر بن أحمد بن علي بن حسن بن علي بن قاسم المعروف بابن الشيخ، ولد بقرية يقال لها: (المائلين) من عمل (بنزوت) حدود سنة ١٢٣٩، وقدم به والده تونس صبياً، فنشأ بها، وعندما بلغ أمد التعليم أقام له معلماً للقرآن، ثم دخل الجامع الأعظم جامع الزيتونة سنة ١٢٥٩، فتلقى العلم على كبار الأساتذة، ولما اشتد ساعده جلس للتدريس بجامع الزيتونة سنة ١٢٦٦، وكان أسلوبه في التدريس من أنفع الطرق؛ حيث كان يقرر عبارة المتن، ويبسطها حتى يتضح المراد منها، ثم يأخذ في سرد عبارات الشرح، وما تمس الحاجة إليه.

تنازل سنة ١٣٢٤ عن مرتب التدريس للمتطوعين بالتدريس بالجامع الأعظم، وأوصى لهم بقطع من المزارع يصرف لهم ريعها بعد وفاته التي كانت في الثالث من المحرم عام ١٣٢٩هـ. انظر تونس وجامع الزيتونة ص ١٤٠-١٤٥.

٣- هو العلامة أبو عبدالله محمد بن عثمان بن محمد النجار، ولد في ١٥/شعبان عام ١٢٥٥هـ، ودخل جامع الزيتونة عام ١٢٧٠، وابتدأ التدريس بجامع الزيتونة عام ١٢٧٢هـ، وتولى منصب الإفتاء عام ١٣١٢ حتى توفي ليلة السادس عشر من رمضان سنة ١٣٣١هـ، وله مؤلفات منها: (مجموعة إملاءات على أمهات أحاديث صحيح البخاري) و (مجموع الفتاوى) ثمانية مجلدات. انظر تونس وجامع الزيتونة ص ١٢٠-١٢٢.

٤- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٢٦.

هذا وقد ترجم الشيخ الخضر لأساتذته هؤلاء، وأفاض في ذكر محاسنهم، وما امتاز به كل واحد منهم، وذلك في كتابه (تونس وجامع الزيتونة).

وهؤلاء الأساتذة وإن تشابهوا في القيمة العلمية والثقافية فقد اختلفوا في أسلوب التفكير، ومعالجة القضايا العلمية وخاصة الإسلامية منها.

كما اختلفوا في نظرهم إلى الحركة الإصلاحية التي كانت محلّ حوار ونقاش وجدال لدى الأوساط الفكرية والثقافية في تونس في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين - كما يقول الأستاذ محمد مواعده<sup>(١)</sup>.

ثم يشير الأستاذ مواعده بعد ذلك تساوياً، فيقول: «فهل تأثر محمد الخضر بالأستاذ بوحاجب أكثر من بقية الأساتذة؛ واتجه اتجاهها إصلاحياً؟ أم تأثر بالأستاذ النجار؛ واتجه اتجاهها محافظاً؟ أم تأثر بالاثنين؛ فكان مزيجاً من النوعين، وشخصية ثقافية مستقلة تأخذ من كل مصدر من مصادر المعرفة والتفكير بطرف؟»<sup>(٢)</sup>.

ولعله توصل في النهاية إلى أن الشيخ الخضر مزيج من النوعين، وأنه كان ذا شخصية مستقلة؛ فكان محافظاً إصلاحياً كما وصفه بذلك العلامة ابن عاشور<sup>(٣)</sup>،

١- انظر المرجع السابق ص ٢٩ .

٢- انظر المرجع السابق ص ٢٩ .

٣- هو العلامة الشيخ محمد الطاهر بن الشيخ محمد بن الشيخ محمد الطاهر بن الشيخ محمد بن الشيخ محمد الشاذلي بن العالم عبدالقادر بن الشيخ محمد -بفتح الميم- ابن عاشور. ولد سنة ١٢٩٦ وتوفي في ١٣/رجب/١٣٩٣هـ.

وقد شبَّ في أحضان أسرة علمية، وتلقى العلم كابناء جيله، حيث حفظ القرآن، واتجه إلى حفظ المتون السائدة في وقته، ولما بلغ الرابعة عشرة التحق بجامع الزيتونة سنة ١٣١٠هـ. وشرع ينهل من معينه، وبرز في علوم شتى، وتولى مناصب عدة، منها: منصب شيخ الإسلام المالكي، وشيخ الجامع الأعظم (الزيتونة) وكان ذا خلق عظيم، وقلم سيال، وبيان ساحر، وله مؤلفات كثيرة أعظمها تفسير التحرير والتنوير، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام. انظر تونس وجامع الزيتونة ص ١٥٤-١٥٨، ومحمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله، والتفسير وعلومه لإياد خالد الطباع، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م. ص ٧٨-٨٠، وشيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور د.قاسم بلغالي، ص

والشيخ محمد رشيد رضا<sup>(١)</sup>.<sup>(٢)</sup>

ثم إن الشيخ الخضر رحمته الله لم يكن ليتوقف عن طلب العلم، والاستزادة من المعرفة، بل إنه كان مواصلاً لذلك، حريصاً على تثقيف نفسه حتى بعد أن صار عالماً يشار إليه بالبنان.

ومن مظاهر ذلك أنه عندما هاجر إلى الآستانة شرع في تعلم اللغة التركية، حتى فهمها، وتدرّب على قراءة صحفها<sup>(٣)</sup>.

ولما كان في ألمانيا إبّان الحرب العالمية الأولى اغتتم فرصة وجوده هناك؛ فتعلّم اللغة الألمانية، تعلّم استفادة أولاً حتى أتقنها، وأصبحت لديه القدرة على الفهم والإفهام، حتى إنه أسهم في ترجمة بعض كتبها إلى اللغة العربية<sup>(٤)</sup>.

كما درس المجتمع الألماني، وعادات الأمة وأحوالها، وأخلاقها، ودرس علوم الكيمياء والطبيعة على يد البروفيسور الألماني (هارد) أحد العلماء المستشرقين<sup>(٥)</sup>.

١- هو السيد محمد رشيد بن السيد علي رضا بن السيد محمد شمس الدين بن السيد بهاء الدين بن السيد منلا خليفة البغدادي، أصول هذه الأسرة من الحجاز، ثم انتقلوا إلى العراق، فنزلوا النجف، ثم نزحوا إلى الشام، وسكنوا قرية القلمون، من أعمال طرابلس الشام، ولد سنة ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥، وتوفي سنة ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥ م.

فنشأ في القلمون وتعلم فيها وفي طرابلس وتنسك، ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ، فلازم الشيخ محمد عبده، وتلمذ له، وأصدر مجلة (المنار) لبث آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي. وأصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية. وقد رحل رحلات كثيرة، واستقر بمصر إلى أن توفي فجأة في سيارته حين كان راجعاً بها من السويس إلى مصر. أشهر آثاره (المنار) و (تفسير القرآن الكريم) و (نداء للجنس اللطيف).

انظر ترجمته الوافية في كتاب: (السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة) لشكيب أرسلان، أضواء السلف، ط ١، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧ م، والأعلام ١٢٦/٦.

٢- انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٧٨، ومحمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٢٠٧-٢٠٩.

٣- انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ١٩١.

٤- انظر جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية ص ١٦، والإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ١٩١.

٥- انظر جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية ص ١٧.

بل إنه لما رحل إلى مصر، واستقر بها بدأ يشعر أنه بحاجة إلى تعلم اللغة الفرنسية وقد تجاوز عمره السبعين، واشتدت رغبته في ذلك عندما أصبح عضواً في جبهة الدفاع عن شمال أفريقيا؛ حيث تَرَدُّ على هذه المنظمة بالقاهرة صُحُفٌ من الشمال الأفريقي وغيره باللغة الفرنسية، وفيها من الأبحاث ما يقتضي الاطلاع؛ فبحث عن مدرس مصري لهذه اللغة، واتفق معه على إعطاء درس في كل يوم بمقابل مالي، وذلك بمقر جمعية الهداية، وكان ذلك سنة ١٩٤٨م إلى أن أصبح قادراً على القراءة والمطالعة بها<sup>(١)</sup>.

فهذه لمع من سيرته في تلقيه للعلم، وحرصه على الإفادة طيلة مراحل حياته.

## المبحث الثاني: أعماله

مر عند الحديث عن عصر الشيخ محمد الخضر حسين أنه يمكن تقسيم حياته إلى ثلاث مراحل وهي المرحلة التونسية ١٢٩٣هـ - ١٣٣١هـ، والمرحلة السورية ١٣٣١هـ - ١٣٣٩هـ، والمرحلة المصرية ١٣٣٩هـ - ١٣٧٧هـ.

وأن التقسيم الذي اعتمد الإطار التاريخي والجغرافي قد اتبعه جُلُّ من كتبوا عن حياة الشيخ الخضر، كما درج عليه هو نفسه عن حديثه عن أطوار حياته بمناسبة حفل التكريم الذي أقامه له تلميذه: الدكتور عبدالوهاب المالكي عند زيارته إلى دمشق سنة ١٩٣٧م.<sup>(١)</sup>

ولا ريب أن هذا التقسيم يعين على فهم مراحل حياته، ومعرفة الأعمال التي قام بها في كل بلد.

وبناءً على ذلك فإن الحديث عن أعمال الشيخ سيسير على هذا النحو من التقسيم، وذلك من خلال المطالب التالية.

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٠-١١.

## المطلب الأول: أعماله في المرحلة التونسية

تميزت المرحلة الأولى من حياة الشيخ الخضر التي قضاها بتونس بالتعلم، والثقف، فتكونت شخصيته، ونضجت أفكاره، واشتهر في الأوساط العلمية باعتداله، وهدوء طبعه، وخلوص نيته، وسعة علمه، وبراعة قلمه.<sup>(١)</sup>

وقد قام إبان تلك الفترة بأعمال جليلة أهمها ما يلي:

أولاً- إصدار مجلة السعادة العظمى: والتي تعد - كما يقول الأستاذ موعدة - أهم إنجاز قام به الشيخ الخضر في مرحلته التونسية.<sup>(٢)</sup>

وقد أسس هذه المجلة في شهر محرم سنة ١٣٢٢هـ، وهي أول مجلة عربية ظهرت في تونس، وكانت نصف شهرية، وقد صدر منها واحد وعشرون عدداً؛ إذ انقطعت عن البروز في شهر ذي القعدة سنة ١٣٢٢هـ.<sup>(٣)</sup>

وكان ظهورها في ذلك الوقت، وفي معمعة تلك الخلافات - كما يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور<sup>(٤)</sup> - كطلوع الحكم العادل تنزهت به المجادلات عن الفحش، وتظهرت من الهمز واللمز، وتسامت عن التشهير والأذى الشخصي.<sup>(٥)</sup>

يقول الأستاذ محمد موعده معلقاً على كلام الشيخ الفاضل ابن عاشور: «ويقصد شيخنا ابن عاشور بهذا القول محاولة مجلة السعادة العظمى، وبالتالي صاحبها الشيخ محمد الخضر حسين التعامل بهدوء وحرصاً مع الخلاف الذي كان وقتها محتدماً بين

١ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٨٤ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ١٨٤ .

٣ - محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٣١ .

٤ - هو الشيخ محمد الفاضل الابن الأكبر للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ١٣٢٧-١٣٩٠هـ، ١٩٠٩-١٩٧٠م، عالم، أديب، خطيب، ومن طلائع النهضة الحديثة النابيين في تونس، مولده ووفاته فيها، تخرج بالمعهد الزيتوني، وأصبح أستاذاً فيه، فعميداً، وكان من أنشط أقرانه، وأدأبهم في مكافحة الاستعمار. شغل خطة القضاء بتونس، ثم منصب مفتي الجمهورية، وهو من أعضاء المجمع اللغوي بالقاهرة، ورابطة العالم الإسلامي بمكة، طبع من كتبه (أعلام العالم الإسلامي في تاريخ المغرب العربي) و (التفسير ورجاله) و (الحركة الأدبية والفكرية في تونس) وعاش في حياة أبيه، مسترشداً بتوجيهه، وتعليمه، ومعتمداً على مكتبته الحافلة بالنفائس، ومات قبل والده بثلاث سنوات. انظر الأعلام ٣٢٥/٦ .

٥ - انظر الحركة الأدبية والفكرية بتونس للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس،

١٩٧٢م، ص ٧٩.

الإصلاحيين والمحافظين حول قضايا فكرية ودينية عديدة؛ مما جعل أصحاب التيارين وأنصارهم المتطرفين يخاصمون المجلة وصاحبها باستثناء صديقه الوفي العلامة محمد الطاهر بن عاشور»<sup>(١)</sup>.

هذا وسيأتي مزيد حديث عن هذه المجلة في الفصل الآتي عند الحديث عن مؤلفات الشيخ الخضر. ثانياً- تولي القضاء بمدينة بنزرت: وذلك بعد انقطاع مجلة السعادة العظمى؛ حيث تولى إثر ذلك خطة القضاء ببنزرت، وذلك في ربيع الثاني ١٣٢٣هـ، وكان للشيخ محمد الطاهر بن عاشور قسط كبير في التأثير عليه لقبول هذه الوظيفة.<sup>(٢)</sup>

١ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٨٥ .

٢ - وقد أقام له الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حفلاً بتلك المناسبة، وذلك مساء الخامس عشر ربيع الثاني من عام ١٣٢٣هـ في داره بضاحية المرسى من الضواحي الشمالية لمدينة تونس.

وقد ألقى الشيخ ابن عاشور كلمة بليغة بهذه المناسبة وبما قاله فيها: «أيها السادة الأعيان! ويا أيها الصديق النحرير! إذا تنازع العقل والوجدان افتقرت اللغة، وضاقت البيان، فالوجدان يقنع النفس بما تجده مُخَضَّرًا، والعقل يصرفها إلى غيب الشيء وفائدته المرجوة.

وأنا الآن تتجاذبني قوتان مجاذب متضاد: أراني فيها مبتهجا مسرورا بارتقاء صديقنا النحرير، واسطة عقدي جَمَعنا في هاته الليلة النيرة، على حين أجدني - مهما تذكرت لازم هذا الارتقاء؛ من مبارحته نادي أنسنا - أسفا على بُعد من أبعته نفسي، واتخذته صديقا خالصا منذ سبع سنين.

ولكني أغالب وجداني، وأجمع حافظتي، وأزجر لساني. فأغلب السرور على الأسف، وكذلك ينتصر أحد الخصمين على قرنه متى قامت الحجة.

وهذا احتفالنا الآن يمثل انتصار العقل على الوجدان، فلنا أن نعتبره رسماً محسوساً يشخص معنى فلسفياً علياً. ما كان للعقل أن ينتصر على وجداننا القوي. لولا تجلي المستقبل من خلال هذا الارتقاء باسمنا عن نتائج علمية، وأريج ثناء تفخر به الفئدة الأدبية وربما غلب القوي بابتسامه تملك لبه. سيظهران للعيان في استقامة وكمال صديقنا هذا اللذين لم يزالا مجهولين عن كثير من الذين لم يبتلوا أخلاقه، كما يجهل شذى العنبر من لم يختبره».

ثم ختم كلمته بقوله: «أريد أن أختتم قولتي، فألتمس منك أيها الصديق المخلص أن تتقبل مني أبياتا أملاها عليّ الضمير عليّ بعد ما بيني وبين الشعر».

ثم قال أبياتا من الشعر ومنها:

لَسْرُورٌ سَاعَاتٍ تَذَكَّرُ أَنْسَكُم	فِي النَّفْسِ أَحْلَى مِنْ نَوَالِ طُلَّابِ
وَالآنَ قُدْرَانٌ يَسْشَطُ مَزَارِنَا	حَتَّى يُعَوِّضَ جَمْعُنَا بِكِتَابِ
وَلتَلِكِ فِي قَلْبِ الصَّدِيقِ حَزَاوَةٌ	مَا هِيَ دُونَ نَوَاقِدِ النَّشَابِ
لَكِنَّ لِلْعَدْلِ الْمَضِيعِ دَعْوَةٌ	تَقْضِي عَلَيْنَا بِامْتِثَالِ جَوَابِ
فَاهْنَأْ بِهَذَا الْارْتِقَاءِ وَكُنْ بِهِ	مِثْلَ الْفَضِيلَةِ مَظْهَرِ الْإِعْجَابِ

وإليك أيها الصديق تحية طيبة تصحبونها معكم؛ لتذكركم ودادا لا يفنى وإن طال الزمان، وتفارقت الأبدان. انظر

إذ يبدو أن الرجل كان لا يميل إلى العمل في الخطط الإدارية، بل كانت رغبته الدائمة في مواصلة التعلم والتعليم؛ لأن في ذلك تكويناً متواصلًا لشخصيته، وإسهامه في الإصلاح.

ولهذا بقي أشهراً قليلة متقلداً خطة القضاء ببنزرت، ثم قدم إثرها استقالته، وألح على قبولها، وعاد إلى تونس العاصمة؛ لمباشرة التدريس بجامع الزيتونة. وقد تولى - أثناء المدة القصيرة التي قضاها ببنزرت - الخطابة والتدريس بجامعها الكبير، كما كانت له مجالس علمية، وأدبية.<sup>(١)</sup>

ثالثاً- التدريس بجامع الزيتونة: فلما ترك الشيخ الخضر القضاء عاد إلى تونس العاصمة خلال سنة ١٩٠٦م - ١٣٢٤هـ، وباشر التدريس بجامع الزيتونة تطوعاً، كما كلفته إدارة الجامع بالإشراف على تنظيم المكتبة ضمن لجنة تكونت للقيام بهذا العمل. وهذا يؤكد اهتمام الإدارة، وتقديرها لكفاءته؛ لأن تنظيم مكتبة علمية غنية بالمخطوطات، وبأمهات الكتب - لا يمكن أن يُوكَّل لغير رجال عرفوا بالعلم الغزير، والاطلاع الواسع.

وقد شارك خلال سنة ١٩٠٧م - ١٣٢٥هـ، في مناظرة للتدريس من الطبقة الثانية، ونجح فيها.

كما وقع تعيينه أستاذاً بالمدرسة الصادقية، وانتدبته الجمعية الخلدونية؛ ليلقي دروساً على طلابها في الإنشاء والبلاغة.

وكان ﷺ محباً لطلابه، حاثاً إياهم على المطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني.<sup>(٢)</sup> رابعاً- بروزه في ميدان الدعوة إلى الله: وذلك من خلال المحاضرات، والمسامرات التي كان يلقيها، والتي أشهرها: محاضرة (الحرية في الإسلام) فهي أشهر وأعظم محاضرة ألقاها، وذلك في نادي (جمعية قدماء الصادقية) وذلك سنة ١٩٠٦م - ونشرت سنة ١٩٠٩م، ونالت اهتمام جميع الأوساط الثقافية والعلمية في ذلك الوقت.

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ٣٧-٣٨.

٢ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٣٩.

بل لا يزال صداها يتردد إلى يومنا الحاضر، وسيأتي مزيد حديث عنها عند الكلام على مؤلفاته، وعند الحديث عن قضية الحرية.<sup>(١)</sup>

خامساً- عنايته بمجال الإصلاح التربوي: وذلك من خلال المحاضرات، والمسامرات، والمقالات.

ولعل من أجلى ما قام به في الميدان التربوي اهتمامه بإصلاح التعليم الزيتوني مذ كان طالباً إلى حين تخرجه ودخوله ضمن شيوخ الزيتونة، وعلمائها العاملين على تطوير التعليم مضموناً، وأسلوباً، ومنهجاً.

وفي هذا الإطار شارك في تكوين (جمعية تلاميذ جامع الزيتونة) سنة ١٣٢٤هـ مع نخبة من العلماء، وفي مقدمتهم العلامة محمد الطاهر بن عاشور.

وخلال سنة ١٣٢٥هـ انحلت هذه الجمعية، وتكونت جمعية جديدة باسم (الجمعية الزيتونية) وقد تولى رئاستها الشيخ ابن عاشور، وعضوية العلماء: الطاهر النيفر، ومحمد رضوان، ومحمد النخلي، ومحمد الخضر حسين، وأبو حسن النجار<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا الإطار الإصلاحي التربوي تنفّس الكتاب العظيم (أليس الصبح بقريب) للشيخ ابن عاشور.<sup>(٣)</sup>

فهذه أهم أعماله إبان مرحلته التونسية.

١ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٨٥ .

٢ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٨٦ .

٣ - هذا الكتاب من أعظم ما أُلّف في بابه، وقد كُتبه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عام ١٣٢١هـ، وكان عمره آنذاك أربعاً وعشرين سنة.

وقد قصد من تأليفه: إصلاح التعليم العربي والإسلامي، وتكلم من خلاله على العلوم الإسلامية، وتاريخها، وأطوارها، وطرائق تعليمها، وأسباب النهوض والانحطاط العارضين لها، إلى غير ذلك من المباحث الرصينة والتحريرات العالية، والتحقيقات الرائعة المانعة التي أودع من خلالها نظراته الثاقبة، وانتقاداته الفاحصة، وآراءه السديدة، ومقترحاته الدقيقة، وملاحظاته التي كانت من أسباب النهوض بالتعليم في بلاده وغيرها.

كل ذلك بأسلوب أخّاذ، ولغة عالية، ونفّس مستريض.  
والكتاب يقع في ٢٧٦ صفحة، توزيع الشركة التونسية للتوزيع .

### المطلب الثاني: أعماله في المرحلة السورية

هذه هي المرحلة الثانية من حياة العلامة محمد الخضر حسين، والتي امتدت طيلة تسع سنوات من سنة ١٣٣١هـ - ١٣٣٩هـ وهي حسب تعريف العلامة محمد الفاضل بن عاشور رحمته الله تسمى مرحلة التنقل والترحال، والاكتشاف، والنضال السياسي.<sup>(١)</sup> وقد مر الحديث عن أسباب رحلته إلى سوريا.

أما أبرز أعماله في تلك الفترة فهي ما يلي:

أولاً- منذ حلوله بالعاصمة السورية دمشق، واستقراره عند إخوته وعائلته واصل نشاطه العلمي والثقافي بالتدريس بالمدرسة السلطانية.

ثانياً- كان من أبرز الداعين في تلك الفترة إلى تقوية الروابط بين العرب والأترك في إطار الأمة الإسلامية.<sup>(٢)</sup>

ثالثاً- واصل إلقاء المحاضرات في الجامع الأموي، وكتابة المقالات بالصحف السورية. ولقد وجد حظوة في الأوساط العلمية والثقافية هناك؛ حيث التف حوله الطلاب، ونهلوا من علمه.

يقول تلميذه علامة الشام محمد بهجة البيطار عن تلك الحفاوة والحظوة التي لقيها الشيخ إبان قدومه إلى سوريا: «أستاذنا الجليل الشيخ محمد الخضر حسين، علّم من أعلام الإسلام هاجر إلى دمشق في عهد علامتي الشام المرحومين: جدي عبدالرزاق البيطار، وأستاذي الشيخ جمال الدين القاسمي؛ فاغتنبنا بلقائه، واغتنب بلقائهما، وكنا نلقاه، ونزوره معهما، ونحضر مجالسه عندهما، فأحكمت بيننا روابط الصحبة والألفة والود من ذلك العهد»<sup>(٣)</sup>.

ثم بين العلامة البيطار مدى إفادة طلاب العلم من الشيخ الخضر في تلك الفترة فقال:

١ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٨٧.

٢ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٨٨.

٣ - محمد بهجة البيطار - بهجة الإسلام - إعداد علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب،

« ولما توفي شيخنا القاسمي -تغمده المولى برضوانه- أوائل سنة ١٣٣٢هـ لم نجد نحن معشر تلاميذه مَنْ نقرأ عليه أحب إلينا ولا آثر عندنا من الأستاذ الخضر؛ لما هو متصف به من الرسوخ في العلم، والتواضع في الخلق، واللطف في الحديث، والرقّة في الطبع، والإخلاص في المحبة، والبر بالإخوان، والإحسان إلى الناس، فكان مصداق قول الشاعر:

كَأَنَّكَ مِنْ كُلِّ الطَّبَاعِ مَرْكَبٌ      فَأَنْتَ إِلَى كُلِّ النَّفُوسِ مَحَبَّبٌ<sup>(١)</sup>

إلى أن يقول الشيخ البيطار: «وأخذنا من ذلك الحين نقتطف ثمار العلوم والآداب من تلکم الروضة الأنف، ونرتشف كؤوس الأخلاق من سلسبيل الهدى والتقوى، ولم يكن طلاب المدارس العالية في دمشق بأقل رغبة في دروسه، وإجلالاً لمقامه، وإعجاباً بأخلاقه من إخوانهم طلاب العلوم الشرعية، بل كانوا كلهم مغتبطين في هذه المحبة والصحبة، مجتمعين حول هذا البدر المنير.

وقد قرأنا عليه في المعقول والمنقول، والفروع والأصول، طائفة من أفضل ما صنف في موضوعه، وهي لعمر الحق دالة على حسن اختياره، وسلامة ذوقه، وقوة علمه، وشدة حرصه على النهوض بطلابه، وإعدادهم للنهوض بأمّتهم»<sup>(٢)</sup>.  
ثم بيّن في أبيات تبلغ أربعة عشر بيتاً حال تلك الدروس، وذكر أسماء الكتب التي قرؤها على الشيخ الخضر، وهي كتاب (المستصفي) للغزالي، و (بداية المجتهد) لابن رشد، و (صحيح مسلم) للإمام مسلم بن الحجاج، و (مغني اللبيب) لابن هشام، و (الكامل) للمبرد<sup>(٣)</sup>.

رابعاً- كان حاكم سوريا في تلك الفترة هو التركي جمال باشا المعروف بتعسفه وجبروته، وقد أدخل العديد من العلماء السجن، ومن بينهم محمد الخضر حسين. وعند إطلاق سراحه وبعد أن ثبتت براءته - عاد إلى التدريس والمحاضرات.

١- المرجع السابق ص ٤٥-٤٦ .

٢- المرجع السابق ص ٤٦ .

٣- انظر المرجع السابق ص ٤٦-٤٧ .

خامساً- سافر إلى الآستانة ، وعمل منشأً عربياً بوزارة الحربية.

سادساً- كان استقرار خاله وأستاذه الشيخ محمد المكي بن عزوز بالآستانة ، والمكانة التي كان يتمتع بها لدى الباب العالي ، ولدى أبرز العلماء والساسة هناك - مما ساعد الخضر على ثقة الباب العالي ، ومما جعل تركيا تعهد له مهمة في ألمانيا التي كانت في الحرب العالمية الأولى حليفة لتركيا ضد فرنسا.

سابعاً- سافر إلى ألمانيا ، واستقر ببرلين ، بصحبة عدد من العلماء؛ لتحقيق رغبة السلطة العثمانية في تكوين تنظيمات ثورية شعبية من المغاربة المقيمين بألمانيا ضد الاستعمار الفرنسي في بلدان شمال أفريقيا.<sup>(١)</sup>

ثامناً- عندما سقطت تركيا في أيدي الحلفاء عاد الشيخ الخضر صحبة عدد من زعماء الحركة الإسلامية من ألمانيا إلى الآستانة ، ومنها إلى دمشق.

وقد أثار ذلك الحدث في نفسه التأثير البالغ؛ لما كان يعلقه من آمال عريضة على الباب العالي في مساعدة القضايا الوطنية التحريرية في العالم العربي ، وخاصة في شمال أفريقيا ، وكذلك لما كان يؤمن به من ضرورة تقوية الخلافة؛ لما في ذلك من دعم للدين الإسلامي ، وتقوية له.<sup>(٢)</sup>

تاسعاً- عند عودته إلى دمشق واصل عطاءه العلمي ، والثقافي ، والإعلامي ، كما وقّع تعيينه عضواً للمجمع العلمي العربي بدمشق الذي عقد جلسته الأولى عام ١٩١٩م ، وبقي عضواً عاملاً بهذا المجمع مدة إقامته بالعاصمة السورية ، ثم أصبح عضواً مراسلاً عند انتقاله إلى القاهرة ، واستقراره بها عام ١٩٣٠م.<sup>(٣)</sup>

عاشراً- استمر في نشاطه العلمي ، ومساندة الخلافة إلى أن احتل الجيش الفرنسي سوريا إثر معركة ميلسون عام ١٩٢٠م ، فأصبحت إقامة الشيخ الخضر في دمشق

١ - ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٨٨-١٨٩ .

٢ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٨٩-١٩٠ .

٣ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٧١ ، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر

معرضة للخطر؛ إذ هو المتابع من قبل السلطات الفرنسية من تونس، ثم لنشاطه السياسي بالآستانة وبرلين؛ لذا قرر الانتقال إلى مصر، والاستقرار بها.<sup>(١)</sup>  
فهذه هي أهم أعماله إبان مرحلته السورية على سبيل الإيجاز.

---

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٧٢، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٩٠ .

### المطلب الثالث: أعماله في المرحلة المصرية

هذه المرحلة هي الثالثة والأخيرة من حياة العلامة الخضر، وقد امتدت طيلة ثمانية وثلاثين عاماً، من عام ١٣٣٩هـ، ١٩٢٠م - إلى عام وفاته ١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م. وهي مرحلة المجد الثقافي - كما يسميها العلامة محمد الفاضل بن عاشور<sup>(١)</sup>. وهذه المرحلة تعد أغزر مراحل حياته إنتاجاً علمياً، وثقافياً، وإعلامياً، وفكرياً، وأبرزها مكانة، وشهرة.

وبرغم هذه الأهمية لتلك المرحلة، وكثرة أعماله فيها فإنه يمكن أن تلخص بما يلي:  
أولاً: تنقسم هذه المرحلة إلى ثلاث فترات:

الأولى: ما قبل توليه مشيخة الأزهر (١٩٢٠ - ١٩٥٢).

الثانية: مدة توليه الأزهر (١٩٥٢ - ١٩٥٤م).

الثالثة: ما بعد استقالته من الأزهر (١٩٥٤ - ١٩٥٨م).

ثانياً: منذ أيامه الأولى في القاهرة كان معتمداً على الله وحده؛ حيث لم يكن له قريب، أو والد، أو ولد، أو أخ، أو حزب، أو أشياع، أو عشيرة، فكان -خصوصاً في أيامه الأولى- وحيداً بعيداً عن الأهل، والأقارب، والأصدقاء. ومع ذلك تحمل مرارة الغربة، والوَحْدَة، فكان أنسه بالله، وتوكله عليه؛ حيث تحمل الأتعاب، والمشاق؛ إذ كان ذا شخصية قوية، ونفس كبيرة أبية ترنو إلى خدمة الإسلام، والذب عن حياضه<sup>(٢)</sup> كما عبر عن ذلك بقوله:

أنا لولا همة تحدوإلى خدمة الإسلام آثرت الحماما<sup>(٣)</sup>

وقوله:

ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى لفتشت عن واد أعيش به وحدي<sup>(٤)</sup>

١ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٩٠ .

٢ - انظر كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ٦٩ ، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر

ص ٤٥ ، و ص ١٥٤ ، و ص ١٩١ .

٣ - خواطر الحياة ص ٢٣٣ .

٤ - خواطر الحياة ص ٩١ .

ثالثاً: منذ أيامه الأولى قام بالاتصال بالطلبة المغاربة بالجامع الأزهر.  
 رابعاً: حصل على وظيفة مصحح، ومراجع للنصوص بدار الكتب المصرية،  
 بواسطة صديقه الحميم العلامة أحمد تيمور باشا رحمته الله.  
 خامساً: خلال السنوات الأولى أسهم في تأسيس (جمعية تعاون جاليات أفريقيا  
 الشمالية) التي تتألف من عدة شخصيات مغاربية: من تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا.  
 وقد تحمل مسؤولية رئاستها، وكان هدفها الرفع من مستوى هذه الجاليات  
 مادياً، واجتماعياً، وثقافياً.

وقد استمر اهتمامه بالمغرب العربي، وقضاياه طيلة حياته.<sup>(١)</sup>  
 سادساً: كانت له إسهامات مهمة في المناظرات، والصراعات الفكرية والأدبية  
 خلال هذه المرحلة المصرية، وأبرزها:

١. تأليفه كتاب (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) الذي رد به على علي  
 عبدالرازق عام ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م، إثر صدور قرار إلغاء الخلافة في عام ١٩٢٤م.  
 فكان لهذا الكتاب الصدى الكبير في العالم الإسلامي عامة وفي مصر بخاصة.  
 وقد نال به حظوة متميزة عند الملك فؤاد ملك مصر.

٢. تأليفه كتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) الذي رد به على الدكتور طه  
 حسين الصادر سنة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م.

وقد قال العلامة محمد الفاضل بن عاشور عن هذا الكتاب: «إن الدكتور طه  
 حسين يعتبر كتاب الشيخ محمد الخضر حسين من أهم الردود، وأشدّها حجة».<sup>(٢)</sup>

١ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٩١-١٩٢ .  
 ٢- انظر الشيخ محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٨٦ و ١٧٠ ، ملتقى الإمام محمد الخضر حسين  
 في الجزائر ص ١٩٣ .

هذا وسيأتي مزيد بيان لإسهاماته في الصراعات الفكرية عند الحديث عن معاركه الفكرية، وعند الحديث عن مؤلفاته، ومواجهاته للانحرافات الفكرية. سابقاً: اهتمامه بتكوين الجمعيات في مختلف مجالات الإصلاح الديني، والاجتماعي، والتربوي، والسياسي.

ومنها (جمعية الشبان المسلمين) التي اشترك في تأسيسها مع صديقيه العلامة أحمد تيمور باشا والعلامة محب الدين الخطيب<sup>(١)</sup> سنة ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م. وكان الغرض من تأسيسها التعريف بالإسلام، والذود عن حياضه. ثم قام بعدها بإنشاء (جمعية الهداية الإسلامية) عام ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م. وضم إليها نخبة من علماء الأزهر كالشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر<sup>(٢)</sup>، والشيخ عبدالحليم النجار، كما ضمت نخبة من الشباب، والمثقفين.

١ - هو محب الدين بن أبي الفتح محمد بن عبد القادر بن صالح الخطيب ١٣٠٣-١٣٨٩هـ، ١٨٨٦-١٩٦٩م، يتصل نسبه بـعبد القادر الجيلاني الحسني، ولد بدمشق، وتعلم بها، وبالأستانة، وشارك سنة ١٣٢٤هـ في إنشاء جمعية بدمشق سميت (النهضة العربية) وعمل في بعض مدارسها، ورحل إلى صفاء، فترجم عن التركية، وعمل في بعض مدارسها، ولما أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م عاد إلى دمشق، ثم زار الأستانة، ثم توجه إلى مصر، وعمل في تحرير جريدة المؤيد، ثم قصد العراق، فاعتقله الإنجليز سبعة أشهر، ثم ذهب إلى مكة بعد إعلان الثورة العربية سنة ١٩١٦م، فحكم عليه الأتراك بالإعدام غيابياً، ثم استقر في مصر سنة ١٩٢٠، وعمل محرراً في الأهرام، وأنشأ مجلتي الزهراء والفتح، وأنشأ المطبعة السلفية.

كان من أكابر الكتاب الإسلاميين؛ حيث حرص على نشر الفضيلة، ومقاومة الاستعمار، ودعاة التغريب، له مشاركات صحفية كثيرة جداً، وله مؤلفات منها (مع الرعيل الأول) و (الهديقة) و (الخطوط العريضة). انظر الأعلام ٢٨٢/٥، ومن أعلام العصر ص ١٠٧-١١٣.

٢ - هو محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغي ١٢٩٨-١٣٦٤، تولى مشيخة الأزهر، ولد بالمرافة من جرجاني الصعيد، باحث مصري عالم بالتفسير، وولي أعمالاً منها: القضاء الشرعي، توفي في الإسكندرية، ودفن في القاهرة، له تأليف منها: (بحث في ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية) ورسالة في (تفسير سورة الحجرات). انظر الأعلام ١٧٣/٧.

وأنشأ بها مكتبة كبيرة كانت نواتها مكتبته الخاصة، وأصدر مجلة تحمل اسم الجمعية، وأنشأ لها فروعاً في الأقاليم، وكانت محاضراته المستمرة فيها، ومقالاته تنشر في مجلتها.

وقد قدم في هذه الجمعية عملاً منظماً مستمراً أوضح من خلاله معالم دعوته، ومنهجه. وقد كان يكتب في مجلة الهداية أكابر العلماء والأدباء، كالشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ومحمد النيفر.<sup>(١)</sup>

وقد نالت حظوة خاصة لدى علماء الإسلام مغرباً ومشرقاً كالشيخ محمد رشيد رضا الذي حث المسلمين على قراءتها، ومما قاله عن الشيخ الخضر «هو صديقنا الأستاذ التونسي الزيتوني الأزهري العالم الفاضل، الكاتب الخطيب المتفنن».<sup>(٢)</sup> ثامناً: صار للشيخ الخضر مكانة وحضور لدى علماء الأزهر؛ نظير نشاطه العلمي، والثقافي، والإعلامي.

لذا وقع انتدابه للتدريس في قسم التخصص بهذه المؤسسة العلمية سنة ١٩٢٧م بصورة مؤقتة، ثم بصورة رسمية سنة ١٩٢٨م عندما أصبح صديقه الشيخ المراغي شيخاً للأزهر.

وفي هذه المرحلة من حياته العلمية أصدر الأزهر مجلة باسم (نور الإسلام) وذلك في محرم عام ١٣٤٩هـ، فأسندت رئاسة تحريرها إلى الشيخ الخضر، فنهض بهذه المهمة ثلاث سنوات، وأرسى قواعد التحرير في تلك المجلة، ونظم شؤونها.<sup>(٣)</sup>

١ - الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٢١٥-٢١٦، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٩٣-١٩٤، و محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٨٨-٩٣.

٢ - مجلة المنار ٧٢٠/٩، وانظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٩٤.

٣ - انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٢١٦، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٩٤.

تاسعاً: تأسس (مجمع اللغة العربية) في القاهرة بمرسوم ملكي أصدره الملك فؤاد في ١٤/٨/١٣٥١هـ، ثم صدر مرسوم ثانٍ يقضي بموجبه تعيين الأعضاء العاملين بالمجمع، وكان الشيخ الخضر على رأس هؤلاء وكانوا عشرين عالماً وأديباً من كبار رجال العلم والأدب في مصر والعالم العربي وأوروبا.

وقد ترأس الشيخ الخضر لجنة اللهجات، وشارك في أعمال عدة بلجان علمية، وألقى العديد من البحوث بمجلة المجمع، كما مثل هذه المؤسسة في مؤتمرات دولية عديدة.<sup>(١)</sup>

عاشراً: في عام ١٣٥١هـ أدى ﷺ فريضة الحج، وأقيم له بعد عودته من الحج حفلة ترحيب في جمعية الهداية الإسلامية ليلة الجمعة العاشر من المحرم سنة ١٣٥٢هـ، وقد ألقى القصاصد والخطب، ومنها: كلمة لأحد أعضاء جمعية الهداية الإسلامية وهو الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني الذي ألقى كلمة عظيمة أثنى فيها على الشيخ الخضر، وأبان عن كثير من مناقبه.

وفي تلك الرحلة المباركة نظم قصيدته مشاهداتي في الحجاز، والتي يقول طالعها:

أَلْمَجْدُ لَا يَنَالُ الْقَاطِنِينَ      وَدَعَّ الصَّحْبَ وَحَيَّا الظَّاعِنِينَ  
لَا تَلُومَا فِي النَّوَى مَنْ هَاجَهُ      لِلنَّوَى لَا عِجْ شَوْقٍ فِي الْكَنِينِ<sup>(٢)</sup>

ومنها:

رَحَلُوا فِي جُنْحِ لَيْلٍ وَأَتُوا      مَكَّةَ الْفَرَاءِ مِنْ نَحْوِ الْحَجُونِ  
فِي رِضَا اللَّهِ خَطَا خَاضُوا بِهَا      فِي حَصَى يَغِيظُهُ الدَّرُّ الْمَصُونِ  
دَخَلُوا بَيْتًا حَرَامًا يَسْتَوِي      فِيهِ ذُو النَّجَاجِ وَمُغَبَّرُ الْجَبِينِ

١ - انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ٢١٦، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٩٤، وص ١٩٥.  
٢ - خواطر الحياة ص ٢١٠.

عَبَرَاتِ الْبِشْرِ مِنْ بَعْضِ الْجَفُونَ  
 فِي سَوَادِ فَعْيُونَ الْغَيْدِ جُونِ  
 لَثَمْتُهُ شَفَاتَا طَهَ الْأَمِينِ  
 وَهُمْ أَضْيَافُ رَبِّ الْعَالَمِينَ  
 ظَمًا الْأَكْبَادِ حِينًا بَعْدَ حِينِ  
 غُلُّهُ عَافَ خُمُورَ الْأَنْدَرِينَ<sup>(١)</sup>

شَاهَدُوا الْكَعْبَةَ وَهَنَا فَجَرَّتْ  
 مَقَلَّةُ الدُّنْيَا فَإِنْ أَبْصَرْتَهَا  
 لَثَمُوا مِنْ رُكْنِهَا الْأَيْمَنِ مَا  
 هِيَ بَيْتُ اللَّهِ إِنْ طَافُوا بِهَا  
 وَرَدُوا (زَمْزَمَ) يَشْفُونَ بِهَا  
 لَوْ شِئِيَ (عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ) بِهَا

وهكذا يستمر في وصف مناسك الحج إلى نهايتها، ثم يقول بعد ذلك عند  
 الوداع:

صُفْرَةَ تَحْكِي بِهَا وَجْهَ الْحَزِينِ  
 كَيْفَ تَصْفُرُ وَجْوهُ النَّازِحِينَ  
 أَنْفَعُ الذِّكْرَى لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ  
 وَشَبَابًا فِي أَفْقِهَا أَسْمَحُ دِينِ  
 رَأَتْ قَدْ تَنْثِي خَدِينَا عَنْ خَدِينِ<sup>(٢)</sup>

هَذِهِ مَكَّةُ مَا لِلشَّمْسِ فِي  
 أَثْرِينَا وَالنَّوَى قَدْ أَرْفَتِ  
 بِلِسْدَةِ عُظْمَى وَفِي آثَارِهَا  
 شَبَابٌ فِي بَطْحَائِهَا خَيْرُ الْوَرَى  
 إِنْ عَزَمْنَا النَّأْيَ عَنْهَا فَالضَّرْوَى

وهكذا استمر في وصف رحلته للحج، وذهابه إلى مدينة الرسول ﷺ.

وختم القصيدة بقوله:

وَدَّعَيْتُ وَالْتَحَقَّتْ بِالرَّاحِلِينَ  
 قَبْلَ أَنْ يَصْرِفَنَا عَنْكَ الْمَنُونِ  
 قَالَتِ الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا: أَمِينِ<sup>(٣)</sup>

يَا جَمَى وَدَّعَيْتُهُ وَالشَّمْسُ قَدْ  
 هَلَّ لَنَا عَوْدُ كَعْوَدِ الشَّمْسِ مِنْ  
 وَسَلَامًا كُلَّمَا رَتَّلْتُهُ

١ - خواطر الحياة ص ٢١١-٢١٢.

٢ - خواطر الحياة ص ٢١٤.

٣ - خواطر الحياة ص ٢١٨.

حادي عشر: دخوله هيئة كبار العلماء؛ حيث بلغ درجة علمية بارزة نظير ما بذله طيلة السنوات التي قضاها في البلاد المصرية من جهود في خدمة العلم، والدعوة إلى الإسلام؛ فكان ذلك محلّ تقدير العلماء.

وبعدها أصبح الشيخ الخضر عضواً بهيئة كبار العلماء إثر تقديمه بحث: «القياس في اللغة العربية».

وهي أكبر هيئة علمية في مصر، وتكونت اللجنة من قساة الممتحنين؛ فبهرها الشيخ الخضر بغزارة علمه، وخلال مناقشة اللجنة لصاحب البحث قال الشيخ عبدالمجيد اللبان<sup>(١)</sup> رئيس اللجنة عبارته المشهورة التي ما زال شيوخ الأزهر يرددونها إلى اليوم، وهي قوله عن الشيخ الخضر: «هذا بحر لا ساحل له؛ فكيف نقف معه في حجاج؟»<sup>(٢)</sup>.

ثاني عشر: تولّيه مشيخة الأزهر؛ وذلك في يوم الأربعاء ١٢/٢٧/١٣٧١هـ؛ حيث زاره في منزله ثلاثة وزراء منهم الشيخ حسن الباقوري وزير الأوقاف.

وبعد الترحيب بهم بادره صديقه الباقوري بالقول: لقد وقع الاختيار عليك؛ لتكون شيخ الأزهر، وقد جئت مع زميلي؛ لنبلغك هذا القرار، فأبدى الشيخ امتناعاً؛ نظراً لخطورة المهمة، وكبرها، ولعجزه البدني، وقد أشرفت سنّه على الثمانين، وهو الشيخ الذي أحيل على التقاعد عام ١٩٥٠م بعد مدة من التدريس في الأزهر دامت عشرين عاماً.

١ - الشيخ عبدالمجيد اللبان ١٢٨٧-١٣٦١هـ - ١٨٧٠-١٩٤٢م، فقيه مصري، تعلم في الأزهر، وتولى مشيخة كلية أصول الدين فيه منذ إنشائها ١٩٣٢م إلى وفاته، له كتب مدرسية منها: كتاب (السيرة النبوية) و (دروس في الأخلاق الدينية). انظر الأعلام ١٥٠/٤.

٢ - انظر أحاديث في رحاب الأزهر ص ١٩٩.

ولكن الوزير الباقوري رفض قائلاً: هذا أمر تجنيد، وفي هذا العهد المبارك تجند الكفاءات النزيهة لخدمة مصر.

وعند ذلك قبل هذه المسؤولية الجديدة، وأجاب: «وأنا لا أهرب من الجندية، وليوفقنا الله». <sup>(١)</sup>

ولما ولي الشيخ الأخضر هذا المنصب قام بالأزهر خير قيام، وكان في ذهنه برنامج إصلاحية، لكن رجال الحكم لم يتركوا الشيخ يعمل في هدوء، فوضعوا العراقيل في طريقه. ولما شعر الشيخ بذلك قدم استقالته؛ لكبر سنه؛ إذ تجاوز الثمانين، ولتدهور صحته، ولخلافات عديدة بينه وبين مجلس قيادة الثورة، وهو العالم الجليل صاحب الشهرة الكبيرة، والشخصية القوية التي لا تخشى في الله لومة لائم. <sup>(٢)</sup>

ومما يذكر له أنه حينما تولى الأزهر لم يغير شيئاً من عاداته، ولم يكن له في شهوات المنصب من حظ، وكان دائماً يحتفظ باستقالته في جيبه، ويقول: إن الأزهر

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١١٣-١١٤، وقد لقي هذا الاختيار قبولاً كبيراً، وصدى واسعاً في مصر، وغيرها من أقطار العالم الإسلامي عموماً، وتونس على وجه الخصوص؛ حيث عبر عن ذلك عدد من علمائها، ومنهم العلامة الشيخ محمد الفاضل بن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، حيث قال: في نهاية بحثه الماتع العظيم (امتزاج الأزهر بالزيتونة) الذي قدمه في المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية في الأزهر والزيتونة أوجها؛ فقد احتضن الأزهر إماماً من الأئمة الأعلام كان أحد شيوخ الزيتونة العظام، وهو الشيخ محمد الخضر حسين؛ إذ استقر بمصر، وأحرز على شهادة العالمية، وسمي أستاذاً في قسم التخصص، وعين في هيئة كبار العلماء، ثم سمي شيخاً للأزهر؛ فكان خير تاج توجت به الأخوة بين المهديين في مبلغها الأقصى وذروتها العليا». ومضات فكر للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٢م، ص ٤٢٩.

٢ - انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ٢١٦-٢١٧.

أمانة في عنقي أسلمها - حين أسلمها - موفورة كاملة ، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي فلا أقل من ألا يحصل له النقص»<sup>(١)</sup>.

وكان كثيراً ما يردد: «يكفيني كوب لبن ، وكسرة خبز ، وعلى الدنيا بعدها العفاء»<sup>(٢)</sup>. وقال لما ترك الأزهر: «إن كانت جنة فقد دخلت فيها ، وإن كانت ناراً فقد خرجت منها»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا ترك مشيخة الأزهر في ١٣٧٣/٥/٢ هـ.

وكانت سنّه إذ ذاك تقرب من إحدى وثمانين سنة ، وبعدها انزوى بمنزله إلى كتبه المحببة إلى نفسه ، وقد أنهكه الإعياء ، ولم يبق له من المهام العلمية سوى عضوية المجمع اللغوي التي حافظ عليها ، وواصل القيام بها إلى آخر يوم من حياته ، وكذلك عضوية جمعية كبار العلماء . ولم ينقطع عن كتابة البحوث ، والمقالات في بعض المجالات ، ولا عن مجالسه العلمية المفيدة من أصدقائه الأدباء والعلماء ، كما أنه كان على اتصال بأبناء وطنه الأصلي تونس الذين كانوا يقيمون في مصر.<sup>(٤)</sup>

ثالث عشر: معاركه الفكرية: خاض الشيخ محمد الخضر حسين معارك فكرية كثيرة لفتت الأنظار إليه ، وأبانت من سعة علمه ، وقوة حجته ، ونزاهته في عرض آراء خصومه ، وموضوعيته في الرد عليها.

ولم تكن تلك المعارك مقتصرة على أحد بعينه ، بل كانت كثيرة متنوعة يحدها إليها غيرته الإسلامية ، وقيامه بواجب الأمانة المناطة بالعلماء.

وأشهر تلك المعارك ما يلي<sup>(١)</sup>:

- ١ - انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ٢١٧ .
- ٢ - انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ٢١٧ .
- ٣ - انظر أحاديث في رحاب الأزهر ص ٢٤٠ .
- ٤ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١١٦-١١٨ .

- ١- رده على علي عبدالرازق في كتابه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، وعلى مقالته «العظمة»، و «ملاحظات على مقال مولد النبي ﷺ».
- ٢- رده على طه حسين في كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)، وفي بحثه «حقيقة ضمير الغائب في القرآن».
- ٣- رده على الشيخ محمود شلتوت<sup>(٢)</sup> حول «الهجرة وشخصيات الرسول».
- ٤- رده على الدكتور محمد خلف الله في بحثه «الفن القصصي في القرآن».
- ٥- رده على محمد أبو زيد الدمنهوري في كتابه «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن»، وعنوان بحث الإمام الذي رد به عليه: «كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد».
- ٦- وله ردٌ تحت عنوان: «كتاب يلحد في آيات الله» حيث رد فيه على كتاب «امراتنا في الشريعة والمجتمع» تأليف الطاهر حداد من تونس.
- ٧- «تحريف آيات الحدود عن مواضعها» وهو رد على مقال (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي) ل: عبدالمتعال الصعيدي.
- ٨- «نقد اقتراح ببعض الإصلاح في متن اللغة» رد به على أحمد أمين<sup>(٣)</sup>.

١ - سيأتي مزيد بيان لتلك المعارك في الأبواب التالية .

٢ - هو الشيخ محمود شلتوت ١٣١٠-١٣٨٣هـ، ١٨٩٣-١٩٦٣م، مفسر مصري، ولد في منية بني منصور بالبحيرة، وتخرج بالأزهر ١٩١٨م، وتنقل في التدريس، واشتغل بالمحاماة، وعين مدرساً في الأزهر، ثم وكيلاً لكلية الشريعة، ثم كان من أعضاء كبار العلماء ١٩٤١م، ومن أعضاء مجمع اللغة العربية ١٩٤٦م، ثم شيخاً للأزهر ١٩٥٨م إلى وفاته، وكان خطيباً موهوباً، جهير الصوت، له ستة وعشرون مؤلفاً مطبوعاً منها (التفسير) و (حكم الشريعة في استبدال النقد بالهدى) و (الفتاوى) و (الإسلام وأصول الحكم) و (الإسلام عقيدة وشريعة). انظر الأعلام ١٢٦/٦، ومن أعلام العصر ص ٦٥-٦٥ .

٣ - هو أحمد أمين بن الشيخ إبراهيم الطباخ، ١٢٩٥-١٣٧٣هـ، ١٨٧٨-١٩٥٤م، عالم بالأدب، غزير الاطلاع على التاريخ، من كبار الكتاب، اشتهر باسمه (أحمد أمين) وضاعت نسبته إلى (الطباخ) ومولده ووفاته بالقاهرة، قرأ مدة قصيرة في الأزهر، وتخرج بمدرسة القضاء الشرعي، ودرس بها إلى سنة

٩- «ملاحظات على البحث المقدم عن موقف اللغة العامية من اللغة العربية الفصحى» ردُّ على الأستاذ فريد أبو حديد، وله نقد آخر لآرائه.

١٠- «حول تبسيط قواعد النحو والصرف والرد عليها» رد فيه على اللجنة المؤلفة من: طه حسين، وأحمد أمين، وعلي الجارم، ومحمد أبي بكر إبراهيم في (مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

١١- له ردود أخرى على الشيخ رشيد رضا، ومحمد فريد وجدي<sup>(١)</sup>، وغيرهم.<sup>(٢)</sup> وسيأتي مزيد إيضاح لتلك الردود في مباحث قادمة.

وفاة الشيخ الخضر: أتعب المرض الرجل المسن في آخر أيامه، ولكن ذلك لم يمنعه من حضور جلسة المجمع اللغوي التي انعقدت في تلك المدة، ولم يثنه عن كتابة مقال في مجلة لواء الإسلام.

وبعد ظهر يوم الأحد ١٣/ رجب/ ١٣٧٧هـ انتقل الشيخ إلى جوار ربه؛ فتلقى العالم الإسلامي ذلك النبأ بالحزن الشديد على ذلك العلم الذي قضى حياته في نشر الإسلام، والدعوة إليه، والذب عن حياضه<sup>(٣)</sup>.

١٩٢١م، وتولى القضاء ببعض المحاكم الشرعية، ثم عين مدرساً بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وانتخب عميداً لها سنة ١٩٣٩م، وعين مديراً للإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية سنة ١٩٧٤م، واستمر إلى أن توفي، ومنحته جامعة القاهرة سنة ١٩٤٨م، لقب دكتور فخري، وهو من أكثر كتاب مصر تصنيفاً، ومن مؤلفاته (فيض الخاطر) و (فجر الإسلام) و (ضحى الإسلام) و (ظهر الإسلام). انظر الأعلام ١٠١/٨.

١ - هو محمد فريد بن مصطفى وجدي ١٢٩٥-١٣٧٣هـ، ١٨٧٨-١٩٥٤م، مؤلف (دائرة المعارف) ولد ونشأ بالأسكندرية، وأقام زمناً في (دمياط) وكان أبوه وكيل محافظ فيها، وانتقل معه إلى السويس، فأصدر بها مجلة (الحياة) ونشر رسالة له سماها (الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان) سنة ١٨٩٩م، وكتاب (تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية) و (المرأة المسلمة) في الرد على (المرأة الجديدة) لقاسم أمين، و (نقد كتاب في الشعر الجاهلي لطفه حسين) وتولى تحرير مجلة (الأزهر) نيافاً وعشر سنين، واعتزلها قبل وفاته بنحو عامين، وتوفي في القاهرة. انظر الأعلام ٦/ ٣٢٩.

٢ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٤١-٤٢.

٣ - الغريب في الأمر توافق وفاته في اليوم والشهر مع وفاة صديق عمره العلامة ابن عاشور الذي

توفي يوم الأحد ١٣/ رجب ١٣٩٣هـ.

وقد صلي عليه في الجامع الأزهر، ومشى في جنازته علماء الأزهر، وأعيان الأمة، والمتسبون إلى العلم، حتى بلغ النعش (باب الخلق) والموكب متصل فيما بينه وبين الأزهر، ودفن في مقبرة آل تيمور؛ حيث أوصى أن يدفن هناك حذو صديقه أحمد تيمور باشا، فدفن كما أوصى، وما زالت كلماته تتردد في قاعات المجمع اللغوي، كما شرع القراء في قراءة آخر مقال كتبه، وهو «فساحة الصدر ونزاهة اللسان عن المكروه»<sup>(١)</sup>.

### المبحث الثالث: أخلاقه وصفاته

لقد تحلى الشيخ الخضر بأخلاق عالية، وصفات حميدة قل أن يدانيه فيها أحد في العصور المتأخرة، بل لقد كان على طراز الأسلاف الأوائل في ذلك الشأن. فلقد كان رحمته الله معروفاً في تونس، وفي البلاد الشرقية بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم يشهد له بذلك كل من عرفه، أو خالطه، أو سمع عنه، أو ترجم له<sup>(٢)</sup>. لقد كان متصفاً بالزهد، والعفة، والحلم، والكرم، والعدل، والإنصاف، والوفاء، وثبات الود، والتواضع، وعزة النفس، وإبائة الضيم، والغيرة على المصالح، والشجاعة النادرة، والهيبة الوافرة. وكل هذه المعاني الرفيعة الشأن كتب عنها الشيخ الخضر، وفصّل في مفهومها وحدودها أحسن تفصيل، واتصف بها، وتمثلها خير تمثيل؛ فجمع بين القول والعمل؛ فكان حياته مرآة صادقة لما كان يقرره، ويدعو إليه.

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١١٩-١٢٠، و الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر ص ١٢٦، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٠٧-١٠٨.

٢ - انظر تفاصيل ذلك في كتاب الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر.

يقول الأستاذ محمد مواعده في نهاية دراسته عن الشيخ الخضر: «وأهم ما يمكن استنتاجه من التعرف على مراحل حياة الرجل وآثاره أن هناك انسجاماً، وترابطاً متيناً بينهما، فكانت مؤلفاته النظرية والشعرية صورة صادقة لما كان يؤمن به من أفكار، ويعتقده من آراء في حياته.

وهذا ما يجعل الرجل شخصية ثقافية متميزة لها عناصرها الأصلية، ومضمونها الجلي، ومركباتها البارزة»<sup>(١)</sup>.

ويقول الكاتب الكبير محمد عبدالله السمان رحمته الله متحدثاً عن الشيخ الخضر أول ما تولى الأزهر: «الشيخ الجديد ليس من خلفه أشياع ولا أتباع حتى يهرجوا له؛ لأن وقاره يسمو به عن أن يتخذ حوله أشياعاً أو أتباعاً، ولأن اعتزازه بنفسه يربآن به عن اتخاذ هؤلاء الأشياع والأتباع».

إلى أن قال: «والشيخ الجديد أكبر وأجل من أن يزهد في ذرة من كرامته؛ فهو مستعد لأن يبذل روحه وما يملك في سبيل كرامته، وليس مستعداً لأن يبذل ذرة منها في سبيل الإبقاء على حياته، ولا في سبيل الدنيا»<sup>(٢)</sup>.

ويقول عنه الدكتور أحمد الشرباصي رحمته الله: «الشيخ محمد الخضر حسين رجل أهم ما يتصف به الهدوء، والاتزان، والعمق؛ فهو يفكر طويلاً، ويستقصي في بحثه، ويستوعب، ويدبر الفكرة في ذهنه أياماً، ويأخذ لها زادها من إحساسه ومعارفه، ومطالعاته واستنتاجاته، ثم إذا جلس ليكتب كتب في هدوء وأناة، يزن لفظه قبل أن يخطه، ويتدبر عبارته قبل أن يصوغها، فإذا ما

١ - محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٩٢.

٢ - كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ٦٧.

جئت بعد ذلك لتقرأ ما كتب أعجبك أن ترى عقلاً واسعاً نيراً، وتفكيراً عميقاً سليماً، ونظرة بعيدة صحيحة، وأسلوباً رزيناً محكماً»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال: «وأنت حين ترى الأستاذ الخضر حسين، أو تجلس إليه، تعجب لهذه الشخصية النبيلة التي تفيض خلقاً وأدباً، وتطيل الصمت والسكوت، ولا تتكلم إلا بقدر، ولا تنطق إلا بحياء، وقد تقول: كيف استطاع ذلك الشيخ الكبير أن يصبر لمتاعب التفكير والتأليف والكتابة والطباعة؟»

ولكنك لو علمت أن في هذه الأثواب الرهيبية أسداً إسلامياً طالما ضحى وجاهد، وطالما دعا إلى الله، وعمل لله.

ولو علمت ما يجب أن تعلمه من تاريخ الخضر حسين - لأدركت أن وراء هذا الهدوء ثورة، وأن هذا الشخص يحكمه عقل جبار، وتزيّنه روح مؤمنة لا تعرف هواناً ولا ليناً، ولا راحة في سبيل العمل للعلم والدين»<sup>(٢)</sup>.

وقال عنه الدكتور محمد عمارة: «الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين: عقل إسلامي مجدد ومناضل في سبيل النهضة العربية والإحياء الإسلامي»<sup>(٣)</sup>.

وقال: «لقد جمع إلى وَعَيْهِ بتراث أمته، وكنوزها الحضارية وعياً بالتحديات المعاصرة التي تحول بينها وبين النهضة والإحياء؛ فكان لسان الأصالة المعبر عن

١ - رسائل الإصلاح ص ٢٨٢-٢٨٣ .

٢ - رسائل الإصلاح ص ٢٨٥ .

٣ - الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٣٤١ .

المشكلات المعاصرة، وضروراتها، يزود عن فكر الإسلام، و مجد العروبة، ويدعو إلى النهضة الحديثة المرتكزة على المعارف والصناعات»<sup>(١)</sup>.

ويحدثني الشيخ المقرئ الكبير إبراهيم الأخضر - حفظه الله - عن الهيبة التي كان يتمتع بها الشيخ الخضر حسين؛ فيذكر أن شيخه الشيخ العلامة عبدالفتاح القاضي رحمته الله كان مقرباً لدى الشيخ الخضر، وكان يذكر من هذا القبيل الشيء الكثير، ومن جملة ما ذكره أن أحد مشايخه - وهو الشيخ إبراهيم الجبالي<sup>(٢)</sup> ١٨٧٨-١٩٥٠م - وكان عالماً من كبار العلماء والمدرسين في الأزهر ومعاهده، وكان مهيباً يهابه الطلاب، والمعلمون في وقته هيبة شديدة.

وكان -أي الجبالي- مع وفور هيئته لا يجروء أبداً على مقابلة الشيخ الخضر، بل كان ينأى عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، بل كان لا يصطف معه في صف واحد في المسجد، بل يتأخر عنه كثيراً.

وإذا قيل له في ذلك قال: هذا -يعني الشيخ الخضر- رجل تُتَعَلَّم منه المهابة.<sup>(٣)</sup> ومع هذه الهيبة العظيمة فقد كان ذا تواضع جم، وبعد عن التظاهر، وتركية النفس.

ومن مظاهر تواضعه أنه كان يجيد اللغة التركية، والألمانية، والفرنسية. ولكنه لم يكن يتظاهر بذلك، ولا يقول: إنه يتقنها، بل حكى مترجمه محمد فهمي عثمان التونسي سفير الأفغان في برلين عاصمة ألمانيا وقتئذ أن الشيخ الخضر لما

١ - المرجع السابق ص ٣٥٤.

٢ - انظر ترجمته في كتاب: من أعلام العصر ص ١٢١-١٢٧.

٣ - حدثني الشيخ إبراهيم الأخضر بهذا مراراً، وآخرها كان يوم الثلاثاء ٦/٨/١٤٣٣هـ.

كان في ألمانيا كان يعرف الألمانية، ولا يتظاهر بمعرفتها، بل كان يتخذ أحد المترجمين كدليل له ظاهرياً.<sup>(١)</sup>

ومن أعظم صفات الشيخ الخضر أنه كان ﷺ ذا ثقة بالله، وتوكل عليه؛ حيث كان في مصر وحيداً لا قرابة له، ولا أشياع، ومع ذلك كان يواجه أعتى الصراعات الفكرية - كما مر وكما سيأتي..

وكان ذا أنس بالله، وطمأنينة به - عز وجل - وقد سأله أحد الصحفيين قائلاً: «لقد طال تنقلكم شرقاً وغرباً، ولم يستقر بكم المقام فترة طويلة من حياتكم، فهل كنتم تحسون أثناء ذلك باضطراب أو قلق أو وحشة؟»

فأجاب الشيخ في هدوئه المألوف: إن الذي يؤمن بعقيدة أو مبدأ، لا يحس بغربة مهما تنقل وارتحل، ما دام وفياً لعقيدته، متمكناً من مبدئه.

ولقد طال تطوافي في جهات عديدة من أفريقيا وآسيا وأوروبا، ومرت بي فترات كنت أصبح فيها في مكان، وأمسي في مكان غيره، ومرت بي لحظات فيها سجن وقسوة، وعنف، واتهام، وتهديد، وحرمان، ومطاردة، ومع ذلك كله كان للمرء أنيس أي أنيس من ربه وإيمانه.

ولقد كنت سجيناً في الشام، ومع ذلك كله كنت أرى في النوم أحلاماً أرضى بها وأستبشر، وبعض هذه الأحلام تحقق مفهومها، أو ما يقرب منه.

وليس معنى هذا أنني كنت حريصاً على حياة التنقل والاضطراب من مكان إلى مكان، بل كنت أطمح إلى أن أستقر يوماً من الأيام في دار لا يحتمل الإنسان فيها مذلة

١ - انظر جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية ص ١٦.

أو هواناً، وقد وجدت طلبتي في مصر؛ فجعلتها داري ومستقري منذ قرابة أربعين عاماً<sup>(١)</sup>.

ولقد عبر ﷺ عن أسه بالله شعراً بقوله:

لست ممن يفقد الأنس إذا	أصبح الروض كئيباً أغبراً
لست آسى إن مضى ليلٌ وما	صاحب زار ولا طيف سرى
هو ذا الفكرُ يناجيني متى	رمت أنساً ضحوه أو سحراً
لي يراعُ كلما استهديته	جال في الطرس وأهدى درراً
فليكن في الناس بخل إنني	لست ممن يشتكي بخل الوري <sup>(٢)</sup>

ومن صفاته البارزة: ورعه، وتنزهه عن المحارم والمكروهات، ومن مظاهر ذلك أنه كان يأبى أن يوقع على الساعة التي يدرسها إلا إذا امتلأت من أول دقيقة فيها إلى آخر لحظة بالتعليم والإفادة.

ومعنى ذلك أن الساعات التي تذهب ببعضها فوضى الطلاب بسبب الشؤون العامة أو الخاصة لم يكن يرضى أن يأخذ عليها أي أجر<sup>(٣)</sup>.

وكان ﷺ محل ثناء العلماء، وتقديرهم، وإجلالهم، وقد مر شيء من ذلك، ويقول عنه العلامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي ﷺ في بيان رأيه في كتب ستة قرأها للشيخ الخضر، وهي: تونس وجامعة الزيتونة، وبلاغة القرآن، ورسائل الإصلاح، والشريعة صالحة لكل زمان ومكان، ومحمد رسول الله ﷺ وخاتم النبيين، والخيال في الشعر الجاهلي: «بيان عن هذه الكتب جملة في أمور مشتركة

١ - انظر كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ٨٠-٨١.

٢ - خواطر الحياة ص ١٢١.

٣ - انظر الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر ص ١٢٩.

بينها:

أ- تشترك هذه الكتب الستة في قوة الأسلوب، وعلوه، مع سلاسة العبارة، ووضوحها، وسمو المعاني، ودقتها، وإصابة الهدف من قرب بلا تكلف فيها، ولا غموض، ولا حشو، ولا تكرار.

ب- تشترك في الدلالة على سعة علم المؤلف، وتضلعه في العلوم العربية، والاجتماعية، والدينية، واستقصائه في بحثه، وفي نقاشه لآراء مخالفيه، وأدلتهم، واعتداله في حكمه، وفتاويه.

ج- يتمثل فيها نزاهة قلم المؤلف، وحسن أدبه، ونبيل أخلاقه.

لكن لم يمنعه ذلك أن ينقد الملحددين، ومن انحرف به هواه عن الجادة، والصراط المستقيم نقداً لا ذعماً لا يخرج به عن الإنصاف، ولا يتجاوز حد الأدب في المناقشة؛ رعاية لحق مخالفيه، وصيانة لعلمه ولسانه عما يشينه، وسيراً مع الكتاب والسنة وآدابهما في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فلا جهل، ولا سفاهة، إنما يقابل سيئة خصمه وسببه بالحسنة، وغض الطرف عنها.

د- ويتمثل فيها الصدع بالحق، والكفاح عنه بحسن البيان، وقوة الحجة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لا يخشى في ذلك لومة لائم، عماده في ذلك كتاب الله، وسنة رسوله، ودليل العقل، وشاهد الحس، والواقع مع ذكر الشواهد من اللغة، والقضايا التي جرت في العالم<sup>(١)</sup>.

ولقد حدثني مراراً الشيخ العلامة الدكتور بكر أبو زيد رحمته الله أن من أعظم العلماء إفادة له هم المشايخ الثلاثة: محمد الخضر حسين، ومحمد الطاهر ابن عاشور، ومحمد البشير الإبراهيمي - رحمهم الله -.

١ - انظر الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي - حياته - وجهوده العلمية والدعوية وأثاره الحميدة، تأليف

وقال عنه العلامة الشيخ أحمد رشيق بكيني الأستاذ بالزاوية الحملاوية والمعهد الإسلامي بالتلاغمة بالجزائر: «ولقد كان ﷺ كما حدثني شيخنا العلامة سيدي أحمد إدريس عبده عن شيخنا العلامة إبراهيم أبو الخشب: خير رجل تولى مشيخة الأزهر»<sup>(١)</sup>.

ويقول عنه الأستاذ الشيخ عبد المنعم خلاف: «إن السيد الخضر طراز نادر في هذا الزمن! فهو - على امتلائه بقدر من العلوم والمعارف قلماً يتيسر لغيره من معاصريه، وعلى نباهة شأنه بين أهل زمانه، حتى إنه ليعدّ حجة من حجج الإسلام - هو - على هذا كله - خافض الجناح، مصفى الخلق، متواضع، يسير في طريقه كما يقف في صلاته.

وناسُ هذا الزمان أعلى رؤوسهم أفرغها، وأرفع أصواتهم أنكرها، فهم كالطبول تملأ الدنيا ضجيجاً، ولكنك إذا غمزتها بإبرة تكشفت لك عن تجويف وفراغ»<sup>(٢)</sup>.

ويكشف الأستاذ علي الرضا الحسيني عن بعض المشاهد الخاصة في حياة عمه الشيخ محمد الخضر حسين التي تُبين عن شيء من تواضعه، وزهده، وكرمه، فيقول: «-الكتاب رفيقه وجليسه، يضعه إلى جانبه إذا خاض في حديث، ويمسك به للمطالعة إذا خلا بنفسه.

- كان مهدياً لكتبه، يقدمها إلى كل زائر، ويبعث بها إلى معارفه من الشيوخ والعلماء في المعاهد الدينية، ولم يستفد مالاً من عائداتها، ولقد وجدتُ كتبه المهداة في كل بلد عربي زرته.

١ - الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ١٦١ .

٢ - المرجع السابق ص ٣٣٠ .

- لم يكن يتقاضى من (جمعية الهداية الإسلامية) بصفته رئيساً لتحريرها، ولا عن محاضراته في الجمعية أي أجر، وهذا مبلغ علمي.
- كان مشاءً يحب السير على قدميه، فينتقل من سكناه في حي السيدة زينب إلى دار الجمعية في شارع مجلس النواب بالقاهرة ماشياً.
- سكناه بسيطة، يتجلى فيها زهد الإمام وورعه، شقة بالكراء من غرفتين، وفسحة بينهما، وفرش متواضع؛ لذا نراه يستقبل كبار زوّاره في دار (جمعية الهداية) لا لسبب إلا لضيق داره.
- وذكرت لي زوجته أن الحبيب بورقيبة عندما لجأ إلى تونس<sup>(١)</sup>، نام ليلته الأولى في مطبخ دار الشيخ، حتى هيا له غرفة في اليوم التالي لدى إحدى الجمعيات.
- فُطوره قطعة من الخبز، وكوب من الحليب، ووجباته لا تتعدى لقيمات من لون واحد من الطعام.
- يغتسل بالماء البارد طوال السنة، وهي عادة اتخذها منذ أن كان في برلين.
- راتبه الضئيل لم يتجاوز ثلاثين جنيهاً، يقطع نصفه لمعاشه، والنصف الآخر يرسله مجزئاً إلى أقاربه في دمشق وتونس مساعدة لهم.
- لم يَقْتَنِ سيارة في حياته، ولم يمتلك عقاراً، وعند وفاته لم يترك إلا مكتبته التي أهداها إلى دار الكتب المصرية، وآثاره العلمية التي ينتفع بها الناس<sup>(٢)</sup>.
- فهذه العيشة البسيطة المتواضعة تذكرك بحال الأسلاف الأوائل الذين طالما تغنى الشيخ الخضر بذكر مآثرهم، وشَحَدَ الهمم للسير على منوالهم.
- فهذه البساطة - في الحقيقة - هي العظمة الحقة؛ إذ إن أجمل ما تراه العين عظمة حقة مع تواضع ولين جانب.

١ - هكذا في الأصل ولعل الصواب: عندما لجأ إلى مصر.

٢ - ملقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٤٧-٤٨.

وأحسنُ مقرونين في عين ناظرٍ جلالةُ قدرٍ في خمول تواضع<sup>(١)</sup> ولو أدرك بعض معاصريه ما أدرك من علم، وحظوة لربما تعاضم في نفسه، ولما رأى لغيره فضيلة.

أما الشيخ فرضي بهذه السيرة الحميدة مع أنه العالم التحرير، والمناضل الكبير، والمفكر الإسلامي، والمفسر، والمحدث، والخطيب المصقع، والشاعر المُفلق، والداعية المسدد، واللغوي الضليع، والقاضي النزيه، والمصلح، والرحالة، وعالم الاجتماع، وإمام مشيخة الأزهر إلى غير ذلك من الصفات التي وهبه الله إياها، فأحسن الشيخ لها، وأخلص.<sup>(٢)</sup>

وبالجملّة فإن أخلاق الشيخ ومناقبه كثيرة جداً، والمقام لا يتسع إلا للقليل من ذلك. ولعل الصفة البارزة فيه من هذه الناحية هي أن يحسن وضع الأشياء في مواضعها؛ فاللين في موضعه، والشدة في موضعها، والتواضع في موضعه، والعزة في موضعها. كما أنه كان يعرف مكانه، ومنزلته، ويدرك ما يراد منه، وما يليق به؛ فذلك مما زاده حكمة، وبصيرة رفعته في أعين الناس، وجعلته في المحل الأسنى. وإليك هذا المثال على ما ذكر؛ وهو أن الشيخ الخضر كان على درجة عالية من الشجاعة، بل كانت شجاعته نادرة.

ومع ذلك فقد كانت تلك الشجاعة مقرونة بالحكمة، والروية، وتدبر العواقب، وتقليب الرأي، والنظر في المصالح والمفاسد. كيف لا، وهو الذي يؤكد على أن الأمة لا تحوز مكانة يهابها خصومها، وتقرُّ بها عين حلفائها - إلا أن تكون عزيزة الجانب، صلبة القناة، ويقرر أن عزة

١ - انظر رسائل الإصلاح، طبعة دار الإصلاح ص ١٢٨.

٢ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ٤.

الجانب، وصلابة القناة لا ينزلان إلا حيث تكون قوة الجأش، والاستهانة بملاقاة المكاره، وذلك ما يسمى شجاعة.

ويؤكد على أن الحكماء ينصحون الناس ألا يقدموا على مواقع الخطر إلا حيث تكون فائدة الإقدام أكبر من خسارته<sup>(١)</sup> على حد قول أبي الطيب المتنبّي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان      هو أول وهي المحل الثاني  
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ مرّةً      بلغت من العلياء كل مكان<sup>(٢)</sup>

وقوله:

وكل شجاعة في المرء تفني      ولا مثل الشجاعة في الحكيم<sup>(٣)</sup>

ويؤكد على عظم خصلة الشجاعة فيقول: «ومن ذا الذي يرتاب في أن الموت في مواطن البطولة أشرف من حياة يغمرها الذل والهوان»<sup>(٤)</sup>.

ولهذا كانت سلسلة حياته تسير على هذا النحو من الشجاعة الأدبية المقرونة بالحكمة، ومعرفة ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي؛ فمذ كان في تونس في بواكير حياته أنشأ مجلة السعادة، فكانت أول صوت ارتفع ينادي بوجوب الإصلاح الاجتماعي.

ولا ريب أن إنشاءها في ذلك الوقت يحتاج إلى شجاعة نادرة؛ إذ كيف يُقدّم على ذلك إنسان في أوائل حياته العلمية؟ وهو يرى فريقين من مشايخه وأساتذته على طرفي نقيض: فريق المحافظين، وفريق الإصلاحيين، فينشأ تلك المجلة في معمعة تلك الخلافات، فيكون ظهورها كظلولع الحكم العادل الذي تنزهت به المجادلات

١ - انظر رسائل الإصلاح للشيخ محمد الخضر طبعة دار الإصلاح في الدمام ٧٧/١-٧٨.

٢ - شرح ديوان أبي الطيب المتنبّي لأبي البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٧٤/٤.

٣ - شرح ديوان أبي الطيب المتنبّي للعكبري ١٢٠/٤.

٤ - الهداية الإسلامية للشيخ محمد الخضر حسين ص ٣٩.

عن الفحش، وتطهرت من الهمز واللمز، وتسامت عن التشهير والأذى الشخصي - كما يقول العلامة الفاضل بن عاشور-<sup>(١)</sup>.

وهكذا سارت معه تلك الشجاعة الحكيمة طيلة عمره، وفي أثناء مواقفه، ومنازلاته الفكرية.

وإذا طويت سيرته طيَّ السجل للكتب، وأتيت على آخر أيام عمره - رأيت تلك الشجاعة النادرة تسير معه حتى حين بلغت شمسهُ رأس الحائط؛ فعندما أسقط الملك فاروق، وقامت الجمهورية في مصر عام ١٩٥٢م كان أول شيخ للأزهر في ذلك الوقت مع أنه من أصل تونسي، ولم يكن له حزب أو أسياع؛ فقبل رئاسة الأزهر، وتعاون مع رجال الثورة.

ولكن عندما اصطدمت قناعاته مع بعض الأعمال التي قام بها رجال الثورة مثل الإصلاحات على مستوى الأزهر، أو حول قضية المحاكم الشرعية، وقضية الإصلاح الزراعي في مصر - لم يرض الشيخ الخضر حسين عن هذه الإصلاحات، فقدم استقالته.<sup>(٢)</sup> يقول الدكتور مولود عويمر الأستاذ في جامعة الجزائر: «وهذه الاستقالة - كما فسرها - هي استقالة سياسية تختلف عن الاستقالات التي عرفها الجامع الأزهر، وقليل من علماء الأزهر الذي استقالوا في تاريخه، ولكنها كانت استقالات علمية أكاديمية مرتبطة بإصلاحات الأزهر.

وكان التعيين في مشيخة الأزهر من قبل هيئة كبار العلماء، وأصبح قراراً سياسياً. وقلما نجد عالماً يأخذ هذا الموقف السياسي، ويرفض هذه المشاريع السياسية التي طرحها رجال الثورة في مصر.

وأضاف الشيخ الخضر حسين ميزة عندما قال: (إن شيخ الأزهر لا ينتقل إلى الحاكم) عندما طلب منه الذهاب لمقابلة الرئيس محمد نجيب، وأعتقد أن هذه ميزة نقلها الشيخ محمد الخضر حسين إلى مصر.<sup>(١)</sup>

١ - انظر الحركة الأدبية والفكرية بتونس ص ٧٨.

٢ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١١٣.

ولعل من أعظم المعالم البارزة في حياة الشيخ العلامة محمد الخضر حسين ثباته على الودّ، ووفائه المنقطع النظير لأصدقائه، ومحافظته على علاقاته بهم. ولا ريب أن الصداقة الفاضلة المتينة الطويلة لا تنبت إلا في صدور الأوفياء العقلاء من الرجال.

ولعل صداقته للشيخ العلامة محمد الطاهر بن عاشور من خير ما يمثل ذلك؛ فلقد انعقدت بينهما صداقة يعز نظيرها.

ولقد مرت الإشارة إلى شيء من تلك الصداقة التي استمرت ما يزيد على ستين عاماً، فقامت على صدق المودة، ورعاية الحقوق، ورقة الشعور، وحسن التذمم والوفاء، وحرارة الأشواق، والسلامة من المكدرات، ونحو ذلك من المعاني الجميلة؛ فصارت تلك الصداقة مضرب المثل.

١ - ملقئ الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١١٣، وقد ذكر لي الشيخ إبراهيم الأخضر عن شيخه الشيخ المقرئ الكبير العلامة عبدالفتاح القاضي - وكان مقرباً لدى الشيخ الخضر - أن الرئيس محمد نجيب لما قدم إلى الأزهر طلب الشيخ الخضر من سكرتيره، ومن الشيخ عبدالفتاح القاضي أن يستقبلا الرئيس محمد نجيب عند باب المصعد، يقول الشيخ عبدالفتاح: فاستقبلنا الرئيس عند باب المصعد ومعه مجموعة من الضباط والعسكر، وقلنا له: تفضل، وسرنا معه حتى وصلنا مكتب الشيخ الخضر، فأسرع الرئيس نجيب إلى الشيخ الخضر قبل أن يخرج من مكانه، فقبل يد الشيخ الخضر عدة مرات، ثم جلس الرئيس نجيب أمام الشيخ الخضر كما يجلس العسكري أمام الضابط، وظلا يتحدثان، ونحن واقفان.

ولما هم الرئيس بالتوديع قال للشيخ الخضر: هل تأمرون بشيء؟ فقال له الشيخ: نعم، ثم أخرج ورقة فيها عدد من المطالب، وأعطاها الرئيس محمد نجيب، ومن ضمنها طلب افتتاح معهد القراءات وتأسيسه، فوضعها محمد نجيب في جيبه، وقال: كلها ستكون محل التنفيذ، وبالفعل نُفِّذت، وافتتح معهد القراءات فيما بعد.

ولما انتهت الجلسة قام الشيخ مع الرئيس محمد نجيب إلى باب المصعد وودعه، ثم لما رجع الشيخ صاح مرة أخرى قائلاً: يا سيد نجيب، يا سيد نجيب، فالتفت إليه الرئيس قائلاً: نعم يا مولانا أهلاً وسهلاً، فقال له الشيخ الخضر: قل لهذا الأفندي لا يكتب في الدين مرة أخرى، فقال الرئيس نجيب: حاضر، حاضر. وهو لا يعلم من المقصود بذلك، ولكنه لم يجرؤ أن يسأل الشيخ عنه؛ فالتفت إلينا وقال: من يقصد الشيخ بالأفندي، فقلنا له: إن الوزير الفلاني يكتب فتاوى كثيرة في الجريدة، ولا يجرؤ أحد يرد عليه إلا الشيخ، والشيخ تعب منه، وبعد ذلك لم يعد ذلك الوزير إلى الكتابة. اهـ.

حدثني بذلك الشيخ إبراهيم الأخضر - حفظه الله - مراراً، وآخرها عصر يوم الجمعة ١٤٣٣/٨/٩هـ في مكالمة

هاتفية.

ولقد تعرفنا على بعض في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، إذ كانا قرنين في طلب العلم بجامع الزيتونة، وتوطدت تلك العلاقة عام ١٣١٦هـ، واستمرت إلى أن فارق الخضر الدنيا عام ١٣٧٧هـ.

وأما الطاهر فعاش إلى عام ١٣٩٣ هـ حيث عُمر سبعا وتسعين سنة<sup>(١)</sup>. ولقد فرَّق الاستعمار بينهما؛ حيث حكم على الشيخ الخضر بالإعدام والجلاء، فخرج من تونس عام ١٣٣١ هـ وتقلَّب في عدد من البلاد ومات في مصر. وكان كثيراً ما يكتب الطاهر، ويرد على كتاباته، ويبعث إليه أشواقه، وتحايا، وتهانيه إذا ما تقلد منصباً.

ومما جرى بينهما في هذا السياق أنه بعد هجرة الشيخ الخضر من تونس عام ١٣٣١ بعث إليه صديقه محمد الطاهر بن عاشور وهو كبير القضاة بتونس رسالة مصدرة بالآيات التالية:

بُعِدْتَ وَنَفْسِي فِي لِقَاكَ تَصِيدُ	فَلَمْ يُغْنِ عَنْهَا فِي الْحَنَانِ قَصِيدُ
وَخَلَّفْتَ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ غَصَّةُ	لَهَا بَيْنَ أَحْشَاءِ الضُّلُوعِ وَقُودُ
وَاضْحَتْ أَمَانِي الْقُرْبِ مِنْكَ ضَيْلَةٌ	وَمَرُّ اللَّيَالِي ضَعْفَهَا سِيْزِيدُ
أَتَذَكُرُ إِذْ وَدَعْتُنَا صَبْحَ لَيْلَةٍ	يَمُوجُ بِهَا أَنْسُ لَنَا وَيُرُودُ
وَهَلْ كَانَ ذَا رَمْزًا لِتَوْدِيْعِ أَنْسِنَا	وَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْبَيْنِ سَوْفَ يَعُودُ
أَلَمْ تَرَهُذَا الدَّهْرَ كَيْفَ تَلَاعَبْتَ	أَصَابِعَهُ بِالْدُرِّ وَهُوَ نَضِيدُ
إِذَا ذَكَرُوا لِلْوَدِّ شَخْصًا مُحَافِظًا	تَجْلِسُ لَنَا مَرَاكٌ وَهُوَ بَعِيدُ
إِذَا قِيلَ: مَنْ لِلْعِلْمِ وَالْفِكْرِ وَالتَّقَى	ذَكَرْتُكَ إِيقَانًا بِأَنْكَ فَرِيدُ

١ - انظر كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ص ٢٥-٢٨.

فقل لليالي: جَدِّدي من نظامنا فحسبك ما قد كان فهو شديد

ثم كتب تحت هذه الأبيات: «هذه كلمات جاشت بها النفس الآن عند إرادة الكتابة إليكم، فأبثها على علاتها، وهي - وإن لم يكن لها رونق البلاغة والفصاحة - فإن الود والإخاء والوجدان النفسي يترقق في أعماقها»<sup>(١)</sup>.

ولما وصلت تلك الرسالة إلى الشيخ محمد الخضر حسين أجاب بالأبيات التالية:

أينعم لي بالّ وأنت بعيد	وأسلو بطيف والمنام شريد
إذا أججت ذكراك شوقي أخضلت	لعمري بدمع المقلتين خدود
بُعدتُ وأمادُ الحياة كثيرة	وللأمد الأسمى عليَّ عهد <sup>(٢)</sup>
بعدت بجثمانِي وروحي رهينة	لديك وللودِّ الصميم قيود
عرفتُك إذ زرتُ الوزير وقد حنا	عليَّ بإقبال وأنت شهيد <sup>(٣)</sup>
فكان غروبُ الشمس فجرَ صداقة	لها بين أحناء الضلوع خلود
لقيت الودادَ الحرَّ من قلب ماجد	وأصدق من يُصنفي الوداد مجيد
ألم تُرمِ للإصلاح عن قوس نافذ	درى كيف يُرعى طارفٌ وتليدُ
وقمتَ على الآداب تحمي قديمها	مخافةً أن يطفئ عليه جديد
أتذكر إذ كنا نباكر معهداً	حُمياًه علمٌ والسقاة أسود <sup>(٤)</sup>

١ - خواطر الحياة ص ٦٣ .

٢ - يعني بالأمد الأسمى: خدمة الدين، والقيام بالدعوة، ومحاربة الاستعمار.

٣ - الوزير: هو محمد العزيز بو عتور (١٢٤٠ - ١٣٢٥) جد ابن عاشور لأمه، من كبار رجال السياسة والعلم في تونس، والبيت إشارة إلى أول لقاء بين الخضر وابن عاشور.

٤ - نباكر: نأتي مبكرين، والمعهد: جامع الزيتونة، والحميا: شدة الغضب وأوله، ويعني به هنا: النشاط، ويريد بالسقاة: أساتذة المعهد وما كان لهم من مهابة وإجلال في قلوب المتعلمين.

أتذكر إذ كنا قرينين عندما      يحين صدور أو يحين ورود  
فأين ليالينا وأسمارها التي      تُبلُّ بها عند الظماء كبودُ  
ليالٍ قضيناها بتونسٍ ليتها      تعود وجيش الغاصبين طريد<sup>(١)</sup>

وهذه مقطوعة عنوانها (الوفاء بعهد الصداقة)، وقد قالها الشيخ الخضر عندما سأله بعض الأدباء: كيف كانت صلتكم بالشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تونس؛ فأجابه بهذه الأبيات:

أحببته ملء الفؤاد وإنما      أحببت من ملأ الوداد فؤادهُ  
فظفرتُ منه بصاحبٍ إن يدر ما      أشكوه جافى ما شكوتُ رقادَه  
ودريت منه كما درى مني فتىٌ      عرف الوفاء نجاده ووهاده<sup>(٢)(٣)</sup>

وهذه مقطوعة عنوانها (برقية الشوق)، قالها الشيخ محمد الخضر أثناء رجوعه من الآستانة إلى تونس سنة ١٣٣٠ هـ، وقد مرت به الباخرة بالقرب من شاطئ (المرسى) حيث كان يقيم صديقه العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:

قلبي يحييك إذ مرت سفينتنا      تُجاء واديك والأمواج تلتطم  
تحية أبرق الشوق الشديد بها      في سلكٍ ودُّ بأقصى الروح ينتظم<sup>(٤)</sup>

وهذه قصيدة عنوانها (تهنئة بالقضاء) قالها وهو في دمشق؛ لتهنئة صديقه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عند ولايته القضاء بتونس:

بَسَطَ الهناءُ على القلوب جناحا      فأعاد مسودَّ الحياة صباحا

١ - خواطر الحياة ص ٦٤-٦٥.

٢ - النجاد: ما ارتفع من الأرض، والوهاد: ما انخفض منها.

٣ - خواطر الحياة ص ٩٠.

٤ - خواطر الحياة ص ٢٣١.

إيه محيا الدهر إنك مؤنس  
وتعدُّ ما أوحشتنا في غابر  
لولا سواد الليل ما ابتهج الفتى  
يا طاهر الهمم احتمت بك خُطَّة  
سحبت رداء الفخر واثقة بما  
ستشد بالحزم الحكيم إزارها  
وتذود بالعدل القذى عن حوضها  
في الناس مَنْ ألقى قِلادتها إلى  
فأدر قضاياها بفكرك إنه  
أنسى ولا أنسى إخاءك إذ رمى  
أسلو ولا أسلو علاك ولو اتت  
أو لم نكن كالفرقدين تقارنا

ما افتر ثغرك باسمًا وضًاحا  
خالًا بوجنتك المضيئة لاحا  
إن أنس المصباح والإصباحا  
تبغي هدىً ومروءةً وسماحا  
لك من فؤاد يعشق الإصلاحا  
والحزم أنفس ما يكون وشاحا  
والعدل أقوى ما يكون سلاحا  
خلف فحرم ما ابتغى وأباحا  
فكر يرد من العويص جماحا  
صرف الليالي بالنوى أشباحا  
لبنان تهدي نرجسًا فياحا  
والصفو يملأ بيننا أقداحا<sup>(١)</sup>

وهذه مقطوعة قالها الشيخ محمد الخضر حسين في صديقيه العلامة أحمد تيمور باشا، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، مبيناً عظيم محبته لهما، حيث قالها بعد موت أحمد تيمور، وفي وقت بعده عن ابن عاشور قال:

تقاسم قلبي صاحبان ووددت لو  
وعللت نفسي بالمنى فإذا النوى  
فأحمد في مصر قضي ومحمد

تملئتهما عيناي طول حياتي  
ثعل الحشا طعنًا بغير قنائة  
بتونس لا تحظى به لحظاتي

أعيش وملء الصدر وحشةً مُتَرَفٍ رَمَتْهُ يَدُ الْأَقْدَارِ فِي فَلَوَاتٍ<sup>(١)</sup>(٢)

وبالجملة فإن أخلاق الشيخ الخضر، ومناقبه كثيرة جداً، وسيرة حياته حافلة بما يؤكد ذلك، والمقام لا يسمح بالتفصيل، وسيرد في فصول هذا البحث ما يؤكد ذلك.

١ - معنى البيت يقول: إن حالي في بعدي عن هذين الصاحبين كحال رجل عاش في نعيم، ثم تحول عنه إلى صحراء جرداء لا نعيم فيها ولا خِصْب؛ فماذا ستكون حاله؟ إنها حال بؤس وشقاء. ولو أنه عاش في أول أمره في شظف عيش لهان عليه الأمر؛ فحال هذا المترف الذي تقلب في النعيم ثم تحول عنه إلى الشقاء كحالي مع صاحبي؛ فبينما أنا أعيش في أنس وسرور ونعيم بسبب قربي منهما، وأنسي بهما إذا بي بعيد عنهما، حزين لفراقهما. وهذا تشبيه بديع رائع.

٢ - خواطر الحياة ص ٦٠.

الفصل الثاني: مؤلفات الشيخ محمد الغضر

وتحته: تمهيد: ملحوظات حول علميته ومؤلفاته

- مؤلفاته: عرض وتعريف ودراسة



## الفصل الثاني: مؤلفات الشيخ محمد الخضر

تمهيد: ملحوظات حول علمية الشيخ ومؤلفاته

لقد قضى الشيخ محمد الخضر حسين جانباً كبيراً من حياته في التعلم، والمطالعة، والبحث.

ولما ملأ عيابه من العلم اتجه إلى التعليم، والتوجيه، والدعوة إلى الله، مع أنه لم يتوقف عن التعلم والتزود من المعارف بحسب ما يتيسر له.

ولقد اتخذ من كتابة المقالات، وإلقاء المحاضرات وسيلة أساساً للتبليغ، والدعوة، ونشر العلم؛ فأشرف - كما مر - على تحرير مجلات عديدة، وهي السعادة العظمى، والهداية الإسلامية، ونور الإسلام، ولواء الإسلام؛ فكان يكتب فيها البحوث والمقالات العلمية والأدبية، ويكتب - كذلك - في نقد بعض المقالات، ويتعقب بعض الكتاب بالرد.

ولم يقتصر على المجالات التي يرأس تحريرها، بل كان يكتب في عدد من المجالات، كالمنار، ومجلة البدر التونسية، ومجلة الفتح التي يشرف عليها صديقه محب الدين الخطيب.<sup>(١)</sup>

ولقد كان ﷺ كثير المطالعة، كثير الكتابة.

وقد سأله صحفي مصري بعد أن أصبح شيخاً للأزهر: هل تهوى الكتابة؛ فأجاب الشيخ: «وهل هناك من يجيد القراءة ولا يكتب».<sup>(٢)</sup>

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٢٢.

٢ - مجلة المصور المصرية عدد الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٢م.

ويكفي أن آخر مقال صدر له بمجلة لواء الإسلام كان في الشهر الذي أدرسته فيه المنية.

كما أنه محاضر من الطراز الأول، وكان ينشر تلك المحاضرات في الصحف؛ لذا كان أغلب آثاره ناتجاً عن المحاضرات، والمقالات، والبحوث التي نشرت في مجلات مختلفة.

ويبدو أنه كان يقوم بذلك عن قصد؛ لأن الغرض الذي كان يرمي إليه من الكتابة هو توضيح معالم الدين، وتوجيه المسلمين وإرشادهم، والدفاع عن الإسلام من تهم الملحدين، والزائغين، والجاهلين.<sup>(١)</sup>

وهذا الأمر يقتضي اتباع الوسائل الكثيرة الانتشار؛ حتى تعم الفائدة. ولا أجدى؛ لتحقيق هذا الغرض من استعمال الصحف والمجلات؛ إذ كانت الطريقة المثلى لنشر العلم، والدفاع عن الإسلام في ذلك الوقت.<sup>(٢)</sup>

وهذا ما جعل الرجل لا يؤلف الكتب ابتداءً إلا عندما تَقْضَ كتابي (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبدالرازق، و (في الشعر الجاهلي) لطف حسين.

مع ملاحظة أن أسلوبه في التأليف، والكتابة، والمحاضرة واحد؛ من حيث القوة، والجزالة، وحسن العرض.<sup>(٣)</sup>

ولقد خرج أكثر تلك التأليف، والمقالات، والمحاضرات في كتب مطبوعة متداولة منذ أوائل حياته في تونس إلى حين وفاته في مصر.

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٢٢-١٢٣.

٢ - يقول العلامة القاسمي ت ١٣٣٢هـ: «مقالة في صحيفة خير من ألف درس للعامة». انظر الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الألوسي، جمع وتحقيق الشيخ محمد العجمي ص ٥٦.

٣ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٢٣.

وهذه المؤلفات تُبينُ عن شخصية علمية موسوعية فذة؛ حيث كتب في شتى علوم الشريعة من تفسير، وعلوم قرآن، وحديث، وأصول، وعقائد، ومقاصد، وسيرة، واجتماع، وتربية، ووعظ، ودعوة، ونحو ذلك.

كما كتب في اللغة، والأدب، والنقد، والتاريخ، والاجتماع، والطب. وكان شاعراً مجيداً ينشر قصائده في المناسبات، والمجلات، وقد جمع أكثرها في ديوانه (خواطر الحياة).

ولئن كان الشيخ مُبرزاً في مجال التأليف والكتابة في شتى الفنون - فإن عبقريته الفذة، وشخصيته العلمية، ومواهبه المتنوعة تتجلى في مجال النقد، والنقض، والرد.<sup>(١)</sup> وهذا ما سيكون الحديث عنه في الفصل الثاني من الباب الثالث من هذا البحث، وذلك عند الكلام على أساليبه في الرد على المخالفين. وتأتي بعد ذلك بحوثه في فنون الشريعة، ثم بحوثه اللغوية التي كان فيها مرجعاً، وأستاذاً لا يجارى.

بل إن مجرد إلقاء نظرة على عناوانات كتبه، وبحوثه، ومحاضراته، ومقالاته تكفي لأن تعرف مدى ما يتمتع به من علمية نادرة، وقدرة فائقة على البحث، والكتابة. وهذا ما سيتبين عند عرض مؤلفاته.

وقبل عرض مؤلفات الشيخ رحمته والتعريف بمحتواها يحسن إيراد الملاحظات التالية:  
١- أن الشيخ رحمته بدأ في الكتابة منذ بواكير عمره، فبدأ بالكتابة في الصحافة سنة ١٣٢٢هـ، وربما كتب قبل ذلك، واستمر إلى سنة ١٣٧٧هـ أي قبيل وفاته بأيام؛ إذ إن آخر مقال كتبه هو (فساحة الصدر ونزاهة اللسان عن المكروه) كتبه في الشهر الذي توفي فيه.

١ - انظر محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق دراسة - مختارات، أبو القاسم كرو ضمن كتاب الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر ص ١٠٣.

وهذا يعني أن المدة التي استغرقها في الكتابة والمحاضرات، والتأليف عموماً أربع وخمسون سنة في الأقل.

يضاف إلى ذلك أنه كان غزير الكتابة، مطواع القلم، كثير البحث، دائب النشاط، متنوع المعارف، قريب الصلة بالصحافة.

وهذا أمر نادر جداً بين أقرانه، ومعاصريه من الشيوخ الذين قل أن تجد لبعضهم أدنى كتابة، أو تأليف.<sup>(١)</sup>

٢- أن إنتاج الشيخ من بحوث ومحاضرات كان متناثراً في المجلات والصحف التي كان ينشر فيها، ومنها ما هو موجود عند بعض محبيه، وتلامذته، أو من يخصهم برسالة، أو جواب، أو نحو ذلك.

ولقد قام المحامي الأستاذ علي الرضا الحسيني بجمع تراث عمه، واعتنى بذلك -كما مر- عناية كبيرة غير أن الصعوبة تكمن في الجزم بأن تراث الشيخ قد خرج كاملاً حتى بعد خروج موسوعة الأعمال الكاملة للإمام.<sup>(٢)</sup>

ولا يزال ابن أخيه الأستاذ علي يتحف القراء بين الفينة والأخرى بما يستجد له من تراث عمه.

ولعل عنايته تتواصل، ولا تقف عند حدٍّ ما خرج في الموسوعة.

٣- أن بعض كتب الشيخ نشر منذ وقت مبكر من حياته، ككتاب (حياة اللغة العربية) الذي خرج عام ١٩٠٩م.

١ - انظر الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر ص ١٠٥.

٢ - وقد أخبرني الأستاذ محمد بن سعود الحمد أنه بصدد إخراج مجموعة من المقالات والبحوث التي لم تنشر بعد للشيخ الخضر، وكثيراً ما يكرر الأستاذ علي الرضا أنه يجد بين الفينة والأخرى آثاراً جديدة لعنه الشيخ الخضر.

وكذلك كتاب (الحرية في الإسلام) الذي طبع أول مرة عام ١٩٠٩م وغيرها من المؤلفات.

وهذه الكتب التي طبعت في حياة الشيخ خرجت حاملة الاسم الذي ارتضاه الشيخ.

أما الكتب التي خرجت بعد وفاته، وأشرف عليها ابن أخيه المحامي علي الرضا فلم تكن - في معظمها - على النسق الذي وضعه مؤلفها؛ فقد تصرف الناشر في بعض العنوانات، واجتهد في إدخال كتب إلى كتب، أو جمع مقالات ومحاضرات إلى كتاب سبق طبعه مستقلاً.

كما في كتاب (العظمة) حيث خرج مستقلاً، ثم خرج ضمن كتاب (محمد رسول الله وخاتم النبيين)، وكذلك كتاب (الحرية في الإسلام) خرج مستقلاً مراراً، وخرج ضمن كتاب (محاضرات إسلامية).

وقد نتج عن هذا - كما يقول الأستاذ أبو القاسم كرو - عسر هضم لدى الباحثين.<sup>(١)</sup> ويقول الأستاذ أبو القاسم كرو بعد أن أبدى بعض الملحوظات على ما نشر من تراث الشيخ: «وكنا نفضل لو سلك حفيده<sup>(٢)</sup> مسلكاً آخر يقوم على ما يلي: أ- نشر كتبه القديمة كما هي في طبعاتها الأولى.

ب- جمع المحاضرات والبحوث الصغيرة ما طبع منها وما لم يطبع في كتاب متعدد الأجزاء كما فعل المؤلف نفسه في كتاب (رسائل الإصلاح) وكما فعل الناشر -مشكوراً- في كتاب (دراسات في العربية وتاريخها).

١ - انظر الإمام محمد الخضر حسين في أقلام نخبة من أهل الفكر ص ١٠٥.

٢ - يعني ابن أخيه الأستاذ علي الرضا.

ج- جمع المقالات في كتاب مستقل متعدد الحلقات، تُخصَّص كل حلقة بموضوع عام ديني، أدبي، اجتماعي، وطني مع الإشارة دائماً إلى مكان النشر الأول، وتاريخه، وملابساته إن وجدت»<sup>(١)</sup>.

ولعل هذه الأمانة التي أوردها الأستاذ أبو القاسم كرو - وجدت أذنًا صاغية من الأستاذ علي الرضا الحسيني، وذلك عندما قام بإخراج موسوعة الأعمال الكاملة لعمه الإمام محمد الخضر حسين، التي احتوت على ما نشر من تراث الشيخ، وعلى الجديد مما لم ينشر، كما احتوت على الدراسات، والتراجم، والكتابات التي كتبت حوله.

وقد اعتنى الناشر بتبويبها، وتقريبها، وإخراجها بطبعة فاخرة.

وهذا مما قرب علوم الشيخ، ويسر البحث في مؤلفاته، وإن كانت الموسوعة تفتقر - في مجملها - إلى الترتيب الموضوعي الذي يجمع كل فن على حدة.

ويُلتمس العذر للأستاذ علي بأنه يعثر ما بين حين لآخر على تراث جديد لعمه

الشيخ الخضر، فيسارع إلى نشره، ثم يعثر على تراث آخر، وهكذا.

ومن هنا يصعب عليه أن يرتب ما يجده حسب الموضوعات، وقد يخشى

- أيضاً - من التكرار والتداخل.

لذا فإن عرض مؤلفات الشيخ والتعريف بها سوف يسير - بإذن الله - حسب

الترتيب الذي سارت عليه موسوعة الأعمال الكاملة.

## مؤلفاته: عرض وتعريف ودراسة

الحديث ههنا سيتناول عرض مؤلفات الشيخ، والتعريف بها ودراستها بشيء من البسط غير المطول؛ إذ لو كان ذلك على نحو مفصل لطلال الكلام، والمقام ليس مقام تفصيل وإسهاب.

وسيكون هذا العرض والتعريف - كما مر - على نحو الترتيب الذي سارت عليه موسوعة الأعمال الكاملة للشيخ؛ فإلى بيان ذلك.

الأول: أسرار التنزيل: وهو كتاب جمع فيه الأستاذ علي الرضا الحسيني ما وجده من الآيات التي فسرهما عمه الشيخ الخضر، وسماه - أي الأستاذ علي - بهذا الاسم.

وقد طبع هذا الكتاب مفرداً عام ١٣٩٦ هـ، ونشره الأستاذ علي الرضا. وفي موسوعة الأعمال الكاملة للإمام جاء كتاب (أسرار التنزيل) في المجلد الأول، واستغرقه كُله بعد مقدمات الموسوعة، وجاء في أربعمئة واثنين وثلاثين صفحة.

يقول الناشر الأستاذ علي مبيناً قصة تأليف هذا الكتاب:

«ما إن ارتقى فضيلة الإمام الأكبر المرحوم محمد الخضر حسين - رضوان الله عليه - المرتبة العلمية الرفيعة التي انتهى إليها في قمة مجده العلمي، وفي أواخر حياته المليئة بالجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وما إن أضحى بجرأاً لا ساحل له في مختلف العلوم الإسلامية واللغوية - باشر في وضع تفسير محكم لكتاب الله العزيز ينبع من صفاء علمه، وعرفانه، وهدايته، وتقواه.

وبقلمه البليغ بدأ ﷺ نشر التفسير الذي وضعه في مجلة «لواء الإسلام» التي كانت تصدر بالقاهرة، وكان رئيساً لتحريرها، بدءاً من العدد الأول الصادر بتاريخ الأول من شهر رمضان المبارك لعام ١٣٦٦ هـ الموافق التاسع عشر من شهر يوليو تموز ١٩٤٧ م.

واستمر في هذا العمل الجليل حتى أثقلته السنون، وقد قارب عمره الطاهر على الثمانين عاماً.

وتحت وطأة الشيخوخة توقف عن متابعة هذا الجهد الرائع والإنتاج الفكري العظيم، وكانت آخر الصفحات من التفسير هي تلك التي نشرها في العدد الثاني عشر من السنة الرابعة لمجلة لواء الإسلام والصادر في شهر شعبان لعام ١٣٧٠ هـ الموافق شهر مايو أيار لعام ١٩٥١ م»<sup>(١)</sup>.

ثم بين الأستاذ علي الرضا الآيات التي قام الشيخ بتفسيرها، فقال: «قام المؤلف بتفسير القسم الأكبر من سورة البقرة حتى الآية ١٩٥ بالإضافة إلى سورة الفاتحة، وبتفسير آيات قرآنية كريمة من سور مختلفة وهي: آية من سورة آل عمران - آيات من سورة الحج - آيات الصيام - ثلاث آيات من سورة الأنفال - أربع آيات من سورة يونس - خمس آيات من سورة ص».

وقد ضمنا في هذا الكتاب تفسير آيات سورة البقرة من ١-١٩٥ والمنشور في أعداد مجلة لواء الإسلام، ودروس التفسير التي ألقاها في بعض النوادي والجمعيات الإسلامية ونشرت في مجلة «الهداية الإسلامية» التي كان يصدرها المؤلف في القاهرة»<sup>(٢)</sup>.

١ - أسرار التنزيل ص ٣.

٢ - المرجع السابق ص ٣.

والآيات التي فسرهما في هذا الكتاب على وجه التحديد هي ما يلي:

- تفسير سورة الفاتحة.
- تفسير آيات من سورة البقرة ١-١٨٢.
- تفسير آيات الصوم ١٨٣-١٨٥.
- تفسير آيات من سورة البقرة ١٨٦-١٩٣.
- تفسير آيات من سورة البقرة ٢١-٢٢.
- تفسير آيات من سورة البقرة ١١٩-١٢٠.
- تفسير آيات من سورة آل عمران ٥٢-٥٥.
- تفسير آية من سورة آل عمران ١٥٩.
- تفسير آيات من سورة الأنفال ٢٤-٢٦.
- تفسير أربع آيات من سورة يونس ٦٢-٦٥.
- تفسير آيات من سورة الحج ٢٧-٢٨.
- تفسير خمس آيات من سورة ص ٢١-٢٥.<sup>(١)</sup>

هذا وسيأتي تعريف بالمنهج الذي سار عليه في تفسيره في الباب الثاني عند الحديث عن مصادره في تلقي العقيدة.

الثاني: بلاغة القرآن: وقد جاء هذا الكتاب في المجلد الثاني من موسوعة الأعمال الكاملة وقد بلغ عدد صفحاته مائتين وثماناً وسبعين صفحة<sup>(٢)</sup>.

ويحتوي على بحوث، وردود، ومقالات كتبها الشيخ الخضر عن القرآن العظيم، وتفسيره، والدفاع عنه، وما جرى مجرى ذلك.

١ - انظر المرجع السابق ص ٤٢٣ .

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٤٣٩/٢-٧١٦ .

والشيخ الخضر لم يضع هذا العنوان، وإنما وضعه ابن أخيه علي الرضا الحسيني، وذلك عندما جمع تلك البحوث، والمقالات، والردود، وجعل لها عنواناً سماه (بلاغة القرآن).

وهذا العنوان هو عنوان البحث الأول من هذا الكتاب، وإلا فإن الكتاب لا يختص ببلاغة القرآن - كما سيأتي بيانه عند عرض موضوعاته..

وقد طبع هذا الكتاب مفرداً في المكتبة التعاونية بدمشق عام ١٩٧١م، وطبع كذلك في الدار الحسينية عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

ووضع عليه الأستاذ علي الرضا مقدمة بيّن فيها محتوى الكتاب، وتسميته، ومصادره التي نقل عنها هذه البحوث في هامش كل صفحة.

والناظر في موضوعات الكتاب يرى أن تسميته بـ: (بلاغة القرآن) غير دقيقة؛ لأنه يحتوي أموراً تتعلق بالبلاغة القرآنية وغيرها.

وإنما أثر الناشر هذه التسمية؛ لأنها عنوان البحث الأول - كما ذكر -.

ولو سمي الكتاب (بحوث في القرآن وعلومه) أو نحو ذلك لكان أدق.

وعلى كل حال فالكتاب يحتوي على موضوعات قيمة تمس الحاجة إليها، وقد

تناولها المؤلف بقلمه البليغ، وبيانه المحكم، ونظره المستقل، وبجته المستوعب.

وقد جاءت محتويات الكتاب على النحو التالي:

١- بلاغة القرآن: وهو بحث نشره المؤلف في مجلة الهداية الإسلامية في الجزء

التاسع من المجلد العشرين الصادر في شهر ربيع الأول عام ١٣٦٧هـ.

وقد تكلم فيه على ناحية من نواحي إعجاز القرآن، وهي بلاغته التي تكمن في

فصاحة ألفاظه، وإحكام نظمه، ودلالته على المعنى بانتظام ووفاء.

- ٢- نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية: وقد نشر في مجلة نور الإسلام الجزء الثاني من المجلد الثاني صفر ١٣٥٠هـ.
- ٣- رأي في تفسير القرآن: وقد نشر في مجلة لواء الإسلام العدد الخامس، من السنة الأولى في محرم ١٣٦٦هـ.
- ٤- أمثال القرآن الكريم: وقد نشر في مجلة الهداية الإسلامية الجزء الثالث من المجلد السادس عشر الصادر في شهر رمضان ١٣٦٢هـ، وهو محاضرة في كلية اللغة العربية.
- ٥- المحكم والمتشابه في القرآن الكريم: وقد نشر في مجلة الهداية الإسلامية، الجزء الحادي عشر، والجزء الثاني عشر من المجلد الثامن عشر الصادران في الجمادين ١٣٦٥هـ، وهو محاضرة ألقاها أمام طلاب السنة الثالثة (تخصص المادة) بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر.
- ٦- اليمين في القرآن والحديث: نشر في مجلة لواء الإسلام العدد التاسع، من السنة التاسعة الصادرة في جمادى الأولى ١٣٧٥هـ<sup>(١)</sup>.
- ٧- الرقية والاقْتباس والاستخارة في القرآن: نشر في مجلة لواء الإسلام من السنة التاسعة الصادرة في ربيع الأول ١٣٧٥هـ.
- ٨- إعجاز القرآن وبلاغته: نشر في مجلة لواء الإسلام العدد الثامن من السنة الحادية عشرة الصادر في ربيع الثاني ١٣٧٧هـ.
- ٩- ترجمة القرآن: نشر في مجلة لواء الإسلام العدد الثامن من السنة الرابعة في ربيع الثاني ١٣٧٠هـ<sup>(٢)</sup>.

١ - انظر بلاغة القرآن ص ٣-٦٠.

٢ - انظر المرجع السابق ص ٦١-٧٨.

١٠- حقيقة ضمير الغائب في القرآن: وهو رد على الدكتور طه حسين في محاضرة ألقاها في مؤتمر المستشرقين في السابع عشر بجامعة أكسفورد عنوانها (ضمير الغائب واستعماله إشارة في القرآن)، فرد عليه الشيخ بهذا البحث الذي نشر في مجلة الهداية الإسلامية العدد الثاني من المجلد الأول في رجب ١٣٤٧هـ.

وقد قال الشيخ الخضر في المقدمة: «وقد نشرت مجلة الرابطة الشرقية ملخص هذه المحاضرة، فإذا هي طائشة الوثبات، كثيرة العثرات؛ فرأينا من حق العلم علينا أن ننشر في هذه المجلة ما تراءى لنا من أغلاط...»<sup>(١)</sup>.

ثم شرع في تفنيد كثير من الآراء التي ذهب إليها الدكتور طه حسين.

١١- القرآن لا يقول إلا حقاً: وقد نشر في مجلة الهداية الإسلامية العددان

الحادي عشر والثاني عشر في ذي القعدة وذي الحجة ١٣٧٣هـ.

١٢- الفن القصصي في القرآن: وهو رد على كتاب الدكتور محمد أحمد

خلف الله (الفن القصصي في القرآن).

وقد نشر في مجلة الهداية الإسلامية الجزء السابع والثامن من المجلد الحادي والعشرين

في رجب وشعبان ١٣٦٧هـ.

١٣- تحريف آيات الحدود عن مواضعها: وقد نشر في مجلة الهداية الإسلامية الجزء

السابع من المجلد التاسع في محرم سنة ١٣٥٦هـ.

وهو رد على مقال (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي) لعبدالمعتال الصعيدي

الذي أبدى في مقاله رأياً مفاده أن الأمر في آية السرقة، وآية الزنا يُحْمَل على الإباحة لا

على الوجوب.

١٤- كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد: وقد نشر في مجلة نور الإسلام العدد الثاني من المجلد الثاني الصادر في صفر ١٣٥٠هـ، وهو نقد لكتاب (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) تأليف محمد أبو زيد الدمنهوري.

١٥- كتاب يلحد في آيات الله: وقد نشر في مجلة نور الإسلام العدد الثامن من المجلد الأول الصادر في شهر شعبان ١٣٤٩هـ، وهو نقد لكتاب (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) تأليف: الطاهر الحداد.

١٦- قصة أيوب -عليه السلام- ونقض آراء حديثه في تفسيرها: وقد نشر الرد الأول منه في مجلة الهداية الإسلامية الجزء العاشر والثاني عشر من المجلد السابع لعام ١٣٥٤، والأجزاء الثاني والثالث والرابع من المجلد الثامن لعام ١٣٥٤هـ.

والرد الثاني في الجزء الثاني عشر من المجلد السابع الصادر في جمادى الثانية ١٣٥٤هـ، والرد الثالث في الجزء الثاني من المجلد الثامن في شهر شعبان ١٣٥٤هـ، والرد الرابع في الجزء الثالث من المجلد الثامن في رمضان ١٣٥٤هـ.

والرد الخامس في المجلد الثامن الصادر في شوال ١٣٥٤هـ<sup>(١)</sup>.

١٧- نزل القرآن على سبعة أحرف: وهي محاضرة ألقاها الشيخ الخضر لطلبة التخصص في التفسير والحديث بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر.

وقد وجدها الأستاذ علي الرضا مخطوطة في أوراق الشيخ المحفوظة في دار الوثائق القومية بالقاهرة<sup>(٢)</sup>.

فهذا هو محتوى كتاب (بلاغة القرآن) بإيجاز شديد.

١ - انظر المرجع السابق ص ١١٧-٢٧١.

٢ - انظر المرجع السابق ص ٢٧٢-٢٧٦.

الثالث- دراسات في الشريعة الإسلامية: ويقع في مائتين وثلاث وثلاثين صفحة، وذلك من المجلد الثاني من الموسوعة الكاملة<sup>(١)</sup>.

وهذا الكتاب لم يسمه مؤلفه الشيخ الخضر، وإنما سماه الأستاذ علي الرضا الحسيني. وهذا الكتاب يضم مجموعة من المقالات التي خطتها يراعة الشيخ الخضر في مجلة (لواء الإسلام) التي كان الشيخ الخضر يرأس تحريرها منذ أن صدر العدد الأول منها، وذلك في شهر رمضان ١٣٦٦هـ في القاهرة.

وهذه المقالات غير المقالات التي كان يكتبها الشيخ في التفسير، والتي خرجت في كتاب (أسرار التنزيل).

ومقالات هذا الكتاب (دراسات في الشريعة الإسلامية) تميل إلى القصر، والتنوع، ولا يجمعها باب واحد، فهي تشتمل على العقائد، والأحكام، والعبادات، والأخلاق، والآداب، والتحذير من البدع، والمظالم وما جرى مجرى ذلك.

كما أنها تحتوي على مقال بعنوان (ملاحظات على مقال: مولد النبي) وهو رد على علي عبدالرازق في مقاله: (مولد النبي).

وعلى آخر مقال كتبه الشيخ وهو مقال (فساحة الصدر ونزاهة اللسان عن المكروه).

وفيما يلي مسرد عام لعنوانات تلك المقالات:

- ١- الله موجود ٢- الأحكام العادلة ٣- كيف تستنبط القواعد من الكتاب والسنة؟ ٤- الحديث الصحيح حجة في الدين ٥- الشهادة وأثرها في إقامة الحقوق
- ٦- الذرائع: سدها وفتحها ٧- مراعاة العرف ٨- حكمة الإسلام في العزائم

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٧١٧/٢-٩٤٩.

والرخص ٩- موقف الإسلام من الرؤيا وتأويلها ١٠- الكبيرة والصغيرة  
 ١١- الذوق، وفي أي حال يعتد به؟ ١٢- النذر ١٣- المتعة ١٤- استحضار الأرواح  
 ١٥- حكم الإسلام فيمن بلغت الدعوة ١٦- العدوى والطيرة ١٧- الزكاة وأثرها في  
 نهوض الأمة ١٨- الغيبة وأثرها في النفوس ١٩- حقوق الزوجية ٢٠- صلاة  
 الجماعة وأثرها في اتحاد الأمة ٢١- الدعوة القائمة على حق ٢٢- فساحة الصدر  
 ونزاهة اللسان عن المكروه ٢٣- مكافحة المظالم موجبة للسلام ٢٤- ما يلاقيه  
 العلماء من المكاره ٢٥- ما يلاقيه العلماء من سماحة الأمراء ٢٦- المال المباح في  
 الإسلام ٢٧- الطلاق في الإسلام ٢٨- تعدد الزوجات ٢٩- النظافة في الإسلام ٣٠-  
 العلوم في دائرة الإيمان ٣١- الرفق بالضعفاء ٣٢- الأدباء العلماء ٣٣- زينة الإنسان  
 حسن السمات ٣٤- المنافقون في عهد النبوة، والملاحدة بعده ٣٥- ملاحظات على  
 مقال: مولد النبي ٣٦- تحقيق مذهب مالك في رفع اليدين عند الركوع والرفع منه  
 ٣٧- تحقيق مذهب مالك في إشارة المصلي في التشهد بإصبعه ٣٨- نزول القرآن في  
 رمضان ٣٩- صلاة التراويح ٤٠- رجم الزاني المحصن وشرعيته ٤١- بحث لفظي في  
 آيتي السرقة والزنا ٤٢- عاشوراء ٤٣- عصمة الأنبياء ٤٤- ترجمة القرآن<sup>(١)</sup>.

الرابع- محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ : وهذا الكتاب يقع في ثلاثمائة  
 وخمس وثلاثين صفحة من الموسوعة<sup>(٢)</sup>.

وقد طبع قبل ذلك في كتاب مستقل، بعناية الأستاذ علي الرضا الحسيني،  
 وطبع الدار الحسينية عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١ - انظر دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٥- ٢٣٠ .

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٣/٩٥٥-١٢٩٣ .

وهو يضم مجموعة من الرسائل، والمحاضرات، والبحوث حول السيرة النبوية، وما يتعلق بها، وما يثار حولها من مزاعم باطلة. وقد جمعها الأستاذ علي الرضا الحسيني، وأخرجها في كتاب، وسماه باسم إحدى الرسائل التي تضمنها الكتاب وهي (محمد رسول الله وخاتم النبيين). وقد تناول الشيخ الخضر رحمته الله تلك الجوانب من السيرة، فصاغها بأسلوبه الممتع؛ فجاءت بصورة تحمل طابع الجدّة، والطرافة، والملائمة لروح العصر. هذا وقد خرج بعض تلك البحوث في رسائل مستقلة - كما سيأتي عند عرض ما تضمنه هذا الكتاب..

ولقد بين الشيخ الخضر رحمته الله في مقدمة الكتاب شيئاً من أسباب تأليفه في السيرة النبوية، فقال: «فقد كثّر ما وقع في أيدينا من صحف يضعها أولئك الذين سموا أنفسهم (المبشرين) ويتعرضون فيها لدين الإسلام بكلمات خبيثات، يبتغون بها إخراج أبنائنا وبناتنا من نور الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال. ما أراه في تلك الصحف، ثم ما أذاعته الصحف السيارة في العهد القريب من قصص محاولة تلك الطائفة لتنصير بعض الفتيان والفتيات - قد دعيتني إلى تحرير رسالة في سيرة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته السنية»<sup>(١)</sup>. إلى أن قال: «وغير خفي على من يقدر هذا الرسول الأعظم قدره أن ليس في طوق كاتب - ولو ألفت إليه البلاغة بأعنتها - تقصي المعاني التي في هذه السيرة العظيمة، أو تساق في دلائل هذه النبوة المباركة.

١ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٥ .

إنما القصد من تأليف هذه الرسالة: أن أصوغ من تلك السيرة النبوية، ودلائل النبوة المحمدية فصلاً وجيزة، ثم أعرضها عليك في صفحات يمكنك أن تأتي عليها في زمن قليل»<sup>(١)</sup>.

أما الرسائل والبحوث التي جاءت في ذلك الكتاب فهي كالآتي:

١- أديان العرب قبل الإسلام: وقد نشرت هذه الرسالة تبعاً في مجلة الهداية الإسلامية في أشهر: ربيع الأول، وجمادى الثاني، ورجب، ورمضان عام ١٣٥٨هـ، وقد تضمنت حديثاً عن بعثة الأنبياء، هود، وصالح، وإسماعيل، وشعيب - عليهم السلام -.

كما تضمنت حديثاً عن الشرك في بلاد العرب، وعن عبادة الأصنام، والأشجار، وبعض الحيوان، والكواكب، والملائكة، والجن.  
كما تحدثت عن بعض الأديان عند العرب كالبرهمية، والصابئة، والمجوسية، والدهرية، واليهودية، والنصرانية، والموحدين في العرب<sup>(٢)</sup>.

٢- محمد رسول الله وخاتم النبيين: وقد نشر في مجلة الهداية الإسلامية الجزآن السابع والثامن من المجلد الثاني والعشرين رجب وشعبان ١٣٦٩هـ، والأجزاء من التاسع إلى الثاني عشر من رمضان إلى ذي الحجة ١٣٦٩هـ.

وقد طبعت هذه الرسالة في كتاب مستقل سنة ١٩٣٣م ثم أعيد طبعتها عدة مرات، ومنها الطبعة الثالثة عن الدار الحسينية للكتاب، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، إعداد وضبط علي الرضا الحسيني.

١ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ ص ٥ .

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٣/٩٦٥-١٠٠٤ .

وقد تضمنت هذه الرسالة حال العرب قبل بعثة النبي ﷺ ونشأته، وسيرته، ودلائل نبوته، والقرآن الكريم، وبشارات الأنبياء والرسل قبل مجيئه، والمعجزات المحسوسة، وعموم بعثته، ودوام شريعته، وختمه للنبوّة، وخلقّه، واجتهاده في عبادة ربه، وأثر دعوته في إصلاح العالم<sup>(١)</sup>.

٣- صبر محمد ﷺ ومثانة عزمه. ٤- الهجرة النبوية. ٥- رفقه وحكمته البالغة في السياسة. ٦- نظرة في دلائل النبوة. ٧- عظمة رسول الله ﷺ وهدايته. ٨- شجاعته - عليه الصلاة والسلام - ٩- منقذ العالم من الظلمات. ١٠- آداب الدعوة وحكمة أساليبها. ١١- رجاحة عقله ﷺ وحكمة رأيه. ١٢- هجرة الصحابة إلى الحبشة وأثرها في ظهور الإسلام. ١٣- إبادته للأصنام ﷺ. ١٤- حياة الدعوة الإسلامية بجزيرة العرب. ١٥- قضاء البعثة المحمدية على المزاعم الباطلة. ١٦- البلاغة النبوية. ١٧- الاحتفال بذكرى الهجرة النبوية. ١٨- لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. ١٩- الهجرة مبدأ التاريخ العام في الإسلام. ٢٠- المعجزات الكونية. ٢١- من آداب خطب النبي - عليه الصلاة والسلام - ٢٢- في الهجرة بركة.

وهذه المقالات في مجملها- قصيرة، وأصل أكثرها محاضرات، أو كلمات للشيخ الخضر، ولم تطبع واحدة منهن مفردة.

٢٣- العظمة: وأصلها محاضرة للشيخ محمد الخضر حسين في دار جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية بالقاهرة يوم ١٢ ربيع الأول ١٣٤٦هـ، وقد تضمنت الرد على مقالة علي عبدالرازق التي نشرها في جريدة السياسة.

وقد نُشرت مقالة الشيخ الخضر في مجلة الفتح العدد ٦٨ من السنة الثانية ١٣٤٦هـ، وقد طبعتها المطبعة السلفية في رسالة مستقلة عام ١٣٤٦هـ، ثم طبعت ضمن موسوعة كتاب محمد رسول الله وخاتم النبيين، ثم طبعت في موسوعة الأعمال الكاملة، وتقع في عشرين صفحة من موسوعة الأعمال الكاملة<sup>(١)</sup>.

ومضمون هذه الرسالة رد على علي عبدالرازق الذي كتب مقالاً تعرض فيه إلى معنى العظمة، وعبادة الناس للعظماء، وأشار إلى أن محمداً ﷺ لم يكن عظيماً حسب المفهوم المتعارف عليه؛ لأنه لم يكن ملكاً، ولا غنياً، ولا فيلسوفاً، ولا فاتحاً عظيماً، ولا مخترعاً، ولا مكتشفاً، وإنما تبدو عظمته في كلمة واحدة جاء بها وهي (لا إله إلا الله).

وقد ألقى الشيخ محمد الخضر المحاضرة المذكورة، ونشرها، وتحدث فيها عن معاني العظمة، وما يراد منها عامة، وبالنسبة إلى الرسول ﷺ خاصة. وقد أورد أقوالاً لبعض الكتاب الغربيين في عظمة الرسول ﷺ وبين نظرة المسلمين إلى النبي ﷺ وإجلالهم له.

ثم حصر نقاشه مع علي عبدالرازق في موضوعين، الأول منهما: تعرضه إلى مظاهر عظمة الرسول ﷺ ضمن الحديث عن مظاهر العظمة في ميادين مختلفة، مثل اللصوصية، وجمال الغواني.

أما الموضوع الثاني فهو اقتصار علي عبدالرازق في بيان عظمة رسول الله ﷺ على إتيانه بكلمة (لا إله إلا الله).

إذ يعتبر الشيخ الخضر أن هذه العظمة تتمثل بالإضافة إلى ذلك في علم النبي ﷺ وخلقته، وإخلاصه، وحسن بيانه.

ولم يخلُ النقاش من الإشارة إلى القضية الجوهرية التي هي سبب خصومة الرجلين، وهي أن الإسلام دين ودولة، وأن خليفة المسلمين هو المسؤول الأول عن رعاية شؤونهم الدينية والدينية.<sup>(١)</sup>

٢٤- الهجرة وشخصيات الرسول ﷺ: وهو رد علمي محكم رصين على مقال للشيخ محمود شلتوت في مجلة الرسالة عنوانه (الهجرة وشخصيات الرسول).  
وقد رد عليه الشيخ الخضر في مجلة الهداية الإسلامية الجزء الثاني عشر من المجلد الرابع عشر الصادر في جمادى الآخرة سنة ١٣٦١هـ، والجزء الأول من المجلد الخامس عشر الصادر في رجب سنة ١٣٦١هـ.

وقد جاء هذا الرد في ست وسبعين صفحة<sup>(٢)</sup>.

وخلاصة ما يرمي إليه مقال الشيخ شلتوت أن الذي يعد شرعاً دائماً هو ما يرجع إلى شخصيات الرسول ﷺ من العقائد، وأصول الأخلاق، والعبادات.

وما عدا ذلك مما يرجع إلى شخصية الإمام أو المفتي أو القاضي - فليس بشرع دائم، وإنما هو شرع مؤقت يمكن أن يتأثر بالاجتهاد، وأن يترك العمل به لسبب من الأسباب.<sup>(٣)</sup>

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٤٤-١٤٦.

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٣/١١٨٥-١٢٦٠.

٣ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ ص ٢٢٨.

يقول الشيخ محمد الخضر رحمته في مقدمة ذلك الرد: «أحضرت ذلك المقال المنشور تحت عنوان (الهجرة وشخصيات الرسول) وقرأته قراءة خالي الذهن مما قيل فيه، فما لبثت أن لاقتني جمل صيغت في قالب ذي وجهين، وأطلت عليّ آراءً قلت لما لمحتها: أما وجدت هذه الآراء وادياً غير هذا الوادي، أو عهداً غير هذا العهد؟ وأمسكت بالقلم ناقداً لها بعدل، مناقشاً لها بإنصاف.

وسأسلك - بتوفيق الله تعالى - الطريقة التي اخترتها لنفسي في مناقشة ما يبدو لي أنه جدير بالمناقشة؛ فأنقل عبارات كاتب المقال بأعيانها؛ لأسير أنا والقارئ في النقد جنباً إلى جنب، ولا أظلم صاحب المقال، ولا أظلم الحق أو العلم»<sup>(١)</sup>.  
ثم شرع رحمته في نقد المقال على النحو الذي وعد به.

يقول الدكتور أحمد الشرباصي رحمته: «يذكر القراء أن الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت وكيل كلية الشريعة الإسلامية كتب في بعض أعداد مجلة (الرسالة) مقالاً عنوانه: (الهجرة وشخصيات الرسول) ذهب فيه مذاهب أهاجت عليه المسلمين في مصر وبعض الأقطار العربية، ورأى الأستاذ الخضر أن في هذا المقال من الآراء ما هو خطأ محض، ولا يصح السكوت عليه، أفندري ماذا فعل؟ لم يُثِرْ، ولم يغضب، ولم يَرُدَّ على مقالة الأستاذ شلتوت بمقال مثله في عجلة وتسرع؛ بل أقبل على موضوع المقال، فدرسه دراسة العالم الخبير، وجمع الدلائل والشواهد على ما فيه من أخطاء، ثم جلس إلى مكتبه الهادئ العامر بمكتبته العظيمة في دار جمعيته، وكتب كتابه القيم (نقد مقالة الهجرة وشخصيات الرسول) وطبعه فيما يزيد على تسعين صفحة، فعلى الذين قرؤوا

مقالة الشيخ شلتوت، أو سمعوا بها: أن يحرصوا على قراءة هذا الكتاب الذي يعد مثلاً على الإنصاف في النقد، والعفة في المجادلة، والحكمة في الدعوة، حتى يتبين لهم الحق بعد أن يسمعوا كلام الفريقين»<sup>(١)</sup>.

٢٥- ملاحظات على مقال مولد النبي ﷺ: وقد نشر في مجلة لواء الإسلام العدد الثامن من السنة الثامنة، الصادر في ربيع الثاني ١٣٧٤هـ.

ويقع في ثمان صفحات، وهو رد على مقال لعلي عبدالرازق نشر في جريدة الأخبار عنوانه: «مولد النبي»<sup>(٢)</sup>.

٢٦- أربع قصائد: وهي قصيدة تحية المقام النبوي، وقصيدتان في ذكرى المولد، وقصيدة: مشاهداتي في الحجاز<sup>(٣)</sup>.

فهذا هو مجمل ما تضمنه كتاب (محمد رسول الله وخاتم النبيين).

الخامس: تراجم الرجال: وهذا الكتاب يقع في الصفحات ٣/١٢٩٥-١٤٢٦ من موسوعة الأعمال الكاملة.

وقد جمعه وسماه الأستاذ علي الرضا الحسيني، وقال في مقدمته: «في هذا الأثر الذي سميناه: (تراجم الرجال) ضمنا ما كتبه الإمام الأكبر العلامة محمد الخضر حسين من مقالات أعلام الإسلام، ونشر في مجلتي (الهداية الإسلامية) و (نور الإسلام) أو ما ألقاه من محاضرات في النوادي الإسلامية.

والهدف من هذه التراجم: أن تكون قدوة للحاكم والمواطن المسلم، ومناراً وهدياً لكل من ينشد حياةً ملؤها العزة والسعادة.

١ - انظر رسائل الإصلاح ص ٢٨٣-٢٨٤.

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٣/١٢٦١-١٢٦٨.

٣ - انظر المرجع السابق ٣/١٢٦٩-١٢٨٧.

وقد رتبنا الأبحاث في هذا الكتاب وفق التسلسل التاريخي، واعتمدنا في ذلك تواريخ الولادة، دون النظر إلى تاريخ نشر المقال، أو إلقاء المحاضرة. ولا بد من التنويه أن ثمة تراجم قيمة للمؤلف نشرت في كتاب (تونس وجامع الزيتونة) وهي تراجم الأعلام التونسيين لم تثبتها في هذا الكتاب<sup>(١)</sup>. ولقد خرج هذا الكتاب مستقلاً قبل أن يخرج ضمن الموسوعة الكاملة، حيث أخرجه الأستاذ علي الرضا الحسيني في كتاب يقع في مائة وأربعة وعشرين صفحة، وطبع في المطبعة التعاونية عام ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م. وقد احتوى هذا الكتاب على الموضوعات التالية:

- ١- نظرة في ناحية من خلافة عثمان. ٢- موسى بن نصير. ٣- علي زين العابدين. ٤- محمد الباقر، وزيد. ٥- نظرة في حياة عمر بن عبدالعزيز. ٦- نظرة في حياة الإمام مالك بن أنس. ٧- صقر قريش، وكيف تأسست الدولة الأموية بالأندلس. ٨- أبو داود وكتابه (السنن). ٩- صفحة من حياة أبي الحسن الأشعري. ١٠- القاضي أبو الحسن الجرجاني. ١١- حجة الإسلام الغزالي. ١٢- أبو بكر ابن العربي. ١٣- أحمد تيمور باشا<sup>(٢)</sup>.

السادس- الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان: وهذا الكتاب يقع في مائتين وتسعين صفحة من موسوعة الأعمال الكاملة.

ويحتوي على مباحث في أصول الدين، وأصول الفقه، ومقاصد الشريعة، والأحكام العملية، والفتاوى، والتحذير من البدع، ونحو ذلك.

١ - انظر تراجم الرجال ص ٣.

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٣/١٢٩٥-١٤٢٦.

وبعضها ألقى في محاضرات في قسم التخصص بكلية أصول الدين في الجامع الأزهر، أو في نوادٍ وجمعيات إسلامية مختلفة.

وبعضها نشر في مجلتي (نور الإسلام) و (الهداية الإسلامية).

وقد جمع الأستاذ علي الرضا الحسيني هذه المباحث تحت اسم (الشرعية الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان) وهو البحث الأول من هذا الكتاب، والذي كان يجمع القسم الأكبر من الجزء الثالث من كتاب (رسائل الإصلاح).

وخرج في كتاب مستقل يقع في مائتين واثنتين وعشرين صفحة، وذلك عام ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

ومباحث هذا الكتاب هي - كما قال الشيخ الخضر -: «في حاجة إلى أن تبحث بفكر لا يتعصب لقديم، ولا يفتن بجديد، يعتمد الرأي حيث يثبت الدليل، ويتقبل الحكم متى لاحت بجانبه حكمة، ويثق بالرواية بعد أن يُسَلِّمَهَا النَقْدُ إلى صدق». <sup>(١)</sup>

وهذا الكتاب يحتوي على الرسائل التالية:

١- الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ٢- مدارك الشريعة الإسلامية وسياستها <sup>(٢)</sup> ٣- النسخ في الشريعة الإسلامية ٤- صحيح البخاري وأثره في حفظ

١ - انظر الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ٣ .

٢ - هذه الرسالة (مدارك الشريعة الإسلامية) من أعظم ما كتبه الشيخ الخضر في باب: مقاصد الشريعة، والأصول، والسياسة الشرعية، وهي محاضرة ألقاها في بواكير حياته، في نادي (جمعية تلامذة المدرسة الصادقية) بتونس يوم السبت ١٨/جمادى الثانية ١٣٣١هـ.

وطبعت مفردة للمرة الأولى على نفقة أخيه محمد المكي بن الحسين، ونشرتها مجلة البدر التونسية في الجزأين الثامن والعاشر من المجلد الثاني عشر سنة ١٣٤٠هـ، وطبعها الأستاذ علي الرضا الحسيني ضمن كتاب (الشرعية الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان) عام ١٣٩١هـ، ثم أعاد طبعها مستقلة عدة طبعات، ومنها الطبعة الثالثة عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، وقد تكلم فيها على حكمة التشريع، وكون الشرائع سماوية ووضعية، وعلى منابع الشريعة الإسلامية، واختلاف المذاهب، وانتشارها، وطبقات الفقهاء، والفقهاء والأمراء.

الشريعة ٥ - السنة والبدعة ٦- الرؤيا ليست طريقاً للأحكام الشرعية ٧- وجوب العمل بالحديث الشريف ٨- أسباب وضع الحديث ٩- الحديث المتواتر وحكم ما رواه البخاري ومسلم ١٠- اجتهاد ابن القاسم ١١- ليلة النصف من شعبان ١٢- نظرة في أحاديث المهدي ١٣- لا عدوى ولا طيرة ١٤- باب في حديث السحر ١٥- السنن والحكم النبوية ١٦- شرح مسألة الاقتداء بالمذهب المخالف ١٧- صنع الصور واقتناؤها ١٨- مكافحة الجشع والغش في المعاملات المالية ١٩- التصوف ٢٠- حكم تعدد الزوجات في الإسلام ٢١- الأخذ بالدين ٢٢- الفتاوى والأحكام<sup>(١)</sup>.

السابع- محاضرات إسلامية: ويقع في مائتين وست وثلاثين صفحة وذلك من ١٧٢٩/٤ - ١٩٦٤ من موسوعة الأعمال الكاملة.

ويحتوي على محاضرات ألقاها الإمام في عدد من الجمعيات الإسلامية سواء في تونس أو القاهرة.

ومنها ما نشر في رسائل صغيرة مطبوعة، ومنها ما نشر في مجلتي (نور الإسلام) والتي تعرف اليوم باسم مجلة (الأزهر) ومجلة (الهداية الإسلامية)<sup>(٢)</sup>. وقد جمعها الأستاذ علي الرضا الحسيني في كتاب سماه (محاضرات إسلامية). وطبع هذا الكتاب بهذا المسمى، وخرج مفرداً عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م في مائتين وثلاثين صفحة، وقد طبعته المطبعة التعاونية.

كما أن بعض رسائل هذا الكتاب خرجت مفردة - كما مر وكما سيأتي - هذا وقد اشتمل كتاب (محاضرات إسلامية) على ما يلي:

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١٤٣٩/٤ - ١٧٢٨.

٢ - محاضرات إسلامية ص ٣.

- ١- الحرية في الإسلام: وقد طبعت مراراً، ومرت الإشارة إليها، وسيأتي مزيد تفصيل لها عند الحديث عن وسائل الشيخ الخضر في الردود على المخالفين، وعن موقفه من قضية الحرية.
- ٢- علماء الإسلام في الأندلس: وهي محاضرة نشرت في رسالة عام ١٣٤٧هـ، وقد ألقاها الإمام في نادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة مساء الأربعاء ١٨/١١/١٣٤٦هـ.
- ٣- السعادة عند بعض علماء الإسلام: وهي محاضرة في نادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة في صفر ١٣٤٧هـ، ونشرت في رسالة عام ١٣٤٨هـ.
- ٤- التصوف في القديم والحديث: وهي محاضرة أقيمت في نادي جمعية مكارم الأخلاق يوم الجمعة ٢٨/٨/١٣٤٧هـ، ونشرت في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء الخامس من المجلد الأول.
- ٥- الدهاء في السياسة: وهي محاضرة أقيمت في نادي جمعية الهداية الإسلامية، ونشرت في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء السادس من المجلد الخامس.
- ٦- الزينة والرفاهية في الإسلام: وهي محاضرة ألقاها الإمام في نادي جمعية الهداية الإسلامية يوم الخميس ١٣/١/١٣٥٣هـ، ونشرت في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء السابع من المجلد السادس.
- ٧- الصداقة: محاضرة أقيمت في نادي جمعية الهداية الإسلامية، ونشرت في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزآن الأول والثاني في المجلد الثامن، كما أنها موجودة في كتاب (رسائل الإصلاح) في طبعة دار الإصلاح في الدمام. وهي من أحسن ما كتب في باب الصداقة.

٨- مضار الإسراف: وهي محاضرة في دار الإذاعة المصرية بالقاهرة بدعوة من وزارة الشؤون الاجتماعية، ونشرت في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء الأول والثاني من المجلد الرابع عشر.

٩- تعاون العقل والعاطفة على الخير: وقد نشرت في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزآن الثالث والرابع من المجلد الرابع عشر<sup>(١)</sup>.

١٠- حقوق الفقراء على الأغنياء في الإسلام: وهي محاضرة ألقاها في دار الإذاعة المصرية بدعوة من وزارة الشؤون الاجتماعية، ونشرت في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء الخامس والسادس من المجلد الرابع عشر.

١١- السمو الخلقي في الإسلام: مجلة الهداية الإسلامية، الجزآن السادس والثامن من المجلد السابع عشر.

١٢- المعتزلة وأهل السنة: وهي محاضرة في نادي جمعية الهداية الإسلامية، ونشرت في مجلة (الهداية الإسلامية) الأجزاء الرابع، والخامس، والسادس، والسابع، والثامن من المجلد الثامن عشر.

١٣- اختلاط الجنسين في نظر الإسلام: وقد نشر في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء السادس من المجلد الثالث عشر.

١٤- نقد آراء الأستاذ فريد وجدي من الناحية الدينية والاجتماعية: وهما محاضرتان: المحاضرة الأولى ألقى بدار جمعية الهداية الإسلامية بالقاهرة مساء الخميس سنة ١٣٥٠هـ، ونشرت في الجزء الأول من المجلد العاشر لمجلة نور الإسلام.

والمحاضرة الثانية في نادي جمعية الهداية الإسلامية، ونشرت في الجزء التاسع من المجلد الرابع لمجلة (الهداية الإسلامية)<sup>(٢)</sup>.

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١٧٣١/٤-١٨٧٩.

٢ - انظر المرجع السابق ١٨٨٠/٤-١٩٦٠.

فهذا هو مجمل ما احتواه كتاب (محاضرات إسلامية).

الثامن: رسائل الإصلاح: وهذا الكتاب يكاد يكون أنفع كتب الشيخ، وأعظمها، وأكثرها أثراً.

وقد صدر في حياة الشيخ؛ حيث اقترح عليه عدد من العلماء سنة ١٣٥٨هـ أن يجمع ما كتبه من مقالات في الدين، والأخلاق، والاجتماع في كتب حتى يسهل على القراء مطالعتها دون عناء، أو مراجعتها دون الرجوع إلى المجلات الكثيرة التي نشرت فيها أول مرة؛ فقبل الشيخ هذا الاقتراح، وأخذ في جمعها وإعادة النظر فيها، ثم نشرها في كتاب يتألف من ثلاثة أجزاء، وسماه (رسائل الإصلاح).

وأما الجزء الأول فطبع في مطبعة (الهداية الإسلامية) وهو يحوي أربعة وعشرين موضوعاً موزعة على مائتين وأربع وثلاثين صفحة.

وقد أعاد طبعه الأستاذ علي الرضا الحسيني بدمشق سنة ١٩٧١م، وأدخل عليه تحويراً في المحتوى؛ فحذف ثلاث مقالات من النسخة الأصلية، ثم أضاف اثني عشر مقالاً من الجزء الثاني من الكتاب، وجمع بذلك: الجزأين في نسخة واحدة.<sup>(١)</sup>

يقول الأستاذ محمد مواعده معلقاً على هذا التحوير: «وإذا لاحظنا أن ما قام به الناشر يغيّر الأساليب العلمية إلا أنه يمكن اعتماد الطبعة الجديدة؛ نظراً إلى أنها لا تغيّر الاتجاه الذي رسمه المؤلف نفسه عند جميع مقالاته».<sup>(٢)</sup>

أما الجزء الثالث من هذا الكتاب فقد صدر أيضاً سنة ١٣٥٨هـ، وطبع بمطبعة حسام الدين القدسي، وهو يتألف من مائة وإحدى وستين صفحة تشمل على ثلاث وعشرين مقالة.

١ - انظر محمد الغضنر حسين حياته وآثاره ص ١٣٠.

٢ - انظر المرجع السابق ص ١٣٠.

وقد أعاد الأستاذ علي الرضا طبع هذا الجزء بالمطبعة التعاونية بدمشق سنة ١٩٧١م، جاعلاً اسمه (الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان)<sup>(١)</sup>.  
وقد مر الحديث عن هذا الكتاب.

كما أن دار الإصلاح في الدمام في المملكة العربية السعودية أعادت طبع كتاب رسائل الإصلاح كاملاً في مجلدين، وقد جاء المجلد الأول في مائتين وأربع وستين صفحة، والمجلد الثاني في مائتين وسبع وأربعين صفحة.

وفي طبعة الموسوعة الجديدة جاء كتاب رسائل الإصلاح في المجلد الخامس في مائتين وتسع وثمانين صفحة<sup>(٢)</sup>، واحتوى على ثلاث وثلاثين مقالة أو بحثاً، وهي كما يلي:

- ١- المروءة ومظاهرها الصادقة ٢- الإلحاد: أسبابه، طبائعه، مفسده، أسباب ظهوره، علاجه<sup>(٣)</sup> ٣- في مفسد البغاء ٤- كلمة في المسكرات ٥- الشجاعة ٦- المساواة في الإسلام ٧- إباءة الضيم وأثرها في سيادة الأمم ٨- عظمة الهمة ٩- الإسلام والمدنية الحديثة ١٠- صدق اللهجة ١١- فضيلة الإخلاص ١٢- الأمانة في العلم ١٣- القضاء العادل في الإسلام ١٤- الإنصاف الأدبي ١٥- العلماء والإصلاح ١٦- المدنية الفاضلة في الإسلام ١٧- أصول سعادة الأمة ١٨- صدق العزيمة أو قوة الإرادة ١٩- الغيرة على الحقائق والمصالح ٢٠- الشجاعة وأثرها في

١ - انظر المرجع السابق ص ١٣٣.

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١٩٧٥/٥-٢٢٦٣.

٣ - خرجت هذه المقالة في كتيب مستقل، عنوانه (الإلحاد - أسبابه - طبائعه - مفسده - أسباب ظهوره - علاجه) وتقديم وتعليق الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني، مكتبة ابن تيمية، الكويت، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

عظمة الأمم ٢١- كبر الهمة في العلم ٢٢- الدهاء والاستقامة ٢٣- الانحراف عن الدين: علله، آثاره، دواؤه ٢٤- ضلالة فصل الدين عن السياسة ٢٥- سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين ٢٦- العزة والتواضع ٢٧- المداراة والمداهنة ٢٨- الرفق بالحيوان ٢٩- محاكاة المسلمين للأجانب ٣٠- الاجتماع والعزلة ٣١- علة إعراض الشبان عن الزواج ٣٢- النبوغ في العلم والفنون ٣٣- متى تكون الصراحة فضيلة؟

وتحت كل عنوان من هذه العنوانات بحث ثري يأتي على الموضوع من أطرافه، مع وجازة لفظ، وروعة بيان، وجمال عرض، وحسن استشهاد، حتى إنه ليغني عن كثير من البحوث الطويلة.

يقول الأستاذ علي الرضا الحسيني عن هذا الكتاب: «ثمرة من ثمرات الجهاد العلمي الطويل والشاق كان هذا الكتاب (رسائل الإصلاح).

بذل فيه الإمام محمد الخضر حسين الكثير من الوقت والعمل، وخطه بحسن أسلوبه، وغازاة مادته، ودقة تحقيقه، وسعة اطلاعه، وسلاسة عبارته، وبلاغة بيانه وتبيانه، حتى كأن كل مقال في كتاب قائم بذاته، صيغ بموجز من الكلمات في صفحات، ومثله كمصباح يستضاء به في ظلمات الحياة.

لهذا الأثر القيم مكانة خاصة وشهرة لدى الفقهاء والأدباء ورجال الثقافة وأصحاب القلم، وكثيراً ما يشار إليه في المصادر والمراجع على أنه من أهم الكتب التي تضمنت مقالات الإمام الشرعية والأحوال الاجتماعية»<sup>(١)</sup>.

ويقول الدكتور أحمد الشرباصي رحمه الله عن هذا الكتاب: «وهو من أمهات الكتب الإسلامية الحديثة التي تجب على كل مسلم يريد أن يصحح عقيدته، وأن يعرف دينه على حقيقته، أن يقرأها مثنى وثلاث»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال: «إنه مجموعة من المقالات الممتعة التي كان يزيّن بها الأستاذ الخضر جيدَ مجلته (الهداية الإسلامية).

والجزء الأول من الكتاب يتحدث عن مسائل الأخلاق والاجتماع، فتقرأ فيه القولَ الفصلَ، والكلامَ الجزلَ، والحديثَ المؤيدَ بكتاب الله وسنة رسوله، وأقوال السلف الصالح، وتراه يتناول أبحاثاً لها أهميتها، فيجيد في الدراسة والعرض، والاستنتاج والحكم، مثل حديثه عن: العلماء والإصلاح، والإنصاف الأدبي، والدهاء والاستقامة، والرفق بالحيوان، والتعاون في الإسلام، والنبوغ في العلوم والفنون، وغير ذلك»<sup>(٢)</sup>.

وقال الأستاذ عبدالفتاح مصطفى رحمه الله عن كتاب رسائل الإصلاح: «تناول فيه كثيراً من المسائل الحيوية التي تتصل بحياة الإنسان اتصالاً وثيقاً، وبحثها بحثاً منطقياً غير متعصبٍ لآراء السابقين، أو مشايخٍ فيها جنوح المجددين المنذفين. وإنما سار فيها مستضيئاً بنور اليقين، وكتاب الله وسنة سيد المرسلين، فجاءت البحوث آية من آيات البيان، دالة على صدق إخلاصه لرسالته، وإيمانه بدعوته، معتمداً على الله في سبيل نجاح غايته.

١ - رسائل الإصلاح ص ٢٨٢.

٢ - رسائل الإصلاح ص ٢٨٤.

ويكاد يكون كلُّ مقالٍ من الكتاب موضوعَ رسالةٍ تؤلف فيها الكتب، ولكن توفيق الله للأستاذ هياً له من سلاسة العبارة، وحسن الأسلوب، وبلاغة البيان، ما أقدره على إدماجه في مقال هو زبدة ما يكتب فيه، مدعم بالأسانيد والأدلة، فلا تفرغ من قراءته حتى تصدق ما فيه، داعياً إلى سبيله، ولا تنتهي من مقال حتى تبدأ المقال الذي يليه»<sup>(١)</sup>.

التاسع: الدعوة إلى الإصلاح: ويعد هذا الكتاب من أعظم ما كتب في بابه؛ ولا غرو في ذلك؛ فلقد اهتم الشيخ الخضر منذ بواكير حياته بالدعوة إلى الله، وإصلاح المجتمع؛ فكتب المقالات، وألقى المحاضرات؛ منبهاً إلى العِلل والأدواء التي تعاني منها المجتمعات، موجهاً إلى كيفية إصلاحها، والصعود بها إلى مراقي الفلاح.

وكان من أعظم ما قام به في ذلك الشأن تأليف رسالةٍ خاصةٍ عنوانها (الدعوة إلى الإصلاح) وقد طبعت سنة ١٣٢٨هـ بالمطبعة الرسمية في تونس على نفقة شقيقه محمد العروسي بن الحسين، وجاءت في إحدى وأربعين صفحة من الحجم الصغير.

ثم أعيد طبعها في القاهرة سنة ١٣٤٦هـ، بعناية المطبعة السلفية، ومكتبتها؛ فجاء في ثلاث وثمانين صفحة من الحجم الصغير، وذلك بعد أن أدخل عليها تحويراً في التبويب، وتنقيحاً في بعض الفقرات، والفصول.<sup>(٢)</sup>

وهذه الرسالة تحتوي على ثلاثة عشر عنواناً وهي كما يلي:

١ - المرجع السابق ص ٢٨٦ .

٢ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٧١ .

١- الحاجة إلى الدعوة ٢- الدعوة في نظر الإسلام ٣- المبادرة إلى الدعوة ٤-  
 التعااضد على الدعوة ٥- من الذي يقوم بالدعوة؟ ٦- الإخلاص في الدعوة ٧-  
 طرق الدعوة ٨- أدب الدعوة ٩- سياسة الدعوة ١٠- الإذن في السكوت عن  
 الدعوة ١١- علل إهمال الدعوة ١٢- آثار السكوت عن الدعوة ١٣- ما يدعى  
 إلى إصلاحه. (١)

وقد بين الشيخ الحضر في مقدمة هذا الكتاب غرضه من تأليفه فقال: «يبحث  
 الكتاب عن العلل التي لبست الأمم الإسلامية، وقعدت بها في خمول، حتى ضربت  
 عليها الدول الغربية بهذه السلطة الغاشمة، ويوردون في نتيجة مجتهد أسباباً شتى.  
 وأنت إذا تدبرت هذه الأسباب، وجدت السبب الحق منها يرجع إلى تهاون هذه  
 الأمم بتعاليم الشريعة، ونكث أيديهم من المشروعات التي عهدت إليهم بالقيام عليها.  
 والعلة في ضعف هممهم، وقلة إقبالهم على ما أرشد إليه القرآن - من وجوه  
 الإصلاح ووسائل المنعة والعزة - إنما هي تقصيرهم في التواصي بالحق، وعدم  
 استقامة زعمائهم على طريقة الدعوة والإرشاد.

هذا ما استثار الهمة، وأخذ برأس القلم يجره إلى البحث في مشروع الدعوة إلى  
 الإصلاح؛ لعله يبسط من حقائقه وآدابه جملاً كافية، ويملك بتأييد الله زمامه». (٢)  
 يقول الأستاذ محمد مواعده عن هذا الكتاب: «وقد أظهر المؤلف في هذا الكتاب قدرة  
 كبيرة على فهم نفسية الأفراد والجماعات، وكيفية التأثير عليها لإصلاحها إلى الهداية  
 والرشاد، مما جعل علماء الإسلام يولونه اهتماماً خاصاً، ويكبرون صاحبه ويجلونه.

١ - انظر الدعوة إلى الإصلاح ص ٦ .

٢ - الدعوة إلى الإصلاح ص ٥ .

وقد قال له الشيخ عبدالفتاح المكاوي أحد علماء مصر بعد مطالعة هذه الرسالة: (علمت أن الإسلام لم يعدم أنصاراً، ولم يزل للإرشاد دعامة هي خير الدعامات، قُلتَ فبرهنتَ، ودعوتَ فسددت .... ولا يسعني إلا تهنئة الحاضرة التونسية بك، بل الأقطار الأفريقية، بل الممالك الشرقية)»<sup>(١)</sup>.

وقد أخرج الأستاذ علي الرضا الحسيني هذه الرسالة في كتاب، وضم إليها مجموعة من المقالات، والبحوث التي وجدها من آثار عمه الشيخ الخضر، والتي تدور -في مجملها- حول الدعوة، وقد سمي ذلك الكتاب باسم الكتاب الأول (الدعوة إلى الإصلاح)، وطبعه في الدار الحسينية، وجاء في مائتين وتسع عشرة صفحة كما في الطبعة الثالثة عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

ثم أحقه بموسوعة الأعمال الكاملة؛ فجاء في مائتين وسبعين صفحة<sup>(٢)</sup>.

هذا وقد خرجت رسالة (الدعوة إلى الإصلاح) عدة مرات دون إضافات الأستاذ علي الرضا الحسيني؛ حيث طبعتها دار الشريف في الرياض عام ١٤١٤هـ تحقيق ونخريج إبراهيم الحازمي.

كما طبعتها دار الراية في الرياض عام ١٤١٧هـ، بتعليق الشيخ علي حسن عبدالحميد، غير أنه زاد في العنوان فجاء عنده هكذا (الدعوة إلى الإصلاح على ضوء الكتاب والسنة وعبر تاريخ الأمة).

أما ما أضافه الأستاذ علي الرضا من الموضوعات التي وجدها من تراث عمه الشيخ فهو ما يلي:

#### ١- أثر الدين في إصلاح المجتمع

١ - محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٧٣.

٢ - انظر الموسوعة ٢٢٦٥/٥-٢٥٣٤.

- ٢- أثر أدب اللغة في نجاح الدعوة إلى الإصلاح
  - ٣- حرية الدعوة دليل على رقي الأمة وعظمة الدعوة
  - ٤- أصول الإصلاح الاجتماعي
  - ٥- من هو الواعظ بحق؟
  - ٦- الإسلام والعلم
  - ٧- التربية الدينية والشباب
  - ٨- التعليم الديني في مدارس الحكومة
  - ٩- العلماء وأولو الأمر
  - ١٠- تعاون الدولة والأمة على انتظام الأمن
  - ١١- من هو الشاب المسلم؟
  - ١٢- إلى شباب محمد ﷺ أيها الشباب الناهضون
  - ١٣- مقاصد الإسلام في إصلاح العالم
  - ١٤- انتشار الإسلام في العالم وعوامل ذلك
  - ١٥- نهوض الشباب بعظائم الأمور
  - ١٦- جيل يؤمن بالأخلاق
  - ١٧- مثل أعلى لشجاعة العلماء واستهانتهم بالموت في سبيل الله
  - ١٨- شجاعة العلماء وإنصاف الأمراء
  - ١٩- محاربو الأديان ونموذج من سلاحهم
  - ٢٠- العلماء وحياتهم الاجتماعية
- وهذه المقالات منشورة في مجلتي (الهداية الإسلامية) و (نور الإسلام).

٢١- العناية بالتعليم الديني (١).

٢٢- العناية بالتعليم الديني (٢).

وهما مجموع المذكرات الثلاث التي رفعها الإمام بصفته رئيساً لجمعية (الهداية الإسلامية) إلى الحكومة المصرية في طلب العناية بالتعليم الديني، والتربية الدينية في المدارس المصرية، ونشرت عام ١٣٥٠هـ في مجلة (الهداية الإسلامية)<sup>(١)</sup>.

٢٣- مناهج الشرف: وهي رسالة خاصة، وقد طبعت مفردة أول مرة عام ١٣٣١هـ، ثم أعاد الأستاذ علي الرضا طبعتها عدة مرات، ومنها الطبعة الرابعة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م في الدار الحسينية للكتاب في اثنتين وثمانين صفحة.

ثم أضافها إلى كتاب (الدعوة إلى الإصلاح) في موسوعة الأعمال الكاملة، فجاءت في إحدى وخمسين صفحة<sup>(٢)</sup>.

وهذا الكتاب من أعجب وأبدع ما صنفه الشيخ الخضر؛ إذ هو غريب في عنوانه، وفي بابه، وفي أسلوبه.

وقد تحدث فيه عن أهمية معنى الشرف، ومناهجه، وأنه من أجمل الوجوه التي ينظر فيها الباحث عن حقائق الأشياء، وأسرارها، وأعز ما يباكر إلى اجتناء معرفته قبل أن يدْرُج في حياته الاجتماعية، ويسابق في مضمارها.

ويبين أن الخوض في هذا الموضوع ليس بالأمر الهين، «فيتناولها كل باع، من غير أن يفتقر رسوخها إلى تحرير في العبارة واتساع»<sup>(٣)</sup>.

وبين أوضاع الشرف في عادات الأمم، واعتباره في نظر الإسلام.

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٢٣٢٣/٥-٢٤٧٨.

٢ - انظر الموسوعة ٢٤٧٩/٥-٢٥٣١.

٣ - انظر الدعوة إلى الإصلاح ص ٢١٥.

وأوضح مفهوم الشرف، والتفاضل فيه، وشرف الإنسان، والقوة العاقلة، وفضيلة العلم، وأدب النفس، وفضيلة الإرادة، ومزية الاستطاعة، ودلائل الشرف.

وتخلل ذلك تحريراتٌ عاليةٌ في أسرار الاجتماع، وطبائع النفوس، وتفاوت العقول، وسيرة أرباب الولايات، والتمييز بين الفضائل والردائل، وما إلى ذلك من المباحث النفيسة المدعمة بأدلة الشرع، والعقل، والواقع، والتجارب الإنسانية. وقل أن تجد من تعرض لدراسة هذا الكتاب ممن تناولوا آثار الشيخ، مع أنه كتاب جدير بالدراسة، والتحليل، والكشف عن جماله، وأسراره.

العاشر: دراسات في العربية وتاريخها: وهذا الكتاب هو أول ما جمعه وطبعه الأستاذ علي الرضا الحسيني لعمه الشيخ الخضر؛ فهو من تسمية الأستاذ علي، ولم يسمه الشيخ الخضر بذلك.

وإنما هو مجموعة كتب، ورسائل، ومحاضرات.

وقد سبق أن نشر بعضها في كتب خاصة - كما سيأتي بيان ذلك عند عرض هذا الكتاب..

ولا غرو أن يكتب الشيخ الخضر في اللغة، فهو إمام من أئمتها، وفارس لا يشق له غبار في شتى علومها، وهو الذي وجه اهتماماً خاصاً إلى لغة القرآن، وذلك في المجالات التي أصدرها، أو ترأس تحريرها، حيث أفرد للغة أبواباً ثابتة، ودعا للكتابة فيها رجال اللغة والأدب.

وهو ممن نفى الغبار عن أساليب اللغة في العصور المتأخرة، وأبسها ثياباً جديدة رائعة.

وهو كذلك عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق، وعضو مؤسس جاد في مجمع فؤاد الأول للغة العربية - مجمع اللغة العربية في القاهرة.<sup>(١)</sup>

هذا وقد احتوى هذا الكتاب على تسع رسائل، وجاء في مائتين وتسع وتسعين صفحة<sup>(٢)</sup>. ولقد عالج الشيخ الخضر في هذه الرسائل كثيراً من قضايا اللغة، والمشكلات التي تثار حولها، وتميزت كتابته في ذلك -كعادته- بالعمق، والتحليل، والربط، والقوة، وجزالة الأسلوب، والغوص على المعاني البعيدة، والإلمام بالبحث من كافة وجوهه.

وتكاد تكون كتاباته في هذا الشأن أحسن ما كتب في العصر الحديث.

أما الرسائل التي احتواها هذا الكتاب فهي كما يلي:

١- القياس في اللغة العربية: وقصة هذا الكتاب تبدأ عندما قام المؤلف إبان فترة إقامته بدمشق بتدريس كتاب (مغني اللبيب) لابن هشام في النحو، وذلك في المدرسة السلطانية بدمشق، فاجتمع لديه سواد كثير من الآراء التي تتعلق بالقياس في اللغة العربية، فقدمها إلى تلاميذه، وناقشها مع بعض أصدقائه العلماء خلال إقامته بالبلاد السورية؛ فاقترح عليه بعضهم ومنهم تلميذه الشيخ محمد بهجة البيطار عضو المجمع اللغوي بدمشق أن يجمع هذه الآراء في كتاب يساعد قراء العربية على معرفة هذا الموضوع المهم، ويعين المهتمين بقضايا اللغة على المزيد من درسه والتعمق فيه.<sup>(٣)</sup>

فاستجاب الشيخ لهذا الطلب، وكتب بحثاً في القياس، ثم نشره تباعاً في مجلة المنار سنة ١٩٢٣، ثم أصدره في كتاب خاص يحوي مائة وعشرين صفحة، وذلك عام ١٣٥٣، وعني بنشره المطبعة السلفية في القاهرة.<sup>(٤)</sup>

١ - انظر دراسات في العربية وتاريخها ص ٣-٤ .

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٦/٢٥٤٣-٢٨٤١ .

٣ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٧٧ .

٤ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٧٧-١٧٨، ودراسات في العربية وتاريخها ص ٩ و ١١ .

وأعاد طبعه الأستاذ علي الرضا الحسيني ضمن كتاب (دراسات في اللغة العربية) الذي نشره المكتب الإسلامي، ومكتبة دار الفتح عام ١٣٧٩هـ.  
وأعاد طبعه مفرداً، ونشرته الدار الحسينية للكتاب، عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، وجاء في مائة وخمسة وخمسين صفحة.  
ثم طبع أخيراً ضمن موسوعة الأعمال الكاملة للإمام، وجاء في مائة وأربع عشرة صفحة من الموسوعة<sup>(١)</sup>.

وهذا البحث هو نفسه الذي قدمه - بعد ذلك - إلى هيئة كبار العلماء المكونة من قساة الممتحنين، فقبلت اللجنة البحث بالإجماع، وأصبح بعدها عضواً في هيئة كبار العلماء سنة ١٩٥٠م، وقال فيه رئيس اللجنة الشيخ عبدالمجيد اللبان رحمته الله كلمته المشهورة: «هذا بحر لا ساحل له؛ فكيف نقف معه في حجاج»<sup>(٢)</sup>.  
وهذا الكتاب من أعظم ما كتب في بابيه، فقد حوى أبحاثاً نفيسة، وتحريرات عالية قل أن توجد مجتمعة في غيره.

ومما تضمنه ذلك الكتاب من أبحاث: مقدمة في فضل اللغة العربية ومسائرتها للعلوم المدنية - اللغة - أصل نشأة اللغة - تأثير الفكر في اللغة - تأثير اللغة في الفكر - هل يمكن اتحاد البشر في لغة؟ - اللغة العربية لا تموت - اللغة في عهد الجاهلية - تأثير الإسلام في اللغة - فضل اللغة العربية - الحاجة إلى القياس في اللغة - أنواع القياس.

إلى غير ذلك من الأبحاث النفيسة التي لاقت استحساناً من العلماء في عصره.

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٦/٢٥٥٠-٢٦٥٦.

٢ - انظر المرجع السابق ١٥/٣٧٣٧، وأحاديث في رحاب الأزهر ص ١٩٩.

٢- حياة اللغة العربية: وهي محاضرة ألقاها المؤلف سنة ١٣٢٧هـ في جمهور غير من الأدباء، وأساتيد اللغة العربية في (جمعية قدماء تلامذة الصادقية) عندما كان مدرساً بجامع الزيتونة، والمدرسة الصادقية.

وقد طبعت هذه المحاضرة في نفس السنة بالمطبعة التونسية بنهج سوق البلاط في كتاب يحوي ستين صفحة، ثم أعاد نشرها الأستاذ علي الرضا الحسيني في كتاب (دراسات في العربية وتاريخها) ثم جاءت كذلك ضمن موسوعة الأعمال الكاملة.<sup>(١)</sup>

أما الغرض من إلقاء هذه المسامرة فيتمثل في أمرين: أولهما: البحث عن حال اللغة من حيث ألفاظها، والأطوار التي مرت بها، واتساع نطاقها، وارتقاؤها مع المدينة. وثانيهما: دحض الشبه التي أوحى بها بعض المحاضرين القائلين بعجز اللغة العربية عن مسايرة العصر، وحاجات المدينة الحديثة.<sup>(٢)</sup>

وقد تحدث في هذا الكتاب عن دلالة الألفاظ، وتأثير اللغة في البيئة الاجتماعية، وأطوار اللغة العربية، وفصاحة مفرداتها، وحكم تركيبها، وتعدد وجه دلالتها، وتعدد أساليبها، وطرق اختصارها، واتساع وضعها، وإبداع العرب في التشبيه، واقتباسهم من غير لغتهم، وارتقاء اللغة مع المدينة، واتحاد لغة العامة والعربية. وفي ختام هذه الرسالة أورد الأستاذ علي الرضا الحسيني قصيدة أنشأها المؤلف في رمضان سنة ١٣٣٥هـ في أسلوب رواية خيالية، ونشرت في جريدة (الزهرة) ومنها قوله:

١ - انظر ٦/٢٦٥٧-٢٧٠٩.

٢ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٤٢.

لغة أودع في أصداها  
هي بحر غصن على حليتها  
فاض من نهر مبانيتها على  
فاسأل التاريخ ينبئك بما  
من خطيب مصقع أو شاعر  
إلى أن يقول:

لغة قد عقد الدين لها  
أو لم ينسج على منوالها  
يا لقومي لوفاء إن من  
فأقيموا الوجه في إحيائها  
ذمة يكلؤها كل البشر<sup>(١)</sup>  
كلم التنزيل في أرقى سور  
نكت العهد أتى إحدى الكبرى  
وتلافوا عقد ما كان انتشر<sup>(٢)</sup>

٣- الاستشهاد بالحديث في اللغة: وهو بحث قدمه الإمام إلى مجمع اللغة العربية ونشر في الجزء الثالث من مجلة المجمع الصادر في شعبان ١٣٥٥هـ، ونشر في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء الثالث من المجلد العاشر الصادر في شعبان ١٣٥٦هـ.

وهو بحث قيم عاجل من خلاله قضية طال حولها الجدل عند اللغويين والنحاة، وهي حجية الاستشهاد بالحديث النبوي في اللغة. وسيأتي الحديث عنه عند الكلام على مصادره في العقيدة.

١- خواطر الحياة ص ١١١.

٢- هكذا في الأصل، ولعل الصحيح: يكلؤها رب البشر.

٣- خواطر الحياة ص ١١٤، ودراسات في العربية وتاريخها ص ١٦٧.

- ٤- موضوع علم النحو: وهو نقد لكتاب (إحياء النحو) لمؤلفه الأستاذ إبراهيم مصطفى، مجلة الهداية، الجزآن السابع والثامن الصادران في المحرم وصفر ١٣٥٧هـ.
- ٥ - التضمنين: وهو بحث لغوي ألقاه الإمام في (مجمع اللغة العربية) ونشر في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء الخامس من المجلد السابع الصادر في ذي القعدة ١٣٥٣هـ.
- ٦- تيسير وضع مصطلحات الألوان: وهو بحث قدمه الإمام إلى المؤتمر الطبي العربي الثالث المنعقد في القاهرة في ذي الحجة سنة ١٣٥٨هـ لمناسبة انتدابه لتمثيل المجمع اللغوي في المؤتمر، ونشر في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزآن السابع والثامن من المجلد الثاني عشر، الصادران في المحرم وصفر ١٣٥٩هـ.
- وهو بحث طريف تحدث فيه عن أسماء الألوان، والقابل للتصريف منها وغير القابل، وعن أسماء هيئات الأشياء المركبة من ألوان، والأسماء المراعى في معانيها لون، وأسماء إيجاد الألوان.
- ثم ختم البحث بملخص انتهى فيه إلى أن اللغة تسع بغزارة مفرداتها، ومساعدة أصول صرفها كل ما يحتاج إليه من المصطلحات العائدة إلى الألوان<sup>(١)</sup>.
- ٧- طرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها في البلاد العربية: وهو بحث قدمه الإمام إلى المؤتمر الطبي العربي المنعقد في القاهرة سنة ١٩٣٩م بصفته مندوب المجمع اللغوي، ونشر في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء الثامن من المجلد الحادي عشر الصادر في صفر ١٣٥٨هـ.
- ٨- حول تبسيط قواعد النحو والرد عليها: وهو ملاحظات من الإمام محمد الخضر على تقرير لجنة النظر في تيسير قواعد النحو، والصرف، والبلاغة، وقد

١ - انظر دراسات في العربية وتاريخها ص ١٦٨-٢٣٧.

نشر في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزآن الثاني والثالث من المجلد الحادي عشر - في شعبان ورمضان ١٣٥٧هـ.

٩- الإمتاع بما يتوقف تأنيته على السماع: وهو بحث نشره الإمام في رُسَيْلَةٍ مطبوعة، ونشر في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء السادس من المجلد الثاني عشر الصادر في ذي الحجة ١٣٥٨هـ، والجزء الأول من المجلد الثالث عشر الصادر في رجب ١٣٥٩هـ<sup>(١)</sup>.

الحادي عشر: دراسات في اللغة: ويحوي على اثني عشر بحثاً جمعها الأستاذ علي الرضا الحسيني، وهي متممة لكتاب (دراسات في العربية وتاريخها). وقد جاء كتاب (دراسات في اللغة) في مائة واثنين وخمسين صفحة من الموسوعة<sup>(٢)</sup>، واشتمل على الرسائل التالية:

- ١- المجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية: وهو بحث نشر في مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، الجزء الأول، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٤م.
- ٢- من وثق من علماء اللغة ومن طعن فيه: وهو بحث نشر في مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، الجزء الثاني عشر عام ١٩٦٠م.
- ٣- اللهجات العربية في هذا العصر: مذكرة قدمها الإمام إلى مجمع اللغة العربية في القاهرة، ونشرت في الجزء الثامن من المجلد الثالث عشر من مجلة (الهداية الإسلامية).

١ - انظر المرجع السابق ص ٢٣٨-٢٩٤.

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٦/٢٨٤٣-٢٩٩٤.

٤- نيابة بعض الحروف عن بعض: بحث طرحه الإمام في مجمع اللغة العربية في القاهرة، ونشر في الجزأين السادس والسابع من المجلد السابع من مجلة (الهداية الإسلامية).

٥ - الأمثال في اللغة العربية: نشر في مجلة (نور الإسلام) الجزء التاسع من المجلد الرابع.

٦- وصف جمع غير العاقل بصيغة فعلاء: اقترح قدمه الإمام إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة، ونشر في الجزء التاسع من المجلد العشرين لمجلة الهداية الإسلامية.

٧- اسم المصدر في المعاجم: وهو بحث ألقاه الإمام في الجلسة التاسعة لمؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة ١٨ يناير ١٩٥٠م، وحصلت الموافقة على إحالته إلى لجنة الأصول، ونشر في الجزء الثامن من مجلة (مجمع اللغة العربية) ١٩٥٥م<sup>(١)</sup>.

٨- شرح قرارات المجمع، والاحتجاج لها، تكملة مادة لغوية ورد بعضها في المعجمات ولم ترد بقيتها: وقد نشر في مجلة (مجمع اللغة العربية) الجزء الثاني مايو ١٩٣٥م.

٩- نقد اقتراح بعض الإصلاح في متن اللغة: نشر في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزآن التاسع والعاشر من المجلد السادس عشر.

١٠- نقد إعرابين جديدين في صيغة التحذير: وهو منشور في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء التاسع من المجلد الرابع عشر.

١١- ملاحظات على البحث المقدم عن موقف اللغة العامية من اللغة الفصحى: وقد قدمها الإمام إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة بصفته عضواً في المجمع، ونشرت في مجلة (الهداية الإسلامية) الأجزاء الأول، والثاني، والثالث، والرابع من المجلد الحادي والعشرين.

١٢- الألفاظ المؤنثة من طريق السماع: وهي تشتمل على قصيدة لابن الحاجب في الأسماء المؤنثة من كلام العرب من غير أن تكون فيها علامة تأنيث، وقد نشر في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء الخامس من المجلد العاشر<sup>(١)</sup>.

الثاني عشر: الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية: وهو كتاب يقع في مائة وسبع وتسعين صفحة من موسوعة الأعمال الكاملة للإمام<sup>(٢)</sup>.

وهذا الكتاب يضم سبعة مباحث، وسمي باسم البحث الأول منه، وهو (الخيال في الشعر العربي)، وزيد في العنوان، فأصبح عنوان الكتاب (الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية).

والتسمية الأولى هي عنوان كتاب مستقل، وقد سماه المؤلف بذلك الاسم (الخيال في الشعر العربي) وسيأتي الحديث عنه بعد قليل.

أما التسمية الأخيرة -الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية- فهي من وضع الناشر الأستاذ علي الرضا الحسيني الذي يقول في مقدمته: «للإمام الأكبر العلامة محمد الخضر حسين - رضوان الله عليه - نفحات أدبية من قلم بليغ، تناول فيها من عالم الأدب مواضيع أساسية، يقوم عليها صرح الأدب العربي.

١ - انظر المرجع السابق ص ٦٢-١٥١.

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٧/٣٠٠٧-٣٢٠٣.

وفي هذا الكتاب ضمنا الدراسات الأدبية التي وضعها الإمام في مختلف فنون الأدب، والعنوان: (الخيال في الشعر العربي) هو عنوان البحث الأول والأطول والأقدم في هذا الكتاب، لا سيما وأن بحث الخيال في الشعر العربي قد طبع برسالة صغيرة، وقد عرفت هذه الرسالة لدى رجالات الأدب والعلم منذ مطلع حياة الشيخ رحمته الله.

وإلى بحث الخيال هذا جمعنا مقالات ومحاضرات في الأدب، منها: ما كتبه في مجلة (نور الإسلام) التي كانت تصدر عن الأزهر الشريف، وقد رأس تحريرها فترة من الزمن، ومنها: محاضرات في جمعية الهداية الإسلامية، ومقالات نشرت في مجلة (الهداية الإسلامية) التي كان يصدرها في القاهرة.

والله نسأل أن نكون قد وفقنا لجمع تراث المؤلف الأدبي في هذا الكتاب<sup>(١)</sup>.

أما البحوث التي ضمها هذا الكتاب فهي ثمانية، وهي كما يلي:

١- الخيال في الشعر العربي: وهو البحث الأول والأطول ويقع في ثمان وستين صفحة من الموسوعة<sup>(٢)</sup>.

يقول الشيخ الخضر في مقدمة كتابه هذا: «أما بعد فيرتفع الشعر، ونقضي لصاحبه بالبراعة والتفوق على غيره بمقدار ما يحرز من بناء محكم، ومعنى بديع، وقد حدّق فلاسفة الأدب أنظارهم إلى الوجوه التي تملك بها المعاني شرف منزلتها، وحسن طلعتها، أو تأخذ منها الألفاظ متانة نسجها، وصفاء ديباجتها.

ومن أجمل الفنون التي يرجع النظر فيها إلى جهة المعنى: صناعة التخيل، وهي الغرض الذي جرّدتُ القلم للبحث عنه في هذه الصحائف متحرراً أسلوباً لا يشتكي منه القارئ طولاً ولا قصراً<sup>(٣)</sup>.

١ - انظر الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية ص ٣.

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٧/٣٠١٠-٣٠٧٧.

٣ - الخيال في الشعر العربي ص ٤.

إلى أن قال ﷺ: «ولا أدعي أن هذا الفن مما ضل عن أولئك الفلاسفة، فلم يُعرجوا على مكانه، أو صعب عليهم مراسه؛ فلم يسوسوه بفكر ثاقب، وبيان فاصل؛ فإن كثيراً من علماء البلاغة قد ولوا وجوههم شطره حتى توغلوا في طرائقه، وكشفوا النقاب عن حقائقه.

ومن أبعدهم نفوذاً في مسالكه الغامضة، وأسلمهم ذوقاً في نقد معانيه، وتمييز جيدها من رديئها: الإمام عبدالقاهر الجرجاني صاحب كتابي: (أسرار البلاغة)، و (دلائل الإعجاز).

وما كان لي سوى أن أعود إلى مباحثه المبتوثة في فنون شتى، فأستخلص بقدر ما تسمح به الحال لبابها، وأؤلف بين ما تقطع من أسبابها.

ولا تجدني - إن شاء الله - أحكي مقالهم دون أن أعقد بناصيته، أو أثبت خلاله، أو أضع في ردفه جملاً تلبسه ثوباً قشيباً، أو تنفخ فيه روحاً كانت هادئة»<sup>(١)</sup>.  
ولقد فرغ الشيخ من تأليف ذلك الكتاب في شعبان ١٣٤٠هـ.

وقد احتوى بعد مقدمة الشيخ على المباحث التالية:

- الشعر - التخيل عند علماء البلاغة - التخيل عند الفلاسفة - ماذا نريد من التخيل؟ - تداعي المعاني - لماذا تختلف الأفكار في تداعي المعاني؟ - التخيل التحضيري - التخيل الإبداعي - فنون الخيال - حال المعنى والتخيل - أسباب جودة الخيال - بماذا يفضل التخيل؟ - التفاضل في التخيل - الغرض من التخيل - أطوار الخيال - خاتمة.  
وهذا الكتاب من أعظم ما ألفت في بابيه، يقول الأستاذ أبو القاسم محمد كرو متحدثاً عن هذا الكتاب: «وفي مجال البحث الأدبي القائم على التحليل والمقارنة كان له فضل سبق إلى موضوع طريف ومبتكر، وخاصة بشكل كامل ومستقل.

وحتى صاحبنا الشهير أبو القاسم الشابي في كتابه (الخيال الشعري عند العرب) كان متأخراً عنه، مترسماً خطاه، وإن لم يقلده، أو يجاريه مما ذهب إليه.<sup>(١)</sup> ويقول الأستاذ محمد مواعده متحدثاً عن هذا الكتاب وسبب تأليفه: «كان الشيخ محمد الخضر شديد الاهتمام بعلم البلاغة منذ تعلمه بجامعة الزيتونة. وقد قام بتدريسه في نفس المعهد؛ فكانت دروسه عن (المثل السائر) لابن الأثير مقصد التلاميذ لذلك العهد.

كما قام بتدريس كتابي (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) للشيخ عبدالقاهر الجرجاني بالمدرسة السلطانية بدمشق. وقد تأثر شديد التأثير بنظريات هذا العالم الشهير؛ فظهر ذلك جلياً في محاضراته وبحوثه اللغوية والأدبية.

ولهذا فلا غرابة أن يهتم الرجل بالخيال الشعري، ويعتمد في بحثه على ما قاله القدماء وخاصة صاحب (أسرار البلاغة)». <sup>(٢)</sup>

ولقد طبع كتاب (الخيال في الشعر العربي) بالمطبعة الرحمانية على نفقة وعناية المكتبة العربية في دمشق في شعبان عام ١٣٤٠هـ، وكان صاحبه قد نشره تباعاً في مجلة المنار، ثم أعاد طبعه الأستاذ علي الرضا الحسيني سنة ١٩٧٢م<sup>(٣)</sup> ثم ضمنه -كما مر- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام.

٢- الشعر البديع في نظر الأدباء: وهو بحث منشور في مجلة (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) الجزء الحادي عشر عام ١٩٥٩م.

١ - الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر ص ١٠٤.

٢ - محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٧٣-١٧٤.

٣ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٧٤.

- وقد تكلم فيه على حقيقة الشعر، والشعر عند البلغاء، وإدراك الشعراء لبراعة الشعر، والعلماء والشعر، وبراعة الشعر عند الخلفاء، وآثار الشعر.
- ٣- أثر الشعر في الترويح عن النفس، وإثارة العواطف الشريفة: وهو محاضرة للإمام في الإذاعة بالقاهرة يوم الثلاثاء ١١/٨/١٣٥٥هـ ونشرت في الجزء الثالث من المجلد التاسع، مجلة (الهداية الإسلامية).
- ٤- نموذج من نقد الشعر: وهو محاضرة أقيمت بجمعية الهداية الإسلامية بالقاهرة، ونشرت في مجلة (نور الإسلام) العدد التاسع في المجلد الأول، رمضان ١٣٤٩هـ، واشتمل على تمهيد، ووجوه النقد، والنقد اللفظي، والنقد المعنوي.
- ٥ - الشعر المصري في عهد الدولة الأيوبية: وهو محاضرة للإمام في محطة الإذاعة في القاهرة، ونشرت في الجزء السادس من المجلد التاسع، مجلة (الهداية الإسلامية) لعام ١٣٥٥هـ.
- ٦- نظرة في شعر حسان بن ثابت: وقد نشر في مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء الحادي عشر من المجلد الحادي عشر.
- وقد تضمن الحديث عن سمو مكانة حسان في الشعر، والفخر، والمديح، والهجاء، والنسيب، والحكمة في شعره<sup>(١)</sup>.
- ٧- الخطابة عند العرب: وهي محاضرة ألقاها الشيخ في نادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة مساء الأربعاء ٥/١١/١٣٤٦هـ، وطبعت في ثمان وثلاثين صفحة بالمطبعة السلفية في نفس العام، ونشرت في مجلة (الفتح) في العدد ٩٤ و٩٥ لعام ١٣٤٦هـ.

١ - انظر الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية ص ٧٢-١٣٧.

وقد ضمنها الأستاذ علي الرضا الحسيني موسوعة الأعمال الكاملة، فجاءت في ثماني عشرة صفحة<sup>(١)</sup>.

وهذه المحاضرة من أبداع ما ألف في بابها، وهي ناتجة عن اهتمام الشيخ الخضر بفن الخطابة منذ شبابه؛ لأنها - في نظره - مظهر من مظاهر العظمة والإبداع، وعامل من عوامل الإصلاح.

وهو الذي نُظِرَ لها، ومارسها؛ فكان لخطبه التأثير البالغ في مناسبات عدة، وخاصة عند تأسيس (الجمعية الزيتونية) سنة ١٩١٠م، أو عندما طالب تلاميذ جامع الزيتونة بإصلاح التعليم وتطويره.<sup>(٢)</sup>

ولقد تعرض في هذه المحاضرة لماهية الخطابة عند المناطق، وعند الأدباء والبلغاء العرب، وقيمتها لديهم باعتبارها وسيلة من وسائل السيادة والزعامة والشرف. كما تحدث عن تأثير الخطابة، وأطوارها، وأسباب ارتقائها، وتعلمها، وإعطاء الحروف حقها، وحسن الإلقاء، والإشارة في الخطابة، والقيام بمكان مرتفع حال الخطابة، والإرتاج في الخطابة، والارتجال فيها.

فهذا هو خلاصة ما تعرض له في تلك المحاضرة الشهيرة<sup>(٣)</sup>.

٨- نشأة علم البلاغة: وهما محاضرتان ألقاهما في جمعية الهداية الإسلامية، وقد نشرت الأولى في مجلة (الهداية الإسلامية) في الأجزاء العاشر، والحادي عشر، والثاني عشر من المجلد الأول لعام ١٣٤٨هـ.

وأما المحاضرة الثانية فنشرت في الجزأين الثاني والثالث من المجلد الثاني - مجلة الهداية الإسلامية -.

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٣١٤٧/٧-٣١٦٥.

٢ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٤٦-١٤٧.

٣ - انظر الخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية ص ١٤١-١٥٩.

الثالث عشر: ديوان: خواطر الحياة: وهو ديوان شعر الشيخ محمد الخضر حسين الذي جمع فيه معظم قصائده، فالشيخ رحمته الله قد تذوق الشعر منذ صباه - كما مر عند الحديث عن حياته ببلدة نفطة ثم بتونس -.

وقد حاول نظم الشعر وسنّه لم تتجاوز الثانية عشرة، ثم انقطع إلى طلب العلم، وتغلب ارتياحُه له على ارتياحه للأدب حتى زهد في صناعة النظم. ولقد مر في صفحات ماضية قطعاً تدل على شاعريته الفذة.

ولما انتقل إلى البلاد الشرقية صرف همته إلى العلم، والعمل لخدمة الإسلام.<sup>(١)</sup> يقول رحمته الله في مقدمة ديوانه: «ولقلة إقبالي على نظم الشعر، أو لأنني كنت أرى أن ما أنظمه منه ليس أهلاً لأن يحتفظ به لم يصحبني منه عندما رحلت من تونس إلى الشام غير شذرات علققت بذاكرتي، أو شذرات وجدتها مبعثرة في كتب استصحبتها في رحلتي. نزلت دمشق وللشعر فيها سوق غير كاسدة، ولكنني آثرت أن أصرف القريحة في البحث العلمي، أو في العمل للقضية الإسلامية بقدر ما أستطيع.

وربما نزعت نفسي إلى أن أقول شعراً، فأرخي لها العنان، وأقول: هو فن من فنون الأدب الجميل، وللنفس فيه سلوة، ولا سيما شعراً أطرق به ناحية خُلقيّة، أو أشارك به العاملين إصلاح الحالة المدنية، أو أودعُه صورةً معنيّة لا أدكر أنني لمحتة فيما طالعت من المنشآت الشعرية أو الشرية.

ثم هبطتُ مصر وكانت صناعة القريض قد ارتقت فيها إلى ما يطمح إليه الشاعر العبقرى؛ فازددت زهداً في النظم، وقلت يومئذ: أجودُه ليس في متناول قريحتي، وغير الأجود تتسامى عنه همتي.

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٨٢.

وربما خطرت لي صور من المعاني في أوقات أبتغي فيها راحة؛ فألبسها ثوباً من الكلام الموزون»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال: «ولم يلمَّ بخاطري في يوم أن أجمع ما نظمته، وأخرجه للناس، حتى اقترح علي طائفة من إخواني الفضلاء أن أجمعه من أوراقه المتفرقة، وأصدره إلى عالم الأدب في صفحات متتالية، فما وسعني إلا أن تقبلت اقتراحهم، وقلت: هو كلام موزون، إن لم يجد فيه الأديب ما يروقه من لفظ أنيق، أو معنى رشيق - فقد يرى فيه المؤرخُ أشياء يهمله أن يتعرفها من مصادر متعددة.

وعمدت إلى ما نُشر في بعض الصحف، أو احتوته بعض المذكرات، وضممت بعضه إلى بعضه، مرتباً له على حروف المعجم، ومنبهاً على المناسبة التي دعت إلى نظم القصيدة أو المقطعة، ثم عَرَضْتُ على من اقترحوا عَلَيَّ جَمْعَهُ، فأطلقوا عليه اسم: ديوان، ولقبوه بـ: (خواطر الحياة)»<sup>(٢)</sup>.

ولقد طبع هذا الديوان أول مرة سنة ١٣٦٦هـ، وعلق عليه الشيخ محمد علي النجار الأستاذ بكلية اللغة العربية، وغنيت بنشره المطبعة السلفية. ثم أعاد نُشْرَهُ، وعلّق عليه الأستاذ علي الرضا الحسيني، وطبعه أكثر من طبعة، ولعل آخرها عام ١٤١٠هـ.

ثم طَبَعُهُ ضمن موسوعة الأعمال الكاملة، وجاء في مائتين وتسع وخمسين صفحة، واشتمل على مائة وتسع وتسعين قصيدة ومقطعة<sup>(٣)</sup>.

وأغلب هذا الديوان من المقطعات التي تحوي البيتين أو الثلاثة، أو الستة، أو نحوها. والقصائد الطويلة في الديوان قليلة جداً.

١ - خواطر الحياة ص ٧.

٢ - خواطر الحياة ص ٧-٨.

٣ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٧/٣٢٠٥-٣٤٦٣.

وتدور أغراض شعره حول تمجيد الإسلام، وتاريخه، ولغة العرب، وتهنئة الأصدقاء، ورتاء الأقارب والأحباب، والشيوخ.

كما تناول في شعره الإخوانيات، والقضايا الوطنية والسياسية، والوصف، والوجدانيات، والاجتماعيات.

كما نظم كثيراً من القصائد في موضوع الصداقة والصدق، وضمنها جملة من آرائه في الصداقة، وأهميتها، وفضائلها، وما يعترئها، وتعرض إلى خصال بعض أصدقائه، وصلاته المتينة بهم كصديق عمره العلامة محمد الطاهر بن عاشور، وصديقه الحميم أحمد تيمور باشا وغيرهما.

ولم ينس وطنه السليب؛ حيث أودع ديوانه الحنين إلى تونس، وإظهار الألم للبعد عنها. ولم يغب عن باله الاستعمار، فصَبَّ عليه شواظاً من نيران شعره؛ فذمَّ من خلاله المستعمرين، وسياستهم المستبدة الغاشمة.

ولطالما تغنى في ديوانه بالحرية، وبيّن مفهومها الحق، وطالب بها.

كما نظم في الصدق، والإيثار، والعزة، والهمة، والتقى وغيرها من المحامد.

كما تعرض إلى ذم كثير من الأخلاق المرذولة كالكذب، والملق، والرياء ونحوها.

أما الهجاء، والغزل، ومديح الملق فقد خلا ديوانه منها.

وربما قال بعض القصائد في الهجاء في مطلع حياته، ولكنه لم يُودع ما قاله في ديوانه، بل أعرض عن ذلك.<sup>(١)</sup>

١ - وما أعرض عنه قوله في شيوخ النظارة الذين سعوا إلى إسقاطه في الامتحان لما كان في تونس؛ نتيجة وجود بعض العوامل الشخصية، والميول الخاصة التي جعلت الشيوخ لا يعتمدون على مقاييس الكفاءة العلمية مما أدى بالشيخ إلى قول البيتين المشهورين:

عجبا لهاتيك النظارة أصبحت كالثوب بين انامل (القصار)

وانامل (القصار) تعبت مثل آ لاتي تحركها يد (النجار)

ويعني بهما الشيخ (القصار) والشيخ (النجار) من كبار شيوخ الزيتونة، وهما من هيئة نظارة الجامع الأعظم. انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٥١-٥٢.

كما أنه تناول الأغراض الاجتماعية، وانطوى شعره على التأمل، والحكمة، وتميز بالجزالة، والفخامة، وشدة الأسر، وقوة السبك.

وعلى كل حال فإن ديوان (خواطر الحياة) زيادة على كونه إضافة أدبية هو - في الوقت نفسه - وثيقة مهمة تفيد الباحث في التعرف على كثير من المعطيات التاريخية، والنظريات الثقافية، والاجتماعية، والسياسية التي تشغل بال هذا الإمام، وبال غيره من العلماء والمتقنين المعاصرين له، والمهتمين بشؤون العالم الإسلامي وقضاياها.

كما يتبين من خلال هذا الديوان قيمة صاحبه الشعرية، ومدى إجادته هذا الفن الأدبي من حيث الإطار، ومن حيث المضمون كما أجاد في مؤلفاته الثرية.<sup>(١)</sup>

وفيما يلي إيراد لبعض مقطوعاته وأبياته التي تؤكد شيئاً مما مضى ذكره:

١ - قال في مقطوعة بعنوان (رفقاً بها)، وقد قالها في تونس مداعباً أستاذه الشيخ

سالم بوحاجب بعد درس تُعَرِّض فيه إلى حكم التضحية بالظباء:

مدّ في وجرة الحباله يبغي	قنصاً والظباء ترتع مرحى <sup>(٢)</sup>
صاها ظبية وهم بأن يصد	رعها كالخروف في عيد أضحي
قلت: رفقاؤها ولا تُرهقنها	وهي ترنو إليك صرعاً وذبحا
ما أظن السكين ترضى وفيها	جدة أن تخط في الجيد جرحا
خل عنها فعينها أذكرتنا	عين أسماء وهي بالبشر طفحى <sup>(٣)</sup>

٢ - وقال في مقطوعة عنوانها (الصدقة والعزلة):

أريد أخاً كالماء يجري على الصفا  
نقياً فيصفو لي على القرب والبعد

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٩٠.

٢ - وجرة: مرتع للوحش، والحباله: المصيدة، والقنص: الصيد.

٣ - خواطر الحياة ص ٥٩-٦٠.

وأرسلت لَحْظَ الفكرِ في القومِ ناقداً  
فلا ضير في ودِّ تغاضيت فيه عن  
فعاد وكم لاقى لساناً مماذقاً  
ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى  
وأوصيته ألا يببالغ في النقد  
لواذع يأتيها الصديق بلا عمد  
ومن خلفه قلبٌ خليٌّ من الود  
لنفتشت عن وادٍ أعيش به وحدي<sup>(١)</sup>

٣- وقال في مقطوعة عنوانها (الدعاء للميت خير من تأيينه) وقد قالها في مستشفى  
فؤاد الأول بالقاهرة في ربيع الآخر سنة ١٣٦٨هـ، وفي ضمنها معنى من معاني  
الوفاء، ألا وهو الدعاء للميت؛ فهو خير ما يقدمه الصاحب لصاحبه بعد موته.

وهذه المقطوعة من أجمل ما قيل في هذا المعنى من شعر؛ يقول ﷺ:

تسألني هل في صحابك شاعرٌ  
فقلت لها: لا هم لي بعد موتي  
وما الشعر بالمغني فتيلاً عن امرئ  
وإن أخطأ بالرُحْمى فمالي من هوى  
فخلّ فعولن فاعلاتن تقال في  
وإن شئت تأبيني<sup>(٢)</sup> فدعوةٌ ساجد  
إذا مت قال الشعر وهو حزينُ  
سوى أن أرى أخراي كيف تكون  
يلاقى جزاءً والجزاءُ مهين  
سواها وأهواء النفوس شجون  
أناس لهم فوق التراب شؤون  
لها بين أحناء الضلوع حنين<sup>(٣)</sup>

٤- وقال في قصيدة عنوانها: (القلب كالرحى):

لا تُخلِ نَفْسَكَ مِنْ فِكْرٍ تَجُولُ بِهِ  
والقلب إن لم يدر يوماً على رشد  
في الصالحات فَحَبَسُ الفكرِ يَضْنِيهَا  
دارت عليه هموم عَرَراقِيهَا

١ - خواطر الحياة ص ٧٧-٧٨ .

٢ - التأبين: الثناء على الميت.

٣ - خواطر الحياة ص ٢٢٤-٢٢٥ .

مِثْلُ الرِّحَى إِنْ تُدْرَها وَهِيَ خَاوِيَةٌ      مِنْ الطَّعَامِ فَإِنَّ الطَّحْنَ يَرْدِيهَا<sup>(١)</sup>

وله أبيات شاردة ضَمَّنَ كَثِيرٍ مِنْ قِصَائِهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

وَمَا أَبْصَرْتُ عَيْنَايَ أَجْمَلَ مِنْ فَتَى      يَخَافُ مَقَامَ اللَّهِ فِي الْخَلَوَاتِ<sup>(٢)</sup>

وقوله :

وَإِذَا الْخَصْمَانِ لَمْ يَهْتَدِيَا      سَنَةَ الْبَحْثِ عَنِ الْحَقِّ غَيْرِ<sup>(٣)</sup>

وقوله :

مَا زَكَ تَفَاحُ لَبْنَانِ عَلَى      حَسَكِ السَّعْدَانِ فِي ذَوْقِ مَنزَرِ

وَاسْتَوَى فِي نَظَرِ الْأَعْشَى ضَحَى      زَهْرِ رَوْضِ وَهْشِيمِ الْمُحْتَظَرِ<sup>(٤)</sup>

وقوله عندما دخل القطار في بساتين دمشق لأول مرة عام ١٣٣١هـ :

لَجَّ الْقَطَارُ بِنَا وَالنَّارُ تَسْجِبُهُ      مَا بَيْنَ رَائِقِ جَنَاتٍ وَأَنْهَارِ

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا تَدْرِيهِ فِي سَفَرِ      قَوْمٍ يَقَادُونَ لِلْجَنَاتِ بِالنَّارِ<sup>(٥)</sup>

وقوله :

وَلَرَبُّ أُمَّ أَمَلَتْ فِي طِفْلِهَا      هَمَّ الْمَلُوكِ فَمَا يَحْدُو الْعَيْسَا<sup>(٦)</sup>

وقوله :

وَنَفَاسَةُ الْأَشْيَاءِ فِي غَايَاتِهَا      فَاحْمَدُ رِمَاءِكَ إِنْ أَصَبْتَ نَفَيْسَا<sup>(٧)</sup>

١ - خواطر الحياة ص ٢٣٩-٢٤٠ .

٢ - خواطر الحياة ص ٤٨ .

٣ - خواطر الحياة ص ٩٧ .

٤ - خواطر الحياة ص ٩٩ .

٥ - خواطر الحياة ص ١٠٨ .

٦ - خواطر الحياة ص ١١٧ .

٧ - خواطر الحياة ص ١٢٠ .

وبالجملة فالديوان حافلٌ بالقصائد والمقطعات التي تحتاج إلى مزيد بحث، ودراسة، وتحليل.

الرابع عشر: نقض كتاب في الشعر الجاهلي: هذا الكتاب أحد روائع الشيخ محمد الخضر حسين، وكتبه الخالدة التي ظهر فيها فضله، وتجلت عبقريته، وقوة عارضته، وتفننه في العلوم.<sup>(١)</sup>

وقصة هذا الكتاب تبدأ ولا تكاد تنتهي؛ إذ هي قصة ذات ذيول طويلة لا تزال تثار إلى يومنا هذا، ولا يكاد يُذكر طه حسين إلا ويذكر كتابه (في الشعر الجاهلي)، ويذكر معه نقض الشيخ الخضر له.

وقصة هذا الكتاب تبدأ حين ألقى الدكتور طه حسين محاضرات (في الشعر الجاهلي) على طلاب كلية الآداب في الجامعة المصرية، ثم جمع تلك المحاضرات في كتاب يقع في مائة وثلاث وثمانين صفحة، ويحتوي على ثلاثة أبواب وستة عشر فصلاً، وذلك عام ١٣٤٤هـ.

وقد بحث فيه المؤلف شعر العرب الجاهليين من حيث تمثله لحياتهم، وتقديم صورة واضحة للمظاهر العقائدية واللغوية، والاجتماعية لها.

وقد انتهى المؤلف طه حسين إلى أن أغلب الأشعار الجاهلية لا تعبر عن واقع مجتمعهم، وأنها متحلة لأسباب دينية، وسياسية، واجتماعية.

وقد تخلل هذا الكتاب طعنٌ في كثير من المسلمات، والحقائق الشرعية، والتاريخية، والأدبية.

واشتمل على خلل في المنهج، والاستشهاد، والتوثيق، كما احتوى على كثير من التناقضات والآراء الشاذة، إلى غير ذلك مما لا يسع المقام لذكره.<sup>(١)</sup>

ولقد آثار هذا الكتاب ضجةً كبرى في مصر، وأهاج الرأي العام في العالم الإسلامي؛ فتناوله العلماء، والكتاب، والأدباء في شتى الأقطار الإسلامية بالرد والتفنيد، وألفت كتبٌ في نقده، وقدمت بلاغات إلى النيابة العمومية في مصر ضد مؤلفه.

وليس المهم ههنا بسط ما حصل إبان تلك الفترة مما صاحب صدور ذلك الكتاب؛ إذ المقام ليس مقام إطالة وتفصيل في هذا الشأن.

وإنما المقصود ههنا هو موقف الشيخ محمد الخضر حسين من الكتاب المذكور؛ فلقد ألف رحمته الله كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) ونشرته المطبعة السلفية في القاهرة في ثلاث مائة واثنين وستين صفحة تشتمل على ثلاثة أبواب، وستة عشر فصلاً - أي نفس التقسيم الذي اتبعه طه حسين - ثم أعادت طبعه: المكتبة الأزهرية للتراث<sup>(٢)</sup>.

وقد افتتح ذلك الكتاب بمقدمة للشيخ عبدالرحمن قراعة مفتي الديار المصرية الذي أبدى رأيه في الكتاب، وأشار فيه إلى أن الباطل ما برح يحارب الحقيقة الإسلامية بسيفه المغلولة، وشبهاته الضئيلة.

إلى أن قال: «وقد عاد اليوم إلى جولة اليوم يدفعه إليها نفر من المتأثرين بكتب الداعين إلى معاداة دين سيد المرسلين سقطوا على ما فيها من أنظار قرائنا، وأسماع الطلاب من أبنائنا زاعمين أنه بضاعة جديدة هي ثمرات قرائحهم، ونتائج أفكارهم،

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٦٢-١٧٠.

٢ - وقد صدر عام ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م.

محاولين بذلك تقويض بناء قامت فضائله الشائخة على أساس متين من الحقائق الراسخة؛ فاستاء من عملهم هذا أهل العلم الصحيح والأدب الصريح»<sup>(١)</sup>.  
ثم أشار إلى كتاب طه حسين فقال: «ومن هذه الكتب رسالة عنوانها (في الشعر الجاهلي) عرف صاحبها بالتعصب لكل ما فيه كيدٌ للإسلام، وحطٌّ من جلاله وفضائل عظامه وآله.

وقد احتوت هذه الرسالة على مزاعم وأباطيل يجمعها وصف واحد، وهو الاستخفاف بالحقائق، والتعصب لعقيدة خاصة افتتن مؤلف الرسالة بها»<sup>(٢)</sup>.  
ثم أشار إلى رد الشيخ محمد الخضر، وأثنى عليه فقال: «فانبرى له حضرة العالم المحقق، والفهامة المدقق السيد محمد الخضر حسين التونسي من علماء الجامع الأزهر بمصر، وجامع الزيتونة بتونس؛ فحلل هذه الرسالة تحليلاً علمياً نزيهاً رد فيه ما انتحله إلى أهله، وعاد به إلى أصله، ودحض الأباطيل بالأدلة الواضحة، ونبه إلى مغامز الكتاب المردود عليه، ودل على المرامي التي يرمي إليها، وأبان عن مواطن ضعفه، ومكامن سخفه»<sup>(٣)</sup>.

ثم ختم كلمته بقوله: «ولعمري إنه قد خدم بهذا العمل الجليل العلم المتين، والأدب الرفيع خدمة تحول بها شرُّ الكتاب المردود عليه إلى خير»<sup>(٤)</sup>.  
ولا ريب أن هذا الرأي من مفتي الديار المصرية يعد وثيقة مهمة تُبين أن السبب الأول الذي دعا المؤلف إلى الرد على طه حسين هو سبب ديني أكثر منه أدبي ولغوي.

١ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي للشيخ محمد الخضر حسين، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة،

ص: ج-د

٢ - المرجع السابق ص: د.

٣ - المرجع السابق ص: د.

٤ - المرجع السابق ص: د.

كما تبين قيمة الشيخ الخضر العلمية، وتقدير أبرز شيوخ مصر لكفاءته، وسعة معارفه في اللغة، والأدب، والشريعة، وغيرها.<sup>(١)</sup>

ويعد تقرّظ الشيخ عبدالرحمن قراءة قدّم الشيخ الخضر لكتابه بالحديث عن المراحل التي مرت بها الحياة الفكرية، والاجتماعية في المشرق، ثم أشار إلى وجود طائفة (تلهج باسم حرية الفكر) للنيل من الإسلام ورجاله، والغض من جهادهم في سبيل إعلاء كلمة الحق والرشاد.

وتعرض في هذه المقدمة إلى الطريقة التي اتبعها في نقض كتاب طه حسين، وهي طريقة تختلف قليلاً عن طريقة نقض كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبدالرازق؛ إذ إنه لم يُقَمِّ في رده على طه حسين بتلخيص الفصول كما فعل مع كتاب علي عبدالرازق - كما سيأتي - بل اقتصر على ذكر الفقرات ومناقشتها.<sup>(٢)</sup>

يقول ﷺ في هذا «وقد ارتأيت ألا أنقد فقرة إلا بعد أن أنقلها بحروفها، وأحكيها كما صدرت من منشئها.

وإن كان موضع البحث يتوقف على جمل سلفت، ولم نتعرض لمناقشتها أتينا بها في تلخيص ضابط للمعنى الذي لا يتهاى فهم المناقشة إلا به؛ حتى يكون كتابنا هذا قائم بنفسه، ويستقيم للقارئ أن يدخل في البحث وهو على استبانة من أمره».<sup>(٣)</sup>

ثم يقول بعد ذلك: «وإنا لا نغمض لذلك الكتاب في مقال ينهيه، أو غمز في الأسلوب يستعذبه؛ فإن وجدتنا نحاوره في نهب أو غمز فإننا لا نخرج عن دائرة نقده، ولم نتجاوز حد الباحث عن مقتضيات لفظه؛ فإن كان في فمك ملامم فمجه في سمعه؛ فهو الذي ألقى عليك نحواً من حديث قوم لا يتدبرون».<sup>(٤)</sup>

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٦٢-١٦٣.

٢ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٦٣.

٣ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢.

٤ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢.

وبعد ذلك شرع في نقد الكتاب بأسلوب علمي، ومنهج سيأتي الكلام عليه لاحقاً في غضون هذا البحث، خصوصاً في الباب الثالث عند الحديث عن منهجه في الرد على المخالفين.

ولقد وقع هذا الكتاب موقع الرضا، والقبول، والإعجاب عند كافة الطوائف، وعُدَّ وثيقة مهمة مفيدة لدارسي الأدب الجاهلي، وخاصة المهتمين منهم بقضية الشك في شعر العرب الجاهليين؛ لما قدمه الشيخ الخضر من حجج قوية لغوية، وتاريخية، وأدبية خلال نقاشه لكتاب طه حسين، وما أبداه من نزاهة، واعتدال؛ فكان لهذا الكتاب ما كان من التقدير والمكانة عند علماء الإسلام المعاصرين، والأدباء العرب البارزين.

بل إن الدكتور طه حسين أسرَّ إلى الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في إحدى لقاءاته معه «أن رد الشيخ محمد الخضر حسين من أهم الردود وأشدّها حجة»<sup>(١)</sup>.

هذا وقد أعاد الأستاذ علي الرضا الحسيني طبع كتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) وتصرف فيه بوضع عنوانات فرعية للبحوث التي تناولها الكتاب؛ تسهيلاً للقارئ - كما يقول - وراعى في انتقاء العنوان أن يكون مستمداً من المادة ذاتها. كما تصرف - ولم ينبه على ذلك - بحذف مقدمة الشيخ عبدالرحمن قراعة - مفتي الديار المصرية -.

ولا ريب في أهمية وجودها؛ إذ هي مما ارتضاه الشيخ الخضر، كما أنها وثيقة مهمة من تاريخ ذلك الكتاب.

وقد طبع الأستاذ الحسيني هذا الكتاب طبعته الثالثة عام ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م في الدار الحسينية للكتاب، وأردفه بملحق يتضمن الأعلام، والأماكن التي وردت في الكتاب، ورتبها حسب حروف المعجم؛ فجاء في ثلاث مائة وثلاث وتسعين صفحة.

ولما طبع الأستاذ علي الرضا الحسيني موسوعة الأعمال الكاملة جعل كتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) في مجلد خاص حيث استوعب المجلد الثامن كاملاً؛ فجاء في أربعمائة وثلاث وتسعين صفحة<sup>(١)</sup>.

فهذه خلاصة موجزة لكتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) وسيأتي مزيد حديث عنه في غضون هذا البحث.

الخامس عشر: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم: وبعد هذا الكتاب وكتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) أهم ما كتبه الإمام محمد الخضر حسين، فلقد كان لهما الدور العظيم في الرد على الكتابين المذكورين، وفي إبراز قيمة الشيخ محمد الخضر حسين؛ حيث قفزا به إلى الصف الأول بين علماء مصر وأدبائها، فارتفعت شهرته ومكانته بسرعة فائقة - كما يقول الدكتور مجاهد توفيق الجندي-<sup>(٢)</sup>.

ولقد كان موقفه من كتابي طه حسين وعلي عبدالرازق موقفَ الرفض؛ لذا استعمل كلمة (نقض) التي تفيد الهدم والإبطال لما جاء في الكتابين عوضَ كلمة (نقد) التي تفيد التمييز بين المحاسن والعيوب، وذلك لاعتقاده خطرَ هذين الكتابين على القراء، وضرورة تجنيب المسلمين - والشبان منهم خاصة - التأثير بما فيهما من تحريف وضلال.<sup>(٣)</sup> أما كتاب (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) فقد مرت الإشارة إليه، وسيأتي عنه حديث مفصل في أكثر أبواب هذا البحث.

أما الحديث عنه ههنا فسيكون من خلال تعريف موجز به؛ فالشيخ علي عبدالرازق القاضي الشرعي، وأحد علماء الأزهر أصدر كتاب (الإسلام وأصول

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٨/٣٤٨٧-٣٩٩٤.

٢ - انظر محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع التونسي ص ٦٦.

٣ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٥١.

الحكم) وذلك في شهر رمضان سنة ١٣٤٣هـ، وجاء في مائة وثلاث صفحات، واشتمل على ثلاثة كتب وتسعة أبواب، ودار حول موضوع الخلافة في الإسلام وعلاقة الدين بأسلوب الحكم في العالم الإسلامي، وما ينبغي أن يكون عليه هذا الأسلوب في العصر الحديث.

وقد ذهب إلى أن نظام الخلافة لا يمت إلى الدين الإسلامي بصلة؛ وادعى أن القرآن الكريم والسنة النبوية لم ينصا على ذلك، وأن وجوده في هذا العهد غير ضروري لقيام حكومات إسلامية.

فهذا هو خلاصة ما يدعو إليه كتاب الشيخ علي عبدالرازق.<sup>(١)</sup>

أما على وجه التفصيل فالكتاب يحتوي على إشكالات ومغالطات كثيرة. ولما خرج ذلك الكتاب أثار ضجة كبرى لدى أهل العلم، والسياسة؛ فوقع حجزه من الأسواق، وأبعد صاحبه من جامع الأزهر، وأخرج من هيئة كبار العلماء، وقام عدد من العلماء بنقده والرد عليه كالشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه (نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم).

وكشيخ الإسلام مصطفى صبري في كتابه: (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة).

وكالدكتور محمد ضياء الرئيس في كتابه (الإسلام والخلافة في العصر الحديث)<sup>(٢)</sup>.

أما أعظم من تصدى لذلك الكتاب فهو الشيخ محمد الخضر حسين في كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم).

١ - محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٥١-١٥٢.

٢ - العنوان بتمامه (الإسلام والخلافة في العصر الحديث نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم) منشورات

العصر الحديث، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٣٤٤هـ بالمطبعة السلفية بالقاهرة، واحتوى على مائتين واثنين وخمسين صفحة، واشتمل على ثلاثة كتب، وتسعة أبواب، وهو نفس التقسيم الذي استعمله الشيخ علي عبدالرازق. ثم طبعه الأستاذ علي الرضا الحسيني مفرداً في الدار الحسينية للكتاب عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، وتصرف فيه بوضع عنوانات وتعليقات من أجل التسهيل على القارئ - كما يقول - حيث أخذ العنوانات من فهرس الكتاب في طبعته الأولى<sup>(١)</sup>.

وقد جاء الكتاب في هذه الطبعة في ثلاث مائة وثلاث وثلاثين صفحة، ثم طبع ضمن موسوعة الأعمال الكاملة، وجاء في ثلاثمائة وسبع صفحات<sup>(٢)</sup>. والدارس لهذا الكتاب - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم - يتبين له قدرة الشيخ الخضر العلمية، والعقلية على إقامة الحجة، وتقديم الدليل المقنع مما يجعل هذا الكتاب وثيقة علمية يرجع إليها المهتمون بقضايا الخلافة وشؤون الحكم الإسلامي<sup>(٣)</sup>. ولا زالت أصدااء هذا الكتاب تتردد إلى يومنا الحاضر.

هذا وسيأتي مزيد بيان ودراسة لهذا الكتاب في الأبواب القادمة - بإذن الله - .  
السادس عشر: جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية: وهذا الكتاب لم يسمه الشيخ الخضر، ولم يؤلفه ابتداءً، وإنما هو من جمع الأستاذ علي الرضا الحسيني الذي قال في مقدمته: «في هذه المقدمة لكتاب (جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية -

١ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ط الدار الحسينية للكتاب ص ٨ .

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٩/٣٩٩٩-٤٣٠٥ .

٣ - محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٥١-١٦١ .

صفحات من جهاد الإمام محمد الخضر حسين) الذي نخصه للوثائق التي ارتبطت بأعمال الجبهة ونشاطها، والتي نشرت في مجلة (الهداية الإسلامية) على صفحات أجزاء متعددة، رأينا أن في جمعها خدمة للتاريخ ولتاريخ المغرب العربي خاصة»<sup>(١)</sup>.

ثم قال موضحاً ما يحتوي عليه هذا الكتاب: «نستعرض في هذا الكتاب بإيجاز يفي بالغرض:

- الحرية في الإسلام - أول دعوة ومحاضرة نهض بها الإمام في تونس.
  - في معتقل جمال السفاح في دمشق.
  - جهاد الإمام في برلين.
  - جمعية تعاون جاليات أفريقية الشمالية.
  - جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية.
  - الإمام محمد الخضر حسين والرئيس الحبيب بورقيبة.
  - وثائق جبهة الدفاع عن أفريقية الشمالية.
  - تصريحاته في مشيخة الأزهر بتأييد قضايا المغرب العربي وتنديده بالاستعمار»<sup>(٢)</sup>.
- وهذا الكتاب يقع في مائة صفحة من موسوعة الأعمال الكاملة<sup>(٣)</sup>.
- السابع عشر: القاديانية والبهاية: وهذا الكتاب كشف لضلالات هاتين الفرقتين. وأصله مقالات نشرها الشيخ في مجلة (نور الإسلام) التي كان يصدرها الأزهر، ويرأس تحريرها الشيخ الخضر.

١ - جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية ص ٤-٥.

٢ - جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية ص ٥.

٣ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٩/٤٤٠٧-٤٤٩٦.

كما أن بحث (القاديانية) سبق أن نشر في رسالة مطبوعة عام ١٣٥١هـ، وبحث البابية والبهائية نشر في الطبعة الأولى من كتاب رسائل الإصلاح.<sup>(١)</sup> هذا وإن كتاب (القاديانية والبهائية) يقع في تسعين صفحة من موسوعة الأعمال الكاملة<sup>(٢)</sup>.

وسياتي مزيد بسط وتفصيل لهذا الكتاب عند الحديث عن مواجهة الشيخ الخضر للبابية والبهائية والقاديانية.

الثامن عشر: الهداية الإسلامية: وهو كتاب جمع فيه الأستاذ علي الرضا الحسيني بحوث الشيخ الخضر ومقالاته التي كان ينشرها في مجلة (الهداية الإسلامية). وقد طبع الأستاذ علي الرضا الحسيني هذا الكتاب مستقلاً عام ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، فجاء في مائتين وأربع وخمسين صفحة، ثم ضُمَّنه موسوعة الأعمال الكاملة فجاء في مائتين وثمان وتسعين صفحة<sup>(٣)</sup>.

وقد احتوى على مقدمة الناشر، ومقدمة الشيخ الخضر وهي فاتحة مقالاته في مجلة (الهداية الإسلامية).

كما احتوى على مقالات كثيرة، تدور حول الدين، والاجتماع، والسياسة، والأخلاق، والسير، والعلم، والطب، والقضاء. وأول ما جاء في هذا الكتاب بحث عنوانه (آداب الحرب في الإسلام). ويقع في سبع وثلاثين صفحة<sup>(٤)</sup>.

١ - القاديانية والبهائية ص ٣-٤ .

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٩/٤٣٠٧-٤٤٠٦ .

٣ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١٠/٤٥٠٩-٤٨٠٨ .

٤ - انظر المرجع السابق ١٠/٤٥٢٠-٤٥٥٦ .

وهذا البحث قد خرج في كتيب خاص، يقع في ستين صفحة، وقد نشره الأستاذ علي الرضا الحسيني في الدار الحسينية للكتاب عام ١٤١٣هـ. وهو بحث طريف يتحدث فيه المؤلف بعد المقدمة والتمهيد عن أسباب الحروب، والاستعداد لها، والتدريب عليها، ومحاسبة العدو في وسائل الدفاع، وكتابة أسماء من يدعون إلى الحرب، وإعلان الحرب، ورفع راياتها، وشعارها، وتعهد الجند بالموعظة، والنشيد الحماسي، والزحف في صفوف منظمة، والإقدام في الدفاع، والثبات في مواقعه، والإخلاص في الحرب، وأثر الاستقامة في الانتصار، والدهاء في الحرب، وكيف يكون قائد الجيش، واستكشاف حال العدو، والتكتم في الحرب، والاحتراس فيها، وحكم الجاسوس في الإسلام، والرفق بالجند ومعاملتهم بالعدل، وتلقي أوامر القائد بحسن الطاعة، وتحامي الاختلاف المؤدي للشقاق، والتخلف عن الدفاع، والفرار من صفوف القتال، ومجاملة رسل العدو، وتجنب قتل من لا يقاتل، ومعاملة الأسرى، والدفاع في البحر، وعقد الصلح، وتخليص الأسرى من أيدي العدو، وتقدير البطولة.

هذا وإن البحث مُمتعٌ بالجوانب العلمية، والفقهية، والتاريخية، والأدبية.

ومن عناوين الموضوعات التي احتوى عليها كتاب الهداية الإسلامية:

- ١- الروح العسكرية في الإسلام ٢- الطب في نظر الإسلام ٣- حقوق الزوجية في الإسلام ٤- القضاء العادل ٥- مكانة القضاء ٦- صفات القاضي في الإسلام ٧- شريك قاضي الكوفة وموسى بن عيسى أميرها ٨- أكل الجيش أسلفه؟ ٩- السياسة الرشيدة في الإسلام ١٠- الدين والفلسفة والمعجزات ١١- حقوق الجار ١٢- السخاء

وأثره في سيادة الأمة ١٣- الحلم وأثره في سيادة الأمة ١٤- حالة الأمة في هذا العصر  
 ١٥- اليد العليا خير من اليد السفلى ١٦- خير نظام للحكم ١٧- سعيد بن جبير  
 والحجاج ١٨- استعمال الألفاظ في غير مواضعها ومضاره الاجتماعية ١٩- فضل شهر  
 رمضان ٢٠- بحث موجز في أشهر الفرق الإسلامية ٢١- إصلاح المعاهد الدينية  
 والدكتور طه حسين ٢٢- الأدوية المفردة بين دسقوريدس وابن البيطار.  
 ٢٣- كلمات وخواطر وتحتة: عنوانات كثيرة في موضوعات شتى<sup>(١)</sup>.

التاسع عشر: أحاديث في رحاب الأزهر: وهذا الكتاب جمعه الأستاذ علي الرضا  
 الحسيني من أحاديث الشيخ الخضر، وقال في مقدمته: «وصفحات هذا الكتاب تضم  
 أحاديث الإمام محمد الخضر حسين في رحاب الجامع الأزهر، تلك التي نشرتها  
 الصحف والمجلات - وخاصة جريدة (الأهرام) القاهرية التي أولت أحاديث الإمام  
 عناية خاصة - بالإضافة إلى أقوال وتعليقات الصحافة من خلال اختياره للمشيخة.  
 وقد رُتبت حسب تاريخ صدورها، واختيرت العناوين المثبتة في مجلة الأزهر  
 مع الإشارة إلى نص العناوين الواردة في الصحف إن كان هناك اختلاف»<sup>(٢)</sup>.  
 وقد أصدر الأستاذ علي الرضا هذا الكتاب مستقلاً في كتاب خاص، ونشرته  
 الدار الحسينية للكتاب عام ١٤١٤ هـ، ووقع في مائتين وثمانين عشرة صفحة.  
 ثم جاء في موسوعة الأعمال الكاملة في مائتين وست وخمسين صفحة<sup>(٣)</sup>.  
 ويحتوي هذا الكتاب على مقالات في العلم، والدين والأخلاق، والسياسة،  
 والمرأة، وأحوال المسلمين.

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١٠/٤٥٥٠-٤٨٠١.

٢ - أحاديث في رحاب الأزهر ص ٤-٥.

٣ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١٠/٤٨٠٩-٥٠٦٤.

كما يحتوي على مواقف للشيخ الخضر، ومقابلات صحفية أجريت معه، وكلمات، وقصائد، ومراثي قيلت فيه.

العشرون: تونس وجامعة الزيتونة: وقصة هذا الكتاب أن الشيخ محمد الخضر حسين كان شديد الحب والاهتمام بوطنه تونس، فكان يتابع أخباره، ويسعى إلى التعريف بقضيته، وبرجاله العظماء، وتاريخه المجيد، حتى إنه لا يخلو عدد من أعداد مجلة الهداية الإسلامية التي أصدرها في القاهرة في ثلاث وعشرين سنة من مقال يتحدث فيه عن هذه البلاد، أو أحد علمائها، أو أن يفتح صفحات المجلة أمام كبار علماء تونس وكتابها الكبار أمثال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ومحمد البشير النيفر، وغيرهما.

وقد جمع الأستاذ علي الرضا الحسيني عدداً من المقالات والمحاضرات التي حررها الشيخ أو ألقاها عن البلاد التونسية في هذا الكتاب الذي سماه (تونس وجامع الزيتونة) وأصدره عام ١٩٧١ م.<sup>(١)</sup>

يقول الأستاذ محمد مواعده: عن تقسيم مقالات الكتاب: «ويمكن تقسيم هذه المقالات إلى نوعين: مقالات تتحدث عن الجوانب التاريخية، والعلمية، والأدبية، والسياسية بتونس.

ومقالات - وهي أكثر عدداً من القسم الأول - تتناول بعض الشخصيات العلمية الذين أنجبتهم هذه البلاد، وعدداً من الشيوخ والعلماء الذي كانوا يدرسون بجامع الزيتونة في ذلك العهد»<sup>(٢)</sup>.

ولقد حاول الشيخ محمد الخضر من خلال هذه المقالات التأكيد على مكانة رجالات تونس، وعدهم في مقدمة العلماء والأدباء في تاريخ الحضارة الإسلامية.

١ - محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٣٧-١٣٨.

٢ - المصدر السابق ص ١٣٨.

كما تعرض إلى التعليم بجامع الزيتونة من حيث تطوره العلمي الكبير منذ الشروع في تأسيسه على يد حسان بن النعمان سنة تسع وسبعين للهجرة، وكذلك من حيث البرامج التعليمية التي كانت متبعة، ونوع الكتب.

كما تحدث عن بعض أعلام تونس في الماضي والحاضر.

وبالجمل فالكاتب يحتوي على أربعة وعشرين موضوعاً يتضح من خلالها مضمونه، وسعة معارف مؤلفه، وحسن اختياره لموضوعاته<sup>(١)</sup>.

وفيما يلي ذكرٌ لعنوانات الكتاب:

- ١- فقهاء تونس ٢- شعراء تونس ٣- الحالة العلمية بجامع الزيتونة ٤- الدولة الحسينية في تونس ٥- الشعر التونسي في القرن الخامس ٦- حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية<sup>(٢)</sup> ٧- حياة أسد بن الفرات ٨- نظرة في أدب الشيخ محمود قبادو التونسي ٩- نظرة في حياة وزير تونسي ١٠- الشيخ محمد ماضور من علماء تونس وأدبائها ١١- الشيخ محمد النجار من أفاضل علماء تونس ١٢- أحمد بو خريص ١٣- الشيخ محمد بيرم الثاني نسبه، ولادته، نشأته ١٤- الشيخ محمد الخضار من علماء تونس الأجلاء ١٥- السيد محمد النيفر من كبار علماء جامع الزيتونة في القرن الماضي ١٦- السيد محمد الطاهر بن عاشور ١٧- عمر بن الشيخ من أعظم أساتذتي بجامع الزيتونة في تونس ١٨- أحمد كريم ١٩- محمد بن الخوجة من أركان النهضة العلمية بجامع الزيتونة ٢٠- أحمد الورتاني ٢١- محمد الطاهر بن عاشور شيخ جامع

١ - انظر المصدر السابق ص ١٣٨.

٢ - طبعت هذه المحاضرة التي أقيمت مساء الجمعة ٥/ صفر ١٣٤٣هـ للمرة الأولى في المطبعة السلفية في نفس العام، وأعاد الأستاذ علي الرضا الحسيني طبعها مفردة عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م الطبعة الثالثة في الدار الحسينية.

الزيتونة الأعظم في تونس ٢٢- علي الدرويش ٢٣- تونس ٢٤- سالم بوحاجب آية من آيات العبقرية<sup>(١)</sup>.

وقد جاء كتاب (تونس وجامع الزيتونة) في المجلد الحادي عشر من موسوعة الأعمال الكاملة في مائة واثنين وتسعين صفحة<sup>(٢)</sup>.

الحادي والعشرون: من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين - رسائل الخضر -: وهو كتاب جمعه الأستاذ علي الرضا الحسيني، ونشره في الدار الحسينية للكتاب، عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م في مائة وأربع وخمسين صفحة، ويحتوي على رسائل من الشيخ الخضر إلى بعض إخوانه، وأحبابه.

ثم أودعه الأستاذ علي موسوعة الأعمال الكاملة، وجاء في مائة وإحدى وخمسين صفحة<sup>(٣)</sup>.

وأكثر هذه المكاتبات نثر، وبعضها شعر، وغالبها كانت رسائل بينه وبين صديقه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور؛ حيث بلغت خمس عشرة رسالة.

ثم ما كان بينه وبين أخيه محمد المكي بن الحسين حيث بلغت ثلاث عشرة رسالة. وهناك رسائل أخرى بينه وبين الشيخ محمد الصادق النيفر، وأحمد تيمور باشا، وأخيه زين العابدين، وخليل مردم بك وغيرهم.

وهناك كتاب موجه إلى وزير المعارف المصرية، وكتاب مفتوح للشيخ محمد رشيد رضا. وهذه المكاتبات تدور حول بث الأشواق، والسؤال عن الحال، وتدور حول

التهنئة، وحول بعض المسائل العلمية، والواقعية وما جرى مجرى ذلك.

١ - انظر تونس وجامع الزيتونة ص ١٩١-١٩٢.

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١١/٥٠٧٩-٥٢٧٠.

٣ - انظر المرجع السابق ١١/٥٢٧١-٥٤٢١.

الثاني والعشرون: الرحلات: وهو كتاب جمعه الأستاذ علي الرضا الحسيني مما كتبه عمه الإمام محمد الخضر حسين في شأن الرحلة عموماً، وما دوّنه في رحلاته من مشاهدات، ونظرات، وعبر.

وقد نشر الأستاذ علي هذا الكتاب مفرداً، عام ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م في مائة وأربع وثلاثين صفحة.

ثم ضمنه موسوعة الأعمال الكاملة، فجاء في مائة وثلاث وتسعين صفحة<sup>(١)</sup>. وهذا الكتاب -على صغره- من أمتع كتب الرحلات، وذلك من ناحية مضمونه، وحسن عرضه، وسلاسة أسلوبه، وتفصيله في شأن الرحلة، وصدوره عن فطنة مستيقظة تعتبر بالحوادث، وتنظر في مجاري الأمور، وتبحث في أسرار الاجتماع. وقد تضمن ذلك الكتاب الرسائل التالية:

١- أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية ٢- النهضة للرحلة ٣- الرحلة الجزائرية ٤- خلاصة الرحلة الشرقية ٥- حديث عن رحلتي إلى دمشق ٦- رحلتي إلى سورية ولبنان ٧- مشاهد برلين.

هذا وإن الرسالة الأخيرة -مشاهد برلين- قد خرجت في كتاب مستقل؛ حيث أعدّه للنشر الأستاذ علي الرضا الحسيني، وصدر عن الدار الحسينية للكتاب عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، وجاء في إحدى وستين صفحة، ولم تكن ضمن كتاب الرحلات الذي خرج مستقلاً، وإنما أضافه إليه الأستاذ علي ضمن كتاب الرحلات في الموسوعة.

و (مشاهد برلين) كتاب لطيف تحدث فيه الشيخ الخضر عن فترة إقامته في ألمانيا، وعن بعض ملاحظاته، ومشاهداته هناك.

١ - انظر المرجع السابق ١١/٥٤٢٣-٥٦١٥.

ومما ذكره في ذلك الكتاب قوله: «وأذكر أنني ذات يوم في مقعد في أحد المنازه، فوقف علي أحد الأساتيد -الألمان- فسألني عما أكتب، فقرأت عليه من حديث تلك الصحيفة الجمل الآتية»<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر ما دونه من خواطر مختصرة تحمل معاني عظيمة في صياغة بليغة، ومنها قوله:

- يقولون: تَفَرَّقُ الأمة يفضي إلى موتها، وأقول: التفرقُ أثرُ الموت؛ فإن الجسم يموت، فتفرقُ أجزاؤه.

- لا تثق في نفسك فيما تدعي من الإخلاص لأمتك حتى يلذ لك أن تصلح الخلل في نظامهم وهم لا يشعرون.

- إذا أغلق المحيط أعين رقبائك، وختم على أفواه عُدَّالك، ثم راودك على أن تنزع حلية أدبك - فقل: ليس للفضيلة وطن.

- إذا وثقت بعري التوكل على الله لم تَحْتَجْ إلى أن تمر إلى الحق على جسر من الباطل<sup>(٢)</sup>.

هذا وقد مرت الإشارة إلى كتاب مشاهد برلين عند الحديث عن أعمال الشيخ الخضر.

الثالث والعشرون: هدى ونور: وهذا الكتاب جمعه وسماه الأستاذ علي الرضا الحسيني، ثم أصدره في كتاب مستقل طبع عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، في الدار الحسينية للكتاب، وجاء في مائة وتسع وأربعين صفحة.

١ - الرحلات ص ١٧٦، وانظر مشاهد برلين ص ٤٢.

٢ - الرحلات ص ١٧٦.

ومادة هذا الكتاب وجدها الأستاذ علي في مجلات البدر التونسية، و (نور الإسلام) و(الهداية الإسلامية) و (لواء الإسلام) و (الفتح) المصرية، وأشار في حاشية كل بحث ومقال إلى مصادرها في المجالات المذكورة.

وهذا الكتاب كغيره من الكتب التي جمعها الأستاذ علي من تراث عمه، فكان إذا توافر عنده شيء منها نشره في حينه.<sup>(١)</sup>

هذا وقد أضاف الأستاذ علي هذا الكتاب إلى موسوعة الأعمال الكاملة؛ فجاء في مائة وثمان وسبعين صفحة<sup>(٢)</sup>.

وقد تضمن مقالات، وبحوثاً متنوعة ما بين علمية، ودينية، وأخلاقية، واجتماعية، وفلسفية، وسياسية، وأدبية إلى غير ذلك من الموضوعات.

وفيما يلي مسرد بعنوانات تلك المقالات:

- ١- خواطر ٢- الحكمة العربية ٣- التعاون في الإسلام ٤- الرحلة والتعارف في الإسلام ٥- الشعور السياسي في الإسلام ٦- العاطفة والتسامح في الإسلام ٧- الشورى في الإسلام ٨- الدعوة الشاملة الخالدة ٩- طرق الصوفية والإصلاح ١٠- الخلافة الإسلامية ١١- الإسلام والفلسفة ١٢- التراويح ١٣- رسائل إخوان الصفا ١٤- الجمعيات الإصلاحية ١٥- العرب والسياسة ١٦- لهجة بلاد الجزائر ١٧- إلى كل مسلم يجب العمل في سبيل الله ١٨- تعقيب على حديث ١٩- مناظرة البطريرك الماروني ٢٠- طريق الشباب ٢١- الحكمة وأثرها في النفوس ٢٢- العمل للكمال ٢٣- أسباب سقوط الأندلس ٢٤- الجزائر واستبداد فرنسا ٢٥- مكانة الأزهر وأثره في حفظ الدين ورقي الشرق ٢٦- مَنْ لَمْ يَرِ مِصْرَ لَمْ يَرِ عِزَّ الْإِسْلَامِ ٢٧- تكريم

١ - انظر هدى ونور ص ٣ .

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١٢/٥٦٥١-٥٨٠٦ .

جمعية الهداية الإسلامية لرجل من عظماء الإسلام ٢٨- تأسيس جمعية الشبان المسلمين ٢٩- الشعر: حقيقته وسائل البراعة فيه الارتياح له تحلي العلماء به التجديد فيه ٣٠- قوة التخيل وأثرها في العلم والشعر والصناعة والتربية ٣١- البراعة في الشعر: مظاهرها مهياتها آثارها ٣٢- كتاب الأدب التونسي في القرن الرابع عشر ٣٣- رثاء عمر بن الشيخ<sup>(١)</sup>.

الرابع والعشرون: السعادة العظمى: مرت الإشارة إلى مجلة (السعادة العظمى) عند الحديث عن حياة الشيخ الخضر، وتأسيسه لتلك المجلة التي صدر العدد الأول منها في السادس عشر من محرم عام ١٣٢٢هـ بقطع من الورق الجيد، مقاس ١٧-٢٤سم، ويعدد من الصفحات لا تتعدى ١٦ صفحة.<sup>(٢)</sup>

وقد جاء عنوان المجلة هكذا (السعادة العظمى).

وجاء تحت هذا العنوان إضاءة وهي (مجلة علمية أدبية إسلامية تصدر غرة كل شهر عربي وفي سادس عشره).<sup>(٣)</sup>

وما إن صدرت المجلة حتى استقبلها أهل العلم والأدب بحفاوة بالغة، ولا أدل على ذلك من كثرة التقارير التي يطالعها القارئ في تضاعيف تلك المجلة.<sup>(٤)</sup> كما كانت في الوقت نفسه وخزاً للمستعمر الفرنسي الذي دأب منذ صدورها على محاربتها، وملاحقة صاحبها حتى تم إغلاقها ولما يَمُضُ عامٌ واحد على صدورها، فكان عددها الأخير في الحادي والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٢٢هـ.<sup>(٥)</sup>

١ - انظر هدى ونور ص ١٧٧-١٧٨.

٢ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٢٨، والسعادة العظمى ص ٣.

٣ - انظر السعادة العظمى ص ١ الشركة التونسية للتثقيف والترفيه.

٤ - ككتريز الشيخ محمد النخلي، والشيخ عبدالعزيز المسعودي، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ محمد الملكي بن عزوز وغيرهم كثير. انظر السعادة العظمى ص ٢٥.

٥ - انظر السعادة العظمى ص ٥.

وكان الشيخ الخضر يصدر تلك المجلة في داره في العاصمة تونس -نهج رحبة الغنم- فكانت داره منتدى علمياً وأديباً يؤمّه رجالُ العلم والأدب من تونسيين وعرب. وهذا هو السبب الذي دفع الاستعمار الفرنسي إلى التضييق على الشيخ مما أدى به إلى مغادرة البلاد تحت وطأة الاضطهاد يتابعه حكم بالإعدام يحول بينه وبين العودة إلى وطنه تونس.<sup>(١)</sup>

ومما تجدر الإشارة إليه أن أغلب مقالات مجلة (السعادة العظمى) كانت من تحرير الشيخ الخضر؛ لذا عُدَّت تأليفاً من تأليفه، وليست مثل المجلات التي كان يُشرف عليها ضمن هيئة تحرير منظمة كمجلتي (الهداية الإسلامية) و (نور الإسلام).<sup>(٢)</sup> ويعود سبب تأسيس مجلة (السعادة العظمى) إلى الحاجة الملحة التي كان يشعر بها المحافظون في تونس إلى ما يعبر عن آرائهم كما كانت مجلة المنار بالنسبة إلى الحركة الإصلاحية في جميع البلدان الإسلامية.

لكن الظروف التي أحاطت بالمجلة بعد صدور العدد الأول منها أكدت أنها - كما يقول الأستاذ مواعده - لم تكن لسان المحافظين فحسب؛ وذلك أن بعضهم أنكر على صاحبها الشيخ الخضر قوله «ودعوى أن باب الاجتهاد مغلق لا تُسمع إلا بدليل ينسخ الأدلة التي انفتح بها أولاً».<sup>(٣)</sup>

وطلبوا من الوزير محمد العزيز بو عتور توقيفها عن الصدور، فرفض شكواهم قائلاً: (إن ما تنشره المجلة لا يعارض الشرع ولا القانون).<sup>(٤)</sup>

١ - انظر السعادة العظمى ص ٥.

٢ - يقول الأستاذ محمد مواعده: «وقد أكد لي الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أن الشيخ محمد الخضر حسين كان يقوم بجل ما تتطلبه هذه المجلة من أعمال أدبية ومادية». انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٢٦.

٣ - السعادة العظمى عدد ١-٢ ص ١١.

٤ - انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٢٧.

وقد شجعه على مواصلة القيام بهذا العمل العلمي عدد كبير من العلماء الذين ينتمون في ذلك العهد إلى الحركة الإصلاحية، ومنهم شيخه الشيخ سالم بوحاجب الذي خاطبه بقوله: «أقول لك ما قاله ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي»<sup>(١)</sup>.

وهكذا توالى صدور المجلة إلى أن انقطعت عن الصدور.

ويعزو بعض الباحثين انقطاعها إلى مضايقة الاستعمار - كما مر - وبعضهم يعزوه إلى انتقال الشيخ إلى بنزرت حين تولى منصب القضاء.

ويرى بعضهم أن عجز الشيخ عن مواصلة هذا العمل من الناحية المادية هو السبب الأصلي لذلك.<sup>(٢)</sup>

وقد حدد الشيخ الخضر محتوى مجلة السعادة العظمى في العدد الأول الذي حرر جميع صفحاته، ويشتمل على ستة أغراض وهي:

١- المقالة الافتتاحية التي تتناول بعض الموضوعات المهمة التي تقضيها المحافظة على حياة المجد القديم.

٢- المباحث العلمية.

٣- الآداب: وينشر في هذا الباب ما يكون مرقاة للتقدم في صناعاتي الشعر والكتابة.

٤- الأخلاق: ويبحث فيه كيف ينحرف مزاجها، وبماذا يستقيم اعوجاجها.

٥- الأسئلة والاقتراحات.

٦- مسائل شتى.<sup>(٣)</sup>

وقد حرر الشيخ الخضر في الباب الأول عدة أبحاث أهمها ما يتصل بالشريعة الإسلامية، وضرورة الاعتصام بها، حتى يعود للأمة سالف مجدها.

١- المصدر السابق ص ١٢٧.

٢- المصدر السابق ص ١٢٧.

٣- انظر مجلة السعادة العظمى عدد ١-٢ ص ٣، ومحمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٢٨.

كما كتب مقالات تهدف إلى دعوة المسلمين إلى الاتحاد والتعاون، وبند الكسل والجمود، والاهتمام بقضايا العصر، والسعي إلى مسايرتها في ظل تعاليم الإسلام. ومما كتبه في هذا الشأن: الحياء، والعمل والبطالة، وحياة الأمة، والتربية، ومدنية الإسلام والعلوم العصرية، ومدنية الإسلام والخطابة، وكبر الهمة، والتعاون والتعاقد، والديانة والحرية المطلقة.

وقد كتب في هذه المجلة أكابر العلماء، وشيوخ الزيتونة كالشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، والشيخ محمد النجار المفتي المالكي، والشيخ محمد النخلي وغيرهم. وما من ريب أن هذه المجلة العربية الأولى بتونس تمثل وثيقة مهمة من الوثائق التي يجدر الرجوع إليها عند دراسة الحركة الفكرية والاجتماعية في تونس في ذلك العهد<sup>(١)</sup>. كما أنها تدل على عبقرية فذة، وشجاعة نادرة، وحكمة وسياسة وبعد نظر من الشيخ الخضر؛ حيث أسس تلك المجلة، ولما يبلغ التاسعة والعشرين من عمره، وكانت الساحة آنذاك تعج بكثير من الاختلافات والتيارات العلمية والسياسية. وكان بعض مشايخه القريبين إلى نفسه يميل إلى التيار الإصلاحية، وبعضهم ينجح إلى فريق المحافظين؛ فخرج بهذه المجلة بنفس إصلاحية محافظ؛ فلم يتوان في تقديم مشروعه الذي يرمي إليه دون إسفاف، أو مهاترة، أو مصادمة لأي من الطرفين. ولقد كُتبت وألقيت دراسات عديدة حول مجلة السعادة العظمى، وظروف نشأتها، ومنهج صاحبها، ودورها في الإصلاح<sup>(٢)</sup>.

١ - انظر محمد الخضر حسين حياته وأثاره ص ١٢٩-١٣٠.

٢ - ومن تلك الدراسات بحث (مجلة السعادة العظمى وقضايا الإصلاح) للأستاذة نجمة الحامي بوملألة. ومما تعرضت له في ذلك البحث: سبب اختيار هذا الاسم فتقول: «أما تسميتها (السعادة العظمى) فإن صاحب المجلة يرمز به إلى أن هذه المجلة تعين الأمة على تحقيق السعادة العظمى؛ بما تحويه من حكم، وما تناوله من مواضيع، وما توضحه من مسائل، وما تبدله في سبيل الدين؛ لتقريبه إلى الأذهان، وشرح حقائقه، وتصفيته من الشوائب، وما تعدده من سبل الرقي والتقدم، فجاء العنوان بمثابة المبتدأ الذي يخبر عنه مضمون المجلة. هذا الاسم له خلفية دينية؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى مجلتي: «العروة الوثقى» و«المنار»؛ فقد أبرز الأفغاني أن أفضل رابطة للأمة الإسلامية هي القرآن، والتمسك به، ورمز إليه (بالعروة الوثقى). أما «المنار» فهو الذي يهدي إلى السبيل القويم، وكان محمد رشيد رضا يتم المهمة التي بدأها الأفغاني بالمناداة إلى (العروة الوثقى)، وذلك يهدي المسلمين إلى سبيل هذه العروة، ومن يعرف سر نجاح، ويهتدي =

هذا وقد خرجت تلك المجلة في كتاب خاص عني به، ونشره الأستاذ علي الرضا الحسيني، وبيّن في مقدمته كيفية حصوله على أعداء تلك المجلة، وذكر بعض الظروف التي واكبت تأسيسها، وما آلت إليه فيما بعد.<sup>(١)</sup>

ثم ختم ذلك بقوله: « وقد حافظت - عند تحقيق هذه المجلة - على الشكل والترتيب؛ فهي صورة كالأصل، والقارئ إذا يطالع هذه الطبعة فكأن بين يديه الطبعة الأولى للمجلة ».<sup>(٢)</sup>

وقد بلغت صفحات ذلك الكتاب من غير مقدمة الأستاذ علي الرضا، ومن غير فهرسه ثلاثمائة وستاً وثلاثين صفحة.

وقد نشرته الشركة التونسية للتثقيف والترفيه عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

وعندما أراد الأستاذ علي الرضا إعداد موسوعة الأعمال الكاملة للشيخ الخضر جعل مقدمة العدد الأول للمجلة مقدمة لذلك الكتاب الذي له نفس اسم المجلة (السعادة العظمى). ومن ثمّ أورد التقارير حسب تسلسل نشرها في مختلف الأعداد، ثم آثار الإمام التي نشرها في المجلة.

وقد رتبها على ثلاثة فصول وذلك كما يلي:

= إلى سبيله، فإنه يحقق (السعادة العظمى) وعلى هذا الأساس نشر بحيط رابط بين هذه المجالات الثلاث؛ لأن الواحدة جاءت تواصل مهمة سابقتها، أو تعاضدها، ثم إن الترتيب الزمني يوحى لنا بهذه الفكرة. كما أن هناك توافقاً في اختيار الصيغة؛ فكلمتا: (الوثقى) و (العظمى) جاءتا على وزن واحد؛ لتدل على أن ما يبغيه الرجلان للامة، يحتل أفضل المراتب؛ فهو السر في استعمال صيغة التفضيل. الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ١١٦-١١٧ اعتنى به المحامي علي الرضا الحسيني.

وانظر بحث تطور الخطاب الديني عند الشيخ محمد الخضر حسين من السعادة العظمى إلى الهداية الإسلامية، وبحث تطوير الفكر الديني من خلال مجلة السعادة العظمى من كتاب الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ١٢٤-١٤٢، و ص ١٤٣-١٥٠، وبحث السعادة العظمى ودورها الحضاري لمحمد الشهبوني ص ١٣٣-١٣٧ من كتاب كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين اعتنى به المحامي علي الرضا الحسيني.

١ - انظر مقدمة كتاب (السعادة العظمى) ص ٥-٨.

٢ - مقدمة السعادة العظمى ص ٨.

الفصل الأول: ويضم المباحث العلمية.

الفصل الثاني: ويضم المباحث الأدبية، والفصل الثالث، ويضم الأسئلة والأجوبة.<sup>(١)</sup>

ويقع الكتاب في الموسوعة الكاملة في مائتين وتسع عشرة صفحة<sup>(٢)</sup>.

الخامس والعشرون: تقديم وتعليق على كتاب: المغني عن الحفظ والكتاب للإمام الحافظ ضياء الدين أبي حفص عمر بن بدر بن سعيد الموصلي الحنفي: وهذا الكتاب صنفه الحافظ الموصلي الحنفي في الأحاديث الموضوعة، وهو صغير في حجمه غزير النفع في بابه.

قال مصنفه في مقدمته: «فإني صنفت في الموضوعات مصنفات لم أسبق إليها، ولا دلت عليها، ومن أبدعها هذا الكتاب (المغني عن الحفظ والكتاب) إذ لا متن فيه ولا إسناد، ولا تكرر فيه الأحاديث ولا تعاد.

وإنما جعلت ترجمة الأبواب تدلك على الخطأ والصواب».<sup>(٣)</sup>

ثم شرح في بيان ما قصد إليه على نحو قوله:

- باب في زيادة الإيمان ونقصانه وأنه قول وعمل.

قال المصنف رحمته الله: لا يصح في هذا الباب عن رسول الله ﷺ شيء.

- باب في المرجئة، والجهمية، والقدرية، والأشعرية.

قال المصنف: لا يصح في هذا الباب عن رسول الله شيء.<sup>(٤)</sup>

١ - انظر السعادة العظمى ص ٦٠-٥، والإمام الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ١١٢-١٣٣.

٢ - ٦٠٢٧-٥٨٠٩/١٢-٢.

٣ - المغني عن الحفظ والكتاب للموصلي ص ٢٠.

٤ - المصدر السابق ص ٢١.

وهكذا يسير على هذا النحو إلى آخر الكتاب، حيث تناول أبواباً عديدة في العقائد، والأحكام، والآداب ونحوها.

ولما قرر مجلس إدارة جمعية (نشر الكتب العربية) في القاهرة طبع هذا الكتاب ناط بأحد أعضائه وهو الشيخ محمد الخضر حسين التعليق عليه، وكتابة مقدمة عليه، وذلك في ١٣٤٢/٥/٢٩هـ، فقام الشيخ الخضر بتلك المهمة خير قيام، وانتهى منها في ١٣٤٢/١١/١٥هـ.

حيث كتب عليه مقدمة رائعة في وضع الحديث، وخطر ذلك، وأسبابه، وشيء من جهود العلماء في التصدي لتلك الظاهرة.

وبعد هذه المقدمة تناول ذلك الكتاب بالتعليق؛ حيث كتب عليه حاشية تتضمن تعليقات نفيسة، شرح من خلالها بعض المصطلحات الواردة في المتن، وقام بتخريج أحاديث المتن، وتعقب المؤلف في بعضها؛ فكان ذلك الكتاب وتعليقات الشيخ الخضر عليه إضافة إلى باب الموضوعات، وإبانة عن منزلة الشيخ الخضر في علم الحديث.

هذا وقد طبع الكتاب مفرداً في عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م؛ حيث نشره الأستاذ علي الرضا الحسيني، وجاء في ثمان وستين صفحة من القطع المتوسط، ثم أضافه إلى الموسوعة الكاملة؛ فجاء في اثنتين وخمسين صفحة<sup>(١)</sup>.

السادس والعشرون: الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين: وهو كتاب جمعه الأستاذ علي الرضا الحسيني، وذلك بحسب ما توافر له خلال زيارته إلى القاهرة بين ١٤-٢١ من شهر ذي الحجة لعام ١٤٢٤هـ الموافق ٥-١٢ من شهر شباط فبراير لعام ٢٠٠٤م حيث اطلع - كما يقول - على الملفات الخاصة بالإمام محمد الخضر حسين المحفوظة في دار الوثائق القومية في القاهرة.<sup>(٢)</sup>

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١٢/٦٠٢٩-٦٠٨١ .

٢ - انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين اغتنى به المحامي علي الرضا الحسيني ص ٤ .

يقول الأستاذ علي الرضا الحسيني عن هذه الملفات: «وهي جديدة علي لم أنظرها من قبل، ووجدت كنزاً دفيناً وقعت عليه لا يقدر بثمن، ويحتاج إلى من ينفذ عن لآلئه ومكوناته الغبار، وإني ألفت نظر المهتمين بتراث الإمام إلى تلك الملفات التي تتضمن:

- مئات الأوراق من قصائد الشعر التي نظمها الإمام في شتى المواضيع، ولم تطبع في ديوانه «خواطر الحياة» وتشكل وحدها ديواناً رائعاً ثرياً.

- صفحات مضيئة من مذكراته وخواتمه طيلة حياته الشريفة، والتي أعدّها كمذكرات له في مجلدات أسماها (مراحل الحياة) ولكنه صرف النظر عن نشرها، وقال: إنها حديث عن النفس، ولا يريد أن يخوض هذا المخاض، وسأذيعها - إن شاء الله تعالى - بعد أن انتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى، وفيها الكثير من الذكريات النافعة، والحقائق التاريخية الهامة.

- مقالات في مختلف العلوم والفنون، ما زالت مخطوطة لم تطبع بعد، إضافة إلى مراسلات مع علماء وشيوخ ورجال سياسة وأدباء.

- الأوراق والوثائق المتعلقة بـ (جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية) التي أسسها في القاهرة، وعمل من خلالها في الدفاع عن بلدان المغرب العربي، وخاصة الوطن الأول تونس الخضراء.

تمكنت من استنساخ البعض منها لأقدمه في هذا السفر، وأملني وطيد أن أستخرجها كلها - إن شاء الله تعالى - فيما كتب لي من الحياة»<sup>(١)</sup>.

وهذه المادة التي توافرت للأستاذ علي في هذا الكتاب تضم مقالات، وبحوثاً وشعراً، ورسائل للشيخ الخضر.

كما أنها تتضمن تراجم له ، وذكراً لتصحيح شيوخه فيما قرأه عليهم إبان دراسته في الزيتونة، وتحتوي على أخباره في الصحف، وما قيل فيه من تحقيق وكتابات، وبحوث كتبها نخبة من أهل العلم والفكر.

وهذا الكتاب استوعب المجلد الثالث عشر كله، وجاء في أربعمئة وثمان وتسعين صفحة.

السابع والعشرون: كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين: وقد جمع الأستاذ علي الرضا مادة هذا الكتاب الذي بلغت صفحاته مائتين وخمس وثمانين صفحة<sup>(١)</sup>. يقول الأستاذ علي في مقدمته: «إن هذا الكتاب - كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين- تعبيرٌ عن مُطالعاتٍ كَتَبْتِهَا، وأنظارهم وآرائهم التي ارتأوها في مسيرة الإمامِ عِلْماً وعملاً، وجهاداً شاقاً من أجل رسالة الإسلام، وإعلاء كلمة الله في المعمورة. ولا يعني بالضرورة قبولنا بكل ما ورد فيها من أقوال - ولنا وجهة نظر خاصة - ولكن قدمناها على حالاتها للتاريخ، والمعرفة، والأمانة العلمية، واكتفيت بذكر بعض التعليقات الموجزة في الهامش لا بد منها.

وطريقتنا في تقديم الكتاب: إيراد البحوث والمنتخبات حسب تواريخ صدورها، وذكر أسماء الكتّاب، وبيان المراجع التي أخذنا عنها من الصحف والمجلات والكتب، وتدوين كل ذلك في الهوامش ومطالع كل فصل»<sup>(٢)</sup>.

ومما جاء في ذلك الكتاب: قصائد وتهانٍ للشيخ الخضر، وتعليقاتٌ على بعض كتاباته، وإشادات بشيء منها، كما تضمن بحوثاً ودراسات حول الشيخ وحياته، ومؤلفاته.

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١٤/٦٦٠٧-٦٨٩١.

٢ - كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ص ٤.

ومن أهمها وثيقة تاريخية صادرة عن جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية وبحث: (علماء تونسيون في دمشق) للدكتور صلاح الدين المنجد، ومقال: (أعلام العلماء) للكاتب محمد عبدالله السمان، وبحث: (الأدب التونسي وصداه في الشرق قديماً وحديثاً) لأبي القاسم محمد كرو، وبحث: (السعادة العظمى ودورها الحضاري) لمحمد الشعبوني، وبحث: (بين أبي القاسم الشابي ومحمد الخضر حسين) للبشير العربي، وبحث: (محمد الخضر حسين وخطابه الحدائثي للشاذلي الساكر)، وترجمة بعنوان: (أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث محمد الخضر حسين) وقد كتبها صديقه العلامة أحمد تيمور باشا، و (ترجمة للشيخ الخضر) لخير الدين الزركلي صاحب الأعلام، وفهارس مؤلفات الإمام الخضر حسين، ورسائل بعثها أصحابها إلى الأستاذ علي الرضا الحسيني تتضمن شكره على بعث تراث عمه الإمام الخضر، وتحته على المزيد من بذل الجهد في ذلك<sup>(١)</sup>.

الثامن والعشرون: الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر: وهذا الكتاب يحتوي على تراجم للشيخ محمد الخضر حسين، وقد مضى الحديث عنه في مقدمة هذا البحث، وأنه قد خرج مفرداً عن الدار الحسينية للكتاب عام ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

وقد جمعه الأستاذ علي الرضا الحسيني، وجعله ضمن موسوعة الأعمال الكاملة، فجاء في مائتين وثمان وثلاثين صفحة<sup>(٢)</sup>.

التاسع والعشرون: ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر: وقد اعتنى بهذا الكتاب الأستاذ علي الرضا الحسيني، وقد تضمن ما ألقى من بحوث ومحاضرات في ذلك

١ - المرجع السابق ص ٢٨٣-٢٨٥.

٢ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١٤/٦٨٩٣-٧١٣٠.

الملتقى الذي أقيم في ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ ديسمبر كانون الأول من عام ٢٠٠٧م في مدينة بسكرة عاصمة الزيبان في الجنوب الجزائري، وتم تحت إشراف وزارة الثقافة الجزائرية. وقد جاء ذلك الكتاب في مائتين وثلاث وعشرين صفحة<sup>(١)</sup>.

ومن أهم البحوث التي ألفت في ذلك الملتقى: ١- ومضات من حياة العلامة محمد الخضر حسين للأستاذ علي الرضا الحسيني ٢- الإمام الشيخ محمد الخضر حسين ومنهجه في التراجم للدكتور عمار الطالبي ٣- الإمام العلامة محمد الخضر حسين شاعراً للدكتور كمال عجالي ٤- جهود الأزهر في مواجهة التغريب الإمام محمد الخضر حسين الجزائري نموذجاً لنجيب بن خيرة ٥- الإمام محمد الخضر حسين رجل العلاقات والمؤسسات العلمية للدكتور مولود عويمر ٦- في الذكرى الخمسين لوفاة العلامة التونسي محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق للأستاذ محمد مواعده<sup>(٢)</sup>.

الثلاثون: الإمام الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي: وقد اعتنى به الأستاذ علي الرضا الحسيني.

ويتضمن هذا الكتاب ما ألقى من بحوث في (الندوة العلمية العالمية الأولى للإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي) التي أقيمت في خلال أيام ١٦ و ١٧ و ١٨ جانفي كانون الثاني من عام ٢٠٠٩م، وذلك في مدينة نفطة مسقط رأس الشيخ الخضر بإشراف (الجمعية التونسية للدراسات والبحوث حول التراث الفكري التونسي). هذا وقد ألقى في تلك الندوة بحوث ودراسات حول الشيخ الخضر، ومن أهم تلك البحوث ما يلي: ١- المرحلة السورية من حياة الإمام محمد الخضر حسين للأستاذ علي الرضا الحسيني.

١ - انظر المرجع السابق ٧١٤٣/١٥-٧٣٦٥.

٢ - انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر اعتنى به المحامي علي الرضا الحسيني ص ٢٢٢-٢٢٣.

- ٢- المرحلة المصرية من حياة الإمام محمد الخضر حسين، للدكتور مجاهد توفيق الجندي.
  - ٣- الفكر الإصلاحى ومشاريع التحديث للأستاذ الحبيب الجنحاني.
  - ٤- الإصلاح التربوي في فكر العلامة الإمام محمد الخضر حسين للدكتور مصدق الجليدي.
  - ٥ - مجلة السعادة العظمى وقضايا الإصلاح للأستاذة نجاة الحامي بو ملالة.
  - ٦- تطور الخطاب الديني عند الشيخ محمد الخضر حسين للأستاذ جمال الدين دراويل.
  - ٧- تطوير الفكر الديني من خلال مجلة السعادة العظمى للدكتور كمال عمران.
  - ٨- الشيخ محمد الخضر حسين مفسراً للأستاذ أنور بن خليفة.
- وجاء هذا الكتاب في مائتين وثمان وخمسين صفحة، وذلك من ٧٣٦٧/١٥-٧٦٢٤ من موسوعة الأعمال الكاملة<sup>(١)</sup>.
- وبهذا ينتهي الحديث في هذا الفصل الذي عُرِضَ من خلاله مؤلفات الشيخ محمد الخضر حسين، وذلك على وفق ما جاء في موسوعة الأعمال الكاملة له<sup>(٢)</sup>.
- وبنهايته ينتهي الباب الأول الذي دار حول حياة الشيخ الخضر، ومؤلفاته.

---

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٧٣٦٧/١٥-٧٦٢٤، والإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ٢٥٧-٢٥٨.

٢ - وللشيخ زيادة على ذلك تعليقات على شرح القصائد العشر للتبريزي ولم تثبت ضمن موسوعة الأعمال الكاملة، وهي تعليقات نفيسة قيمة وضعها الشيخ على الكتاب المذكور عندما كان يدرسه للطلاب في جامع الزيتونة، وقد طُبِعَ للمرة الأولى سنة ١٣٤٣ هـ في المطبعة السلفية في القاهرة من قِبَل إدارة الطابعة المنيرية، ثم أعاد طباعته الأستاذ علي الرضا الحسيني في الدار الحسينية للكتاب عام ١٤١٦ هـ-١٩٩٦ م.

**الباب الثاني: منهج الشيخ محمد الخضر في إثبات العقيدة**

وفيه ثلاثة فصول:

**الفصل الأول: منهج الشيخ محمد الخضر في تلقي العقيدة**

**وإثبات أهميتها**

**الفصل الثاني: منهج الشيخ محمد الخضر في إثبات أصول**

**العقيدة**

**الفصل الثالث: منهج الشيخ محمد الخضر في إثبات المسائل**

**المتعلقة بالعقيدة**



**الفصل الأول : منهج الشيخ محمد الخضر في تلقي العقيدة وإثبات أهميتها  
وفيه ثلاثة مباحث :**

**المبحث الأول: منهجه في التلقي والاستدلال**

**المبحث الثاني: مصادره في تلقي العقيدة**

**المبحث الثالث: منهجه في إثبات أهمية العقيدة**

## المبحث الأول: منهجه في التلقي والاستدلال المطلب الأول: منهجه في تلقي العقيدة

العقيدة الإسلامية تُتلقى من مصادرها الصحيحة ، وتلك المصادر تنقسم إلى قسمين:

١. مصادر رئيسة: وهي الكتاب ، والسنة ، والإجماع.

٢. ومصادر ثانوية: وهي العقل السليم ، والفطرة القويمة.

فهذه هي مصادر التلقي الصحيحة عند المسلمين.

والشيخ الخضر رحمته الله كان يعتمد هذه المصادر في تلقيه؛ فلا يقدم غيرها عليها.

ولا ريب أن أعظم هذه المصادر وأهمّها: الكتاب ، والسنة؛ فهما الأصل ، وباقي

المصادر تبع لهما؛ لذا سيكون الحديث الآتي حول مفهومهما ، ومكاتبهما بشيء من الإيجاز.

### أولاً: مفهوم القرآن الكريم ومكانته

١. مفهوم القرآن الكريم: هو «كلام الله المعجز المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم المنقول

تواتراً المتعبد به تلاوة»<sup>(١)</sup>.

فمعنى كونه «كلام الله المعجز»: أي أنه ليس بكلام إنس ، ولا جان ، ولا

ملائكة ، ولا نبي أو رسول؛ فهو كلام الله - عز وجل - تكلم به حقيقة على ما يليق به

-عز وجل-.

ويخرج بقولنا: «المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم»: باقي الكتب المنزلة على الرسل

-عليهم السلام- من قبيل محمد صلى الله عليه وسلم كصحف إبراهيم ، والتوراة المنزلة على موسى ،

والإنجيل المنزل على عيسى - عليهم السلام -.

يخرج بقولنا: «تواتراً»: أي ما قيل: إنه قرآن ولم يتواتر.

١ - انظر البيان في علوم القرآن د. سليمان القرعاوي ص ٣ ، والمحرر في علوم القرآن د. مساعد ابن

سليمان الطيار ، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية لعهد الإمام الشاطبي التابع لجمعية تحفيظ القرآن

الكريم بمحافظة جدة ، ط ٢ ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م ، ص ٢٠-٢٢ .

ويخرج بقولنا: «المتعبد به تلاوة»: الحديث القدسي، فإنه غير متعبد بتلاوته، وإن كان منسوباً إلى الله - عز وجل -<sup>(١)</sup>.

٢. مكانة القرآن: القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية وهو خاتمها، وهو أطولها، وأشملها، وهو الحاكم عليها.

قال الله - تعالى -: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨).

وقال - تعالى -: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس: ٣٧).

وقال: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف: ١١١).

قال أهل التفسير في قوله - تعالى -: ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ : مهيمناً وشاهداً على ما قبله من الكتب، ومصداقاً لها؛ يعني يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف، وتبديل، وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

ولهذا يخضع له كل متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه كما قال - تبارك وتعالى -: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۖ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ ءِذَا نَحْنُ بِالْأُولَىٰ ۗ إِنَّهُ الْخَبِيرُ مِنَ الرَّسُولِ ۗ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٢٩).

ولا يقبل الله من أحد ديناً إلا ما جاء في هذا القرآن العظيم<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمته الله في قوله - تعالى -: ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ :

١ - انظر البيان في علوم القرآن ص ٣.

٢ - انظر أعلام السنة المشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، للشيخ حافظ الحكمي، خرج

أحاديثه وعلق عليه مصطفى أبو النصر الشلبي، ط ١، ١٤٠١هـ، مكتبة السوادى بجدة، ص ٨١-٨٢.

«أي مشتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة وزيادة في المطالب الإلهية، والأخلاق النفسية؛ فهو الكتاب الذي يتبع كل حق جاءت به الكتب، فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل، وإلا لو كان من عند الله لم يخالفه»<sup>(١)</sup>.

والقرآن الكريم رسالة الله الأخيرة للبشرية، بل هو عامٌّ للجن والإنس؛ بخلاف الكتب السماوية الأخرى التي كانت خاصة بأقوام معينين، وفترات معينة. ثم إن القرآن محفوظ من الزيادة، والنقص، والتحريف؛ فلقد تكفل الله سبحانه بحفظه، قال - تعالى - : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، والذكر هو القرآن.

قال المفسرون في تفسير هذه الآية: أي نحن نزلنا هذا القرآن، ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ : أي عن كل ما لا يليق به من تصحيف، وتحريف، وزيادة، ونقص، ونحو ذلك؛ فلا يستطيع أحد أن يزيد فيه باطلاً، ولا ينقص منه حقاً<sup>(٢)</sup>.

هذا وسيأتي مزيد بيان عن مفهوم القرآن ومكانته في الفقرة التالية.

### ثانياً: مفهوم السنة النبوية، ومكانتها

١. مفهوم السنة النبوية: هي كلُّ ما أُثِرَ عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خَلْقِيَّةٍ أو خُلُقِيَّةٍ، أو سيرة سواء كانت قبل البعثة، أو بعدها.<sup>(٣)</sup>

١ - تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي ٤٩٠/١.

٢ - انظر زاد السير في علم التفسير لابن الجوزي ٣٨٤/٤، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، للإمام محمد بن علي الشوكاني، عالم الكتب، وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، تحقيق عبدالرزاق المهدي، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ١٣٩/٣.

٣ - انظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مكتبة دار المعرفة، القاهرة، ط ١، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م ص ٥٩، والمختصر الوجيز في علوم الحديث، تأليف د. محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ص ١٦.

والسنة بهذا المعنى مرادفة للحديث.

فالمراد بما أثير عن النبي ﷺ: «من قول»: أحاديثه التي قالها في المناسبات المختلفة، وما بينه من أحكام الإسلام، وعقائده، وآدابه. كقوله: «إنما الأعمال بالنيات»<sup>(١)</sup>.

«أو فعل»: ما نقله إلينا الصحابة -رضوان الله عليهم- مثل وضوئه، وصلاته، ونسكه، وصيامه، ونحو ذلك.

«أو تقرير»: هو كل ما أقره الرسول ﷺ من أفعال صدرت عن بعض أصحابه بسكوت منه، وعدم إنكار، أو بموافقة، واستحسانه؛ فيعد ما صدر عنهم بهذا الإقرار والموافقة عليه صادراً عن الرسول ﷺ.

مثال ذلك: سكوته ﷺ عن لعب الحبشة في الحراب في المسجد، وعدم إنكاره عليهم<sup>(٢)</sup>. وقولهم: «أو صفة خلقية» يتناول هيئة الرسول ﷺ كصفة وجهه الكريم المشرب بالحمرة، وكطوله، ولونه، وتبسمه ﷺ.

وقولهم: «أو خلقية»: يتناول جميع أخلاقه وشمائله.

وقولهم: «قبل البعثة»: يتناول جميع أحواله قبل البعثة النبوية.

وقولهم: «أو بعدها»: يتناول أحواله بعد البعثة؛ لأنه الإمام الهادي القدوة، الذي أخبرنا الله أنه أسوة لنا في قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب: ٢١. (٣)

٢. مكانة السنة النبوية: هي المصدر الثاني في التشريع الإسلامي، وهي من الذكر والوحي الذي تكفل له الله - عز وجل - بحفظه كما في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

١ - أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

٢ - البخاري (٤٩٣٨) ومسلم (٨٩٢).

٣ - انظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٥٩-٦٠، والمختصر الوجيز في علوم الحديث

أَلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿ الحجر: ٩ .

وهذا الوعد والضمان يشمل حفظ القرآن، وحفظ السنة النبوية التي هي المفسرة للقرآن، وهي الحكمة المنزلة - كما قال - تعالى -: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ النساء: ١١٣ .

قال ابن حزم رحمته الله: «الوحي ينقسم من الله إلى قسمين:

أحدهما: وحي متلو مؤلف تأليفاً معجز النظام وهو القرآن.

الثاني: وحي مروي منقول غير مؤلف، ولا معجز النظام، ولا متلو، لكنه مقروء.

وهو الخبر الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المبين عن الله - عز وجل - مراده

منا، قال الله - تعالى -: ﴿ لِيُثَبِّتَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ النحل: ٤٤ »<sup>(١)</sup>.

وليس معنى أن القرآن أو السنة محفوظان بحفظ الله أنه لا يوجد من يحاول الزيادة

أو النقصان فيهما؛ فذلك يحصل كثيراً في القديم والحديث.

وإنما المقصود أن الله - عز وجل - يقيض من علماء هذه الأمة من ينفي الزيف

والزيادة والنقصان من كتاب الله - عز وجل - وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله موضحاً هذا المعنى: «فإن الدين محفوظ بحفظ

الله له، ولما كانت ألفاظ القرآن محفوظة منقولة بالتواتر لم يطمع أحد في إبطال شيء

منه، ولا زيادة شيء فيه، بخلاف الكتب التي قبله، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

أَلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩ .

بخلاف كثير من الحديث طمع الشيطان في تحريف كثير منه، وتغيير ألفاظه بالزيادة

والنقصان والكذب في متونه وإسناده؛ فأقام الله له من يحفظه ويحميه، وينفي عنه

تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأول الجاهلين، فبينوا ما أدخل أهل الكذب

فيه، وأهل التحريف في معانيه»<sup>(٢)</sup>.

١ - أحكام الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٤٤٠/١ .

٢ - الرد على البكري لابن تيمية ١٧١/١ .

وقال ابن تيمية - أيضاً -: «فما في تفسير القرآن، أو نقل الحديث، أو تفسيره من غلط فإن الله يقيم له من الأمة مَنْ يُبَيِّنُه، ويذكر الدليل على غلط الغالط، وكذب الكاذب؛ فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة؛ إذ كانوا في آخر الأمم؛ فلا نبي بعدهم، ولا كتاب بعد كتابهم، وكانت الأمم قبلها إذا بدّلوا وغيروا بعث الله نبياً بين لهم، ويأمرهم، ويناهم.

ولم يكن بعد محمد ﷺ نبي، وقد ضمن الله أن يحفظ ما أنزله من الذكر، وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، بل أقام لهذه الأمة في كل عصر من يحفظ دينه من أهل العلم والقرآن»<sup>(١)</sup>.

فالقرآن - إذاً - هو المصدر الأول للإسلام - عقيدته وشريعته وأخلاقه - لأنه كلام الله - تعالى - المعجز، المنزل على الرسول ﷺ بواسطة الملك جبريل الأمين، المتواتر لفظه جملة وتفصيلاً، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف. وكل ما جاء عن الرسول ﷺ - سوى القرآن الكريم - من بيان للعقيدة، وتفصيل لأحكام الشريعة، وتطبيق لما في القرآن الكريم هو السنة، أو الحديث النبوي هو بوحى من الله - تعالى - أو باجتهاد من الرسول ﷺ والرسول ﷺ لا يقر على اجتهادٍ خطأً.

وعلى هذا فمرّدُ السنة إلى الوحي؛ فالقرآن الكريم هو الوحي المتلو، المتعبد بتلاوته، والسنة وحي غير متلو، لا يتعبد بتلاوتها، فالسنة تُبَيِّنُ عن الله - عز وجل - مراده منا، مصداقاً لقوله - تعالى - مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل: ٤٤ .

فالقرآن هو المصدر الأول، والسنة هي المصدر الثاني؛ فهما مصدران تشريعيان

متلازمان، لا يمكن لمسلم أن يفهم الشريعة إلا بالرجوع إليهما معاً، ولا غنى لمجتهد أو عالم عن أحدهما<sup>(١)</sup>.

والشيخ محمد الخضر حسين - كما مر - كغيره من علماء المسلمين يعتمد كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ مصدرين أساسيين إبان تلقيه العلم، وفي بحثه مسائل العقيدة وغيرها؛ فلا يُقدّم عليهما أي دليل من الأدلة الأخرى.

وكما يعتمد هذين المصدرين الأساسيين فإنه لا يغفل بقية المصادر، وهي الإجماع، والعقل، والفطرة، كما سيتبين ذلك ضمناً عند الحديث عن مصادره في التلقي، وعند الحديث عن مصادره في الرد على المخالفين.

١ - انظر أعلام الموقعين لابن القيم ٤٨/١، والمختصر الوجيز في علوم الحديث ص ٢٩.

## المطلب الثاني: منهجه في الاستدلال

- سار الشيخ محمد الخضر حسين في الاستدلال سيرة علماء السلف في ذلك. ويمكن إجمال ما يقوم عليه منهجه في الاستدلال بما يلي:
١. تعظيم النصوص الشرعية، والإيمان بجميع ما جاء فيها، وفهمها فهماً صحيحاً.
  ٢. أن الحججة فيما جاء في الكتاب العزيز، وما صح من السنة المطهرة، ولا يقدم على ذلك شيئاً.
  ٣. أن أولى ما يفسر به القرآنُ القرآنُ، ثم السنة، ثم تفسير الصحابة، ثم التابعين لهم بإحسان؛ فهم أقرب إلى المنبع.
  ٤. تقديم النقل على العقل، ودرء تعارضهما، والأخذ بقياس الأولى في الإثبات والنفي.
  ٥. أن عامة مسائل الدين تُدرك بالعقل.
  ٦. أن ظواهر النصوص مطابقة لمراد الشارع.
  ٧. رد التنازع إلى الكتاب والسنة، وفصل النزاع الحادث إلى إجماع السلف.
  ٨. مراعاة قواعد الاستدلال؛ فلا يضرب الأدلة الشرعية ببعض، بل يرد المتشابه إلى المحكم، والمجمل إلى المبين، ويجمع بين الأدلة في ذلك.
  ٩. تلاؤم الفطرة مع ما جاء في الشرع.
  ١٠. تجنب التأويل الفاسد الذي لا يقوم على دليل شرعي<sup>(١)</sup>.
- فهذا في الجملة- هو منهجه في الاستدلال<sup>(٢)</sup>.

١ - هذه هي قواعد الاستدلال عند أهل السنة. انظر تفصيلها في قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد، د. عثمان علي حسن، دار الوطن، الرياض، ط ١، ١٤١٣هـ.

٢ - انظر الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع ص ١٥١-١٩٧.

وقد مرَّ شيء مما يؤكد ذلك عند الحديث عن مؤلفاته، وسيأتي مزيد تفصيل لذلك في المباحث التالية، وفي كثير من أبواب هذا البحث.

ولا ريب أن هذا هو المنهج الذي سار عليه السلف الصالح في تقرير العقيدة، والرد على المخالفين فيها.

ولا يعني أن الشيخ رحمته الله لم يقع في بعض المآخذ في ذلك، شأنه شأن سائر العلماء من السلف والخلف، غير أن تلك المآخذ لا تُنقص من شأنه، ولا تخرجه من جملة العلماء السائرين على نهج السلف الصالح في باب العقيدة وغيرها.

وهذا المنهج الذي سار عليه الشيخ من أعظم مناقبه، وعلامات تجرده، وإيثاره للحق؛ حيث إنه - كما مر عند الحديث عن شيوخه والكتب التي درسها عليهم - قد درس العقيدة على الطريقة الكلامية الأشعرية.

ومع ذلك لم يكن متعصباً لما نشأ، وألفى آباءه وأساتذته عليه.

وإنما كان ينظر بعين فاحصة، ويبحث بنظر مستقل؛ حتى هداه الله للمنهج الحق.

ولقد أشاد بهذا المنهج الذي سلكه الشيخ الخضر عدد من مجابليه، ومنهم علامة الجزائر الشيخ السلفي عبدالحميد بن باديس.

يقول الشيخ ابن باديس رحمته الله تعليقاً على مقال للشيخ الخضر: «دعاني إلى كتابة هذا: مقال نفيس نشرته مجلة (الهداية الإسلامية) بقلم أستاذنا العلامة الجليل محمد الخضر بن الحسين الطولقي الجزائري، التونسي، ثم المصري، وأحببت أن تكون مقدمتي هذه الصغيرة أمام ذلك المقام الكبير تذكرة لجلوسي لتلقي «تهذيب المنطق» بين يدي الأستاذ بجامع الزيتونة، وسماع دروس من صدر «تفسير البيضاوي» بدار الأستاذ بشارع باب منارة من تونس الخضراء»<sup>(١)</sup>.

ويضيف الشيخ ابن باديس قائلاً: «ولا يخفى أن الأستاذ -أبقاه الله- ابن أخت العلامة الجليل الشيخ المكي بن عزوز رحمته الله وكلاهما من أبناء الطريقة، ولكن العلم سما بهما إلى بقاع التفكير والهداية والإصلاح. ولكليهما -أحسن الله جزاءهما- كتاباتٌ في التحذير مما عليه الطريقة اليوم، تارة بالتصريح، وتارة بالتلويح»<sup>(١)</sup>.

كما أن الشيخ السلفي الجزائري محمد البشير الإبراهيمي كان من أخلص خاصة الشيخ الخضر حسين، وقد كتب الإبراهيمي عن مجالس العلم في دمشق عندما كان مقيماً فيها قبل عودته إلى الجزائر، وذكر: «أن واسطة العقد في تلك المجالس: الأستاذ الجليل، والأخ الوفي الشيخ الأستاذ محمد الخضر حسين»<sup>(٢)</sup>. يقول الأستاذ محمد الهادي الحسني الجزائري معلقاً على ذلك: «ولو رأى الإمامان ابن باديس والإبراهيمي في أقوال الإمام الخضر حسين وأفعاله ما يوجب النقد لما ترددوا في ذلك.

وهو ما فعلاه مع الإمام محمد الطاهر بن عاشور على قيمته العلمية، ومكانته الدينية عندما اعتبراً أحد مواقفه مناصرة للبدعة، منابذة للسنة»<sup>(٣)</sup>. ولقد مر إيراد العديد من مقالات الثناء من لدن كثير من العلماء على الشيخ الخضر، وسلامة منهجه، وذلك في الباب الأول. وسيأتي ما يؤكد كثيراً من ذلك في المباحث والأبواب التالية. ومما يؤكد ذلك -أيضاً- شدة احتفائه بالإمامين شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم؛ حيث كان الشيخ الخضر معظماً لهما، كثير الاهتمام بهما، شديد التأثير

١ - المرجع السابق ص ١٧٧ .

٢ - انظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي دار المغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٧م، ٥٦٦/٣ .

٣ - ملتمى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٧٧، وانظر آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف د. عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي، ط ٤، ٢٠٠٨م، ٢٧٠/١-٢٨٥، و آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٧م، ٢٢٦-٢٢١/١ .

بمنهجهما، كثير النقل عنهما، والاستشهاد بكلامهما.

بل إنه لم ينقل عن عالم من علماء السلف نقله عن هذين الإمامين<sup>(١)</sup>.

ولم يكن يتعقبهما فيما ينقل عنهما، بل يورد كلامهما موارد الثقة، والفصل، والتأييد سواء في مسائل العقيدة، أو غيرها.

وهذا ما يؤكد تجرده، وسلامة منهجه، وبعده عن التعصب؛ إذ إن بعض معاصريه من الأشاعرة وغيرهم لم يكونوا على هذا النهج، وإنما كانوا على عداوة، وشنآن لهذين الإمامين الجليلين.

وما من ريب أن مخالفة الإنسان لما نشأ عليه من الطريقة العلمية والعملية شاق على النفوس ولو كان ما نشأ عليه مخالفاً للحق.

ولا يدع ما ألفه من الباطل إلا مخلصاً صادقاً مؤثراً للحق على الخلق.

وهذا ما كان من أمر الشيخ محمد الخضر رحمته الله.

ولعله لما اطلع على نصوص الشرع، وطالع كتب السلف يامعان، وكان ذا

تضلع بالعربية وعلومها، وذا صدق، وإخلاص، وتجرد، وتطواف في البلدان - قاده ذلك كله إلى الحق، وسلوك طريق السلف.

ثم إن نشأته بين أيدي علماء واسع المدارك، بعيد النظر يربون على الاستقلال والحرية في البحث - من أعظم أسباب ذلك.

وقد مر بنا نبذة عن أولئك العلماء، وأثرهم العلمي والنفسي على الشيخ الخضر، وخصوصاً خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز، وشيخه سالم بوحاجب،

١ - انظر على سبيل المثال في نقوله عن ابن تيمية في موسوعة الأعمال الكاملة ٣/٤٥٤ و ٤٥٥ و ٨٢١ و ٢٨٦٤/٦ و ٣٥٣٥/٨ و ٤٠٢٤/٩ و ٤٠٧٧ و ٤٠٧٩ و ٤١٣٠ و ٤١٥٠ و ٤١٩٧ و ٤٢٣٩ و ٤٢٥٦ و ٤٢٦٩ و ٤٢٧٨ و ٤٢٧٩ و ٤٢٨٨ و ٤٤٨٩ و ٥٧٠٦/١١ و ٥٧٠٨ و ٦٠٥٧/١٢ و ٦٠٦٠ و ٦٠٦١، وعن ابن القيم في ١٠/٨ و ٤٢ و ١٤٨ و ٤٧٤/٢ و ٧٣٤ و ٧٣٩ و ٧٥١ و ٧٥٢ و ١٤٧٣/٤، وغيرها كثير مما سيمر في غضون هذا البحث.

وشيخه عمر بن الشيخ، وغيرهم.

وهذا مما يؤكد أن الذي يحدو بعض أهل العلم على النفور عن مذهب السلف أمور كثيرة يأتي على رأسها التعصب، وقلة الاطلاع على مذهب السلف بنظر ثاقب متجرد؛ لأن كثيراً ممن ينفّر عنه، ويُحدّر منه قد يكون جاهلاً به، والناس أعداء ما جهلوا.

ومن الأمثلة على ذلك ما كان من شأن أحد معاصري الشيخ الخضر، وهو العلامة محمد رشيد رضا؛ فلقد نشأ رحمته الله أول ما نشأ على ما اعتاد عليه لدأته من طلبه العلم؛ فدرس الكتب المتداولة آنذاك في بيته، فقرأ (أم البراهين) و (جوهرة التوحيد) وشروحهما على شيوخه، وكان الطالب يومئذ يُعدُّ ليكون متكلماً مجادلاً. وكان الشيخ رشيد يحاول أن يفهم ما في هذه الكتب التي لُقِّنها في بداية طلبه للعلم في طرابلس الشام، ويحاول أن يفهمها للعوام، فيعجز عن ذلك، وكان متأثراً بهذه النشأة ويرى: أن كتب الأشاعرة هي وحدها منبع الدين، وطريق اليقين.

وكان ينظر إلى آراء السلف في هذه الكتب، فيحسب أنهم قوم جمدوا على ظواهر النقول، وما فهموها حق فهمها، ولا عرفوا حقائق العلوم، وطابقوا بينها وبين النقل<sup>(١)</sup>.

وبقي الشيخ رشيد على هذا حتى أنشأ المنار، وشرع في شرح العقيدة في أمالي دينية اعتمد فيها على ما نشأ عليه من كتب المتكلمين؛ فأخذ يشرح في الإيمان بالله: اصطلاحات المتكلمين: الوجوب، والواجب، والاستحالة، والمستحيل، والإمكان، والممكن، والترجيح بلا مرجح، وحدوث العالم، وغيرها من المصطلحات الكلامية؛ معتمداً في ذلك على السنوسي، والإيجي -رحمهما الله-

وكان يرى أن هذه الكتب هي أصل كتب العقائد. ولكن الشيخ وجد صعوبة في ذلك، وما لبث أن تحوّل تدريجياً عن هذا الاتجاه في قصة يطول عرضها إلى أن عاد إلى منهج السلف، فارتضاه، وتبناه، وناصح عنه، وأسهم في نشره<sup>(١)</sup>.

يقول الشيخ رشيد رحمته الله في ذلك: «كنا عند ابتداء الاشتغال بعلم الكلام نرى في الكتب خلاف الحنابلة، فنحسب أنهم قوم جمدوا على ظواهر النقول، ثم اطلعنا على كتب القوم فإذا هي الكتب التي تجلي للمسلمين طريقة السلف المثلى، وإذا بقارئها يشعر ببشاشة الإيمان، ويحس بسريان برد الإيقان، وإذا الفرق بينها وبين كتب الأشاعرة كالفرق بين من يمشي على الصراط السوي ومن يسبح في بحرٍ لحي؛ تتدافعه أمواج الشكوك الفلسفية، وتتجاذبه تيارات المباحث النظرية، وقد ظهر لي أن مذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم»<sup>(٢)</sup>.

بل إنه رحمته الله في المجلد السابع عشر من المنار انتقد السنوسي قائلاً: «ما كتبه السنوسي رحمته الله من العقائد ولا سيما العقيدة الصغرى، التي انتشرت في المشرقين والمغربين، وحذا حذوه فيها معلمو المدارس الرسمية وغيرها، حتى فيما يضعونه من العقائد للمبتدئين، وقاعدتها في الإلهيات: أن الواجب على كل مكلف شرعاً أنه يؤمن أنه يجب لله -تعالى- عشرون صفة، ويستحيل عليه أضدادها.

واصطلاحه في هذه الصفات مخالف لما كان يفهمه السلف وأهل اللغة من معنى كلمة: (صفة) ومن إطلاقهم: الإيمان بصفات الله -تعالى- فهو يعد الأمور الاعتبارية والعدمية صفات؛ فالوجود والمخالفة للحوادث -أي عدم الاحتياج إلى المكان، والمخصص صفتان لله تعالى عنده- والقدرة وكونه -تعالى- قادراً صفتان

١ - انظر منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة ص ١٧٦-١٨٦.

٢ - مجلة المنار ٦٢٠/٨.

متغايرتان.

ولم ينقل مثل هذا عن أحد من الصحابة ولا التابعين، دع عدم ذكره في القرآن، أو في كلام الرسول ﷺ فكيف نقتصر عليه، ونجعله هو العمدة في تلقين عقيدة الإسلام..؟»<sup>(١)</sup>.

والحاصل أن الشيخ الخضر كان سائراً على منهج السلف في التلقي والاستدلال، مؤثراً ذلك المنهج على غيره مما ألفه أتراه، وكثير من أهل زمانه ممن عاشوا في البيئات التي عاش فيها.

### المبحث الثاني: مصادره في تلقي العقيدة

ينهج الشيخ الخضر -كما مر في المبحث الماضي- منهج السلف في التلقي والاستدلال؛ فيعتمد في تلقيه العقيدة على المصادر المعروفة المعتمدة عند علماء السلف، وينحونحوهم في الاستدلال.

والمصادر الأساس عند السلف: هي القرآن، والسنة، والإجماع.

والمصادر الثانوية: هي العقل السليم، والفطرة القويمة.

والحديث في هذا المبحث سيتناول اعتماده على المصدرين الأهمين، وهما

الكتاب والسنة؛ إذ كان له في ذلك الشأن منهج، وبلاء حسن.

وستتخلل ذلك ضمناً حديث عن المصادر الأخرى، وهي الإجماع، والعقل،

والفطرة، وذلك من خلال المطلبين التاليين:

**المطلب الأول: المصدر الأول: القرآن الكريم**

**المطلب الثاني: المصدر الثاني: السنة النبوية**

## المطلب الأول: المصدر الأول: القرآن الكريم

القرآن الكريم - كما مر - هو المصدر الأول في التشريع الإسلامي عموماً، وفي تلقي العقيدة خصوصاً.

والشيخ الخضر رحمته الله يعتمد ذلك المصدر، ولا يقدم عليه شيئاً. وقد عني به عناية فائقة، وذلك من وجوه كثيرة.

وفيما يلي إيضاح لمظاهر ذلك الاعتماد، وتلك العناية بشيء من البسط. أولاً: تعظيمه للقرآن الكريم، وإثباته أنه كلام الله، واعتقاده عصمته: يقول رحمته الله في معرض رده على الدكتور محمد أحمد خلف الله في رسالته: (الفن القصصي في القرآن): «قد قام الدليل القاطع على أن القرآن كلام الله، وأن رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم قد بلغ ما أنزل إليه من ربه، فكل ما جاء في القرآن من خبر فهو صادق، وإنما الصدق مطابقة الكلام للواقع.

ونستند في الجزم بصدق أخبار القرآن إلى الدليل القائم على صدق الرسول في دعوى الرسالة، والدليل القائم على أن القرآن وحي من الله - جل شأنه - . ولو كان القائل<sup>(١)</sup>: (إن النبي - عليه الصلاة والسلام - إنما يصور واقعاً في نفسه، سواء كان ذلك الواقع متفقاً مع الحق والواقع، أم مخالفاً) لا ينتمي إلى الإسلام، لقلنا: نحن معنا أدلة لا تحوم حولها شبهة على أن القرآن لا يقول إلا حقاً، فإن أبيت أن تصغي إليها بأذن واعية فاعمد إلى قصة من قصص القرآن، وأقم على أنها مخالفة للحق دليلاً يقره المنطق، ويتقبله العقل<sup>(٢)</sup>.

ويقول في موضع آخر: «أما قصص القرآن فهي من كلام رب العزة، أوحى به إلى الرسول الأكرم؛ ليكون مأخذ عبرة، أو موضع قدوة، أو مجلدة حكمة.

١ - يعني به الدكتور محمد أحمد خلف الله .

٢ - بلاغة القرآن ص ٥٦١-٥٦٢ .

وإيمان الناس بأنه صادر من ذلك المقام الأسنى يجعل له في قلوبهم مكانة محفوفة بالإجلال، ويمنعهم من أن يدرسوه كما تدرس تلك القصص الصادرة من نفوس بشرية تجعل أمامها أهدافاً خاصة، ثم لا تبالي أن تستمد ما تقوله من خيال غير صادق، أو تخرج من جد إلى هزل، وتضع بجانب الحق باطلاً<sup>(١)</sup>.

ويقول في مقالة له بعنوان: (القرآن لا يقول إلا حقاً): «والدليل القاطع قائم على أن الشرع من عند الله؛ فما يقوله يكون - ولا بد - صدقاً»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن قال: «ومن ظن أن في القرآن قصة باطلة، أو قضية تخالف العلم الصحيح - فقد وقع فيما يستلزمه هذا الظن لزوماً لا خفاء فيه من أن القرآن كلام ليس من عند الله»<sup>(٣)</sup>.

ثانياً: عنايته بالإعجاز البياني للقرآن: فلقد عني ﷺ عناية فائقة ببلاغة القرآن، وحسن بيانه المعجز؛ حيث أبان أن بلاغة القول: أن تكون ألفاظه فصيحة، ونظمه محكماً، ودلالته على المعنى منتظمة وافية.

ثم أفاض في شرح ذلك<sup>(٤)</sup>، وانتقل إلى ميزات بلاغة القرآن، وحسن بيانه المعجز، وبيّن أن ذلك يكمن فيما يلي:

١. فصاحة مفردات القرآن: فلا تكاد تمر بك كلمة إلا وجدتها محكمة الوضع، خفيفة الوقع على السمع.

٢. متانة نظمه: التي بلغت الغاية التي ليس وراءها مطلع، فلا يمكن العارف بقوانين البيان، الناظر في منشآت البلغاء يامعان أن يشير إلى جملة من جمل القرآن فيقول: ليتها جاءت على غير هذا الوضع، أو يشير إلى كلمة من كلمه فيقول: لو

١ - بلاغة القرآن ص ٥٦٥ .

٢ - المرجع السابق ص ١١٨ .

٣ - المرجع السابق ص ١١٩ .

٤ - انظر المرجع السابق ص ٦ .

استبدل بها كلمة أخرى لكانت الجملة أشد انسجاماً، وأصفى ديباجة.<sup>(١)</sup>

٣- انتظام دلالاته على ما يقصد إفادته وإحضاره في الأذهان: فإنك ترى فيه التشابيه الرائعة، والأمثال البارعة، والاستعارات الطريفة، والمجازات اللطيفة، والكنائيات المنقطعة النظير، والتعريض الذي يقتضيه المقام، فيكون أقرب إلى حسن البيان من القول الصريح.

٤- استيفاءه للمعاني: التي يستدعي الحال الإفصاح عنها أو الإيماء إليها؛ فإنك تنظر في الآية، وتتدبر المعنى الذي سيقى من أجله، فتعود منها ويدك مملوءة من الفوائد التي تقع إليها؛ من حيث تُقرر شريعة، أو تُقيم حجة، أو تلقي موعظة، أو تُرسل حكمة، إلى نحو هذا مما تستبين به سبيل الرشد، وتنظم به شؤون الحياة، وترتفع به النفوس إلى أعلى درجات الفلاح في دنياها وآخرتها.

٥- تناسبه في حسن بيانه دون تفاوت أو تباين: فأنت ترى البليغ من البشر يحسن البيان، ويأخذ لبك بالمنشآت الرائقة، حتى إذا طال به مجال القول، وقطع فيه أشواطاً واسعة - رأيت في جملته أو أبياته تفاوتاً في البراعة، وأمكنك أن تبصر فيها ضعفاً، وتستخرج بنقدك الصحيح من أواخر كلامه ما أخذ أكثر مما تستخرج من أوائلها.

ولكن القرآن الكريم - على طول أمده، وكثرة سورته - نزل متناسباً في حسن بيانه، كما قال - تعالى -: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ الزمر: ٢٣ .

ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء: ٨٢ . وترى البليغ من البشر يخوض في فنون من الكلام متعددة، فإذا هو يرتفع في فنٍّ، وينحط في آخر.

ولكن القرآن الكريم يتصرف في فنون كثيرة، مثل الوعظ، وإقامة الحجج، وشرع الأحكام، والوصف، والوعد، والوعيد، والقصص، والإنذار، وغير ذلك من الوجوه التي تتصل بالهداية العامة؛ فلا تفاوت فيها ألفاظه الرشيق، وأساليبه البديعة<sup>(٢)</sup>.

١ - انظر المرجع السابق ص ٩٨ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ٩-١٠ .

٦- صوغ الأقوال على قدر الحقائق: فمن المعروف أن القرآن أتى بحقائق أسسَ بها شريعة واسعة النطاق، وليس من شأن هذه المعاني أن تظهر فيها براعة البلاغ كما تظهر فيما ألقوه من نحو: المديح، والرثاء، والتهنئة، والغزل، ووصف المشاهد، إلى غير ذلك مما يطلقون لأفكارهم فيه العنان، فتذهب مع الخيال كل مذهب، وترتكب من المبالغات ما استطاعت أن ترتكب.

والقرآن الكريم يعبر عن تلك المعاني التي تستدعي صدق اللهجة، وصوغ الأقوال على أقدار تلك الحقائق، فترى الفصاحة ضاربة أطناها، والبلاغة مرسله أشعتها<sup>(١)</sup>.

٧- خلوه من التصنع: ففي بلاغ البشر من تحس من شعره أو خطبته أو رسالته أنه لم يكن يتصنع فيما يقوله؛ ذلك أنك تجد في كلامه الجيد، والوسط، والرديء، وفيهم من تحس فيما يقوله التصنع.

وهذا هو الذي يغلب على كلامه المنظوم أو المنشور الجودة في تصوير المعنى والتعبير عنه بكلام موزون، أو غير موزون.

ولكن القرآن الكريم بالغ الغاية من حسن البيان، فلا يجد فيه الراسخ في نقد المنشآت البليغة ما ينزل عن الدرجة العليا، بل يحس روح البلاغة التي لا يحوم عليها شيء من التصنع سارية في آياته وسوره، سواء في ذلك تصويره للمعاني، أو نظم الألفاظ الناطقة بها<sup>(٢)</sup>.

٨- تكرار القصص في أكمل ما يكون من حسن البيان: فمن أعظم مظاهر بلاغة القرآن، أنه يورد القصة في أوفى درجة من حسن البيان، ثم يعيدها في سورة أخرى على حسب ما يقتضيه مقام الوعظ، حتى إذا عقدت موازنة بين حكايتها هنا وحكايتها هناك، وجدتهما في مرتبة واحدة من البلاغة لا تنزل إحداها عن الأخرى بحال.

١ - انظر المرجع السابق ص ١٠ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ١١ .

أما البليغ من البشر، فقد يسوق إليك القصة في عبارات أنيقة، ثم يريد أن يعيدها مرة أخرى، فإذا هي في درجة من البراعة منحطة عن درجتها الأولى<sup>(١)</sup>.

فهذه نبذة عن عنايته بالإعجاز البياني للقرآن.

ثالثاً: دراسته لموضوعات وردت في القرآن الكريم: حيث تعرض لدراسة العديد من الموضوعات في ذلك، خصوصاً ما كان يحتاج إلى دراسة، وتجلية، أو ما يحتاج منها إلى مزيد بحث وتحليل.

ومن أمثلة ذلك ما يلي: ١. دراسته لأمثال القرآن الكريم: من حيث مفهوم الأمثال، وتحقيق معنى المثل في القرآن، والنظر في كلام من بحثوا في أمثال القرآن، وفي استعمال القرآن لكلمة مثل، والآيات الجارية مجرى الأمثال، وفوائد ضرب المثل<sup>(٢)</sup>.

٢. المحكم والمتشابه في القرآن الكريم؛ حيث تعرض لمعنى المحكم والمتشابه في القرآن، وأقوال العلماء في ذلك<sup>(٣)</sup>.

٣. اليمين في القرآن والحديث: حيث تطرق فيه لمعنى اليمين، وصيغها في القرآن، وأقسام اليمين، واختلاف الفقهاء في تفسير لغو اليمين. كما تطرق لتغليب اليمين في الدعوى، ومسألة الحلف بالقرآن، وأنها تنعقد؛ لأنها بكلام الله، وكلامه صفة من صفاته، إلى غير ذلك من مسائل اليمين في القرآن.

٤. الرقية والاقْتباس والاستخارة في القرآن: حيث تطرق لمفهوم الرقية، وعن حكم الرقية بالقرآن، وكتابه في ورق؛ لتجعل حرزاً. كما تطرق للاقتباس من حيث مفهومه، وآراء العلماء فيه.

١ - انظر المرجع السابق ص ١٠-١١ .

٢ - انظر الموسوعة الكاملة ٤٦٨/٢-٤٨٢ .

٣ - انظر بلاغة القرآن ص ٤٥-٥٣ .

كما تحدث عن الاستخارة في القرآن، وحكمها، وعن الاستخارة الشرعية المعروفة، وعن بعض الاستخارات البدعية<sup>(١)</sup>.

٥. حقيقة ضمير الغائب في القرآن: وهو بحث، ردّ فيه على الدكتور طه حسين، وقد مرت الإشارة إليه في الفصل الثاني من الباب الأول<sup>(٢)</sup>.

رابعاً: عنايته بالتفسير: فلقد باشر في وضع تفسير محكم لكتاب الله العزيز، ينبع من صفاء علمه، وسعة معارفه، وبلوغه قمة مجده العلمي.

وقد بدأ بنشر ذلك التفسير في مجلة (لواء الإسلام) التي كانت تصدر في القاهرة، وكان يرأس تحريرها، وذلك بتاريخ الأول من شهر رمضان عام ١٣٦٦هـ حتى شهر شعبان عام ١٣٧٠هـ.

وقد مر تعريف بذلك التفسير، وذلك في الفصل الثاني من الباب الأول، عند الحديث عن كتاب (أسرار التنزيل)<sup>(٣)</sup>.

ولقد سار في ذلك التفسير على منهج يمكن إجماله بما يلي:

١- أنه كتب بلغة عالية جزلة واضحة؛ ولا غرو في ذلك؛ فالمؤلف من أرباب

البيان، وأمرائه.

٢- أنه سار في مسائل العقيدة -خصوصاً في باب الصفات- على منهج السلف؛

فإذا مر بشيء من ذلك أثناء تفسيره لم يتعرض لها بتأويل يصرفها عن ظواهرها،

وإنما يسير فيها على وفق منهج السلف من حيث إثباتها لله -عز وجل- على

الوجه اللائق به دون نفي لها، أو تعرض لكيفيتها، وسيأتي أمثلة على ذلك في

الفصل الثاني من هذا الباب عند الحديث عن منهجه في إثبات أصول العقيدة.

١ - انظر المرجع السابق ص ٦١-٧٨.

٢ - انظر المرجع السابق ص ٧٩-١١٦.

٣ - انظر أسرار التنزيل ص ٣.

٣- أن هذا الكتاب حافل بالعلم الغزير، والفوائد الجمّة، واللفتات البارعة، والاستنباطات الرائعة، والنكت البديعة، والإشارات التربوية والإصلاحية.

٤- أن المؤلف رحمته الله حرص على ربط تفسيره بواقعه الذي يعيش فيه؛ فلذا تراه يتعرض لهداية الآيات، وعلاجها لكثير من مشكلات العصر. وتراه يردُّ على بعض المعاصرين الذين تأولوا بعض الآيات على غير وجهها الصحيح.

٥- أنه كان يميل إلى الإيجاز، والبعد عن الحشو والتطويل في إيراد الأقوال؛ فتراه لا يستقصي، ولا يُفصّل، وإنما يبين ما يظهر له من معنى الآية، وربما استشهد بأقوال وآراء بعض أهل العلم السابقين كابن القيم وغيره. ولعل الحامل له على ذلك أن كتابه كان -في أصله- مقالاتٍ أو محاضرات في التفسير، وذلك المقام لا يسمح بالاستقصاء.

٦- أنه كان يُعنى بتحليل الألفاظ وشرحها دون تطويل -كما سبق-.

٧- عنايته بجناب التوحيد، وتحذيره من الشرك ومظاهره المعاصرة، وذلك إذا مرَّ بآيات في هذا الشأن كما في تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ البقرة: ٢٢<sup>(١)</sup>.

٨- تعرّضه لبعض المسائل الفقهية كما في تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ﴾ الآية، البقرة: ١٨٠، وكما في تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾

الآية، البقرة: ١٨٣.

- ٩- تنويهه بمكارم الأخلاق، وأثرها في سيادة الأمة، والرقبي بها.
- ١٠- أنه أفاد من المصادر الأصلية في تفسير القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، واللغة، والنحو والأدب.
- ١١- اعتنى بمعاني الحروف والاشتقاق، والمزج بين المباحث النحوية والبلاغية.
- ١٢- كثافة المادة النحوية عنده، وحرصه على استخراج الأسرار اللغوية.
- ١٣- الاستشهاد بالشعر.
- ١٤- الاعتماد على التفسير بالمأثور، حيث يفسر القرآن بالقرآن، والقرآن بالحديث النبوي.

- ١٥- تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين.
  - ١٦- تفسير القرآن باعتماد أسباب النزول، والقراءات.
  - ١٧- الأخذ أحياناً عن التوراة والإنجيل، والأخذ بالتفسير بالرأي؛ مستخدماً الترجيح إما باللغة، أو الأثر، أو العقل.<sup>(١)</sup>
- خامساً: كثرة استشهاده بالقرآن الكريم، ورجوعه إليه: فلا تكاد تجد له بحثاً، أو مقالة، أو كتاباً، أو محاضرة إلا وهو مُمتِعُّ بآيات الكتاب العزيز، وذلك في جميع ما يتناوله من موضوعات، سواء كانت عقديّة، أو أدبية، أو اجتماعية، أو سياسية.
- وسواء كان ما يتناوله ردوداً، أو تعقيباتٍ، أو ما جرى مجرى ذلك.

١ - انظر بحث الإمام محمد الخضر حسين مفسراً للأستاذ أنور بن خليفة ضمن الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ١٥١-١٩٧.

ويتخلل تلك الاستشهادات تنويه بالقرآن، أو توجيه لموضع الاستشهاد، أو تفسير لما يورده من الآيات، أو تصحيح لما يقع من خطأ في فهمها. والأمثلة في ذلك كثيرة جداً، وقد مر شيء من ذلك، وسيأتي مزيد بيان له فيما يأتي. سادساً: تعرضه لمسألة نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية: حيث تطرق لتلك المسألة، وأجاب عن السؤال المطروح: هل في المستطاع ترجمة القرآن إلى لغة غير عربية؟ ففصل القول في ذلك، وذكر أقوال العلماء فيه<sup>(١)</sup>، وخلص إلى نتيجة ذكرها في خاتمة بحثه هذا؛ حيث قال: «وإذا كانت الترجمة بمعناها الحقيقي - ولو للمعاني الأصلية - لا تيسر في جميع آيات القرآن، وإنما التيسر الترجمة على معنى التفسير كانت الترجمة المعنوية أقرب إلى الصحة من الترجمة الحرفية، متى أفاد بها المترجم معنى الآية في أسلوب من أساليب اللغة الأجنبية لا زيادة فيه ولا نقصان.

فلو قامت جمعية ذات نيات صالحة، وعقول راجحة، ونولت نقل معاني القرآن إلى بعض اللغات الأجنبية، وهي على بينة من مقاصده، وعلى رسوخ في معرفة تلك اللغات، وتحامت الوجوه التي دخل منها الخلل في التراجم السائرة اليوم في أوروبا - لفتحت لدعوة الحق سبيلاً كانت مقفلة، ونشرت الحنيفية السمحة في بلاد طافحة بالغوابة قاتمة»<sup>(٢)</sup>.

سابعاً: نقضه لآراء حديثة في تفسير القرآن: ومن أمثلة ذلك: ما ذكره في مقالات عنوانها (قصة أيوب - عليه السلام - ونقض آراء حديثة في تفسيرها).

قال ﷺ في مقدمة المقال الأول: «اطلعت في إحدى المجلات التي تصدر في القاهرة على مقال تعرّض فيه كاتبه لمفسري القرآن الكريم، وبالع في نسبتهم إلى التقصير في التفسير، وساق ما فسّروا به قصة أيوب - عليه السلام - مثلاً لذلك التقصير، وأورد

١ - انظر: بلاغة القرآن ١٨١ .

٢ - المرجع السابق ص ٢٢-٢٣ .

وجوهاً زعم أنها تُبطل ما أجمعوا عليه من التفسير، ثم ذكر تأويلاً للقصة، مدعياً أنه هو الصواب، ووعده بأنه سينسج على هذا المنوال في بيان تقصير المفسرين. وقد وقفت في هذا المقال على آراء لا تدخل تحت قوانين المنطق، وأخرى لا تتقبلها بلاغة القرآن، فأردت تنبيه طلاب العلم لما في تلك الآراء من نشوز؛ حتى يكونوا على بينة من أمرها»<sup>(١)</sup>.

ثم شرع ﷺ في بيان المعنى الحقيقي لقصة أيوب -عليه السلام- وأن القرآن يكتفي من القصة بذكر موضع العبرة، وأنه لم ينزل ليكون كتاب تاريخ، وأن موضع العبرة من قوله -تعالى- لأيوب -عليه السلام-: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرَبْ بِهِ - وَلَا تَحْنُثْ ﴾ ص: ٤٤ «هو أن أيوب -عليه السلام- رأى بعض أهله قد فعل، أو قال ما يستحق عليه العقوبة، فحلف وهو غاضب لله على أن يعاقبه على ذلك بأسواط معدودة، فأراه الله وجهاً يجمع بين رعاية حرمة اليمين، ورفع جانب من شدة العقوبة؛ فذلك من أثر الغضب لله، وهذا التخفيف من أثر رحمة الله بالمتقين من عباده»<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ بعد ذلك: «هذا صفوة ما يقوله أهل العلم في تفسير قصة أيوب -عليه السلام- وقد خالفهم في أصل تفسيرها كاتب ذلك المقال، وسنريك في آخر مقالنا هذا أن لرأيه صلة برأي محمد علي زعيم طائفة القاديانية الخارجة عن سبيل المؤمنين»<sup>(٣)</sup>.

وبعد ذلك شرع في مناقشة آراء صاحب المقال بأسلوب علمي رصين هادئ، ثم بلغ السجال فيه بينه وبين كاتب المقال خمسة مقالات، نقض من

١ - المرجع السابق ص ٢٢-٢٣ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ١٥٨ .

٣ - المرجع السابق ص ١٨٥ .

خلالها آراء ذلك الكاتب بالحجج العقلية والنقلية، وتحلل تلك المقالات درر وغرر من العلم، والمحاجة القوية الرزينة<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك - أيضاً - رده على طه حسين في بحثه (حقيقة ضمير الغائب في القرآن الكريم) وقد مرت الإشارة إليه<sup>(٢)</sup>.

وكذلك نقده لكتاب (الفن القصصي في القرآن) للدكتور محمد أحمد خلف الله، وخلاصة رأي الكاتب في هذا الكتاب أنه يرى أن القصص عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ والواقع، وأن محمداً فناناً بهذا المعنى، وأن القصة في القرآن لا تلتزم الصدق التاريخي، وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادثة تصويراً فنياً بدليل التناقض في رواية الخبر الواحد، مثل أن البشري بالغلام لإبراهيم أو لامرأته، بل قد تكون القصة مخلوقة، كما في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ المائدة: ١١٦ .

هذا هو خلاصة رأي الدكتور محمد خلف الله في كتابه المذكور كما هو في تقرير الأستاذ أحمد أمين للرسالة<sup>(٣)</sup>.

وبعد أن اطلع الشيخ الخضر على ذلك التقرير، وعلى ما كتبه صاحب الرسالة، كتب كلمة فند من خلالها ذلك الرأي مستنداً على القرآن، والسنة، والإجماع، والعقل الصحيح، والفترة السليمة<sup>(٤)</sup>.

ثم ختم مقاله بقوله: «والواقع أن القرآن لم ينزل ليجاري الأدباء في أدبهم، ويذهب في المبالغات مذهبهم، ويستخف بحرمة بعض الحقائق استخفافهم.

١ - المرجع السابق ص ١٨١-٢٧١ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ٧٩-١١٦ .

٣ - انظر بحث الفن القصصي في كتاب بلاغة القرآن ص ١٢٠-١٢١ .

٤ - انظر بلاغة القرآن ص ١٢٠-١٣٤ .

وإنما نزل القرآن ليهدي الأدياء وغير الأدياء إلى ما يلائم الفطر السليمة من عقائد وأداب وأعمال؛ فَوُجِّهَتْهُ الدعوةُ إلى الإصلاح الشامل، وليست هذه الدعوةُ الإصلاحية وليدةَ الدخول في ميدان التجارب الخاصة، ولا النسخُ والتدرُّجُ بالتشريع من مظاهر الدخول في تجارب، بل الدعوة هدايةٌ من خالق التجارب والمجرِّين، والنسخُ والتدرُّجُ بالتشريع من مظاهر علمه القديم، كما هو مفصل في أصول الشريعة»<sup>(١)</sup>.

ثامناً: مواجهته للانحرافات في تأويل القرآن: خصوصاً تلك التأويلات التي تنحو منحى التأويل الباطني، والتي لا تستند إلى شرع، ولا عقل، ولا عُرف، ولا لغة؛ فهي تأويلات لا تتصل بمدلول الألفاظ، ولا بمفهومها، ولا بالسياق القرآني. بل هي مخالفة للنص القرآني تماماً، باحثة في كتاب الله عن أصل تتشبت به؛ لتأييد شذوذ أصحابها، وغاياتهم في الصدِّ عن كتاب الله ودينه.

وحاصل هذا الاتجاه الباطني في تأويل نصوص الشريعة هو الانحلال عن الدين. وعمومُ البشر على اختلاف لغاتهم يعدون ظاهر الكلام هو العمدة في المعنى. وأما أسلوب التعمية والإلغاز فلا وجود له إلا في الفكر الباطني. ولو اتَّخَذَ هذا الأسلوبُ قاعدةً لما أمكن التفاهم بحال، ولما حصل الثقة بمقال؛ لأن المعاني الباطنية لا ضابط لها ولا نظام.

هذا في الكلام عموماً؛ فكيف بكلام الله المنزل، الذي وصفه الله - عز وجل - بأنه ﴿بَيِّنٌ لِلنَّاسِ﴾.

وفي الناس عالمون، وجاهلون، ومنهم أميون، وكاتبون قارئون. ولكن الله جعله بياناً لهم جميعاً، مُيسِّراً للذكر؛ ليعبد الناس ربهم على بصيرة. والمتأمل لمقالة التأويل الباطني يدرك خطورتها في تفسير القرآن، وأنها تقتضي

بطلان الثقة بالألفاظ، وتسقط الانتفاع بكلام الله ورسوله، ويصير ما يسبق إلى الفهم لا يوثق به.

وبهذا الطريق يحاول الباطنية التوصل إلى هدم الشريعة بتأويل ظواهرها، وتنزيلها على رأيهم دون ضابط، أو رادع.

ولو كانت تلك التأويلات الباطنية هي معاني القرآن ودلالاته لما تحقق الإعجاز، ولكان من قبيل الإلغاز<sup>(١)</sup>.

ولقد شاعت تلك الفاشية في عصر الشيخ الخضر على تفاوت مقاصد أصحابها. وأخطرها شيوعاً في ذلك ما كان من تلك التأويلات التي يوردها دعاة الباطنية، والبهائية، والقاديانية.

ولا يقل عن هؤلاء خطراً من يسرون في ذلك الركاب من بعض الكتّاب. ولقد تصدّى الشيخ الخضر لتلك التأويلات بما يستطيع من قوة؛ فتصدى لتأويلات الباطنية، والبهائية، والقاديانية - كما سيأتي بيان ذلك في الباب الثالث - بإذن الله.

وتصدّى لبعض الكتاب، والمنتسبين للعلم لما تعسفوا في تأويل بعض الآيات والأحكام.

وقد مر شيء من ذلك - كما مضى - ومن ذلك - أيضاً - مقالة كتبها الشيخ الخضر، وعنوانها (تحريف آيات الحدود عن مواضعها).

وهي ردٌّ علمي على مقال للأستاذ عبد المتعال الصعيدي، وعنوانه: (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي).

١- انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة الدينوري، شرحه ونشره أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، وفتح الباري لابن حجر ٢١٦/١، وهذه هي الصوفية للشيخ عبدالرحمن الوكيل ص ٧٠-٧١، وأصول مذهب الشيعة د. ناصر القفاري ١٥٣/١-١٥٤، والتأويل: خطورته وآثاره د. عمر الأشقر، دار الفائس، الأردن، عمان، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٦٦-٧٣.

وخلاصة رأي الأستاذ عبدالمعال في ذلك المقال أن الأمر في آية حدّ السرقة، وآية حدّ الزنا يحمل على الإباحة لا على الوجوب.

وبعد أن اطلع الشيخ الخضر على ذلك المقال قام بالرد عليه، وفنّده بحجة وبرهان، ثم ختم مقاله بقوله: «ليصرف صاحب المقال نظره عما يزعمه غير المؤمنين؛ من أن هذه الحدود عقوبات لا تلائم حال المدينة، ويذكر لنا مثلاً من مصالح الزمان والمكان التي تقتضي أن تكون عقوبة مرتكب جريمة السرقة، أو فاحشة الزنا غير ما ورد في الشرع، ويقول لنا: ما هي العقوبة المبتدعة التي تفعل في حفظ الأموال والأعراض ما يفعله القطع أو الجلد؟»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال: «بقيت آيات الحدود منذ عهد النبوة محفوظة من عبث المؤولين، لا يختلف العلماء في أن الأوامر فيها للوجوب، وأن من أضعاعها، وهو قادر على إقامتها فهو فاسق أو جاحد، إلى أن ظهرت فئة خاسرة؛ مثل: زعيم طائفة القاديانية محمد علي؛ إذ حاول أن يفتح في حصن تلك الأوامر ثلثة، فقال -وتابعه في رأيه أبو زيد الدمنهوري-: أن السارق: من اعتاد السرقة، والزاني: من اعتاد الزنا. وهو تأويل خرج به عن قانون اللغة العربية، بعد أن خرج به عن سنّة النبي القولية والعملية.

وجاء بعده كاتب المقال، فهجم على آيات الحدود بمعول ذلك التأويل الذي تنكره اللغة والسنّة وحكمة التشريع.

ولو جرى الناس على مثله من تفسير الكتاب المجيد لكفّوا خصوم الإسلام جانباً من العمل لهدم أركانه، وطمس معالمه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُو لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩»<sup>(٢)</sup>.

١- بلاغة القرآن ص ١٤٠.

٢- المرجع السابق ص ١٤٠-١٤١.

ومن جهاده ﷺ في ذلك الشأن مقالة كتبها بعنوان (كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد) وهي نقد لكتاب (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) تأليف محمد أبو زيد الدمنهوري.

وهذا الكتاب وقع في كثير من الانحرافات في تأويل القرآن، كما انحرافه في تأويله لآيات المعجزات، ودعوته إلى الخروج عن أحكام الشريعة، وإنكاره للجن والشياطين، وزعمه أن المسلمين يروون الأحاديث النبوية عن اليهود ونحو ذلك. يقول الشيخ الخضر ﷺ في مقدمة رده على ذلك الكاتب بعد أن بين نعمته إنزال القرآن، وعهد الله ببيانه إلى الرسول ﷺ، وتلقي أصحابه ذلك الكتاب، وبيان ما يخفى عليهم من آياته، ثم تلقي التابعين والأمة من بعدهم ذلك الهدى والنور قال: «حتى ظهر أشخاص قلّ في علم اللغة نصيبهم، أو خفّ في علم الشريعة وزنهم، فتناولوا القرآن بعقول لا تراعي في فهمه قوانين البلاغة، ولا تدخل إلى تفسيره من باب السنة الصحيحة؛ فأدخلوا في تفسيره آراءً سخيفة، ومزاعم منبوذة، ووجدت هذه الآراء وهذه المزاعم عند بعض العامة وأشباه العامة مُتَقَبَلًا»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال: «وشرٌّ من هؤلاء طائفة الباطنية الذين هم رهط المجوس؛ ائتمروا على أن يكيدون للإسلام بتأويل القرآن على وجوه غير صحيحة؛ ليصرفوا الناس عن محجته البيضاء، ويأخذوهم إلى ما شأؤوا من نحلٍ خاسرة وأهواء. ولولا رجال يدرسون الدين ببصائر تنفذ إلى لبابه، ويُرزقون إيماناً يسوقهم إلى دفاع الخبائث عن حياضه لكان لأولئك المضلين جولة أوسع مما جالوا، واستدراجٌ للنفوس أكثر مما استدرجوا»<sup>(٢)</sup>.

١- بلاغة القرآن ص ١٤٣.

٢- المرجع السابق ص ١٤٣.

ثم تطرق للبهاية وتأويلاتهم، وانتقل إلى أناس يضاهاؤونهم في طريقة التأويل، وهم - كما يقول -: «يضعون على رؤوسهم بياضاً، ويحملون في صدورهم سواداً لهم يرسموا لأنفسهم نحلة دينية، وإنما هي الغواية لعبت بعقولهم، وإكبار خصوم الدين الذي ران على قلوبهم؛ فانطلقوا إلى القرآن الكريم يؤولونه على ما يوافق شهواتهم، ويقضي حاجات في نفوس ساداتهم.

يفعلون هذا ولا يرقبون في اللغة ذمة، ولا يرعون لسنة أفضل الخليفة حرمة، وتراهم يبنذون ما يقرره أئمة العربية، أو أئمة الدين نبذاً لا يتكئ على دليل، ويطلقون ألسنتهم في هؤلاء الأئمة الذين خدموا الدين والعلم والأدب، وإنما يعرف فضلهم العالم الناقد النبيل»<sup>(١)</sup>.

ثم تطرق لذلك الكاتب، فقال: «ومن هؤلاء نفر شخص سوّلت له نفسه أن يخوض في آيات الله كالذين خاضوا فيها على عماية؛ فكتب جملاً قذف فيها شيئاً من وساوسه، وسماها: تفسيراً.

بل تناهى في الافتتان بها؛ فسامها: (الهداية والفرقان).

والذي يقرأ هذه الجمل لا يرتاب في أن صاحبها جامد على المحسوسات، جاحد لكثير مما أخبر به القرآن، منكر لأحكام قررها القرآن، والسنة، وأجمع عليه الصحابة، وأئمة الإسلام من بعدهم جيلاً بعد جيل.

ولكنه يريد أن يدل على إنكاره بما يرتكبه في الآيات من سوء التأويل»<sup>(٢)</sup>.

ثم شرع الشيخ الخضر بعد ذلك بتفنيد تلك الآراء، والتأويلات الباطلة فقرة فقرة، كما هي عادته في إيراد كلام المؤلف، ثم تعقبه في ذلك بكل قوة، وإنصاف معتمداً في ذلك على أدلة الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفترة.

ومن جميل حُججه في ذلك قوله في معرض رده على الكاتب في إنكار الجن:

١- المرجع السابق ص ١٤٤ .

٢- المرجع السابق ص ١٤٤-١٤٥ .

«وإنما ينكر الجن من جمد عقله في دائرة المحسوسات لا يتخطاها أمثلة. ونحن نعلم أن العقل وحده لا يصل إلى العلم بوجودهم، كما أنه لا يستطيع إقامة الدليل على نفيهم.

بل إذا سئل عنهم وهو صحيح النظر، مُجرّد من كل تقليد أقرّ بإمكان وجودهم؛ إذ ليس من شرط كل موجود أن يُدرَك بإحدى الحواس الخمس؛ فقدرة الله تسع خلقاً ينشأ من عنصر لطيف؛ فلا يقع عليه النظر. وإذا أقرت العقول إمكان شيء، وأخبر الدين القائم على البرهان بوجوده - تلقينه بالقبول، ولم نفرق بينه وبين ما أدركناه بالمشاهدة، أو ثبت بالأدلة العقلية مباشرة»<sup>(١)</sup>.

وهكذا يسير في إيراد حججه، وبراهينه في ترسل، وحسن عرض. كذلك صنع ﷺ في الرد على كتاب آخر، وهو كتاب (امراتنا في الشريعة والمجتمع) لطاهر الحداد، فتناوله الشيخ الخضر ﷺ بالنقد، وذلك في مقالة عنوانها (كتاب يلحد في آيات الله).

وقد تطرق ذلك الكاتب إلى التعرض إلى بعض الأحكام التي قررها الإسلام، كتعدد الزوجات، وجعل الطلاق في يد الرجل، وجعل نصيبها من الإرث نصف نصيب الرجل، ونحو هذه الأحكام مما قرره الإسلام. فتناوله الشيخ الخضر ﷺ بالنقد والرد على نحو عادته في ذلك، والمقام لا يتسع للتفصيل فيه<sup>(٢)</sup>.

وليس هذا هو كل ما قام به من صد للانحرافات في تأويل القرآن، وإنما جزء يسير من ذلك، وسيأتي مزيد بيان وتفصيل في هذا الشأن في الأبواب والفصول القادمة، خصوصاً عند الحديث عن منهجه في الرد، وعن البابية، والبهائية، والقاديانية،

١- المرجع السابق ص ١٥٨ .

٢- انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٦٠٧/٢-٦١٨ .

والعلمانية<sup>(١)</sup>.

فهذا شيء من حفاوته وعنايته بالقرآن الكريم - المصدر الأول - لتلقي العقيدة الإسلامية.

وليس ما ذُكرَ شاملاً لعنايته بالقرآن، وإنما هي إشارات.

وله جهود أخرى في ذلك السياق، كدفاعه عن القرآن الكريم، وعن المفسرين من السلف<sup>(٢)</sup>، وكحرصه على درء التناقض عن القرآن، وجمعه بين الأدلة<sup>(٣)</sup>، ودرئه التعارض بين العقل والنقل في التفسير<sup>(٤)</sup>، وكيانه فضل التفقه في القرآن<sup>(٥)</sup>، وكرده على الشبه المثارة حول القرآن كالقول بأنه أخذ من مصادر يهودية<sup>(٦)</sup>.

كما أن له كلاماً حول أنواع تفسير القرآن، كالتفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي، والتفسير الباطني، والتفسير الإشاري<sup>(٧)</sup>.

بل ليس من المبالغة أن يقال: إن الشيخ الخضر رحمته الله أمضى جُلَّ حياته في التفقه في كتاب الله، والدعوة إلى سبيله، وبيان فضائله، والدفاع عنه، وما جرى مجرى ذلك.

وهكذا يتبين اعتماد الشيخ الخضر القرآن مصدراً أساساً في تلقي العقيدة.

١- انظر رسائل الإصلاح ص ٢١، والقاديانية والبهاية ص ١٦-٢٢ و ٣٧-٤٨ و ٧٣-٨١.

٢- انظر بلاغة القرآن ص ١١٧-١١٩ و ١٩٢.

٣- انظر المرجع السابق ص ١٨٢-١٨٤.

٤- انظر الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ١٥١-١٩٧.

٥- انظر الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٨-٢٧.

٦- انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٦٥-٢٦٩.

٧- انظر بلاغة القرآن ص ٢٤-٢٩.

## المطلب الثاني: المصدر الثاني: السنة النبوية

السنة النبوية - كما مر - هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي ، وهي بعد القرآن الكريم ، وهي شقيقة القرآن .

والشيخ الخضر رحمته الله يعتمد ذلك المصدر ، ويرى عصمته ، ويستمد منه عقائده ، وأحكامه ، وسائر أمور دينه شأن السنة في ذلك عنده شأن القرآن . كما أنه رحمته الله قد عني بالسنة النبوية عناية عظيمة ؛ حيث تعلمها ، وتفقه فيها ، وعلمها ، وكان معظماً لها ، منافحاً عنها ، إلى غير ذلك من مظاهر عنايته بها .

وفيما يلي بيان لبعض الأمور التي تدل على ذلك :

أولاً: تجليته لمفهوم السنة ، وكثير من مصطلحاتها : حيث تطرق لمعنى السنة في أصل اللغة ، وأنها الطريقة حسنة كانت أو سيئة . وتطرق لإطلاق السنة على ما يقابل القرآن ، وأن المراد بها قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله ، وتقريره<sup>(١)</sup> .

وتطرق لإطلاق السنة فيما يقابل البدعة ، ولإطلاق الفقهاء للسنة ، وأنها تطلق على ما يثاب فاعله ، ولا يعاقب تاركة .

كما تطرق للأفعال التي ترد في سنة النبي صلى الله عليه وسلم وما يكون منها من قبيل العادة والجبلة ، كالقيام ، والعقود ، والاضطجاع .

وما يكون من أفعاله - عليه الصلاة والسلام - من قبيل الاختصاص ، كالوصال في الصوم ، والزيادة في النكاح عن أربع .

وما عرف كونه بياناً للقرآن كقطعه يد السارق من الكوع بياناً لقوله - تعالى - :

﴿ فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ المائدة : ٣٨ .

وتعرض -كذلك- لِمَا لم يكن جليلاً ولا خصوصية فيه ولا بياناً، وصفته في حقه -عليه الصلاة والسلام- من وجوب، أو ندب، أو إباحة، وأن أمته تابعة له في الحكم؛ إذ الأصل تساوي المكلفين في الأحكام.

كما تحدث عن أفعاله، وتروكه، وتقريراته، وما يفهم فيها معنى القرية، أو الاقتداء، أو خلافه، إلى غير ذلك مما يدور في هذا القبيل<sup>(١)</sup>.

كما تطرق للتفقه في السنة، وأن التفقه فيها وفي الكتاب العزيز على نحو ما كان معلوماً من طريقة أهل العلم يحفظ الحقوق، ويسير بالأمة في أهدى سبل المدنية<sup>(٢)</sup>.

كما تطرق لمفهوم الحديث المتواتر<sup>(٣)</sup> والآحاد<sup>(٤)</sup>، واختلاف العلماء في مفهوم المتواتر والآحاد<sup>(٥)</sup>.

كما تطرق لمفهوم الحديث الصحيح، والحديث الضعيف، ومصطلح الرواية والدراية<sup>(٦)</sup>.

إلى غير ذلك مما تطرق له في ذلك الباب.

وهو في ذلك كله لا يخرج عما كان عليه السلف، وقرره أئمة الحديث.

ثانياً: بيانه لمنزلة السنة، وحجيتها: حيث بين في كثير من أبحاثه ومقالاته، ومحاضراته منزلة السنة النبوية، وحجيتها، وقرر أنها هي المصدر الثاني للتشريع

١ - انظر المرجع السابق ص ١٢٢-١٣١ .

٢ - المرجع السابق ص ٢٧ .

٣ - المرجع السابق ص ١٥٢-١٥٣ .

٤ - المرجع السابق ص ١٥٣-١٥٤ .

٥ - المرجع السابق ص ٢٣ و ٨٥ و ١٥٤ و ١٦٧ ، وانظر تفصيل ذلك في أخبار الآحاد في الحديث

النبوي، للشيخ د. عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين، دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

٦ - انظر المرجع السابق ص ٢٣ .

الإسلامي بعد القرآن الكريم، وأن الحديث النبوي مستقل بتشريع الأحكام، ومعدود في منزلة القرآن في العمل بتحليله وتحريمه، ويستشهد لذلك بقوله تعالى:- ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ الحشر: ٧.

ويقرر أنه إذا كان الحديث بمنزلة القرآن في التشريع فلا يعدل المجتهد عن العمل بحديث إلا إذا ثبت لديه نسخه، أو ظفر بدليل أرجح منه في السنة، أو أقوى في وجه الدلالة<sup>(١)</sup>.

كما يقرر أن الحديث قد يجيء بياناً لمجمل في القرآن، أو يزيد حكماً على ما فهم من ظاهر القرآن<sup>(٢)</sup>.

ويقرر أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين يجعلون الأحاديث أصلاً من أصول الدين يقفون عندها إذا وجدوها، ولا يتجاوزونها<sup>(٣)</sup>.

وأن المحدثين والمجتهدين قد خدموا متن الحديث، ودخلوا في غضونه، وكشفوا أسراره كما فعلوا في السند.

وقرر أن علماء الحديث والفقهاء من عهد الصحابة فما بعد لم يقصروا في فهم المتن، وبذلوا كل عناية في فهمه، فنظروا في الجنايات، وجعلوا إقامة الحدود من حق الحاكم العام، والحدود ترفع الضرر في كل زمان ومكان، وما عداها يسمّى: تعزيزاً، وزجراً، وفوضوا أمره للحاكم - أيضاً -، وتقديره بما يقتضيه الحال، واستنبطوا من القرآن والحديث قواعد عامة تصلح أن تطبق على كل جيل، وهذا الاستنباط متوقف على نظر دقيق في المتن على نحو ما في القياس.

١ - انظر رسائل الإصلاح ص ٢٠-٢١ والشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ٧٨-٧٩.

٢ - انظر بلاغة القرآن ص ٢٣، وانظر منزلة السنة، وبيان أنه لا يستغنى عنها بالقرآن، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الدار السلفية، الكويت، ط ٣، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٣ - انظر رسائل الإصلاح ص ٢٠.

ومن هذه القواعد المستنبطة من القرآن والحديث - كما يقرره الشيخ الخضر -: الضرر يزال، والمشقة تجلب التيسير، واليقين لا يرفع بالشك، والعادة محكمة، والأعمال بمقاصدها، وارتكاب أخف الضررين، والضرورات تبيح المحظورات، والاستصحاب، والاستحسان الذي هو قياس خفي في مقابلة قياس جلي.

ويبين - كذلك - أن شرّاح الأحاديث عندما يبحثون في متنها يتعرضون لما يفيد المتن من الإباحة، أو الندب، أو الوجوب، أو الكراهية، أو التحريم، ويتعرضون لما يفيد الأمر من الإرشاد والإصلاح أو التشريع، ويذكرون أن فعله - عليه الصلاة والسلام - عادي، أو شرعي<sup>(١)</sup>.

وتراه يشنع على من ينكر العمل بالحديث، ويقرر أن العمل بالحديث كان دأب السلف الصالح ومن تبعهم حتى أخذت الزندقة تعبت من وراء ستار، فكان من مكايدها أن أجرت على السنة شياطينها أن مأخذ الدين هو القرآن وحده، وأن السنة لا تستقل بإنشاء الأحكام.

ويرى أنهم يقولون هذا؛ ليسقطوا جانباً كبيراً من أحكام الإسلام<sup>(٢)</sup>، وأن إنكار العمل بالأحاديث النبوية الصحيحة إنما نشأ عن زيغ العقيدة<sup>(٣)</sup>.

وفي مقالة عنوانها (وجوب العمل بالحديث الشريف) يقرر أن الحديث الوارد في تقرير حكم شرعي يأتي على ثلاثة أوجه:

أحدها: ما يكون موافقاً للقرآن من كل وجهة، فيكون توارد القرآن والحديث على الحكم الواحد من قبيل تظافر الأدلة، وهذا الوجه من التأكيد يدل على شدة عناية الشارع بذلك الحكم.

١ - انظر بلاغة القرآن ص ٢٤-٢٥.

٢ - انظر رسائل الإصلاح ص ٢٠-٢١.

٣ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٤٢.

الثاني: ما يكون بياناً لما جاء مجملاً في القرآن، فيتعين الأخذ بهذا البيان متى ورد في الصحيح؛ إذ لا بيان بعد رسول الله ﷺ فالله -تعالى- يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل: ٤٤ .

ومثال هذا: الأحاديث المفصلة لأحكام الصلاة أو الزكاة أو الصيام.

الثالث: ما يُوجِبُ حكماً لم يُفهم إيجابه من القرآن؛ كحديث رجم الزاني المحصن، أو يُحرِّم حكماً لم يفهم من القرآن تحريماً؛ كحديث تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في عصمة، وحديث: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»<sup>(١)</sup>.

ثم بيّن بعد ذلك أن الحديث الشريف إذا قرر حكماً سكت عنه القرآن - وجب الأخذ به؛ لأن السنة أصلٌ مستقلٌ بالتشريع وإن كانت رتبها دون رتبته<sup>(٢)</sup>. ثم يقول بعد ذلك: «ولنا على هذا أدلة من القرآن والسنة وعمل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة -رضي الله عنهم-»<sup>(٣)</sup>.

ثم شرع في تفصيل ذلك<sup>(٤)</sup>.

وبعد أن أقام -كما يقول- الحجج الدالة دلالة قاطعة على أن السنة أصلٌ مستقلٌ بالتشريع - قرر أن «مُنكَرَ العمل بالحديث النبوي إنما هو خارج عن دائرة الدين، أو ضال عن سبيله بجهالة»<sup>(٥)</sup>.

ثالثاً: كثرة استشهاده بالحديث، وعنايته بالعزو والتصحيح والتضعيف: فكما

١ - أخرجه البخاري (٥٢٠٢) ومسلم (١٤٤٥).

٢ - انظر الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٤٢-١٤٣ .

٣ - المرجع السابق ص ١٤٣ .

٤ - انظر المرجع السابق ص ١٤٣-١٤٧ .

٥ - المرجع السابق ص ١٤٧ .

قرر ﷺ حجية السنة، وأنها المصدر الثاني للتشريع، وأنها مستقلة بتشريع بعض الأحكام - فقد كان كثير الاستشهاد بالحديث النبوي، معنياً بالعزو إلى المصادر التي يستقي منها، حريصاً على بيان صحة الحديث الذي يورده. وكان كذلك دأبه منذ بواكير عمره، وبدائياته في الكتابة والنشر إلى أن توفاه الله - عز وجل -.

وقلما تقف على محاضرة له، أو مقال، أو كتاب، أو رد، أو تعقيب، أو بحث في أي شأن من الشؤون - إلا وتراه يورد في ذلك ما يناسب المقام من الأحاديث النبوية الشريفة.

وإذا أورد حديثاً عزاه إلى مصدره من السنة، وبين صحته في الغالب - وكثيراً ما يميل إلى الترجيح في المسائل المختلف فيها بحسب ما يتبين له من صحة الأحاديث أو ضعفها.

ومن أمثلة ذلك جوابه عن سؤال حول مشروعية إحياء ليلة النصف من شعبان، وما ورد في ذلك من الدعاء، والصلاة، وما يستتبع ذلك من الثواب، وهل هذه الليلة هي الليلة التي يُفَرَّقُ فيها كلُّ أمرٍ حكيم؟<sup>(١)</sup>.

فأجاب عن ذلك بأن ذلك الاحتفال لم يكن معروفاً في عهد النبوة، ولا الصحابة، ثم أطل في ذكر الخلاف، وانتهى به البحث إلى قوله: «ويتلخص الجواب: في أن ليلة النصف من شعبان ليست هي الليلة المرادة بالليلة المباركة الواردة في قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ الدخان: ٣ .

وأن الصلاة المخصوصة التي يفعلها بعض الناس قد طعن كثير من الحفاظ في صحة حديثها، وأدخلوها في قبيل البدعة التي هي طريقة في الدين تخترع؛ ليضاهي بها الطريقة الشرعية.

أما إحياء الرجل لها بالعبادة في جملة ما يتيسر له إحيائه من الليلي؛ رجاء أن يكون لها في استجابة الدعاء وقبول العبادة المزية التي وردت في أحاديث فضلها، فليس فيه من بأس، وهذه الأحاديث تكفي داعياً للإقبال فيها على العبادة، وتنفي أن يكون قيام الرجل فيها بشيء من العبادة المطلقة عن التقييد بعدد معين، أو هيئة مخصوصة، وإن لم تبلغ هذه الأحاديث درجة الصحيح<sup>(١)</sup>.

وكذلك فعل عند حديثه عن المهدي، وذلك في مقال عنوانه: (نظرة في أحاديث المهدي) حيث تطرق للأحاديث الواردة فيه، وما قاله الأئمة في ذلك، وما جاء من الخلاف في شأن تلك الأحاديث<sup>(٢)</sup>، ثم قال في نهاية البحث: «الخلاصة أن في أحاديث المهدي ما يعد في الحديث الصحيح، وبما أني درست علم الحديث، ووقفت على ما يُميِّز به الطيب من الخبيث أراني مُلجأً إلى أن أقول -كما قال رجال الحديث من قبلي-: إن قضية المهدي ليست بقضية مصطنعة»<sup>(٣)</sup>.

إلى أن قال: «ولا أترك مكاني هذا حتى أنبه على أنه لم يرد -ولو في الأحاديث الموضوعية-: أن المهدي يولد من غير أب، وأنبه على أن الحديث الذي ذكره أبو بكر الإسكافي في كتاب (فوائد الأخبار) موضوع، وهو حديث: «من كفر بالمهدي، فقد كفر»، وأبو بكر الإسكافي من المتهمين بوضع الأحاديث»<sup>(٤)</sup>.

وقال في معرض حديث له عن الاجتهاد في أحكام الشريعة: «والحديث الذي يرويه أحد الأئمة، ويصله بما ينبئ عن صحته يسوغ للفقهاء متى عرف مذهب الراوي في التعديل أن يعتمد على تصحيحه.

ومن هذا القبيل ما يرويه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

١ - المرجع السابق ص ١٦٤-١٦٥ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ١٦٦-١٧٢ .

٣ - المرجع السابق ص ١٧١ .

٤ - المرجع السابق ص ١٧٢ .

وأما ما يروى في الكتب التي لا تخلو من الضعيف فلا بد له من النظر في سند الحديث، والبحث عن سيرة مَنْ يُجهل حاله؛ حتى يكون على بينة من أمره»<sup>(١)</sup>. وقال قبل ذلك بعد أن قرر أن من شروط الاجتهاد: العلم بسنة رسول الله ﷺ قال: «وقد اختلف أهل العلم في القدر الذي فيه كفاية، فقال أبو بكر بن العربي في كتاب (المحصول): هي ثلاثة آلاف حديث، ونقل عن أحمد بن حنبل: أن الأصول التي يدور عليها العلم ينبغي أن تكون ألفاً ومائتين، ويذهب ابن القيم إلى أن الأصول التي تدور عليها الأحكام خمس مئة حديث، وهي مفصلة في نحو أربعة آلاف حديث»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن قال: «والحق في جانب من يقول: إنه لا يحق الاجتهاد إلا لمن كان عالماً بما اشتملت عليه مجاميع السنّة؛ كالأمهات الست، وما يلحق بها من الكتب التي التزم مصنفوها الصحة فيما يروون؛ إذ من المحتمل أن يوجد فيها ما يدل على الحكم صراحة، ويأتي الاستنباط بما يخالفها، وكان أهل العلم فيما سلف إنما يرجعون بالواقعة إلى الاستنباط بعد أن يبحثوا جهد استطاعتهم، فلا يظفروا بآية، أو سنّة تنص على حكمها»<sup>(٣)</sup>.

رابعاً: عنايته بمسألة الوضع في الحديث: حيث أولى هذه المسألة اهتماماً بالغاً، وذلك في مواضع عدة من كتبه.

وأجلى ما في ذلك ما جاء في مقدمته على كتاب (المغني عن الحفظ والكتاب) للموصلي، وكذلك ما جاء في بحث له بعنوان: (أسباب الوضع في الحديث)؛ حيث أبان عن قبح الكذب عموماً، وأن قبحه يشتد، وفساده يكبر إذا كان على

١ - المرجع السابق ص ١١.

٢ - المرجع السابق ص ١٠.

٣ - المرجع السابق ص ١٠.

رسول الله ﷺ لما في ذلك من الإنقاص من حكمة الدين، وقلب حقائقه<sup>(١)</sup>.  
وأوضح «أن السفهاء من الناس لم يجدوا طريقاً يمكنهم من طعن الإسلام في لُبِّه؛  
فمدوا أيديهم إلى الحديث على رسول الله ﷺ يَحْتَلِقُونَ مزاعم سخيفة، ويلفقون  
صوراً باطلة، ووضعوها بجانب حقائق الدين؛ فكانت هذه الأحاديث الموضوععة  
كالأقذاء تتهافت حول الزجاجة الغراء»<sup>(٢)</sup>.

وساق ما جاء في ذلك من الوعيد الشديد، فقال: «ولدرء هذا الفساد على ساحة  
الشرعية قال ﷺ: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)<sup>(٣)</sup>.  
وقد اختلف العلماء في حكم الكذب على رسول الله - فذهب الجمهور إلى أنه  
معصية كبرى، وذهب بعضهم - كأبي محمد الجويني والد إمام الحرمين - إلى أن من  
تعمد الكذب على رسول الله ﷺ يكفر كفوفاً يخرج من الملة.  
والصواب ما ذهب إليه الجمهور»<sup>(٤)</sup>.

وبين ﷺ أنه مع شدة هذا الوعيد قد دخل الوضع في الأحاديث؛ فتسرب إليها من  
وجوه شتى، ، وصدر عن أغراض مختلفة.

وأن الزنادقة قد وضعوا أحاديث تناقض المحسوس، أو تصادم القواعد العلمية  
الصحيحة؛ ليدخلوا الريبة في نفوس ضعفاء الأحلام؛ حتى يقعوا في ريبة، وتزعزع  
من نفوسهم عقيدة أن الإسلام تنزيل من حكيم حميد<sup>(٥)</sup>.

ويرى أن هذا هو السبب الأبرز لوضع الحديث؛ لأن أعداء الإسلام قد أدركوا أنه  
شريعة محكمة، ودين قيم، ولم يجدوا في مبادئه وتعاليمه ما تتجافى عنه الفطرة  
السليمة، أو يينو عنه النظر الصحيح، واندمجوا في جماعتهم، فصنفوا أحاديث

١ - انظر الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٤٨.

٢ - المغني عن الحفظ والكتاب ص ٦.

٣ - أخرجه البخاري (١٢٢٩) ومسلم (٣).

٤ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٤٨.

٥ - انظر المغني عن الحفظ والكتاب ص ٦، والشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٨٤.

يناقضها المحسوس ، أو يصادمها المعقول ، أو تشهد أذواق الحكماء بسخافتها<sup>(١)</sup>.  
ثم يتطرق لأسباب أخرى للوضع ، كاختراع بعض أصحاب الأهواء أحاديث  
يؤيدون بها آراءهم في العقائد ، أو يقررون بها مذاهبهم في الأحكام.  
ويذكر أن من أسباب الوضع قصد التقرب من بعض ذوي الرئاسة ، ومنها الغلو في  
الحب ، والتشيع ، ومن هذا القبيل الأحاديث الواردة في بعض البلاد كفاس ، ومصر ،  
وعسقلان<sup>(٢)</sup>.

ويرى أن الباعث على الوضع قد يكون داعية بغض أو حسد ، أو الترويج لبعض  
المصنوعات ، أو ابتغاء الشهرة ، أو التماس دنيا ، أو الحث على خير ، أو الردع عن  
شر ، أو الاستجازه لكلام حسن.

كما يرى أن الوضع قد يجيء من قلة تثبت الراوي ، وأنه قد يقع في وضع الحديث  
من لا يقصد الكذب ، وإنما تضيع كتبه ، أو تحترق ، فيرجع إلى حفظه ، فيخونه ،  
ويحدث عن غلط في الرواية كعبدالله بن لهيعة؛ فقد تلفت كتبه بمصر ، ورجع إلى  
حفظه ، فتخبط في خلط ، وحدث بالناكير<sup>(٣)</sup>.

وقد أورد على ذلك أمثلة توضح المراد ، والمقام لا يتسع للتفصيل .

كما بين ﷺ أن علماء الحديث بذلوا عنايتهم في نقد الأحاديث ، وتمييز صحيحها  
من ضعيفها من موضوعها؛ ففتحوا باب الجرح في الرواية على مصراعيه ، ولم يخشوا  
أن يكون ذلك من باب الغيبة أو الطعن في الأعراض<sup>(٤)</sup>.

ثم انتقل ﷺ إلى مسألة من أطف المسائل في باب الوضع ، ألا وهي معرفة  
الحديث الموضوع ، فأشار إلى « أن العلماء لم يقفوا عند نقد الحديث من حيث  
سنده ، بل تعدوا إلى النظر في متنه ، فقصوا على كثير من الأحاديث بالوضع وإن

١ - انظر المعني عن الحفظ والكتاب ص ٦ .

٢ - انظر الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٤٩-١٥٠ .

٣ - انظر المعني عن الحفظ والكتاب ص ٦-١٠ .

٤ - انظر المعني عن الحفظ والكتاب ص ١٢-١٣ ، والشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٥٠-١٥١ .

كان سنده سالماً إذا وجدوا في متونها عللاً تقضي بعدم قبولها»<sup>(١)</sup>.

وذكر من هذه العلل: مخالفة الحديث لصريح القرآن، ومناقضته للسنة الصريحة المسلمة، ومخالفته للمحسوس، واشتماله على بعض المجازفات التي يرتفع عنها كلام النبوة، وسماجة الحديث، وكونه مما يُسخر منه، وتضمنه خبراً يشهد التاريخ الصحيح بطلانه، وتضمنه أمراً شأنه أن تتوفر الدواعي إلى نقله، ويصرح الحديث نفسه بأنها وقعت في مشهد عظيم من الصحابة، ثم لا يشتهر، ولا يرويه إلا واحد. ومنها مجيء الحديث على خلاف مقتضى الحكمة المتفق عليها من ذوي العقول السليمة، وادعاء أحد رواته أنه أدرك من العمر فوق ما جرت به سنة الله في الخليقة حتى لقي من تقدمه من بعيد، وتلقى عنه.

ويضرب لتلك العلامات أمثلة يطول ذكرها.

كما أشار رحمه الله إلى ما يلحق بهذا القبيل من الاستناد في العمل بالحديث الذي لم يثبت علماً ورواية إلى الرؤيا التي يفهم منها جواز العمل، أو الاستناد في ذلك إلى طريق الكشف عند المتصوفة.

وكذلك أحاديث لبس الخرق على الصورة المتعارف عليها بين الصوفية، إلى غير ذلك مما ذكر، وضرب الأمثلة عليه<sup>(٢)</sup>.

وواضح تأثيره رحمه الله بما كتبه العلماء والأوائل في ذلك، وخاصة ما كتبه ابن القيم رحمه الله في كتابه (المنار المنيف في الصحيح والضعيف)<sup>(٣)</sup>.

فهذا شيء من جهده، وعنايته في مسألة وضع الحديث.

خامساً: احتفاؤه بكتب السنة: فذلك مما يدل على اهتمام الشيخ الغضنفر

١ - المغني عن الحفظ والكتاب ص ١٣ .

٢ - انظر المغني عن الحفظ والكتاب ص ١٣-١٦ .

٣ - انظر المنار المنيف في الصحيح والضعيف للإمام ابن القيم الجوزية، حققه العلامة عبدالرحمن المعلمي،

أعده وأخرجه منصور بن عبدالعزيز السماري، دار العاصمة، ط ٢، ١٤٢٩هـ - ١٩٩٨م .

بالمصدر الثاني من مصادر التشريع - السنة النبوية..

فقد كان رحمه الله مهتماً بكتب السنة، كثير الرجوع إليها خصوصاً موطأ الإمام مالك، والكتب الستة، وغيرها.

وكان له عناية خاصة بالصحيحين؛ فهو يقدمهما على غيرهما، ويرى أنهما أصح الكتب بعد كتاب الله - عز وجل..

يقول رحمه الله في معرض حديث له عن الاجتهاد: «والحديث الذي يرويه أحد الأئمة، ويصلي به بما ينبي عن صحته - يسوغ للفقهاء متى عرف مذهب الراوي أن يعتمد على صحته.

ومن هذا القبيل ما يرويه البخاري ومسلم في صحيحهما.

وأما ما يروى في الكتب التي لا تخلو من الضعيف؛ فلا بد من النظر في سند الحديث، والبحث عن سيرة مَنْ يُجهل حاله؛ حتى يكون على بينة من أمره»<sup>(١)</sup>. ويقول في معرض أجوبة له عن (الحديث المتواتر وحكم ما رواه البخاري ومسلم): «ذهب ابن الصلاح إلى أن ما رواه الشيخان: البخاري ومسلم بإسناد متصل، أو رواه أحدهما كذلك - مقطوع بصحته؛ لاتفاق الأمة على تلقيهما بالقبول، والأمة لا تتفق على خطأ.

وأما ما يروى فيهما معلقاً - وهو ما حذف من مبتدأ إسناده واحد فأكثر - فلا يبلغ مرتبة القطع عنده؛ كما استثنى من المقطوع بصحته ما تُكلم فيه من أحاديثهما، وهي مائتان وعشرون حديثاً.

وقد أفرد الحافظ العراقي هذه الأحاديث بكتاب تصدى فيه للجواب عنها، وتعرض الحافظ ابن حجر في مقدمة (فتح البخاري) لما طعن فيه من أحاديث (الجامع

الصحيح) للإمام البخاري، ودفع ما وُجِّه إليها من مأخذ بتفصيل»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال: «ونازع الإمام النووي ابن الصلاح في دعوى أن ما رواه الشيخان - إلا ما استثني - مقطوع بصحته، وقال: إن المحققين والأكثرين يذهبون إلى أن صحة ما رواه مظنونة، إلا أن يكون متواتراً، وأما تلقي الأمة لهما بالقبول فلأن ما رواه يفيد ظناً، والظن كافٍ في تقرير الأحكام العملية، وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ يونس: ٣٦، محمول على ما يرجع إلى أصول الدين؛ لأنه يقصد منها العلم واليقين، أما الأحكام العملية فإنما تتراد للعمل؛ فيكفي فيها الاستناد إلى الظن.

على أن الشارع إذا جعل ظن الحكم علامة على تقديره - كان الحكم عند وجود الظن معلوماً قطعاً، وكان العامل على هذا الحكم ممثلاً للأمر بلا شبهة. ومزية (الصحيحين) على هذا المذهب في أن ما روي فيهما صحيح لا يحتاج إلى النظر والبحث؛ بخلاف ما يروى في غيرهما من كتب الحديث، فإنما يعتمد في الاستدلال بعد النظر في سنده ومعرفة رتبته»<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمته الله: «والحق أن في الأحاديث التي لا تبلغ مبلغ التواتر ما يأخذ حكم التواتر في إفادة العلم، وهو ما يكون رواته من الصدق والضبط في مرتبة يطمئن بها السامع إلى روايتهم اطمئناناً لا يخالجه تردد؛ فالعلم يحصل من كثرة رواية الخبر تارة، ويحصل من تحقق أمانتهم وضبطهم تارة أخرى.

وجمهور ما في البخاري ومسلم من هذا القبيل، وهذا ما يسميه بعض الحفاظ: متواتراً خاصاً؛ نظراً إلى أن أهل الحديث قد يحصل لهم العلم برواية رجلين عرفا

١ - المرجع السابق ص ١٥٤ .

٢ - المرجع السابق ص ١٥٤-١٥٥ .

بالاستقامة والضبط ما يحصل لغيرهم من رواية جمع كثير يستحيل تواطؤهم على الكذب»<sup>(١)</sup>.

ثم ختم كلامه بقوله: «ونلخص القول: أن ما رواه الشيخان متصل الإسناد من طريقين فأكثر، وتلقاه نقاد الحديث بالقبول - يفيد العلم بصحة نسبه إلى النبي ﷺ كخبر الآحاد الذي تحتف به قرائن الصدق؛ فلا تبقي لمتلقيه شيئاً من التردد في صحته»<sup>(٢)</sup>.

وفي محاضرة له بعنوان (صحيح البخاري وأثره في حفظ الشريعة) تكلم على حفظ الله للذكر في قوله - عز وجل -: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ سورة الحجر: ٩ .

وأشار إلى أن الحكمة في حفظه إنما هي حفظ أصول الشريعة التي أراد الله أن تكون الشريعة العامة الخالدة، وأن مقتضى هذه الحكمة أن يحفظ الله القرآن، ويحفظ السنة التي تبين معاني بعض آياته، أو تقرر أحكاماً وأصولاً متممة للشريعة التي جاء لإقامتها. ثم أفاض القول في عناية الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث من بعدهم بحفظ السنة رواية وكتابة.

ثم تكلم على الإمام البخاري، وتأليفه كتاب (الجامع الصحيح) وكيف تيسر له ذلك، وعن سبب تأليفه، وحسن أسلوبه فيه، ووجه تكراره للأحاديث، وعلى جمعه بين الرواية والتفقه في الحديث، وعلى استحسان شيوخه له عند عرضه عليهم، وعلى تضافر العلماء على صحته، وترجيحه على غيره من كتب الحديث، وعلى إقبال الناس على روايته، ودراسته، والشرح له، والتعليق عليه. ثم ختم الكلام في هذا السياق على أثر البخاري في تثبيت دعائم الإسلام، وحمائتها من أن تعبت بها أصابع الجاحدين.

١ - المرجع السابق ص ١٥٥ .

٢ - المرجع السابق ص ١٥٥-١٥٦ .

وذكر عدة وجوه تؤيد ما ذهب إليه في ذلك.

ومن هذه الوجوه التي ذكرها أن الأحاديث الضعيفة لا يُعتمد عليها في الأحكام العملية، وتلقي الأمة للجامع الصحيح بالقبول والتسليم يجعل أحاديثه كلها صالحة لأن يحتاج بها في تقرير الأحكام العملية.

ومنها: أن بقية الكتب الستة التي أصبحت مدار علوم الحديث كصحيح مسلم، وسنن الترمذي - إنما ظهرت بعد الجامع الصحيح، وكان له أثر في توجيه مؤلفيها، وإجادة سندهم في تأليفها.

ومنها: أن بعض المجتهدين قد يسبق إلى استنباط حكم، ويتخذه مذهباً؛ فإذا اطلع على حديث في الجامع الصحيح ينافي ذلك الحكم بينوا أن ذلك الاستنباط غير صائب، وتحولوا إلى الاقتداء بالحديث الصحيح.

ومن هذه الوجوه: أن العلماء بناءً على شهرة الجامع الصحيح، وسُموم مكانته في الصحة - وجهوا أنظارهم إلى البحث عن مرامي أحاديثه، والكشف عن أسرارها، وإيضاح ما أشكل منها؛ فجمعوا حول أحاديثه وما يتصل بها من الآثار علماً غزيراً.

ومن هنا كانت شروحه من أقرب المراجع إلى أيدي الباحثين عن أحكام الشريعة وآدابها، وأفسحها مجالاً لمسائل الخلاف التي منشؤها التفقه في الحديث<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال ﷺ مبنياً وجهاً مهماً من الوجوه الدالة على أثر الجامع الصحيح في تثبيت دعائم الإسلام: «ومن هذه الوجوه: أن نفرأ من زائغي العقيدة يحاولون اليوم وقبل اليوم أن يطرحوا السنّة النبوية من أصول الشريعة؛ بزعم أن الأحاديث غير ثابتة الرواية عن النبي ﷺ».

ووجود الجامع الصحيح - وهو كتاب عرفه المسلمون بصحة السند، وأجمعوا على تلقيه بالقبول - يدفع هذا الزعم، ويكشف عن جهل صاحبه، أو سوء طويته<sup>(٢)</sup>.

١ - انظر المرجع السابق ص ١١٩-١٢٠.

٢ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٢٠.

ثم ختم محاضراته بلطفية تميز بها الجامع الصحيح، فقال: «وأذكر عقب هذا أن الجامع الصحيح ساعد على حفظ اللغة العربية لإقامة قواعدها مساعدته على حفظ الشريعة، وتأييد دعائمها؛ فإن ما في كتاب البخاري من أحاديث النبي ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين يصح أن يُستشهد به في اللغة على ما بسطناه في رسالة قدمناها للمجمع ونشرت في مجلته»<sup>(١)</sup>.

ويعني بتلك الرسالة بحثه الذي عنون له بـ: (الاستدلال بالحديث في اللغة) وقد مر الحديث عنه عند العرض لكتبه في الفصل الثاني من الباب الأول، وسيأتي الحديث عنه في فقرة آتية من هذا المطلب.

ومن مظاهر عنايته واحترافه بكتب السنة أنه في أوائل قدومه إلى دمشق في مرحلته السورية شرع في تدريس عدد من الكتب، ومن بينها كتاب (صحيح مسلم) كما أشار إلى ذلك تلميذه العلامة محمد بهجة البيطار رحمته الله<sup>(٢)</sup>.

وكذلك شرحه لعدد من الأحاديث النبوية شرحاً رائعاً رائقاً جرى فيه مجرى شراح الحديث، وأضفى عليها شيئاً من جمال عبارته، وحسن تحريره.

ومن أمثلة ذلك شرحه لحديث «لا عدوى ولا طيرة»<sup>(٣)</sup> وحديث سحر النبي ﷺ<sup>(٤)</sup> وحديث بعث معاذ إلى اليمن<sup>(٥)</sup>.

ومن مظاهر احترافه بكتب السنة عنايته بكتاب (المغني عن الحفظ والكتاب) للإمام الحافظ الموصلي.

١ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٢٠-١٢١ .

٢ - انظر مجلة الهداية الإسلامية الجزء الثاني من المجلد العاشر الصادر في شعبان عام ١٣٥٦ هـ، وهي كلمة ألقاها البيطار عقب محاضرة للشيخ محمد الخضر حسين في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) حالياً في دمشق .

٣ - الحديث أخرجه البخاري (٥٤٣٨) وانظر شرحه في الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٧٣-١٨٠ .

٤ - الحديث أخرجه البخاري (٣٠٩٥) ومسلم (٢١٨٩) وانظر شرحه في الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٨١-١٩٠ .

٥ - الحديث أخرجه البخاري (١٤٢٥) ومسلم (٦٩٣٧) وانظر شرحه في الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٩١-١٩٩ .

وقد مر الحديث عنه في الفصل الثاني من الباب الأول عند عرض مؤلفات الشيخ الخضر، وعند الكلام في هذا الفصل على عنايته في مسألة الوضع في الحديث. ومن مظاهر ذلك تعظيمه لعلماء الحديث الذين رواوا السنة، ودونوها في مصنفاتهم، ويظهر ذلك في كثرة ثنائيه، وذكره لأئمة السنة، والإشادة بما قاموا به من عمل جبار في سبيل نشر السنة، والذب عن حياضها، وأنهم نقدوا الأحاديث، ووضعوا كل حديث في مرتبته، وبيّنوا الرواة، والوضّاعين؛ فما من حديث يعرض للباحث إلا كان في ميسوره أن يرجع إلى كتبهم، فيعرف هل هو صحيح، أو موضوع<sup>(١)</sup>.

ومن الأدلة على تعظيمه لأئمة السنة ترجمته لعدد منهم، ومما كتبه في ذلك: نظرة في حياة الإمام مالك بن أنس<sup>(٢)</sup>، وأبو داود وكتابه السنن<sup>(٣)</sup>، وأبو بكر ابن العربي<sup>(٤)</sup>، وكذلك ما ذكره في كتابه (محاضرات إسلامية) من الإشادة بعلماء الحديث في الأندلس كبقية بن مخلد، ومحمد بن وضاح، وابن عبد البر، وغيرهم<sup>(٥)</sup>. سادساً: عنايته البالغة بألفاظ الحديث النبوي: وهذا من أعظم مظاهر عنايته بمصدر التلقي الثاني - السنة النبوية - إذ قلّ أن تجد من العلماء خصوصاً المعاصرين للشيخ الخضر من يعنى بهذا الأمر عناية الشيخ، وقوة تحريره فيه.

وتتجلى تلك العناية أعظم ما تتجلى في مظهرين:

أحدهما: عنايته بالبلاغة النبوية: فكما عني ﷺ ببلاغة القرآن، وذكر ميزات الإعجاز البياني القرآني - عني - أيضاً - بالإعجاز اللفظي في الحديث النبوي، فقرر أن النبي ﷺ قد سمت ألفاظه إلى الذروة، وأحرز من خصلتي الفصاحة والبلاغة الغاية

١ - انظر الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٥١.

٢ - انظر تراجم الرجال ص ٥٥-٦٩.

٣ - المرجع السابق ص ٨٦-٨٨.

٤ - المرجع السابق ص ١١٥-١٢٣.

٥ - انظر محاضرة علماء الإسلام في الأندلس في كتاب محاضرات إسلامية ص ٦٦-٦٧.

التي ليس وراءها لمخلوق غاية؛ فلا يستطيع بشر أن يجاربه في ذلك. ولكن تلك البلاغة لم تصل إلى حد الإعجاز الذي هو خاص بالقرآن المجيد. وقرر أن الفرق بين بلاغة الحديث وبلاغة القرآن لا يخفى على ذوي الفطر السليمة، لا سيما الذين درّبوا في فنون البلاغة، وقلّبوا أنظارهم في أساليبها المختلفة، وعرفوا كيف يَضَعُونَ كُلَّ كَلَامٍ بليغ في مرتبته.

وهذا التفاوت الواضح بين القرآن والحديث من أصدق الشواهد على أن القرآن الكريم كتاب منزل من السماء، لا أنه من النبي محمد ﷺ كما يزعم من يجحدون بآيات الله<sup>(١)</sup>.

ويوضح ﷺ جوانب من البلاغة النبوية، فيقول: «ومن ينظر فيما روي عنه من الخطب والرسائل والمحاورات والفتاوى، وما يلقيه في أثنائها من الحكم، وما يورده فيها من الأمثال والاستعارات - يرى في ذلك من وجوه البلاغة وحسن البيان ما لم يره، ولن يراه قد تَأْتَى لأحد البلغاء من غيره»<sup>(٢)</sup>.

وقال: «والحق أن فصاحة رسول الله ﷺ وروعة بيانه لا يدركها إلا من تردد بنظره على الحديث الشريف، ودخل في كل باب من أبوابه؛ إذ يرى الكلام الذي يصدر عفواً دون أن يكون للتصنع فيه أثر، ويمر فيما يقرأ على جمل تهتز لروعتها القلوب، ومن لم يسعده الحال أن يطالع كتب الحديث فلينظر في كتب غريب الحديث؛ فإنه يَطَّلِع في أقرب وقت على جانب عظيم من الألفاظ النبوية البالغة منتهى الفصاحة، وحكمة الأسلوب. وفي الناس من تسمو حكمتهم في بعض نواحي الحياة، وتُقَصِّر في بعض، أما رسول الله ﷺ فيلقي الحكمة في النواحي المختلفة من شؤون الحياة الفردية أو الاجتماعية، فتردد في أعلى طبقة من سمو اللفظ وحسن التصوير»<sup>(٣)</sup>.

ثم ينتقل إلى مظاهر أخرى من بلاغته ﷺ فيقول: «وفي الناس من إذا خطب في

١ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١٨٣ .

٢ - المرجع السابق ص ١٧٩ .

٣ - المرجع السابق ص ١٧٩-١٨٠ .

الجمهور رأيته في درجة عالية من حسن البيان، فإن عرض له حديث مع بعض الأفراد، أو حديث في معان قريبة التناول رأيته قد انحط إلى درجة دون الدرجة الأولى. أما حديث رسول الله ﷺ مع الأفراد، أو في المعاني السهلة الفهم - فإنه لا ينزل عن مرتبة بلاغته العليا»<sup>(١)</sup>.

فهذا شيء من عنايته بالبلاغة النبوية.

الثاني: عنايته بمسألة الاستشهاد بالحديث في اللغة: وهي مسألة طال الجدل حولها بحثاً واعتراضاً، قديماً وحديثاً.

والشيخ الخضر - كما هو معلوم - إمام في علوم العربية، وإمام في علوم الشريعة. وقد درس الخلاف حول هذه المسألة، واطلع على ما قرره العلماء فيها، ونظر في آراء كل فريق؛ فكتب بحثاً سماه (الاستشهاد بالحديث في اللغة) وقدمه إلى مجمع اللغة العربية، ونشر في الجزء الثالث من مجلة المجمع الصادرة في شعبان ١٣٥٥ هـ، فكان ذلك من أحسن ما كتب في هذه المسألة.

قال الشيخ رحمه الله في مقدمة بحثه: «يستند علماء العربية في إثبات الألفاظ اللغوية، وتقرير الأصول النحوية إلى القرآن المجيد، وكلام العرب الخُلص، وجرى بينهم الخلاف في الاحتجاج بما يروى من الأحاديث النبوية، وتحقيق مجمع اللغة العربية أن ينظر في هذه المسألة، ويقطع فيها رأياً؛ فإن الكتب المؤلفة في الحديث وغريبه كثيرة، ومنها ما يبلغ مجلدات ضخمة.

ومتى رأينا أن الحق في جانب من يراها حجة كافية في اللغة كان مجال البحث في علوم اللغة أوسع، ووجدنا من المساعدة على إعلاء شأن اللغة ما لا نجد عندنا نقصر الحجة في القرآن الكريم، وما يبلغنا من كلام عربي فصيح.

وهذا ما دعاني إلى أن بحث هذه المسألة، وبذلت جهداً في استقصاء ما كتبه

فيها أهل العلم، ثم استخلصت من بين اختلافهم رأياً<sup>(١)</sup>.

ثم بين في ذلك البحث: المراد من الحديث النبوي، وهل في الحديث ما لا شاهد له في كلام العرب؟ وتطرّق للخلاف في الاحتجاج بالحديث، وذكر المانع للاحتجاج، وبين وجهة نظرهم، ثم انتقل إلى وجهة نظر المجوزين، ومناقشتهم لأدلة المانعين، وأطال الحديث في ذلك<sup>(٢)</sup>.

ثم ختم بحثه بتفصيل وترجيح؛ فبين أن من الأحاديث ما لا ينبغي الاختلاف في الاحتجاج به في اللغة، وهو ستة أنواع، وهي ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته - عليه الصلاة والسلام - وما يروى من الأقوال التي كان يتعبد بها، أو أمر بالتعبد بها، وما يروى شاهداً على أنه كان يخاطب كل قوم بلغتهم، والأحاديث التي وردت من طرق متعددة، واتحدت ألفاظها، والأحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة كمالك، وابن جريج، والشافعي، وما عرف من حال رواة أنهم لا يميزون رواية الحديث بالمعنى كابن سيرين، ورجاء بن حيوة. فهو يرى أن هذه الأنواع مما لا ينبغي الاختلاف فيه في الاحتجاج، وضرب لكل نوع عدداً من الأمثلة<sup>(٣)</sup>.

وبعد ذلك انتقل إلى الأحاديث التي لا ينبغي الاختلاف في عدم الاحتجاج بها، وهي الأحاديث التي لم تدون في الصدر الأول، وإنما تروى في كتب بعض المتأخرين. ولا يُحتج بهذا النوع من الأحاديث، سواء أكان سندها مقطوعاً، أم متصلاً، أما مقطوعة السند؛ فوجه عدم الاحتجاج بها واضح، وأما متصلة السند؛ فليُعد مدوناً عن الطبقة التي يُحتج بأقوالها.

وإذا أضيفت كثرة المولدين في رجال سند الحديث إلى احتمال أن يكون بعضهم

١ - دراسات في العربية وتاريخها ص ١٦٨ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ١٦٩-١٨١ .

٣ - انظر المرجع السابق ص ١٨١-١٨٢ .

قد رواه بالمعنى - أصبح احتمال أن تكون ألفاظ النبي - عليه الصلاة والسلام - أو ألفاظ رواية الذي يحتاج بكلامه قاصراً عن درجة الظن الكافي لإثبات الألفاظ اللغوية، أو وجوه استعمالها<sup>(١)</sup>.

ثم بين الحديث الذي يصح أن تختلف الأنظار في الاستشهاد بألفاظه، وهو الحديث الذي دون في الصدر الأول، ولم يكن من الأنواع الستة المُنَبَّه عليها آنفاً، وهو على نوعين: حديث يرد لفظه على وجه واحد، وحديث اختلفت الرواية في بعض ألفاظه<sup>(٢)</sup>.

ثم فصل القول في ذلك، وأنهى بحثه بملخص قال فيها: «وخلاصة البحث: أننا نرى الاستشهاد بألفاظ ما يروى في كتب الحديث المدونة في الصدر الأول، وإن اختلفت فيها الرواية، ولا نستثنى إلا الألفاظ التي تجيء في رواية شاذة، أو يغمزها بعض المحدثين بالغلط، أو التصحيف غمزاً لا مرد له.

ويشد أزرنا في ترجيح هذا الرأي: أن جمهور اللغويين، وطائفة عظيمة من النحويين يستشهدون بالألفاظ الواردة في الحديث، ولو على بعض رواياته»<sup>(٣)</sup>.

سابعاً: وقوفه في وجوه المؤولين والمحرفين للأحاديث النبوية: كحال من يتعسفون في تأويل الأحاديث النبوية، ويصرفونها عن ظواهرها المرادة شرعاً خصوصاً من يسلكون مسلك التأويل الباطني، ومن نحوا نحوهم<sup>(٤)</sup>؛ فلقد كان للشيخ الخضر مواجهات كثيرة معهم.

ومن ذلك قوله في معرض حديث له عن بناء الشريعة على حفظ المصالح، ودرء المفسد، حين بين أن من أقوال الرسول ﷺ ما يحمله المجتهد على أنه صادر منه

١ - انظر المرجع السابق ص ١٨٢.

٢ - انظر المرجع السابق ص ١٨٢.

٣ - المرجع السابق ص ١٨٢.

٤ - انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ٢، ١٤٠٥هـ، والتأويل د. عمر

بصفة الإمامة؛ لأنه حكم عام لسائر أحكام الشريعة التي يراد منها التبليغ، قال: «هذه من الوجوه التي يدخل فيها الاجتهاد الصحيح عند التفقه في الأدلة السمعية، وهاهنا قد تنزل أقدام بعض الناظرين في عجل، أو يفتضح بعض من يكيّدون للشريعة من طريق التأويل؛ حيث يعمدون إلى بعض النصوص الشرعية، ويذهبون في تفسيرها مذاهباً يخرجون به عن مقاصد الشريعة، أو ينقضون به أصلاً من أصولها.

وجمهور أهل العلم على أن الأحكام المقررة بطريق السمع، وليس للمجتهد أن يتعدها هي ما جاء في كتاب أو سنة أو إجماع، وقول الصحابي فيما لا يقال بالرأي هو من قبيل المرفوع، فهو داخل في السنة.

أما قوله الذي يمكن أن يكون اجتهاداً، فليس بحجة تقطع غيره عن الاجتهاد؛ لأن الصحابي غير معصوم عن الخطأ، ولأن الصحابة كانوا يختلفون فيما بينهم من غير إنكار، وما يقع في (موطأ مالك) من ذكر قول الصحابي في مقام الاحتجاج إنما يأتي به الإمام في معنى التأييد لاجتهاده، أو للترجيح بين الأخبار عند اختلافها.

قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرح حديث: «عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين»<sup>(١)</sup> من (سنن الترمذي): (أمر بالرجوع إلى سنة الخلفاء، وهو يكون على أمرين:

الأول: التقليد لمن عجز عن النظر.

والثاني: الترجيح عند اختلاف الصحابة، فيقدم فيه الخلفاء الأربعة، أو أبو بكر وعمر، وإلى هذه النزعة كان ينزع مالك، ونبه عليه في الموطأ)<sup>(٢)</sup>.

١ - أخرجه أحمد (١٧١٤٢) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٢).

٢ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ٢١.

هذا وقد مرّ شيء من وقوفه في وجه المحرفين للسنّة، وسيأتي مزيد بيان لذلك في الأبواب التالية.

وبهذا ينتهي هذا المبحث الذي دار حول مصادره في تلقي العقيدة، وسيأتي مزيد بيان لمصادره وخصوصاً الإجماع عند الحديث عن مصادره في الرد على المخالفين، وذلك في الفصل الأول من الباب الثالث.

## المبحث الثالث: منهجه في إثبات أهمية العقيدة

## تمهيد: في مفهوم العقيدة

١. تعريف العقيدة في اللغة: كلمة ( عقيدة ) مأخوذة من العقد، وهو الربط، والشد بقوة، ومنه الإحكام، والإبرام، والتماسك، والمراسمة، والتوثق. ويطلق على العهد، وتأكيد اليمين: عقد، ويطلق على البيع: عقد؛ لارتباط البائع والمشتري بهذا العقد اللازم، ومنه عقد طرفي الثوب؛ لتلازمها، ومنه عقد الإزار؛ لأنه يشد بإحكام<sup>(١)</sup>.

٢. تعريف العقيدة في الاصطلاح العام: العقيدة في الاصطلاح العام تطلق على حكم الذهن الجازم، حقاً كان أم باطلاً.

فإن كان الذهن الجازم صحيحاً كانت العقيدة صحيحة كاعتقاد المسلمين بوحدانية الله، وإن كان باطلاً كانت العقيدة باطلة كاعتقاد النصارى بأن الله ثالث ثلاثة. وتطلق -أيضاً- على الإيمان الجازم والحكم القاطع الذي لا يتطرق إليه شك وهي ما يؤمن به الإنسان، ويعقد عليه ضميره، ويتخذ مذهباً وديناً يدين به، بغض النظر عن صحته من عدمها<sup>(٢)</sup>.

٣. العقيدة الإسلامية: هي الإيمان الجازم بالله، وملائكته، وكتبه، ورأسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبكل ما جاء في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة من أصول الدين، وأموره، وأخباره، وما أجمع عليه السلف الصالح،

١ - انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/٨٦-٩٠، ولسان العرب ١/٢٩٦، والقاموس المحيط ص ٣٨٣-٣٨٤.

٢ - انظر مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة د. ناصر العقل، دار الوطن، ١، ص ٩.

والتسليم لله في الحكم، والأمر، والقدر، والشرع، ولرسوله ﷺ بالطاعة والتحكيم والاتباع<sup>(١)</sup>.

٤. موضوعات علم العقيدة: العقيدة - بمفهوم أهل السنة والجماعة - اسم علم على العلم الذي يُدرَسُ ويتناول جوانب التوحيد، والإيمان، والإسلام، وأمر الغيب، والنبوت، والقدر، والأخبار، وأصول الأحكام القطعية، وما أجمع عليه السلف الصالح من أمور العقيدة كالولاء والبراء، والواجب تجاه الصحابة وأمّهات المؤمنين - رضوان الله عليهم أجمعين -.

ويدخل في ذلك: الردُّ على الكفار، والمبتدعة، وأهل الأهواء، وسائر الملل والنحل، والمذاهب الهدامة، والفرق الضالة، والموقف منهم، إلى غير ذلك من مباحث العقيدة<sup>(٢)</sup>.

٥. ألقاب وأسماء علم العقيدة عند أهل السنة والجماعة: لعلم العقيدة عند أهل السنة والجماعة ألقاب وأسماء ترادفه، وتدل عليه، منها:

أ. العقيدة - كما مر - والاعتقاد، والعقائد، فيقال: عقيدة السلف، وعقيدة أهل السنة، وعقيدة أهل الحديث<sup>(٣)</sup>.

ب. التوحيد: وسمي علم العقيدة بالتوحيد من باب تسمية الشيء بأشرف

١ - انظر المرجع السابق ص ٩-١٠.

٢ - انظر المرجع السابق ص ٩-١٠.

٣ - ومن الكتب في ذلك: (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) للالكائي، تحقيق د. أحمد ابن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، و (عقيدة السلف أصحاب الحديث) للصابوني، و (الاعتقاد على مذهب السلف - أهل السنة والجماعة -) لليهقي، السلام العالمية للطبع والنشر والتوزيع، والحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، إملاء الحافظ قوام السنة أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، تحقيق ودراسة د. محمد بن ربيع المدخلي، ومحمد أبو رحيم، ط ١، ١٤١١هـ، دار الراجعية.

مباحثه<sup>(١)</sup>.

ج. السنة: فيطلق على علم العقيدة اسم السنة؛ نظراً لاتباع أصحابها لسنة النبي ﷺ فأصبح ذلك الاسم شعاراً لأهل السنة؛ يقال: السنة والبدعة من باب التضاد<sup>(٢)</sup>.

د. الشريعة: فقد تطلق الشريعة أحياناً ويراد بها العقائد التي يعتقدها أهل السنة<sup>(٣)</sup>.

هـ. الإيمان: فيطلق على علم العقيدة اسم (الإيمان) ويشمل الأمور الاعتقادية<sup>(٤)</sup>، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾<sup>(٥)</sup>.  
المائدة: ٥.

١ - ومن الكتب في ذلك: (كتاب التوحيد من صحيح البخاري) في الجامع الصحيح للبخاري، وكتاب (اعتقاد التوحيد) لأبي عبد الله محمد بن حنبل، وكتاب (التوحيد ومعرفة أسماء الله -عز وجل- على الاتفاق والتفرد) لابن مندة، حققه وعلق عليه د. علي بن محمد الفقيهي، ط ١، ١٤٠٩هـ، مطابع الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وكتاب (التوحيد) لابن خزيمة.

٢ - ومن الكتب في ذلك: (كتاب السنة) للإمام أحمد بن حنبل، و (السنة) للأثرم، و (السنة) لأبي داوود، و (السنة) لابن أبي عاصم، المكتب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٠هـ، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، و (السنة) لعبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق د. محمد بن سعيد القحطاني، رمادي للنشر، المؤتمن للتوزيع، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، و (السنة) لأبي بكر بن محمد الخلال، دراسة وتحقيق د. عطية الزهراني، دار الراجية للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، وشرح السنة للبرهاري، تحقيق د. محمد ابن سعيد القحطاني، دار ابن القيم، ط ١، ١٤٠٨هـ.

٣ - ومن كتب العقيدة التي تحمل هذا المسمى كتاب (الشريعة) للأجري، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ، والإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، لابن بطة العكبري، تحقيق أحمد فريد المزدي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٤ - ومن الكتب التي ألفت في العقيدة، وتحمل هذا الاسم كتاب (الإيمان) لأبي عبيد القاسم بن سلام، وكتاب (الإيمان) للإمام ابن مندة، حققه، وعلق عليه وخرج أحاديثه د. علي بن محمد الفقيهي، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

فالإيمان ههنا: هو التوحيد<sup>(١)</sup>.

و. أصول الدين ، أو أصول الإيمان: فأصول الإيمان هي أركان الإسلام، وأركان الإيمان، وسائر الأمور الاعتقادية<sup>(٢)(٣)</sup>.

فهذه نبذة يسيرة عن مفهوم العقيدة التي عني الشيخ الغضنر بها - كما سيتبين شيء من ذلك في المباحث التالية..

١ - انظر الوجود والنظائر في القرآن الكريم دراسة وموازنة د. سليمان القرعاوي، مكتبة الرشد، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢ - ومن الكتب في ذلك: (الإبانة عن أصول الديانة) لأبي الحسن الأشعري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤١٠هـ، و (أصول الدين) للبيهقي.

٣ - انظر مباحث في عقيدة أهل السنة ص ١٠-١١، ومفهوم أهل السنة والجماعة عند أهل السنة والجماعة د. ناصر العقل، ومقدمات في الاعتقاد د. ناصر القفاري ص ٥-١١.

## مظاهر منهجه في إثبات أهمية العقيدة

لقد كان للشيخ الخضر منهج في إثبات أهمية العقيدة، ويتجلى ذلك المنهج من خلال مظاهر يطول بسطها، ويمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: كثرة ذكره للعقيدة، وعنايته بها: وذلك في مناسبات كثيرة، وسياقات مختلفة؛ حيث كانت العقيدة حاضرة في ذهنه، متجلية في جميع أطوار حياته، ظاهرة في شتى مواقفه.

ولئن كان ﷺ لم يؤلف في العقيدة ابتداءً كأن يضع متناً فيها، أو شرحاً لأحد متونها - فإنه كان كثير الذكر لها في محاضراته، ودروسه، ومقالاته، وتأليفه. بل إنه لا يكاد يبحث في موضوع من الموضوعات، أو شأن من الشؤون إلا ويربطه بالعقيدة، ويذكرها من خلاله.

ولا تبالغ إذا قلت: إن منطلقه الأول في آثاره، وأعماله كان خدمة العقيدة. والمقام لا يتسع لتبعب ذلك<sup>(١)</sup>، وسيأتي شواهد عليه في الفقرات التالية. ثانياً: تنويهه بشأن العقيدة، وتعداده لمزاياها: فهو في مناسبات كثيرة يرى أن عقيدة الإسلام هي أصح العقائد، وأنها عقيدة معصومة، وأنها تلائم الفطرة، وأنها صالحة لكل زمان ومكان، وأنها امتداد لدعوة جميع الأنبياء، وأنها شاملة لجميع البشر، وأن السعادة مقرونة باتباعها، والأخذ بها، وأنها أساس كل صلاح، ورفق، واجتماع، وألفة، وأن الأعمال الصالحة، والمدنية الفاضلة لا تبنى إلا على أساسها، وأنها أعظم ما يرتقي بالعلوم، والعقول، والأفراد، والجماعات، والأمم<sup>(٢)</sup>.

ويقرر ﷺ في هذا السياق أن «الإيمان تحالط بشاشته القلوب، فيخلق من

١ - انظر -على سبيل المثال- موسوعة الأعمال الكاملة ٧/١ و ٢٧٠/١ و ٢٧٨/١ و ٩٦٧/٣ و ٩٦٩ و ٩٧٣ و ١٠٠٤ و ١٠١٧ و ١٠١٨ و ١٠٢٦ و ١٠٢٧ و ١٠٢٩ و ١٠٣٦ و ١١١٠ و ١١٦ و ٢١١٥/٥ و ٢٢٢٠ و ٢٢٣٩ و ٢٢٨٢ و ٢٣٢٤ و ٢٣٣٧ و ٢٣٢٨ و ٢٣٥٢ و ٢٣٥٥ و ٢٤٢٦ و ٤٢٦٥ و ٣٤٥٣ و ٢٤٥٤ و ٢٤٥٦ و ٢٤٥٨ و ٢٤٧٥.

٢ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٨-٩ و ١٥ و ٥٩ و ٦٨ و ٦٩ و ٧١.

الضعف عزماً، ومن الخمول نهوضاً، ومن الجزع صبراً، ومن اليأس أملاً، ومن الجبن شجاعة، ومن الذلة عزاً»<sup>(١)</sup>.

ويرى أن الأمة العربية قبل البعثة المحمدية ظلت «تتخبط في العماية، فخرست الحياة الطيبة، وضلت سبل السعادة حتى بعث الله محمداً ﷺ فجاهد في إخراجها من ظلمات الوثنية إلى عقيدة التوحيد الخالصة؛ فأصبحت أمة راجحة الأحلام، صافية البصائر، شديدة الثقة بالله، حقيقة بأن تتحمل الهداية العامة، والإصلاح الإلهي إلى الشرق والغرب»<sup>(٢)</sup>.

ويبين في موضع آخر شيئاً من مزايا العقيدة الإسلامية على الفرد، فيقول: «إن الدين الإسلامي يقوم العقيدة ويصلحها، ومتى استقامت العقيدة وصلحت - أقامت على المرء رقيباً منه عليه في حركاته، وسكناته، وفي سره، وعلايته، وجعلت قلبه عرشاً لحكومة ساهرة، حاكمها قدير عادل عينه لا تنام، وملكه لا يرام»<sup>(٣)</sup>.

إلى أن يقول: «وهذه العقيدة الصالحة تحفز الهمة إلى النهوض والعمل، وتملأ النفس بالشجاعة والأمل، وتطبع الإنسان على الإباء والشمم، وترفع القلب البشري عن الذلة والعبودية لغير من له السلطان وحده، وتأنى بالعقل الإنساني عن الخضوع للخرافات والأوهام، والتحاكم لغير الدليل والبرهان»<sup>(٤)</sup>.

ويقول مقررأً أثر هذه العقيدة على الناس عموماً: «وهذه العقيدة الصالحة تفتح أمام الناس مستقبلاً أوسع من هذا المستقبل الضيق الذي يتطاحنون من حوله، وتجعل ميدان المجد متسعاً للجميع بما ترسم بين يدي صاحبها من حياة أسعد، وأبقى، وألذ، وأمتع من هذه الحياة»<sup>(٥)</sup>.

١ - المرجع السابق ص ٧٨ .

٢ - المرجع السابق ص ١٥٢ .

٣ - الدعوة إلى الإصلاح ص ١٨٣ .

٤ - المرجع السابق ص ١٨٣ .

٥ - المرجع السابق ص ١٨٣ .

وقال في معرض حديث له عن أصول الإصلاح الاجتماعي: «وأما الإيمان فهذا هو النور الذي يسعى بين أيدي الجماعة يرد بها كلَّ ورِدٍ عذب، ويرتاد بها كل مرعى خصيب.

وهو الوسيلة التي يبتغون بها رضَى الخالق -جل شأنه-..  
 وإذا ظفروا برضا الخالق وفقهم لكل عمل مجيد، وجعلهم إذ يجارون غير المؤمنين هم السابقين، وإذ يناضلون غير المؤمنين هم الفائزين»<sup>(١)</sup>.  
 ويرى أن «الشاب المسلم هو الذي يؤمن بالله من الشرك، أو ما يشبه الشرك، فيعتقد من صميم قلبه أن الله وحده المتصرف في الكون؛ فلا نافع ولا ضار إلا هو. وبهذه العقيدة السليمة يحمي نفسه من أن تلبسها مزاعمٌ مزرية، ويصغر في عينه كلُّ جبار، ويهون عليه احتمالُ المصائب، واقتحامُ الأخطار في سبيل الجهاد في الإصلاح والدعوة إلى الحق»<sup>(٢)</sup>.

وقال في موضع آخر: «لا سعادة للأمة إلا بالوَحْدَةِ، ولا وَحْدَةٌ للأمة إلا أن تكون سليمة العقيدة، سَنِيَّةَ الأخلاق والآداب»<sup>(٣)</sup>.  
 ثالثاً: أنه يرى أن أمر العقيدة أعظم وأولى ما يُدعى إليه: وأن الدعوة إليها أشقُّ ما يكون.

يقول ﷺ في معرض حديث له عن الدعوة إلى الله بعد أن بيّن حال ما تتعلق به الدعوة، أو ما يُقصد من الدعوة: «وأما حال ما تتعلق به الدعوة فإن الإرشاد إلى أحكام الدين العملية -مثلاً- أيسر من إصلاح العقائد وَوَضْعِ الإيمان مَوْضِعَ الجحود بالله؛ فداعي المطمئنين بالإيمان إلى مثل الأحكام العملية إنما يتلو قرآناً أو حديثاً، أو نصوصَ مَنْ يُقتدى باجتهادهم.

والداعي إلى الإيمان يَقْصِدُ إلى نقل النفوس من ملة إلى ملة.

١ - المرجع السابق ص ٧٣ .

٢ - المرجع السابق ص ١١٧-١١٨ .

٣ - رسائل الإصلاح ص ٢٤ .

وتحويلُ النفوس من عقيدة إلى أخرى يبلغ من الصعوبة أن يحتاج دعائه إلى من يشد أزهرهم في إبلاغ الحجة ، أو مطاردة الشبهة»<sup>(١)</sup> .

ويواصل حديثه في ذلك فيقول : « وكذلك سأل موسى -عليه السلام- ربه أن يجعل أخاه هارون شريكاً له في الرسالة ، فقال : ﴿ وَأَجْعَل لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٢﴾ أَشَدُّ بِهِ أَرْزَى ﴿٣٣﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿ طه : ٢٩ - ٣٢ .

وبعث عيسى -عليه السلام- إلى أهل أنطاكية برجلين اثنين؛ ليدعواهم إلى الإيمان ، فقابلوهما بعناد وتكذيب ، فأضاف إليهما ثالثاً يؤيد بعثتهما ، قال -تعالى- : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿ يس : ١٣ - ١٤ ﴾<sup>(٢)</sup> .

ويقول في موضع آخر تحت عنوان (ما يدعى إليه) مبيناً أن الدعوة إلى إصلاح العقائد أولى وأوجب ما يدعى إليه : « فإذا زاغت العقائد كانت أعمالُ صاحبها بمنزلة من يرمي عن قوسٍ معوجَّةٍ ، أو يضرب برمح غير مستقيم .

وإذا كان في الأنابيب حيف وقع الطيش في صدور الصعاد<sup>(٣)</sup>

إذا - يجب على الداعي أن يوجه عنايته إلى نحو المزاعم الباطلة ، وربط قلوب الناس بالاعتقاد الصحيح<sup>(٤)</sup> .

١ - الدعوة إلى الإصلاح ص ١٨ .

٢ - المرجع السابق ص ١٨ .

٣ - هذا البيت للمتنبي ، وكثيراً ما يستشهد به الشيخ في مثل هذا السياق ، والبيت في الديوان هكذا :

وإذا كان في الأنابيب خُلفٌ وقع الطيش في صدور الصعاد

والأنابيب جمع أنبوب ، والصعاد : جمع صعدة وهي القناة المستقيمة ، والطيش الخفة .

والمعنى كما يقول العكبري : أنه جعل الأنابيب مثلاً للأتباع ، والصدور مثلاً للرؤساء ، يعني أنه إذا اختلفت الخدم جرى بين السادة التنازع والتحارب كالرماح إذا اختلفت أنابيبها لم تستقم صدورها . انظر ديوان المتنبي بشرح العكبري ٣٤/٢ .

ويعني الشيخ الخضر من الاستشهاد بالبيت : أن الأصول إذا قامت على عوج سرى ذلك العوج إلى الفروع . وأن الأعمال إذا كانت زائفة دل ذلك على أن الأصول لم تقم على أساس متين صحيح .

٤ - الدعوة إلى الإصلاح ص ٥٥ .

وقال في معرض حديث له عن مقاصد الإسلام في إصلاح العالم: «فكان من مقاصد الإسلام: تقويم العقائد، وتطهير العقول من المزاعم السخيفة»<sup>(١)</sup>.

وقال في خاتمة مقالة له عنوانها (إبادته ﷺ للأصنام): «وختام هذه الكلمة أن الدعوة إلى التوحيد الخالص أساس كل إصلاح؛ فمن واجب دعاة الإصلاح أن يجاهدوا في تقويم العقائد؛ فإن العقائد السليمة مصدر كل خير، والعقائد الزائغة منشأ كل فساد»<sup>(٢)</sup>.

رابعاً: ردُّه المزاعم التي تزري بالعقيدة وتقدم غيرها عليها: قال ﷺ في معرض حديث له عن الإلحاد: «وإذا وجدت في زائغي العقيدة من يتحدث عن الأخلاق، ويوهم الناس أن الأخلاق تكفي في استقامة السيرة، والاحتفاظ بالعفاف - فإن ذلك كله رياء ونفاق.

نعم للأخلاق أثر في تقليل الشر، ولكنها لا تأتي بأثر عظيم في انتظام حال الاجتماع إلا حينما تسير تحت مراقبة عقيدة دينية ثابتة»<sup>(٣)</sup>.

وقال في معرض حديث له عن رأيه في التعليم، وموقف الإسلام منه: «وقد يظن البعيدون عن معرفة أثر الدين في نفوس الجيل أن العرض السطحي للأخلاق في كتب المطالعة وأمثالها يغني الناشئة عن تثبيت عقيدتها بالله، وتوثيق معرفتها برسالات الله في مرحلتها التعليمية الابتدائية والثانوية، وعن تحقيق ذلك بتطبيقه عملياً حتى يتمرن الطلاب عليه، وتكون فضائله سجية لا عادة»<sup>(٤)</sup>.

خامساً: تحذيره البالغ من التهاون بشأن العقيدة: قال ﷺ في بحث له عنوانه (محاكاة المسلمين للأجانب) بعد أن ذكر مظهراً من مظاهر تلك المحاكاة، وهو

١ - المرجع السابق ص ١٢٧ .

٢ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١٨ .

٣ - رسائل الإصلاح ص ٢٣-٢٤ .

٤ - أحاديث في رحاب الأزهر ص ٢٠ .

محاكاتهم في شيء لم يكن من شعائر دينهم، ولكنه مما نهى عنه الإسلام على وجه الحرمة، كتقليدهم في اختلاط الرجال بالنساء، ورقص الفتيان مع الفتيات، أو نهى عنه على وجه الكراهة كتقليدهم في تناول الطعام باليد الشمال، أو إطالة بعض الأظفار، قال: «والمحاكاة التي تُوقَعُ في محرم فسوقٍ عن أمر الله، والتي تُوقَعُ في مكروءٍ يخسر بها صاحبها قسطاً من ثواب الله.

هذا إذا كانت المحاكاة عن مجرد هوى؛ فإن كانت عن اعتقاد أن ما يفعله الأجنبي أحكم وأليق - زلزلت أصل الإيمان، والتحقت بمحاكاته فيما هو من شعائر ملته»<sup>(١)</sup>.  
سادساً: غيرته الشديدة على العقيدة: ومن أمثلة ذلك ما جاء في بحث له عنوانه: (الغيرة على الحقائق والمصالح) حيث قرر أن الغيرة على الحق من مقتضيات الإيمان تقوى بقوته، وتضعف بضعفه، وتفقد حيث لا يكون القلب مؤمناً<sup>(٢)</sup>.

وقال بعد ذلك: «وفي الناس من يلهج بكلمة (التسامح) يملأ بها فمه؛ حتى لا تنكر عليه حين تراه قد اتخذ من المضلين أو المفسدين في الأرض أولياء يطيل التردد على أعتابهم، ويغمس لسانه أينما جلس في إطرائهم، ويجهد نفسه في تمويه باطلهم.

والتسامح المعقول: أن لا تؤذي من خالفك في العقيدة، فتنسب إليه زوراً، أو تنفي عنه مكرمة، أو تهضم له حقاً، أو تنكث له عهداً، أو تخلف له وعداً.  
ومن التسامح المقبول: أن تبرّه، وتقسط إليه، وتمد إليه يد التعاون على المصالح المشتركة، وقد حرّمت الشريعة الإسلامية الإساءة إلى المخالفين الذين لم يخرجونا من ديارنا، ولم يطعنوا في ديننا، ولم يوقدوا ناراً لحرّبتنا.

١ - رسائل الإصلاح ص ٢٤٧.

٢ - انظر المرجع السابق ص ١٤٤.

ووردت أحاديث تنهى عن مس الناس بشيء من الأذى ، فحمل الفقهاء النهي فيها على وجه يعم المخالفين المقيمين في ظل الإسلام ، كما قالوا في حديث: « لا يبيع بعضكم على بيع أخيه »<sup>(١)</sup> : إن النهي شامل لبيع المسلم على بيع غير المسلم؛ لما ينشأ عن صرف المشتري عنه من تقاطع وشحناء ، وأذنت في أن نبرهم ، ونقسط إليهم ، قال تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ المتحنة : ٨ .

وقد علمنا رسول الله ﷺ أن نداري من ينتمون إلى الإسلام ، ونعاشرهم بالمعروف ، وإن عرفنا في لحن أقوالهم أو غيره من الدلائل الخفية أنهم من طائفة المنافقين<sup>(٢)</sup> .

إلى أن قال : « أما الرجل يملك قلماً أو لساناً أو حساماً أو جاهاً ، فيصرفه في نقض أساس ما هو دين حق ، أو شريعة صالحة - فذلك ما لا يتولاه إلا غيبي لا يفرق بين الأعمى والبصير ، أو زائع عن سبيل الرشد فما له من نور . وقد أنكر الله على من يتزلف لأشياء الغي ، فقال : ﴿ آيِنُّغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ النساء : ١٣٩ .

وفي الآية شاهد صدق على أن العزة بيد الله يخلعها على من يغار على الحقائق غير مكترث بمن يناوئونها ، وإن كانوا أولي جاه أو سلطان<sup>(٣)</sup> .

ثم ذكر بعض الصور في الغيرة على الحق ، وتفاضلها بتفاضل الحقائق والمصالح ، وقال بعد ذلك : « وكذلك الغيرة على الحقائق تكون على قدر تفاضلها فيما يترتب عليها من العواقب ؛ فالغيرة الصادقة : أن يتألم الرجل من

١ - أخرجه البخاري (٥١٤٠ و ٢١٣٩ و ٢١٦٥) ومسلم (١٤١٢ و ١٤١٣).

٢ - رسائل الإصلاح ص ١٤٤-١٤٥ .

٣ - رسائل الإصلاح ص ١٤٥-١٤٦ .

الجهل على مقام الإلهية، أو الرسالة العظمى أشد مما يتألم للطعن في نفسه، أو في أخ له، أو صديق، ويتألم لهدم مسجد، أو إلغاء مدرسة أشد مما يتألم لهدم بيت، أو إهمال حديقة.

بعيد من الغيرة عن الحقائق ذلك الذي يسمع سوء القول في الله أو في رسوله، فلا يجد في نفسه لسماح هذا السفه أثراً. وإذا مُسَّ جانبٌ من يتصل به نسباً، أو يمد له من متاع هذه الحياة سبباً - هاج غضبه، وارتعدت فرائضه»<sup>(١)</sup>.

ثم استرسل في ذكر نماذج من قوة الغيرة، وضعفها، وذكر أمثلة من سير العلماء في ذلك، ثم ختم بحثه بأن قرر أن الغيرة على الحق والمصلحة «ما غلبت على نفوس الأمة إلا استقامت سيرتها، وعلت في الأمم سمعتها، وحسنت في كلتا الحياتين عاقبتها»<sup>(٢)</sup>.

وقال في موضع آخر في مذكرة رفعها - بصفته رئيساً لجمعية الهداية الإسلامية - إلى الحكومة المصرية في طلب العناية بالتعليم الديني بالمدارس المصرية، قال ﷺ في جملة مطالبه: «ويجب تعديل مناهج التعليم تعديلاً يناسب حال التلاميذ في سنهم وتفكيرهم، وفي نوع دراستهم، ومستقبلهم، ويتناول بالبحث جميع الشبهات التي تُعرضُ لهم، ويُعرض للبدع والخرافات فيُقضى عليها أمامهم، ويُعنى عناية تامة بتهديبهم، وردعهم عن كل ما يحيط بهم من فتنة ولا سيما في سن المراهقة». إلى أن قال: «وتفرض العقوبة الرادعة على كل من أهان الإسلام بكلمة، أو فكرة من الإلحاد، أو الكفر، أو الزندقة»<sup>(٣)</sup>.

سابعاً: اعتزازه بالسلف الصالح: يقول ﷺ في معرض حديث له عن العناية

١ - المرجع السابق ص ١٤٦.

٢ - المرجع السابق ص ١٥١.

٣ - الدعوة إلى الإصلاح ص ١٩٠.

بالتعليم الديني: «ويجب أن يعنى بدراسة التاريخ الإسلامي دراسة حية واسعة، تطبع في نفوس التلميذ طابعاً لا يُمحى من الاعتزاز بدينه، والاعتداد بأسلافه، والإجلال لأبطال أمته، والطموح إلى ترسُّم آثار السلف الصالح من التوثُّب والنهوض، والتشبه بهم في كافة مناحي الحياة الحقة»<sup>(١)</sup>.

ويقول في موضع آخر: «إن هذه الأمة مسلمة، والأمة المسلمة لا ترضى إلا أن يكون أبنائها مطمئنين بحجج الدين الحنيف، سائرين في ضوء حكمته الغراء، مسترشدين بسير عظماء السلف، وينشدون فيها مثلهم العليا»<sup>(٢)</sup>.

ثامناً: تعظيمه لأئمة السلف الذين نهضوا بالعقيدة: فلقد كان ﷺ كثير الذكر والثناء على أئمة السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان. وكان غالباً ما يستشهد ويتمثل بمواقف أئمة السلف ممن كان لهم قدم صدق في حفظ العقيدة، والدفاع عنها، والتضحية في سبيلها.

يقول ﷺ في معرض حديث له عن المعتزلة: «وكان كثير من العلماء الذين عرفوا أصول الدين حق السيقين، وأحكموا صناعة الاجتهاد في الأحكام - لا يُعَنون بمناظرة أولي الآراء المبتدعة، بل لم يأذنوا في رد شبه المبطلين بالطرق التي لم ترد منها، قيل لمالك: الرجل له علم بالسنة، أيجادل عنها؟ قال: لا، ولكن ليخبر بالسنة، فإن قبل منه وإلا سكت.

وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول إذا جاء أحد من الأهواء: أما أنا فعلى بينة من ربي، وأما أنت فشاك، فاذهب إلى شاكٍ مثلك فخاصمه.

وجاءه رجل من أهل المغرب، فقال: إن الأهواء كثرت ببلادنا، فجعلت على نفسي إن أنا رأيتك أن آخذ بما تأمرني به، فوصف له مالك شرائع الإسلام، ثم قال: خذ بهذا، ولا تخاصم أحداً»<sup>(٣)</sup>.

١ - المرجع السابق ص ١٩١.

٢ - أحاديث في رحاب الأزهر ص ٢١.

٣ - محاضرات إسلامية ص ١٧٨-١٧٩.

ويقول ﷺ في معرض حديث له عن الشجاعة: «والشجاعة الأدبية تقف بالرجل في حدود ما يعلم، فيصدر فتواه في صراحة، لا يقول غير ما يعلم، ولا يرتكب طريق المواربة إرضاء لذي وجاهة أو سلطان.

يحدثنا التاريخ أن المأمون فتن الناس بمسألة: (خلق القرآن)، وأن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ كان المثال الكامل للشجاعة الأدبية؛ فلم يجبن كما جبن غيره أمام السلطان، ولم يسلك كما سلك غيره طريق الإبهام في الجواب، بل قال: إن القرآن كلام الله قديم، واحتمل في سبيل ذلك السجن والضرب بالسياط»<sup>(١)</sup>.

وله كلام كثير نحو هذا عن مواقف كثير من أئمة السلف كسعيد ابن المسيب<sup>(٢)</sup>، ويحيى بن أكثم<sup>(٣)</sup>.

وله مقالات في هذا الشأن كما في مقالته (العلماء والإصلاح)<sup>(٤)</sup> و (العلماء وأولوا الأمر)<sup>(٥)</sup>.

هذا وقد سبق الكلام على ثنائه، وتعظيمه للإمام مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وعلى من جاء بعدهم كابن العربي، وابن تيمية، وتلميذه ابن القيم. وكان يهدف من وراء ذلك إلى ربط الجيل الحاضر بأولئك السراة؛ فيقبسوا من آثارهم، ويسيروا على نولهم.

تاسعاً: اعتزازه بالعقيدة الإسلامية: وهذا المظهر يأخذ نواحي شتى؛ ومن ذلك اعتداده بالتاريخ الهجري؛ حيث كان ﷺ يؤرخ به، وَيَنعَى على من يدعه إلى التاريخ الميلادي.

١ - رسائل الإصلاح ص ١٩١.

٢ - انظر مقالته (مثل أعلى لشجاعة العلماء واستهانتهم بالموت) الدعوة إلى الإصلاح ص ١٦٤-١٦٧.

٣ - انظر مقالته (شجاعة العلماء وإنصاف الأمراء) الدعوة إلى الإصلاح ص ١٦٨-١٧١.

٤ - انظر رسائل الإصلاح ص ١١٦-١٢٢.

٥ - انظر الدعوة إلى الإصلاح ص ٩٨-١٠٦.

ويرى أن في الاعتماد على التاريخ الهجري محافظةً على ذكرى مبدأ علو الإسلام وظهوره على الدين كله.

ويثني على صاحبه العلامة أحمد تيمور باشا رحمته الله بأنه يقتصر في مراسلاته على التاريخ الهجري معتمداً هذا الاقتصار حتى في مخاطبة الجمعيات أو الشركات الأجنبية<sup>(١)</sup>.

ويثني في موطن آخر على من يعتز بدينه، فيستجيب لله فيما شرعه من عبادات تقربه إلى الله زلفى كالصلوات الخمس بقلب حاضر، «ويؤديها ولو بمحض طائفة لم تذق حلاوة الإيمان، فتتنظر إلى المستقيمين بتهمك وسخرية»<sup>(٢)</sup>.

وينعى -في الوقت نفسه- على ضعفاء الإيمان الذين «لا يقومون إلى الصلاة في مجالس الملاحدة من المترفين؛ يخافون أن يسخروا بهم، أو تزدريهم أعينهم»<sup>(٣)</sup>.

عاشراً: أنه يرى ضرورة التربية على العقيدة: فهي -في نظره- أعظم ما يربي ملكات الخير، وينجي من الشر والفساد، فتراه يقرر في كثير من المواضع هذا الأمر، ويرى ضرورته على كل من يملك زمام التربية.

كما يرى -في الوقت نفسه- أن التفريط في هذا الشأن هو سبب كل شر وبلية.

يقول رحمته الله في سياق حديث له عن أسباب الإلحاد: «للإلحاد مهثئات، منها:

أن ينشأ الشخص في بيتٍ خالٍ من آداب الإسلام، ومبادئ هدايته، فلا يرى فيمن يقوم على أمر تربيته -من نحو والد أو أم أو أخ- استقامة، ولا يتلقى عنه ما يطبعه على حب الدين، ويجعله على بصيرة من حكمته، فأقلُّ شُبُه تَمَسُّ ذهن هذا الناشئ تنحدر به في هاوية الضلال.

ومن أسباب الإلحاد: أن يتصل الفتى الضعيف النفس بملحد يكون أقوى منه

١ - انظر رسائل الإصلاح ص ٢٤٩-٢٥٠.

٢ - الدعوة إلى الإصلاح ص ١١٨.

٣ - المرجع السابق ص ١١٨.

نفساً، وأبرع لساناً، فيأخذه ببراعته إلى سوء العقيدة، ويفسد عليه أمر دينه. ومن هنا نرى الآباء -الذين يعنون بتربية أبنائهم تربية الناصح الأمين- يحولون بينهم وبين مخالطة فاسدي العقيدة، يخشون أن تسري إليهم العدوى من تلك النفوس الخبيثة، فتخبث عقائدهم وأخلاقهم»<sup>(١)</sup>.

ويرى أن التربية على العقيدة تملأ القلب إجلالاً للواحد الخلاق، وأن من أجلَّ مقام خالقه صغر في عينه كلُّ جبار مخلوق<sup>(٢)</sup>.

كما يرى أن للتربية على العقيدة أثراً في ترقية النفوس، وتهذيب الأخلاق أعظم من كل أثر، وأن «التربية غير الدينية قد تضعف أمام كثير من الأهواء الطاغية، فلا تستطيع كبح جماحها.

أما التربية الدينية فلديها من المتانة ما يطارد هذه الأهواء، وليس الذي يؤمن بأنه سيقف بين يدي علام الغيوب، ويحاسبه على ما يرتكبه من جنایات، ويجازيه عليها جزاء العادل الحكيم - مثل الذي لا يعرف زاجراً عن الجناية سوى أنها موضع لوم من يطلعون عليها، أو عقوبة من تُرْفَعُ إليهم قضيتها»<sup>(٣)</sup>.

ويرى أنه «كما ينبغي أن يجهز الجيش بالدبابات، والمدافع الضخمة، والطائرات النفاثة، والقنابل الذرية - فإن كل هذه المعدات لا تنفعه إذا لم يستمد جنوده وضباطه من أمة تربت على الصدق، وآمنت بالحق، ووطنت نفسها على محبة الخير»<sup>(٤)</sup>.

بل يرى «أن تجهيز الأمة بسجية الصدق، وتربيتها على الإيمان بالحق، وعلى الإيمان بالخير - هو الذي ييسر لها الأسلحة من كل نوع، والأنصار من كل أمة، وهو الذي يملأ بالهيبه والحرمة قلوب الأمم جميعاً»<sup>(٥)</sup>.

١ - رسائل الإصلاح ص ١٧.

٢ - انظر الدعوة إلى الإصلاح ص ٨٨.

٣ - المرجع السابق ص ١١٠.

٤ - المرجع السابق ص ١١٠.

٥ - المرجع السابق ص ١٦٢-١٦٣.

ويرى « أن من الناشئين في بلاد الشرق من نبت نباتاً حسناً، ويتلقى آداب الدين وعقائده على بينة وروية.

ومثل هذا الفريق لا يتزحزح عن عقيدته، ولا يتحول عن مبادئه، وإن تغلغل في أحشاء بلاد أجنبية، وانغمس في عادات أقوامها أمداً طويلاً»<sup>(١)</sup>.

ويرى أن أعظم وسائل إصلاح عيوب التعليم « أن يعنى بمنهج التعليم الديني، فتتسع أبوابه، حتى يشمل كل ما يحتاج إليه التلميذ والتلميذة في العقيدة، والخلق، والعبادة، والحياة العملية، ويجب أن يعنى بتدعيم العقائد الإسلامية في نفوس الناشئة بالأدلة التي تناسب عقولهم، والتي تترقى معهم في مراحل تعليمهم مسابرة لرفيهم.

ومن الواجب - أيضاً - أن يكون في كتاب الديانة باب واسع لعلاج الشبهات التي تطرأ على التلاميذ في دينهم، وباب آخر لبيان البدع والخرافات التي يتوهم أنها من الإسلام، حتى يعلموا أن الإسلام بريء من كل بدعة، عدو لكل خرافة، حرب على كل تضليل»<sup>(٢)</sup>.

ويختتم بحثه: (الغيرة على الحقائق والمصالح) بقوله: «فمن أهم واجباتنا أن نربي نشأنا على الشعور بعظمة الله، ثم لا نفتأ نذكر لهم آيات نبوة محمد ﷺ حتى يطمئنوا إلى صحتها، ولا ندع أن نقرر لهم أصول الشريعة على وجه يجعلهم على بصيرة من حكمتها.

وهذا ما يربي فيهم الغيرة المهدبة، ويعدهم لأن يكونوا للحقائق والمصالح أنصاراً»<sup>(٣)</sup>.

حادي عشر: تحذيره من زيغ العقيدة، وعزوه كثيراً من الانحرافات إليه: فهو يرى أن زيغ العقيدة مصدر الأخلاق المرذولة في كل حين: «وأن الانحراف الناشئ

١ - المرجع السابق ص ١٧٢.

٢ - المرجع السابق ص ٢١١.

٣ - رسائل الإصلاح ص ١٥١.

عن زيغ العقيدة أصعب علاجاً من الانحراف الناشئ عن طغيان الشهوة؛ فإن زائغ العقيدة يستهين ببعض محاسن الآداب بزعم أنها ليست من الحسن في شيء، ويخرج عن حدود المكارم بدعوى أن هذه الحدود رُسمت على غير حكمة.

والمغلوب على الشهوة وحدها قد ينصرف عن الحسنة معترفاً بأنه أقبل على سيئة، وينتهك حرمة الحق غير منازع في أنه ارتكب جريمة.

وإذا احتجت في تهذيب أخلاق الزائغ إلى إصلاح عقيدته بالحجة فإنه يكفيك في تقويم أخلاق المنحط في أهوائه شيء من الموعظة.

وتأثير الموعظة في زجر مَنْ يعرف الحق حقاً والباطل باطلاً أيسر من تأثير الحجة فيمن يبصر الباطل حقاً، أو الحق باطلاً»<sup>(١)</sup>.

ويرى ﷺ أنه: «قد يندى جبين المغلوب لأهوائه إذا أثبتته، ويعرف لك فضل النصيحة إذا ذكرته.

أما زائغ العقيدة فإنه يحمل بين حاجبيه وناصيته ما هو أشد قسوة من الحجارة، ويرى إرشادك له لغواً في القول، فلا يعيرك فؤاداً صاغياً إلا أن تبقى فيه للإنصاف وحرية النظر بقية»<sup>(٢)</sup>.

ويواصل ﷺ حديثه عن خطورة انحراف الزائغين فيقول: «ولا مرية في أن انحراف الزائغين أظهر فساداً، وأشد فتنة من انحراف الشاعرين بقبح ما يفعلون؛ فإن الزائغ يندفع فيما لا يليق إلا أن يهرب قانوناً حازماً؛ ولا يبالي أن يبصر به من لا يملك للقانون نفاذاً.

أما الشاعر بقبح ما سيفعل فشأنه أن يجتهد في التستر عن أعين الناس - حتى في حال أمنه - من أن يناله القانون بأذى، فإذا قست الجاحد بأمثاله في التعلم أو الأمية - وجدت لخروجه عن مكارم الأخلاق مواطن أكثر، ومشاهد أظهر؛ فتكون جنائته

١ - الدعوة إلى الإصلاح ص ٩٠-٩١.

٢ - المرجع السابق ص ٩١، وانظر أحاديث في رحاب الأزهر ص ٢٠-٢١.

في الناس أكبر وأفزع؛ فلا شبهة في أن إصلاح العقائد أساس لتهديب الأخلاق، وأن الأخلاق الكريمة لا تستقيم إلا على العقيدة السليمة»<sup>(١)</sup>.

ويقول في موضع آخر في معرض حديث له عن (الانحراف في الدين - علله - آثاره - ودواؤه): «دلت التجارب على أن الناشئ الذي يصاب بمرض الرئب أو الجحود لا يمكث أن ينحط في المآثم، وينبذ الأدب الرفيع والعمل الرشيد وراء ظهره.

وإذا رأيناه يتجنب إثماً فبالمقدار الذي يتقي به لومة لائم، أو طائفة قانون، وإذا عمل حسناً فلينال مدحاً وإطراءً، أو ليصل إلى عاجل من المنافع المادية أكبر، وإن ناشئاً يعتقد أنه متى استتر عن أعين الناس لم يبق له فيما يفعل من رقيب، ولا يناله على ما يأتي من جزاء - لا يتحامى في غالب أمره أن يعتدي على نفس أو عرض، أو نسب أو مال الاعتداء الذي يشين وجه المدينة، ويحدث في نظام الجماعة وهناً»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن يقول: «ودلت التجارب على أن زائغ العقيدة، متى ملك جاهاً أو سلطة فتن الأمة في دينها، وانتهك حرمت شريعتها، ولم يُخلص النظر في إصلاح أمرها، ولاقى منه المؤمنون اضطهاداً، والجاحدون وأصحاب الأهواء مناصرة وإقبالاً، فيكون داعياً عملياً إلى الخروج على الدين؛ فتموت الفضيلة والغيرة على الحقوق العامة، وينقطع جبل اتحاد الأمة إرباً»<sup>(٣)</sup>.

وفي معرض حديث له عن (علة إعراض الشباب عن الزواج) يعزو السبب الأول في ذلك إلى زيغ العقيدة، وضعفها.

ويرى أن أكبر جانب من تبعّة ذلك يقع على المتولين لتربية الناشئ؛ حيث لم

١ - الدعوة إلى الإصلاح ص ٩١ .

٢ - رسائل الإصلاح ص ١٨٢-١٨٣ .

٣ - رسائل الإصلاح ص ١٨٣ .

يعملوا لتلقيهم العقائد الصحيحة تلقيناً يجعلها راسخة رسوخ الشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ويرى أن علاج هذه العلة أن نسعى لأن يكون نشؤنا على تربية صحيحة، وأن الدين هو الذي يزكي النفوس؛ فلا ترى القبيح حسناً، ولا الخبيث طيباً<sup>(١)</sup>. فهذه معالم من مظاهر منهجه، وعنايته في إثبات أهمية العقيدة.



الفصل الثاني: منهج الشيخ محمد الخضر في إثبات أصول العقيدة

وفيه تمهيد، وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: منهجه في إثبات الوجدانية لله

المبحث الثاني: منهجه في إثبات الإيمان بالملائكة، والكتب

المبحث الثالث: منهجه في إثبات الإيمان بالرسول، واليوم

الآخر، والقدر



## الفصل الثاني: منهج الشيخ محمد الخضر في إثبات أصول العقيدة

## تمهيد

الشيخ الخضر - كما مر - لم يتقصد الكتابة عن العقيدة في أبحاث مستقلة، وإنما كانت كتابته عنها داخلة في غضون كثير من أبحاثه.

ومنهج الشيخ في إثبات أصول العقيدة يسير على وفق منهج السلف الصالح من جهة تعظيم النصوص الواردة في ذلك، ومن جهة إجراء النصوص على ظواهرها، ورفض التأويل المذموم الذي يصرفها عن ذلك.

ويسير على منهج السلف - كذلك - من جهة إخلاص التوحيد، ونفي الشرك، ومحاربة البدع.

كل ذلك برغم نشأته في بيئة كانت كتبُ الكلام هي المقررة فيها.

ولكن توفيق الله له، وعلمه، وإيثاره للحق، وحرصه على اتباع الدليل، والسير على خطى السلف - كل ذلك كان وراء سلامة منهجه في إثبات أصول العقيدة، ومسائلها؛ حيث سار على نهج السلف في جوانب التوحيد، والإيمان، والإسلام، وأمور الغيب، والنبوات، والقدر، والأخبار، وأصول الأحكام القطعية، وما أجمع عليه السلف الصالح من أمور العقيدة، ومسائل الولاء والبراء، وحقوق الصحب، والآل، ونحو ذلك.

كما كان على منهج السلف في التلقي، والاستدلال - كما مر -.

ولا يعني ذلك عصمته، أو أنه لم يقع في بعض التأويل؛ حيث وقع في شيء من ذلك خصوصاً في بعض الصفات، وذلك بسبب ما بقي عنده من آثار ما تلقاه عن بيئة الأشعرية التي لا يوافقها في كل شيء، وإنما كان الحق رائده<sup>(١)</sup>.

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ١/٨ و٩ و١٧ و٢٠ و٣٢ و٥٢ و١٠٥ و١٣٥ و١٨٦ و٢٥١ و٢٦١ و٢٨٨ و٢٨٤/٢ و٤٨٩ و٥٦٣ و٦٧١ و٨٥٥ و٩٥٨ و٩٨٣ و٨٩٦ و٢٣٨١/٥ و٣١٤٦/٨.

وسياتي ذكر لبعض ما وقع به من ذلك وهو قليل جداً، منغمراً في بحر فضائله. وفيما يلي بيان لبعض ما سار عليه من منهج في إثبات أسس العقيدة، وهي أركان الإيمان الستة الواردة في حديث جبريل -عليه السلام- وذلك عندما سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»<sup>(١)</sup>.

## المبحث الأول: منهجه في إثبات الوجدانية لله

## المطلب الأول: منهجه في إثبات الإيمان بالله

قبل الدخول في بيان منهج الشيخ الخضر في إثبات الوجدانية لله يحسن الوقوف -بإجمال- على مفهوم الإيمان بالله عند السلف، وعند الأشاعرة الذين درس الشيخ كتبهم وعقائدهم؛ ليتضح قربه من السلف، ومدى تأثيره ببيئة الأشعرية الأولى؛ فإلى بيان ذلك:

أولاً: مفهوم الإيمان بالله عند السلف: الإيمان بالله هو الاعتقاد الجازم بوجود ذاته -تعالى- وأنه رب كل شيء، ومليكه، وأنه الخالق وحده، المدبر للكون كله، وأنه هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وأن كل معبود سواه فهو باطل، وعبادته باطلة، وأنه -سبحانه- متصف بصفات الكمال، ونعوت الجلال، منزّه عن كل نقص<sup>(١)</sup>.

ومن خلال ما مضى يتبين أن الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

١. الإيمان بوجود الله: وذلك باعتقاد وجوده وجوداً كاملاً لم يسبق بعدم، ولا ينتهي بفناء.

٢. الإيمان بربوبيته: وذلك باعتقاد انفراده -عز وجل- بأفعاله، وأنه لا شريك له في خلقه، وملكه، وتدييره، وغير ذلك من مقتضيات ربوبيته.

٣. الإيمان بأسمائه وصفاته: وذلك باعتقاد أن له الأسماء الحسنى، والصفات العلى من غير تمثيل، ولا تعطيل، ولا تكييف<sup>(٢)</sup>.

٤. الإيمان بألوهيته: وذلك باعتقاد وجوب إفراده بالعبادة دون من سواه. فهذا هو معنى الإيمان بالله -عز وجل- عند السلف، وهو متضمن -كما مر- لجميع

١ - انظر أعلام السنة المشهورة لاعتقاد الطائفة المنصورة ص ٥، والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد للشيخ د. صالح الفوزان ص ١٦.

٢ - انظر رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين، دار طيبة، ط ٢، ١٤٠٦هـ، ص ١١.

أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية. وهذا هو الذي جاءت به الرسل؛ فأنواع التوحيد الثلاثة متلازمة؛ فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، وهما مستلزمان لتوحيد الألوهية<sup>(١)</sup>. وهذه المعرفة بالله - عز وجل - يمكن أن تقع ضرورة، ويمكن أن تقع بالنظر. وأول واجب على المكلف الشهاداتتان، المتضمنتان لتوحيد الله، وإفراجه بالعبودية. فهذا هو خلاصة معنى الإيمان بالله، وتوحيده عند أهل السلف الصالح. وتفصيل ذلك يطول، وليس هذا موضع بسطه<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: مفهوم الإيمان بالله ومعرفته عند الأشاعرة: الشيخ الخضر رحمته الله عاش - كما مر - في بيئة أشعرية، وتلقى العقيدة على كتبهم.

والأشاعرة يرون أن معرفة الله لا تحصل إلا بالنظر، وهذا قول كثير منهم. وبناء على ذلك اختلفوا في أول واجب على المكلف؛ فبعضهم:

١. قال: إن أول واجب على المكلف هو النظر الصحيح المفضي إلى العلم بحدوث العالم.

٢. وقالت طائفة: أول واجب: القصد إلى النظر الصحيح.

٣. وقالت طائفة: أول واجب: الشك.

٤. وقالت طائفة: أول واجب: المعرفة بالله<sup>(٣)</sup>.

والتوحيد والواحد والأحد عند الأشاعرة: يشمل ثلاثة أمور:

١ - انظر التدمرية لابن تيمية تحقيق الإثبات للأسماء والصفات، وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، لابن تيمية، تحقيق د. محمد بن عودة السعوي، ط ١، ١٤٠٥ هـ ص ١٧٧، ومجموع الفتاوى لابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن ابن قاسم وابنه محمد ١٠/٢٦٤-٢٦٥.

٢ - انظر درة تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط ١، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ٧/٣٥٤ و ٨/٢٤ و ٩/٣ و ١٨-٢٤.

٣ - انظر الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني تحقيق محمد يوسف موسى، وعلي عبدالحميد، مكتبة الخانجي مصر، ومكتبة المثنى بغداد، ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م، ص ٥٩ و ٦٢ و ٩٥، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠/٢٠، ودرء تعارض العقل والنقل ٧/٣٥٢، والاستقامة لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، توزيع مكتبة السنة، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٩ هـ، ١٢/١٤٢.

١. أن الله واحد في ذاته لا قسيم له.

٢. وأنه واحد في صفاته لا شبيه له.

٣. وأنه واحد في أفعاله لا شريك له.

وأشهرها عندهم وأقواها دلالة على التوحيد: النوع الثالث، وبه يفسرون معنى (لا إله إلا الله) والألوهية: أنها هي القدرة على الاختراع والخلق؛ فمعنى (لا إله إلا الله) عندهم: لا خالق إلا الله<sup>(١)</sup>.

ولاريب أن ذلك غلط، ومنشأ ذلك الغلط عندهم أنهم فهموا أن معنى الإله في قول (لا إله إلا الله): هو القادر على الاختراع، وأن إله: بمعنى آله: أي هو فعال بمعنى فاعل، وهذا فهم خاطئ قال به الأشعري، وجعله أخص وصف الإله، وقد تبعه على ذلك الأشاعرة<sup>(٢)</sup>.

وهذا غلط، والصحيح أن إله بمعنى مألوه، أي هو على وزن فعال بمعنى مفعول، كفراش بمعنى مفروش، وغراس بمعنى مغروس.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مقررًا أن الإله بمعنى المألوه المعبود لا بمعنى القادر على الخلق، يقول: «والإله هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة، ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق، فإذا فسر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد - كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية، وهم الذين ينقلونه عن أبي الحسن الأشعري وأتباعه - لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله؛ فإن مشركي

١ - انظر أصول الدين للبغدادي ط ١، ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م، استانبول، طبعة مصورة عنها عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، دار الكتب العلمية بيروت، ص ١٢٣، والملل والنحل للشهرستاني تحقيق محمد سيد كيلاني ط مصطفى البابي الحلبي مصر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، ١/١٠٠، ومجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري لابن فورك تحقيق دانيال جيماريه، ط دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٤٧ و ٥٥.

٢ - انظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة د. عبدالرحمن المحمود، مكتبة الرشد، الرياض، ط ٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ٣/٩٧٣.

العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء ، وكانوا مع هذا مشركين .  
قال -تعالى-: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ «<sup>(١)</sup>.  
إلى أن قال ابن تيمية: « فليس كل من أقر أن الله ربُّ كل شيء وخالقه يكون  
عابداً لله دون سواه ، داعياً له دون ما سواه ، راجياً له ، خائفاً منه دون ما سواه ،  
يوالي فيه ، ويعادي فيه ، ويطيع رسله ، ويأمر بما أمر ، وينهى عما نهى عنه »<sup>(٢)</sup>.  
فهذا - بإجمال شديد - هو قول الأشاعرة في هذه المسألة - مسألة الإيمان بالله  
وتوحيده -<sup>(٣)</sup>.

فهل كان هذا هو منهج الشيخ محمد الخضر حسين في تقريره هذه المسألة؟  
أو أن له منهجاً مغايراً في ذلك؟

والجواب عن ذلك يتضح من خلال الوقوف على منهجه في إثبات الإيمان بالله ،  
وذلك كما سيتبين في الفقرة التالية :

ثالثاً: منهج الشيخ الخضر في إثبات الإيمان بالله :

١- قوله في مسألة معرفة الله ، وكيف تحصل ؟ ومسألة أول واجب على المكلف :  
لم يسر الشيخ في هذه المسألة على طريقة الأشاعرة ، الذين مرَّ قولهم في ذلك ؛ فلم  
يكن يقرر أن المعرفة لا تحصل إلا بالنظر ، أو أن أول واجب على المكلف هو النظر أو  
القصْد إلى النظر ، أو معرفة الله ، أو الشك ، ولم تحفل آثاره بتلك المصطلحات .  
وإنما كان يرى أن مرجع ذلك إلى الدليل الذي ينشرح به الصدر ، وتحصل به  
الطمأنينة ، لا ما يكون بمجرد التقليد ، أو النشأة بين أبوين مسلمين .

يقول ﷺ في معرض تفسيره لقول الله -تعالى-: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ ﴾ النمل: ٦٤ : « ويؤخذ من هذه الآية بطلان التقليد في أمور الدين ، وهو  
قبول قول الغير مجرداً من الدليل ؛ فلا ينبغي للإنسان أن يقرر رأياً في الدين إلا أن يسنده

١ - درء تعارض العقل والنقل ٢٦٦/١ .

٢ - المرجع السابق ٢٢٦/١-٢٢٧ .

٣ - انظر تفصيل ذلك في موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٩٣١/٣-١٠٢٨ .

إلى دليل، كما أنه لا يقبل من غيره قولاً إلا أن يكون مؤيداً بدليل. أما عدم صحة التقليد في أصول الدين -أي: فيما يرجع إلى حقيقة الإيمان- فالأمر فيه جلي واضح»<sup>(١)</sup>.

ثم يزيد ذلك الأمر إيضاحاً، فيقول: «ولا نريد من هذا أنه يجب على كل مكلف التعمق في الطرق المدونة في علم الكلام، بل يُكتفى في إيمان الشخص بأي دليل ينشر به صدره للإسلام، وتحصل له به الطمأنينة؛ كأن يستمد إيمانه بالله من التنبه لحكمة الله في إتقان المخلوقات، أو في رعاية اللطف والرفق بالإنسان، ويستمد إيمانه بصدق الرسول من الاستماع إلى القرآن الكريم، أو من سيرته التي لم يظهر بمثلها أو بما يقرب منها بشرٌ غيرُ رسول.

والقصد أن لا يكون إسلامه مجرد أنه نشأ في بيئة إسلامية، أو ولد من أب وأم مسلمين»<sup>(٢)</sup>.

٢- قوله في مفهوم الإيمان بالله: لقد تطرق الشيخ الخضر كثيراً لمسألة الإيمان بالله، ولا غرو في ذلك؛ فقد عاش في عصر كثرت فيه الانحرافات وتنوعت، ويأتي على رأسها الإلحاد، وإنكار وجود الخالق -جل وعلا-

لذا كان للشيخ في مسألة الإيمان بالله عناية كبيرة، وكان له منهج في إثبات وجود الله، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

وكان يستدل على ذلك بدلائل كثيرة كدلالة الشرع، ودلالة الفطرة، ودلالة العقل، ودلالة الحس، ودلالة الآفاق، ودلالة الأنفس.

وكان يتطرق لمسألة الإيمان بالله بشمول؛ فيرى التلازم بين وجود الله، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

وإذا تطرق لشرح شيء من أسماء الله تعرض لآثارها، ومقتضياتها. وكان يسلك مسلك السلف في ذلك، وقد يستعين ببعض أدلة أهل الكلام التي

١ - أسرار التنزيل ص ٢٠٤ .

٢ - المرجع السابق ص ٢٠٤ .

لا مشاحة فيها، وقد يقع في بعض التأويل لبعض الصفات.  
فهذا هو منهجه في إثبات الإيمان بالله بإجمال<sup>(١)</sup>، وفيما يلي بيان لذلك بشيء من البسط.

أ. أثبت الشيخ أن الإيمان بالله يتضمن التصديق بما اختص الله به من صفات الكمال على وجه الجزم واليقين تصديقاً ملاكاً قوله - تعالى - : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى: ١١ .

وقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأنبياء: ٢٣ .  
وأن المعرفة بالله لا تتم إلا بالتصديق بوحدانيته، وما له من الصفات، وأن إثبات الوحدانية يقتضي نفي الشريك في الإلهية<sup>(٢)</sup>.

ب. يثبت الشيخ ﷺ أن معنى الإله: المعبود، وأن معنى (لا إله إلا الله): لا معبود بحق إلا الله؛ فيثبت العبادة لله وحده، وينفيها عن سواه خلافاً لطريقة أهل الكلام ممن يقولون: إن الإله: هو الخالق، أو القادر على الاختراع، فيفسرونها بتوحيد الربوبية لا الألوهية - كما مر-.

يقول الشيخ الخضر ﷺ في معرض تفسيره لقول الله - عز وجل - : ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة: ١٦٣ .

«والإله: المعبود، ومعناه في الآية: المعبود بحق؛ بدليل الإخبار عنه بأنه واحد، والمعنى: وإلهكم الذي يستحق العبادة، فمن عبد شيئاً دونه، أو عبد شيئاً معه، فعبادته باطلة.

والعبادة الصحيحة ما يتجه بها إلى المعبود بحق، ومن العبادات: الدعاء؛ فالصحيح منه ما يقبل به الإنسان على الإله الواحد موقناً بأن لا نافع ولا ضار سواه»<sup>(٣)</sup>.

١ - انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٨/١-٢٠ و ٢٩ و ٤٢ و ٥٢ و ١٠٥ و ٢٤١ و ٢٨٩-٢٩٣ و ٥٦٣/٢ و ٧٢١

و ١٩٠٢/٤ و ٢٢٢٦/٥ و ٧٥٥٦/١٥ .

٢ - انظر أسرار التنزيل ص ٢٤٧ و ٢٨٨ و ٣١٢ .

٣ - أسرار التنزيل ص ٢٨٨ .

ثم يقول في قوله -تعالى-: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: «أثبتت الجملة السابقة له -تعالى- الوحدانية، وإثبات الوحدانية يقتضي نفي الشريك في الإلبيهة، وجاءت هذه الجملة (لا إله إلا هو) مقررة لما تضمنته الجملة السابقة؛ فنفت عن الله الشريك صراحة، وأثبتت له مع ذلك الإلبيهة»<sup>(١)</sup>.

ويواصل تفسير الآية فيقول في قوله -تعالى-: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: «لما كان ذكر الإلبيهة والفردانية يُحضر في ذهن السامع معنى القهر، وسعة القدرة، وعزة السلطان، وذلك مما يجعل القلب في هيبة وخشية - ناسب أن يورد عقبه ما يدل على أنه -مع العظمة والسلطان- مصدر الإحسان، ومُولي النعم، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. وهذه سنة القرآن في الترويح على القلوب بالتبشير بعد ما يثير الخشية؛ حتى لا تقع من طغيان الرهبة عليها في قنوط»<sup>(٢)</sup>.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى تفسير الآية التي تليها من سورة البقرة، وهي قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيحِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٦٤.

فيثبت من خلالها عدداً من الأدلة على وجود الله -تعالى- ونفي إلهية ما سواه، ويقرر أن هذه الآية اشتملت على آيات يخرج الناظر من التفكير فيها إلى بطلان ما يفعله طوائف من البشر من عبادة لبعض المخلوقات كالكواكب، والنار، والحيوان، والأحجار؛ بزعم أنها آلهة، أو شركاء لله في إلهيته<sup>(٣)</sup>.

ويذكر من جملة تلك الآيات: السموات، وأنها من جملة المصنوعات التي يجد فيها الناظر آيات عظيمة على وجود الله، ووحدانيته.

١ - المرجع السابق ص ٢٨٨-٢٨٩.

٢ - المرجع السابق ص ٢٨٩.

٣ - انظر المرجع السابق ص ٢٨٩.

ويذكر الأرض ، وأنها من الآيات الموصلة إلى معرفة الله ، وأن الله -تعالى- نبه على بعض وجوه الاعتبار بها في آيات أخرى كتفجير أنهارها ، وعمارته بمحذات ذات ثمار تختلف ألوانها ، ويتفاضل أكلها ، وكوضعها بحال يتيسر معه للإنسان أن يتقلب في أرجائها ، ويمشي في مناكبها ، ويتنفع بما يحتاج إليه منها أينما كان<sup>(١)</sup>.

وينتقل بعد ذلك إلى تفسير ﴿أَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ وأن معنى ذلك : «التعاقب ، أي أن كلاً من الليل والنهار يأتي خلفاً للآخر.

والنهارُ للعمل ، وابتغاءِ الرزق ، والليلُ للسكون ، والراحة ، والانفرادِ للعبادة لمن وفقه الله إلى أن يقضي جانباً منه في مناجاة الملك الكريم<sup>(٢)</sup>.

ثم ذكر أوجهاً من معاني اختلاف الليل والنهار ، وما هما عليه من النظام العجيب الذي لا ينخرم ، وأن هذا الاختلاف تدير من إله قادر حكيم ، وأنه إذا كان لهذا الاطراد أسبابٌ عُرِفَتْ بَعْدُ فَإِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْأَسْبَابَ ، وجعل بينها وبين هذا الاختلاف تلازماً إنما هو الإله الواحد القهار.

ثم ذكر الفُلُكَ ، وبين وجه الاستدلال بها على وجود الله ، وأن الذي سخرها ، ويسرها ، ويسر صناعتها للناس لا يكون إلا مقتدرًا حكيمًا<sup>(٣)</sup>.

وانتقل إلى تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾.

وذكر أن «وجه الاستدلال بالدواب على وجوده -تعالى- هو اختلاف أحجامها ، وأشكالها ، وألوانها ، وأصواتها ، ومُدُّ حملها ، وكيفية تناسلها ، ووجوه الانتفاع بها<sup>(٤)</sup>. ثم ينتقل إلى تفسير ﴿تَضْرِيْفُ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. ويختم شرح الآية ، وهو قوله -تعالى-: ﴿لَأَيِّتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بقوله :

١ - انظر المرجع السابق ص ٢٨٩-٢٩٠ .

٢ - المرجع السابق ص ٢٩٠-٢٩١ .

٣ - انظر المرجع السابق ص ٢٩١ .

٤ - المرجع السابق ص ٢٩٢ .

«يعقلون: يتدبرون ويتفكرون فيما هو مُودَع في الكائنات العلوية والسفلية من أسرار ونظم يمر عليها أشباه الأنعام وفي أبصارهم غشاوة، ويُنصِرُ بها أولو الفطر السليمة والأفكار الثاقبة، فيقتنون منها درراً غالية.

ومعرفتنا لأسباب بعض المصنوعات الكونية البديعة لا يقف بنا حد هذه الأسباب، ويقطع النظر عن أن يُعدَّ تلك المصنوعات في جملة الآيات الدالة على الإله الواحد، بل ارتباطها بأسباب يشهد بأنها قائمة على نظام ليس من المعقول أن يَحْدُثَ بنفسه، فنزداد يقيناً بأنها من صنع إله قادر حكيم»<sup>(١)</sup>.

وهكذا يثبت وجود الله، وربوبيته، وألوهيته من خلال تفسيره لهذه الآيات على نحوٍ متآلف، يشهد بعضه لبعض، ويؤيد بعضه بعضاً.

وفي مقالة له عنوانها: (الله موجود) يسوق أدلة عديدة على إثبات وجود الله، ووحدانيته، وربوبيته، وألوهيته، ويسلك في ذلك طرقاً في الاستدلال. ومن ذلك استدلاله على وجود الله -تعالى- بدليل إمكان الأشياء، وحدوثها، وهو دليل يقول به أهل الكلام، ولكنه لا يقدمه على غيره، ولا يجعله هو الدليل الوحيد على إثبات وجود الله<sup>(٢)</sup>.

يقول ﷺ: «والدليل المنبه لوجود واجب الوجود هو إمكان الأشياء وحدوثها، أو بحدوثها؛ كما هو مقرر في علم الكلام.

ونذكر الاستدلال بحدوث الممكنات على وجه الاختصار، فنقول: إن وجود الحوادث بديهي؛ كالحيوان والنبات؛ فهذه الحوادث لم توجد بنفسها قطعاً؛ فلا بد لها من موجد، فإن كان الموجد لها واجب الوجود، فقد تم المراد، وارتفع النزاع، وإن كان الموجد لها حادثاً، فيلزم الدور والتسلسل.

والدور: هو أن يكون الشيء الذي وجد بالحدث هو الذي أوجد الحادث، وهذا

١ - المرجع السابق ص ٢٩٣.

٢ - انظر الكلام حول هذا الدليل في درء تعارض العقل والنقل ٢/٣٨٩-٣٩٠ و٣/٣٠١ و٤٥٣-٤٥٤،

ومجموع الفتاوى ٥/٢١٥-٢١٦ و١٦/٢٧٥.

مستحيل، والتسلسل يقتضي وجود حوادث لا أول لها، وهو مستحيل -أيضاً-»<sup>(١)</sup>. وكذلك استدلاله بالممكن، قال ﷺ بعد أن بين الاستدلال على وجود الله بدليل إمكان الأشياء وحدوثها: «وهذه الطريقة في الاستدلال أبين وأقصر من غيرها، وإن كانت طريقة الاستدلال بالممكن صحيحة وقطعية أيضاً. ولما كانت الأعراض لا توجد إلا بوجود الأجسام، كان الدليل على حدوث الأجسام متضمناً لدليل حدوث الأعراض. والقرآن الكريم أكثر من الاستدلال على وجود الخالق بحدوث الأعراض؛ لأنه أقرب الطرق وأظهرها لإفهام الخلق؛ فإن القرآن نزل ليفهمه كل الناس من الخاصة والعامة»<sup>(٢)</sup>.

ويذكر -كذلك- طريقة أخرى فيقول: «وقد سلك القرآن الكريم في الاستدلال على وجود الخالق طريقين: أولهما: كمال القدرة.

وثانيهما: تمام النعمة واللفظ بالخلق؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ الأنبياء: ٣٠.

فهذه الآية جمعت بين الاستدلال بكمال القدرة، وإتمام النعمة، ومثلها الآيات الدالة على كمال القدرة، والآيات الواردة في إتمام النعمة.

وانظر إلى قول موسى -عليه السلام- فيما قصه القرآن عنه: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ طه: ٥٠.

أي: أعطى كل شيء صورته الخاصة، وشكله المعين المطابقين للحكمة والمصلحة»<sup>(٣)</sup>.

١ - دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٦.

٢ - المرجع السابق ص ٦-٧.

٣ - المرجع السابق ص ٧.

ثم ينقل كلاماً عن الإمام أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد في الاستدلال بحدوث الأعراض على وجود الله<sup>(١)</sup>.

ثم يذكر أن المعجزات التي تجري على أيدي الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هي من فعل الله، وأنها قد زادت الإيمان بالله قبل الإيمان بالرسل<sup>(٢)</sup>.

ثم يختم مقاله بالإشادة بدلالة القرآن، وأنها أعظم الدلالات، فيقول: «وأدلة القرآن قطعية الدلالة، فيها مقنع وكفاية لكل ذي عقل مفكر؛ فانظر إلى قوله -تعالى-: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ الطور: ٣٥. تجد الدليل على وجود الخالق -جل وعز-»<sup>(٣)</sup>.

وفي مواضع أخرى تراه يبين الحكمة من خلق البشر، وأنها عبادة مبدع الكائنات وحده<sup>(٤)</sup>.

وفي مواضع أخرى يستدل بالربوبية على الألوهية، كما في تفسيره قول الله -تعالى- عن إبراهيم -عليه السلام-: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ١٣١. قال في تفسيرها: «ولم يقل أسلمت لك؛ لِيَذْكُرَ اللهُ بما يدل على عظم شأنه، ويشير إلى أن من كان رباً للعالمين لا يليق بأحد من العالمين إلا أن يتلقى أمره بالخضوع وحسن الطاعة»<sup>(٥)</sup>.

وهكذا يسير على هذا المنهج في إثبات الإيمان بالله، وما يتضمنه من إثبات الوجود، والربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وإن كان له كلام في الصفات يزيد على ما ذكر آنفاً، وهو ما سيتبين في المطلب التالي.

- ١ - انظر المرجع السابق ص ٧-٨.
- ٢ - المرجع السابق ص ٨.
- ٣ - المرجع السابق ص ٩.
- ٤ - انظر رسائل الإصلاح ص ٢٥٢.
- ٥ - أسرار التنزيل ص ٢٤٠-٢٤١.

### المطلب الثاني: منهجه في إثبات الأسماء والصفات

هذه المسألة مرت في المطلب الماضي، وأُفردت ههنا لإلقاء مزيد من الضوء عليها؛ ذلك أن مبحث الأسماء والصفات من أوسع المباحث التفصيلية، ومن أهم مسائل العقيدة الكبرى التي كانت مثار جدلٍ بين الطوائف منذ نشأة الفرق الإسلامية.

كما أنها كانت من أقوى ما يميز من يسير على مذهب السلف الصالح ممن رضي بموافقة الطوائف الأخرى.

كما أن مسألة الصفات - بالنسبة للأشاعرة - لها وضع خاص؛ نظراً لتفاوت أقوالهم، واضطرابهم فيها.

فهناك صفات اتفقوا على إثباتها، مثل: الصفات السبع، وهي العلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والحياة.

وهناك صفات اتفقوا على تأويلها مثل: الصفات الاختيارية.

وهناك صفات اختلفوا فيها مثل: الصفات الخبرية، ومثل العلو، والاستواء.

وهذا الاختلاف إما أن يكون بين متقدمي الأشاعرة ومتأخريهم، أو عند الفرد

منهم؛ حيث يميل تارة إلى الإثبات، وتارة إلى التأويل، كما أن بعض الصفات قد تأتي أقوالهم فيها مضطربة<sup>(١)</sup>.

والمقام ههنا ليس مقام الحديث عن الأشاعرة، ولا عن أقوالهم في هذا الباب أو غيره<sup>(٢)</sup>.

وإنما هو بيان لمنهج الشيخ الخضر في ذلك.

ولا ريب أن الشيخ رحمته الله كان يترسم منهج السلف في كل مناحي حياته العلمية

والعملية، وقد مر بيان لشيء من ذلك.

وكانت أنوار الكتاب والسنة تهديه إلى الحق، ولو أدى إلى مخالفة ما أُلّفه.

١ - موقف ابن تيمية من الأشاعرة د. عبدالرحمن المحمود ١٠٢٩/٣.

٢ - انظر المرجع السابق؛ فهو أحسن ما كتب في بابه بتفصيل، وانظر منهج الأشاعرة في العقيدة د. سفر

الحوالي، الدار السلفية، الكويت، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، وهو أحسن ما كتب في بابه بإيجاز.

مع ملاحظة أن ما ألفه في بيئته الأولى لم يكن ذلك الجو الخانق المتعصب الذي يردُّ كلَّ ما خالفه، ولا يسمح باتباع الدليل. وإنما هو جوُّ علميٍّ حرُّ نزيهٍ، ولكنه كان يسير في منهجه العقدي على المذهب الأشعري الذي كان سائداً في تلك البلاد.

ومن هنا يثار تساؤل، مفاده: هل كان الشيخ الخضر يسير على منهج الأشاعرة في باب الأسماء والصفات؟ أو أنه كان على منهج السلف الصالح فيه؟ أو كان يتجاذبه أحد المنهجين تارة، ويتجاذبه الآخر تارة أخرى؟ والحقيقة أن الإجابة عن هذه التساؤلات تحتاج إلى عدلٍ وإنصاف، ومزيد تحرُّرٍ ورويةٍ.

والذي لا مريية فيه أن الشيخ - كما مر - كان ذا نظر مستقل، وكان يتحرى الصواب، ويبحث عن الحق في شتى أبحاثه، وأقواله. ومن ضمن ذلك أقواله في باب الأسماء والصفات؛ حيث أصاب الحق، ووافق السلف في أكثر ذلك، وكان منه بعض الأقوال القليلة التي خالف فيها، وهو متأول، مجتهد.

ويكفي في ذلك أنه لم يكن يصف السلفَ أهلَ الحديث بالأوصاف المزرية بهم، بل كان مُجلاً لهم، معظماً لأقوالهم، وأئمتهم كما مر شيء من ذلك. بخلاف بعض من يصف السلف بالأوصاف المنفرة، ويرميهم بالجهل، ويعزروهم إلى قلة الفقه.

وفيما يلي إجمال لأقواله، وتقريراته في باب الأسماء والصفات، ومن خلالها يتأكد ما مضى ذكره من منهج الشيخ في هذا الباب.

وقبل ذلك يحسن إيراد بعض الملحوظات العامة في ذلك:

١. أن الشيخ رحمته الله لم يفرد حديثاً، أو يكتب بحثاً عن الأسماء والصفات، وإنما كان ذلك يأتي ضمن سياقٍ عامٍّ، أو تفسير آية، أو نحو ذلك.

٢. أن الشيخ إذا تكلم على صفة من صفات الله يذكر أحياناً معناها، وآثارها، ومقتضياتها - كما سيأتي أمثلة على ذلك..

٣. يبدو تأثر الشيخ الخضر بابن تيمية وابن القيم كثيراً، وقد مرت الإشارة إلى ذلك، وسيأتي أمثلة أخرى.

٤. أن الشيخ كان كثيراً ما ينكر تأويل نصوص الشرع على غير تأويلها الصحيح، ويرى أنه «لوفتح الباب من التأويل الجامح لاتخذ ضعفاء الإيمان وسيلة إلى جحود كثير من الحقائق»<sup>(١)</sup>.

فهذه بعض الملاحظات العامة على منهجه في باب الأسماء والصفات. وفيما يلي بيان أقوال الشيخ الخضر، وتقريراته في باب الأسماء والصفات بشيء من البسط:

أولاً: قوله في صفة الكلام: ليس للشيخ كثير بحث في صفة الكلام، وإنما كان له بحث في القرآن؛ حيث قرر من خلاله أنه كلام الله، وأنه صفة من صفاته، وأنه منزل من عند الله، وأنه غير مخلوق.

يقول ﷺ في معرض كلام له عن اليمين في القرآن والحديث: «ومن حلف بالقرآن فقد انعقدت يمينه؛ لأنه حلف بكلام الله؛ فقد نص الفقهاء على أن الحلف بذات الله، أو صفة من صفاته يمين شرعية منعقدة»<sup>(٢)</sup>.

وقال في معرض رده على الدكتور محمد أحمد خلف الله في بحثه (الفن القصصي في القرآن): «أما قصص القرآن فهي من كلام رب العزة، أوحى به إلى الرسول الأكرم؛ ليكون مأخذاً عبرة، أو موضعاً قدوة، ومجلاةً حكمة.

وإيمان الناس أنه صادر من ذلك المقام الأسنى يجعل له في قلوبهم مكانة محفوفة بالإجلال»<sup>(٣)</sup>.

١ - بلاغة القرآن ص ٤٣ .

٢ - المرجع السابق ص ٥٩ .

٣ - المرجع السابق ص ١٢٧ .

وقال في موضع آخر: «والمؤمن الحق يؤمن بأن القرآن منزل من عند الله لا من صنع محمد ﷺ»<sup>(١)</sup>.

ثم تراه في عدة مواضع يشني على موقف الإمام أحمد بن حنبل في فتنه خلق القرآن، وأنه احتمل السجن، والضرب بالسياط لامتناعه بالقول بخلق القرآن<sup>(٢)</sup>. وقال في موضع آخر متحدثاً عن كراهية أهل الحديث الخوض في علم الكلام، والمناظرة في العقائد، ولا سيما مناظرة تقوم على الطرق المحضة قال: «وكذلك الإمام أحمد لم يقعد لمناظرة المعتزلة في مسألة خلق القرآن، وكان لا يزيد على أن يقول: القرآن كلام الله، ويمتنع أن يقول: القرآن مخلوق»<sup>(٣)</sup>.

ويقول في موضع آخر مثنياً على البويطي: «وكذلك البويطي صاحب الشافعي حمل من مصر إلى بغداد أمر أن يقول: القرآن مخلوق، فأبى، وسلك طريق أحمد بن حنبل، فضرب، وسجن، ومات في السجن»<sup>(٤)</sup>.

وهكذا يقرر الشيخ الخضر ما قرره السلف من أن القرآن كلام الله، وأنه منزل غير مخلوق<sup>(٥)</sup>.

وقوله هذا مخالف لما «استقر عليه المذهب الأشعري، وقال به جمهورهم من أن القرآن العربي مخلوق، وليس هو كلام الله، مع اختلاف فيما بينهم في التفاصيل»<sup>(٦)</sup>. ثانياً: قوله في صفة الرحمة: قال ﷺ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ

١ - المرجع السابق ص ١٣٣ .

٢ - انظر رسائل الإصلاح ص ٣٦-٣٧، ودراسات إسلامية ص ١٣٩ .

٣ - محاضرات إسلامية ص ١٨٦ .

٤ - دراسات إسلامية ص ١٣٥ .

٥ - وذلك كما اشتهر عن السلف من أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود.

ومعنى ذلك أن الله هو المتكلم به ابتداءً، وأن صفة الكلام بالقرآن تعود إليه، وأن أحداً لا يوصف بأنه تكلم به غير الله. انظر تفصيل مذهب السلف في صفة كلام الله وفي القرآن: إلى مجموع الفتاوى ١٥٣/٦ و١٦٩ و١٧٧-١٧٨، والتسعينية لابن تيمية ص ٩٤-٩٥ و١٣١-١٣٨، ودرء تعارض العقل والنقل ٢٥٧/٧-٢٧٣، وفتح رب البرية ص ٦٢-٦٣ .

٦ - انظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١٢٩٩/٣ .

أَللَّهُ لِنْتَ لَهُمْ ﴿ آل عمران: ١٥٩ : «والرحمة يوصف بها الإنسان، فتكون بمعنى العطف والحنو، وهذا المعنى الذي هو رقة القلب لا يصح أن تفسر به الرحمة الواردة وصفاً للباري -جل جلاله-.

بل نقول: إن رحمة الله صفة ثابتة له -تعالى- لا نعلم حقيقتها، وإنما نعرف أثرها الذي هو إيصال الخير، كما أننا لا نعلم حقيقة علمه -تعالى- وإنما نعرف أنه صفة تحيط بالأشياء على ما هي عليه»<sup>(١)</sup>.

وقال في قوله -تعالى-: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الفاتحة: ٣: «هما صفتان مشتقتان من الرحمة، والرحمة في أصل اللغة: رقة في القلب تقتضي الإحسان. وهذا المعنى لا يليق أن يكون وصفاً لله -تعالى- ففسرها بعض العلماء بإرادة الإحسان، وفسرها آخرون بالإحسان نفسه، والموافق لمذهب السلف أن يقال: هي صفة قائمة بذاته -تعالى- لا نعرف حقيقتها، وإنما نعرف أثرها الذي هو الإحسان.

وليست الصفتان -أعني: الرحمن الرحيم- بمعنى واحد، بل روعي في كل منهما معنى لم يُراعَ في الآخر؛ فالرحمن بمعنى: عظيم الرحمة؛ لأن فعلاً صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته، ولا يلزم منه الدوام؛ كغضبان، وسكران. والرحيم بمعنى: دائم الرحمة؛ لأن صيغة فعيل تستعمل في الصفات الدائمة؛ ككرم، وظريف، فكانه قيل: العظيم الرحمة الدائمها.

وذهب ابن قيم الجوزية في الفرق بين الصفتين إلى أن الرحمن دالٌّ على الصفة القائمة به -تعالى- والرحيم دالٌّ على تعلقها بالمرحوم؛ فالرحمن دالٌّ على أن الرحمة صفة، والرحيم دالٌّ على أنه يرحم خلقه؛ فيكون الرحمن من صفات الذات، والرحيم من صفات الأفعال»<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: قوله في صفة الغضب: قال ﷺ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الفاتحة: ٧: «والغضب ضد الرضا، وهو في أصل اللغة حركة في النفس

١ - أسرار التنزيل ص ٣٩٠.

٢ - المرجع السابق ص ٨.

تنزع بها إلى طلب الانتقام.

وإذا أسند إلى الله فسروه بمعنى: إرادة الانتقام، أو بمعنى: الانتقام نفسه.

والموافق لمذهب السلف أن يقال: هو صفة له -تعالى- لاثقة بجلاله، لا نعلم حقيقتها، وإنما نعرف أثرها، وهو الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم»<sup>(١)</sup>.

رابعاً: قوله في صفة الاستهزاء: قال ﷺ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ البقرة: ١٥: «ذهب فريق من أهل العلم إلى أن الاستهزاء هو التحقير على وجه شأنه أن يتعجب منه، وهذا المعنى غير مستحيل على الله، فيصبح إسناده إليه -تعالى- على وجه الحقيقة.

ورأى أكثر أهل العلم أن الاستهزاء لا ينفك عن التلبس؛ كأن يُظهِر المستهزئ استحسان الشيء، وهو في الواقع غير حسن، أو يقرُّ المُسْتَهْزَأُ به على أمر، وهو غير صواب.

وهذا المعنى لا يليق بجلال الله؛ فيجب حمل المسند إليه -تعالى- على معنى يليق بجلاله؛ فيحمل على ما يلزم الاستهزاء من الاحتقار والإهانة، أو على ما يترتب عليه من الجزاء، والمعنى: يجازيهم على هزئهم بالعذاب»<sup>(٢)</sup>.

خامساً: قوله في صفة المكر: قال ﷺ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ آل عمران: ٥٤: «والمكر إيصال المكروه إلى الشخص على وجه يخفى؛ فيصح إسناده إلى الله -تعالى- من غير حاجة إلى دعوى المشاكلة، وقد أسند إليه -تعالى- ابتداءً في قوله -تعالى-: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْأَقْوَمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف: ٩٩.

وفي إسناد المكر بهم إلى الله إيدان بأن المكر الواقع بهم أعظم من المكر الذي بيتهو لعيسى -عليه السلام-.

وجاء هذا المعنى مصرحاً به في قوله -تعالى-: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾.

١ - المرجع السابق ص ١١.

٢ - المرجع السابق ص ٣٢-٣٣.

وكان مكر الله خيراً من مكرهم؛ لأنه نافذ لا محالة، ولا يقع إلا حيث يقتضيه العدل»<sup>(١)</sup>.

سادساً: قوله في صفة المحبة: قال ﷺ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران: ١٥٩: «المحبة من الإنسان: ميل الطبع إلى الشيء، وهذا المعنى ممتنع في حق البارئ -جل جلاله- فإذا أضيفت المحبة إليه -تعالى- فهي صفة ثابتة له -تعالى- لا نعرف حقيقتها، وإنما نعرف من آثارها: إيصال الخير إلى المحبوب، وحفظه في الدنيا، وإعلاء منزلته في الدار الباقية»<sup>(٢)</sup>.

سابعاً: قوله في الرؤية: قال ﷺ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ البقرة: ٥٥: «وقد يخطر على البال أن هذه الآية تصلح لأن تكون دليلاً على عدم صحة رؤية الله بالعين الباصرة يوم القيامة؛ فإن الذين طلبوها سلط الله عليهم الصاعقة؛ كما سلط على عبدة العجل القتل».

ويُدفع هذا الخاطر بأن موسى -عليه السلام- قد علم أن رؤية الله ممكنة، فطلبها؛ كما جاء في سورة الأعراف: ﴿قَالَ رَبِّ ارِنِّي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ الأعراف: ١٤٣. وأعلمه الله أن رؤيته في الدنيا بالأبصار لا تقع، وصار هذا أصلاً معروفاً عنده وعند قومه، ولكن بني إسرائيل سألوا الرؤية بالأبصار بعد علمهم بذلك تعنتاً، أو لشك خالجهم؛ فأخذهم الله بالصاعقة وهم ينظرون؛ عقوبة لهم على ما سألوا.

وورد في الكتاب المجيد آيات تدل على أنه -تعالى- يُرى يوم القيامة؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة: ٢٢-٢٣.

١ - المرجع السابق ص ٣٨١-٣٨٢.

٢ - المرجع السابق ص ٣٩٤.

وورد -أيضاً- من الآيات ما يدل بظاهره على نفيها، ولكن الآيات المثبتة تأيدت بأحاديث صحيحة؛ فوجب المصير إليها، وفهم الآيات الأخرى على وجه يوافق الآيات المؤيدة بالأحاديث الصحيحة الصريحة<sup>(١)</sup>.

فهذه جملة من أقواله في بعض الصفات، ويظهر من خلالها أخذُه بأقوال السلف في مثل هذه الأبواب التي زلّت فيها أقوال كثير من أهل الكلام.

---

١ - المرجع السابق ص ١٠٥-١٠٦، وانظر تفاصيل الرؤية، وأدلة ثبوتها، وأقوال العلماء فيها في صحيح البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨١) و (١٨٢) وسنن أبي داود (٤٧٣١) وابن ماجه (١٨٠) والسنن لابن عاصم (٤٥٩ و ٤٦٠) وغيرها.

وانظر -كذلك- الفتوى الحموية الكبرى لشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، دراسة وتحقيق د. حمد ابن عبدالمحسن التويجيري، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط ٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص ٣١٢-٣١٣ و ٥٢٧-٥٢٨.

## المطلب الثالث: إشكالات في بعض التأويلات

هناك أقوال للشيخ الخضر، وتأويلات هي محل إشكال، وقد تكون موافقة لبعض ما يقرره أهل الكلام، ومن ذلك ما يلي:

أولاً: قوله: في معرض حديث له عن المحكم والمتشابه: «والمعروف بين أهل العلم أن السلف يعدون من المتشابه ألقاظاً واردة في الآيات والأحاديث تدل بمقتضى استعمالها العربي على صفات يستحيل إضافتها إليه -تعالى- نحو قوله -تعالى-: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥»<sup>(١)</sup>.

ولا ريب أن هذا الكلام غير صحيح من جهتين:  
الأولى: من جهة نسبه إلى السلف.

والثانية: من جهة أن الاستواء من الأفعال التي يستحيل إضافتها إلى الله. فالسلف لا يعدون الاستواء من المتشابه، بل يعدونه من المحكم الذي يفسرونه، ويعلمون معناه، ولا يرون استحالة إضافته إلى الله؛ فيرون أن معنى استواء الله على عرشه: علوه، واستقراره عليه علواً واستقراراً يليق بجلاله، وعظمته، وأنه من صفاته الفعلية التي دل عليها الكتاب، والسنة، والإجماع<sup>(٢)</sup>.

وقال -أيضاً-: «وأول القولين: أن المحكم: ما اتضحت دلالاته، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه، وهذا مذهب من يؤمنون بالمتشابه، ويفوضون العلم به إلى الله -تعالى- وبهذا سُموا: (مُفَوِّضَةً) وينسب هذا المذهب إلى جمهور السلف. والمفوضة يتفقون على صرف الألفاظ في المتشابه عن معانيها المعروفة عند العرب، وهم بعد هذا فريقان:

فريق لا يتعرضون إلى المعنى المراد، ولو بوجه مجمل.  
وفريق قد يعينون نوع المجاز؛ كأن يحملوا الاستواء في قوله -تعالى-: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥.

والوجه في قوله -تعالى-: ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن: ٢٧.

١ - بلاغة القرآن ص ٥١.

٢ - انظر الفتوى الحموية الكبرى لابن تيمية، ص ٢٠١ و ٢٩١، وفتح البرية بتلخيص الحموية ص ٣٦-٣٧.

على أنه صفة من صفات الله، ولكنهم يفوضون معنى هذه الصفة إلى الله - تعالى - وهذا ما ينسب إلى الأشعري، وأكثر السلف»<sup>(١)</sup>.

ولا ريب أن نسبة التفويض لمعنى صفتي الاستواء والوجه إلى السلف غير صحيحة؛ فالسلف إنما يفوضون حقائق هذه الصفات، أما معانيها فيعلمونها؛ فيفسرون معنى الاستواء - كما مر - ويثبتونه لله - عز وجل - ويثبتون - كذلك - أن الله وجهاً حقيقياً يليق به، موصوفاً بالجلال، والإكرام. أما الذي يفوضونه فهو كيفية الاستواء، وكيفية الوجه.

وعلى هذا فالتأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو تأويل حقيقة الصفات<sup>(٢)</sup>.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض حديث له عن التأويل الذي هو بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام: «تأويل الصفات هو الحقيقة التي انفرد الله بعلمها، وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف كمالك وغيره: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول)<sup>(٣)</sup>.

فلاستواء معلوم يُعَلَّمُ معناه، وتفسيره، وترجم بلغة أخرى.

وأما كيفية ذلك الاستواء فهو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله»<sup>(٤)</sup>.

بل إن خال الشيخ الخضر، وشيخه الشيخ العلامة محمد المكي بن عزوز رحمته الله يقرر في مسألة الاستواء ما يقرره أئمة السلف؛ فقد سئل - أي الشيخ بن عزوز - : هل يقال: الله كائن في كل مكان؟ فأجاب رحمته الله بقوله: «لا يقال؛ لأنه صورة القول بالحلول والاتحاد، وهو كفر؛ فأنه - تعالى - مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، قريب لهم بعلمه، وملائكته.

واستواؤه - تعالى - على عرشه يجب الإيمان به دون تعرض لكيفيته كالسمع،

١ - بلاغة القرآن ص ٤٦-٤٧.

٢ - انظر الفتوى الحموية الكبرى ص ٢٩٠-٢٩١، وفتح رب البرية ص ٥٣-٥٤.

٣ - انظر: الأثر المشهور عن الإمام مالك في صفة الاستواء دراسة تحليلية، د. عبدالرزاق البدر، مجلة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، العدد ١١١، السنة ٣٣، ١٤٢١هـ.

٤ - الفتوى الحموية الكبرى ص ٢٩١، وانظر تفصيل ذلك في درء التعارض ١٩١/٦ و ٢٦٧-٢٠/٢ و ١٣١-١٢٧ و ١١٩-١١٥/٦، ومجموع الفتاوى ٣١٠/٥-٣١٤، والتسعينية ص ١٢٢ و ١٢٧-١٣١.

والبصر، وسائر صفاته - تعالى - الثابتة بلسان الشرع. وهذا ما اتفق عليه الأئمة الأربعة، وغيرهم من أساطين السنة، وهو المعقول، ولا يجوز التفكير في ذات الله - تعالى -»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: قال ﷺ في معرض حديثه عن المحكم والمتشابه: «وليس من شك في أن هناك آيات كثيرة وأحاديث قد يعدّها بعضهم من قبيل المتشابه، وينبغي إخراجها من دائرة الاختلاف؛ حيث إنه يمكن فهمها على وجه صحيح لا كلفة فيه، ونضرب المثل لهذا آيات أو أحاديث تشتمل على ألفاظ عُرفَ في كلام العرب استعمالها في معان على وجه الكناية أو المجاز، وصح حَمَلُها على هذه المعاني المعروفة في الاستعمال؛ كقوله -تعالى-: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ المائدة: ٦٤؛ فإن حمل الآية على معنى الجود واضح لا شبهة فيه»<sup>(٢)</sup>.

فقوله: «فإن حمل الآية على معنى الجود واضح لا شبهة فيه» قول مجمل؛ فإن أراد به أن إطلاق اليمين في هذه الآية على الله يدل على جود الله، وكرمه - فهذا صحيح، وهو تفسير باللازم.

وإن أريد به نفي صفة اليمين عن الله - جل وعلا - فذلك تأويل، وصرف للفظ عن ظاهره، وخلاف لطريقة السلف؛ فهم يثبتون لله - تعالى - يدين اثنتين حقيقتين مبسوطتين بالعطاء والنعمة.

وهما من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به. وقد دل على ثبوتهما الكتاب والسنة، فمن أدلة الكتاب: الآية السابقة، وقوله -تعالى-: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ ص: ٧٥. ومن أدلة السنة: قوله ﷺ: «يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاً الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغيض ما في يمينه»<sup>(٣)</sup>.

١ - رسائل ابن عزوز العلامة محمد المكي بن عزوز، جمع وتحقيق علي الرضا التونسي، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٨٠.

٢ - بلاغة القرآن ص ٥٢.

٣ - أخرجه البخاري (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣).

وقد أجمع أهل السنة على أنهما يدان حقيقتان لا تشبهان أيدي المخلوقين، ولا يصح تحريفهما إلى القوة، أو النعمة، أو نحو ذلك؛ لوجوه منها:

- ١- أنه صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه بلا دليل.
- ٢- وأنه معنى تأباه اللغة في مثل هذا السياق الذي جاءت به مضافة إلى الله -تعالى- فإن الله قال: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ولا يصح أن يكون المعنى لما خلقت بنعمتي، أو قوتي.
- ٣- وأنه ورد إضافة اليد إلى الله بصيغة التثنية، ولم يرد في الكتاب والسنة ولا في موضع واحد إضافة النعمة والقوة إلى الله بصيغة التثنية؛ فكيف يفسر هذا بهذا؟<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: قال في معرض حديث له عن أهل الحديث، وبيان طريقتهم في تلقي العقائد: «طريقة أهل الحديث أن يتلقوا العقائد من الكتاب والسنة مؤيدة بما أورده الشارع، أو نبه له من الأدلة القريبة المأخذ من العقل، ويتمسكون من العقائد بما كان صريحاً، فإن عرضت لهم آية أو حديث يخالف بظاهرها العقائد الصريحة؛ كآليات والأحاديث التي توهم بحسب ما يظهر من لفظها التشبيه في الذات أو الصفات - اكتفوا بمعرفة أن ظاهره غير مراد، وتركوا الخوض في معناه، ولم يتعرضوا لتأويله»<sup>(٢)</sup>.

فقوله ﷺ: «اكتفوا بمعرفة أن ظاهره غير مراد، وتركوا الخوض في معناه، ولم يتعرضوا لتأويله» غير صحيح، وليس هو مذهب السلف، ولكن نقله عنهم بعض المتأخرين<sup>(٣)</sup>.

ووجه الخطأ في ذلك، أن قوله: «ظاهره غير مراد» مجمل، وفيه اشتراك، ويحتاج إلى تفصيل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في الرسالة التدمرية في القاعدة الثالثة من قواعد صفات الله -تعالى-: «إذا قال القائل: ظاهر النصوص مراد، أو ظاهرها ليس بمراد فإنه يقال: لفظ (الظاهر) فيه إجمال واشتراك؛ فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين، أو ما هو من خصائصهم - فلا ريب أن هذا غير مراد.

١ - انظر التدمرية ص ٧٣-٧٦، ومجموع الفتاوى ٦/٣٦٢-٣٧٢، ودرء التعارض ٧/٢٦٧، والفتاوى الحموية الكبرى ص ٤١٤-٤١٦، وفتح رب البرية ص ٥٦-٥٧.

٢ - محاضرات إسلامية ص ١٨٦.

٣ - انظر فتح رب البرية ص ٢٤.

ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهراً، ولا يرتضون أن يكون ظاهراً القرآن والحديث كُفراً وباطلاً.  
والله - سبحانه وتعالى - أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفر وضلال.  
والذين يجعلون ظاهر ذلك يغلطون من وجهين:  
تارة يجعلون المعنى الفاسد ظاهراً للفظ؛ حتى يجعلوه محتاجاً إلى تأويل يخالف الظاهر، ولا يكون كذلك.

وتارة يردون المعنى الحق الذي هو ظاهر اللفظ؛ لاعتقادهم أنه باطل»<sup>(١)</sup>.  
وزيد الشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله الأمر وضوحاً، فيقول في تلخيصه للفتوى الحموية: «قال بعض المتأخرين: (مذهب السلف في نصوص الصفات إمرارها على ما جاءت مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد)».

ثم يعلق الشيخ على هذا فيقول: «وهذا النقل على إطلاقه غير صحيح، وفيه لبس للحق بالباطل على من لا يعرف حقيقة مذهب السلف.

وذلك أن قوله: «ظاهرها غير مراد» مجمل؛ يحتمل أن يراد به ما يظهر من هذه النصوص من المعاني اللائقة بالله - تعالى - من غير تشبيه.  
وهذا مراداً قطعاً»<sup>(٢)</sup>.

ثم بين أن نقل ذلك عن السلف ليس بصحيح، ومن نقله عنهم فهو مخطئ في فهم مذهبهم، وعلل ذلك بقوله: «إذ لا يمكن أن يقول أحد منهم: إن قوله - تعالى -: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ الشورى: ١١ - لا يراد به السمع والبصر الحقيقيان اللائقان بالله من غير تشبيه.

أو أن قوله - تعالى -: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ المائدة: ٦٤ - لا يراد به اليدان الحقيقيتان واللائقتان بالله من غير تشبيه.

أو أن قوله - تعالى -: ﴿ ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ الملك: ١٦ - لا يراد به أن الله بذاته في السماء من غير تشبيه.

١ - التدمرية ص ٦٩ .

٢ - فتح رب البرية بتلخيص الحموية ص ٢٤ .

ويحتمل أن يراد بقوله: «ظاهرها غير مراد» ما يظهر لبعض الناس من هذه النصوص؛ حيث يفهم أن ظاهرها يقتضي تشبيه الله - سبحانه - بخلقه.

وهذا غير مراد قطعاً، لكنه ليس ظاهر هذه النصوص عند السلف، ولا يمكن أن يكون ظاهرها؛ لأنه معنى فاسدٌ مستحيل على الله - سبحانه - فإن الله ليس كمثله شيء، كما دل على ذلك السمع والعقل.

فإذا خاطبنا مَنْ يفهم أن ظاهرها التشبيه، وأنه مراد بيّننا له أن التشبيه غير مراد، وأن فهمه للنصوص على هذا الوجه فهم خاطئ.

وبهذا يزول اللبس، ويحصل التحقيق<sup>(١)</sup>.

ولا ريب أن الذي يقصده الشيخ الخضر رحمته الله هو ما يظهر لبعض الناس الذين يفهمون أن ظواهر النصوص يقتضي التشبيه؛ فيرى أن هذا غير مراد.

ولكن الصحيح الذي عليه السلف - كما مر - هو أن ظواهر النصوص مراد، وأنه لا يقتضي التشبيه.

ثم إن قول الشيخ الخضر رحمته الله: «وتركوا الخوض في معناه ولم يتعرضوا لتأويله» فيه إجمال، ويحتاج إلى إيضاح، وتفصيل؛ فيقال: أما الكلام في معنى النصوص فإن السلف يفسرونها - كما مر - في تفسير الاستواء، والوجه.

أما كيفية هذه الصفات وغيرها فلا يتعرضون لتأويلها؛ فهي معلومة لنا من جهة المعنى، مجهولة من جهة الكيفية؛ فالله - عز وجل - أخبرنا أنه استوى على عرشه، وأن له وجهاً، ولم نجبرنا عن كيفية ذلك.

ولا يعني أن هذه الصفات وغيرها ليس لها كيفية، بل إن لها كيفية، لكنها مجهولة لنا؛ لأن الشيء إنما تعلم كيفية بمشاهدته، أو مشاهدة نظيره، أو خبر صادق عنه. وكل هذه الطرق غير موجودة في صفات الله<sup>(٢)</sup>.

والشيخ الخضر نفسه يقرر هذا، ويرى أن البحث عن الكيفية «من المباحث التي سكت عنها الصحابة، ومن سلك سبيلهم»<sup>(٣)</sup>.

١ - فتح رب البرية ص ٢٥.

٢ - انظر التدمرية ص ٨٩-١٠٠، وفتح رب البرية ص ٢٧-٢٨، والقواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنی للشيخ محمد بن صالح العثيمين، خرج أحاديثه وعلق عليه أشرف بن عبدالمقصود، أعضاء السلف، أصدقاء المجتمع، بريدة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ص ٧٥-٩٠.

٣ - محاضرات إسلامية ص ١٨٦.

ويرى أنهم «نُهِوا عن الخوض فيها؛ لعلمهم بأنه بحث عن كيفية مَنْ لم تعلم كيفيته بالعقل؛ لكون العقول لها حد تقف عنده»<sup>(١)</sup>.

ويقرر أنه لا فرق عند السلف: «بين البحث في حقيقة الذات، وكيفية الصفات»<sup>(٢)</sup>. وهذا ما قرره الأئمة؛ حيث قرروا أن القول في الصفات كالقول في الذات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة التدمرية: «الأصل الثاني وهو أن يقال: القول في الصفات كالقول في الذات؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ فإذا كانت له ذات حقيقية لا تماثل الذوات - فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل صفات سائر الذوات».

إلى أن قال ﷺ: «إذا قال السائل: «كيف استوى على العرش؟ قيل له - كما قال ربعة ومالك وغيرهما-: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه.

وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى سماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: أنا لا أعلم كيفيته قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له، وتابع له؛ فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه، وبصره، وتكليمه، ونزوله، واستوائه، وأنت لا تعلم كيفية ذاته.

وإذا كنت تقر بأن له ذاتاً حقيقية ثابتة في نفس الأمر، مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء - فسمعه، وبصره، وكلامه، ونزوله، واستوائه ثابت في نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين، وبصرهم، وكلامهم، ونزولهم، واستوائهم»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا يتبين لنا منهج الشيخ الخضر في باب الأسماء والصفات، وأنه يسير على وفق منهج السلف، وأن الحق رائده، ودليله، وأن ما وقع فيه من بعض التأويلات لا ينقص من قدره، ولا يخرج منهج السلف الصالح - رضوان الله عليهم أجمعين -.

١ - المرجع السابق ص ١٨٦.

٢ - المرجع السابق ص ١٨٦.

٣ - التدمرية ص ٤٣-٤٥.

## المبحث الثاني: منهجه في إثبات الإيمان بالملائكة والكتب

## المطلب الأول: منهجه في إثبات الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، والحديث عنه يتناول عدة جوانب سيرد ذكر لشيء منها في المدخل الآتي.

والشيخ الخضر ليس له كثير كلام حول الملائكة، وإنما هي إشارات تمر ضمن تفسير آية، أو تكون داخلية ضمن بحث ما؛ فإلى المدخل، ثم إلى منهج الشيخ الخضر في هذا الباب.

## مدخل: في مفهوم الإيمان بالملائكة

أصل كلمة الملائكة: ألك، بمعنى: أرسل، ومنه المألوكه وهي الرسالة، يقال: ألكني إلى فلان: أي أرسلني إليه. والأصل في ألكني: ألكني، فحولت كسرة الهمزة إلى اللام، وأسقطت الهمزة، ومنه قول الشاعر:

ألكني إليها بخير الرسو ل أعلمهم بنواحي الخبر<sup>(١)</sup>

«والملك مشتق منه، وأصله مالك، ثم قلبت الهمزة إلى موضع اللام؛ فقليل: ملك، ثم خففت الهمزة بأن ألقيت حركتها على الساكن الذي قبلها؛ فقليل ملك<sup>(٢)</sup>».

وقد يستعمل متمماً -ملاك- والحذف أكثر، ومن إتمامه قول الشاعر:

١ - انظر لسان العرب لابن منظور ١٠/٣٩٣-٣٩٤.

٢ - لسان العرب ١٠/٣٩٤.

فلست لإنسي ولكن لِمَلَائِكٍ تنزل من جو السماء يُصَوَّبُ<sup>(١)</sup>

«والجمع ملائكة، دخلت فيها الهاء لا لعجمة، ولا لنسب، ولكن على حد دخولها في القشاعة، والصياقلة»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن السكيت: «هي المألكة، والملاكمة على القلب.

والملائكة جمع ملاكمة، ثم ترك الهمز، فقليل: ملك في الوحدان»<sup>(٣)</sup>.

فهذا هو معنى الملائكة في اللغة.

أما في الاصطلاح، فيعرف الملائكة بأنهم: عالم غيبي مخلوقون من نور عابدون لله -تعالى- وليس لهم من خصائص الربوبية، ولا الألوهية شيء، أي أنهم لا يَخْلُقون، ولا يَرزُقون، ولا يجوز أن يعبدوا مع الله، أو من دون الله.

وقد منحهم الله -عز وجل- الانقياد التام لأمره، والقوة على تنفيذه.

والملائكة عددهم كثير، ولا يحصيهم إلا الله<sup>(٤)</sup>.

والإيمان بالملائكة يتضمن ما يلي:

١- الإيمان بوجودهم.

٢- الإيمان بما علمنا اسمه منهم باسمه كجبريل، ومن لم نعلم اسمه نؤمن به

١ - انظر المرجع السابق ٣٩٤/١٠.

٢ - المرجع السابق ٣٩٤/١٠.

٣ - المرجع السابق ٣٩٤/١٠.

٤ - انظر رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين، ص ١٩.

إجمالاً، أي نؤمن بأن لله ملائكة كثيرين، ولا يلزم معرفة أسمائهم.

٣- الإيمان بما علمنا من صفاتهم، كصفة جبريل؛ فقد أخبر النبي ﷺ أنه رآه على صفته التي خلقه الله عليها، وله ستمائة جناح قد سدّ الأفق.

وقد يتحول الملك بأمر الله إلى هيئة رجل، كما حصل لجبريل حين أرسله الله إلى مريم أم المسيح -عليهما السلام-: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ مريم: ١٧.

وحين جاء إلى النبي ﷺ وهو جالس بين أصحابه بصورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحدٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فجلس إلى رسول الله ﷺ وأسند ركبته إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذه، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها، فأجابه النبي ﷺ ثم قال بعد أن ولى: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»<sup>(١)</sup>.

وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله إلى إبراهيم ولوط -عليهما السلام- على هيئة رجال. ٤- الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي يقومون بها، كتسبيح الله، وعبادته ليلاً ونهاراً دون ملل ولا فتور.

وقد يكون لبعضهم أعمال خاصة، كـ «جبريل» الأمين على وحي الله يرسله الله بالوحي إلى الأنبياء والرسل، ومثل «ميكائيل» الموكل بالقطر أي النبات، ومثل «مالك» الموكل بالنار، ومثل الملائكة الموكلين بحفظ بني آدم، وغيرهم كثير<sup>(٢)</sup>. والبحث في الملائكة يطول؛ حيث يبحث في علاقتهم ببني آدم عموماً، ويبحث في المفاضلة بين الملائكة وصاحلي البشر، إلى غير ذلك مما يدور في هذا الفلك<sup>(٣)</sup>.

١ - رواه مسلم (٨).

٢ - انظر رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين ص ١٩-٢٠.

٣ - انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٥٠/١١، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ٣٦٨/٢، وشرح العقيدة الطحاوية، حققها وراجعها: جماعة من العلماء، خرج أحاديثها: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٨، ١٤٠٤هـ، ص ٢٣٨، والخبانك في أخبار الملائك للسيوطي، وانظر عالم الملائكة الأبرار د. عمر الأشقر.

## منهجه في الملائكة

والشيخ الخضر رحمته الله تطرق لموضوع الملائكة وذلك من خلال ما يلي:

أولاً: تطرقه لتعريف الملائكة، وأوصافهم، وأعمالهم: حيث أثبت حقيقة الملائكة، وأنهم أجسام، وأن لهم أعمالاً يقومون بها.

قال رحمته الله في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿٣٠﴾ البقرة: ٣٠: «الملائكة جمع ملاك<sup>(١)</sup> بمعنى ملك، وهم نوع من الخليقة ذوو أجسام لطيفة، يستطيعون أن يتشكلوا بأشكال مختلفة»<sup>(٢)</sup>.

وقال في موضع آخر: «والملاك: كائن نعلم من حقيقته أنه ذو حياة، ونطق عقلي. ومن مميزاته: أنه لا يعصي الله فيما أمره به، أي إنه مفطور على الطاعة من غير تكلف»<sup>(٣)</sup>.

ويقول في موضع آخر: «والملائكة: أجسام لطيفة، نورانية، قادرين على التشكل في صور مختلفة، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون»<sup>(٤)</sup>.

ثانياً: تقريره أن الملائكة لا يعلمون الغيب: يقول رحمته الله في تفسير قوله -تعالى-: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿٣٠﴾ البقرة: ٣٠؛ يقول موضعاً كيف علم الملائكة بما سيرتب على إهباط آدم إلى الأرض: «والملائكة لا يعلمون الغيب؛ فلا بد أن يكونوا قد علموا ما سيكون من الفساد في الأرض، وسفك الدماء بوجه من الوجوه التي يُطلع الله بها على غيبه بعض المصطفين من خلقه»<sup>(٥)</sup>.

١ - هكذا في الأصل: ملاك، ولعله أراد: ملاك، ولعله خطأ طباعي.

٢ - أسرار التنزيل ص ٦١.

٣ - المرجع السابق ص ١٨٦.

٤ - المرجع السابق ص ٣١٣.

٥ - المرجع السابق ص ٦١.

وقال في قوله -تعالى-: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ البقرة: ٣٢ - قال: «ولو قال الملائكة: لا عِلْمَ لَنَا بِأَسْمَاءِ هَذِهِ الْمَسْمِيَّاتِ لَكَانَ جَوَابَهُمْ عَلَى قَدْرِ السُّؤَالِ.

ولكنهم قصدوا الاعتراف بالعجز عن معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة على أبلغ وجه، فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئاً غير ما يعلمهم الله. ودخل ضمن هذا النفي العام: الاعتراف بالقصور عن معرفة الأسماء المسؤولة عنها»<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: استخلاصه العبر من مراجعة الملائكة للرب -جل وعلا-: وذلك خلال حديثه عن قصة جعل آدم خليفة، ومراجعة الملائكة ربهم في ذلك، واعترافهم بالعجز والقصور، وأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله.

قال ﷺ: «وقولهم -أي الملائكة-: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا.. الخ إنما صدر منهم على وجه استطلاع الحكمة في خلق نوع من الكائنات يصدر منها الإفساد في الأرض وسفك الدماء.

وقطعهم بحكمة الله في كل ما يفعل لا ينافي تعجبهم من بعض أفعاله؛ لأن التعجب يصدر عن خفاء سبب الفعل، فمن تعجب من فعل شيء، وأحب الاطلاع على الحكمة الباعثة على فعله - لا يعد مُنْكَرًا له في حال»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن قال في تفسير قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٣٠ : «قلنا: إن قول الملائكة لم يكن صادراً عن إنكار، وإنما هو استكشاف عن الحكمة.

ولما كانت مكانتهم من طاعة الله، ويقينهم بأن أفعاله -تعالى- لا تصدر إلا عن حكمة يقتضيان أن يتلقوا ما أعلمهم الله به من جعل خليفة في الأرض بتسليم تام، ويتمهلوا إلى أن يطلعهم الله على الحكمة من خلق آدم بوجه من وجوه العلم - كانت

١ - المرجع السابق ص ٦٤ .

٢ - المرجع السابق ص ٦١-٦٢ .

مبادرتهم لسؤاله -تعالى- عن الحكمة غير واقعةٍ الموقعَ اللائقَ بكمال أدب العارفين به، المقربين من حضرته.

واقضى هذا أن يجيبهم بجواب يُذكرهم فيه بالأمر الذي شأنه أن يقف بهم في حدود الأدب اللائق بمقام الإلهية، وهو أنه -تعالى- عالم بما لا يحيط به علم أحد من خلقه؛ فله أن يفعل ما يشاء، ويأمر بما يشاء، وليس من أدب المؤمنين بأنه العليم الحكيم أن يسألوه -حين يأمرهم بشيء، أو يعلمهم بأنه سيفعل شيئاً- عن حكمة ما أمر به، أو ما سيفعله، بل شأنهم أن يتجهوا إلى استطلاع حكمة الأفعال والأوامر من أنفسهم، فإذا أدركوها فقد ظفروا بأمنيتهم، وإن وقفت عقولهم دونها ففي تسليمهم لقدر الله، وامثالهم لأوامره الكفائية في القيام بحق التكليف، والفوز برضا الله الذي هو الغاية من الإيمان به، والإقبال على طاعته»<sup>(١)</sup>.

ثم ختم القول في نهاية القصة بقوله: «والقصة -مع كونها حقيقة واقعة- تنطوي على حكم شائقة، وعبر لامة، يجدها المتدبر لكتاب الله قريبة المنال، عزيزة المثال؛ كأن يفهم منها: أن سياسة الأمم على الطريقة المثلى إنما تقوم على أساس راسخ من العلم، ويفهم منها: أن فضل العلم النافع فوق فضل العبادة، وأن روح الشر الخبيثة إذا طغت في نفس ذهبت البراهين عندها ضائعة، ولا يوجهها إلى الخير وعد، ولا يردعها عن الشر وعيد.

ويستفيد منها الرئيس الأعلى كيف يفسح المجال لمرؤوسيه المخلصين يجادلونه في أمر يريد قضاءه، ولا يزيد على أن يبين لهم وجهة نظره في رفق.

وإذا تجاوزوا حدَّ الأدب اللائق به راعى في عتابهم ما عرفه فيهم من سلامة القلب، وتلقى أوامره بحسن الطاعة.

ويستفيد منها المتقلب في نعمة يغبط عليها: أن مخالفة ما أمر الله قد تكون سبباً لزوال النعمة، وذلك ما يدعوه إلى تحصيلها بالتزام الطاعة في كل حال»<sup>(١)</sup>.

رابعاً: إثباته كُفْرَ مَنْ أَنْكَرَ الْمَلَائِكَةَ، أو عاداتهم: قال في معرض تفسيره قول الله -تعالى-: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ البقرة: ١٧٧: «فمن لم يؤمن بهذا النوع من المخلوقات»<sup>(٢)</sup> على الوجه الذي وصفه الكتاب العزيز فقد أنكر الوحي، وحرّم من إيمان يبنى عليه سيرة يصل بها إلى أمن وسعادة»<sup>(٣)</sup>.

وقال في تفسير قوله -تعالى-: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٩٨.

قال: «عداوة العبد لله في كفره به، ومخالفته لأمره عناداً، وعداوته للملائكة في إنكار فضلهم، ووصفهم بما ينافي عصمتهم، ورفع منزلتهم عند الله»<sup>(٤)</sup>.

إلى أن قال في تفسير قوله -تعالى-: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٩٨؛ قال: «ولم يقل: عدوّ له، أو لهم؛ ليدل على أن عداوة كل واحد مما اشتملت الآية على ذكرهم كفر.

والمعنى: أن من عادى الله، أو ملكاً من ملائكته، أو رسولاً من رسله - فقد كفر، وباء بعداوة الله له.

ومن باء بعداوة الله فجزاؤه الخزي، وعذاب الحريق»<sup>(٥)</sup>.

١ - المرجع السابق ص ٧٧-٧٨.

٢ - يعني: الملائكة.

٣ - أسرار التنزيل ص ٣١٣.

٤ - المرجع السابق ص ١٧٩.

٥ - المرجع السابق ص ١٨٠.

خامساً: بيانه لحقيقة إبليس: حيث تطرق لمعنى كلمة إبليس، وماهية إبليس، وهل هو من الملائكة أو ليس منهم؟

فيرى أن إبليس: اسم للشيطان، وأنه لفظ أعجمي، وأن إبليس كائنٌ حيٌّ، وَيُخَطِّئُ من يحملة على معنى: داعي الشر الذي يخطر في النفوس، أو أنه اسم لكل متكبر على الحق.

ويرى أنه ليس من المعقول أن تحمل الآيات على هذا التفسير الخاطيء، وهي صريحة في أنه كان يقول، ويقال له، ويرى الناس، ولا يرونه: ﴿إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ الأعراف: ٢٧.

ويرى أن استثناء إبليس من الملائكة ظاهر في أنه من قبيلهم، ويقرر أن الأصل في المستثنى أن يكون داخلاً تحت اسم المستثنى منه حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه<sup>(١)</sup>.

سادساً: إثباته أن الملائكة عبادٌ لله، وإنكاره على من عبدهم من دونه: حيث قرر أن الملائكة مخلوقون لله، مربوبون له، وليس لهم شيء من خصائص الربوبية ولا الألوهية، وأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون<sup>(٢)</sup>.

وفي الوقت الذي ثبت فيه أن الملائكة عباد لله يُنكر على مَنْ عَبَدَهُمْ من دون الله. يقول ﷺ في بحث له عن عبادة العرب قبل الإسلام: «من العرب من كانوا يعبدون الملائكة، ويزعمون أنهم بنات الله يشفعن لهم عنده، وقد أنكر الله -تعالى- عليهم ذلك، فقال -تعالى-: ﴿أَفَأَصْفَقَكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا﴾ الإسراء: ٤٠.

وورد في القرآن الكريم أن الله -سبحانه وتعالى- يسأل الملائكة يوم القيامة عن

١ - انظر أسرار التنزيل ص ٦٨، وبلاغة القرآن ص ١٥٩.

٢ - انظر أسرار التنزيل ص ٦١ و ١٨٦ و ٣١٣.

عبادة الإنس لهم، فيتبرؤون منهم ومن ولايتهم، جاء هذا في قوله -تعالى-: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءِ إِنِّي أَسْأَلُكُمْ كَأَنؤُا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِن دُونِهِمْ ﴿٤١﴾ بَلْ كَأَنؤُا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤْمِنُونَ ﴿٤٠-٤١﴾ .

وسؤال الله -تعالى- للملائكة يدل على أن من الإنس من كانوا يتوجهون بعبادتهم إلى الملائكة، وقول الملائكة: ﴿ بَلْ كَأَنؤُا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ ظاهر في نفي أن يكون من الإنس من يتوجه إليهم بالعبادة، وأن المشركين إنما كانوا يقصدون بعبادتهم الجن»<sup>(١)</sup>. إلى أن قال: «ومن وجوه تفسير الآية التي يكون بها جواب الملائكة موافقاً للسؤال: أن أولئك الإنس كانوا يتوجهون بالعبادة إلى الملائكة، ولكنهم كانوا يتخيلون للملائكة صوراً، وهذه الصور إنما تطابق حال الجن؛ فيصح أن يقال: إن هؤلاء الإنس إنما يعبدون أصحاب تلك الصور، وهم الجن.

ومن الوجوه التي تجعل الجواب موافقاً للسؤال: أن الملائكة جعلوا عبادة الإنس لهم عبادة للجن؛ لأن الجن -وهم الشياطين- وسوسوا لهم بهذه العبادة؛ فنسبة عبادة الإنس للجن من جهة أنهم وسوسوا بها»<sup>(٢)</sup>.

سابعاً: رده على الانحرافات في تأويل الملائكة: وذلك كتأويلات بعض العقلانيين أو الجامدين على الحِسِّ -كما يسميهم-

ومن ردوده في هذا الشأن ما جاء في بحثه المسمى (كتاب يهذي في تأويل الكتاب المجيد). وهو نقد لكتاب (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) لمحمد أبو زيد الدمنهوري.

يقول الشيخ الخضر في مقدمة هذا الرد متحدثاً عن الذين يتأولون نصوص الشرع تأويلاً متعسفاً، لا يستند على دليل: «ومن هؤلاء النفر شخص سولت له نفسه أن يخوض في آيات الله كالذين خاضوا فيها على عماية، فكتب جملاً قصيرة قذف فيها

١ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٢٤ .

٢ - المرجع السابق ص ٢٤ .

شيئاً من وساوسه، وسمائها: تفسيراً، بل تناهى في الافتتان بها، فسمائها: (الهداية والعرفان).

والذي يقرأ هذه الجمل لا يرتاب في أن صاحبها جامد على المحسوسات، جاحد لكثير مما أخبر به القرآن، منكر لأحكام قررها القرآن والسنة، وأجمع عليها الصحابة وأئمة الإسلام من بعدهم جيلاً بعد جيل، ولكنه يريد أن يدل على إنكاره بما يرتكبه في الآيات من سوء التأويل<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر الشيخ في غضون هذا البحث تعرّض المؤلف إلى تأويل الملائكة، فقال: «يتخبط المؤول عندما تجيئه آية فيها اسم الملائكة، فمرة يفسره برسل النظام والسنن في الكون؛ كما قال عند قوله -تعالى-: ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ البقرة: ٢٤٨: (إشارة إلى أنه يأتيهم بسنن الله ونظامه؛ أي: بتغلبهم على العدو، وبقوة الحرب ونظامه، والملائكة - كما قلنا في (ص ٢٤) -: رسل النظام والسنن في الكون).

وقال عند قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ البقرة: ٣٤: (الملائكة: رسل النظام وعالم السنن، وسجودهم للإنسان معناه: أن الكون مسخر له)<sup>(٢)</sup>.

ويواصل الشيخ ذكره لجملة من تأويلات الدمنهوري للملائكة فيقول: «ومرة يجعل الآية التي ذكر فيها الملائكة من قبيل التمثيل؛ كما قال في قوله -تعالى-: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أُنْجِيحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا﴾ فاطر: ١: (يمثل لك السرعة في إجراء سننه في الكون، وتنفيذ أوامره في العالم).

وفسر جبريل وميكائيل في قوله -تعالى-: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾

١ - بلاغة القرآن ص ١٤٤-١٤٥.

٢ - المرجع السابق ص ١٥٩-١٦٠.

وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ﴿البقرة: ٩٨﴾ بأنهما قسمان من الملائكة، وقال: (الأول رسول الوحي والإلهام، والثاني رسول السنن والنظام)<sup>(١)</sup>.

وقال عِنْدَ تَأْوِيلِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ قَوْلِهِ -تعالى-: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ ﴿البقرة: ١٧٧﴾: (وهذا تابع للإيمان بالله، فمن يؤمن بالله يؤمنُ بخلقه ونظامه).

والملائكة رسل هذا الخلق والنظام).

ثم يختم الشيخ كلامه عن تحريف الدمهوري للملائكة بنتيجة قال فيها: «فتحريفه الآية بادعاء التمثيل مرة، وذكره لسنن الكون ونظمه مرة أخرى، وجعله جبريل وميكائيل قسامين من الملائكة، دون الاعتراف بأنهما فردان منهم - يدل على أنه يريد من الملائكة معنى غير المعنى المعروف في صريح الكتاب والسنة. ونصوصُ الشريعة في دلالتها على وجود الجن والملائكة متساوية، وهما من جهة إمكان وجودهما في منزلة واحدة»<sup>(٢)</sup>.

هذا هو خلاصة منهج الشيخ الخضر في إثبات الملائكة.

١ - المرجع السابق ص ١٦٠ .

٢ - المرجع السابق ص ١٦٠-١٦١ .

### المطلب الثاني: منهجه في إثبات الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان، والكتب: جمع كتاب،

بمعنى: مكتوب.

والمقصود بالكتب في لسان الشرع: «الكتب التي أنزلها الله -تعالى- على رسوله؛ رحمة للخلق، وهداية لهم؛ ليصلوا بها إلى سعادة الدنيا والآخرة»<sup>(١)</sup>.

والإيمان بالكتب يتضمن:

- ١- الإيمان بأنها أنزلت من عند الله حقاً.
- ٢- الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي نُزِّلَ على محمد ﷺ والتوراة التي أنزلت على موسى ﷺ والإنجيل الذي نزل على عيسى -عليه الصلاة والسلام- والزبور الذي أوتيه داود -عليه السلام-.
- وأما ما لم نعلمه من الكتب المنزلة فنؤمن به إجمالاً.
- ٣- تصديق ما صح من أخبارها، كأخبار القرآن، وأخبار ما لم يبدل، أو يحرف من الكتب السابقة.
- ٤- العمل بما لم ينسخ منها، والرضا، والتسليم به، سواء فهمنا حكمته أو لم نفهمها.

وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم، قال الله -تعالى-: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ ۖ الْمَائِدَةَ: ٤٨ .

أي حاكماً عليه، وعلى هذا فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح وأقره القرآن<sup>(٢)</sup>.

فهذا هو مفهوم الإيمان بالكتب على وجه الإيجاز.

أما منهج الشيخ الخضر في إثباته فهو كمنهجه في إثبات أصول العقيدة الأخرى،

١- رسائل في العقيدة ص ٢٣.

٢- انظر رسائل في العقيدة ص ٢٣.

وإن كان كلامه عن الإيمان بالكتب، وخصوصاً الكتب السماوية السابقة قليل بالمقارنة بكلامه على أصول العقيدة الأخرى، حاله حال علماء الإسلام إذا تكلموا على أركان الإيمان مجتمعة.

وأما كلامه عن الكتاب الأخير وهو القرآن الكريم فكثير جداً، وقد مضى شيء من الحديث عنه عند الكلام على مصادره في العقيدة؛ حيث بسط فيه القول عن منهجه، وعنايته بالقرآن الكريم؛ فيغني ذلك عن التكرار والإطالة.

ومهما يك من شيء فيمكن إجمال منهجه في الإيمان بالكتب فيما يلي:  
أولاً: يقرر أن الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بجميع الكتب المنزلة من عند الله - عز وجل -<sup>(١)</sup>.

ويرى أن هذا الإيمان إجمالي وتفصيلي.

أما الإيمان بالكتاب الذي أنزل على محمد، وهو القرآن؛ فيرى أن الإيمان به يستلزم أن يكون على وجهي الإجمال والتفصيل.  
أما الإيمان بالكتب السابقة المنزلة على الأنبياء السابقين، وذلك كالتوراة والإنجيل؛ فيكفي الإيمان بها على وجه الإجمال<sup>(٢)</sup>.

ويستدل على ذلك بالحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إليكم»<sup>(٣)</sup>.  
يقول الشيخ: «والمراد بما لا نصدقهم فيه، ولا نكذبهم: ما يكون محتملاً للصدق والكذب؛ فمن الجائز أن يكون في نفس الأمر صدقاً؛ فنقع في تكذيبه في حرج، أو يكون كذباً، ولا ينبغي لنا أن نتلقى الكذب، ونضعه مكان الصدق»<sup>(٤)</sup>.

ثانياً: يقرر أن الكتب السماوية تتفاضل، وأن القرآن أعلاها رتبة، وأكملها

١ - انظر أسرار التنزيل ص ٣١٣ .

٢ - انظر أسرار التنزيل ص ٢٤٨ .

٣ - البخاري (٦٩٢٨) .

٤ - أسرار التنزيل ص ٢٤٨ .

معنى، وهداية، وحكمة<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: يثبت أن الشرائع سماوية ووضعية: وأن «السماوية: ما نزل بها الوحي على رسول الله، والوضعية: ما يضعه البشر من تلقاء عقولهم»<sup>(٢)</sup>.

ويذكر من خلال ذلك ما تمتاز به الشرائع السماوية على الوضعية، فيقول: «وتمتاز السماوية بأن معاملات الناس على طرائقها، وتصرفهم على مقتضى حدودها من قبيل العمل برضا واجب الوجود واختياره؛ بخلاف القوانين الوضعية؛ فإن الداخل تحت سلطتها إنما يكون سائراً على حسب إرادة بشر يمثله، ولهذا لا يمكنها أن تأخذ من احترامات القلوب الموضع الذي تأخذه الشريعة التي هي تنزيل من حكيم حميد.

وتمتاز السماوية بأنها تعزز قوانينها بسلطة غيبية، فتهدد المخالف بعقوبة آجلة، أو بلاء ينزل به القدر في هذه العاجلة، وتبشر الطائع بنعيم خالد، أو عيش طيب في هذه الحياة. ولا يختص ذلك الإنذار والبشارة بما هو حق لله خالصاً كالعبادات، بل ورد أيضاً في الأحكام الموضوعية لمصالح الخلق في الدنيا.

وهذه السلطة المحتجبة هي التي تدعو النفوس الزكية إلى احترام قانونها، ولو في المواضع التي لا تنالها يد السلطة الظاهرة»<sup>(٣)</sup>،<sup>(٤)</sup>

ويواصل حديثه عن ميزات الشرائع السماوية على الوضعية فيقول: «وتمتاز السماوية بأنها توجب على الفرد إصلاح عمله، وتنهاه عما يضر بشخصه، وإن لم يسر منه الضرر إلى غيره، فحجرت على الإنسان أن يلقي بعضو من جسده في تلف، أو يرمي بقسط من ماله في سرف.

والقوانين الوضعية تقول: لا يجب استعمال القانون بين الناس إلا لمنعهم من إيذاء بعضهم لبعض، ولهذا عرّفوا القانون: بما يوضع للحكم بين الرعايا.

١ - انظر أسرار التنزيل ص ١٦ .

٢ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ٧٦ .

٣ - هكذا في الأصل، ولعل الصواب: الظاهرة.

٤ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ٧٦ .

والسماوية تكلف الإنسان برفع الضرر عن غيره، وحمايته منه، وقد تلقي عليه التبعة إذا استطاع السبيل إلى خلاصه من أذى، أو وقايته من خطر، فمسك يده عن مساعدته، وأعرض بجانبه متهاوناً.

ولم تنظر القوانين الوضعية إلى هذا المطلب باعتبار، وقد أخذه عليها بعض الكاتبين في أصولها، ورجي منها حسن الالتفات إليه»<sup>(١)</sup>.

رابعاً: التعرض لما في الكتب السماوية من البشارات: خصوصاً ما جاء في التوراة والإنجيل من البشارة بمجيء رسولٍ عظيم، ووصفه بصفات لا تنطبق إلا على حال محمد ﷺ.

ويذكر أن القرآن الكريم نبه على هذا بقول الله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الأعراف: ١٥٧<sup>(٢)</sup>.

ويقرر أن «هذه الآية صريحة في أن المصطفى ﷺ مكتوب في التوراة والإنجيل. والمراد بكتابه فيهما: ذكر مبعثه ودعوته وشيء من نعوته. وهذا المعنى موجود في الكتابين يقيناً؛ فقد نزلت الآية على مسمع من علماء الأمتين: اليهودية والنصرانية، فمنهم من يؤمن به -عليه الصلاة والسلام- ويخبر بما في كتبهم من ذكره بصفته وعلاماته، ومنهم من لا ينكر أن يكون قد ذكر في الكتابين رسول بهذه النعوت والعلامات، ولكنه يكابر في أن المراد منه المصطفى -صلوات الله عليه- ويقول: المقصود منه نبي آخر.

وفي مثل هؤلاء نزل قوله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٤٦ «<sup>(٣)</sup>.

١- المرجع السابق ص ٧٦-٧٧.

٢- المرجع السابق ص ٧٧.

٣- المرجع السابق ص ٥٥.

ويقرر أن طائفة من أهل العلم تصدوا لجمع هذه البشائر من كتابي (التوراة والإنجيل) وبينوا وجه انطباقها على حال النبي ﷺ بحيث لا تأخذ الناظر شبهة في أنه الرسول الذي بشرت الأنبياء بمبعثه، وعموم رسالته<sup>(١)</sup>.

ويستشهد ببعض البشائر الباقية في التوراة والإنجيل إلى هذا العهد، فيذكر ما جاء في سفر التثنية من التوراة: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوحى به».

يقول الشيخ الخضر بعد إيراد هذا النص: «والنبي المماثل لموسى -عليه السلام- في الرسالة العظيمة، والشريعة المستأنفة هو سيدنا محمد ﷺ وإخوة بني إسرائيل هم العرب؛ لأنهما يجتمعان في إبراهيم -عليه السلام-.

ولو كان النبي الموعود من بني إسرائيل لقال: من أنفسهم. وقوله: «وأجعل كلامي في فمه» يوافق حال النبي ﷺ من الأمية، وعدم تعاطي الكتابة»<sup>(٢)</sup>.

وقال بعد أن ساق هذه البشارة: «هذه بشارة نذكرها على وجه المثل، وإن شئت الزيادة، فارجع إلى الكتب التي عنيت بجلب نصوص تلك البشائر، وبيان أنها لا تنطبق إلا على حال محمد ﷺ ككتاب (هداية الحيارى) لابن القيم، وكتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمة الله الهندي.

ولشدة موقع هذه البشارات في الدلالة على صدق نبوته -عليه الصلاة والسلام- ذكرها القرآن الكريم في دلائل النبوة، قال الله -تعالى-: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُرُ غُلَمًاؤُا بَنَىٰ إِسْرَائِيلَ﴾ الشعراء: ١٩٧.

وإنما كان علم علماء بني إسرائيل من آيات صدقه؛ لأنهم يستندون في هذا العلم إلى ما في التوراة من نعوته وعلاماته، مع القطع بأن هذه النعوت

١- انظر المرجع السابق ص ٥٥.

٢- محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٥٥-٥٦.

والعلامات مطابقة لحاله -عليه الصلاة والسلام-»<sup>(١)</sup>.

خامساً: رده على شبهة أن للقرآن مصادر من اليهودية والنصرانية: قال ﷺ في معرض رده على طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي): «ما يقوله المستشرقون، ويحكيه عنهم المؤلف؛ من أن للقرآن مصادر، هي: اليهودية، والنصرانية، ومذاهب بين بين، ليس بشبهة جديدة، ولا هو «من النتائج العلمية القيمة» التي انتهوا إليها على مناهج النظر الصحيح.

لا نزدري الغربيين وعلومهم الغزيرة، وإجادتهم النظر في الماديات، وما تنتظم به مرافق الحياة ووسائل العمران الذي نشهده بأبصارنا، ونلمسه بأيدينا. ولكنهم لم يبلغوا أن يمتازوا بالثقافة في كل علم حتى المباحث التي لا يتوقف إدراك حقائقها إلا على ذكاء الباحث، وصفاء بصيرته»<sup>(٢)</sup>.

وبعد ذلك شرع ﷺ في تفنيد تلك الشبهة من وجوه عديدة منها: أن من درس حال الثقات من علماء الحديث أيقن أنهم يروون الأحاديث بأمانة، ولا يخطر ببالهم أن يكتموا من السيرة النبوية صغيراً أو كبيراً. وبناءً على ذلك يقرر الشيخ الخضر أن من «توجه قصده إلى شيء يتصل بالسيرة النبوية فليبحث عنه في كتب الآثار، وتاريخ عهد النبوة؛ فإنه يجد فيها الموثوق بروايته

١- المرجع السابق ص ٧٦، وانظر تفصيل تلك البشارات وشرحها في: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ١٥٦/٥-١٥٨ و١٩٧-٢٠٥ و٢٠٧ و٢٢١-٢٢٢ و٢٣٧ و٢٣٨ و٢٤٦-٢٤٨ و٢٧٥-٢٧٧، وهداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن القيم، دار الريان، تقديم وتحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار المطبعة السلفية ص ١٦٥-١٦٦ و١١٩ و١٢٥ و١٥١، والبحث الصريح في أيما الدين الصحيح للشيخ المهدي زيادة بن يحيى الراسي ص ١٣٩ و١٤٠ و١٥١-١٥٧ و١٦٨-١٧١ و١٧٣-١٧٤، وانظر إلى كتاب: الدين والدولة لابن رين الطبري، وإفحام اليهود للمهدي السموأل، وتنجيل من حرّف الإنجيل، ومحمد ﷺ في الكتاب المقدس لعبدالأحد داود، وإظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي، تحقيق محمد ملكاوي، القاهرة، دار الحديث، والبشارة بنبي الإسلام لأحمد حجازي السقا، وغيرها كثير.

٢- نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٦٥.

ما أمكن للجاهلين والمنافقين إصاقيه بأكمل الخليفة، ويرى قواعد أهل الحديث كيف تعمل في الروايات، فتدفع هذه الرواية إلى اليمين، والأخرى إلى الشمال»<sup>(١)</sup>. ثم يخلص من ذلك إلى أنه «ليس في الروايات صحيحها وأساطيرها أثر يدل على أن النبي -عليه الصلاة والسلام- بارح مكة قبل البعثة، وغاب عن قومه، إلا ما روي من خروجه مع عمه أبي طالب إلى الشام خطرة، وسفره في تجارة الخديجة بنت خويلد خطرة أخرى؛ فلا يستقيم لأحد ادعاء أنه تعلم القراءة، ودرس التوراة والإنجيل مدة مغييه عن مكة وقومه لا يشعرون؛ فإن لسفر التجارة أياماً معدودة لا تكفي لدرس ديانة أو ديانتين، لا سيما بعد أن تطرح منها أوقات الاشتغال بشأن التجارة، وما حال المسافرين للتجارة منا ببعيد»<sup>(٢)</sup>.

ثم يواصل سرد الأدلة التي تفند تلك الشبهة؛ فيثبت أنه لا يصح لأحد أن يدعي أنه -عليه الصلاة والسلام- تعلم كتب اليهود والنصارى على مرأى من قومه؛ إذ لو وقع شيء من هذا لم يجيء في القرآن آيات تصفه بعدم القراءة، والتلقي من البشر. ولو جاءت هذه الآيات، وكان قد تعلم من يهودي أو نصراني لم يجد من قومه وعشيرته الذين رأوه يقرأ ويتعلم -أنصاراً إلى الله يؤمنون به، ويجلسون بين يديه كأنما على رؤوسهم الطير»<sup>(٣)</sup>.

ويقرر أنه «لا يصح أن يكون -عليه الصلاة والسلام- قد تعلم كتب اليهود والنصارى، ومذاهب بين بين في خلوة، وعلى حين غفلة من قومه؛ فإن تلقي بعض الكتب في خفاء قد يمكن للرجل الغريب في مدينة لا يعرفه فيها إلا بضعة أشخاص يلاقونه في الشهر، أو في الأسبوع، أو في اليوم مرة أو مرتين.

أما رجل ذو عشيرة، وذو مزايا تلفت له الأنظار، وتجذب له القلوب؛ كمحمد ابن عبدالله ﷺ ينشأ في بلدة لها طرق محدودة، وبيوت معدودة كمكة -فليس من المقبول أن يتمكن من التردد على موطن يختلي فيه بيهودي أو نصراني دون أن يشعر به أحد من قومه

١- المرجع السابق ص ٢٦٦ .

٢- المرجع السابق ص ٢٦٦ .

٣- انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٦٦ .

أو عشيرته الأقربين»<sup>(١)</sup>.

ثم يُعَرَّج على دليل عقلي، فيثبت أنه «ليس من المعقول أن يقال: قد وقعت إلى يده نسخة من التوراة، وأخرى من الإنجيل؛ لأنهما لم يخرجوا إلى لسان العرب بعد، ولا يقرؤهما إلا من درس اللغة العبرية.

ولو درس النبي -عليه الصلاة والسلام- تلك اللغة، وعرف كيف يقرأ حروفها الهجائية - لما عَرَّج القرآن على وصفه بالأمية، ولما ظل النبي -صلوات الله عليه- يتلو آياتها، والناس يشهدون ويؤمنون.

إن رجلاً له أولو قري يجاورونه، وطائفة من غيرهم يعرفونه أو يصادقونه لا يمكنه أن يتعلم علماً أو لساناً دون أن يشعر له أحد منهم، ولو اجتهد في أن يكتم أمره، ويسد في وجوههم كل سبيل»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يواصل إيراد الحجج الدامغة التي تبطل تلك الشبهة التي تزعم أن للقرآن مصادر من اليهودية والنصرانية، ثم يختتم ذلك بقوله: «ولا بأس بأن يكون القرآن موافقاً للتوراة والإنجيل في بعض الشرائع أو الأنباء، بل تكون هذه الموافقة حجة على صدق الدعوة، وعلى أن هذه الأحكام أو القصص من بقايا الوحي الذي نزل على موسى وعيسى -عليهما السلام-.

وإنما يُنخَلُ بصحة الكتاب أن يشرع أحكاماً وسنناً لا تُرَضَى العقولُ الراجحةُ عن حكمتها، أو يأتي بقصة تردّها الطرق العلمية من حس أو عقل، أو رواية قاطعة. والقرآن بريء من مخالفة الطرق العلمية، ومن كل وجه يخلّ بالحكمة، إلا في نظر من يرى أن السعادة في الخلاعة، وأن راحة الضمائر في الجحود بمبدع الخليفة»<sup>(٣)</sup>.

فهذا ملخص إبطال هذه المزاعم، وبنهايته ينتهي الحديث عن منهج الشيخ الخضر في إثبات الركن الثالث من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالكتب.

١- المرجع السابق ص ٢٦٧.

٢- المرجع السابق ص ٢٦٧.

٣- المرجع السابق ص ٢٦٩.

## المبحث الثالث: منهجه في إثبات الإيمان بالرسول، واليوم الآخر، والقدر

## المطلب الأول: منهجه في إثبات الإيمان بالرسول

## مدخل: مفهوم الإيمان بالرسول

الإيمان بالرسول هو الركن الرابع من أركان الإيمان، والبحث فيه يتناول جوانب عدة، ومن أهم تلك الجوانب ما يلي:

أولاً: تعريف النبوة والرسالة في اللغة: ١- تعريف النبوة في اللغة: النبوة في اللغة لها ثلاثة اشتقاقات؛ فهي إما مأخوذة من النبأ وهو: الخبر الذي له خطب وشأن؛ فتكون النبوة بمعنى الإخبار.

وإما أن تكون مأخوذة من النباوة، أو النَّبَوَّة وكلاهما يدل على الارتفاع؛ فتكون بمعنى الرفعة والعلو.

وإما أن تكون مأخوذة من النَّبِي، وهو بمعنى الطريق؛ فتكون النبوة بمعنى الطريق إلى الله - عز وجل-<sup>(١)</sup>.

والحقيقة أن النبوة الشرعية تشمل كل هذه المعاني؛ إذ النبوة إخبار عن الله - عز وجل- وهي رفعة لصاحبها؛ لما فيها من التشريف والتكريم، وهي الطريق الموصلة إلى الله - سبحانه-.

ومع ذلك فإن أولى هذه المعاني بلفظ النبوة والنبي هو اشتقاقها من النبأ؛ لأن النبي مُنبأٌ من الله، وهو كذلك ينبئ الناس عن الله، وتتحقق نبوته بمجرد ذلك، وبهذا التحقق تثبت له أوصاف العلو والارتفاع، وكونه طريقاً إلى معرفة الله - عز وجل-.

ومصادق ذلك ما يتردد في القرآن من إطلاق النبأ على الخبر، فمثلاً يقول الله - سبحانه وتعالى-: ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الحجر: ٤٩ .

١ - انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٨٤/٥-٣٨٥، ولسان العرب ١٦٢/١-١٦٤.

ويقول حكاية عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿ نَبَأِي أَلْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ التحريم: ٣ .  
وغير ذلك عشرات الآيات كلها تذكر الإنباء بمعنى الإخبار.  
ولعل ذلك يؤكد لنا أن النبوة مشتقة من النبأ، وهو الإخبار؛ فيكون معنى النبي هو: المُخْبِرُ من الله، أو المُخْبِرُ عن الله -جلّ وعلا-<sup>(١)</sup>.

٢- تعريف الرسالة في اللغة: أصل هذه المادة: الرء والسين واللام (رسل).  
والرسول مأخوذ من الإرسال، وهو التوجيه، أو من التتابع؛ أخذاً من قولهم:  
رسل اللبن: إذا تتابع درّه؛ فالرسول -إذا- إما أن يكون مأخوذاً من كونه يوجّه الناس،  
أو من كون الوحي يتتابع عليه<sup>(٢)</sup>.  
فهذا هو المعنى اللغوي للنبي الرسول.

ثانياً: تعريف النبوة والرسالة في الشرع: يمكن تعريف النبوة والرسالة في الشرع بأن  
يقال: هي صفةٌ تُحدّثُ في الشخص بعد أن يصطفيه الله -عز وجل- فيخبره بخبر  
السماء، ويأمره بتبليغه.

فالنبوة والرسالة تتحقق بمجرد اصطفاء الله للشخص بالوحي بغض النظر عما  
يدور من الخلاف حول الفرق بين النبي والرسول، والنسبة بينهما<sup>(٣)</sup> على ما  
سيأتي بيانه في الفقرة التالية.

ثالثاً: الفرق بين النبي والرسول: للعلماء في تحديد الفرق بين النبي والرسول،  
وتحديد مسمى كل منهما كلام كثير لا يسلم من نقد، لكن الأمر الراجح عند  
كثير من أهل العلم أن هناك فرقاً بين مسمى النبي، ومسمى الرسول، وإن  
اختلفوا في تحديد المراد بكل منهما.

١ - انظر عقيدة ختم النبوة د. أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٤٠٥هـ -  
١٩٨٥م ص ١٤-١٥.

٢ - انظر لسان العرب ١/٢٨٣-٢٨٤.

٣ - انظر عقيدة ختم النبوة ص ١٥-١٦.

وأيضاً فإن النبوة أعم من الرسالة؛ فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً. والذي يظهر -والله أعلم- أن النبي: هو من نبأه الله بشرع سابق ينذر به أهل ذلك الشرع، وقد يؤمر بتبليغ بعض الأوامر في قضية معينة، أو الوصايا والمواظم وذلك كأنبيا بني إسرائيل؛ إذ كانوا على شريعة التوراة، ولم يأت أحد منهم بشرع جديد ناسخ للتوراة، فتكون منزلته حينئذ بمنزلة المجدد لتعاليم الرسل السابقين. أما الرسول فهو من بعثه الله بشرع وأمره بتبليغه إلى من خالفوا أوامره، سواء كان هذا الشرع جديداً في نفسه، أو بالنسبة لمن بعث إليهم، وربما أتى بنسخ بعض أحكام شريعة من قبله<sup>(١)</sup>.

رابعاً: حقيقة الأنبياء والرسل: هم بشر مخلوقون، يوحى إليهم، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء. وتلحقهم خصائص البشرية من النوم، والمرض، والموت، والحاجة إلى الطعام والشراب، وغير ذلك. وقد وصفهم الله بالعبودية له في أعلى مقاماتها، فهم خير البشر، وصفوتهم، وخلاصتهم.

والرسالة من الله اصطفاء لا تأتي بالاكساب، ولا المجاهدة. والأنبياء والرسل معصومون في تحمل الرسالة، وفيما يبلغون به عن ربهم؛ فلا يتقصون شيئاً مما أوحاه الله إليهم، ولا ينسون شيئاً من ذلك إلا ما كان نسخاً. وهم -كذلك- معصومون في التبليغ؛ فلا يكتمون شيئاً من الوحي. أما الأعراض الجبلية البشرية فلا تنافي العصمة.

١ - انظر النبوات لابن تيمية ص ٢٢٥-٢٢٧، وأصول الدين للبغدادي ص ١٥٤، وعقيدة ختم النبوة ص ١٥-١٦، ومحبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع لعبد الرؤوف محمد عثمان ص ١٥، والرسل والرسالات د. عمر الأشقر ص ١٤-١٥.

- خامساً: ما يتضمنه الإيمان بالرسول: ١. الإيمان بأن رسالتهم حق من الله -تعالى- فمن كفر برسالة واحد منهم كفر بهم جميعاً.
٢. الإيمان بما علمنا اسمه منهم باسمه، مثل: محمد، وإبراهيم، وموسى، ونوح، وعيسى -عليهم السلام- وما لم نعلمه نؤمن به إجمالاً.
٣. التصديق بما صح عنهم من أخبار.
٤. العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع البشر<sup>(١)</sup>.

فهذا هو خلاصة لأهم ما يطرق في باب الإيمان بالرسول. وهناك موضوعات أخرى تبحث في هذا الباب، كدلائل النبوة، ومعجزات الأنبياء، وختم النبوة، وادعاء النبوة، وخصائص نبينا محمد ﷺ إلى غير ذلك من الموضوعات التي تبحث في باب الإيمان بالرسول.

### معالم منهجه في إثبات الإيمان بالرسول

الشيخ الخضر رحمته الله تطرق لهذا الباب، وتناوله بالبحث والدرس من نواح شتى، ويمكن إجمال منهجه في ذلك فيما يلي:

أولاً: إيضاحه مفهوم الإيمان بالرسول وما يتضمنه: حيث بين معنى الرسل في اللغة، وأنه جمع رسول بمعنى مرسل<sup>(٢)</sup>.

وبين معنى الرسول في الشرع، وأنه: «من أوحى إليه بشرع، وأمر بتبليغه»<sup>(٣)</sup>.

وبين الغاية من إرسال الرسل، وهي «هداية الناس إلى السبيل، ودعوتهم إلى العقائد السليمة، والأخلاق الكريمة»<sup>(٤)</sup>.

وقرر وجوب الإيمان بالرسول جميعاً، وترك التفرقة بينهم.

١ - انظر رسائل في العقيدة ص ٢٥-٢٦ .

٢ - أسرار التنزيل ص ١٥٩ .

٣ - المرجع السابق ص ٢٣٧ .

٤ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٧ .

قال ﷺ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ البقرة: ١٣٦: «والمعنى لا نفرق بين جماعة من النبيين، فنؤمن ببعضهم، ونكفر ببعض، كما فعل اليهود؛ إذ كفروا بعتسى ومحمد، وكما فعل النصارى؛ إذ كفروا بمحمد ﷺ. بل نؤمن بهم جميعاً، والإيمان بما أنزل إلى الرسول يستلزم الإيمان بهم جميعاً»<sup>(١)</sup>. وقال في موضع آخر مبيناً معنى الإيمان بالنبيين: «والإيمان بالنبيين: التصديق بأنهم رجال اصطفاهم الله؛ لتلقي هدايته وكتبه، وإبلاغها للناس في صدق وأمانة. والنيون الذين يجب الإيمان بهم: كلٌّ مَنْ تثبت نبوته بقرآن، أو حديث صحيح»<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: عنايته ببعثة الأنبياء والرسول، وأخبارهم، وقصصهم مع أقوامهم: فتراه يقرر أن حكمة الله -عز وجل- ورحمته بالخليقة اقتضت «أن يرشد العقول إلى حقائق لا تصل إليها بنفسها، ويربها قصد السبيل؛ حتى لا تزيغ نظراتها؛ فبعث الرسل -عليهم السلام- مؤيدين بالبينات، داعين إلى سبيل الحق بأبلغ الحكم، وأحسن العظات»<sup>(٣)</sup>.

ويفصل القول في بعثة الأنبياء إلى أقوامهم، ودعوتهم إياهم إلى نبد عبادة غير الله، وأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده، وتبشيرهم لهم بأن الاستقامة على هدى الله أعظم وسائل السعادة في هذه الحياة، ووعيدهم بعقوبة الدنيا والآخرة إذا هم تبادوا في غيهم، وإراءتهم الآيات والدلائل التي يؤمن على مثلها البشر. كما أفاض في القول في أولئك الأقوام الذين بُعث فيهم الأنبياء؛ حيث تكلم عن منازلهم، وأوصافهم، وانحرافاتهم، ومواقف أنبيائهم منهم، ومواقفهم من أنبيائهم. كما تطرق للعقوبات التي حلت بالأقوام الذين استكبروا، وعتوا عن دعوة الأنبياء.

١ - أسرار التنزيل ص ٢٤٩.

٢ - المرجع السابق ص ٣١٣.

٣ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٦.

كما تعرض للدروس المستفادة من تلك القصص، وما تنطوي عليه من العبر، والعظات، والأسرار.

ومن الأمثلة على ذلك حديثه عن بعثة هود -عليه السلام- لقوم عاد<sup>(١)</sup>، وبعثة صالح -عليه السلام- لثمود<sup>(٢)</sup>، وبعثة إسماعيل -عليه السلام- للعرب<sup>(٣)</sup>، وبعثة شعيب -عليه السلام- إلى مدين<sup>(٤)</sup>.

ثالثاً: عنايته بدراسة دلائل النبوة: فدلائل النبوة من أشرف الموضوعات التي تُبحث في هذا الباب؛ ذلك أن دعوى النبوة من أعظم الدعاوى، ولا يدعي النبوة إلا من هو أصدق الناس أو أكذبهم، وليس في ذلك كلامٌ بينَ بينَ. والنبوة تثبت بدلائل كثيرة، وقد أفاض العلماء بذكرها، وتفصيلها، وتقسيمها، وذلك كما صنع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)<sup>(٥)</sup>.

بل إن منهم -وهم كثير- من أفرد ذلك الباب بمصنفات خاصة<sup>(٦)</sup>. ولقد اعتنى الشيخ الخضر رحمته الله بدلائل النبوة عناية بالغة، فدرسها من نواح عدة، وفصّل القول فيها تارة، وأجمل تارة أخرى.

بل تارة يعنى بدراسة إحدى هذه الدلائل، وتارة يعنى بالدلائل جملة. ويرى أن دلائل النبوة -خصوصاً نبوة محمد صلى الله عليه وسلم- أوفر من دلائل كل نبوة، وأن الكلام فيها خوض في بحر لا ساحل له، وأنه ليس في استطاعة أحدٍ أن يستوعبها، أو

١ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٧-١٠.

٢ - المرجع السابق ص ١٠-١٤.

٣ - المرجع السابق ص ١٤-١٥.

٤ - المرجع السابق ص ١٥-١٨.

٥ - انظر الجواب الصحيح ١٥٩/٦-٥٢٣.

٦ - ومن الكتب في ذلك: دلائل النبوة لأبي زرعة الرازي، ودلائل النبوة لأبي الشيخ الأصبهاني، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، ودلائل النبوة للبيهقي، ودلائل النبوة لابن أبي الدنيا، وغيرها كثير. هذا غير الكتب التي تكلمت على الدلائل ضمن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وكتب الصحاح، والمسانيد.

أن يلم ببعضها<sup>(١)</sup>.

ويرى أن دلائل نبوته ﷺ ترجع إلى أربعة وجوه، وهي: «القرآن المجيد، وبشارة الرسل والأنبياء قبله ببعثته، وسيرته البالغة في الكمال حداً تقف دونه سيرة كل عظيم، وخوارق عاداتٍ هي من جنس المعجزات على صدق الرسالة من وجوه كثيرة»<sup>(٢)</sup>.

وفي مواضع أخرى تراه يفصل في هذه الدلائل تفصيلاً دقيقاً يعتمد النقل، والعقل. ومن ذلك كلامه على أعظم دلائل النبوة، وهو القرآن الكريم، فبين أنه «نزل على النبي ﷺ يحمل حقائق صادقة، ومعجزة باهرة، أما الحقائق فهي ما أرشد إليه من العقائد السليمة، والآداب النبيلة، والأحكام العادلة، والموعظة البالغة.

وأما المعجزة فهي ارتفاعه عن حكمة المعاني، وسمو المقاصد، وفصاحة الكلم، وجودة النظم، وبراعة الأسلوب إلى مرتبة يقف دونها فطاحل البلغاء بمراحل»<sup>(٣)</sup>.

ويضيف: «أن معجزات الأنبياء تجيء مناسبة لحال أقوامهم؛ ففي زمن موسى -عليه السلام- كانت الغلبة للسحر، فكانت معجزته قلب العصا ثعباناً، وذلك ما يعجز عنه كل سحّار عليم.

وفي زمن عيسى -عليه السلام- كان التنافس في الطب، فجاء بما لا يصل إليه الأطباء، وهو: إحياء الموتى.

وفي زمن خاتم النبيين ﷺ كان التفاخر بالبلاغة وحسن البيان، فجاء بما أعجز كل خطيب مصقع، وشاعر مفلح، وهو القرآن الكريم»<sup>(٤)</sup>.

ثم يواصل حديثه عن إعجاز القرآن، ومزاياه، ووجوه دلالاته على صدق الرسول -عليه الصلاة والسلام- فيذكر إخباره عن المغيبات، وورود معانيه على الوجوه المعقولة، وعدم مخالفتها للعلوم الصحيحة، ويذكر أمثلة على ذلك.

١ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٥٠ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ١٩٤ وانظر ص ٥٠ .

٣ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٥٠ .

٤ - انظر المرجع السابق ص ٥٠ .

كما يذكر قوة أدلة القرآن، وقيام حججه على قانون المنطق الصحيح<sup>(١)</sup>.  
ويذكر من دلائل النبوة بشارات الأنبياء والرسل بالنبي ﷺ قبل مجيئه، وقد مر الحديث عنها عند الحديث عن الإيمان بالكتب.

ثم يفصل الحديث عن إحدى دلائل النبوة، وهي سيرته ﷺ فيقرر أن: «من نظر في سيرته -عليه الصلاة والسلام- وجدها من أعظم الدلائل على أن بين جنبيه نفساً بالغة من الكمال ما لا يبلغه الإنسان الذي يطلب المعالي بنفسه، ولو بلغ من العبقرية ما بلغ، ولقن من الحكمة ما شاء أن يلقن».

وأوجز الحديث عنها في هذا الفصل فأقول: طالع كتب التاريخ، عربية وغير عربية، وأمعن النظر في أحوال عظماء الرجال من مبدأ الخليفة إلى هذا اليوم، فإنك لا تستطيع أن تضع يدك على اسم رجل من أولئك العظماء، وتقص علينا سيرته ومزايه، وأعماله الجليلة حديثاً يضاهي أو يداني ما نحدثك به عن هذا الرسول العظيم<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يفصل في المعجزات المحسوسة التي وقعت للنبي ﷺ، فيبين أنه قد «جرت على يده خوارق عادات شهدها الناس الذين أدركوا عهد البعثة، ورويت لنا بأسانيد ثابتة تتصل بأمة كبيرة من الصحابة، ويروها عن الصحابة جماعة من أهل العلم والتقوى حتى تصل إلى أئمة أمثال: مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم».

ومن هذه المعجزات ما يبلغ في روايته مبلغ التواتر، ومعظمها ورد بطريق خبر الأحاد، ومجموع أحاديثها يفيد العلم القاطع بأن هذا النوع من الآيات قد جرى على يده -عليه الصلاة والسلام-.

ولم يعتن الصحابة أو التابعون بروايتها الاعتناء الذي يرفع كل واحد منها إلى مرتبة التواتر المفيد للقطع؛ لعلمهم أن في القرآن الكريم، وحكمة الشريعة، والسيرة النبوية آيات بينات، ودلائل تكفي الناظر؛ فلا يحتاج إلى غيرها من الآيات التي كانت قد وقعت وشهدها قوم آخرون<sup>(٣)</sup>.

١ - انظر المرجع السابق ص ٥١ .

٢ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٥٦-٥٧ .

٣ - المرجع السابق ص ٥٧-٥٨ .

ويذكر بعض هذه المعجزات والخوارق التي جرت لنبينا محمد ﷺ: «كسب الماء بين أصابعه الشريفة»<sup>(١)</sup>، وتكثير الطعام القليل وإشباعه نحواً من سبعين رجلاً<sup>(٢)</sup>، وانشقاق القمر حتى رآه المشركون بمكة رأي العين<sup>(٣)</sup>، وحنين الجذع الذي كان يخطب عليه عندما اتخذه - عليه الصلاة والسلام - منبراً<sup>(٤)</sup>»<sup>(٥)</sup>.

ويرى ﷺ أن «هذا النوع من المعجزات قد ينفع في هداية الذين يؤخذون بالدلائل المحسوسة أكثر مما يؤخذون بالدلائل المعقولة.

وقد يجري بمحضر المؤمنين؛ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، أو يجري حيث يكون في المعجزة دفع حاجة لا تدفع إلا بها؛ كتكثير المال القليل<sup>(٦)</sup> في بعض الغزوات؛ ليكفي حاجات الجماعات الكثيرة»<sup>(٧)</sup>.

وكما كان من منهجه في هذا الباب إثبات دلائل النبوة فإن من منهجه - أيضاً - الرد على من أنكر دلائل النبوة خصوصاً الأخير منها، وهو المعجزات الكونية المحسوسة؛ حيث ظهر في عصره من ينكر ذلك، وهم طوائف وكتّاب.

قال ﷺ: «وقد ظهر في هذا العصر إنكار هذا النوع من دلائل النبوة، ومن سبق إلى إنكاره طائفة القاديانية اللاهورية؛ فإننا نرى زعيمهم محمد علي الذي ألف ترجمة القرآن إلى اللغة الإنكليزية يأتي إلى كل معجزة يقصها الله - تعالى - في أنباء الرسل - عليهم السلام - ويعلق عليها بآخر الصحيفة متأولاً لها على وجه يخرجها عن أن تكون معجزة.

١ - انظر صحيح البخاري (٤٥١٢).

٢ - انظر صحيح البخاري (٣٥٧٨) و (٥٣٨١) ومسلم (٢٠٤٠).

٣ - انظر صحيح البخاري (٣٨٦٨) وسنن الترمذي (٣٢٨٩) ودلائل النبوة لليهقي مرفقاً ٢٦٥/٢ و ٢٦٦-٢٦٧، والدلائل لأبي نعيم ٣٦٩/١-٣٧٠، وانظر تفصيل ذلك وتوجيهه في الجواب الصحيح ١٥٩/٦-١٦٤، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٩٣/٤-٣٠٤.

٤ - انظر صحيح البخاري (٣٥٨٥).

٥ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١٩٥.

٦ - هكذا في الأصل، والصواب: الماء.

٧ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٥٨.

ونحنا بعض الكاتبين في مصر هذا النحو من تأويل آيات المعجزات، وخف على آخرين أن يتكلموا في الدين بآراء لا تمت إلى أصوله الصحيحة بصلة، فأنكروا الأحاديث المتضمنة لبعض خوارق من عادات جرت على يد النبي ﷺ دون أن ينقدوها بقوانين علم الحديث، أو قوانين المنطق السليم»<sup>(١)</sup>.

ثم شرع ﷺ في تنفيذ تلك الشبه التي تنكر المعجزات بما لا يبقى ريباً في قلب كل منصف باحث عن الحقيقة<sup>(٢)</sup>.

وقال في موضع آخر: «وحدث في هذا العصر آراء في التفسير يذيعها نفر لا يرقبون في القرآن حكمة ولا بلاغة؛ كمن ينكر المعجزات الكونية بإطلاق، فيؤول آيات المعجزات على وجوه تجعلها من الحوادث العادية، وإن كان تأويلها لا يجري على استعمال الألفاظ المعروف في اللغة، ولا تحتمله أساليب بلاغتها»<sup>(٣)</sup>.

وقال أيضاً- في موضع آخر: «لم ينقل عن أحد ممن يؤمن بالرسول -صلوات الله عليهم- إنكار المعجزات التي هي خوارق عادات يغير الله بها بعض سننه الظاهرة؛ لتكون حجة على صدق من يبعثه داعياً إلى سبيله.

وإنما ينكرها طائفة ممن أنكروا بعثة الرسول؛ إذ قالوا: إن الرسالة تتوقف على المعجزة، والمعجزة خرق للعادة، وخرق العادة محال.

ودعوى استحالة خرق العادة قد أثنختها الأدلة طعناً؛ فلا يقيم لها النظر الصحيح وزناً»<sup>(٤)</sup>.

إلى أن قال: «وكم من عقول ضلت سبيل الرشد، وآفتها عدم التفرقة بين ما لا يكون عادة، وما يقتضي العقل بأن لا يكون؛ فيغلطون في تصور ما يستبعد العقل وقوعه استناداً للعادة، ويخالونه من قبيل ما لا يمكن وقوعه.

١ - المرجع السابق ص ١٩٥-١٩٦.

٢ - انظر المرجع السابق ص ١٩٥-١٩٩.

٣ - بلاغة القرآن ص ٢٧، وانظر ص ١١٨.

٤ - المرجع السابق ص ١٤٦.

واستبعادُ العقل لشيء لم تَجْرِ العادةُ بوقوعه لا يقف أمام نصوصٍ شريعةٍ قامت الآياتِ البينات على أنها تنزيل من رب العالمين.

وليس ما يقصده القرآن من معجزات الرسل -عليهم الصلاة والسلام- إلا تغييراً لبعض السنن الكونية الظاهرة، وتغيير هذه السنن لا يقتضي بمنعه عقل الخالق قدرها<sup>(١)</sup>، ويسلم أن هذه السنن من صنعها<sup>(٢)</sup>.

رابعاً: إثباته لعقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية: والمقصود بعقيدة ختم النبوة: انتهاءُ إنباءِ الله الناسَ، وانقطاعُ وحي السماء<sup>(٣)</sup>.

ومعنى ذلك اعتقاد أن النبوات قد ختمت بنبوة النبي محمد ﷺ وأن وحي السماء انقطع بموته -عليه الصلاة والسلام- وأن ذلك من صميم عقيدة المسلمين، وأن من ادعى خلاف ذلك فهو كافر بالله، مكذب لنبيه ﷺ.

وقد دل على ذلك الكتاب، والسنة، والإجماع، وتفصيل ذلك يطول<sup>(٤)</sup>.

هذا وإن الشيخ الخضر لِيُثَبِّتْ عقيدةَ ختم النبوة بالنبوة المحمدية، ويؤكد أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين، وينكر أشد الإنكار على من ادعى النبوة، أو صدَّق من ادعاها. بل إن له معارك ضارية مع الدعوات التي يدعي أصحابها النبوة كالقاديانية، والبابية، والبهائية.

يقول ﷺ بعد أن قرر معنى الإيمان بالنبيين، ووجوب الإيمان بهم: «والدليل القاطع على أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين يجعل المدعين للنبوة بعد مضلين، والمصدقين لهم ضالين»<sup>(٥)</sup>.

١ - هكذا في الأصل، ولعله خطأ طباعي، ولعل الصواب هكذا: «يقدر الخالق قدره ويسلم أن هذه السنن من صنعها».

٢ - بلاغة القرآن ص ١٤٦.

٣ - انظر عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص ١٦.

٤ - انظر المرجع السابق ص ١٩-٢٩، و ٣٠-٥٤.

٥ - أسرار التنزيل ص ٣١٣.

ويقول في معرض حديث له عن دوام شريعة النبي محمد ﷺ وختمه للنبوّة: «وإذا كانت آيةُ صدق النبي ﷺ باقيةً، ودينه قيماً، وشريعته كافلةً لمصالح العصور ما تجددت - كان ختمه للنبوّة على وفق الحكمة البالغة، قال الله -تعالى-: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ الأحزاب: ٤٠.

وقال ﷺ: «أرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»<sup>(١)</sup>.

وقال: «إن الرسالة والنبوّة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي»<sup>(٢)</sup>.

إلى غير ذلك من الأحاديث البالغة مبلغ التواتر المفيد للقطع»<sup>(٣)</sup>.

ثم يقرر زيف من ادعى النبوّة، وبطلان دعايته، فيقول: «ومن قرأ التاريخ في الزمن البعيد أو القريب، ومرّ فيه على قصص الأشخاص الذين ادعوا النبوّة من بعده -عليه الصلاة والسلام- وجدّهم أخفّ الناس عقولاً، وأسخفهم أقوالاً، وأبعدهم عن الفضل مكاناً، وسرعان ما تنكشف سرائرهم، ويظهر -حتى لغير النبهاء من الناس- زورهم، وتنتهي بالخبية دعايتهم، ولا يبقى من آثارهم سوى نوادر يتفكّه بها السّمار؛ ترويحاً عن خواطرهم»<sup>(٤)</sup>.

وقال في معرض رده على زعيم القاديانية غلام أحمد في ادعائه النبوّة والرسالة: «يدعي غلام أحمد النبوّة والرسالة غير مبالٍ بالقرآن والسنة وإجماع الأمة؛ ففي هذه الأصول الثلاثة حجج على أن المصطفى -صلوات الله عليه- هو آخر النبيين المرسلين»<sup>(٥)</sup>.

ثم يسترسل الشيخ ﷺ في بطلان دعاوى القاديانية بادعاء النبوّة، ويورد الأدلة والبراهين على ذلك، ويبين معنى كلمة (خاتم) ويورد أقوال المفسرين في تفسيرها.

١ - أخرجه مسلم (٥٢٣).

٢ - أخرجه أحمد (١٣٨٢٣) والترمذي (٢٢٧٢).

٣ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٦٠-٦١، وانظر عقيدة ختم النبوّة ص ٣٠-٥٠.

٤ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٦١.

٥ - القاديانية والبهائية ص ١٦.

وسياتي مزيد تفصيل لذلك عند الحديث عن البائية، والبهائية، والقاديانية. خامساً: عنايته بالسيرة النبوية عموماً: فكثيراً ما يلقي المحاضرات، أو يكتب المقالات في السيرة النبوية، أو في أي شأن من شؤونها؛ بحيث يطرق موضوعات شتى، ويلبسها أثواباً قشبية، ويربطها بحياة الناس. ومن ذلك كلامه على نشأة النبي ﷺ وسيرته الطاهرة قبل البعثة، ودلائل نبوته، وبشارات الأنبياء به - كما مر - وعموم بعثته - عليه الصلاة والسلام - وخلقه، وآدابه، واجتهاده - عليه الصلاة والسلام - في عبادة ربه، وأثر دعوته في إصلاح العالم<sup>(١)</sup>. كما تحدث عن صبره، ومتانة عزمه<sup>(٢)</sup>، وعن رفقته، وحكمته البالغة في السياسة<sup>(٣)</sup>، وعظمته وهدايته<sup>(٤)</sup>، وشجاعته - عليه الصلاة والسلام -<sup>(٥)</sup>. كما تحدث عن دعوته، وحكمة أساليبها<sup>(٦)</sup>، وعن رجاحة عقله، وحكمة رأيه - عليه الصلاة والسلام -.

كما أن له أحاديث كثيرة عن الهجرة النبوية<sup>(٧)</sup>، وعن أثر هجرة الصحابة إلى الحبشة في ظهور الإسلام<sup>(٨)</sup>.

كما تحدث عن إنقاذه العالم من الظلمات<sup>(٩)</sup>، وعن إبادته ﷺ للأصنام<sup>(١٠)</sup>، وعن قضاء البعثة المحمدية على المزايم الباطلة<sup>(١١)</sup>.

١ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٤٧-٧١.

٢ - المرجع السابق ص ٧٢-٧٧.

٣ - المرجع السابق ص ٨٣-٨٩.

٤ - المرجع السابق ص ١٠٥-١١١.

٥ - المرجع السابق ص ١١٢-١١٥.

٦ - المرجع السابق ص ١١٨-١٢٥.

٧ - المرجع السابق ص ٧٨-٨٢.

٨ - المرجع السابق ص ١٣٣-١٤٨.

٩ - المرجع السابق ص ١١٦-١١٧.

١٠ - المرجع السابق ص ١٤٩-١٥٨.

١١ - المرجع السابق.

إلى غير ذلك مما تطرق له مما مر، وسيمر شيء منه في غضون هذا البحث. سادساً: دفاعه عن مقام النبوة: وذلك باب واسع جداً، تطرق له الشيخ الخضر، وخاض غماره، ورد على كثير ممن تناول على مقام النبوة، أو جانب الصواب في إنزال ذلك المقام منزلته اللائقة به.

هذا وقد مر الحديث عن شيء من ذلك عند عرض كتب الشيخ، خصوصاً عند الحديث عن كتاب (العظمة) الذي رد به علي عبد الرازق، وكتاب (الهجرة وشخصيات الرسول ﷺ) الذي رد به علي الشيخ محمود شلتوت.

وكذلك كان له دفاع عظيم، وصد لكثير من الشبه، والعوادي عن مقام النبوة في معرض نقضه لكتابي: (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرازق، وكتاب (في الشعر الجاهلي) لطفه حسين.

## المطلب الثاني: منهجه في إثبات الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان، والبحث في هذا الركن العظيم يشمل معنى الإيمان به، وهو: التصديق الجازم بإتيانه، وبجميع تفاصيله، والعمل بموجب ذلك.

ويشمل مفهوم الإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه كل ما ورد من أخبار ذلك اليوم، وما يتعلق به.

ويُبحث في هذا الركن مسائل كثيرة من أحوال البرزخ، وأشراط الساعة، وأهوال القيامة.

وأكثر مسائل هذا الركن واضحة لا إشكال فيها، وهي مرتبطة بكثير من أبواب العقيدة؛ فلها ارتباط باب الأسماء والصفات من جهة مسألة رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، وبياب الإيمان خصوصاً في موضوع الأسماء والأحكام وارتباطه بمسألة الشفاعة، ومسألة تخليد الكفار في النار، وتخليد المؤمنين في الجنة، وتعذيب العصاة حسب ذنوبهم، أو العفو عنهم إلى غير ذلك من المسائل في سائر أبواب العقيدة التي ترتبط بالإيمان باليوم الآخر.

والشيخ الخضر رحمته الله بحث عدداً من المسائل في اليوم الآخر ضمن مباحث أخرى، كتفسير آيات، أو حديث حول بعض مسائل الاعتقاد عموماً، أو من خلال ردوده على المخالفين.

ويمكن إجمال منهجه، وتقريراته حول ذلك الركن بما يلي:

أولاً: بيان معنى الإيمان باليوم الآخر، ومفهومه: يقول رحمته الله في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ البقرة: ١٧٧: «الإيمان باليوم الآخر: التصديق بالبعث، وما يقع بعده من حساب، وثواب، وعقاب على الوجه الذي وصفته نصوص الشريعة بأجلى بيان»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: بيانه ثمرات الإيمان باليوم الآخر: حيث بين ذلك في مواضع كثيرة يذكر فيها أثر الإيمان باليوم الآخر على سلوك الإنسان، وبعده عن المنكر.

ومن ذلك قوله: «والإيمان باليوم الآخر أثره عظيم في اجتناب الشر، والاستكثار من الخير؛ ففي وصف المتقين تنبيه على الوجه الذي أحرزوا به الغاية من تقوى الله في السر والعلانية»<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: بيان حكم من أنكر اليوم الآخر: يقول ﷺ: «وحيث جاز وقوعه -أي اليوم الآخر- من طريق الوحي السمعي المقطوع بصدقه على أنه واقع دخل التصديق به في حقيقة الإيمان.

ومن أنكر جزءاً مما يتقوم به الإيمان صح أن ينفى عنه الإيمان، ولا يوضع في حساب المؤمنين»<sup>(٢)</sup>.

ثم يوضح بعد ذلك أن «الجاحدين باليوم الآخر لا يباليون أن يرتكبوا القبائح، ويبسطوا أيديهم في البغي إلا حيث يخشون أن تراهم أعين الناس، وتنالهم عقوبة ذي سلطان»<sup>(٣)</sup>.

رابعاً: إثباته أن النعيم والعذاب الأخروي شامل للروح والبدن: يقول ﷺ: «ومما دلت عليه نصوص الشريعة الغراء دلالة لا تحوم بها شبهة: أن للأجسام نصيباً من ذلك النعيم أو العذاب، ولا يختص به الأرواح؛ كما يزعم بعض من لا يريد، أو لا يستطيع أن يأتي الحقائق من أبوابها.

وقد كان المشركون ينكرون بعث الأجسام، ويزعمون استحالته، ويوردون في ذلك الشبهة؛ كما قالوا فيما قصه القرآن الكريم: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ يس: ٧٨.

ورد الله عليهم بدليل نظري ينفي استحالة وقوعه، وهو قوله -تعالى-: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا

١ - المرجع السابق ص ٣٢٠.

٢ - أسرار التنزيل ص ٣١٢-٣١٣.

٣ - انظر المرجع السابق ص ٣١٢-٣١٣.

الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾<sup>(١)</sup>.

خامساً: إثباته أبدية الجنة والنار: قال ﷺ: « والنصوص التي قامت على أبدية الجنة أكثر من النصوص التي تدل على أبدية النار، ولم يخالف في أبدية الجنة عالم بحق.

والمعروف بين علماء الإسلام: أن الخلود في النار متأبد، وأنها كدار النعيم لا يلحقها فناء، وقد تحدث عن هذه المسألة ابن تيمية<sup>(٢)</sup>، وبسط ابن القيم الحديث عنها في كتابه (حادي الأرواح)<sup>(٣)</sup> «<sup>(٤)</sup>.

سادساً: رده على من أنكر البعث، والجزاء، والحساب: وذلك كصنيعه مع البهائيين؛ حيث أثبت أنهم لا يؤمنون بالبعث، ولا بالجنة، ولا بالنار، وأنهم يفسرون يوم الجزاء ويوم القيامة بمجيء ميرزا حسين الملقب بهاء الله<sup>(٥)</sup>.

١ - المرجع السابق ص ٣١٢، وانظر ص ٢٠-٢١.

٢ - انظر الرد على من قال بفناء الجنة والنار، وبيان الأقوال في ذلك لشيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة وتحقيق د. محمد بن عبد الله السمهوري، دار بلنسية، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣ - انظر حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح للعلامة ابن القيم، تقديم السيد صبيح المدني، مكتبة المدني ومطبتها، جدة، ص ٣٤٠.

٤ - المرجع السابق ص ١٤٨.

٥ - القاديانية والبهائية ص ٨٤.

## المطلب الثالث: منهجه في إثبات الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان، والإيمان بالقدر هو تقدير الله -تعالى- للأشياء في القِدم، و علمه -سبحانه- أنها ستقع في أوقات معلومة، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك، ومشيتته له، ووقوعها على حسب ما قَدَّرَهَا، و خَلَقَهَا.

أو هو: علم الله بالأشياء، وكتابته، ومشيتته، وخلقها<sup>(١)</sup>.

والإيمان بالقدر من أعظم أبواب العقيدة، وشأنه شأن غيره من الأبواب من جهة الوضوح والبيان، غير أن دقة تفاصيله، وتشعب مسائله، وكثرة الخوض فيه، وتنوع الشبهات المثارة حوله - كل ذلك يوجب صعوبة فهمه.

وباب القدر يبحث في مسائل كثيرة، منها: مفهوم القدر وما يتضمنه، ومراتبه، وأقسامه، والإرادة الربانية، وعلاقة القدر بفعل الأسباب، ومشيتة العبد واختياره، ومسائل الحكمة والتعليل، ونحو ذلك من المسائل.

والشيخ الخضر رحمته الله تعرض لمسائل في هذا الباب؛ فقد كان يمر ببعض مسائل القدر، وذلك في أثناء بحثه، أو مقالاته، أو ردوده.

ويمكن إجمال منهجه في ذلك فيما يلي:

أولاً: إثباته القدر، ومشيتة العبد واختياره: فالإيمان بالقدر لا ينافي أن يكون للعبد مشيتة في أفعاله الاختيارية، وأن يكون له قدرة عليها.

أما الشرع: فأدلته كثيرة، كقوله -تعالى-: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾

المزمل: ١٩ .

١- انظر لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرّة المضيئة في عقيدة الفرقة المرضية للعلامة محمد بن أحمد السفاريني، المكتب الإسلامي بيروت، مكتبة أسامة، الرياض، ط٢، ١٤٠٥هـ والقضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ومذاهب الناس فيه، د. عبدالرحمن بن صالح المحمود، دار الوطن، ط٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

وأما الواقع: فكل إنسان يعلم أن له مشيئةً، وقدرةً يفعل بهما ويترك، ويفرق بين ما يقع بإرادته، كالمشي، وما يقع بغير إرادته كالارتعاش<sup>(١)</sup>.

لكن مشيئته، وقدرته واقعتان بمشيئة الله وقدرته، لقوله - تعالى -: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة التكوير: ٢٨-٢٩.

والشيخ الغضنر يقرر ذلك، ويثبت، يقول ﷺ: «وسألني أحد علماء الجزائر سنة ١٩٤٣ م، وهو في طريقه إلى الحجاز عن قوله -تعالى-: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ التكوير: ٢٩؛ فإن الآية تدل على أن ما يشاؤه الإنسان ويفعله من معاصر قد شاءه الله، فكيف يتفق هذا ومسؤولية الإنسان عن أفعاله؟

فقلت حينذاك: إن المراد من المشيئة المسندة إلى العبد في الآية هي المشيئة المستلزمة للفعل؛ أي: التي يتبعها الفعل؛ فما يشاؤه العبد ويفعله، سواء كان من معصية أو طاعة لا يقع إلا أن يشاء الله وقوعه.

ويراد من مشيئة الله في الآية: المشيئة الكونية التي هي قائمة على الحكمة العامة في نظام الكون، ولا يراد من المشيئة المسندة إلى العبد المشيئة المطلقة؛ فقد يشاء العبد شيئاً، ويعدل عن فعله؛ فذلك الفعل الذي شاءه العبد ولم يفعله لم يشأ الله فعله. ومؤاخذه العبد على فعل المعاصي من جهة إرادتها وكسبها فقط، ومذهب أهل السنة: أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: تقريره لمفهوم التوكل، وأنه لا ينافي فعل الأسباب: فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، ولا الإيمان بالقدر، بل لا يتم الإيمان بالقدر إلا بالتوكل

١- انظر منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط ١، ١٤٠٦ هـ، ١٠٩/٣-١١٢، والبيان في أقسام القرآن لابن القيم، تحقيق محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط ١، ١٤٠٩ هـ، ص ٤٥ و ١٦٦-١٦٩، وانظر رسائل في العقيدة لابن عثيمين ٣٧-٣٨، والقضاء والقدر لابن عثيمين، مؤسسة أسام، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ-١٥-١٧.

٢- دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٦٢-٦٣.

على الله مع فعل الأسباب<sup>(١)</sup>.

والشيخ الخضر رحمته الله يثبت هذا الأمر بجلاء ووضوح؛ فيقرر معنى التوكل، ويؤكد أنه داعٍ للعمل، نافٍ للبطالة، ويذكر ثمرات التوكل المقرون بفعل الأسباب؛ فتراه يؤكد كثيراً على هذا المفهوم؛ لأنه يرى آثار الخلط والتفريط كثيرة في هذا الباب.

يقول رحمته الله في مقالة له بعنوان: (المدنية الفاضلة في الإسلام): «والتوكل في لسان الدين إنما يراد به: توجه القلب إلى الخالق حال العمل، واستمداد المعونة منه؛ فلم يكن داعية إلى البطالة والإقلال من العمل البتة، بل كان للتوكل الأثر العظيم في إقدام عظماء الرجال على الأعمال الجليلة التي يسبق إلى ظنونهم أن استطاعتهم وما لديهم من الأسباب الحاضرة يَقْصُرُان عن إدراكها.

وإذا فسرتَه فنةٌ غيرُ عالمةٍ بقبض اليد عن العمل، وطرح الأسباب جملة - فذلك تفسير لا يقره الدين الذي يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ الأنفال: ٦٠.

ويقول: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ النساء: ١٠٢»<sup>(٢)</sup>.

ويقول في تفسير قوله - تعالى -: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ آل عمران: ١٥٩: «والتوكل على الله: الاعتماد عليه، والثقة به، والآية ظاهرة في أن التوكل يكون عند

١- انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قيم الجوزية، تحرير الحساني عبدالله، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص ٥٠-٥٣، والرياض الناضرة، والحدائق الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، للشيخ عبدالرحمن السعدي، مؤسسة قرطبة، صححه واعتنى به أشرف ابن عبدالمقصود بن عبدالرحيم ص ١٢٥-١٢٦، وانظر تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للشيخ عبدالرحمن السعدي، ط ٢، ١٤٠٩هـ، مكتبة الأقصى، المملكة العربية السعودية، عينية، ص ١٢، والتوكل على الله، وعلاقته بالأسباب د. عبدالله بن عمر الدميحي، دار الوطن، ط ٢، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص ١٦٣-١٩٤.

٢- رسائل الإصلاح ص ١٢٨-١٢٩.

تعاطي الأسباب؛ فقد أمرت بالتوكل عند العزم على العمل، فهناك عزم وعمل يقارنهما التوكل.

وفي هذا رد على من يتوهم أن التوكل نَفْضُ اليد من الأسباب جملة. ومن أثر هذا التوهم: أنْ وَجَدَ في الأمة أشخاصٌ يرضون بأن يكونوا عالة على الناس، وهم قادرون على أن يقوموا بمطالب حياتهم، ويعيشوا في عزة وكرامة<sup>(١)</sup>. ويزيد هذا التقرير تأكيداً بقوله في محاضراته الشهيرة (الحرية في الإسلام): «بيد أن الشريعة أمرت العامل بأن يكون قلبه حال عمله مطوياً على سراج من التوكل والتفويض؛ فإن اعتماد القلب على قدرة الله وكرمه يستأصل جرائم اليأس ومنابت الكسل، ويشد ظهر الأمل الذي يلجج به الساعي أغوار البحار العميقة، ويقارع به السباع الضارية في فلواتها»<sup>(٢)</sup>.

ويقرر كذلك أنه: «ما اقترن العزم الصحيح بأدب التوكل على من بيده ملكوت كل شيء إلا كانت العاقبة نجاحاً ورشداً»<sup>(٣)</sup>.

ثالثاً: إيضاحه لبعض الإشكالات المثارة في القدر: ومن ذلك ما بينه في رده على علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) حيث قال علي عبدالرازق زارياً على العلماء والشعراء: «وكذلك شاع هذا الرأي، وتحدث به العلماء والشعراء منذ القرون الأولى؛ فتراهم يذهبون دائماً إلى أن الله -جل شأنه- هو الذي يختار الخليفة، ويسوق إليه الخلافة»<sup>(٤)</sup>.

فالشيخ علي عبدالرازق -كما ترى- يخلط بين نوعي الإرادة الربانية، وهما:

١. الإرادة الكونية القدرية: التي ترادف المشيئة.

وهذه الإرادة لا يخرج عن مرادها شيء ولا بد أن تقع؛ فالبر والفاجر، والمسلم

١ - أسرار التنزيل ص ٣٩٤ .

٢ - محاضرات إسلامية ص ٢٦ .

٣ - رسائل الإصلاح ص ١٤٣ .

٤ - نفث كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٦ .

والكافر، والطاعات والمعاصي كلها بمشيئة الرب وإرادته بهذا الاعتبار.

٢. الإرادة الشرعية الدينية: وتتضمن محبة الرب، ورضاه، ولا يلزم وقوعها، فقد تقع وقد لا تقع<sup>(١)</sup>.

فمن عرف الفرق بين هاتين الإرادتين سلم من شبهات زلت بها أقوام، وضلت بها أفهام؛ فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر أو العكس كان أعور<sup>(٢)</sup>.

وهذا ما تفتن له الشيخ الخضر في نقضه لعلبي عبدالرازق في هذه المسألة التي أثارها؛ حيث قال الشيخ الخضر في رده: «يعرف العلماء أن بين الخالق -جل شأنه- وأمر الخلافة صلة القضاء والقدر، وذلك معنى لا يختص بالخلافة، بل يتحقق في كل ما يحدث في الكون من محبوب ومكروه.

وهناك معنى آخر زائد عن القضاء والقدر، وهو الإرادة بمعنى: المحبة والرضا، وهذا -أيضاً- يتعلق بكل ما فيه خير وصلاح، ولا يتعلق بأمر الخلافة إلا بتفصيل، وهو أن يقال: متى كان الخليفة مستقيماً عادلاً، كانت ولايته خيراً وصلاحاً، وصح أن يقال: وقعت بإرادة الله؛ أي: بحبته ورضاه.

وإن كان جائراً فاسقاً عن أمر ربه كانت ولايته شراً وفساداً، واستحقت أن يقال

١- انظر منهاج السنة النبوية ٣/١٨٠-١٨٣، ٥/٣٦٠ و٤١٣ و٤١٤ و٧/٧٢، ٧٣، وانظر شفاء العليل ص ٥٥٧، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، تحقيق وتعليق المعتصم بالله البغدادي، توزيع دار النفائس، الرياض، ط ١، ١٤١٠هـ، ١/٢٦٤-٢٦٨، وتبيينه ذوي الألباب السليمة عن الوقوع في الألفاظ المتبدعة الوخيمة، للشيخ ابن سحمان، دار العاصمة، الرياض ص ٦١-٦٢، وتعليق الشيخ ابن باز على الواسطية في كتاب التنبيهات اللطيفة ص ٤١، وشرح الواسطية للهراس، ضبط نصه وخرج أحاديثه: الشيخ علوي السقاف، ط ١، ١٤١١هـ، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة ص ١٠٠، وشرح العقيدة الواسطية للشيخ صالح الفوزان، ط ٥، ١٤١١هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص ٤٢-٤٣، والقضاء والقدر للأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٠هـ، ص ١٠٦٢، والتعليقات على لمعة الاعتقاد للشيخ عبدالله بن جبرين، دار الصميعي، ط ١، ١٤١٢هـ ص ٦٠-٦١.

٢- انظر الاستقامة لابن تيمية ٧٨/٢.

عليها: إنها لم تكن محبوبة لله، ولا مختارة عنده.

ومن نبه على حقيقة هذه الإرادة الدينية الشرعية واختصاصها بما هو خير ومأمور به: أبو إسحاق الشاطبي في (موافقاته) وشيخ الإسلام ابن تيمية في (رسالة الأمر والإرادة). فدعوى أن العلماء يذهبون دائماً إلى أن الله هو الذي يختار الخليفة، ويسوق إليه الخلافة - لا نجد في أقوال العلماء ما يحوم عليها، وما هي إلا كلمة سقطت من قلم المؤلف قبل أن تأخذ حظها من البحث وإمعان التفكير<sup>(١)</sup>.

رابعاً: إثباته الحكمة والتعليل في أفعال الله، ورده على من أنكروها: فمسألة تعليل أفعال الله، وإثبات الحكمة فيها من أجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق والأمر، والشرع والقدر. والحديث في هذا المقام لا يسمح بالتفصيل.

وقد اختلف الناس فيها على أقوال شتى، ولكنّها ترجع إلى قولين:

أحدهما: قول نفاة الحكمة، وهو قول الأشاعرة ومن وافقهم ممن يرى أن الله - عز وجل - قدر المقادير، وشرع الشرائع لغير علة، أو حكمة، بل فعل ذلك لمحض المشيئة، وصراف الإرادة.

الثاني: قول الجمهور الذين يثبتون الحكمة، وأنّ لله في كل ما يقضيه حكمةً ورحمة.

وهذه الحكمة تتضمن شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إليه - تعالى - يحبها ويرضاها.

والثاني: حكمة تعود إلى عباده، فهي نعمة عليهم يفرحون، ويلتذون بها.

وهذا يكون في الأمور، والمخلوقات<sup>(٢)</sup>.

١ - تقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٦-٢٧ .

٢ - انظر أصول الدين للبغدادى ص ١٥٠-١٥١، مجموع الفتاوى ٣٦-٣٥/٨، وبيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية، بتصحيح وتكميل وتعليق الشيخ محمد ابن عبدالرحمن بن قاسم، ط ٢، ١٤٢١هـ، دار القاسم ١٩٧/١-٢٠٣، وشرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية، حققه سعيد ابن نصر بن محمد، مكتبة الرشد الرياض، ط ١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م ص ٢٦١-٢٦٣، والقضاء والقدر د. عبدالرحمن المحمود ٢٤٢-٢٤٨. وموقف ابن تيمية من الأشاعرة د. عبدالرحمن المحمود ٣/١٣١٠-١٣١٢، وانظر تفصيل ذلك في: الحكمة والتعليل في أفعال الله، د. محمد بن ربيع المدخلي، ط ١، ١٤٠٩هـ، مكتبة لينة للنشر والتوزيع، دمنهور.

والشيخ الخضر رحمه الله تطرق لهذه المسألة؛ فأثبت الحكمة لله - عز وجل - ورد على من ينكر شيئاً من ذلك، وذلك في مواضع من كتبه.

ومن ذلك ما جاء في كتابه: (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) يقول رحمه الله: «قال المؤلف - يعني علي عبدالرازق - في ص ٨٥: «إن كل ما جاء به الإسلام من عقائد ومعاملات، وآداب وعقوبات فإنما هو شرع ديني خالص لله - تعالى - ولمصلحة البشر الدينية لا غير.

وسياتي بعد ذلك أن تتضح لنا تلك المصالح الدينية أم تحفى علينا، وسيان أن يكون منها للبشر مصلحة مدنية أم لا؛ فذلك ما لا ينظر الشرع السماوي إليه، ولا ينظر إليه الرسول»<sup>(١)</sup>.

يقول الشيخ الخضر في نقضه لهذا الكلام: «يقول المؤلف في هذه الفقرة: (إن ما جاء به الإسلام من معاملات وعقوبات غير قائم على رعاية المصالح المدنية) ويقصد بهذا: أنها لا تصلح لأن تتمسك بها الدولة في سياستها، وما هو إلا الهوى تزوج بالعقيدة الشوهاء، فكان من نسلهما هذا الرأي العنيد»<sup>(٢)</sup>.

ثم شرع رحمه الله في نقض ما ذكره علي عبدالرازق فقال: «أحكام الإسلام ترجع إلى: عبادات، ومعاملات، وعقوبات.

أما العبادات، فالتقصد منها: مصلحة البشر الدينية، وقد تتبعها مصالح دنيوية؛ كما قال - تعالى -: ﴿ اَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ نوح: ١١-١٠ .

وأما المعاملات والعقوبات، فإنه يراد منها: إقامة المصالح في الدنيا، وتترتب عليها مصلحة أخروية، وهي الثواب عليها في الدار الباقية، متى صحب العمل بها قصد الامثال.

وهذه المصلحة الأخروية لا تُخرج المصلحة الدنيوية عن أن تكون هي المصلحة التي يبحث عنها أصحاب القوانين الوضعية، وإن شئت تحرير البحث في هذا الصدد، فإليك التحرير»<sup>(٣)</sup>.

ثم أفاض في تفصيل ذلك في كلام يطول ذكره<sup>(٤)</sup>.

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٤٨-٢٤٩ .

٢ - المرجع السابق ص ٢٤٩ .

٣ - المرجع السابق ص ٢٤٩ .

٤ - انظر المرجع السابق ص ٢٤٩ .

ثم ختم نقض هذه الفقرة مبيناً «أن أهل العلم عقدوا خناصرهم على أن أحكام الشريعة معللة بمصالح العباد في هذه الحياة وفي تلك الحياة، وأن المصالح التي تقصدها الشريعة السماوية ترجع إلى حفظ النفس، والدين، والعقل، والعرض، والنسب، والمال»<sup>(١)</sup>.  
وأنه نظراً «لبناء أحكام الشريعة على مصالح العباد في الدنيا خاض أهل العلم في البحث عن هذه المصالح، وعقدوا الموازنة بينها وبين المفسد؛ لبيّنوا الحكم الراجح منهما عند التعارض»<sup>(٢)</sup>.

ثم أورد كلاماً للشاطبي، وعز الدين بن عبد السلام لتأييد ما ذكره.

ثم قرر أنه «من جهة التعليل بالمصالح انفتح باب القياس في الأحكام، وهو إلحاق الأحكام بنظائرها المنصوص عليها؛ حيث اشتركا في العلة، كما قاسوا القضاء في حال المرض على القضاء في حال الغضب المنصوص عليه في قوله ﷺ: «لا يقضي القاضي وهو غضبان»<sup>(٣)</sup> لأن علة المنع من القضاء متحققة في حال المرض، وهي قلق الفكر، واضطرابه»<sup>(٤)</sup>.

وله كلام قريب من هذا في معرض حديث له عن (النسخ في الشريعة الإسلامية) حيث قرر أن المحققين من أهل العلم يقولون: إن أحكام الله -تعالى- مراعى فيها مصالح العباد، واللطف بهم، وأن المصالح تختلف باختلاف الأوقات؛ فقد يكون الفعل مفسدة في وقت، ومصلحة في وقت آخر، كوجوب وقوف الواحد من المسلمين للعشرة من الكفار؛ حيث اقتضته قلة المسلمين، ورُفِعَ هذا الوجوب؛ حيث استغني عنه بكثرتهم<sup>(٥)</sup>.

وهكذا يثبت الحكمة والتعليل في تشريع الشرائع، وينقض ذلك الرأي الذي ينفيهما.  
ثم إن له ﷺ كلاماً عظيماً في بيان الحكمة من خلق المرض، والابتلاء به.

١ - انظر المرجع السابق ص ٢٤٩-٢٥١ .

٢ - المرجع السابق ص ٢٥١ .

٣ - أخرجه البخاري (٦٧٣٩) ومسلم (١٧١٧) باختلاف في اللفظ.

٤ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٥٣ .

٥ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ١٠٤-١٠٥ .

وذلك في بحثه (قصة أيوب - عليه السلام - ونقض آراء حديثة في التفسير). ومن أقواله في بيان بعض وجوه الحكمة من المرض، وخصوصاً مرض نبي الله أيوب - عليه السلام - قوله: «إن الله يتلي بعض رسله بمرض غير مُنْفَرٍّ، ثم يعافيه من ذلك المرض الشديد؛ ليظهرَ فضلُ صبره للناس، ويتبينوا أن الأمراض الشديدة قد تعرض للرسول - عليهم السلام - ولا يخدش ذلك في نبوتهم، بل يزدادون من الله قرباً»<sup>(١)</sup>.

وقوله: «قصة المرض الشديد، وملاقاته بالصبر الجميل ليست من الشؤون الهينة في جانب رسول كريم، ولا في جانب الكتاب العزيز، بل هي من الشؤون التي يعظ الله فيها المصطفين من عباده، ويذكرهم بها في كتابه؛ فمن الجلي أن الصبر فضيلة، وأنه يتفاوت في الفضل بحسب شدة المصيبة، وطول مدة نزولها، وبحسب الغاية التي يحتمل من أجلها المكروه؛ فلمن صبر على فقد ولد يعزُّ عليه مزية فوق مزية مَنْ صَبِرَ على فقد مال، ولمن صبر على مرض يطيش معه المنام ليالي كثيرة فضلٌ على من صبر على مرض يأرق له ليلة أو ليلتين، ولمن صبر على نَصَب يناله في سبيل الدعوة إلى الإصلاح فضلٌ على من صبر على نصب يلقاه في ابتغاء متاع هذه الحياة»<sup>(٢)</sup>.

وقوله: «فالمرض المِضُّ من أشد المصائب، والصبر عليه من أسنى الفضائل؛ فمن حكمة القرآن أن لا يهمل التذكير بالصبر على هذا النوع من المصائب.

وما قصة أيوب - عليه السلام - إلا تذكير بالصبر على مصيبة قد تتزلزل عندها القلوب جزعاً، وقد تشكو منها الألسنة، فلا ترعى في شكواها أدباً»<sup>(٣)</sup>.

وقوله: «فالمرض الشديد يبعث في الجسم ألماً، وفي العين أرقاً، وفي المضجع قلقاً، وفي النفس غماً، وناهيك ببلاء قد يتمنى صاحبه الموت العاجل؛ ليَخْلُصَ من أوجاعه.

فما ينبغي لأحد أن يستخف ببلاء المرض، ويعدُّ التذكير بحال مَنْ لاقاه بسكينة ورباطة جأش لا يليق بمقام الرسول، أو القرآن، أو مقام ذي العظمة والجلال»<sup>(٤)</sup>.

١ - بلاغة القرآن ص ٢٢٤ .

٢ - بلاغة القرآن ص ٢٢٤-٢٢٥ .

٣ - المرجع السابق ص ٢٢٥ .

٤ - المرجع السابق ص ٢٢٥ .

وقوله: «في تبيين الناس أن الأمراض قد تعرض للرسول والأنبياء؛ فذلك لا يتوقف على أن يكون المرض بالغاً حدّاً أن يتحدث عنه القرآن لأعظم الرسل والأنبياء»<sup>(١)</sup>.

خامساً: تعرضه لنشأة القول بالقدر: حيث تطرق في معرض حديث له عن المعتزلة إلى إنكارهم للقدر، وقولهم: إن العبد يخلق أفعاله.

وقرر أن معبد الجهني سبق المعتزلة في إنكار القدر<sup>(٢)(٣)</sup>.

فهذا هو خلاصة ما تطرق له في باب القدر.

١ - المرجع السابق ص ٢٢٧ .

٢ - انظر محاضرات إسلامية ص ١٧٤ .

٣ - تكاد مصادر أهل السنة تجمع على أن أول من تكلم بالقدر رجل من أهل البصرة يعمل بقلاً ويقال له: «سنسويه»، وبعضهم يسميه «سيسويه»، وبعضهم يسميه «سوسن».

ثم تلقفها عنه معبد الجهني، وأخذ عن معبد غيلان الدمشقي.

قال الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام رحمته الله: «أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له:

«سوسن» كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد».

وبعد معبد وغيلان ظهر رؤوس الاعتزال كواصل بن عطاء، وعمرو ابن عبيد، فنقلوا هذه المقالات

ونشروها. انظر الإيمان لابن مندة ١/١٣٢، والفرق بين الفرق للبغدادى ص ١١٧، والقضاء والقدر

للمحمود ص ١٦٤.

الفصل الثالث : منهج الشيخ محمد الخضر في إثبات المسائل المتعلقة بالعقيدة

وفيه تمهيد ، وثلاثة مباحث :

تمهيد

المبحث الأول : منهجه في باب الإيمان

المبحث الثاني : مصادره في باب العبادة

المبحث الثالث : منهجه في بابي الصحابة والإمامة



### الفصل الثالث: منهج الشيخ محمد الخضر في إثبات المسائل المتعلقة بالعقيدة

#### تمهيد

المسائل المتعلقة بالعقيدة من غير الأركان الستة - كثيرة، وبعضها داخل في بعض، ومرتبطة بأصول الإيمان.

وللشيخ الخضر كلام في تلك المسائل، مبثوث في كثير من كتبه.

وبحثه فيها متفاوت؛ إذ قد يبحث بعضها بتفصيل، ويبحث بعضها بإجمال، وبعضها قد يمر به مروراً عابراً.

وفيما يلي من المطالب ذكر لأهم المباحث التي تطرق لها، ومنهجها في بحثها.

### المبحث الأول: منهجه في باب الإيمان

والمقصود بالإيمان هنا ذلك الباب الذي يبحث في مفهوم الإيمان، وحقيقته، وثمراته، والعلاقة بينه وبين الإسلام، ومسألة زيادة الإيمان ونقصانه، والاستثناء في الإيمان. و يبحث - كذلك - في مسائل الكفر، والتكفير، والصغائر، والكبائر، وما يندرج تحت تلك المسائل كمسألة قيام الحجة، وموانع التكفير، ومسألة أسماء الدين، والأحكام المترتبة عليها، أو ما يسمى بمسألة الأسماء والأحكام، وما إلى ذلك من المسائل التي تُبحث في كتب العقائد، وتدخل تحت مسمى: الإيمان. ولقد تطرق الشيخ الخضر لجملة من المسائل في هذا الباب، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

أولاً: تطرقه للفرق بين الإسلام والإيمان: فالإسلام والإيمان - كما هو معلوم - إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا؛ بمعنى إذا اقترن أحدهما بالآخر في سياق واحد فإن الإسلام يفسر بالاستسلام الظاهر، الذي هو قول اللسان، وعمل الجوارح، والذي يصدر من المؤمن كامل الإيمان، وضعيف الإيمان. ويفسر الإيمان بالاستسلام الباطن الذي هو إقرار القلب، وعمله، ولا يصدر إلا من المؤمن حقاً.

فهذا هو خلاصة هذه المسألة، والكلام فيها يطول<sup>(١)</sup>.

والشيخ الخضر رحمته الله يقرر هذا، فيقول عند تفسيره لقول الله - تعالى -: ﴿ وَنَحْنُ لَهُ

١- انظر التمهيد لابن عبد البر ٢٣٨/٩، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكاني، تحقيق د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض ٨٣٢/٤، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٨٠٣/٧ و ٤٧٢/٢، وتفسير ابن كثير ٣٩/١، وفتح الباري لابن حجر ص ٤٧٨، وتوضيح الكافية الشافية للشيخ عبدالرحمن السعدي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٦٨، ص ٨، والفتاوى السعدية للشيخ عبدالرحمن السعدي، مطبعة الكيلاني، الناشر السعيدية، الرياض، ص ١٧ .

مُسْلِمُونَ ﴿ البقرة: ١٣٣: «الإسلام: الخضوع بالطاعة، والانقياد للأمر والنهي. والضمير في قوله: ﴿لَهُ﴾ عائد إلى الله -تعالى- والجمله مندرجة تحت قوله: ﴿قُولُوا﴾.

والمعنى: قولوا: آمنا بالله، وقولوا: نحن مسلمون؛ فتكون الآية مبتدأة بالإيمان الذي هو التصديق بالقلب، ومنتھية بالإسلام الذي هو انقياد الجوارح بالعمل الصالح»<sup>(١)</sup>.  
ثانياً: تطرقه لمسألة الصغائر والكبائر: والمقصود بذلك -كما هو معلوم- صغائر الذنوب، وكبائرها.

وهذه المسألة لها ارتباط وثيق بباب الإيمان من جهة تحديد الصغائر عند مَنْ يحددها بعدد، أو من يحددها بحد، ومن جهة حكم مرتكب الكبيرة، ماذا يطلق عليه؟ وما حكمه في الدنيا والآخرة؟ واختلاف الفرق في ذلك.

والشيخ الخضر رحمته الله تطرق لمسألة الصغائر والكبائر؛ ففي بحث له عنوانه (الكبيرة والصغيرة) تكلم على هذه المسألة، فقرر أن الإنسان يكمل إيمانه «بصحة الاعتقاد، واجتناب الكبائر والصغائر؛ فإن اعتقد ما لا يليق اعتقاده بالله كان غير مؤمن، وإن فعل ما نهى عنه الدين، أو ترك ما أمر به كان عاصياً»<sup>(٢)</sup>.

ويوضح أن غير المؤمن بالله هو من يكفر بالله، أو يجحد «صفة من صفاته العلية كالوحدانية، والقَدَم، والقدرة، والعلم، أو أنكر الملائكة، أو شيئاً من كتبه، أو أحد رسله، أو البعث، أو جحد ما وقع عليه الإجماع، وعُلم من الدين بالضرورة كالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، وأن الشريعة جاءت بأحكام المعاملات كما جاءت بأحكام العبادات»<sup>(٣)</sup>.

فيقرر رحمته الله أن من كان كذلك فهو غير مؤمن، ولا يطلق عليه اسم الإيمان، بل هو

١ - أسرار التنزيل ص ٢٤٩ .

٢ - دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٥٩ .

٣ - دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٥٩ .

كافر بالله - عز وجل -.

ويقرر - أيضاً - أن المعاصي التي لا تبلغ مرتبة الكفر منها كبائر، وصغائر، وأن بعض العلماء تأدب؛ فلم يذكر الصغائر؛ إجلالاً لمن يُعصى بها<sup>(١)</sup>.

وإلا فهم متفقون على أن المعاصي منها كبائر، ومنها صغائر<sup>(٢)</sup>.

ثم يذكر بعد ذلك الأدلة من الكتاب والسنة، والقواعد المأخوذة منهما على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر<sup>(٣)</sup>.

ويقرر بعد ذلك أن العلماء ألقوا بما ذكر في الكتاب والسنة من الكبائر ما كانت مفسدته عظيمة، كمفسدة الكبائر المنصوص عليها، وألقوا بالصغائر ما تكون مفسدته قليلة.

وأن تقدير ذلك يرجع إلى المجتهد في الشريعة؛ لأنه هو الذي يعرف مقدار المفسدة التي جعلها الشارع مقياساً للحكم على الكبيرة والصغيرة.

وذكر بعض ما قرره العلماء من أن الإصرار على الصغيرة قادح في الشهادة؛ فيلحق بالكبيرة، وأنهم فسروا ذلك بأن تتكرر الصغيرة، ولا يُظهر التوبة منها، ولا الندم عليها<sup>(٤)</sup>.

١ - يذكر ابن القيم رحمته الله تحليل الذين لم يقسموا الذنوب إلى صغائر وكبائر بأنهم قالوا: «الذنوب كلها بالنسبة إلى الجراءة على الله - سبحانه - ومعصيته، ومخالفة أمره - كبائر؛ فالنظر إلى من عصي أمره، وانتهك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر، وهي مستوية في هذه المفسدة». انظر الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص ٣٠٩.

٢ - يقول ابن القيم رحمته الله مقرأً ذلك: «الشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل؛ فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات، وأفضل الطاعات؛ فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي». انظر الجواب الكافي ص ٣١٢.

٣ - انظر دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٦٠.

٤ - انظر المرجع السابق ص ٦٠.

ثم بعد ذلك يقرر مذهب أهل السنة في مرتكب الكبيرة، فيقول: «ذهب أهل السنة إلى أن فاعل الكبيرة يعذب عذاباً شديداً، ولا يخلد في النار كما يخلد المشركون. ويؤيد ما ذهبوا إليه قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ النساء: ٤٨<sup>(١)</sup>.

ثم يقرر مذهب الوعيدية -من الخوارج والمعتزلة- في حكم مرتكب الكبيرة فيقول: «وذهب الخوارج، وهم الذي خرجوا على علي -كرم الله وجهه- إلى أن مرتكب الكبيرة خالد في النار، والمعتزلة يرون أنه بمنزلة بين المؤمنين والكافرين، وأنه يخلد في العذاب. وقد استدل الفريقان بقوله -تعالى-: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ النساء: ٩٣<sup>(٢)</sup>.

ثم يقرر خطأ ما ذهب إليه الخوارج والمعتزلة، فيقول: «ولا يرى أهل السنة في هذه دليلاً؛ لأن المقصود بها مَنْ قُتِلَ -وهو كافر- مؤمناً، أو أن المراد بالخلود: طول الإقامة من غير تأييد»<sup>(٣)</sup>.

ويذكر بعد ذلك معاصي تلحق بالكفر، فيقول: «ويلحق بالكفر معاصي إذا ارتكبت كانت كفراً، كتكفير الصحابة؛ لأنه يقتضي إبطال الشريعة كلها؛ فهم رواها، وعنهم أخذت»<sup>(٤)</sup>.

ويقول -أيضاً-: «ولا أظن عالماً بقواعد الشريعة يخالف في كفر من يُطلع الأجانب على عورات المسلمين؛ ليغلبوهم على أمرهم، ويستولوا على أوطانهم»<sup>(٥)</sup>.  
ويقرر أنه لا يعد عاصياً من عُرف منه الدخول تحت سلطان الشريعة، وإنما خالف الجمهور بدليل؛ فابتدع رأياً لا يقول به الشرع؛ فتلك ضلالة<sup>(٦)</sup>.

١ - المرجع السابق ص ٦٠-٦١ .

٢ - المرجع السابق ص ٦١ .

٣ - انظر محاضرات إسلامية ص ٦١، ودراسات في الشريعة الإسلامية ص ٦١ .

٤ - دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٦١ .

٥ - المرجع السابق ص ٦١ .

٦ - انظر المرجع السابق ص ٦٢ .

ثالثاً: تعرضه لبعض مسائل أسماء الدين: وهذه المسائل تُعرف -أيضاً- بمسألة الأسماء والأحكام.

والمراد بالأسماء ههنا: أسماء الدين مثل: مؤمن، ومسلم، وكافر، وفاسق، ونحوها. والمراد بالأحكام: أحكام أصحابها في الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup>.

وقد مر في الفقرة الماضية عند الحديث عن الصغائر والكبائر ذكر لبعض تلك الأسماء، وحكم أصحابها.

ومما تعرض له في تلك المسألة من الأسماء والأحكام ما يلي:

١. الكافر: قال ﷺ بعد أن قرر معنى الكفر في اللغة، وأن أصله الستر والإخفاء، ثم شاع في جحود النعمة، وأن الشارع استعمله في عدم الإيمان بالله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وما يجيء به الرسول نصاً صريحاً، ويصير معلوماً من الدين بالضرورة. قال بعد ذلك: «وسمي من لم يؤمن بما يجب الإيمان به بعد الدعوة إليه: كافراً؛ لأنه صار بجحوده ذلك الحق، وعدم الإذعان إليه كالمغطى عليه»<sup>(٢)</sup>.

أما حكم الكافر فقد بينه في الفقرة الماضية، وقال فيه -أيضاً- في تفسير قوله -تعالى-: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ البقرة: ٧: «هذا بيان لما يستحقونه من الجزاء على إغراقهم في الكفر، واستحبابهم للمعاصي»<sup>(٣)</sup>.

٢. المنافق: قال ﷺ عن المنافقين: «وهم الذين يبطنون الكفر في قلوبهم، ويظهرون الإيمان بأفواههم»<sup>(٤)</sup>.

وبين حكم المنافقين، ومصيرهم، فقال في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ البقرة: ١٠: «وفهم أن هذا العذاب جزاء على الكفر -أيضاً- من سياق الكلام.

١ - انظر شرح العقيدة الواسطية، للشيخ د. محمد خليل هراس ص ١٩٠-١٩١ .

٢ - أسرار التنزيل ص ٢٣ .

٣ - المرجع السابق ص ٢٤ .

٤ - المرجع السابق ص ٢٥ .

أو يقال: إن جزاء الكفر دل عليه قوله -تعالى- في قصة الكافرين المجاهرين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ إذ المنافقون يشاركونهم في الكفر الذي استحقوا به ذلك العذاب، ويساؤونهم فيه، وهذه الآية جاءت لتدل على جزاء ما امتازوا به عن الكافرين المجاهرين، وهو الكذب في دعوى الإيمان، فللمنافقين عذابان: عذاب عظيم على كفرهم، وعذاب أليم على كذبهم الذي يرتكبونه المرة بعد الأخرى؛ خداعاً لله والمؤمنين.

والدليل من الآية على أن كذبهم كان يتجدد حيناً بعد حين صيغة: ﴿كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

وقرئ: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ من التكذيب؛ أي: يكذبون الرسول فيما يدعو إليه»<sup>(١)</sup>.

٣. المتقي: يقول ﷺ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: «والمتقون جمع متقٍ: أي متصف بالتقوى، والتقوى درجات، أدناها اجتناب الشرك، وأعلىها: اجتناب ما نهى الله عنه، والقيام بما أمر الله به حسب الاستطاعة»<sup>(٢)</sup>.

ويبين حكمهم في الآخرة والسلامة من فزع يوم البعث، والفوز بنعيم الروح والبدن في دار الخلود<sup>(٣)</sup>.

٤. الولي: قال ﷺ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس: ٦٢: «والأولياء جمع ولي، والوليُّ وصف مأخوذ من الولي، وهو القرب.

وإطلاقه على المؤمن الصادق؛ لأنه قريب من الله قريباً روحانياً، وهو القرب الذي يُنال بطهارة القلب، وخلوص النية، واستقامة الأعمال»<sup>(٤)</sup>.

ثم بين أن أولياء الله يكونون في نجاة وسلامة من المكاره؛ «فلا تلحقهم مكاره

١ - المرجع السابق ص ٢٧-٢٨ .

٢ - المرجع السابق ص ١٦ .

٣ - انظر المرجع السابق ص ٢٠-٢١ .

٤ - المرجع السابق ص ٤٠٧ .

الآخرة بإطلاق، وقد تلحقهم في الدنيا مكاره يعقبها ما هو خير منها.  
ومن لا يناله مكروه إلا أن يعقب ذلك المكروه خير أكبر منه - صح أن ينظر إلى ذلك المكروه الذي يصيبه بعين الاستصغار»<sup>(١)</sup>.

ويقرر أن أولياء الله هم تحت رعاية الله في كل حال؛ فلا يدركهم في الدنيا ما يوجب الخوف عليهم.

ثم يواصل بعد ذلك تقرير ما قد يصيب أولياء الله في هذه الدنيا من المصائب، وما يعقبها من الآثار الحميدة، والبشرى، والسرور، ونحو ذلك<sup>(٢)</sup>.

٥. الفاسق: قال ﷺ في تفسير قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ البقرة: ٢٦: «الفاسقون: جمع فاسق؛ من الفسق، وهو في أصل اللغة: الخروج، يقال: فسقت الرطبة من قشرها؛ أي: خرجت منه.

وشرعاً: الخروج عن طاعة الله، فيشمل الخروج من حدود الإيمان، وهو الكفر، ثم مادون الكفر من الكبائر والصغائر، ولكنه اختص في العرف من بعد بارتكاب الكبيرة، ولم يُسمع الفسق في كلام الجاهلية بمعنى الخروج عن الطاعة، فهو بهذا المعنى من الألفاظ الإسلامية»<sup>(٣)</sup>.

رابعاً: تعرضه لبعض موانع إنفاذ الوعيد: وهي الأسباب التي تندفع بها العقوبة، ويزول موجب الذنوب؛ فالذنوب موجبة لدخول النار، وصاحبها متوعد بالعذاب، غير أن هناك أسباباً تندفع بها العقوبة، وينتفي بسببها الوعيد، ويزول موجب الذنوب. وهذه الأسباب تسمى موانع إنفاذ الوعيد، أي موانع إيقاع العذاب على مستحقه؛ لأن الوعيد إنما يكون بالشر.

وهذه الأسباب عشرة عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة.

١ - المرجع السابق ص ٤٠٨ .

٢ - المرجع السابق ص ٤٠٨-٤١٢ .

٣ - المرجع السابق ص ٥٤-٥٥ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب: أحدها: التوبة، وهذا متفق عليه بين المسلمين»<sup>(١)</sup>.

ثم شرع رحمه الله في ذكر باقي الموانع بالتفصيل.

وقال في موضع آخر: «والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

١- أن يتوب فيتوب الله عليه؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

٢- أو يستغفر، فيغفر الله له.

٣- أو يعمل حسناتٍ تمحوها؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات.

٤- أو يدعو له إخوانه المؤمنون، ويستغفرون له حياً وميتاً.

٥- أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

٦- أو يشفع فيه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

٧- أو يتلى الله - تعالى - في الدنيا بمصائب تكفر عنه.

٨- أو يتلى في البرزخ بالصعقة، فيكفر بها عنه.

٩- أو يتلى في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه.

١٠- أو يرحمه أرحم الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه، كما قال - تعالى - فيما يرويه عنه رسول

الله صلى الله عليه وسلم: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»<sup>(٢)(٣)</sup>.

وقال في الاستقامة: «فإن الذنوب التي يُبتلى بها العبادُ يسقط عنهم عذابها إما بتوبة

تَجِبُ ما قبلها، وإما باستغفار، وإما بحسنات ماحية يذهبن السيئات، وإما بدعاء المسلمين

وشفاعتهم، أو بما يفعلونه له من البر، وإما بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وغيره فيه يوم القيامة، وإما

أن يكفر الله عنه خطاياهم بما يصيبه من المصائب»<sup>(٤)</sup>.

١- مجموع الفتاوى ٤٨٧/٧.

٢- رواه مسلم (٢٥٧٧).

٣- مجموع الفتاوى ٤٥/١٠-٤٦.

٤- الاستقامة ١٨٤/٢-١٨٥.

وقد تطرق الشيخ الخضر لأكثر هذه الموانع، وأعظم ما تطرق له منها ما يلي:

١. التوبة: وهي المانع الوحيد الذي يزول به موجب الذنوب للمؤمن والكافر، أما باقي الموانع فخاصة بالمؤمن.

والشيخ الخضر تعرض لمسألة التوبة، وأجلى ما في ذلك ما جاء في تفسيره لقول الله -تعالى-: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۗ﴾ البقرة: ١٢٨.

فقرر هناك أن التوبة تسند إلى العبد، فيقال: تاب فلان إلى الله، فيكون معناها: الندم على ما لابس من الذنب، والإقلاع عنه، والعزم على عدم العود إليه، ورد المظالم إن استطاع، أو نية ردها إن لم يستطع.

وقرر -أيضاً- أن التوبة تسند إلى الله، فيقال: تاب الله على فلان، فيكون معناها: توفيقه إلى التوبة، أو قبولها منه؛ فمعنى ﴿تُبْ عَلَيْنَا ۗ﴾: وفقنا للتوبة<sup>(١)</sup>.

كما أثبت أن التوبة تكون من المعاصي: كبائر أو صغائر، ويشير بذلك إلى التوبة الواجبة.

وأثبت أنها تكون -كذلك- من ترك ما هو أولى، أو من تقصير يؤدي إليه خطأ في الاجتهاد، ويشير بذلك إلى التوبة المستحبة<sup>(٢)</sup>.

ويرى أنه على أحد هذين الوجهين تحمل التوبة التي يسأل الأنبياء والمرسلون قبولها<sup>(٣)</sup>.

٢. المصائب المكفرة: وقد مر الحديث عن ذلك عند الكلام على منهجه في إثبات مسائل القدر، وذلك عند حديثه عن حكمة خلق المرض.

٣. الشفاعة: وهي -كما مر- من موانع إنفاذ الوعيد.

١- انظر أسرار التنزيل ص ٢٣٥.

٢- التوبة الواجبة: هي التي تكون من فعل المحرمات أو ترك الواجبات، والتوبة المستحبة: هي التي تكون من فعل المكروهات أو ترك المستحبات. انظر جامع الرسائل لابن تيمية د. محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، ط ١، ١٤٠٥هـ، ١/٢٢٧.

٣- انظر المرجع السابق ص ٢٣٥.

والخوارج والمعتزلة ينكرون شفاعة النبي ﷺ وغيره لأهل الكبائر، ويقصرون الشفاعة على التائبين من المؤمنين؛ لأن إثبات الشفاعة للفساق ينافي مبدأ الوعيد في مذهبهم؛ فهم يرون وجوب إنفاذ الوعيد لمن استحقه، ولا يرون الشفاعة له من النبي ﷺ ولا من غيره .

ويقابل غلو هؤلاء في نفي الشفاعة غلو في إثباتها .

وذلك كغلو النصارى والمشركين، والروافض، وغلاة الصوفية، ومن نحنا نحوهم، فهؤلاء جعلوا لمن يعظموهم شفاعة عند الله في الآخرة كشفاعتهم في الدنيا، فيرون أن هؤلاء المعظمين يشفعون لهم عند الله يوم القيامة شفاعة مستقلة.

أما أهل السنة فتوسطوا في هذا الباب، فلم ينفوا كل شفاعة، ولم يثبتوا كل شفاعة . بل أثبتوا من الشفاعة ما دل عليه الدليل من الكتاب والسنة ونفوا منها ما نفاه الدليل . فالشفاعة المثبتة عندهم هي التي تطلب من الله - عز وجل - وهي التي تكون للموحدين بعد إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له . فلا تطلب من غير الله، ولا تكون إلا بعد إذنه ورضاه .

فهذه الشفاعة يثبتها أهل السنة بأنواعها، بما في ذلك الشفاعة لأهل الكبائر .

أما الشفاعة المنفية عند أهل السنة فهي التي نفاها الشرع، وهي التي تطلب من غير الله استقلالاً، ولم تتوافر فيها شروط الشفاعة<sup>(١)</sup> .

والشيخ الحضر رحمته الله ينفي الشفاعة التي نفتها النصوص، ويثبت الشفاعة التي أثبتتها النصوص، ويعرف - من خلال ذلك - الشفاعة .

يقول رحمته الله في تفسير قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ البقرة : ٤٨ : «والضمير في قوله : ﴿ مِنْهَا ﴾ يعود على ﴿ نَفْس ﴾ في قوله : ﴿ عَنْ نَفْس ﴾ وهي

١ - انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٢٩-٢٣٩، وشرح العقيدة الواسطية للهراس، والشفاعة للشيخ مقبل الوادعي ص ١١-١٣، والقيامة الكبرى د. عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م ص ١٧٣-١٩٤، والمعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، د. عواد المعتق، دار العاصمة ص ٢٣٥-٢٤٧، وأصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، عرض ونقد، د. ناصر بن عبدالله القفاري، ط ١، ١٤١٤هـ - ٦٢٩/٢ - ٦٣٧ .

النفس المأخوذة في ذلك اليوم للحساب، المسؤولة عما ارتكبت من وزر، فهذه النفس إذا جاءت بشفاعة شفيع لم تقبل منها.

والشفاعة: أن يكون لأحد وجهة عند أحد، فيسأله أن يعفو عن جناية صدرت من آخر، أو يصفح عن واجب أهمل القيام به، أو يستوهب منه له شيئاً.

والآية نفت أن تقبل يوم القيامة شفاعة من أحد نفيماً مطلقاً، ووردت آيات تنفي قبول الشفاعة إلا من أذن له الله في ذلك؛ كما قال -تعالى-: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ البقرة: ٢٥٥.

وقال -تعالى-: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ طه: ١٠٩.

فيصح أن تحمل الآية المطلقة -وهي التي نحن بصدد تفسيرها- على أنها واردة في شأن النفوس الكافرة، وتفهم الآيات الأخرى على صحة قبول الشفاعة للمؤمنين إذا أذن الله فيها للشافعين.

وقد وردت أحاديث صحيحة في أن النبي ﷺ ستكون له شفاعة في دفع العذاب عن قوم، ورفع الدرجات لآخرين<sup>(١)</sup>.

٤. الحسنات الماحية، أو الأعمال الصالحة: فللشيخ ﷺ كلام حول تكفير الأعمال الصالحة للذنوب.

ومن أجلى ذلك وأوضحه ما جاء في مقال له عن فضل شهر رمضان؛ حيث تكلم على فضل قيامه، فقال: «والتهجد في جزء من الليل قرينة يبعث عند الله مقاماً محموداً، ونهت السنة على أن من جزاء القيام في ليالي رمضان غفراناً يمحو الذنوب السالفة، قال ﷺ: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه»<sup>(٢)</sup>.

وظاهر الحديث: أن هذا الغفران المترتب على قيام رمضان يأتي على الذنوب السالفة جميعاً فيسقطها، ولكن أهل العلم قصره على صفات الذنوب دون كبائرها،

١- أسرار التنزيل ص ٩٢.

٢- أخرجه البخاري (٢٠٠٩) ومسلم (٧٥٩).

ورأوا أن فضل العمل الصالح لا يبلغ أن يسقط الكبائر من المعاصي، وصاحبها لم يتب عنها، أو لم تقم عليه العقوبة المقررة على من يرتكبها.

يقولون هذا، وهم يسلّمون أن لمشيئة الله -تعالى- سلطاناً قد يفعل في كبائر الذنوب ما تفعله التوبة الخالصة، أو إقامة الحدود.

ومما استندوا إليه في تقييد المغفرة في هذا الحديث بصغائر الذنوب: أحاديث وردت في فضل أعمال أخرى، وقيدت فيها بمغفرة الذنوب باجتناب كبائرهما<sup>(١)</sup>.

خامساً: تطرقه لمسألة بلوغ الدعوة، وقيام الحجة: والمقصود بالدعوة: الدعوة الحممدية، والمقصود بالحجة: الحجة الرسالية، ومعنى قيامها: توضيحها، وكشف شبهها إن وجدت.

والعلماء يقررون أن التكفير والتعذيب لا يكون إلا بعد قيام الحجة؛ فلا مؤاخذة قبل الإنذار؛ فمن تمام حكمة الله -عز وجل- وعدله أنه لا يُعذَّبُ أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه كما قال -تعالى-: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ الإسراء: ١٥.

وقال الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به - إلا كان من أصحاب النار»<sup>(٢)</sup>.

يقول ابن تيمية رحمته الله: «الكتاب والسنة قد دلّا على أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إبلاغ الرسالة؛ فمن لم تَبْلُغْهُ جملة لم يعذبه رأساً، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية»<sup>(٣)</sup>.

ومن خلال ما مضى وغيره يتقرر أن العذاب والمؤاخذة لا يقع إلا بعد النذارة وقيام الحجة، وأن أهل الفترة ومن في حكمهم يمتحنون يوم القيامة كما جاءت بذلك

١- الهداية الإسلامية ص ١٤٤، انظر تفصيل ذلك في مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤٨٩/٧، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ٤٢٥/٢-٤٤٠.

٢- رواه مسلم (٢٤٠).

٣- مجموع الفتاوى ٤٩٣/١٢-٤٩٤.

الأحاديث<sup>(١)</sup>.

والشيخ الخضر رحمته الله تعرض لهذه المسألة، وله مقال فيها عنوانه: (حكم الإسلام فيمن بلغته الدعوة).

وقد صدر ذلك المقال بقوله: «سأل فريق من المثقفين عمن يؤمن بالله، ويعمل صالحاً، ولا يؤمن بالإسلام، هل ينجو من العذاب الخالد، وإن بلغته دعوة رسول الله ﷺ؟ ربما دعاهم إلى هذا السؤال قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰغِرِيَّ وَالصَّبِيَّ مَن ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٦٢»<sup>(٢)</sup>.

ثم أجاب عن ذلك فقال: «وجواب ذلك أنه انعقد إجماع علماء الإسلام على أن من بلغته الدعوة بلوغاً كافياً ولم يؤمن برسول الله ﷺ فلا ينجو من العذاب الخالد»<sup>(٣)</sup>.

ثم ذكر رحمته الله مستند الإجماع، وذكر الأدلة في ذلك، وقرر أنه: «لا يتحقق الإيمان بالله إلا بتحقيق الإيمان بالرسول، ولا يتحقق الإيمان بالرسول إلا بتحقيق الإيمان بالكتاب الذي أُرسِلَ به»<sup>(٤)</sup>.

واستدل بقوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ البقرة: ٨٩.

وقرر أن الإيمان بالرسول، والكتاب الذي أرسل به أساس متين للإيمان بالله، وأن من لا يؤمن بالله فلا يُسمَّى عمله صالحاً، وإنما هو كسرابٍ بقيةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

وأوضح أن الآيات الدالة على أن الإيمان بالله لا يكون مقبولاً إلا إذا تبعه الإيمان بالرسول، والكتاب الذي أنزل معه هداية للمتقين<sup>(٥)</sup>.

١ - انظر نواقض الإيمان القولية والعملية، د. عبدالعزيز بن محمد العبد اللطيف، دار الوطن، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ٢، ١٤١٥ هـ ص ٥٨.  
٢ - دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٨٨.  
٣ - المرجع السابق ص ٨٨.  
٤ - المرجع السابق ص ٨٩.  
٥ - انظر المرجع السابق ص ٨٩-٩٠.

ثم أجب عن الآية الواردة في السؤال السابق ، فقال : « وأما الآية - أعني قوله تعالى- : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰئِرِ وَالصَّٰبِغِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة : ٦٢ .

فالقرآن قد يورد الكلام مطلقاً ، ويعتمد على تقييده في آية أخرى؛ فقيده المتفقهون الآية المطلقة بالآية الأخرى.

ولا يطلق القرآن ، والمعنى قاض بالشرط ما لم يكن الشرط مأخوذاً من قاعدة معروفة ، أو لفظ صريح.

والآيات الكثيرة تدل على أن من لا يؤمن بشريعة الإسلام ، وقد بلغته دعوة الرسول - صلوات الله عليه - فليس بمؤمن.

والمراد من ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰئِرِ وَالصَّٰبِغِينَ ﴾ في الآية : الذين انقضوا ، ولم تبلغهم دعوة الرسول الذي أرسل بالكتاب الحكيم.

فإذا بينت الآية بهذا الوجه كنا فهمنا القرآن على وجه يتفق مع الآيات الأخرى ، وينسجم مع الإجماع الذي مشى عليه علماء الإسلام.

ويؤيد هذا الوجه من التفسير: ما ذكره السيوطي في أسباب نزول الآية؛ من أن سلمان الفارسي سأل النبي ﷺ عن أصحابه الذين كان معهم ، فنزلت الآية<sup>(١)</sup>.

فهذه هي أهم المسائل التي تطرق لها الشيخ الخضر في باب الإيمان.

## المبحث الثاني: منهجه في باب العبادة

باب العبادة من الأبواب المهمة التي تُطَرَّق، ويُنْحَث فيها في كتب العقائد؛ وذلك لما لها من الارتباط الوثيق في كثير من أبواب الاعتقاد، كتوحيد الألوهية، وباب الإيمان - زيادته ونقصانه، وكموضوعات الشرك، والابتداع في الدين، وما إلى ذلك.

وباب العبادة يُنْحَث من خلال موضوعات تدرج تحته، كمفهوم العبادة، وأنواعها، وعبودية الخلق لله، وشروط العبادة، وأركانها، ونحو ذلك من المباحث في هذا الباب.

والعلماء تطرقوا لموضوع العبادة، فعرفوها في اللغة بأنها تعني التذلل، والخضوع.

وعرفوها في الشرع بتعريفات هي من باب اختلاف التنوع لا التضاد، أو من باب التعريف ببعض الأفراد، فعرفها ابن تيمية رحمته الله بأنها: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»<sup>(١)</sup>.

وعرفها ابن القيم بأنها: «كمال المحبة مع كمال الذل».

وعبر عن ذلك في الكافية الشافية بقوله:

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان<sup>(٢)</sup>  
وقرروا أن العبادة هي الأعمال الصالحة الإرادية التي تؤدي لله - تعالى - ويفرد بها<sup>(٣)</sup>.

وأدخلوا في العبادة كل ما يقرب إلى الله من الأفعال، والتروك.

وقرروا أن العبادة هي ذات القرية أو فعلها، وأن توحيدها هو صرفها لله وحده لا شريك له<sup>(٤)</sup>.

١ - العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، ط ٣٢٢، ١٣٩٢هـ، ص ٣٨.

٢ - الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن القيم ص ٣٢٠.

٣ - انظر عبودية الكائنات لرب العالمين لفريد التونسي ص ٢٥.

٤ - انظر الحق الواضح المبين للشيخ عبدالرحمن السعدي، المطبعة السلفية، القاهرة ص ٥٩-٦٠،

والشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في العقيدة د. عبدالرزاق البدر ص ١٦٢.

وأن العبادة لا تقبل إلا بشرطين: الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ.  
وأن للعبادة أركاناً هي: الحب، والخوف، والرجاء.

وبعضهم يعبر عنها ب: الحب، والتعظيم، والخوف، والرجاء<sup>(١)</sup>.

والشيخ محمد الخضر حسين بحث موضوع العبادة في مواضع من مؤلفاته، وذلك عندما تكون مناسبة كتفسير آية، أو التطرق لأحد المسائل التي تبحث في باب العبادة. وهو في هذا كله لا يخرج عما يقرره أئمة السلف، وإن كان يعبر عن ذلك بأسلوبه الخاص.

هذا وقد مضى شيء من ذلك عند الحديث عن منهجه في توحيد الألوهية، وفي معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

ويمكن إيضاح منهجه في باب العبادة -زيادة على ما مضى- فيما يلي:

أولاً: بيانه لمفهوم العبادة: يعرف الشيخ الخضر العبادة بأنها: «الخضوع البالغ الغاية»<sup>(٢)</sup>.

ويعرف العبادة في اصطلاح الشرع بقوله: «هي العمل الذي يُتقرب به إلى الله -تعالى-»<sup>(٣)</sup>.

ثانياً: إثباته شروط قبول العبادة: يقرر الشيخ ﷺ أن العبادة هي العمل الصالح، ويذكر أن العمل الصالح المقبول عند الله لابد فيه من توافر شرطين، وهما:  
١. الإخلاص: ويعبر عنه بقوله: «ما يُبتغى به وجهُ الله»<sup>(٤)</sup>.

١- انظر العبودية ص ٧٠ و٧٦ و١٢٨، والآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح المقدسي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ٣٠/٢-٣٢، وانظر تفصيل الكلام على أركان العبادة في جامع الرسائل لابن تيمية ٢٣٠/٢، ومدارج السالكين لابن القيم ١١/٣-١٨ و٣٨ و٥٠٧-٥١٣، والجواب الكافي لابن القيم ص ٥٤١-٥٤٢ و٧٦-٧٧، وطريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية، ضبط نصه وخرج أحاديثه عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، ط ١، ١٤٠٩هـ ص ٤٤٩-٤٥٠.

٢- أسرار التنزيل ص ٤٢.

٣- المرجع السابق ص ٢٥٣.

٤- المرجع السابق ص ١٢٣.

٢. المتابعة: ويعبر عنها بقوله: «ويكون موافقاً للوضع الذي اعتد به الشارع في العبادات، والمعاملات، والحكم، والقضاء»<sup>(١)</sup>.  
ويقول في موضع آخر: «والعمل القيم ما كان موافقاً لما رسمه الشارع، وصحبته نية طيبة.

فإن كان العمل غير موافق لما ورد عن الشارع فهو عمل باطل - وإن قصد به صاحبه التقرب إلى الله- وذلك هو البدعة التي سماها رسول الله ﷺ ضلالة. وإن كان العمل على نحو ما رسمه الشارع، ولكن صاحبه لم يقصد به امتثال أمر الله فهو مردود على صاحبه؛ لأنه فقد الروح الذي يعطيه حياة وبهجة، وهو الإخلاص»<sup>(٢)</sup>.

ويقرر -أيضاً- في موضع آخر شرطي العبادة، فيقول: «إنما يكون العمل عبادة وطاعة يستحق بها صاحبها ثواب الله إذا صحبه إخلاص، ووقع على الوجه الذي رسمه الشارع الحكيم»<sup>(٣)</sup>.

ثالثاً: إثباته أركان العبادة: يقرر الشيخ أن الله -عز وجل- يُعَبِّدُ بالحب، والخوف، والرجاء.

وقد يُعَبَّرُ عن الخوف بالإجلال، أو التعظيم البالغ، أو الرهبة.

وقد يعبر عن الرجاء بالرغبة.

قال ﷺ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾: «وإذا كان الحب ميل القلب إلى الشيء فإن من دواعي هذا الميل: كمال ذلك الشيء، فيصح إبقاء الحب في قوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ على حقيقته؛ إذ لا كمال يداني كمال ذي الجلال والإكرام. فالؤمن يحب الله؛ أي: يميل قلبه إليه لكماله، ويشتد ميله إليه وتعلقه كلما ازداد

١- المرجع السابق ص ١٢٣ .

٢- رسائل الإصلاح ص ٧٦ .

٣- أسرار التنزيل ص ٢٥٣ .

علماً ببدیع حکمته ، وبالغ حجتہ ، وسعة رحمته ، وعدالة أحكامه ، وعزة سلطانه .

ومن مقتضيات هذا الحب : إجلاله - تعالى - وعبادته <sup>(١)</sup> .

وقال - أيضاً - : « فدل قوله : ﴿ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ على أن حب المشركين لمن اتخذوهم

أنداداً لله هو الحب الذي يَحْمِلُ على التعظيم البالغ والعبادة <sup>(٢)</sup> .

إلى أن قال : « وحب المؤمنين لله أشدُّ من حب المشركين للأنداد؛ من جهة أن

الحب الذي يدخل في القلوب من ناحية الاعتقاد بالكمال يَعْظُم كلما عَظُمَ كمالُ

مَنْ يُحَبُّ ، وقد عرفت أن كمال الله فوق كل كمال .

ثم إن المحبة تشتد على قدر قوة الإيمان بكمال المحبِّ ، واعتقادُ المؤمنين بكمال

الله وليدُ أدلةٍ يقينية ، والكمالُ الثابت ييقين يستميل القلوب بأشد مما يستميلها

الكمالُ الذي تُصَوِّره الأوهام ، أو يُتَلَقَّى من طريق التقليد .

والتصريح بالأشدية في قوله : ﴿ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ أبلغ من أن يقال : أحبُّ لله؛ كما

قال - تعالى - : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ البقرة : ٧٤ ، مع صحة أن يقال : أو

أقسى <sup>(٣)</sup> .

وقال ﷻ في موضع آخر ، وذلك عند تفسيره قولَ الله - تعالى - : ﴿ الرَّحْمَنُ

الرَّحِيمُ ﴾ : « ووجه إعادة هذين الوصفين أن وصفه - تعالى - برب العالمين ، أي :

مالكهم أو سيدهم - يثير في النفوس شيئاً من الرهبة؛ فُقرن بوصف الرحمة؛ ليجعل

بجانب الرهبة منه رغبة إليه .

وفي ذلك استدعاء إلى الإقبال على طاعته مع رجاء فضله <sup>(٤)</sup> .

رابعاً : عنايته بأعمال القلوب : ومن أهم تلك الأعمال التي تعرض لها : الإخلاص .

١- المرجع السابق ص ٢٩٥ .

٢- المرجع السابق ص ٢٩٥ .

٣- المرجع السابق ص ٢٩٥-٢٩٦ .

٤- المرجع السابق ص ٩ .

وله كلام كثير عن الإخلاص في مواضع متعددة، وأهمها ما جاء في بحث له عنوانه: (فضيلة الإخلاص).

حيث ذكر في ذلك البحث أن الإخلاص شرط للعبادة - كما مر -.

وقرر أن مدار الإخلاص على أن يكون الباعثُ على العمل - أولاً - امثالَ أمر الله، ولا حرج على من يطمح بعد هذا إلى شيء آخر، كالفوز بنعيم الآخرة، أو النجاة من أليم عذابها، بل لا يذهب بالإخلاص - بعد ابتغاء وجه الله - أن يخاطر في باله أن للعمل الصالح آثاراً في هذه الحياة؛ كطمأنينة النفس، وأمنها من المخاوف، وصيانتها من مواقف الهون، إلى غير هذا من الخيرات التي تعقب العمل الصالح، ويزداد به إقبال النفوس على الطاعات قوة على قوة<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر جملة عظيمة من ثمرات الإخلاص، وضوابطه، وآثاره على الأعمال، والعزائم، والعلوم، والتربية، والإنفاق، والتجارة، والكتابة، ونحو ذلك في تحرير يعزُّ نظيره مع وجازته<sup>(٢)</sup>.

كما أن له عنايةً بالتوكل على الله، والثقة به، وقد مضى الحديث عنهما عند الحديث عن منهجه في القدر.

وله عناية - أيضاً - بعبودية: الخوف، والرجاء، وقد مضى الحديث عنها في الفقرة الماضية.

وله عناية كبيرة في الصدق؛ فله بحث في صدق اللهجة، وضَّح فيه مفهوم الصدق، والاحتراس في صدق اللهجة، وصدق اللهجة والمجاز، وصدق اللهجة والقصص الخيالية، وصدق اللهجة وإخلاف الوعد، والمعارض، كما تحدث عن أثر صدق اللهجة في سعادة الفرد والجماعة، وأثره على العلم، كما تحدث عن علل التهاون بصدق اللهجة.

وختم ذلك البحث بأن قرر بأن الصدق نابع من القلب، وأن «الملحد لا يكاد

١- انظر رسائل الإصلاح ص ٧٦.

٢- انظر المرجع السابق ص ٧٦-٨٠.

يحتفظ بصدق اللهجة إلا حين يريد أن يتشبه بذوي المروءة، وحين يخشى من افتضاحه ضرراً».

وقرر أن «صدق اللهجة القائم على الإيمان الساطع لا يختل نظمه، ولا يختلف غيبُ صاحبه عن حال علانيته»<sup>(١)</sup>.

وله كلام على الخشوع، وذلك كما في تفسيره لقول الله -تعالى-: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

حيث قرر أن الخشوع في الأصل هو اللين، والسهولة، وأن معناه في الآية: الخضوع، والاستكانة لله -جل شأنه-.

وأن الصلاة صعبة إلا على الخاشعين: أي الخاضعين الذين أسلموا وجوههم لله. وإنما سهلت عليهم؛ لإيقانهم أنها من أهم وسائل الفلاح في الدنيا، والسعادة في الآخرة<sup>(٢)</sup>.

كما أن له كلاماً على أمراض القلوب كالنفاق، والكذب، والحسد، والكبر<sup>(٣)</sup>.  
خامساً: عنايته بأهميات العبادات: وعلى رأس تلك العبادات: الصلاة، والزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.  
ومن مظاهر عنايته بتلك الأركان العظيمة ما يلي:

١. عنايته بالصلاة: حيث اعتنى ﷺ في بيان معنى الصلاة في اللغة، وأنها الدعاء، وأن الشارع استعملها في العبادة ذات الركوع، والسجود؛ لاشتمالها على الدعاء. وبين معنى إقامة الصلاة، وأن ذلك يكون «بأدائها في أوقاتها المقدر لها، وتعديل أركانها، وإيقاعها مستوفية لواجباتها وآدابها.

١- المرجع السابق ص ٧٤-٧٥.

٢- انظر أسرار التنزيل ص ٨٩.

٣- انظر المرجع السابق ص ٢٧.

والصلاة المقامة بحق هي التي يصحبها الإخلاص ، واستحضار جلال الله في الركوع والسجود، وهي التي تترتب عليها الآثار العظيمة من تزكية النفس وعفافها، وسلامة الناس من إيذائها؛ كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّ الْعَصَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت: ٤٥ «<sup>(١)</sup>.

وقرر في موضع آخر أن الصلاة أعظم العبادات البدنية، وأن معنى إقامتها أداؤها مستوفية لأركانها، وشرائطها المفصلة في كتب السنة<sup>(٢)</sup>.

وقال في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ مبنياً معنى إعانة الصلاة على القيام بالأعمال الجليلة: «وكانت الصلاة معينة على النهوض بالأعمال الجليلة، من جهة أنها عبادة يقوم بها العبد في كل يوم خمس مرات، يناجي فيها ربه، ويقرأ فيها من القرآن ما فيه حكمة وموعظة حسنة؛ فتزكو نفسه، وتصفو سريرته، ويستمر هذا الحال في غير أوقات الصلاة، حتى إذا حضر وقت عمل واجب غير الصلاة وجد في نفسه إقبالاً عليه، واستهانة بكل ما يلاقه في سبيل الله من مكاره وآلام»<sup>(٣)</sup>.

ويقرر في بحث له بعنوان (صلاة الجماعة وأثرها في اتحاد الأمم) مشروعية صلاة الجماعة، وشيئاً من أحكامها، وفضلها، وما جاء في الترغيب فيها، ومعنى إقامتها، وأثرها في اجتماع كلمة الأمة<sup>(٤)</sup>.

٢. عنايته بالزكاة: وكما اعتنى ﷺ بالصلاة فكذلك كانت له عناية بالزكاة من حيث حكمها، وفضلها، وآثارها الحميدة، فقرر أن القرآن الكريم عني بالحث على الإنفاق، ومدح المنفقين، وأن إنفاق بعض المال مع تجدد الإنفاق يكفي لدخول صاحبه في زمرة المهتدين المفلحين.

١- انظر المرجع السابق ص ١٨ .

٢- المرجع السابق ص ٨٤ .

٣- المرجع السابق ص ٨٩ .

٤- انظر دراسات في الشريعة الإسلامية ص ١١٤-١٢١ .

كما قرر أن الزكاة أعظم العبادات المالية ، وإن بإخراج القسط المسمى زكاة يبارك الله في البقية من المال ، فينمو ، ويسلم من الآفات التي كثيراً ما تصيب أموال البخلاء ، كما أن الزكاة تطهر المال من أن تكون فيه مظلمة<sup>(١)</sup> .

ويوضح في بحث له بعنوان (الزكاة وأثرها في نهوض الأمة) معنى الزكاة في اللغة ، وأنه النماء ، وفي الشرع وأنه: إخراج جزء مقدر من المال ، ودفعه إلى المصارف المذكورة في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَقَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ قَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة: ٦٠ .

ويبين مناسبة المعنى الشرعي للمعنى اللغوي ، ويبرز شيئاً من حكمة الزكاة ، وجملة من أحكامها ، وأدلة وجوبها ، وأقوال العلماء في ذلك .

ويقرر في خاتمة بحثه أن الزكاة ليست منحة من الغني للفقير ، بل هي حق واجب الأداء ، وركن من أركان الإسلام يجب النهوض به ، ودفعه إلى مستحقه ؛ ليستطيع الفقير أن يعيش عيشة طيبة ، وفي ذلك تقوية للأمة ، وتثبيت لأركانها<sup>(٢)</sup> .

٣. عنايته بصوم رمضان: فلقد عني الشيخ رحمته الله بهذه العبادة العظيمة من خلال تفسيره لآيات الصيام من سورة البقرة؛ فبيّن حقيقة الصيام في أصل اللغة ، وأنه الإمساك عن الفعل .

ويبين حقيقته الشرعية ، وأنها: الإمساك بنية عن الأكل والشرب ، ومباشرة النساء من طلوع الفجر إلى مغرب الشمس .

وتكلم على فرضية الصيام ، وحكمة التذكير بفرضيته على الأمم السابقة؛ وأنها لتخفيف وقعه في النفوس .

كما أوضح ثمرات الصيام ، وأنه سببٌ لحصول التقوى ، وكفّ النفوس عما تنزع

١- انظر أسرار التنزيل ص ١٨٩-١٩٠ و ٨٤ .

٢- انظر دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٩٦-١٠٢ .

إليه من خواطر السوء، وتربية النفس على ملكة الصبر، ومغالبة طغيان الشهوات، وترويضها إلى عمل الخير مقبلةً عليه، راغبة فيه.

كما تطرق لبعض أحكام الصيام، وإلى كون القرآن أنزل في هذا الشهر إلى غير ذلك مما تعرض له في ذلك الشأن<sup>(١)</sup>.

وله ﷺ كلام قريب من ذلك في مقال له في مجلته (السعادة العظمى) عنوانه (الصيام)<sup>(٢)</sup>.

٤. عنايته بالحج: فلقد كان للشيخ عناية بهذه العبادة العظيمة، ومن عنايته بها ما جاء في شرحه لآيات الحج من سورة البقرة، وما جاء في مقالة له عنوانها: (الحج المبرور).

حيث أوضح من خلال ذلك فرضية الحج، وشيئاً من منافعه، وفوائده، وأحكامه، وأقوال العلماء في ذلك<sup>(٣)</sup>.

كما أوضح في المقال المذكور أنفاً معنى الحج المبرور، وأنه هو الذي وفيت أحكامه، ولم يخالطه شيء من الإثم.

كما تطرق إلى شيء من أسرار الحج، وكونه وسيلةً لتجديد النفس، وإسعادها، وتقريبها من الله - جل وعلا - ومرآتها للشيطان، وإعلان المقاطعة له<sup>(٤)</sup>.

فهذا مجمل منهجه في باب العبادة، وله كلام - أيضاً - عن الانحراف في العبادة، وسيأتي - بإذن الله - عند الحديث عن مواجهته للشرك والبدع.

١- انظر أسرار التنزيل ص ٣٣٣-٣٤٠ ودراسات في الشريعة الإسلامية ص ٢٢٥.

٢- انظر السعادة العظمى ص ١٠٨-١١١.

٣- انظر أسرار التنزيل ص ٤١٥-٤٢٠.

٤- انظر أحاديث في رحاب الأزهر ص ١١٣-١١٥.

## المبحث الثالث: منهجه في بابي الصحابة والإمامة

## المطلب الأول: منهجه في باب الصحابة

باب الصحابة من الأبواب التي تُطَرَّق في كتب الاعتقاد؛ فَيُبْحَثُ من خلاله عن مفهوم الصحبة، وأن الصحابي هو من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام<sup>(١)</sup>. ويبحث فيه عن فضل الصحابة، ومنزلتهم في الأمة.

كما يبحث فيه عن الاعتقاد الحق في الصحابة الذي يَتَلَخَّصُ في حُبِّهم، والترضي عنهم، واعتقاد عدالتهم، والاعتراف بسابقتهم، والحرص على نشر فضائلهم، والكف عما شجر بينهم، والتبرؤ من طريقة الذين يبغضونهم أو يسبونهم.

ويُبحث -أيضاً- في ذلك الباب في وسطية أهل السنة في أصحاب رسول الله ﷺ بين الغالين فيهم، والجافين عنهم.

كما يُبحث فيه حكمُ سبهم، وتكفيرهم، ولوازم ذلك السب أو التكفير. ويبحث فيه -أيضاً- فضل الصحابة، وتفاضلهم، ومراتبهم، وأسس البحث في تاريخهم.

فهذا مجمل ما يبحث في هذا الباب في كتب أهل السنة في الاعتقاد<sup>(٢)</sup>.

ولقد كان الشيخ الخضر يسير في باب الصحابة سيرة السلف الصالح؛ فكان ﷺ

١- انظر الإصابة لابن حجر ١٠/١.

٢- انظر تفاصيل ذلك في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١٢٣٧/٨-١٤٥٢، ومنهاج السنة لابن تيمية ٦٧/٢ و٢٦١/٥-٢٦٢ و٣٦٤/٦. والصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية، حققه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الكتب العلمية. بيروت ص ٥٨٦-٥٨٧، والعقيدة الواسطية لابن تيمية ١٧١، ومجموع الفتاوى ٤/٤٢١. وهداية الحيارى ص ٢٣٤. وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفى ص ٤٦٧-٤٨٥، وشرح العقيدة الواسطية د. صالح الفوزان، ص ١٧٥-١٧٦. وشرح الواسطية للهراس ص ١٩٢-١٩٣، وشرح لمعة الاعتقاد للشيخ محمد بن عثيمين ص ١٤٢-١٤٦. وعقيدة أهل السنة في الصحابة د. محمد الوهبي ص ٣٧-٥٤ و٩٤.

محباً للصحابة، معظماً لهم، معتقداً فضلهم، وسابقتهم، وعدالتهم، حريصاً على نشر محاسنهم، كافاً عما شجر بينهم، مُتبرِّاً من طريقة الذين يُكفرونهم أو يسبونهم. كما كان حريصاً على تمييز الروايات التاريخية التي تبحث فيما شجر بين الصحابة، وعلى الذبِّ عن أعراض الذين نيل منهم من الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-. وكان له مزيد عناية، واهتمام بالخلفاء الراشدين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي -رضي الله عنهم- من جهة تعظيمهم، ونشر فضائلهم، والرد على من افتري عليهم، أو أساء فهمهم، أو أخطأ في تأويل بعض مواقفهم. كما كان له عناية ببعض الصحابة الذين وقع عليهم الطعن، والتشكيك كأبي سفيان، وابنه معاوية، وعمرو بن العاص، وغيرهم -رضوان الله عليهم-<sup>(١)</sup>. وفيما يلي إيراد لبعض ما يشهد لما ذكر:

أولاً: قال ﷺ في معرض حديث له عن الصغائر والكبائر: «ويلحق بالكفر معاصي إذا ارتكبت كانت كفراً، كتفكير الصحابة جملة؛ لأنه يقتضي إبطال الشريعة كلها؛ فهم رواتها، وعندهم أخذت»<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: يرى أن الصحابة خير أمة أخرجت للناس: قال ﷺ في نقضه لعلي عبدالرازق في قوله يصف الأمة المسلمة: «حتى استحالوا أمة واحدة من خير الأمم في زمانهم»<sup>(٣)</sup>. قال الشيخ الخضر معلقاً على هذا الكلام: «قال الله -تعالى- يخاطب هذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران: ١١٠، ولم يوافق ذوق المؤلف أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ خير أمة أخرجت للناس، وما سمحت نفسه إلا بأن يجعلهم من خير الأمم في زمانهم،

١- انظر موسوعة الأعمال الكاملة ٧٧٧/٢ و١٠٩١/٣ و١٠٩٥ و١١٠٣ و١٢٩٨ و٣٦٨٢/٨ و٣٦٨٥ و٤٢٦٤-٤٢٦٧ و٤٢٢٨/٩ و٤٢٨٢.

٢- دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٦١.

٣- الإسلام وأصول الحكم، بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام، تأليف الشيخ علي عبدالرازق، تقديم السفير ممدوح عبدالرازق، ط ١، ١٣٤٣هـ- ١٩٢٥م، ص ١٣٣.

ولعله جعلهم من خير الأمم في زمانهم؛ لأنه لا يراهم من خير الأمم في كل زمان. ولو نظر إليهم كأمة عربية فقط، وأصغى إلى ما يمليه عليه التاريخ وحده - لاعترف كما اعترف بعض المؤرخين من غير المسلمين بأن الأزمنة لم تخرج للناس أمة كتلك الأمة عدلاً ورحمة وعفافاً<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: وقال في معرض الثناء على الصحابة، وذكّر بعض الأسباب لسيادة الإسلام في عهدهم: «لكل شيء سبب، والمسببات تجيء على حسب أسبابها في القوة والغرابة، وتلك الأمة المسلمة بلغت أشدها، وبسطت أجنحتها على تلك الممالك المترامية الأطراف؛ لأسباب فوق الاتحاد، وفوق ما بأيديهم من قوة مادية.

وأحد هذه الأسباب: اعتقادهم بأنهم يمثلون أمر الله فيما يفتحون من البلاد، وأنهم يفيضون على العالم هداية وإصلاحاً، وهذا ما يجعلهم على ثبات لا يتزلزل، وإقدام لا يلوي على شيء.

ثانيها: أن حكمة القرآن وسيرة الرسول -عليه الصلاة والسلام- فتحت بصائرهم، فجعلتهم أبعد الأمم نظراً، وأحكمهم رأياً، وأنجحهم تدبيراً.

ثالثها: سمعة عدلهم ولين سياستهم تطير إلى الأمم المحاربة، فتكسر من شدة عزمهم في الدفاع، وتخفف عليها أمر الاستسلام لأولئك الهداة الفاتحين.

فارتفاع شأن الأمة الإسلامية لعهد الخلافة الرشيدة، له أسباب معتادة، وأسباب غريبة، ولهذا كانت سيادتهم باهرة في سعة مظهرها، وحكمة نسجها، وسرعة تكونها؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ النحل: ١٢٨ «<sup>(٢)</sup>.

رابعاً: وقال في معرض ثنائه وإشادته بالمهاجرين إلى الحبشة في معرض حديث له عن هجرة الصحابة إلى الحبشة، وأثرها في ظهور الإسلام: «لمهاجري الحبشة فضل وأي فضل؛ ذلك أنهم فارقوا وطنهم مكرهين، ونزلوا في أرض غير أرضهم، وأمة غير أمتهم»<sup>(٣)</sup>.

١- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٦٦ .

٢- المرجع السابق ص ٢٦٧ .

٣- محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١٤٥ .

وقال موضحاً أثر أولئك المهاجرين على أهل الحبشة: «وكان أولئك المهاجرون؛ لاستقامتهم، وكمال آدابهم، وصدق لهجاتهم يعرضون الإسلام في أقوم مثال، وأجمل صورة.

وذلك مما يقرب قلوب الحبشة إلى الإسلام، ويدعوهم إلى النظر في صحته.

وقد عرفتكم كيف كانت الهجرة سبباً في هداية ملكهم وأمة من قومه»<sup>(١)</sup>.

خامساً: وقال مثنياً على المهاجرين إلى المدينة، وما كان بينهم وبين الأنصار من الود الصادق، والتراحم، والتعاطف قال: «هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، وهاجر لهجرته أصحابه الأكرمون، فانعقد بين المهاجرين والأنصار إخاء صادق، واتحاد متين، وكانت قلوبهم تفيض بتعاطف وتراحم بلغا حدَّ الإيثار على النفس، حتى قال الله تعالى في حق الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الحشر: ٩.

إيمان راسخ، وأدب متين، هما أكرُّ ما كانوا يشهدونه من دلائل النبوة، ويتلقونه من حكمة بالغة، وموعظة حسنة.

وشأن الذين بلغوا في التعاطف إلى حد الإيثار على النفس أن تكون الحقوق بينهم محترمة، وشأن القوم الذين يبصرون نور النبوة صباحاً ومساءً أن لا ترى لهم عيناً تطمح إلى هتك عرض، ولا يداً تمتد إلى الاعتداء على مال، ولا فماً ينطق بكلمة قذع أو فحشاء»<sup>(٢)</sup>.

سادساً: وقال مشيداً بمكانة الصحابة في العلم والفهم: «لم يكن الصحابة بمنزلة الأميين الذين يعيشون في دائرة محدودة من التعقل، بل كانوا يتفقهون في مقتضيات الاجتماع، ويغوصون على فهم السنن الكونية، ويعرفون كيف ينتزعون الأحكام من

١- المرجع السابق ص ١٤٨.

٢- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٦٤-١٦٥.

مآخذها، يشهد بهذا كله التاريخ الصحيح، وآثارهم في قلب العالم من هيئة متخاذلة بالية إلى هيئة نظراً إليها أساتذة السياسة بإعجاب، وخرّ لها عشاق العدالة سجّداً»<sup>(١)</sup>.

سابعاً: وقال ﷺ ذاكراً لبعض مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «اعتنق أبو بكر الإسلام عن يقين كفلق الصبح، وإخلاص لا يحوم عليه رياء، أسلم يوم قام النبي ﷺ يدعو إلى دين الحق، وأولئك القوم الغلاظ الشداد يُنغضون إليه رؤوسهم، ويسومون أتباعه سوء العذاب.

أسلم يوم لا يخظر في خيال أحد أنه -عليه السلام- سيكثر تابعوه، ويعتز جانبهم، حتى تكون لهم دولة يخضع لسطوتها الجبارة.

رمى أبو بكر وطنه وراء ظهره، وهاجر رفيقاً لرسول الله ﷺ صابراً على مضمض الاغتراب، ولم يغترب ليستدرّ عيشاً، أو لينهض من خمول، وإنما هي نفس أُشربت إيماناً صادقاً، وتجردت لنصرة الحق، وطمّس معالم الباطل ما وجدت لذلك سبيلاً»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن قال متحدثاً عن الموقف العظيم لأبي بكر لما مات النبي ﷺ فاضطرب الناس، وثبت أبو بكر: «صعدت الروح النبوية إلى الرفيق الأعلى، فأخذت الدهشة من الصحابة مأخذاً اضطربت له الأفكار، ونطقت فيه الألسنة بما لا تنطق به في حال وقارٍ وسكينةٍ، فجاء أبو بكر من غيبة قريبة، وخطب بما دل على ثبات جنانه، ورسوخ علمه، فقال: (ألا من كان يعبد محمداً، فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت).

وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ الزمر: ٣٠.

ثم تلا قوله -تعالى-: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٤.

١- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٩٨.

٢- المرجع السابق ص ٢٧٠.

فكان له في هذا الموقف حكمة أعادت الحائر إلى يقينه ، والمضطرب إلى سكينته»<sup>(١)</sup> .  
وقال منوهاً بخلافة أبي بكر رضي الله عنه : « جاء الخلافة إذ كانت له قدراً ، ولم يبسط  
القوم أيديهم إلى مبايعته ليسوسهم بما يسوس به بعض الملوك رعاياهم<sup>(٢)</sup> من  
القوانين الوضعية .

وإنما قلدوه تلك الرياسة على أن يقودهم بكتاب الله وسنة رسوله ، والاجتهاد الذي  
يلتزم بأصول الشريعة ، وعلى أن يقوم بحراسة الدين ، والدعوة إليه بحكمة وعزيمة .  
والأدلة على أنه كان يتحرى في أحكامه وسياسته الكتاب والسنة مبنوثة في  
كتب السنة والآثار ، وبالغة في الكثرة إلى أن يحصل بها علم لا تخالجه ريبه<sup>(٣)</sup> .  
ونقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله : « قد ذكر غير واحد مثل منصور ابن  
عبد الجبار السمعاني ، وغيره إجماع أهل العلم أن الصديق أعلم الأمة .  
وهذا بين ؛ فإن الأمة لم تختلف في ولايته في مسألة إلا فصلها بعلم يبينه لهم ،  
وحجة يذكرها من الكتاب والسنة<sup>(٤)</sup> .

ثم تكلم على حراسته للدين ، وشواهدا ، وقيامه بنشر الدعوة وحمايتها ،  
وتحرره لمقاصد الشريعة ، وسؤسه الأمة بأصولها ، إلى آخر ما قاله في مناقب أبي  
بكر رضي الله عنه<sup>(٥)</sup> .

ثامناً : وقال مثنياً على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذاكراً شيئاً من مناقبه ، وذلك عند  
نقضه لكلام طه حسين الذي قال : « وكان عمر قرشياً تكره عصبية أن تُزدرى

١- المرجع السابق ص ٢٧٠-٢٧١ .

٢- في نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم طبعة الموسوعة ص ٢٧١ هكذا : (رعايتهم) . والمثبت هو  
الصواب من طبعة الدار الحسينية ص ٢٩٠ .

٣- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٧١ .

٤- المرجع السابق ص ٢٧١-٢٧٢ .

٥- انظر المرجع السابق ص ٢٦٩-٢٧٣ .

قريش ، وتنكر ما أصابها من هزيمة ، وما أشيع عنها من منكر»<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ الخضر تعليقاً على كلام طه حسين: «كان عمر قرشياً مسلماً يكره له أدبه أن تزدرى قريش ، كما يكره له أن تزدرى الأوس والخزرج ، وقيس وتميم ، ويكره له ذلك الأدب أن يزدرى عبدُالله بنُ عمر ، كما يكره له أن يزدرى سلمانُ الفارسيُّ ، وبلال الحبشيُّ.

أما أنه ينكر ما أصاب قريشاً من هزيمة ، وقد كان من أحرص الناس على هزيمتها ، فذلك ما لا تحتمله إلا عقلية أقرب إلى الغربية منها إلى الشرقية»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن قال ﷺ مبيناً تجلي سيرة عمر وجمالها ، ونزاهتها: «يسهل على المؤلف أن يضع إصبعة في سيرة يزيد بن معاوية ، أو حماد الراوية؛ لأنه يجد في التاريخ الصحيح أو الباطل ما يعبر به إلى الحديث عنهما بغلو وإغراق ، ثم لا يعدم أدناً تصغي إليه ، أو قلباً يتلهى به.

أما عمر بن الخطاب ، فإن سيرته متجلية تحت نبراس من التاريخ الصحيح ، لا يستطيع القلم أن يغير منها لوناً ، أو يسومها كيداً ، وإن ركب منهج (ديكارت) ، وتناول زاده من حقبة (مرغليوث)»<sup>(٣)</sup>.

تاسعاً: ثناؤه ودفاعه عن الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ؓ: حيث ذكر ذلك في مواطن عدة ، ومنها: محاضراته التي ألقاها بعنوان: (نظرة في خلافة عثمان).

قال ﷺ في مقدمة تلك المحاضرة: «أريد أن أضع بين أيديكم صحيفة من صحف التاريخ الإسلامي ، صحيفة تحكي جانباً من حديث خلافة عثمان ؓ وكنت أود أن أعرض على حضراتكم صحيفة تُصعِّدون فيها أنظاركم ، وتصوِّبونها ، فلا ترون إلا

١- في الشعر الجاهلي تأليف طه حسين ، ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٣٤٤هـ -

١٩٢٦م ص ٥١ ص ٥٣ .

٢- نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٩٦ .

٣- المرجع السابق ص ١٩٦ .

ما يقرّ أعينكم ، ويبهج نفوسكم .

ولكنّ السنّة لاغية ، وأقلاماً طائشة؛ خاضت في الحديث عن خلافة عثمان ، فشوهت وجه كثيرٍ من الحقائق ، ووضعت بجانبها كثيراً من الأباطيل ، وزعمت أنها تتحدث عنها بعقل وأمانة .

اخترت أن أحاضرکم بهذه الصحيفة على ما فيها من حديث قد يثير في نفوسكم حزناً وأسفاً ، ولعلكم تجدون في تمحيص بعض الحقائق ، ودفع كثير من شبه الباطل ارتياحاً يخفف شيئاً من الحزن والأسف على هذه الذكرى المؤلمة .

ولا أريد الحديث عن خلافة عثمان منذ بويج إلى أن لقي ربه شهيداً ، وإنما أذكركم بكلمة من فضله وشواهد استقامته على الطريقة ، وعلوّ منزلته عند الخالق العظيم ورسوله الكريم<sup>(١)</sup> .

ثم شرع في الحديث عن نسب عثمان ، ودخوله في الإسلام ، وفضله في الإسلام ، وولايته الخلافة ، وفتوحاته ، وكيف نشأت الفتنة ، وكيف دُبرّ خلع عثمان ، وقتله .

وأفاض القول في ذلك ، وساق أقوال العلماء فيه ، ووجّه الروايات التاريخية توجيهاً علمياً ، ثم ختم محاضرتَه بملخص قال فيه : « وملخص هذه المحاضرة : أن عثمان رضي الله عنه لم يأت حدثاً منكراً ، ولم يرتكب ظلماً ولا إثماً ، وأن الصحابة جميعاً بريئون من دمه ، وإنما حاول خلعه ، أو خان الله في سفك دمه نفر ليسوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من القوم الذين يريدون الإصلاح .

ولعل محاضرتنا هذه تنبه شبابنا النابتين نباتاً حسناً على أن يتثبتوا فيما يقصه المؤرخون عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سيما الذين صاحبوه أعواماً ، ووردت الأخبار الصحيحة أنه توفي وهو عنهم راضٍ<sup>(٢)</sup> .

وقال في معرض نقضه لطله حسين : « فمن ينظر إلى تاريخ المسلمين لعهد الخليفة

١- تراجع الرجال ص ٤ .

٢- المرجع السابق ص ١٩ .

الثالث من الطرق الموثوق بها يجد العصبية مغلوبة على أمرها، ويكاد التحيز إلى القبيلة لا يتجاوز حدوده المشروعة، ويتفقه في هذا من درس سيرة ذلك العهد في كتب علماء الحديث، الذين هم أعرف بنقد الأخبار، وأهدى إلى الحقائق من مؤرخين كثيرين يجمعون إلى الرشد سفهاً، وإلى الجد لهواً ولعباً؛ فأمثال هذه القصص التي تجدها في كتب أهل الخلاعة، أو من عرفوا بنزعة التشيع إلى قبيل لا تجدها في كتب من زاولوا نقد الآثار، وأسقطوا من حسابها زوراً كثيراً.

اقرأ سيرة عثمان -مثلاً- في (تاريخ ابن جرير الطبري) أو مؤلفات أبي بكر ابن العربي مثل: (العواصم والقواصم)، و(عارضة الأحوزي) اقرأها في أمثال هذه الكتب؛ فإنك تنصرف عنها برأيٍ أخفٍّ وأهونٍ من الرأي الذي يحدّثك به هذا الذي يتبع أذنان الروايات الواهية أو المصنوعة، وتقع يده على رجس غير قليل<sup>(١)</sup>.

عاشراً: ثناؤه ودفاعه عن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب عليه السلام: فهو يذكره في مواضع كثيرة، ويوالي أهل بيته الكرام، ويذكر مآثرهم.

ومن ذلك ما قاله في معرض النقض لعلّي عبدالرازق في قوله: «قد يسهل التردد في أن الثلاثة الأولى من الخلفاء الراشدين -مثلاً- شادوا مقامهم على أساس القوة المادية، وبنوه على قواعد الغلبة والقهر.

ولكن أيسهل الشكُّ في أن علياً ومعاوية -رضي الله تعالى عنهما- لم يتبوءا عرش الخلافة إلا تحت ظلال السيوف، وعلى أسنة الرماح؟!»<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ الخضر في نقض هذا الكلام: «وأما علي بن أبي طالب عليه السلام فمبايعته لم تكن تحت رهبة قط، ولا قامت تحت ظلال السيوف كما يزعم المؤلف.

بل إن المهاجرين والأنصار اجتمعوا بعد مقتل عثمان عليه السلام وأتوا علياً، وقالوا: يا أبا حسن! هلمّ نبايعك، فقال: لا حاجة لي في أمركم، أنا معكم، فمن اخترتم فقد

١- نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٩٩-٢٠٠.

٢- الإسلام وأصول الحكم ص ٦٠.

رضيت به؛ فاختراروا، فقالوا: والله! ما نختار غيرك.

ثم اختلفوا إليه مراراً، ثم أتوه في آخر ذلك فقالوا له: إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة، وقد طال الأمر.

وفي رواية أخرى: أنه قال لهم: لا تفعلوا؛ فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً.

فقالوا: لا والله! ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، قال: ففي المسجد؛ فإن بيعتي لا تكون خفياً، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين.

وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنه: فلقد كرهت أن يأتي المسجد؛ مخافة أن يشغب عليه، وأبى هو إلا المسجد.

فلما دخل، دخل المهاجرون والأنصار، فبايعوه، ثم بايعه الناس»<sup>(١)</sup>.

كما أن له كلاماً حول أحفاد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه كما في بحث (محمد الباقر وزيد) حيث تكلم في هذا البحث على سيرة هذين الإمامين، وذكر في مقدمته أن «في سيرة العظماء عبرة لمن يريد أن يكون عظيماً في علمه، أو في شرفه، وسمو هممه، أو في المسارعة إلى عمل الخير ما استطاع»<sup>(٢)</sup>.

ثم أفاض الكلام حول هذين الإمامين، وذكر ما قيل فيهما، وأورد احترامهما للشيخين: أبي بكر وعمر، وعقد مقارنة بين هذين الأخوين<sup>(٣)</sup>.

كما كان له ترجمة طيبة لعلي زين العابدين رضي الله عنه ذكر فيها نسبه، ومولده، وروايته للحديث، وفقهه، وتقواه وورعه، وسخاءه وكرمه، وإخفاءه الصدقات، وتعففه وزهده، وبره بأمه، وإجلاله للشيخين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-.

كما ذكر تواضعه، وكرهته المبالغة في الثناء عليه، وحلمه، ونجدته، وفضله،

١- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٨١-٨٢.

٢- تراجم الرجال ص ٣١.

٣- انظر المرجع السابق ص ٣١-٣٨.

وحكمه ومواعظه، وشيئاً من شعره، وختم الترجمة بالكلام على وفاته<sup>(١)</sup>.  
 حادي عشر: ثناؤه على أبي سفيان ودفاعه عنه: فأبو سفيان رضي الله عنه من الصحابة  
 الذين نالهم ما نالهم من الطعن والتشكيك.

ومن ذلك ما أورده طه حسين في كتاب (في الشعر الجاهلي) حيث ذكر أن أبا سفيان  
 لما رأى خيل النبي ﷺ قد أظلت مكة؛ فإذا هو -أي أبو سفيان- بين اثنتين: إما أن  
 يمضي في المقاومة فتفنى مكة، وإما أن يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس،  
 وينتظر لعل هذا السلطان السياسي الذي انتقل من مكة إلى المدينة، ومن قريش إلى  
 الأنصار يعود إلى قريش وإلى مكة مرة أخرى<sup>(٢)</sup>.

وقد نقض الشيخ الخضر هذا الكلام، وأثبت حسن إسلامه، وتألف النبي ﷺ له،  
 وذكر أنه شهد فتح الطائف، وهناك فقئت عينه بسهم أصابها من يد أحد الأعداء،  
 وأنه شهد وقعة حنين، ثم وقعة اليرموك لعهد عمر بن الخطاب.

وأنه لو كان منافقاً لتعد مع الخالفين، ولم يضق به الحال أن يلتمس عذراً، وأن  
 المنافق قلما استطاع أن يتصل بقوم ليسوا بأغبياء، ويعاشرهم حيناً من الدهر دون أن  
 تظهر سريرته في لحظاته وبين شفثيه.

وأنه لو كان منافقاً لم يخف حاله على النبي ﷺ والصحابة المستنيرين المخلصين،  
 وأنه لو وُسِم بين هؤلاء بميسم النفاق لكان أثره في التاريخ أوضح، وروايته أقوى.  
 وهكذا يسترسل في دفاعه عن أبي سفيان رضي الله عنه في كلام يطول، وحجج تبهر<sup>(٣)</sup>.

ثاني عشر: وكما دافع عن أبي سفيان دافع عن ابنه معاوية رضي الله عنه: فعندما تعرض  
 لما ذكره طه حسين من الكلام حول العصبية التي يرى أنها شاعت في عهد معاوية  
 وابنه يزيد، وأن كثيراً من العرب عادوا إلى بعض الشر الذي كانوا عليه في

١- انظر المرجع السابق ص ٢٥-٣٠.

٢- انظر في الشعر الجاهلي ص ٥١.

٣- انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٨٥-١٨٨ و ١٩٧-١٩٩.

جاهليتهم، وهو التفاخر بالأنساب، والنظر إلى ذوي القربى بغير العين التي يُنظر بها إلى الأبعد، وإيثار أولئك بالمنافع، وإن كان هؤلاء أحق بها أو أحوج إليها. بعد أن قرر ذلك كله قال ﷺ: «على الرغم من تلك الفتنة الساهرة أيام معاوية، ويزيد لم تكن العواطف الدينية والآداب الإسلامية مُلقية السلم إلى تلك الأهواء، وتاركة جماحها يذهب إلى غير منتهى، ويكفي أن أذكرك بأن تلك الأمة -على ما مسها من طائف العصبية- قد سكنت تحت راية معاوية، ثم ابنه يزيد، وكانت تجاهد تحت رايتها، وتفتح البلاد بكل ما تملك من إقدام وإخلاص.

وهذا أبو أيوب -وهو من الأنصار- قد سار لفتح قسطنطينية في جيش، وعلى رأسه راية يزيد بن معاوية.

فالعصبية نهضت لعهد معاوية ويزيد، ولكنها وجدت مقوماً خفف من ويلاتها، ولم يتركها إلى أن يُجنَّ جنونها، وتفقد شعورها كما كانت في الجاهلية، وهو أدب الإسلام»<sup>(١)</sup>.

ثالث عشر: وقال داعياً إلى الثبوت عند البحث في تاريخ الصحابة: وذلك في معرض رده على طه حسين في كتابه في الشعر الجاهلي «نحن لا نعتقد للأنصار أو المهاجرين العصمة، ولا ننكر على أحد أن يخوض في تاريخ عصرهم بكل ما يملك من وسائل النقد، وإنما ندعو الباحث إلى الثبوت في الرواية، والتأني في الاستنباط؛ حتى لا يأتي مثل هذا الذي يأتيه المؤلف، فيظلم التاريخ قبل أن يظلمهم، ويفسد على نفسه نظام البحث قبل أن يفسد على طلابه عقليتهم»<sup>(٢)</sup>.

فهذه هي معالم منهج الشيخ محمد الخضر في باب الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-.

١- المرجع السابق ص ٢٠١.

٢- المرجع السابق ص ٢١٠.

## المطلب الثاني: منهجه في باب الإمامة والخلافة

دين الإسلام شريعة وعقيدة، وكلٌّ لا يتجزأ، والذي يعنينا في هذا الصدد، ما يتعلق بموضوع الإمامة، وهل هي من موضوعات العقيدة أو من موضوعات الفقه؟ والحق أن لها جوانبَ عقديّةً، ولها جوانبَ فقهية، ولها جوانبَ تاريخية، ولذا فعلماء السلف -رحمهم الله- عند ذكرهم لعقائدهم يتطرقون لذلك؛ فلا نكاد نجد أحداً ذكر عقيدته إلا وينص على الترييع بالخلفاء الأربعة، وأن ترتيبهم في الخلافة على ترتيبهم في الفضل، وينصون على الصلاة خلف كل إمام بر أو فاجر، وعلى الجهاد والحج معه، وعلى تحريم الخروج على الأئمة، وعلى السمع والطاعة لهم في غير معصية.

وهذه كلها من مباحث الإمامة، ولذلك نجد المؤلفين في العقيدة يُنصون على باب الإمامة في أواخر كتبهم في العقيدة.

كما أن العلماء يوردون ذلك في مسائل العقيدة للرد على الانحرافات والبدع التي نشأت حول هذا الموضوع، كبدعة الروافض واعتقاداتهم الفاسدة في الإمامة، وأنها من أركان الدين، واعتقاد العصمة، والغيبة، والرجعة، وعلم الغيب ونحو ذلك في أئمتهم؛ فيذكرها علماء السلف للرد عليهم، وتبيين مخالفتهم في ذلك.

ويذكرون بدعة الخوارج في وجوب الخروج على الأئمة الفسقة، ونحو ذلك. ومما يجعلها من المسائل المتعلقة بالعقيدة في العصر الحاضر هو إنكار بعض المنتسبين للدين أنها من الدين، وهذه من أخطر المسائل الفكرية المعاصرة -كما سيأتي الحديث عنها في فقرة آتية-<sup>(١)</sup>.

١- انظر الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة د. عبدالله الدميجي، دار طيبة، الرياض،

أما الجوانب الفقهية في موضوع الإمامة فكثيرة: ومن ذلك شروط الأئمة، وكيفية اختيار إمام المسلمين، وأهل الحل والعقد، وشروطهم، وعددهم، والشورى وأحكامها، والبيعة وأحكامها، ونحو ذلك.

أما الجوانب التاريخية في الموضوع: فهو دراسة الموضوع من ناحية سيرة الخلفاء الراشدين، ثم مَنْ بَعْدَهُمْ -رضوان الله عليهم- والأحداث التي حصلت في عهودهم، والنتائج والعبر والأحكام المستخلصة من ذلك.

ولذلك فموضوع الإمامة هذا من أدلة الترابط والتلازم بين الأحكام العقدية والفقهية، وأن كلاً منها ملازم للآخر وقائم عليه، ولذلك فقد جعل الله -عز وجل- طاعة الأئمة والنصح لهم وترك الخروج عليهم بغير مسوغ شرعي -من العبادة التي يثاب فاعلها، ويعاقب تاركها بالعذاب الأخروي يوم القيامة.

ولهذا صار موضوع الخلافة والإمامة داخلاً في أبواب الاعتقاد، ويبحث فيه موضوعات عديدة مر ذكر لبعضها.

ويبحث فيه -أيضاً- مفهوم الإمامة والخلافة، وحكمها، وبيان ما تثبت به، وكونها وسيلة لا غاية، وأنها ليست من أصول الدين.

كما يبحث في هذا الموضوع مقاصد الإمامة، وواجبات الإمام، وحقوقه، ومسألة الخروج عليه، ونحو ذلك من المسائل في هذا الباب<sup>(١)</sup>.

والشيخ الخضر رحمته الله عني بموضوع الإمامة والخلافة، بل يكاد يكون ذلك الموضوع من أعظم ما عني به طيلة حياته؛ إذ كان ذلك هو موضوع الساعة.

١- انظر المرجع السابق ص ١٩-٢٠، وانظر تفاصيل ذلك في الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي، ط ٣، ١٣٩٣هـ، شركة مكتبة مصطفى النابي الحلبي، القاهرة، ص ٥، وغيث الأمم في التياث الظلم للجويني، تحقيق د. مصطفى حلمي ود. فؤاد عبدالمنعم، ط ١، ١٤٠٠هـ، دار الدعوة، الإسكندرية، والإمامة العظمى للشيخ محمد رشيد رضا، والإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة والحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه، د. عبدالرحمن المحمود، دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، وغيرها من الكتب التي عنيت بموضوع الإمامة.

ولا أدل على ذلك من أن أشرس معاركة الفكرية كانت تدور حول هذا الموضوع، كما في صنيعه مع علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم).

وقد مضى الحديث عن شيء من ذلك عند عرض مؤلفات الشيخ الخضر، وفي المطلب الماضي عند الحديث عن منهجه في باب الصحابة، وسيأتي مزيد بيان له في الأبواب القادمة خصوصاً عند الحديث عن منهج الشيخ في الرد على المخالفين، وعند الحديث عن مواجهته للعلمانية.

ويمكن في هذا المقام إيضاح المعالم العامة لمنهج الشيخ في باب الخلافة والإمامة، وذلك من خلال ما يلي:

أولاً: يرى أن الخلافة نيابة عن صاحب الشريعة في رفع لواء الحق، والسير بالأمة على مناهج السياسة القيمة<sup>(١)</sup>.

ويرى أنها حقيقة شرعية، ونظام كامل لحياة الأمة الإسلامية، وأن من يدرس التاريخ بروية وأناة يدرك بوضوح أن الخلافة رفعت الشرق مكاناً علياً، وأنه لم يفقد سيادته، ومنَعَتَهُ إلا حين اختل نظامها، وسارت في غير سبيلها<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: يرى وجوب نصب الأمة إماماً، وأنه قد «صدرت عن النبي ﷺ في معنى الوصاية بنصب أمير يقوم مقامه في تدبير المصالح العامة؛ كحديث البخاري: «إن هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين»<sup>(٣)</sup>.

وحديث مسلم: «إذا بويع لخليفتين، فاقتلوا الآخر منهما»<sup>(٤)</sup>.

وكذلك عرف أصحابه أنهم لا يملكون عزتهم من بعده، ولا يتمكنون من التمادي على مناصرة الحق والدعوة إليه إلا بإزاء قوة اجتماعية يكون زمامها بيد

١- انظر هدى ونور ص ٦٠.

٢- انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٨٨-١٨٩.

٣- البخاري (٣٣٠٩).

٤- مسلم (١٨٥٣).

رئيس عادل؛ فبادروا إلى سقيفة بني ساعدة، واثتمروا في قضية الرئاسة، فقال الأنصار للمهاجرين: منا أمير، ومنكم أمير، حتى سمعوا الحديث الذي يرشد إلى أن الإمامة في قريش، فانحلت عقدة العصبية من قلوبهم، وعدلت بهم الحجة عن رأيهم، وما لبثوا أن مدوا أيديهم بعد يد عمر بن الخطاب إلى مبايعة الصديق، فانعقدت رئاسته باتفاق أهل الحل والعقد، وسمّوه: خليفة رسول الله.

ومن هنا نشأت تسمية تلك الرئاسة خلافة<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: يرى أن القرآن قد شرع للخلافة قاعدة، وهي قوله -تعالى-: ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ الشورى: ٣٨.

وأن النبي ﷺ زادها بياناً؛ إذ ترك للأمة حريتها في انتخاب مَنْ ترى فيه الكفاية للقبض على مقاليد أمرها، حتى تكون السيرة المقتدى بها في كل عهد.

أما طريقة أخذ الآراء فموكولة إلى اجتهاد أهل الحل والعقد، ككل مصلحة أرشد إليها الإسلام، وفوض في وسائلها إلى اجتهاد الآراء<sup>(٢)</sup>.

رابعاً: يرى أن الخلافة تنعقد بأسباب: إما بمبايعة أهل الحل والعقد؛ كخلافة الصديق، وعلي ابن أبي طالب، أو بايضاء من الخليفة السالف كما انعقدت خلافة الفاروق بعهد من أبي بكر، وخلافة عمر بن عبد العزيز بعهد من سليمان بن عبد الملك.

وأن عمر بن الخطاب لم يعهد بها إلى رجل يثق بكفايته ومقدرته كما فعل الصديق، ولا وكلها إلى آراء الأمة جملة كما فعل أكمل الخليفة -صلوات الله عليه-.

بل وقع اجتهاده ذلك الحين على أن يلقي أمرها إلى أولئك النفس الذين عرفوا بين الأمة بسداد الرأي والأمانة، فاثتمروا فيما بينهم، ووضعوا مقاليدها

١- هدى ونور ص ٦٠.

٢- انظر المرجع السابق ص ٥٩-٦٠.

في يد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ويرى أنه قد ينهض للخلافة بعض مَنْ يُعَدُّ في بادئ أمره متغلباً، ويملك من القوة ما يحمل صاحبها الشرعي على أن يتخلى عنها بنفسه؛ كما صنع الحسن بن علي؛ إذ جنح إلى سلم معاوية بن أبي سفيان.

أو تنقلب إليه بموت من تولاهما بحق؛ كما صارت إلى عبد الملك بن مروان بموت عبدالله بن الزبير، وانتقلت إلى عبدالله السفاح بهلاك مروان بن محمد، وانقراض دولة بني أمية<sup>(١)</sup>.

خامساً: يرى أن كثيراً من العلماء الأقدمين وقفوا عند ظاهر أحاديث صريحة بأن الأئمة من قريش، وأخذوا في وصف الخليفة كونه قرشياً.

ثم يستدرِك قائلاً: «ولكن المحققين الذين يتفقهون في النصوص، ولا يغفلون عن النظر إلى المصالح والمفاسد التي بُنيت الشريعة على رعايتهما - انتبهوا إلى أن الإسلام أول مَنْ قرر قاعدة المساواة بين البشر على وجه ثابت، وألغى في نظره التفاضل بالأنساب؛ فلم يجعل له في تقرير الأحكام العامة نصيباً؛ فبداهم أن التصريح بنسب القرشية في الحديث إنما يرمي إلى ما يحقق شرط الكفاية والقدرة على القيام بأعباء الخلافة، وهو قوة الحامية.

وقد اختصت قريش لذلك العهد من بين سائر القبائل بقوة العصبية وشدة المراس؛ فإذا تلاشت عصبيتهم، وتمزقت جامعتهم، ووقع عنان الخلافة في يد أمير قوي سلطانه، وكانت يده أبسط وأقوى على حماية الحقوق والبلاد - وجب الوثوق بطاعته، والمسارعة إلى نجدته، وإن لم يكن قرشياً»<sup>(٢)</sup>.

سادساً: يرى أنه لا بد للخلافة أن تتقلد سيفاً، وترتدي يارهاب؛ لتتقي خطر عدو

١- انظر المرجع السابق ص ٦٠-٦١ .

٢- المرجع السابق ص ٦١ .

هاجم، أو متحفز، وتقمع شر من يثير فتنة يضطرم لها نظام الأمن والسلام<sup>(١)</sup>.

سابعاً: يرى أن الظلم والاستبداد في الحكم ينشآن من علتين:

أولاهما: أن يحمل الحاكم بين جنبيه أهواءً غالبية، ونفساً غير زاكية.

وثانيتها: جهل الأمة، وتخاذلها؛ بحيث لا يتحد زعماءؤها على تقويمه بالتى هي

أحكم، وأقطع لدابر الاستبداد.

فإن وقع من الخليفة استبداد فالتبعة - كما يقول - ملقاة على عنق الأمة، لا على

مشروع الخلافة.

ويرى أنه لو كان مقام الخلافة يحمل بطبيعته على الاستبداد والبغي لم ترفع العدالة

رأسها، ولم تنشط الحرية من عقابها يوم جلس عليه الخلفاء الراشدون، ومن هذا

حدوهم كعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه<sup>(٢)</sup>.

ثامناً: أثبت أن للمسلمين خطأً وافرأ في علم السياسة، والتأليف فيه، وترجمة

الكتب التي كتبت بغير العربية في السياسة، وذكر عدداً كبيراً من الكتب في ذلك الشأن.

ويرى أن أولي العلم شهدوا أن الإسلام رسم للسياسة خطة واسعة، وسن لها نظاماً

عاماً، وأن أولي العلم قد صرفوا أنظارهم في دراسة تلك الخطة، والتفقه في هاتيك

النظم.

وأن المسلمين آثروا أن ينظروا إلى السياسة بمرآة الشريعة، فترى كثيراً من رجال

الدولة إذا حركوا أقلامهم في تحرير سياسي نفخوا فيه روحاً من حكمة الشريعة،

وكسوه حُلَّةً من حلال آدابها الوضاعة.

ويذكر أمثلة عدة على ذلك<sup>(٣)</sup>.

تاسعاً: قرر وجه الحاجة إلى الخلافة، وأنها حقيقة شرعية، وأمر لا غنى

١- انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٩٠.

٢- انظر المرجع السابق ص ٩١.

٣- انظر المرجع السابق ص ٦٥-٦٧.

للمسلمين عنه ، ما داموا يطمحون إلى عزٍ مكين و حياة مستقلة<sup>(١)</sup>.

ويذكر على ذلك أمثلة من التاريخ ، وأنه «قد تسنى فيما سلف أن تكون الشعوب الإسلامية كلها تحت راية واحدة كحالها لعهد الدولة الأموية ، ثم انقسمت إلى دولتين مستقلتين أيام ذهب عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وأقام دولة أموية أخذت لقب الخلافة إزاء الخلافة العباسية بالشرق؛ فكان لدولة الإسلام في العهد الأول ، ولدولتيه في العهد الثاني من القوة والسطوة ما قطع مطامع الدول القوية أن تبسط يدها على قيد شبر من بلاد الشرق.

ولما تقطعت أوصال الخلافة بالأندلس صاروا كما قال شاعرهم :

قام بكل بقعةٍ مَلِيكَ      وصاحَ فوق كلِّ غصنٍ ديكٌ<sup>(٢)</sup>

عاشراً: ذكره الآثار الصالحة للخلافة؛ فيذكر في معرض رده على علي عبد الرازق أنها قامت بدعوة إلى دين القيمة ، ومدت إلى ظل الإسلام في أقاليم بعيدة ما بين المناكب؛ فأصبحت كلمته العليا ، وأصبح المسلمون في عزٍّ شامخ ، و حياة راضية.

وأن الخلافة فتحت أوطاناً كثيرة ، فأذاقتها حلاوة العدل بعد أن كانت تتجرع غصص الجور والاستعباد ، وضربت فيها بأشعة التوحيد الخالص بعد أن كانت تتخبط في ظلمات الحيرة والضلال ، وألبستها حلل الآداب الراقية بعد أن كانت منغمسة في عادات وتقاليد تشمئز منها النفوس ، وتمجها الأذواق السليمة ، ونسقتها بفضل الإسلام في تآلف واتحاد بعد أن كانت في تخاذل وشقاق<sup>(٣)</sup>.

ثم يتساءل قائلاً: «أفلم يكن قسم عظيم من آسيا وإفريقية يصلّي نار الوثنية بكرة وعشياً ، ويتبرج في مظاهر الهمجية تبرج الجاهلية الأولى؟! فكان من أثر

١- انظر المرجع السابق ص ١١٧ .

٢- المرجع السابق ص ١١٧ .

٣- انظر المرجع السابق ص ١١٩ .

الخلافة، وما قامت به من الدعوة - أن قلبت تلك النار إلى إيمان صادق، ووضعت مكان الخلاعة والهمجية حياءً ونظاماً»<sup>(١)</sup>.

ثم يختم كلامه حول هذه المسألة قائلاً: «ما كان للمؤلف أن يتنازل إلى هذا الدرك الأسفل من المغالطة؛ إذ لم يدع أحد قط أن صلاح شأن الرعية، وصيانة شعائر الدين مربوطان باسم الخلافة، وأن لقب الخليفة كالرعية النافعة يذهب به كل بأس، أو الدعوة المستجابة ينزل عندها كل خير.

والذي نعلمه، ويعلمه أشباه العامة من المسلمين: أن الخلافة لا تترك آثارها، وتمنحك ثمارها من منعة وعزة وعدالة إلا إذا سارت على سنة العزم في الأمور، والحكمة في السياسة»<sup>(٢)</sup>.

حادي عشر: يرى أن من أصول سعادة الأمة إخلاصَ ولاةِ الأمور للأمة، وطاعة الأمة لولاةِ أمورها.

يقول ﷺ في تقرير هذا الأصل: «وقد عني الإسلام - فيما عني - بهاتين الخصلتين العظيمتين: إخلاص ولاة الأمور للأمة، وطاعة الأمة لولاة أمورها؛ فأوجب على الولاة أن يقيموا سياستهم على رعاية الحقوق والمصالح، قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصحها، إلا لم يجد ريح الجنة»<sup>(٣)</sup>.

ثم التفت إلى الرعية، فأمرهم بحسن الطاعة، ومن شواهد هذا: قوله - عليه الصلاة والسلام -: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»<sup>(٤)</sup>.

فالحق أن سعادة الأمة في أيدي رؤسائها، فإذا استقاموا على الطريقة، وساسوها برفق وحرص على مصالحها وكرامتها - سارت<sup>(٥)</sup> بجانبهم مستقيمة، فلا تلبث أن تنجح في سيرتها،

١- المرجع السابق ص ١١٩.

٢- المرجع السابق ص ١٢١.

٣- أخرجه البخاري (٦٧٣١).

٤- أخرجه البخاري (٦٧٢٥).

٥- في رسائل الإصلاح ص ١٣٥ طبعة الموسوعة: (سرت) وفي طبعة دار الإصلاح ٦٤/٢ (سارت) وهي الأصح.

وتظفر ببنيتها؛ ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
 وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ يونس: ٦٣-٦٤ ، (١) .  
 فهذه -بإجمال شديد- نبذة عن منهجه في باب الخلافة ، وإلا فله كلام طويل  
 مفصل في كثير من آثاره ، سواء في مقاصد الإسلام في أن تكون له دولة ، أو في  
 القضاء في الإسلام ، أو في حكومة الخلفاء الراشدين ، أو في حرية الشعوب ،  
 وأنها لا تحصل إلا إذا كانت تساس على مقتضى الشريعة ، إلى غير ذلك من  
 المباحث التي تناولها بتحرير عالٍ ، ونظر مستقل (٢) .

١- رسائل الإصلاح ص ١٣٥ .

٢- انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٢٥-٣٠١ ، وهدى ونور ص ٥٩-٦٣ ، ورسائل

الإصلاح ص ١٣٠-١٣٥ ، ونقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٨٨-٢٠٥ .



الباب الثالث: منهج الشيخ محمد الخضر في الرد على المخالفين

وفيه فصلان:

الفصل الأول: مصادر الشيخ محمد الخضر ووسائله في الرد

على المخالفين

الفصل الثاني: أساليب الشيخ محمد الخضر في الرد على

المخالفين



**الفصل الأول: مصادر الشيخ محمد الخضر ووسائله في الرد على المخالفين  
وفيه مبحثان:**

**المبحث الأول: مصادره في الرد على المخالفين**

**المبحث الثاني: وسائله في الرد على المخالفين**



### المبحث الأول: مصادره في الرد على المخالفين

مرّ في الباب الأول عند الحديث عن علم الشيخ الخضر أن عبقريته الفذة تتجلى في ردوده ونقائضه، وتعقيباته، كما مر تفصيل لشيء من ذلك. هذا وإن من أعظم ما يميز تلك الردود والنقائض، والتعقيبات ثراء مصادره فيها، وتنوع تلك المصادر، وكثرتها، وحسن مأخذها واستشهادها بها. وفيما يلي ذكر لأهم مصادره مع بيانٍ مجملٍ لمنهج وطريقته في النهل من معين تلك المصادر.

### المطلب الأول: المصدر الأول: القرآن الكريم

مر عند الحديث عن مصادر الشيخ الخضر في تلقي العقيدة ذكر للمصدر الأول الذي كان ينهل منه، ألا وهو القرآن الكريم، وكان الحديث هنالك مشتملاً على بعض التفصيل، والبسط؛ فيغني عن التكرار ههنا.

والذي يعني في هذا المقام هو بيان اعتماده القرآن مصدراً أساساً في ردوده، وعلى المخالفين على وجه الخصوص، وإيضاح أبرز المعالم لطريقته في ذلك الشأن؛ فالشيخ رحمته الله كان يستند في ردوده أعظم ما يستند على القرآن الكريم؛ إيماناً منه بأنه المصدر الأول في التشريع الإسلامي، وأنه المرجع الأساس الذي يجب الاحتكام إليه، والوقوف عند أوامره، ونواهيه، وأخباره.

فلقد كان يعتمد القرآن مصدراً أولياً، ولا يقدم عليه شيئاً من المصادر والناظر في ردوده، ومقارنته للخصوم يلحظ ذلك جلياً؛ فلا تكاد تمر بصفحة من صفحات تلك الردود إلا وتجدها مشتملة على إيراد آية أو أكثر.

ويتنوع إيراده لآيات الكتاب العزيز، واستشهاده بها حسب المقام الذي هو بصده، ويمكن إجمال طريقته في ذلك فيما يلي:

أولاً: إيراد الآيات في بداية الردود وختامها: فتارة يفتح الرد بآية تشير إلى ما هو بصده من ذلك الرد، وتارة يختم الرد بآية تجمع أطراف الموضوع، أو تجمل ما يريد الوصول إليه من خلال رده.

يقول رحمته الله في مقدمته لكتابه: (نقض كتاب في الشعر الجاهلي): «فالقلم الذي يناقش كتاب (في الشعر الجاهلي) إنما يطأ موطناً يغيظ طائفة احتفلت بهذا الكتاب، وحسبته الطعنة القاضية على الإسلام، وفضل العرب.

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ الأحزاب: ٢٥»<sup>(١)</sup>.

ويقول في خاتمة ذلك الكتاب بعد فراغه من النقض: «إننا أمة بحث ونظر: نذهب مع العلم كل مذهب، ولا نقف لحرية الفكر في طريق، وإنما نحن بشر، والبشر تأبى قلوبهم إلا أن تزدرى أقلاماً تثب في غير علم، وتحاور في غير صدق، وإنما نحن بشر، والبشر تأبى لهم أقلامهم إلا أن تطمس على أعين الكلمات الغامزة في شريعة محكمة، أو عقيدة قيمة.

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي

مَتِينٌ ﴾ القلم: ٤٤ - ٤٥»<sup>(٢)</sup>.

وقال في خاتمة كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم): «أما المؤلف فقد أدرك أن الأمة مسلمة، وأن الإسلام دين وشريعة وسياسة، وأن هاتين الحقيقتين يقضيان على الدولة أن تضع سياستها في صبغة إسلامية، فبداله أن يعالج المسألة بيد الكيد والمخاتلة، ويأتيها باسم العلم والدين؛ فكان من حظقه أن التقط تلك الآراء الساقطة، خلطها بتلك الشبه التي يخزي بعضها بعضاً، وأخرجها كتاباً يحمل سموماً لو تجرعاها المسلمون، لتبدلوا الكفر بالإيمان، والشقاء بالسعادة، والذلة بالعزة ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ المنافقون: ٨»<sup>(٣)</sup>.

وقال في خاتمة رده (تحريف آيات الحدود عن مواضعها) الذي رد به على مقال عبدالمعتال الصعيدي (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي): «وجاء بعده كاتب المقال، فهجم على آيات الحدود بمعول ذلك التأويل الذي تنكره السنة وحكمة التشريع.

١ - انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٨.

٢ - المرجع السابق ص ٤٤٤.

٣ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٣٠١.

ولو جرى الناس على مثله من تفسير الكتاب المجيد لكَفَّوْا خُصُومَ الْإِسْلَامِ جَانِبًا مِنَ الْعَمَلِ لِهَدْمِ أَرْكَانِهِ، وَطَمَسِ مَعَالِمَهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُد لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩»<sup>(١)</sup>.

هذا وسيأتي مزيد بيان لذلك عند الحديث عن أساليبه في الرد على المخالفين.

ثانياً: الاستشهاد بالقرآن لتأييد ما يذهب إليه: وذلك كثير جداً؛ وظاهر في شتى ردوده.

يقول ﷺ في معرض رده على علي عبد الرازق: «ولا يرتاب مسلم في أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- لم يتولّ فصل القضايا بين الناس من تلقاء نفسه، وإنما هو مَنْصِبٌ استمده بوحى سماوي، قال -تعالى-: ﴿وَأَن أٰحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ المائدة: ٤٩، فناطق بعهدته فصل القضايا، ثم وضع في أعناق الأمة فريضة التسليم لقضائه، فقال -تعالى-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ النساء: ٦٥»<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: إبطال ما يذهب إليه المخالف من الاستدلال بالقرآن: وذلك كأن يورد أحد المخالفين آية من كتاب الله مستدلاً بها على باطل، أو مؤولاً لها على غير تأويلها الصحيح، أو أن يكون الاستدلال بها غير ناهض بالحجة التي يريد تأييدها، فيبطل الشيخ ذلك كله، ويبين خطأ ذلك الاستدلال، أو التأويل، ثم

١ - بلاغة القرآن ص ١٤١، وانظر ص ١٦٧ و ١٨٠ و ٢٧١.

٢ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٣٠، وانظر ص ١٥٣ و ١٥٤ و ١٦٠ و ١٦٥ و ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٩،

وانظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٨٨ و ٢٥٨، وبلاغة القرآن ص ٩٤ و ١٨٤ و ١٩٧ و ٢٣٧ وغيرها كثير.

يوضح معنى الآية، والوجه الصحيح الذي يمكن أن يُستدل بالآية عليه، ويرشد إلى التأويل الحق.

وهذا ظاهر جلي في أكثر ردوده سواء في رده على علي عبدالرازق في (الإسلام وأصول الحكم)<sup>(١)</sup> أو رده على طه حسين في (حقيقة ضمير الغائب)<sup>(٢)</sup> أو (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)<sup>(٣)</sup> أو رده على محمد أحمد خلف الله في (الفن القصصي في القرآن)<sup>(٤)</sup> أو رده على عبدالمتعال الصعيدي في (تحريف آيات الحدود عن مواضعها)<sup>(٥)</sup> أو رده على محمد أبو زيد الدمهوري<sup>(٦)</sup> أو مقالته (كتاب يلحد في آيات الله) التي رد بها على الطاهر حداد<sup>(٧)</sup> أو مقالاته: (قصة أيوب - عليه السلام - ونقض آراء حديثه في تفسيرها)<sup>(٨)</sup>.

هذا وسيأتي مزيد بيان لما جاء في هذا المطلب في المطلب التالي.

- 
- ١ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٨٦ و ١٨٧ و ١٨٩ و ١٩٢ و ٢١٦ و ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٥١.
  - ٢ - انظر بلاغة القرآن ص ٧٩ - ١١٦.
  - ٣ - انظر ص ٦٢ - ٦٥ و ٦٨ - ٧٣ و ٧٤ - ٧٦ و ٨٤ - ٨٧.
  - ٤ - انظر بلاغة القرآن ص ١٢٠ - ١٣٤.
  - ٥ - انظر المرجع السابق ص ١٣٥ - ١٤١.
  - ٦ - انظر المرجع السابق ص ١٤٢ - ١٦٧.
  - ٧ - انظر المرجع السابق ص ١٦٨ - ١٨٠.
  - ٨ - انظر المرجع السابق ص ١٨١ - ٢٧٦.

### المطلب الثاني: المصدر الثاني: الحديث النبوي

الحديث النبوي هو المصدر الثاني للتشريع في الإسلام، ويقال عنه ما قيل في القرآن الكريم من جهة حجته، ومن جهة أن الكلام قد مر في شأن السنة النبوية عند الحديث عن مصادر الشيخ الخضر في العقيدة، ومن جهة أن الكلام السابق يغني عن التكرار ههنا.

والذي يعني في هذا المقام إيضاح كون الحديث النبوي مصدراً أساساً اعتمده الشيخ الخضر في ردوده، ومنازلاته العقيدية والفكرية، مع بيان أبرز ملامح منهجه في الاستناد على الحديث النبوي في ذلك الشأن.

فالدارس لردود الشيخ الخضر خصوصاً، ولآثاره عموماً يلاحظ - دون عناء - أنه يعتمد الحديث مصدراً أساساً يستند إليه، ويلاحظ - أيضاً - أنه يسير في ذلك على منهج واضح.

ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

أولاً: اعتماده المصادر الأصلية في الحديث: فالناظر في ردود الشيخ الخضر يلاحظ أنه يعتمد كتب الحديث الأصلية التي تلقتها الأمة بالقبول.

ويأتي على رأس تلك الكتب: صحيح البخاري وصحيح مسلم، وموطأ الإمام مالك؛ فهي أكثر ما يستشهد به، ويعتمده.

ويأتي بعد ذلك مسند الإمام أحمد، وسنن الترمذي، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، والسنن الكبرى للبيهقي، ومستدرک الحاكم، والمعجم الكبير للطبراني، ومسند ابن أبي شيبة.<sup>(١)</sup>

١ - انظر بلاغة القرآن ص ١٥١ و ١٥٦ و ١٧٦، ونقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٨ و ١٩ و ٤٧ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١٤١، ونقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٥٣ و ٢٢٠ و ٢٢١ و ٣٤١، ومحمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٢٣٢ و ٢٤١ و ٢٤٢ و ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦٠ و ٢٦٣ و ٢٦٩ و ٢٧٣ و ٢٧٥.

أما طريقة رجوعه، وعزوه إلى كتب السنة فهي مختلفة حسب سياق الكلام، فتارة يذكر المصدر ومؤلفه، وتارة يذكر المصدر دون إشارة إلى اسم مؤلفه، وتارة يكتفي بالإشارة إلى صاحب المصدر، وتارة يذكر أكثر من مصدر ممن أخرج الحديث، ثم يذكر لفظ أحدهم، وتارة يذكر المصدر، وراوي الحديث من الصحابة، وتارة يذكر الحديث دون ذكر المصدر أو المؤلف، وتارة يذكر صحة الحديث، وتارة يسنده مباشرة إلى النبي ﷺ وهكذا.<sup>(١)</sup>

ومن ألفاظه في ذلك ما يلي:

- ١- قوله: «جاء في الجامع الصحيح للإمام البخاري.....».<sup>(٢)</sup>
- ٢- قوله: «والحديث الذي أشار إليه الكاتب مروى في صحيح البخاري ومسلم، ولفظه في البخاري.....».<sup>(٣)</sup>
- ٣- قوله: «وجاء في معنى خبر أبي هريرة حديث رواه البخاري ومسلم».<sup>(٤)</sup>
- ٤- قوله: «وهو مروى في صحيح مسلم عن تميم الداري، ولفظه أن النبي ﷺ قال:.....».<sup>(٥)</sup>
- ٥- قوله: «وحديث كذا وحديث كذا وكلا الحديثين في صحيح الإمام مسلم».<sup>(٦)</sup>
- ٦- قوله: «كقوله - عليه الصلاة والسلام - فيما رواه البخاري:.....».<sup>(٧)</sup>

١ - انظر الإمام محمد الغضنفر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ١٦٤.

٢ - انظر بلاغة القرآن ص ١٥١.

٣ - المرجع السابق ص ١٧٦.

٤ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٨.

٥ - المرجع السابق ص ١٩.

٦ - انظر المرجع السابق ص ٤٧-٤٨.

٧ - المرجع السابق ص ١٠٥.

٧- قوله: «ومنها ما جاء في الأمر بملازمة الإمام، وعدم الخروج عليه كحديث: .....»<sup>(١)</sup>

٨- قوله: «قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : «.....»»<sup>(٢)</sup>

٩- قوله: «فقد أخرج ابن أبي شيبة بسند حسن عن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: .....»<sup>(٣)</sup>

١٠- قوله: «وروي من طريق عبدالرحمن بن أبي بكر قال: .....»<sup>(٤)</sup>

١١- قوله: «وأخرج الإمام أحمد والترمذي وصححه من حديث جابر بن سمرة قال: .....»<sup>(٥)</sup>

إلى غير ذلك مما هو مثل ما ذكر أو قريب منه.

وبهذا يكون الشيخ الخضر حافظ على طريقة أهل العلم في إيراد الأحاديث، وعزوها إلى مصادرهما.

ثانياً: استدلاله بالحديث النبوي على تأييد التأويل الصحيح لما جاء في القرآن الكريم: وذلك ملاحظ في كثير من ردوده ومنازلاته؛ فتراه إذا رد على أحدٍ ممن يتعسفون في تأويل آيات القرآن الكريم بين وجه الخطأ في ذلك التأويل، وأيد ما ذهب إليه بالاستدلال بالسنة النبوية؛ فهي خير ما يفسر به القرآن الكريم بعد القرآن. ومن ذلك ما جاء في مقاله (كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد) الذي رد به على محمد أبو زيد الدمهوري في كتابه (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن).

١ - المرجع السابق ص ١٠٥.

٢ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٢٠.

٣ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٢٠.

٤ - المرجع السابق ص ٢٢٠.

٥ - المرجع السابق ص ٢٢١.

قال الشيخ الخضر مبيناً بعض ما وقع به الدمنهوري من الخطأ: «وأنكر ذلك المؤول أن يكون عيسى - عليه السلام - قد تكلم في المهد، فسام قوله - تعالى -: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ آل عمران: ٤٦ ، سوء التأويل فقال: (في دور المهد، وهو دور الصبا: علامة على الجرأة، وقوة الاستعداد في الصغر): يريد أنه يكلمهم في سن اعتيد فيها الكلام»<sup>(١)</sup>.

ثم قال الشيخ الخضر رحمته الله معقباً على ذلك التأويل الفاسد: «جاء في الجامع الصحيح للإمام البخاري ما يدل على أن عيسى - عليه السلام - تكلم قبل أو ان الكلام، تجدد هذا في حديث: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة) وذكر منهم عيسى - عليه السلام-»<sup>(٢)(٣)</sup>.

وقال الشيخ الخضر - أيضاً - في معرض رده على الدمنهوري: «وحرّف قوله - تعالى -: ﴿ سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ ﴾ الإسراء: ١ ، فقال: (الإسراء: يستعمل في هجرة الأنبياء، والمسجد الحرام: الذي له حرمة، والأقصى: الأبعد: مسجد المدينة).

وقصد المؤول إنكار واقعة الإسراء، فحمل الآية على هجرته - عليه الصلاة والسلام - من مكة إلى المدينة»<sup>(٤)</sup>.

ثم عقب الشيخ الخضر على ذلك بقوله: «أجمع أهل العلم أن أوائل هذه السورة نزل بمكة؛ أي: قبل الهجرة، ولو كان هذا المؤول ممن يفقه فائدة معرفة

١ - بلاغة القرآن ص ١٥١.

٢ - البخاري (٣٤٣٥) وأخرجه مسلم (٢٥٥٠).

٣ - بلاغة القرآن ص ١٥١ ، وانظر ١٥٢-١٥٣.

٤ - بلاغة القرآن ص ١٥٥.

ما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة في تفسير كتاب الله - تعالى - لما تجاسر على تفسير الآية بواقعة الهجرة.

وقد روى واقعة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس جمعٌ عظيمٌ من الصحابة - رضي الله عنهم - منهم: جابر بن عبد الله، وابن عباس، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، ومالك ابن صعصعة، وجاءت هذه الروايات في الكتب الصحيحة؛ مثل: (الجامع الصحيح) للإمام البخاري، (والجامع الصحيح) للإمام مسلم؛ فلو كان هذا المؤول ممن درس كتب السنّة، وكان ممن يستضيء في تفسير كتاب الله - تعالى - بسنّة رسول الله ﷺ لما رمى بنفسه في حفرة لا يسمع صيحته فيها إلا فارغُ الذهن من مبادئ الدين، أو مزلزلُ العقيدة ما لقي ضليلاً إلا مال به عن السبيل»<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: استدلاله بالحديث على إبطال المزاعم الكاذبة: وهذا كثير في ردوده، ومنازلاته.

ومن ذلك ما جاء في رده على علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) وذلك لما ادعى أن إمارة الخلفاء الراشدين قامت على القهر والغلبة.<sup>(٢)</sup> قال الشيخ الحضر معقّباً على ذلك: «فإن مبايعتهم - أي الخلفاء الراشدين - تقررّت باختيار من أهل الحل والعقد، ولا أثر للقهر والغلبة في انعقادها».<sup>(٣)</sup> ثم قال: «أما مبايعة أبي بكر الصديق، فقد روى البخاري في كتاب: الحدود من صحيفة الخطبة التي ألقاها عمر بن الخطاب حاكياً واقعة مبايعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة وبعد أن أتى على المناقشة التي دارت بين أبي بكر وبعض الأنصار، قال:

١ - المرجع السابق ص ١٥٦.

٢ - انظر الإسلام وأصول الحكم ص ٦٠.

٣ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٧٧-٧٨.

(فكثر اللغظ ، وارتفعت الأصوات ، حتى فرقتُ من الاختلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده ، فبايعته ، وبايعه المهاجرون ، ثم بايعته الأنصار)<sup>(١)</sup> .

وفي باب : مناقب أبي بكر من (صحيح البخاري) - أيضاً : « أن أبا بكر الصديق قال للأنصار : بايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح ، فقال عمر : بل نبايعك أنت ، فأنت سيدنا وخيرنا ، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ فأخذ عمر بيده ، وبايعه الناس »<sup>(٢)</sup> .

فأنت ترى كيف بويع أبو بكر الصديق ، وليس حوله قوة مال ، ولا جند ، ولا سلاح ، ولم تصدر منه كلمة تؤذن بتهديد أو إكراه »<sup>(٣)</sup> .

وقال - أيضاً - في معرض رده على علي بن عبد الرازق في إنكاره الخلافة ، وأن السنة أهملتها : « وأما السنة فقد وردت أحاديث صحيحة ذكر فيها الخليفة ، والإمام ، والبيعة ، والأمير ، وقد جاءت في أغراض متعددة ، ومعان مختلفة »<sup>(٤)</sup> .

ثم ذكر بعد ذلك ثمانية أحاديث في ذلك السياق ، وقال بعد إيرادها : « فهذه الأحاديث الواردة في أغراض شتى ، وأسانيد مختلفة ، وكلها تدور حول الإمام ، فتبين مسؤوليته ، وتأمّر بالوفاء ببيعته ، وإطاعته ، وملازمته ، وقتل من يحاول الخروج عليه ، وتصف الأئمة ، وتفرق بين خيارهم وشرارهم .

هذه الأحاديث إذا وقعت في يد مجتهد يتبصر في حكمة أمرها ونهيها ووصفها - لا يتردد في أن نصب<sup>(٥)</sup> الإمام أمر حتم ، وشرع قائم ، ولا يصح أن يكون هذا الحق إلا من قبيل الواجب .

١ - البخاري (٦٤٤٢) .

٢ - البخاري (٣٤٦٧) .

٣ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٧٧-٧٨ .

٤ - المرجع السابق ص ١٠٥ .

٥ - هذه الكلمة (نصب) ساقطة في طبعة الموسوعة ، ولا يستقيم الكلام تماماً إلا بها ، وهي موجودة في طبعة

الدار الحسينية ص ١١١ .

فقول المؤلف: (إن السنّة أهملت الخلافة) جراءةً يلبسها من خرج؛ ليقطع الطريق في وجه الحقائق، حتى تدرج عليه الآراء الفجّة، والأوضاع التي لم تنزل في طور التجربة والاختبار.<sup>(١)</sup>

وقال في معرض رده على الديمهوري الذي أنكر أن يكون النبي ﷺ سحر وادعى: «أن المسلمين ينقلون في كتبهم أن النبي سحر بناءً على حديث رواه اليهود كما ينقل النصارى أن المسيح صلب بناءً على رواية اليهود - أيضاً».<sup>(٢)</sup>

قال الشيخ الخضر راداً على هذا الزعم: «من يقرأ هذه الجملة يفهم منها: أن حديث سحر النبي ﷺ تلقاه المسلمون عن اليهود.

والحقيقة أن الحديث مروى بأسانيد عن النبي ﷺ نفسه، وفي هذا الحديث: أنه علّم بهذا السحر من طريق الوحي، ومن رواه من الصحابة -رضي الله عنهم-: عائشة، وابن عباس، وزيد بن أرقم، ثم رواه عن هؤلاء جماعة من الثقات حتى بلغ الأئمة: البخاري، ومسلماً، والنسائي، والبيهقي، وغيرهم».<sup>(٣)</sup>

رابعاً: نعيه على من يعتمد في الاستدلال بالأحاديث النبوية على غير الكتب الأصلية المعتمدة عند أهل العلم: ومن أمثلة ذلك ما عقب به على عبد الرازق حين عزا حديثاً إلى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي.

قال - أي الشيخ الخضر -: «نتحدث مع المؤلف فيما عناه إلى أبي هريرة، فنذكره بأن (العقد الفريد) كتاب أدب لا يليق برجل يبحث في موضوع ديني أن يستند إلى شيء مما ينقله ذلك الكتاب عن صحابي أو غيره.

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٠٧.

٢ - بلاغة القرآن ص ١٦٥.

٣ - المرجع السابق ص ١٦٥.

وإذا أباح لنفسه الاستشهاد بما بين دفتي (العقد الفريد) فلا يحق له بعد هذا أن يعتمد إلى أحاديث في (صحيح البخاري ومسلم) يراها واقفة في سبيل بعض آرائه، فيقول: لنا أن ننازع في صحتها»<sup>(١)</sup>.

وقال في معرض نقضه لطله حسين في اعتماده على رواية أبي الفرج الأصفهاني: «وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ ابن الجوزي قد نقدا صاحب (الأغاني) الذي يستمد منه المؤلف أدبه، وعلموا الأجيال المقبلة أنه لا يوثق بروايته، ولا يعول عليه في تحقيق علم أو تاريخ.

ولا أحسب أمة يوجد فيها أمثال هؤلاء النبغاء يروج بينها ما يضعه المتعصبون على الإسلام للتصغير من شأنه دون أن يجد ناقداً ومفنداً»<sup>(٢)</sup>.  
وقال -أيضاً- في ذلك السياق: «وليس من الميسور أن تجادله -يعني طه حسين- بالتتي هي أحسن ما دام قانعاً بأن كل من يعتنق ديناً قامت الآيات البيّنات على صحته لم يضع بين عقله وقلبه حاجزاً، وأن من يسوق الشاهد من (الأغاني) ونحوه دون أن يبحث في روايته، ويدري صحة طريقه، فذلك الذي جعل بين عقله وقلبه سداً لا تستطيع العاطفة أن تظهره، ولا تستطيع له نقباً»<sup>(٣)</sup>.

ولما قال علي عبدالرازق في شأن الخلافة: «وإذا أردت مزيداً في هذا البحث فارجع إلى كتاب (الخلافة) للعلامة السير تومس أرنلد؛ ففي الباب الثاني والثالث منه بيان ممتع مقنع»<sup>(٤)</sup>.

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٧.

٢ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٤٩-٥٠، وانظر ص ٢٠٥-٢٠٦.

٣ - المرجع السابق ص ٥٠.

٤ - الإسلام وأصول الحكم ص ٥٠.

عقب عليه الشيخ الخضر بقوله: «ولو أحالنا المؤلف على كتاب السير أنرولد في بحث تاريخي، أو اجتماعي له مساس بالخلافة - لأخذ منا الأسف على أن فاتنا الاطلاع عليه مأخذاً بليغاً.

ولكنه أحالنا على كتاب السير أنرولد في تحقيق حكم شرعي، فقلنا: لعله أراد الجد بشيء من الهزل، أو إخراج أحكام الشريعة من دائرة الراسخين في علومها. يجب أن تكون قيمة الأحكام الشرعية في نظر المؤلف فوق هذا التقدير، وما ينبغي له أن يخيل إلينا أنا في حاجة إلى الاقتداء بعقول الغربيين حتى في أمور الدين من واجب وحرام.

وإذا كان المؤلف يدري أن للشريعة أصولاً ومقاصد لم يدرسهما السير أنرولد حق دراستهما - فإن إحالتنا على كتابه ليست سوى عثرة في سبيل البحث تعترض السدج من الأحداث، فتكبو بهم في تردد وارتياب»<sup>(١)</sup>.

وقال معقباً على كلمة لعلي عبدالرازق يثني فيها على الأنظمة للحكومة الحديثة، ويرى أن فيها من الضبط الشيء الكثير «مما لم يوجد منه شيء في أيام النبوة ولا أشار إليه النبي ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ الخضر: «إن القارئ ليبسم لهذه الجملة عجباً، بل يتمزق لها قلبه أسفاً؛ فإن هذه المقالة إن صح أن تخرج من فم عالمٍ فإنما تصدر من حافظ حجة خاض في علم السنّة، وعرف الصحيح والضعيف والموضوع، ونقد الأسانيد بقانون علمي مستقيم.

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٤٥.

٢ - الإسلام وأصول الحكم ص ١٠٣.

ولكن المؤلف لم يزل في طبقة من ينقلون الأحاديث من (الكامل) للمبرد وأصحاب هذه الطبقة لا يدخلون في حساب علماء الشريعة، وإن وضعوا على رؤوسهم عمائم، وجلسوا مجلس الفتوى أو الحكم بين الناس»<sup>(١)</sup>.

وقال في موضع آخر: «وإن تعجب، فعجب قول المؤلف: إن النبي - عليه السلام - لم يشر طول حياته إلى شيء يسمّى: دولة إسلامية). ولقد ذهب هذا القلم في الجراءة إلى مكان سحيق.

يقول حفاظ السنّة: لم نسمع كذا، أو لم يبلغنا كذا، ويقول من ينقل حديث رسول الله ﷺ عن (الكامل) للمبرد: (لم يشر - عليه السلام - طول حياته إلى شيء يسمّى: دولة إسلامية!).

من مثل هذه العبارة يدرك قراء كتابه الأذكياء وأشبه الأذكياء: أنه يرمي بالكلام جزافاً، ويحاول أخذ قلوبهم ولو على طريق غير معقول، ومنطق ليس له فروع ولا أصول. يرمي المؤلف هذه المقالة الخاطئة، وفي السنّة الصحيحة من أحاديث الإمامة ما فيه عبرة لقوم يفقهون، وقد قصصنا منها ما لا يمكن للمؤلف أن ينازع في صحته، أو يحرفه بالتأول عن مواضعه»<sup>(٢)</sup>.

خامساً: إبطاله استشهاد المخالف بالحديث النبوي على معنى فاسد: ومن أمثلة ذلك ما جاء في قول علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم): «ذلك من الأغراض التي أنكر النبي ﷺ أن يكون له فيها حكم أو تدبير، فقال - عليه الصلاة والسلام -: (أنتم أعلم بأمور دنياكم)»<sup>(٣)(٤)</sup>.

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٠٤-٢٠٥.

٢ - المرجع السابق ص ٢٥٦-٢٥٧.

٣ - أخرجه مسلم (٢٣٦٣).

٤ - الإسلام وأصول الحكم ص ١١٩.

قال الشيخ الخضر معقّباً على هذا الكلام: «كيف ينكر النبي ﷺ أن يكون له في سياسة الأمة حكم أو تدبير؟ ونحن إذا قلّبتنا نظرنا في سيرته نجده كان يحكم فيما شجر بين الناس، ويقيم الحدود والزواج على من يجني على نفس أو مال، أو عرض أو عقل، ويجمع المال من حيث أمره الله، وينفقه في وجوه المصالح، وإسعاد ذوي الحاجة، ويتولى عقد التحالف والمعاهدات والصلح وإعلان الحرب، ويدبر أمرها، ويرسم لها الخطط مع المشاورة في هذا السبيل والأخذ بأرجح الآراء.

يتولى هذه الأمور بنفسه، وقد يندب للقيام بها من فيه الكفاية والخبرة.

وهل بعد هذا التصرف الثابت كتاباً وسنة متواترة يخرج كتاب (الإسلام وأصول الحكم) في واد حافل بعلماء الشريعة، ويصيح بأن النبي ﷺ أنكر أن يكون له في شؤون الأمة حكم أو تدبير؟!.

وأما حديث: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) فإنه وارد في واقعة تأبير النخل، فيحمل على هذا المعنى، وما شاكله من فنون الزراعة والصنائع وغيرها من وسائل العمران المادية»<sup>(١)</sup>.

سادساً: رجوعه إلى شروح الحديث في بيان معنى بعض الأحاديث التي يسوقها لتأييد ردوده: ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في معرض رده على علي عبدالرازق في مسألة الخلافة، وذلك عندما ساق - أي الشيخ الخضر - حديث «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»<sup>(٢)</sup> وذكر معنى الجماعة أي كلامه بقوله: «قال القسطلاني في شرح صحيح البخاري (والمراد - كما قال الطبري - من الخبر<sup>(٣)</sup>): الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره؛ فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة»<sup>(٤)</sup> «<sup>(٥)</sup>.

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٢٧-٢٢٨.

٢ - أخرجه البخاري (٣٤١١) ومسلم (١٨٤٧).

٣ - اللفظ في إرشاد الساري هكذا: (من الخير: لزوم الجماعة...).

٤ - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني، المطبعة الأميرية الكبرى، ٧. ١٣٢٣ هـ، ١٠/١٨٤.

٥ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٤٩.

وقال - أيضاً - عند حديثه عن الجزية: «ومن أهل العلم من وقف في قبول الجزية عند حد ما ورد في الكتاب والسنة، ومنهم من ذهب إلى أنها تقبل من كل مخالف، أياً كانت نحلته.

قال القاضي أبو بكر بن العربي في (عارضنة الأحوزي): قال ابن القاسم -صاحب الإمام مالك-: (إذا رضيت الأمم كلهم بالجزية، قبلت منهم)<sup>(١)</sup>.

وقال ابن حجر في (الفتح): (وقال مالك: تقبل من جميع الكفار إلا من ارتد، وبه قال الأوزاعي وفقهاء الشام)<sup>(٢)</sup>.<sup>(٣)</sup>

وقال - أيضاً - في خبر بعث علي بن أبي طالب عليه السلام إلى اليمن: «وخبر بعث علي بن أبي طالب عليه السلام إلى اليمن، وتعليم النبي صلى الله عليه وسلم له أن لا يقضي لخصم حتى يسمع من الآخر أخرجه الإمام أحمد بن حنبل<sup>(٤)</sup>، وأبو داود<sup>(٥)</sup>، والترمذي<sup>(٦)</sup>، ورواه ابن سعد في (طبقاته)<sup>(٧)</sup> بثلاثة أسانيد مختلفة، وحكاه ابن عبد البر في كتاب (الاستيعاب)<sup>(٨)</sup> وأبو بكر بن العربي في كتاب (الأحكام)<sup>(٩)</sup> والحافظ المزني في كتاب (التهذيب) والحافظ ابن حجر في (فتح الباري)<sup>(١٠)</sup>

١ - هذا الكلام ليس في العارضة، وإنما هو في أحكام القرآن لابن العربي، راجعه وعلق عليه محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٢٤هـ.

٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أخرجه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، دار المعرفة، ٢٥٩/٦.

٣ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٨٢-١٨٣.

٤ - (٨٨٢).

٥ - (٣٥٨٢).

٦ - (١٣٣١).

٧ - ٢٥٧/٢.

٨ - ٤٩٩/٢.

٩ - ٥٥/٤.

١٠ - ٦٥/٨.

وكذلك يقول المحقق الشوكاني<sup>(١)</sup> في حديث: (يا علي! إذا جلس إليك الخصمان... إلخ)، أخرجه ابن حبان<sup>(٢)</sup> وصححه، وحسنه الترمذي. روى أولئك الأعلام هذا الخبر، ولم يروا به وجهاً للريبة، مع أنهم أسبق الناس إلى نقد الأخبار، ولا سيما ما يمس بأمر ديني، أو يحتوي على حديث نبوي<sup>(٣)</sup>. وقال في رده على طه حسين في كتاب الشعر الجاهلي في غضون حديثه عن العدنانية والقحطانية: «ومن الرواة القائلين بأن قحطان من ولد إسماعيل - الزبير بن بكار ففي فتح الباري للحافظ ابن حجر: (وزعم الزبير بن بكار أن قحطان من ذرية إسماعيل)<sup>(٤)</sup>». <sup>(٥)</sup> سابقاً: اعتناؤه في ردوده بصحة الأحاديث وبيان درجتها: فالشيخ إذا نقل من الكتب التي تعني بالصحة كالبخاري ومسلم لا يتعقب تلك الأحاديث. أما إذا كان غير ذلك فإنه يحرص - في الغالب - على بيان درجة الحديث، وإذا استشهد من يرد عليهم ببعض الأحاديث التي يكون فيها مقالٌ بين درجتها، وأوضح ما فيها من ضعف.

ويسير في ذلك على سنن المُحدِّثين، ويرجع في أحكامه إلى ما قرره. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رده على علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) وذلك عندما قرر الشيخ الخضر أن كل أمة تعتق الإسلام يأخذ الحكم فيها صورة غير صورته الجاهلية سواء كانت جنائية، أو مالية، أو مراجعة إلى أحوال الزوجية، وأن تلك القضايا تفصل بحكم القرآن، أو السنة، أو الاجتهاد المستند إلى القواعد المركوزة في نفس الواقف على روح التشريع.<sup>(٦)</sup>

١ - نيل الأوطار (٢٩٠٥).

٢ - (٥٠٦٥).

٣ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٣٨.

٤ - ٥٣٧/٦.

٥ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٨.

٦ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٣٨.

فعندما قرر ذلك الأمر قال: «ومن شواهد هذا: حديث معاذ، حين بعثه النبي ﷺ إلى اليمن، فقد تضمن الحديث: أنه يقضي بكتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله، فبسنة رسول الله ﷺ فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ اجتهد رأيه.

وقد صحح هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن العربي في (عارضه الأحوزي)<sup>(١)</sup> وصححه ابن قيم الجوزية في (إعلام الموقعين<sup>(٢)</sup>) «<sup>(٣)</sup>.

وقال في معرض رده على طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) عندما أورد طه قصة ابن عباس مع نافع بن الأزرق ووسمها بميسم الوضع، ولم يستند في هذا الحكم إلا إلى أن تصديقها من السداجة، وأن أهل الفقه لا يشكون في وضعها.<sup>(٤)</sup>

قال الشيخ الخضر بعد أن تكلم على هذه القصة، وأنها غير بعيدة الوقوع من جهة، وأنه لا يبعد أن يجيب ابن عباس على مائتي سؤال في الغريب، واستشهد على ذلك بشعر العرب قال: «وإذا كانت الغرابة لا تكفي للقطع باصطناع هذه القصة فلنذهب في البحث عنها من جهة الرواية، لعلنا نجد في البحث من هذه الجهة هدى.

روى ابن الأنباري في كتاب (الوقف والابتداء) نبذة منها بسند يتصل بمحمد بن زياد الشكري عن ميمون بن مهران.

وميمون بن مهران ثقة، ولو اطردت القصة مارة على رجال من مثله إلى ابن الأنباري لم نجد مانعاً من دخولها في تاريخ الأدب الصحيح.

ولكن محمد بن زياد الشكري مطعون في أمانته، قال ابن معين: (كان يبغداد قوم كذابون يضعون الحديث) منهم: محمد بن زياد.

١ - عارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي لابن العربي المالكي، إعداد هشام سمير البخاري، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٥هـ، ٦/٦٨-٦٩.

٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد عبدالسلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ، ٦/٣١١.

٣ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٣٨.

٤ - انظر في الشعر الجاهلي ص ٣٩-٤٠.

وقال أحمد بن حنبل بعد أن وصفه بوضع الحديث: (ما كان أجراًه! يقول: حدثنا ميمون بن مهران في كل شيء) <sup>(١)</sup>.

وروى الطبراني في (معجمه الكبير) <sup>(٢)</sup> قطعة منها على طريق جوير عن الضحّك ابن مزاحم، والضحّك بن مزاحم لم يلق ابن عباس، وهو في نفسه موثوق به عند قوم، مضعف عند آخرين.

وأما جوير، فمعدود من الضعفاء، سئل عنه علي بن المدني، فضعه جداً، وقال: جوير أكثر على الضحّك، روى عنه أشياء مناكير <sup>(٣)</sup>.

ولما قال طه حسين: «وليس ينبغي أن ننسى هنا تأثير أولئك اليهود والنصارى الذين أسلموا، وأخذوا يضعون الأحاديث ويدسونها لمخلصين أو غير مخلصين» <sup>(٤)</sup>.

عقب عليه الشيخ الخضر بقوله: «مزية علماء الإسلام في نقد رواة الحديث أوضح من نار على يفاع، ولم يكتفوا في قبول الحديث بتحقق عدالة الراوي، وذهب بهم الاحتياط إلى قواعد أحكموها؛ ليزنوا بها الحديث نفسه، ويستضيفوا بها في تمييز الصحيح من المصنوع».

وضع بعض الزنادقة أحاديث؛ ليذهبوا بيهاً حكمة الإسلام، ووضع بعض الأغبياء أحاديث ليزيدوه خيراً وشاهد كمال فيما يزعمون.

وبفضل ما عني به العلماء من نقد الرواة، والاحتياط لقبول الأحاديث - بقيت الشريعة محفوظة مما يصنع الماكرون، ومفصلة مما يضيفه إليها أصدقاؤها الجاهلون <sup>(٥)</sup>.

فهذه معالم منهجه في اعتماده الحديث النبوي مصدراً أساساً في ردوده على المخالفين.

١ - تهذيب التهذيب ١٧١/٩ .

٢ - ٢٤٨/١٠ .

٣ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٥٢-١٥٣ .

٤ - في الشعر الجاهلي ص ٩٤ .

٥ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٨٤ .

## المطلب الثالث: المصدر الثالث: الإجماع

الإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي، ومن الموضوعات التي يتناولها العلماء بالبحث، والعناية، والدراسة. فتراهم يبحثون في مكانة الإجماع، وأنه حقٌ مقطوع به في دين الله - عز وجل - وأصل عظيم من أصول الدين، ومصدر من مصادر التشريع بعد كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ.

ويبحثون في كون الإجماع يستمد مكانته من كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ. ويتعرضون لتعريف الإجماع في اللغة، وأنه يعني العزم، والاتفاق. ويتعرضون لتعريفه في الاصطلاح، ويذكرون اختلاف العلماء في تحديده، وأن مبنى الخلاف في ذلك راجع إلى الموقف الذي يتخذه كل عالم من أركان الإجماع، وشرائطه.

ويبينون أن آراء أهل العلم تكاد تجتمع في تعريفين يغني ذكرهما عن سرد كل التعريفات الأخرى.

أما التعريف الأول منهما فهو تعريف الغزالي رحمته الله حيث يقول: «الإجماع عبارة عن اتفاق أمة محمد ﷺ خاصة على أمر من الأمور الدينية»<sup>(١)</sup>. وأما التعريف الثاني فهو الذي قال به جمع غفير من علماء الأصول وهو قولهم: «الإجماع هو اتفاق مجتهدي أمة محمد ﷺ بعد وفاته في عصر من العصور على حكم شرعي في واقعة من الوقائع»<sup>(٢)</sup>.

١ - المستصفي للغزالي ١/١٧٣.

٢ - انظر الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٤/٥٠٦، والإحكام في أصول الأحكام للأمدى ١/١٩٦.

ويذكرون - كذلك - معنى إجماع الصحابة، وإجماع الخلفاء الراشدين، وإجماع الشيخين أبي بكر وعمر، وإجماع كل من أهل المدينة أو مكة، أو البصرة، أو الكوفة.

كما يذكرون أنواع الإجماع: كالإجماع الصريح، والإجماع السكوتي. كما يتعرضون لإمكان الإجماع، ونقله، ومستنده، ومراتبه إلى غير ذلك مما يتعرض له العلماء والأصوليون منهم - على وجه الخصوص - في باب الإجماع.<sup>(١)</sup> والشيخ الخضر - وهو الأصولي الضليع - كان معنياً بالإجماع، وكان يعده مصدراً من مصادره الأساسية في ردوده على المخالفين، فتارة يستند على الإجماع في تأييد ما يراه، وتارة يستند عليه بإبطال كلام الخصم، وتارة يزيل الشبه التي تثار حول الإجماع إلى غير ذلك مما كان يتعرض له في باب الإجماع في غضون منازلته. وفيما يلي بيان لذلك بشيء من البسط.

أولاً: إثباته حجية الإجماع: فلقد تطرق الشيخ الخضر إلى هذه المسألة في ردوده. وأجلى ما في ذلك ما جاء في رده على علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) حيث بين الشيخ الخضر أن أول ما عني به الإسلام أن أطلق العقول من وثاق التقليد، وفتح أمامها باب النظر حتى تعبر إلى قرارة اليقين على طريق الحججة والبرهان.

١ - انظر مقدمة الإجماع لابن المنذر، تحقيق: أبو حماد صغير أحمد بن محمد حنيف، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ١٩-٢٤، والإقناع في مسائل الإجماع لابن القطان الفاسي، تحقيق أ.د. فاروق حمادة، دار القلم دمشق، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، طبعة وزارة الأوقاف في دولة قطر، ص ١١٥-١٥٢، وموسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي لسعدي أبو جيب، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٢١-٣٩.

وأوضح أن علماء الإسلام -ولا سيما السلف الصالح- قد جَرَّوا على هذا المنهج «فكانوا لا يتابعون ذا رأي على رأيه، ولا يتقلدون حكماً قبل أن يعلموا مستنده، وإذا عرفوا المستند عرضوه على قانون الأدلة السمعية، ووزنوه بميزان النظر؛ ليعلموا مبلغه من الصحة، فإذا ثبت على النقد، وسلم من وجوه الطعن رفعوه على كاهل القبول، وإلا نبذوه نبذَ الحذاء المُرَقَّع غير مبالين بمقام مدعيه، وإن حاكى القمر رفعة وسناء»<sup>(١)</sup>.

ثم تطرق إلى أن من درس مسائل الخلاف وجد أن الصحابة يخالف بعضهم بعضاً، وأن صغيرهم لا ينقاد إلى كبيرهم إلا بزمام الحجة، وأن التابعين ومن بعدهم ساروا على هذا الاستقلال وحرية الفكر.

وأوضح أنه: «لا يكبر على أحد من المجتهدين أن يناظر أستاذه، أو من كان أوفر منه علماً، وأوسع نظراً؛ فيقارع حجته بالحجة، حتى إذا لم تمتلئ نفسه بالثقة من أدلته اجتهد لنفسه، وأقام بجانب مذهبه مذهباً.

ولتجدن من هؤلاء من يبلغه مذهب الصحابي في قضية لم ينعقد عليها إجماع، فيستأنف النظر في دلائلها، ولا يكون في صدره حرج أن يخالف الصحابي، أو يرجح مذهب تابعي على مذهبه»<sup>(٢)</sup>.

ثم انتقل إلى عنايتهم بتحقيق الأحكام، وإبائتهم تناولها إلا من يد الدليل القاطع أو الراجح؛ لذا «دَوَّنوا الأحاديث، ونصبوا لها ميزاناً يعرف به صحيحها من ضعيفها، أو ضعيفها من موضوعها، ثم وضعوا لاستنباط الأحكام أصولاً،

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٥٦-٥٧.

٢ - المرجع السابق ص ٥٧.

وقرروا لاستخراجها قواعد، وشرطوا في هذه الأصول والقواعد أن تكون قائمة على بيّنة قاطعة»<sup>(١)</sup>.

إلى أن أوضح أن العلماء الراسخين في نقد الأقوال كانوا يتناولون القضية على بساط البحث والاستفتاء، وتداولها أنظارهم حتى تستقر على حكم يقررونه بإجماع، وينطقون فيه عن تصميم يُعرف بحكم العادة معرفة لا تخالجه ريبية: أن تلك القضية أخذت حظها من النظر، وأنه لم يبق فيها لمخالف وجه يلتفت إليه، وبالأحرى ما كان في عصر الصحابة الذين شهدوا الوحي، ووقفوا على روح التشريع، ولم يعرفوا في قول الحق هوادة ولا محاباة.<sup>(٢)</sup>

ثم قال بعد ذلك: «وقد تأيد هذا القول بطول الاختبار والاستقراء؛ فلتجدن كل رأي يتهجم به مبتدعه على خرق إجماع أهل العلم متداعياً إلى السقوط، بل قائماً على رأسه؛ بحيث لا يكلفك هدمه إمعاناً في نظر، أو عناءً في التماس حجة»<sup>(٣)</sup>.

إلى أن قال مبيناً منزع أخذ حجية الإجماع: «ولم تؤخذ حجية الإجماع من الكتاب والسنة بنصوص معدودة، بل حجيته من آيات كثيرة، وأحاديث شتى. وإذا كان كل واحد منها يدل بانفراده على حجية الإجماع دلالة ظنية؛ فإن الظنيات الكثيرة إذا تواردت على معنى أفادت علماً لا تخالجه ريبية»<sup>(٤)</sup>.

ثم قال في ختام ذلك: «ولنكتف بهذه الكلمة في التنبيه على وجه حجية الإجماع، وعدّه في الأدلة القاطعة»<sup>(٥)</sup>.

١ - المرجع السابق ص ٥٧.

٢ - انظر المرجع السابق ص ٥٧-٥٨.

٣ - المرجع السابق ص ٥٨.

٤ - المرجع السابق ص ٥٨.

٥ - المرجع السابق ص ٥٨-٥٩.

ثانياً: استناده على الإجماع في مسألة نصب الإمام: قال رحمه الله معلقاً على تعرُّض علي عبدالرازق لحكم الخلافة، وما جرى فيه من اختلاف، وقوله - أي علي عبدالرازق-: «ولكنهم لا يختلفون في أنه - يعني نصب الإمام - واجب على كل حال حتى زعم ابن خلدون أن ذلك مما انعقد عليه الإجماع»<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ الخضر معلقاً على ذلك، ومقرراً الإجماع على نصب الإمام: «لم ينفرد ابن خلدون بحكاية الإجماع على نصب الإمام، بل تضافر عليها كثير من علماء الكلام؛ كالعضد في (المواقف)، والسعد في (المقاصد)، وإمام الحرمين في (غياث الأمم)، وغيرهم.

وقال ابن حزم في كتاب (الفصل): (اتفق جميع أهل السنة، وجميع المرجئة، وجميع الشيعة، وجميع الخوارج على وجوب الإمامة ما عدا النجدات من الخوارج؛ فإنهم قالوا: لا يلزم الناس فرض الإمامة، وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم).

ثم قال: (وقول هذه الفرقة ساقط، يكفي في الرد عليه إجماع كل من ذكرنا على بطلانه)»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن قال الشيخ الخضر: «فقول المؤلف: (حتى زعم ابن خلدون أن ذلك مما انعقد عليه الإجماع) عبارة يصوغها مَنْ لم يطلع على الإجماع محكياً في غير (مقدمة ابن خلدون)، أو من يريد أن يضع في نفس القارئ عقيدة: أن هذا الإجماع إنما جاء حديثه في تلك المقدمة.

١ - الإسلام وأصول الحكم ص ٤٧.

٢ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٣٨-٣٩.

ولا أدري لماذا اختار هذه العبارة، وهو يشعر بأنه سينجر به البحث في (ص ١٥ و ٢١) إلى الاعتراف بأن الإجماع محكي في كتاب (المواقف)». <sup>(١)</sup>

ثالثاً: رده الشبهة المثارة حول الإجماع: وذلك في مواضع عدة من ردوده ومنازلاته. ومن ذلك ما جاء في نقضه لكتاب (الإسلام وأصول الحكم). ومما جاء فيه من هذا القبيل تعقيبه على كلام علي عبدالرازق في مسألة إنكار الخلافة عندما قال: «ولا نقول مع القائل: من ادعى الإجماع فهو كاذب». <sup>(٢)</sup>

وعزا هذه المقالة إلى الإمام أحمد بما نصه: «رُوي ذلك عن الإمام أحمد. راجع تاريخ الإسلام لمؤلفه محمد الخضري» <sup>(٣)</sup>.

قال الشيخ الخضر معقّباً على هذا الكلام: «انتزع المؤلف هذه الكلمة المروية عن الإمام أحمد من (تاريخ التشريع الإسلامي) للشيخ محمد الخضري وأطلقها في طليعة الباب؛ لشير في نفوس القارئ شكاً، وتجعلهم على ريبة من حجية الإجماع. أطلق هذه الكلمة كأنه يجهل موردها، ويجهل أن الإمام أحمد لا يعني بها: الإجماع المعروف في الأصول، وإنما يعني بها: الرد على بعض الفقهاء الذين ينظرون إلى الواقعة، حتى إذا لم يطلعوا على خلاف في حكمها، سمّوه إجماعاً». <sup>(٤)</sup>

ثم أورد الشيخ الخضر كلاماً في ذلك لابن القيم فقال: «قال ابن القيم في كتاب (إعلام الموقعين): (ولا يقدّم -يعني: الإمام أحمد- عدم علمه بالمخالف، الذي يسميه كثير من الناس: إجماعاً، ويقدمونه على الحديث الصحيح، وقد كذب أحمد من ادعى هذا الإجماع، وكذلك الشافعي -أيضاً- نصّاً في (رسالته الجديدة) على أن ما لا يعلم فيه بخلاف لا يقال له: إجماع...»

١ - المرجع السابق ص ٣٩.

٢ - الإسلام وأصول الحكم ص ٥٧.

٣ - المرجع السابق ص ١٥٢.

٤ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٥٩.

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: ما يدعي فيه الرجل الإجماع فهو كذب، من ادعى الإجماع، فهو كاذب، لعل الناس اختلفوا، ولكنه يقول: لا نعلم الناس اختلفوا، أو لم يبلغني ذلك.

هذا لفظه... فهذا هو الذي أنكره الإمام أحمد والشافعي من دعوى الإجماع، لا ما يظنه بعض الناس أنه استبعاد لوجوده»<sup>(١)</sup>.

ثم أردف قائلاً: «فالإمام أحمد بن حنبل إنما ينكر على الفقيه أن يسمي عدم علمه بالخلاف: إجماعاً، وعلى مثل هذا جرى ابن حزم في كتاب (الأحكام)، فقال: «تَحَكَّم بعضهم فقال: إن قال عالم: لا أعلم هنا خلافاً، فهو إجماع، وإن قال ذلك غير عالم، فليس إجماعاً.

وهذا قول في غاية الفساد، ولا يكون إجماعاً، ولو قال ذلك محمد بن نصر المروزي»<sup>(٢)</sup>.

ومن رده على الشبه المثارة حول الإجماع ما جاء في نقضه لكلام علي عبدالرازق الذي قال: «لو ثبت عندنا أن الأمة في كل عصر سكتت على بيعة الإمامة، فكان ذلك إجماعاً سكوتياً، بل لو ثبت أن الأمة بجملتها وتفصيلها قد اشتركت بالفعل في كل عصر في بيعة الإمامة، واعترفت بها، فكان ذلك إجماعاً صريحاً، ولو نقل إلينا ذلك- لأنكرنا أن يكون إجماعاً حقيقياً، ولرفضنا أن نستخلص منه حكماً شرعياً، وأن نتخذه حجة في الدين، وقد عرفت من قصة يزيد كيف كانت تؤخذ البيعة، ويغتصب الإقرار»<sup>(٣)</sup>.

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٥٩-٦٠.

٢ - المرجع السابق ص ٦٠.

٣ - الإسلام وأصول الحكم ص ٦٧-٦٨.

قال الشيخ الخضر معقّباً على هذا الكلام: «اندفع المؤلف يخوض في الإجماع على غير بينة منه، ويورد على الطعن في انعقاده في مسألة الإمامة قصة يزيد بن معاوية. علماء الإسلام في ناحية، وصاحب كتاب (الإسلام وأصول الحكم) في ناحية أخرى. يظهر جلياً أن المؤلف اشتبه عليه الإجماع على وجوب نصب إمام بالإجماع على مبايعة إمام بعينه، والذي يتحدث عنه أهل العلم إنما هو وجوب نصب الإمام، وهذا الوجوب لم يحدث فيه خلاف بين أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان. وأما مبايعة إمام خاص فيكفي في انعقادها اتفاق جماعة من أهل الحل والعقد؛ بحيث تكون كلمتهم العليا على من خالفهم»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال: «فاستدل المؤلف على إبطال الإجماع في حكم الخلافة بعدم الإجماع على ولاية يزيد - منطلق يترفع عنه أصحاب الأقيسة الشعرية، ولا يأتيه المولعون بالمغالطات إلا أن يصوغوه في أسلوب أبرع من أسلوب المؤلف وأخفى»<sup>(٢)</sup>. ثم ساق الشيخ رحمه الله كلام علي عبدالرازق الذي قال: «وقد زعم الإنجليز: أن أهل الحل والعقد من أمة العراق انتخبوا فيصلاً؛ ليكون ملكاً عليهم بالإجماع، اللهم إلا أن يكون قد خالف في ذلك نفر قليل لا يعتد بهم؛ كأولئك الذين دعاهم ابن خلدون من قبل: شواذ»<sup>(٣)</sup>.

ثم عقب الشيخ الخضر على هذا الكلام قائلاً: «وما كان للمؤلف أن يتهم على علم راسخ القواعد محكم المباني، فيخلطه بالمجون، ويضرب له أمثالاً لا تلتقي معه في نسق، وإن كان الحديث ذا شجون.

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٩٩-١٠٠.

٢ - المرجع السابق ص ١٠٠.

٣ - الإسلام وأصول الحكم ص ٦٨.

الإجماع الذي يستند إليه في تقرير الأحكام، هو اتفاق مجتهدي الأمة، بل المدار في انعقادها على جماعة من أهل الحل والعقد وإن لم يكن من بينهم مجتهد أصلاً. فإيراد المؤلف قصة يزيد طعنًا في الإجماع المستدل به على حكم الخلافة - تجبُّطٌ في ليل دامس، والانتقال منها إلى قصة فيصل، وتمثيل من خالفوا في انتخابه بمن دعاهم ابن خلدون: شواذ - خيالٌ لا تقبله أذواق أهل العلم، وشاهدٌ يوضح أن المؤلف لا يفرق بين الإجماع على وجوب الخلافة، والاتفاق على مبايعة شخص بعينه<sup>(١)</sup>.

رابعاً: استناده على الإجماع في منازلاته وردوده: وذلك كثير، ومنه ما جاء في رده على الدكتور محمد أحمد خلف الله في كتابه (الفن القصصي في القرآن)، وذلك عندما قال: «الأنبياء أبطال ولدوا في البيئة، وتأدبوا بآدابها، وخالطوا الأهل والعشيرة، وقلدوهم في كل ما يقال ويفعل، وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة، ودانوا بما تدين به من رأي، وعبدوا ما يعبد من إله»<sup>(٢)</sup>.

فتعقبه الشيخ الخضر بقوله: «أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة وبعدها، ومن حكى الإجماع على هذا: الإمام عضد الدين في كتاب (المواقف)، والقاضي عياض في كتاب (الشفاء).

ولكن كاتب الرسالة يقول: (إنهم قلدوا الأهل والعشيرة في كل ما يقال ويفعل، وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة، وعبدوا ما يعبد من إله).

وإنما يقول هذا، ويخرج عن إجماع المسلمين من استطاع أن يملأ يده من روايات تاريخية صحيحة، أو استطاع أن يقيم دليلاً نظرياً يسعه المنطق السليم.

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٠٠-١٠١.

٢ - بلاغة القرآن ص ١٢٥.

وليس بيد الكاتب نقل مقبول، ولا دليل معقول، وإنما هي دعوى عارية من كل شاهد، فلندع بسط الحديث عنها حتى نعرف الشبهة التي دفعت الكاتب إليها، حتى عبر عنها بجمل يؤكد بعضها بعضاً، وأسرف في تسويتهم بالمشركين إلى أن قال لك: (وقلدهم في كل ما يقال ويفعل!)<sup>(١)</sup>.

وكذلك نقل الشيخ الإجماع على وجود الجن، وبين أنه لا ينكر الجن إلا من جمد عقله في دائرة المحسوسات لا يتخطاها قيد أمثلة.

وذلك في معرض رده على كتاب (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) لمحمد أبو زيد الدمهوري.<sup>(٢)</sup>

كما استدل بالإجماع على أن محمداً ﷺ مبعوث بشريعته، وأنه كان يقوم على تنفيذ هذه الشريعة، وذلك في معرض رده على الشيخ محمود شلتوت في بحث (الهجرة وشخصيات الرسول).<sup>(٣)</sup>

وهكذا تبين فيما مضى شيء مما يوضح كون الإجماع مصدراً من المصادر الرئيسة التي اعتمدها الشيخ الخضر في ردوده على المخالفين.

١ - المرجع السابق ص ١٢٥-١٢٦.

٢ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٢١٩، وانظر ص ٢٥٣.

٣ - المرجع السابق ص ١٢٥-١٢٦.

## المطلب الرابع: المصدر الرابع: الكتب المؤلفة

فمن المصادر التي كان الشيخ الخضر ينهل منها، ويردُّ عليها في منازلته، وردوده على المخالفين - الكتب المؤلفة.

والناظر في ردود الشيخ في هذا الشأن يلحظ أموراً منها ما يلي:

١- عنايته البالغة في الرجوع إلى الكتب المؤلفة إما مستشهداً بها، أو مؤيداً لها، أو مقوياً لحجة أوردها، أو ناقضاً من خلال الرجوع إليها شبهة ساقها الخصم، أو مصححاً معلومةً أخطأ الخصم في فهمها أو نقلها، أو نحو ذلك.

٢- أن تلك الكتب التي رجع إليها متنوعة المنازع، مختلفة المشارب، مما يدل على سعة معارف الشيخ، وكثرة اطلاعه، وشمول علومه، وحسن مأخذه.

٣- أنه يراعي الأمانة العلمية في العزو، ويرأوح في طريقة نقله، فتارة يعزو إلى الكتاب ومؤلفه، وتارة يذكر اسم المؤلف، وتارة يذكر كنيته، وتارة يذكر لقبه. كأن يقول: قال صاحب كتاب كذا وكذا، أو قال فلان في كتاب كذا وكذا، أو قال ابن كذا، أو أبو كذا، إلى غير ذلك مما سيرد أمثلة عليه فيما يلي من فقرات.

٤- أنه يكثر من النقل عن مؤلفين معينين، ومن كتب معينة - كما سيأتي بيان ذلك..

فهذه أبرز الملاحظات في رجوعه وإفادته من الكتب المؤلفة.

أما الكتب التي يرجع إليها فيمكن تصنيفها باعتبار المؤلفين، أو باعتبار الفنون؛ ذلك أنه - كما مر - قد رجع كثيراً إلى مؤلفين بأعيانهم، وإلى كتب بأعيانها، وأنه رجع إلى كتب في فنون متنوعة.

لذا سيكون ذكر تلك المصادر حسب المؤلفين، والفنون، وذلك كما يلي:

أولاً: رجوعه بكثرة إلى مؤلفين معينين: بحيث لا تكاد تجد رداً من ردوده إلا وهو مستند إلى هؤلاء المؤلفين.

وفيما يلي ذكر لأهم أولئك بشيء من البسط والإيضاح:

١. شيخ الإسلام ابن تيمية: فلقد تأثر الشيخ الخضر بابن تيمية تأثراً بالغاً في ردوده؛ حيث أكثر من النقل عنه، وأفاد من طريقته في الرد؛ إذ استعمل كلمة (نقض) في رده على علي عبدالرازق وطه حسين.

ولعله أفاد ذلك من ابن تيمية في استعماله هذه الكلمة في كتابه (نقض المنطق) وكتاب (نقض أساس التأسيس والتقدیس).

فكانت طريقة ابن تيمية هي نقض الشيء من أساسه وهكذا كانت طريقة الخضر. ومن تأثره به كثرة رجوعه إليه؛ فهو أكثر من رجوع إليه في ردوده.

وقد رجع في كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) إلى ابن تيمية في أكثر من أربعة عشر موضعاً<sup>(١)</sup>.

وأكثر ما يرجع إليه من كتب ابن تيمية كتابه العظيم (منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة القدرية).

وكان يعظم ابن تيمية كثيراً، ويصفه بـ: شيخ الإسلام<sup>(٢)</sup>، والحافظ<sup>(٣)</sup>.

بل إذا أطلق لقب شيخ الإسلام فإنما يريد به ابن تيمية<sup>(٤)</sup>.

١ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٦ و ٦٥ و ٧٩ و ٨١ و ١٣٢ و ١٣٦ و ١٤٦ و ١٥٢ و ١٩٩ و ٢٤١ و ٢٥٨ و ٢٧١ و ٢٨١ و ٢٩٠، وانظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٤٩، وبلاغة القرآن ص ١٦، ودراسات في الشريعة الإسلامية ص ١٠٥.

٢ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٦ و ١٥٢ و ١٩٩ و ٢٤١ و ٢٥٨ و ٢٧١ و ٢٨١ و ٢٩٠.

٣ - انظر المرجع السابق ص ١٣٢ و ١٤٦.

٤ - انظر المرجع السابق ص ٢٩٠.

أما طريقة العزو إليه فتارة يقول: «قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة»<sup>(١)</sup>.

وتارة يقول: «قال شيخ الإسلام في منهاج السنة»<sup>(٢)</sup>.

وتارة يقول: «وعلى هذا جرى شيخ الإسلام في منهاج السنة»<sup>(٣)</sup>.

وتارة يذكره دون أن يحيل على كتاب كما في قوله: «قال شيخ الإسلام ابن تيمية»<sup>(٤)</sup>.

وتارة يقول: «قال الحافظ ابن تيمية»<sup>(٥)</sup>.

وتارة بمثل قوله: «وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن الجوزي قد نقدا صاحب الأغاني...»<sup>(٦)</sup>.

وقال مرة: «وقال الشيخ ابن تيمية -وهو من فقهاء الحنابلة- في الرسالة الملقبة بـ (السبعينية)...»<sup>(٧)</sup>.

ومن شدة إعجابه بابن تيمية أنه يعد كتابه (الرد على المنطقيين)<sup>(٨)</sup> أحسن كتب المنطق على الإطلاق<sup>(٩)</sup>.

١ - انظر المرجع السابق ص ١٥٢ و ١٩٩ و ٢٤١ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ٢٥٨ .

٣ - انظر المرجع السابق ص ٢٨١ .

٤ - انظر المرجع السابق ص ٢٧١ .

٥ - المرجع السابق ص ٣٢ و ١٤٦ .

٦ - انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٤٩ .

٧ - بلاغة القرآن ص ١٦ .

٨ - انظر الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبع ونشر إدارة ترجمان السنة، لاهور،

باكستان، ط ٢، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

٩ - انظر أحاديث في رحاب الأزهر ص ١٦٠ .

وكان منافعاً عنه ، معتداً بأقواله ، وأحكامه ، واختياراته .  
ومن شواهد ذلك ما جاء في بحث له عنوانه : « مَنْ وَثِقَ مِنْ علماء العربية وَمَنْ طَعِنَ فِيهِ » قال ﷺ : « ولا يقدح خطأ رأي العالم في الثقة بروايته ؛ فابن تيمية - مثلاً - يصحح رواية سيويه ، ويخطئه في التطبيق ، وقد روي : أن أبا حيان كان رفيقاً لابن تيمية ، فَرَدَّ ابن تيمية على سيويه ، فقال له أبو حيان : أترد على سيويه ؟ فقال : هل سيويه نبي النحو ؟ لقد أخطأ في ثلاثين موضعاً من كتابه ، فهجره أبو حيان .

وكان شأن أبي حيان أن يقول له : بين لنا الخطأ الذي وقع في الثلاثين موضعاً ويردها أو يسلم بها ، ولا يكون قول ابن تيمية وحده سبباً لهجره «<sup>(١)</sup> .  
ولا ريب أن إعجابه بابن تيمية ، ووروده عنه - محل غرابة وإعجاب ؛ إذ كيف يكون كذلك وهو في بيئة لا تُعنى كثيراً بابن تيمية ، بل ربما يوجد في ذلك العصر من يناصبه ، ويناصب منهج السلفِ العداء؟! .

فيخرج في ذلك الوقت عالم كالشيخ الخضر ، ويكون من شأنه مع ابن تيمية ما يكون! .  
بل إن قرنته في الطلب والعلم ، وصديق عمره العلامة الشيخ محمد بن عاشور لا تكاد تجد في تفسيره العظيم (التحرير والتنوير) حديثاً أو ذكراً لابن تيمية سوى إشارات لا تتجاوز بعض أصابع اليد الواحدة .

ولعل السر في ذلك - والله أعلم - أن رحلة الشيخ الخضر إلى المشرق مكنته من الاطلاع على تراث ابن تيمية خصوصاً مرحلته السورية ، وقيامه مقام علامة الشام القاسمي في التعليم بعد وفاته ١٣٣٢ هـ .

وكان القاسمي رحمته الله من أشد الناس عناية بتراث ابن تيمية وابن القيم<sup>(١)</sup>. وسبب آخر ألا وهو تأثير خاله العلامة محمد المكي بن عزوز الذي اهتدى إلى منهج السلف الصالح في الاعتقاد، وكان محباً لابن تيمية وتلميذه ابن القيم. حتى قال في رسالة كاتَبَ بها الشيخ عبدالعزيز الرشيد: «ولكنني أعنى بالعلم والدين علم السنة، وما الدين إلا اتباعها، وإيثارها على عَصارات الآراء، وهجومه المتفحمة.

وما التوحيد إلا توحيد السلف الصالح، وأما غير ذلك فأشبهه بالضلالات، وزلقات الهفوات»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن قال في معرض كلام له عن طريقة التفقه في الدين: «وأما الاعتقادي فهو -أي طالب العلم- معذور في الابتداء من كتب المتكلمين، ثم يترقى بطريقة السلف، ولا تؤخذ حقيقتهما إلا من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وصاحبه الذي هو نسخة صحيحة لا تحريف فيها: الشمس ابن القيم؛ فيعتقد ما هناك بأدلة متينة، وإيمان راسخ؛ فيصبح من الفرقة الناجية التي عرفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم على ما كان عليه المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه»<sup>(٣)</sup>.

ثم إن إخلاصَ الشيخ الخضر، ونبذَه للتعصب، وبجته عن الحق - من أعظم ما قاده إلى الإفادة من شيخ الإسلام ابن تيمية، وجعله مصدراً من مصادره في الردود وغيرها.

١ - يشهد بذلك: المكاتبات التي كانت بينه وبين علامة العراق الألوسي التي اعتنى بها الشيخ محمد بن ناصر العجمي.

٢ - رسائل ابن عزوز ص ١٦.

٣ - المرجع السابق ص ١٧، بل إن للشيخ ابن عزوز رسالة عنوانها (القول القيم في حال ابن تيمية وابن القيم) ولكن لم أطلع عليها. انظر رسائل ابن عزوز ص ٤٢٨.

ولا ريب أن ذلك من أعظم مناقب الشيخ الخضر. وإنما أطلت قليلاً في هذه المسألة؛ لقلّة من يشير إلى إفادة الشيخ الخضر من ابن تيمية، مع كثرة من تعرض للشيخ الخضر بالدراسة، والعناية.

٢. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، أو ابن القيم<sup>(١)</sup>.

ويقال في شأنه - في الجملة - ما قيل في شأن ابن تيمية من جهة كثرة نقل الشيخ الخضر عنه، ورجوعه إلى كتبه، واستناده إلى آرائه، وترجيحاته في ردوده خاصة، وفي بقية آثاره بوجه عام.

وقد مرّ شيء من ذلك عند الحديث عن مؤلفات الشيخ الخضر خصوصاً عند الحديث عن تحقيقه لكتاب (المغني عن الحفظ والكتاب)، وعند الحديث عن منهجه في إثبات العقيدة.

وإذا نقل عنه فإنه يراوح في ذلك؛ فتارة يقول: «ابن قيم الجوزية»<sup>(٢)</sup>، وتارة يسميه: «ابن القيم»<sup>(٣)</sup>، وتارة يقول: «ابن القيم الجوزية»<sup>(٤)</sup>. وينقل أكثر ما ينقل من كتاب (إعلام الموقعين) لابن القيم<sup>(٥)</sup>.

- 
- ١ - انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، تحقيق د. محمود الطناحي، وعبدالفتاح الخلو، ط ١، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م، مطبعة عيسى البابي الحلبي ٤٤/٦، والأعلام ٢٨٠/٦.
  - ٢ - دراسات في الشريعة الإسلامية ص ١٨، والشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ص ٣٤.
  - ٣ - انظر دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٢٣ و ٣٥ و ٣٧.
  - ٤ - المرجع السابق ص ٣٦.
  - ٥ - انظر المرجع السابق ص ٣٦، ونقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٥٩ و ١٢٥ و ١٥٢ و ١٥٨.

يقول في معرض رده على علي عبدالرازق: «قال ابن القيم في كتاب (إعلام الموقعين)...»<sup>(١)</sup>.

ثم يذكر كلاماً لابن القيم عن الإجماع عند الإمام أحمد. وكذلك رجع إلى كتاب (الطرق الحكيمة) لابن القيم<sup>(٢)</sup>، وكتاب (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى)<sup>(٣)</sup>.

وإذا نقل عنه ذكر اسمه في بداية النقل كما مر، أو يذكر اسمه في الهامش<sup>(٤)</sup>. كما كان ﷺ في ردوده يعتد بتصحيح ابن القيم للأحاديث، ومن ذلك ما جاء في رده على علي عبدالرازق وذلك عندما استدل الشيخ الخضر بحديث بعث معاذ إلى اليمن، فقال ﷺ: «فقد تضمن الحديث أنه يقضي بكتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله، فبِسْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ، اجتهد رأي، وقد صحح هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن العربي في (عارضضة الأحوذية) وصححه ابن قيم الجوزية في (إعلام الموقعين)»<sup>(٥)</sup>.

٣. أبو بكر بن العربي: فلقد تأثر الشيخ الخضر بابن العربي، وأكثر من الرجوع إلى كتبه، بل إنها من أهم مصادره الرئيسة التي ينقل عنها في ردوده وغيرها.

بل إن الشيخ الخضر أفصح عن تأثره، وإفادته من ابن العربي، وطريقته.

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٥٩-٩٠.

٢ - انظر المرجع السابق ص ٦٥ و ١٥٣ و ١٥٦.

٣ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٥٦.

٤ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٣٥ و ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٦ و ١٥٨ و ٢٦٥.

٥ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٣٨.

يقول رحمه الله في ترجمته لابن العربي: «ولأبي بكر هذا فضل في انصرافي عن دراسة علوم الدين دراسة تقليد ومتابعة، شأن من لا يزيد في التفقه على قراءة مثل (مختصر خليل) وشروحه وحواشيه؛ ذلك أني اتصلت بمكتبة خالي وأستاذي المرحوم الشيخ سيدي محمد المكي بن عزوز، واستعرت منها كتاب (العارضنة) وكتاب (القبس) وجزءاً من (ترتيب المسالك) ثم اتصلت بمكتبة صديقي العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور شيخ الإسلام المالكي بتونس لهذا العهد، واستعرت منها كتاب (الأحكام) وكتاب (العواصم من القواصم) فأعجبت بطريقة المؤلف في التأليف، ووجدتها الطريقة التي تنهض بالفكر حتى يكون مثمراً بل الطريقة التي تجيب إلى ذي الفطرة السليمة دراسة العلوم الدينية.

والواقع أن هذه الكتب كانت أول ما أخذني إلى النظر في علوم الشريعة بتلهف، بعد أن كنت قد انقطعت إلى علوم اللغة العربية وآدابها»<sup>(١)</sup>.

وقال في موضع آخر عندما سأله صحفي عن كتب أعجبه، وذكر بعض الكتب قال: «ويعجبني كتاب (قانون التأويل) للحافظ أبي بكر بن العربي المتوفى سنة ٥٤٣هـ وهو تفسير للقرآن الكريم»<sup>(٢)</sup>.

ومن كتب ابن العربي التي رجع الشيخ إليها في ردوده كتاب (العواصم من القواصم) وكتاب (عارضنة الأحوزي) وكتاب (أحكام القرآن).  
ويسميه تارة بأبي بكر بن العربي، وأحياناً يقول: أبو بكر، وأحياناً يقول: قال أبو بكر بن العربي في (عارضنة الأحوزي)<sup>(٣)</sup>.

١ - تراجم الرجال ص ١٢٢ .

٢ - أحاديث في رحاب الأزهر ص ١٧٨ .

٣ - انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٠٠ . والإسلام وأصول الحكم ص ٣٢ و ١٣٤ و ١٣٨ و ١٨٢ و ٢٣٨

٤. الشاطبي: فقد كان من المصادر التي يرجع إليها الشيخ الخضر في ردوده وغيرها، وكان يكثر من الرجوع إلى كتاب واحد من أشهر كتب الشاطبي، وهو كتاب (الموافقات).

ومن الأمثلة على ذلك أنه رجع إليه في كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) ثمان مرات.

وإذا نقل الشيخ الخضر عنه راوح في طريقة النقل -كعاداته- فتارة يقول: «قال أبو إسحاق الشاطبي في (موافقاته)».

وتارة يقول: «وقد عقد موضح أسرار الشريعة أبو إسحاق الشاطبي في (موافقاته) فصلاً...» وهكذا<sup>(١)</sup>.

وكذلك يرجع إلى شرح الشاطبي للخلاصة -كما في رده على طه حسين في بحثه (ضمير الغائب في القرآن)<sup>(٢)</sup>.

فهؤلاء هم أكثر المؤلفين الذين كان الشيخ ينقل عنهم، ويعتمدهم، ويرجع إليهم.

#### ثانياً: مصادره الأخرى بحسب الكتب المؤلفة في شتى الفنون

مصادر الشيخ في ردوده على المخالفين كثيرة متنوعة؛ ذلك أنه إذا أراد أن يبحث في مسألة ما، أو تناول كتاباً بالنقد - رجع - ما أمكنه - إلى كل ما يخدم غرضه الذي يرمي إليه؛ لذا تنوعت مصادره تنوعاً عظيماً أضفى على كتاباته وردوده رونقاً، وجمالاً، وقوة، وألقى الأضواء على موسوعيته، وتفننه، ومساره الفكري والعلمي.

١ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٤٢ و ٤٦ و ٥٨ و ١٩٧ و ٢١٣ و ٢٢٣ و ٢٥٢ و ٢٦٠ .

٢ - بلاغة القرآن ص ١١٣ .

فهو -على سبيل المثال- يرجع إلى كتب السنة ، وكتب التفسير ، وكتب الغريب ، وكتب الفقه ، وكتب العقائد ، وكتب المقاصد ، وكتب الأصول ، وكتب الفرق والأديان ، والمذاهب ، وكتب المنطق والفلسفة ، وكتب اللغة ، والنحو ، والبلاغة ، والأدب ، وكتب التاريخ ، والسياسة ، والاجتماع ، والتراجم ، والطب . ويرجع -أيضاً- إلى كتب الثقافة العامة ، والموسوعات ، ودوائر المعارف . ويرجع -كذلك- إلى كتب المستشرقين ، وكتب المخالفين الذين يرد عليهم ، ويتعقبهم بحيث يأخذ منها مباشرة دون واسطة .

وقد جمعت ما رجع إليه في ردوده ، ومنازلاته فوجدت أن تفصيل ذلك ، والعزو إلى مكانه سيطول طويلاً مفرطاً ، وسيستغرق حيزاً كبيراً . وحسب المقام هنا أن يُذكر شيء من النماذج في ذلك حتى تُقرب الصورة أكثر فأكثر؛ بحيث يُذكر أسماء بعض المراجع والمصادر التي رجع إليها مع ملاحظة أن بعضها قد مرت الإشارة إليه عند الحديث عن مصادره الأخرى . وسيكون ذلك من خلال ذكرٍ موجزٍ لنماذج من أسماء المراجع والمصادر التي يرجع إليها في ردوده ومنازلاته<sup>(١)</sup> .

#### ١ . مصادره في التفسير وعلوم القرآن :

- جامع البيان - تفسير ابن جرير الطبري .-
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة .
- التفسير الكبير للرازي .
- تفسير الكشاف للزمخشري .
- أحكام القرآن للجصاص .
- أحكام القرآن ، وقانون التأويل كلاهما لابن العربي .
- تفسير البيضاوي .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

١ - خصوصاً مع علي عبدالرازق ، وطه حسين .

- روح المعاني للألوسي.
- الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس.
- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.
- ٢. مصادره في الحديث وشروحه: وقد مرت الإشارة إلى ذلك في الفقرة الماضية.
- ٣. مصادره في العقائد والفرق:
- الفِصل لابن حزم.
- المنقذ من الضلال للغزالي.
- جوهرة التوحيد لليجوري.
- المواقف لعضد الدين الإيجي.
- مقاصد الطالبين للتفتازاني.
- منهاج السنة النبوية لابن تيمية.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم.
- الشمسية - رسالة في قواعد المنطق - لنجم الدين القزويني.
- حاشية القطب على الشمسية لعبدالحكيم السالكوتي.
- طبقات المعتزلة لأحمد بن المرتضى.
- الإسلام والنصرانية لمحمد عبده.
- ٤. مصادره في الفقه وأصوله، ومقاصد الشريعة:
- بداية المجتهد لابن رشد.
- المغني لابن قدامة.
- البرهان للجويني.
- قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام.
- الموافقات للشاطبي.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم.
- الفروق للقرافي.
- مختصر منتهى السؤل لابن الحاجب.
- ٥. مصادره في اللغة، والنحو، والبلاغة:
- كتاب سيويه.
- الفصل لابن يعيش.
- مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي.

- كافيہ ابن الحاجب.. التسهيل لابن مالك. - مغني اللبيب لابن هشام.
  - شرح الدماميني لمغني اللبيب. - الخلاصة للشاطبي.
  - شرح التسهيل لأبي حيان. - معاهد التنصيص لعبدالرحيم العباسي.
  - الصحابي لابن فارس. - الوقف والابتداء لابن الأنباري.
  - التعريفات للجرجاني. - الكلبيات لأبي البقاء الكفوي.
  - الجمهرة لابن دريد. - تهذيب اللغة للأزهري.
  - لسان العرب لابن منظور. - القاموس المحيط للفيروز أبادي.
  - المصباح المنير للفيومي. - تاج العروس للزبيدي.
  - دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني. - المفتاح للسكاكي.
٦. مصادره في الأدب:
- الفضليات للمفضل الضبي. - الكامل للمبرد.
  - الحيوان للجاحظ. - طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي.
  - الشعر والشعراء لابن قتيبة. - طبقات الأدباء لابن الأنباري.
  - الإنصاف لابن الأنباري. - الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني.
  - العقد الفريد لابن عبدربه. - الموشح للمرزباني.
  - خزائن الأدب للبغدادي. - ديوان الحطيئة للسكري.
  - رسالة الغفران للمعري. - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان.
  - ردود بعض المستشرقين على بعض في مسألة الشعر الجاهلي.
٧. مصادره في التواريخ، والتراجم، والسياسة، والاجتماع:
- سيرة ابن إسحاق. - سيرة ابن هشام.

- تاريخ الأمم والملوك للطبري. - الطبقات لابن سعد.
- الفهرست لابن النديم. - جمهرة الأنساب لابن حزم.
- جمهرة النسب لابن الكلبي. - الافتراق لابن الكلبي.
- وفيات الأعيان لابن خلكان. - سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي.
- مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي. - معجم البلدان لياقوت الحموي.
- إنسان العيون في سيرة المأمون المعروف بالسيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي.
- البداية والنهاية لابن كثير. - غياث الأمم عند التياث الظلم للجويني.
- سياسة المالك في تدبير الممالك لابن الربيع.
- نهج السلوك في سياسة الملوك لعبدالله بن عبدالرحمن.
- لطائف الأفكار وكاشف الأسرار في علم السياسة للقاضي السمرقندي.
- مقدمة ابن خلدون. - روح الشرائع لمونتسكيو.
- خلاصة تاريخ العرب لسيديو. - تاريخ عرب الجاهلية كوسين دي برسفال.
- العرب قبل الإسلام لجورجي زيدان.
- تاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان.
- طبائع الاستبداد للكواكبي. - حاضر العالم الإسلامي ل: لوثرروب ستودارد.
- الأبطال لتوماس كارليل. - دائرة المعارف الألمانية ل: هبر.
- دائرة المعارف للبستاني. - الجنس والأخلاق د. أوتو فينجر<sup>(١)</sup>.

١ - هذه هي أكثر الأسماء التي وردت في ردوده من غير ما يحمره دون أن ينقل من غيره مباشرة، ومن غير كثير من الكتب التي اعتنت بالشعر الجاهلي .

## المبحث الثاني: وسائله في الرد على المخالفين

### تمهيد

مر في الباب الأول أن الشيخ الخضر كان من نوادر علماء عصره من جهة علميته، وثقافته، وجمعه بين نشاطات متنوعة يأتي على رأسها الكتابة، والمشاركة الإعلامية والاجتماعية.

ومر - كذلك - أن عبقرية الفذة تتجلى في مجال النقد، والنقض، والرد، والتعقيب. وما من ريب أن تلك الشخصية التي تجمع بين هذه المواصفات ستسلك في سبيل ما تريد إيصاله إلى عامة الناس وخاصتهم - كل وسيلة ممكنة. وقد كانت ردود الشيخ ومنازلاته كثيرة متنوعة - كما مر - . قد استخدم في سبيل إيصالها إلى أكبر شريحة من الناس جميع الوسائل المتاحة له في عصره.

ولقد مر ذكرٌ مجملٌ لأكثر تلك الوسائل التي كان يستخدمها في سبيل بث ردوده على وجه الخصوص، تلك الوسائل التي أسهمت في انتشار ردوده، وبلوغها آفاقاً بعيدة متفرقة.

بل لا زالت أصداؤها باقية إلى يومنا هذا.

ومما يحسن التنبيه عليه قبل الدخول في تفاصيل ذلك أن يُستحضر أن تلك الوسائل التي سلكها الشيخ الخضر في ردوده على المخالفين متداخلة، متشابكة، بل قد يصعب أحياناً فصل بعضها عن بعض؛ فمن وسائله - على سبيل المثال - إلقاء المحاضرات، والمحاضرات تُنشر في الصحف على هيئة مقالات، والمقالات تعد للطبع فيما بعد، وتخرج في كتب وهكذا.

ومهما يك من شيء فإنه يمكن إيضاح وسائله التي سلكها في سبيل نشر ردوده على نحو ما سيأتي في المطالب التالية، مع مراعاة ما يكون بينها من التداخل.

## المطلب الأول: وسائل الإعلام

الشيخ الخضر ذو حسٍّ إعلاميٍّ منذ بواكير حياته العلمية والعملية؛ فهو يؤمن بخطر الإعلام، وعظيم أثره سلباً أو إيجاباً؛ فكان من أوائل المبادرين إلى حسن التعامل مع الإعلام.

ولقد كان الإعلام -بوسائله المتاحة للشيخ- من أعظم ما أعان على نشر ردوده، وتأثيرها في الجمهور.

ومما يجلي استخدامه لوسائل الإعلام في ردوده على المخالفين ما يلي:

أولاً: تأسيس المجلات: وعلى رأسها مجلة السعادة العظمى، التي مضى الحديث في الباب الأول عن تأسيسه لها في محرم سنة ١٣٢٢هـ، وعن كونها أول مجلة عربية ظهرت في تونس، وأنها كانت نصف شهرية، وأنه قد صدر منها واحد وعشرون عدداً إلى أن انقطعت في شهر ذي القعدة سنة ١٣٢٢هـ.

كما مضى الحديث عن أن أغلب مقالات تلك المجلة كانت من تحرير الشيخ الخضر؛ لذا عُدَّت من تأليفه<sup>(١)</sup>.

والذي يعنينا في هذا الشأن كونُ تلك المجلة وسيلةً اتخذها الشيخ الخضر لنشر ردوده، ومقالاته التي واجه بها المخالفين.

ويتضح ذلك من تبيانه أغراض إصداره لها؛ حيث ذكر ستة أغراض، ومن ضمنها غرض الأخلاق «ويُبحث فيه كيف ينحرف مزاجها، ويستقيم اعوجاجها»<sup>(٢)</sup>.

ولقد كان من ضمن ما نشره في مجلته الآنف الذكر مما يناسب هذا المقام ردوده على الداعين إلى التفرقة، والجمود، والبطالة، واتهام الدين بذلك، ورميه بعدم مسيرته لقضايا العصر، وعلومه.

١- انظر السعادة العظمى ص ٥.

٢- انظر السعادة العظمى عدد ١-٢ ص ٣، ومحمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٢٨.

فكان أن كتب في ذلك الشأن أبحاثاً رد فيها على تلك الدعاوى، وكتب مقالات تهدف إلى دعوة المسلمين إلى الاتحاد، والتعاون، ونبذ الكسل والجمود، والاهتمام بقضايا العصر، والسعي إلى مسايرتها في ظل تعاليم الإسلام.

كما كان يجب فيها عن الأسئلة التي ترد من القراء، وفي ضمنها أسئلة عن بعض البدع والمخالفات، فكان يجب عن تلك الأسئلة، ويرد على المخالفين الذين يروجون للبدع والمحدثات.

ومن أمثلة ذلك جوابه عن الأحاديث الواردة في ليلة النصف من شعبان، وعن حكم الاستخارة بالقرآن، وعن كيفية التخلص من البدع، وعن الرؤيا والحكم الشرعي، ونحو ذلك من الأجوبة التي اتخذ المجلة وسيلة ينشر من خلالها ما يريد نشره من الردود على المخالفات<sup>(١)</sup>.

وكما أنشأ مجلة (السعادة العظمى) في تونس أنشأ كذلك مجلة (الهداية الإسلامية) وذلك لما كان في مصر؛ حيث أصدر تلك المجلة عام ١٣٤٧هـ، وقد مر الحديث عن تلك المجلة في الباب الأول.

والذي يعني هنا هو كون تلك المجلة وسيلة من وسائله الإعلامية التي كان ينشر من خلالها ردوده على المخالفين.

وما من ريب أن تلك المجلة أسهمت أعظم إسهام في نشر مقالات الشيخ، وأوضحت معالم دعوته ومنهجه في الرد على المخالفين<sup>(٢)</sup>.

ومن نظر في فهارس هذه المجلة وجد كثيراً من أخباره، وبجوته، ومحاضراته مبثوثاً في أعدادها.

وكما قام الشيخ الخضر بتأسيس مجلتي (السعادة العظمى) و (الهداية الإسلامية) فكذلك أسهم وشارك في تأسيس وتحرير عدد من المجلات، ومنها مجلة

١- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٢٨، والسعادة العظمى ص ١٧٥-١٧٦.

٢- انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٢١٥-٢١٦، وملتقى محمد الخضر حسين في الجزائر

(الشبان المسلمين) الصادرة في ١٩٢٩م، ومجلة (مجمع اللغة العربية) التي صدر العدد الأول منها سنة ١٩٣٥م، ومجلة (المجمع العلمي العربي) وهي مجلة مجمع دمشق الذي كان الشيخ الخضر من أعضائه الأولين عند تأسيسه في سنة ١٩١٩م، ولما هاجر إلى مصر، واستقر بها انتخب عضواً مراسلاً بها.

وكذلك مجلة (البدر) وهي شهرية أدبية علمية أصدرتها في تونس جماعة من (جمعية الجامعة الزيتونية) بين عام ١٩١٢-١٩٢٢م.

وكذلك (المجلة الزيتونية) وهي مجلة شهرية إسلامية تونسية أصدرتها نخبة من الشيوخ ابتداءً من سنة ١٩١٤م.

وكذلك جريدة (الزهرة) اليومية السياسية الصادرة في تونس التي أسسها عبدالرحمن الصنادي سنة ١٨٨٩م.

وكذلك مجلة (الزهراء) وهي مجلة علمية أدبية اجتماعية، أنشأها محب الدين الخطيب، ودام صدورها شهرياً مدة خمس سنوات من ١٣٤٣-١٣٤٧هـ<sup>(١)</sup>.

هذا وقد مر في الباب الأول أن الأزهر أصدر في محرم عام ١٣٤٩هـ مجلة باسم (نور الإسلام) فأسندت رئاسته تحريرها إلى الشيخ الخضر، فنهض بهذه المهمة ثلاث سنوات، وأرسى قواعد التحرير في تلك المجلة، ونظم شؤونها، ونشر فيها العديد من المقالات، ومنها ما كان متعلقاً بالرد على المخالفين.

وكذلك الحال بالنسبة لمجلة (لواء الإسلام)<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: نشر المقالات والتعليقات والردود: سواء في المجلات التي أسسها، أو شارك في تأسيسها وتحريرها -كما مر- أو المجلات، أو الصحف الأخرى التي لم يؤسسها أو يشارك في تحريرها؛ حيث كان ينشر مقالاته في الصحف السورية إبان مكثه في سوريا،

١- انظر الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر ص ١٤٤-١٥١.

٢- انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٢١٦، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في

كما كان ينشر -لما كان في مصر- في مجلات المنار، ومجلة الفجر، والمعارف التونسية، ومجلة الفتح التي كان يشرف عليها صديقه محب الدين الخطيب.

وكذلك صحيفة الأهرام خصوصاً لما أصبح شيخاً للأزهر وغيرها من الصحف التي كان ينشر فيها ردوده، وتعقيباته، كما في رده على طه حسين في (حقيقة ضمير الغائب) الذي نشره في الهداية الإسلامية العدد الثاني من المجلد الأول في رجب ١٣٤٧هـ، وكما في مقاله (الفن القصصي في القرآن) الذي عقب به على الدكتور محمد أحمد خلف الله، وقد نشره في مجلة الهداية الجزآن السابع والثامن مجلد المجلة الحادي والعشرين في رجب وشعبان ١٣٦٧هـ، وكما في مقاله (كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد) المنشور في مجلة (نور الإسلام) العدد الثاني من المجلد الثاني الصادر في صفر سنة ١٣٥٠هـ، وهو نقد لكتاب (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) تأليف محمد أبو زيد الدمهوري، وغير ذلك كثير من المقالات التي يرد بها على المخالفين من الملاحدة وغيرهم كما مر في الباب الأول<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: إجابة المستفتين والسائلين عبر الصحف: وذلك كثير جداً؛ حيث كانت الأسئلة ترد عليه لما كان في تونس إبان مرحلة (السعادة العظمى) وقد مر شيء من ذلك.

وكذلك الحال لما كان في مصر، فكانت الأسئلة تردُ عليه بشأن المخالفين؛ فكان يجيب عن تلك الأسئلة، ويكشف عن حقيقة أولئك المخالفين، ويفند الانحرافات التي تخالف الإسلام.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في السؤال الموجه إليه في مجلة (لواء الإسلام) العدد التاسع من السنة الثانية؛ حيث سأل سائل عن استحضر أرواح الموتى بأنفسها، هل هو واقع؟ أو شعوزة ممن يدعي إحضارها؟.

١- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٢٢-١٢٣، وهدي ونور ص ٣٣، والإرث الفكري

فأجاب بقوله: « كانت دعوى استحضرار أرواح الموتى تذكر ، ولا نعطي لها بالاً؛ لأن في اعتقادي أن كل مسلم يعتقد أنها شعوذة ، لا أكثر ولا أقل؛ لأنها من المسائل التي لا تصدقُ فيها التجارب ، ولا تتحقق فيها الأدلة المنطقية...»<sup>(١)</sup>.  
ثم شرع في تفنيد تلك الخرافة بالعقل والنقل -كما سيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن مواجهته للروحية الحديثة في الباب الرابع-.

ومن ذلك ما جاء في مجلة (نور الإسلام) الجزء الخامس من المجلد الأول؛ حيث ورده سؤال وهذا نصه: « جاءنا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي: ما البهائية؟ وما اعتقاد مؤسسها وأتباعهم؟ وهل يعتقدون في الحشر والجنة والنار؟ وهل يعتقد البهائيون بنبوة سيدنا محمد -عليه الصلاة والسلام- وإن كانوا يعترفون بنبوة سيدنا محمد ﷺ فكيف يعتقدون بنبي بعده؟ ودين غير دينه؟ وما الواجب عمله لإحباط مساعيهم حتى لا يقع أحد في شركهم؟

بور سعيد»<sup>(٢)</sup>.

فأجاب ﷺ بقوله: « الجواب: الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد...».

ثم شرع في تفصيل الجواب عن ذلك السؤال -كما سيأتي بيان ذلك في الباب الرابع عند الحديث عن مواجهاته لطائفتي البائية والبهائية-<sup>(٣)</sup>.

رابعاً: إلقاء الأحاديث الإذاعية: وهي وسيلة سلكها الشيخ الخضر إبان إقامته في الشام، وفي مصر.

وقد مرت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن مؤلفاته، وأنه ألقى بعض أحاديثه عبر المذياع.

١- انظر دراسات في الشريعة الإسلامية ص ٨٢-٨٧.

٢- انظر القاديانية والبائية والبهائية ص ٦٨.

٣- انظر المرجع السابق ص ٦٨-٨٨.

وقد أشار الشيخ الخضر إلى تلك الأحاديث في بعض المناسبات، ومنها ما جاء في قصيدته السينية التي ألقاها في حفلة وداع أقامها له نخبة من رجال النهضة الإصلاحية في دمشق سنة ١٣٦٣هـ بعد انتهاء زيارته إلى دمشق، حيث قال في آخرها متذكراً عهده السالف في دمشق:

أفتى دمشق لديك ذكرى راحلٍ      لاقى بها الترحيب والتأنيسا  
إلى أن قال:

ألقى زمام سياسة الدنيا إلى      ملأ رعوه وأقرضوه نفوسا  
وأقام سوقاً للمكارم ناشراً      فيها بمذيع البيان دروساً<sup>(١)</sup>

ويشهد لتلك الأحاديث الإذاعية التي ألقاها في مصر ما نشرته جريدة (المنار التونسي) العدد الثالث من السنة الأولى الصادر في ٦/جمادى الثانية ١٣٥٥هـ؛ حيث نشرت مقالاً عنوانه: «محاضرة الأستاذ الخضر بن الحسين» وكتب تحته: «في مساء الجمعة الفائت سمعنا بالراديو من مصر صوت أستاذنا العزيز العلامة التحرير الشيخ الخضر بن الحسين - كما نعهده - ذلاقةً وفصاحةً لم تغير فيه لهجة المصريين، وقلبهم لحروف المعجم.

ولقد فتن الناس بسماع ذلك الصوت الذي حرموا من سماعه عشرات السنين»<sup>(٢)</sup>.

وجاء في خاتمة المقال: «وإن السرور لعم البلاد، وللشيخ أصدقاء، وتلامذة، وأقارب، وأحباب كثيرون يودون رؤيته، وسماع حديثه العذب.

وها نحن نسمع كلامه ولا نراه، متعنا الله برؤية وجهه الكريم، وجمعنا به في أبرك الساعات»<sup>(٣)</sup>.

١- خواطر الحياة ص ١٢٠-١٢١.

٢- كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ص ٥٥-٥٦.

٣- المرجع السابق ص ٥٦.

وجاء نحو من هذا مقال نشرته جريدة (الزهرة) التونسية العدد الصادر يوم الاثنين ٧/جمادى الثانية ١٣٥٥هـ، وقد كتبه محمد الصادق بسيس.

ومما جاء في ذلك المقال قول الكاتب: «ولقد ابتهج التونسيون ابتهاجاً عظيماً حين أعلن عن مسامرة بلدنا العلامة الشيخ الأخضر بن الحسين»<sup>(١)</sup>.

وقوله: «ألقى الشيخ مسامرته الطريفة بصوت ضخم، حلو النبرات جميل، وبلغة بديعة التعابير، فصيحة التراكيب، هي -ورك- البيان الكريم»<sup>(٢)</sup>.

وقوله: «هذا وإن حرماننا من رؤية الشيخ، ومن دروسه الفذة فلنا مما يرسله من بيانه السامي، وقلمه المجلي في ميادين العلوم والآداب، وما يلقيه إلينا من المحاضرات عن طريق المذياع عوض.

ومما يستلفت النظر أن الشيخ ألقى مسامرته بتلك اللهجة التونسية القريبة من اللهجة العربية قرباً كبيراً على طول إقامته بين ظهرائي إخواننا المصريين.

وقد أخبرني أخوه العالم اللغوي السيد المكّي بن الحسين أنه تأثر بلهجة شيخه العلامة إسماعيل الصفايحي»<sup>(٣)</sup>.

فهذا -ياجمال شديد- شيء مما يجلي استخدامه لوسائل الإعلام في ردوده على المخالفين.

١- الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٢٠١ .

٢- المرجع السابق ص ٢٠١ .

٣- المرجع السابق ص ٢٠٢-٢٠٣ .

## المطلب الثاني: إلقاء المحاضرات

فالمحاضرات تعد الوسيلة الأهم في تاريخ الشيخ محمد الغضنفر حسين في نشر علومه، وردوده على المخالفين؛ فهي الوسيلة الأولى والأطول، والأكثر استمراراً في تاريخه؛ فلقد كان يأخذ بهذه الوسيلة منذ بداياته في تونس مروراً بمهاجره إلى سوريا إلى حين استقراره النوى في مصر؛ فلا تكاد تمر مناسبة، أو تدعو حاجة، أو يمر وقت قصير إلا ويلقي فيه محاضرة في أي شأن من الشؤون، وفي مقدمتها ردوده، ومنازلاته الفكرية والعقدية.

بل لقد كانت محاضراته هي الركيزة الأولى لأكثر مؤلفاته ومقالاته؛ فلا يكاد ينتهي من محاضرة إلا وتنشر في إحدى الصحف أو المجلات، وما تلبث فترة إلا وتطبع في كتاب.

ويبدو أنه كان يعتني كثيراً في تحرير محاضراته، وربما أنه كان يكتبها، أو كانت تسجل، ثم تفرغ، وتعد للنشر.

ويلحظ فيها انتظام الأفكار، وتسلسلها المنطقي، وارتباط بعضها ببعض. وأسلوبه - كما مر - هو هو - تقريباً - سواء في المحاضرات، أو المقالات، أو تأليف الكتب من جهة الجزالة، والقوة، وحسن العرض<sup>(١)</sup>.

وكان يلقي محاضراته في أماكن شتى، وقد مر شيء من ذلك عند العرض لمؤلفاته، فكان يلقي في الإذاعات، والمساجد، والجمعيات الإسلامية، والجامعات، والمجامع اللغوية، والعلمية، وغيرها.

هذا وإن أشهر تلك المحاضرات التي اتخذها وسيلة لإيصال ردوده إلى عموم الناس ما يلي:

الأولى: محاضرة (الحرية في الإسلام): وهي رد على المستبدين، والمستعمرين، والمخالفين في مفهوم الحرية.

١- انظر محمد الغضنفر حسين حياته وآثاره ص ١٢٣.

وتعد من أقدم محاضراته، وأعظمها، وأكثرها أثراً وسيرورة في الناس. يقول الأستاذ علي الرضا الحسيني في مقدمة كتاب (محاضرات إسلامية): «وفاتحة هذه المحاضرات (الحرية في الإسلام) من أمهات المحاضرات الإسلامية وأوائلها التي ألقاها الإمام الأكبر في مطلع حياته الدينية والسياسية، ألقاها بنادي (جمعية قدماء تلامذة الصادقية) في تونس، وذلك مساء يوم السبت الواقع في ١٧ ربيع الثاني من عام ١٣٢٤هـ.

وكان يشغل آنذاك منصب قاضي مدينة (بنزرت) وقد طبعت هذه المحاضرة عام ١٣٢٧هـ برسالة خاصة، وأعيد طبعها مرتين فيما بعد»<sup>(١)</sup>.

وطبعت هذه المحاضرة بعد ذلك مراراً، ومن تلك الطبعات طبعة دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع في القاهرة، وجاءت في سبع وستين صفحة. وطبعها الأستاذ علي الرضا في كتاب مستقل عدة مرات، ومنها الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م في الدار الحسينية في خمس وثمانين صفحة من القطع المتوسط. ويواصل الأستاذ علي كلامه على تلك المحاضرة فيقول: «تعتبر محاضرة (الحرية في الإسلام) من الوثائق القومية والتاريخية التونسية الهامة، فقد أقيمت في عهد الحماية الفرنسية، وفي أوج غطرستها وشراستها، تلك الحماية الرهيبية التي كانت تعتبر تونس قطعة أرض ملحقة بفرنسا، وتكتم الأفواه عن النطق بالأحداث المعتادة، فكيف الحال بصوت داوٍ يتحدث عن الحرية في آذان شعب مضطهد؟!.

تناقلت الأيدي المحاضرة من بيت إلى بيت، ومن معهد إلى معهد، يهمس بها المواطن التونسي إلى أخيه، فينتشر شعاعها في القلوب المؤمنة بحرية التراب التونسي. وقد حدثني سيدي الوالد الشيخ زين العابدين التونسي -حفظه الله- أن العم الإمام رحمته الله عندما ألقى هذه المحاضرة أحدثت أثراً عميقاً في المجتمع التونسي ما زال

يفعل فعله في الأوساط الشعبية كالنار في الهشيم، وكانت صوتاً من أصوات النضال التونسي السائر في الطريق إلى الحرية»<sup>(١)</sup>.

وسياتي مزيد بحث عنها عند الحديث عن موقف الشيخ الخضر من قضية الحرية.

الثانية: محاضرة (العظمة): وهي محاضرة ألقاها الشيخ الخضر رداً على مقالة للشيخ علي عبدالرازق التي نشرها في جريدة السياسة.

وقد ألقى الشيخ الخضر هذه المحاضرة في دار جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية في القاهرة في ١٢/ربيع الأول ١٣٤٦هـ.

الثالثة: محاضرتان في (نقد آراء الأستاذ فريد وجدي من الناحية الدينية والاجتماعية): وقد ألقاهما بدار جمعية الهداية الإسلامية في القاهرة عام ١٣٥٠هـ.

الرابعة: محاضرة (حياة اللغة العربية): وقد رد بها على مقال للفرنسي: (شارل نويل) الذي اتهم الإسلام ولغته بالعمق<sup>(٢)</sup>.

وقد ألقاها الشيخ سنة ١٣٢٧هـ في جمهور غير من الأدباء، وأساتذة اللغة العربية في (جمعية قدماء تلامذة الصادقية).

الخامسة: محاضرة (التصوف في القديم والحديث): وقد أقيمت في نادي جمعية مكارم الأخلاق، يوم الجمعة ١٣٤٧/٨/٢٨هـ<sup>(٣)</sup>.

إلى غير هذه المحاضرات التي اتخذها الشيخ وسيلة يتعرض من خلالها إلى الرد على كثير من المخالفين، والشبهات التي تثار حول الإسلام. هذا وسياتي في المطلب التالي مزيد بيان لذلك.

١- المرجع السابق ص ٣-٤.

٢- انظر الإمام محمد الخضر حسين وإصلاح المجتمع الإسلامي ص ٢٥٠.

٣- وقد مر الحديث عن تلك المحاضرات في الفصل الثاني من الباب الأول عند عرض مولفات الشيخ.

## المطلب الثالث: تأسيس الجمعيات

لقد كان الشيخ الخضر يؤمن بالعمل المؤسسي الجماعي، وكان ذلك بارزاً في سيرته طوال مراحل حياته.

وهذه الجمعيات التي أسسها الشيخ، أو شارك في تأسيسها تشترك في كثير من أهدافها، ويأتي في مقدمة تلك الأهداف مواجهة العقائد الباطلة، والأفكار الهدامة التي تناقض الإسلام، والقيام بالرد عليها بما يناسب.

ولذا عدت هذه الجمعيات وسيلة من وسائل الرد على المخالفين.

ولقد مرت الإشارة في الباب الأول إلى تلك الجمعيات.

وفيما يلي مزيدٌ إيضاح وبيان لمدى تعلقها بما يرمي إليه هذا المطلب، ألا وهو كون هذه الجمعيات وسيلة من الوسائل التي اتخذها الشيخ الخضر للرد على المخالفين؛ فإلى بيان ذلك:

أولاً: مشاركته في تأسيس الجمعيات: فلقد شارك الشيخ الخضر في تكوين جمعية قدماء تلامذة الصادقية<sup>(١)</sup>.

كما شارك في تكوين (جمعية تلاميذ الزيتونة) عام ١٣٢٤هـ مع نخبة من العلماء وفي مقدمتهم العلامة محمد الطاهر بن عاشور.

وخلال سنة ١٣٢٥هـ انحلت هذه الجمعية وتكونت جمعية جديدة باسم (الجمعية الزيتونية) وقد تولى رئاستها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وعضوية العلماء: الطاهر النيفر، ومحمد رضوان، ومحمد النخلي، ومحمد الخضر حسين، وأبو حسن النجار<sup>(٢)</sup>.

وإبان مرحلته المصرية أسهم في تأسيس (جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية) التي تتألف من عدة شخصيات مغاربية من تونس والجزائر، والمغرب، وليبيا، وقد مر الحديث عنها<sup>(٣)</sup>.

١- انظر ملثقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ١٨٥.

٢- انظر المرجع السابق ص ١٨٦.

٣- انظر المرجع السابق ص ١٩١-١٩٢.

ثانياً: تأسيس الجمعيات الإصلاحية: فكما شارك في تكوين الجمعيات فقد قام كذلك بإنشاء، وتأسيس الجمعيات التي تعنى بمجالات الإصلاح الديني، والاجتماعي، والسياسي، والتربوي، والفكري.

ومنها: (جمعية الشبان المسلمين) التي اشترك في تأسيسها مع صديقيه أحمد تيمور باشا، ومحب الدين الخطيب سنة ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م<sup>(١)</sup>. كما قام بإنشاء (جمعية الهداية الإسلامية) عام ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م، التي برز هيكلها للوجود في ١٣/ رجب/ ١٣٤٦هـ الموافق ٦/يناير كانون الثاني من عام ١٩٢٨م.

وقد مضى الحديث عنها في الباب الأول، وأنه ضمَّ إليها نخبةً من علماء الأزهر كالشيخ مصطفى المراغي، والأستاذ عبدالحليم النجار، كما ضم نخبة من الشباب المثقفين، وكونَّ بها مكتبة كبيرة كانت مكتبته الخاصة نواة لها، وأصدر مجلة باسمها، وهي مجلة (الهداية الإسلامية).

وهذه الجمعية هي أعظم عمل قام به الشيخ في الجمعيات التي أسسها، أو شارك في تأسيسها؛ فقد أولاهما كلَّ جهده، وانصرف إليها نهاره وليله، حتى كانت الجمعية، مع مجلتها - كما يقول الأستاذ علي الرضا الحسيني - طعامه، وشرابه، ومنامه<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: أسباب تأسيسه للجمعيات وأهدافها: مرت الإشارة إلى ذلك بإجمال، ومما يتضح به هذان الأمران النظرُ في أسباب وأهداف تكوين (جمعية الشبان المسلمين) و (جمعية الهداية الإسلامية).

يقول الشيخ الخضر في مقال له عن الجمعيات الإصلاحية بعد أن بيّن الفتن والغواشي التي ظهرت في تلك الفترة، وأوضح خطر الإلحاد، ودعوات التغريب،

١- انظر هدى ونور ص ١٣٧-١٤٠، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٨٨-٨٩.

٢- انظر الهداية الإسلامية ص ٤، وملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٩١-٩٢.

والانحلال، وأثرها على الشباب المسلم، وأن اليأس كاد أن يدب إلى قلبه، وخيّل إليه - كما يقول - أن الروح الإسلامية النقية السامية ستذهب حيث يذهب الجليل الذي نشأ قبل أن يكون للإلحاد دولة، ولعنتقيه صولة<sup>(١)</sup>.

يقول بعد ذلك: «وسرعان ما أرانا الله - تعالى - شباباً في مصر وغير مصر تقلبوا في بيئات تلك الدعايات الغاوية، وترددوا على مجالس زعمائها، ولكنهم يحملون في صدورهم إيماناً راسياً، ويعتزون بأدابهم الإسلامية أينما كانوا، ويفقهون أن سبيل العزة والحياة الطيبة هي السبيل التي هدى إليها الدين الحنيف. بلقاء أمثال هؤلاء الشبان الموفقين أخذ الأمل في إصلاح شؤوننا الاجتماعية ينمو في القلوب، ويبعث على العمل للنهوض»<sup>(٢)</sup>.

ثم يذكر بعد ذلك السبب المباشر لإنشاء (جمعية الشبان المسلمين) فيقول: «وأذكر شاهداً على هذا: أنني كنت لقيت أحد المتصلين بجمعية الشبان المسيحية في القاهرة، ففاجأني بنبأ هو: أن بعض الشبان المسلمين دخلوا في جمعية الشبان المسيحية، وصاروا من أعضائها، فأخذني أسف يقطع الأكباد، وقلت في نفسي: هل من الميسور تأليف جمعية للشبان المسلمين تصرفهم عن غشيان جمعية بطانتها الدعوة إلى المسيحية؟»

وذهبت تَوّاً إلى المطبعة السلفية، فلقيت طالباً من طلاب دار العلوم، فعرضت عليه هذه الأمنية، وقلت له: اذكر هذا بين الطلاب، وانظر ماذا ترى منهم. وأيدني في هذا الاقتراح الأخ الأستاذ محب الدين الخطيب؛ فجاء الطالب من الغد، وقال: وجدت من بعضهم إقبالاً، وحضر بالمطبعة السلفية بعض طلاب الجامعة المصرية، وخاطبناهم على أن يقوموا بالدعاية للجمعية في الجامعة، ففعلوا، وكان هذا بداية تأسيس جمعية الشبان المسلمين في القاهرة.

١- انظر هدى ونور ص ٨١.

٢- المرجع السابق ص ٨١-٨٢.

وعرفنا من ذلك النجاح أن الشاب المسلم إنما تأخذه الشبهة، ويمجد عن سبيل الرشد حيث لا ترعاه قيادة رشيدة، أو يطرق سمعه دعوة حكيمة»<sup>(١)</sup>.

وهكذا نشأت فكرة إنشاء (جمعية الشبان المسلمين) فاشترك الشيخ الخضر مع جماعة من الغيورين على الإسلام، ووضع لائحتها الأولى مع صديقه محب الدين الخطيب، وقامت الجمعية بنشر مبادئ الإسلام، والدفاع عن قيمه، ومحاربة الإلحاد العلمي<sup>(٢)</sup>.

وقد كان ميثاق الجمعية يبدأ بهذه الكلمات: «عليَّ عهد الله وميثاقه لأقومن بقدر طاقتي أولاً: بإحياء هداية الإسلام في عقائده، وآدابه، وأوامره، ونواهيه، ولغته، ومقاومة تيار الإلحاد والإباحية المهتدين لهذه الهداية...»<sup>(٣)</sup>.

وقد وصف الشيخ محب الدين الخطيب الحال في ذلك الوقت فقال في حديث له عن أول اجتماع عقدته الجمعية في دار (سينما الكوزمو) بدعوة من الشاعر أحمد شوقي، وقد حضره نخبة من الشيوخ والشباب، قال: «كنت أنا وأحمد تيمور باشا رحمهما الله والسيد محمد الخضر حسين - حريصين على أن تكون هذه المؤسسة الأولى للإسلام في مصر قائمة على تقوى من الله وإخلاص، وكنا حريصين على أن يتولى إدارتها رجال يعرفون كيف يصمدون لتيار الإلحاد الجارف بعد أن استولى على أدوات الثقافة والنشر في العالم الإسلامي، وفي مصر على الخصوص؛ فكنا نبحث عن هؤلاء الرجال بين من نعرف ومن لا نعرف، ونستقصي الحقائق عن دخالهم من غير أن يعلموا»<sup>(٤)</sup>.

فالدفاع عن الإسلام، ومحاربة الإلحاد - إذًا - كان على رأس تلك الأسباب التي قامت (جمعية الشبان المسلمين) من أجلها.

١- المرجع السابق ص ٨٢.

٢- انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٨٨.

٣- المرجع السابق ص ٨٨.

٤- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د. محمد الخضر حسين ط ٨، بيروت، مؤسسة الرسالة،

١٩٨٦م، ص ٣٢٤، وانظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٨٩.

وكذلك بالنسبة لجمعية الهداية الإسلامية؛ حيث قامت لأسباب يأتي على رأسها الوقوف في وجوه الطاعنين في الإسلام، والرد على دعاوهم. يقول الشيخ الخضر رحمته الله مبيناً أسباب إنشاء (جمعية الهداية الإسلامية): «إن متانة أصول الإسلام، وحكمة شريعته، ووضاءة آدابه - تجعلنا على أمن من أن تَمَسَّه الدعايات المناوئة له بسوء؛ فلا نخشى على أصوله أن تززع، ولا على شريعته أن يبدو فيها مغمز، ولا على آدابه أن توزن بما هو خير منها، أو مثلها. ولكن قلة العناية بالقيام على هذه الأصول والشريعة والآداب، وتلقينها لنشئنا في أول طور من أطوار حياتهم العلمية - مهَّد الطريق لنفر يحملون ألقاباً إسلامية، ثم ما يكون منهم إلا أن يأتروا على الإسلام، ويبثوا سموم دعايتهم في بعض الصحف، ومجامع التعليم»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال: «دعاية سارت في استهواء بعض شبابنا خطوات غير قليلة، ومن أثرها: أن أصبح طائفة ممن يقعدون في مقاعد التدريس، أو السيطرة على جماعة من المسلمين - يطعنون في جانب هذا الدين الحنيف بكل صفاقة، لا يرعون في أهله ذمة، ولا يرقبون لآداب الاجتماع عهداً، ويريدون بعد هذا كله أن يسموا الإلحاد إصلاحاً، والخلاعة حرية.

نحن على يقين من أن دعاية تكيد الإسلام وتناصبه العداوة لا تتقدم بشيء من العلم أو المنطق، وإنما هي عوامل مادية تدفعها، ثم لا تجد أمامها قوة علمية منظمة تكفي الناس شرها، وتحمي الوطن من وبائها»<sup>(٢)</sup>.

ثم بين بعض ما يبشه الزائغون من الشبه، وواجب أهل العلم تجاه هذا الانحراف، وختم كلامه في هذا بقوله: «لا تستطيع أي قوة أن تقضي على الدين الذي تتعدد فيه الزوجات، ولن يأتي الوقت الذي يعتقد فيه الناس أن الميراث ليس

١- الهداية الإسلامية ص ١٧٢-١٧٣ .

٢- انظر المرجع السابق ص ١٧٣ .

من الدين، ولا ينخدع المسلمون لمن يكيد للإسلام، ويريد أن يخرجهم لهم في صورة الدين الذي يمكن فصله عن القضاء والسياسة، ولا يستقيم الأمر لرئيس يجهل على الإسلام، أو يتخذ ممن يجهلون على الإسلام عضداً؛ فقد تيقظ المسلمون حقاً من خمولهم، وقام أهل العلم يطفئون فتنة الإغواء جهدهم.

وعلى هذا القصد تألفت جمعية الهداية الإسلامية<sup>(١)</sup>.

وبعد أن بين سبب تأسيس هذه الجمعية بين مبادئها، وأنها جمعية علمية أدبية الغرض من تأسيسها: القيام بما يرشد إليه الدين الحنيف من علم نافع، وأدب رفيع، وخلق كريم<sup>(٢)</sup>.

ثم بين بعد ذلك أن الجمعية تعتمد في تحقيق هذا الغرض على الوسائل التالية:

١. السعي لتعارف الشعوب الإسلامية، وتوثيق الرابطة بينها، ورفع التجافي بين

الفرق الإسلامية، والتعاون مع كل جمعية تسعى لهذه الغاية.

٢. نشر حقائق الإسلام بأسلوب يلائم روح العصر.

٣. مقاومة الإلحاد والدعايات غير الإسلامية في الأوطان الإسلامية بالطرق

العلمية.

٤. الجهاد في إصلاح اللغة العربية، وإحياء آدابها<sup>(٣)</sup>.

رابعاً: أعمال الجمعيات، وجهودها في الرد على المخالفين: لقد قامت

الجمعيات التي شارك فيه الشيخ الخضر، أو قام بإنشائها بأعمال عظيمة؛

فحققت الكثير من الأهداف التي رسمت لها، والأغراض التي قامت من أجلها؛

فكانت المحاضرات تُعقد فيها، والمجلات والبيانات تصدر عنها.

وقد مضى ذكر لشيء من ذلك في الباب الأول.

١- المرجع السابق ص ١٧٤.

٢- انظر المرجع السابق ص ١٧٤.

٣- انظر المرجع السابق ص ١٧٤-١٧٥.

ولا ريب أن أعظم تلك الجمعيات أثراً هي (جمعية الهداية الإسلامية) حيث كانت مصدر إشعاع، ونور، وهدى؛ فكانت تصدر عنها مجلة الهداية الإسلامية التي تعد لسان الجمعية، وقد صدر العدد الأول منها في جمادى الأولى سنة ١٣٤٧هـ، واستمر صدورها شهرياً إلى حين انقطاعها خلال الحرب العالمية الثانية<sup>(١)</sup>.

وقد كوَّنت هذه الجمعية فروعاً بعدة مدنٍ في البلاد المصرية، وفي بعض البلدان العربية كسوريا، والعراق. وكان مقرُّ الجمعية منتدياً تقام فيه المحاضرات، وتلقى الكلمات، وأكثر من يقوم بذلك رئيسها الشيخ الخضر.

كما كانت تصدر البيانات التي تنكر من خلالها على من يسيء للإسلام. كما كان أعضاء الجمعية يقومون بإلقاء المحاضرات في المساجد عقب صلاة الجمعة؛ فكان لهذه الجمعية أبلغ الأثر في بيان حقائق الإسلام، والوقوف في وجوه الطاعنين عليه<sup>(٢)</sup>.

يقول الشيخ محمد الخضر رحمته الله مبيناً بعض ما قامت به الجمعية، وذلك في كلمة ألقاها في حفل افتتاح فرع الجمعية في حي العباسية في القاهرة في ليلة الاثنين ٢٧/محرم/١٣٥٢هـ يقول: «ولنذكر لحضراتكم أمثلة من نزعات الطوائف التي حاربتها الجمعية في قوة وحكمة:

وجدت الجمعية رهطاً نشؤوا في عماية، وتخبطوا في سفاهة؛ فزعموا أن سبب سقوط الأمة الإسلامية من مكانتها تمسكها بدينها، ووقوفها عند حدود شريعته، حتى قالوا: إن سببَ فقدها لسلطانها الغالب ربطها للسياسة بالدين.

١- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره .

٢- انظر الهداية الإسلامية ص ١٧٥ .

وقد أرتهم الجمعية أنهم قد قلبوا الحقيقة رأساً على عقب، وكانت تذكّرهم بالتاريخ الصادق، وتعرض عليهم أحوال الشعوب المختلفة في العصور، فتناديهم بأن قوة الدولة وعزتها على مقدار إقامتها للشريعة السمحة، وارتباطها بأحكامها العادلة»<sup>(١)</sup>.

ثم ينتقل إلى جهود الجمعية في الوقوف في وجه نحلتي البهائية والقاديانية فيقول: «وجدت الجمعية فريقاً آخرين اشتدت عداوتهم للإسلام، وحدثهم أنفسهم بالعمل لهدمه من أساسه؛ فابتدعوا نحلاً يخدعون بها الضعفاء والجهّال، ويزعمون أنها الإسلام.

ومن أخبث هذه النحل: نحلنا البهائية، والقاديانية، وقد كشفت الجمعية عن سرائر هاتين النحلتين، وأقامت الحجة على أن مؤسسها ملاحدة يخادعون الله والذين آمنوا، ولو ألقّت جبلهما على غاربهما، وخلت لهما السبيل - لأضلوا كثيراً»<sup>(٢)</sup>.

ويواصل حديثه عن جهود الجمعية، فيذكر مواقفها من التقليد الأعمى، والتشبه بالأجانب، ومن التحذير من البدع، والوقوف أمامها، ويتنقل بعد ذلك إلى الحديث عن التبشير، وإنشائه المدارس، والمستشفيات التي يتخذونها حوائل لإفساد عقائد أبناء المسلمين، وإخراجهم من نور الإسلام إلى النصرانية، وبين أن لمحاضرات الجمعية، ومجلتها حظاً عظيماً من مقاومة هذا النوع من التضليل. ويذكر من جملة أعمالها تحرير مذكرات تقدمها لأولي الشأن عندما تقضي المصلحة تقديمها، كمذكرة إلغاء البغاء، ومذكرة في طلب العناية بالتعليم الديني في مدارس الحكومة، وإعطائه حقه<sup>(٣)</sup>.

١- الهداية الإسلامية ص ٢٣٠-٢٣١.

٢- المرجع السابق ص ٢٣١.

٣- انظر المرجع السابق ص ٢٣١-٢٣٢.

ثم يختم كلمته بقوله: «هذه مساعي الجمعية التي أنشأت هذا الفرع في حيكيم الكريم، وترجو من الله -تعالى- المعونة، والتوفيق، ومن حضراتكم الإقبال، والمؤازرة، وإنكم -إن شاء الله- لفاعلون»<sup>(١)</sup>.

وهكذا في كل مناسبة يذكر بعض ما تم إنجازه على يد هذه الجمعية المباركة. وأما جمعية الشبان المسلمين فكان لها دور طيب، ولكنه لا يرتقي إلى ما كانت تقوم به (جمعية الهداية).

ومما قامت به جمعية الشبان المسلمين إصدار مجلة للجمعية، وقد صدر العدد الأول منها في جمادى الأولى سنة ١٣٤٨هـ.

وقد كتب يحيى الدريري المقالة الافتتاحية مشيراً إلى ما ينشره دعاة الإلحاد من سموم باسم التجديد، داعياً إلى الرجوع إلى القرآن، واتخاذ أساساً، ومرشداً، ومرجعاً لنهضتها الخلقية التي بدونها لا تصلح أي نهضة أخرى اجتماعية، أو اقتصادية، أو غيرها، وجعله -أي القرآن- المرجع الأول والأخير في تمييز ما يصلح اقتباسه مما ينبغي تركه من المدينة الغربية الحديثة<sup>(٢)</sup>.

وقبل ذلك لما كان الشيخ الخضر في تونس كان يلقي المحاضرات في الجمعيات كجمعية قدماء تلامذة الصادقية التي ألقى في ناديها محاضراته الشهيرة (الحرية في الإسلام) مساء السبت ١٧/٤/١٣٢٤هـ، وغيرها من المحاضرات التي مر ذكرٌ لشيء منها.

وهكذا كانت الجمعيات وسيلة من أعظم الوسائل التي استعان بها الشيخ الخضر في الرد على المخالفين.

١- المرجع السابق ص ٢٣٢.

٢- انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص ٢٢٣، وملتقى الإمام محمد الخضر في الجزائر

المطلب الرابع: تأليف الكتب واستعمال وسيلتي: الحوار والشعر فتلك الوسائل مما أخذ به الشيخ الخضر في ردوده على المخالفين ، وتوضيح ذلك فيما يلي :

أولاً: تأليفه الكتب في الرد على المخالفين : والكلام في هذا يطول ، وقد مضى تفصيله في الفصل الثاني من الباب الأول أثناء العرض والدراسة لمؤلفات الشيخ ، ومن ضمنها كتبه في النقض والرد.

ولا ريب أن أعظم تلك الكتب ، بل أعظم كتب الشيخ على الإطلاق هما : (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) و (نقض كتاب في الشعر الجاهلي). وقد مضى الحديث عن هذين الكتابين ، وسيأتي مزيد حديث عنهما في الأبواب التالية.

وهذان الكتابان هما -تقريباً- اللذان ألفهما ابتداءً؛ حيث رد بهما على كتابي: علي عبدالرازق ، وطه حسين.

أما بقية كتبه وردوده فكانت -في أصلها- مقالاتٍ ، أو محاضرات كردوده على طه حسين في (حقيقة ضمير الغائب في القرآن) وعلى علي عبدالرازق في (العظمة) و (ملاحظات على مقال مولد النبي ﷺ).

وكردوده على الدمهوري ، والشيخ شلتوت ، والأستاذ عبدالمتعال الصعيدي ، والطاهر حداد ، وأحمد أمين ، ومحمد أحمد خلف الله ، وفريد وجدي؛ فهذه الردود كانت في أصلها محاضرات ، أو مقالات ، ثم خرجت في كتب مستقلة ، أو ضمن كتب<sup>(١)</sup>.

ولا ريب أن الكتاب أبقى أثراً ، وأخلد جولة.

ولهذا عدت الكتب من أهم أو أهم وسائله التي اتخذها في ردوده على المخالفين.

١- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٢٥-١٨١ .

ثانياً: وسيلة الحوار: فالحوار من أنجع الوسائل لإقناع المخالف، والوصول معه إلى نتيجة مرضية؛ ذلك أن جو الحوار يصحبه الهدوء، ورحابة الصدر؛ إذ هو مراجعة الكلام بين طرفين، بحيث ينتقل من الأول إلى الثاني، ثم يعود إلى الأول وهكذا، دون أن يكون بين هذين الطرفين ما يدل بالضرورة على وجود نزاع، أو خصومة، أو لدد<sup>(١)</sup>.

وقد كان الشيخ الخضر يأخذ بهذه الوسيلة في كثير من الأحيان سواء في مجالسه، أو دروسه، أو في لقاءاته مع المستشرقين خصوصاً لما كان في ألمانيا، أو غير ذلك من حواراته.

وكان الشيخ يجذب هذه الطريقة كثيراً، بل إنها تلائم طبعه الهادئ، وفيها يقول:

يَحْلُو النَّضَالُ وَلَا نَضَالُ الدُّمِينِ      تَنْقَادِ آرَاءٍ بَغْيِ رِخْصَامِ

هِيَ كَالسَّحَابِ: هَذِهِ وَطَفَاءُ إِنْ      سَنَحَتْ، وَتِلْكَ تَمُرٌّ مَرَّ جَهَامِ

وَالرَّأْيُ يَخْلُصُ بِالنَّقَاشِ الحُرِّ مِنْ      صَدَا الخُمُولِ وَتُبْسَةِ الإِبْهَامِ

وَجَاذِرُ الأَفْكَارِ لَا تَدْرِ الحَمَى      مَا لَمْ تُسَسِّنْ بِرَوِيَّةٍ وَنِظَامِ<sup>(٢)</sup>

ومن الأمثلة على أخذه بوسيلة الحوار ما يلي:

١. ما جاء في خلاصة الرحلة الشرقية من كتابه (الرحلات) وذلك عندما تحدث في درس له في الجامع الأموي، حيث قال: «ومما جرى لنا في الدرس الأول: أن أحد المستمعين الذين لهم صلة بالقراءة، ألقى بحثاً في موضوع كنت أخذاً في تقريره، فتعرض له بعض الحاضرين، فأومأت إليه بعدم التعرض،

١- انظر في أصول الحوار، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وحدة الدراسات والبحوث،

ط ٣، ١٤٠٨-١٩٨٨م، ص ١١، ومناهج الجدل في القرآن الكريم د. زاهر الألمي، ط ٣، ١٤٠٤هـ،

ص ٢٩-٣٠.

٢- خواطر الحياة ص ٩٩.

وقلت له: إن التفاهم في خلال الدروس مما لا بد منه.

وجاريت السائل، ولكنه تشعب في المجادلة إلى أن شعرت بأن مباحثته مبنية على أن الموعدة التي كنت بصدد بثها لم تلتئم بما تهواه نفسه، ويوافق غرضه، فذكرت قول المتنبي:

إنما تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الضؤاد

ثم أرسلت له عبارة مقنعة في الجواب، ومضيت في تقرير مطلب آخر، وبعد انقضاء الدرس، دنا إليّ، والتمس الإغضاء عمّا فرط منه، فقلت له: إنا متعودون بالبحث وتوسيع المجال للتفاهم»<sup>(١)</sup>.

٢. وقال في الكتاب الأنف الذكر: «ومن عوائد الشام: أنك ترى زائرات القبور يوم العيد يحملن غصوناً ذات أوراق طرية ليضعنها على القبور، باعتقاد أنها تنفع الموتى كما تنفعهم الصدقات، ويستندون في هذا إلى حديث: غرز النبي -عليه الصلاة والسلام- عودين من جريد على قبر من لا يستتر من بوله، ومن كان يمشي بنميمة، وقوله: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»<sup>(٢)</sup>.

وقد فاوضني في هذه العادة أحد الفضلاء من الأرناؤوط يوم العيد، وذكر الحديث، فقلت له: إن غرز النبي ﷺ للعود الرطب لداعٍ غيبي، ومعنى يختص به، مثل أن تكون مدة بقاء الطراوة فيه غاية لما وقع فيه الطلب من تخفيف العذاب عنهما. وما يفعله -عليه الصلاة والسلام- لعلّة غائبة عن أبصارنا لا ينبغي لنا أن نقدم إلى فعل مثله؛ فإن العلة غير متحققة بالنسبة لنا.

ونظير هذا: حديث نزوله -عليه الصلاة والسلام- والصحابة معه بالوادي، واستمرار النوم به إلى أن طلعت الشمس؛ فإنه -عليه الصلاة والسلام- أمر بالرحيل، وقال: «إن هذا وإد به شيطان»<sup>(٣)</sup>.

١- الرحلات ص ٧٩-٨٠.

٢- أخرجه البخاري (٢١٥) ومسلم (٢٩٢).

٣- أخرجه البيهقي (١٠٤٢) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٦٨٧).

فلا يصح لنا أن نقيس عليه حالتنا، حتى إذا طلعت الشمس علينا، ونحن بواد، تحاشينا أن نصلّي فيه؛ لأن العلة التي استند عليها - عليه الصلاة والسلام - لا طريق لنا إلى معرفتها كما قال أبو الوليد الباجي.

وبعد هذه المفاوضة اطلعت على إنكار أبي بكر الطوطوشي لهذه العادة، ومتابعة صاحب (المدخل) على هذا الإنكار»<sup>(١)</sup>.

٣. وقال في مقالة له عنوانها: (استحضار الأرواح): «ولما كنت في ألمانيا سمعت -أيضاً- أن أناساً من أوروبا وأمريكا يدعون أنهم يستحضرون أرواح الموتى، ويخبرونهم عن حالهم، وبعض ما يقع لهم في الحياة، فأقول: إن هذه الواقعة باطلة بنفسها.

واجتمعت بقسيس في بلد (لنداو) من ألمانيا، وسألته: هل حضر جلسة من جلسات هؤلاء الذين يدعون استحضار الأرواح؟ قال القسيس: هذه دعوى باطلة، والعلماء ينكرون ذلك»<sup>(٢)</sup>.

٤. وقال في مقالة له عنوانها (العرب والسياسة): «وأذكر أنني حين كنت في ألمانيا أيام الحرب الأولى حضرت حديثاً يدور بين مدير الاستخبارات الألمانية وسكرتيره أثناء سفرنا إلى قرية (ويزندرف) سألني المدير في نهايته فقال: أليس كذلك يقرر ابن خلدون؟ قلت: وماذا يقرر؟ قال: إن العرب لا يصلحون للملك، ولا يحسنون حكماً للأمم.

قلت: إنما خص ذلك بعهد الجاهلية، وقرر أنهم في الإسلام أحسنوا السياسة، وقاموا بأعباء الملك خير قيام»<sup>(٣)</sup>.

فهذا شيء من أخذه بوسيلة الحوار مع المخالفين، والمخالفات.

١- المرجع السابق ص ٩٠-٩١.

٢- دراسات إسلامية ص ٨٢.

٣- مشاهد برلين ص ١٤٩.

ثالثاً: وسيلة الشعر: مر الحديث عن شعر الشيخ الخضر في الفصل الثاني من الباب الأول، وذلك عند دراسة مؤلفاته، وخصوصاً عند عرض ديوانه (خواطر الحياة). والحديث ههنا عن استخدام الشيخ الشعر وسيلة للرد على المخالفين، وبيان بعض الضلالات؛ ذلك أن للشيخ بعض المقطوعات، والقصائد في هذا الشأن؛ حيث كان ينظم الشعر في بعض الأحيان لذلك الغرض. ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١. قصيدة عنوانها (بعض أمراضنا الاجتماعية): وهي قصيدة يدعو بها إلى الإصلاح الاجتماعي، ومعالجة كثير من الانحرافات العقيدية والفكرية، والتحذير من الإلحاد والفرق الضالة والدعايات الباطلة. وتكاد تكون أجمع وأطول ما قاله في ذلك الشأن؛ إذ تبلغ ستة وأربعين بيتاً، وقد افتتحها بقوله:

أَيَعُودُ لِلشَّرْقِ الحِمَاسَةُ والإِبَاءُ فَتَعُودُ عِزُّهُ وَيَبْتَهِجُ العَلَاءُ؟  
 قَالُوا: اسْتَقَامَ الشَّرْقُ وَهُوَ يَسِيرُ فِي نَهْجِ الفَلَاحِ وَفِي عِزِّمَتِهِ مَضَاءُ  
 وَلَشَدَّ مَا خُضْنَا الخُطُوبَ وَلَمْ نُرِدْ إِلَّا العَلَا وَجَرَتْ بِوَادِينَا دِمَاءُ<sup>(١)</sup>

ثم أشار إلى ما حصل من انحراف النساء، وما صار من التبرج، ونبذ العفاف. ثم ينتقل إلى دعاوى العلمانية، ونبذ الشريعة الإسلامية، فيقول:

قَالُوا: دَوَاءُ قُضَاتِنَا قَانُونُ بَا رِيز، وَقَانُونُ الإِلَهِ هُوَ الدَّوَاءُ  
 سُنَّنا بِهِ الأَقْوَامَ فَانْتِظَمَتْ لَنَا فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ العَدَالَةُ والدَّهَاءُ  
 لَا تُخْرِجُ الغَبْرَاءُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَوْ مِثْلَ شَرْعِ آثَرْتَهُ بِهِ السَّمَاءُ<sup>(٢)</sup>

١- خواطر الحياة ص ١٣-١٤ .

٢- المرجع السابق ص ١٥ .

ثم تطرق لداء الوساطة فقال:

طَغَتِ الْوَسَاطَةُ فِي الْوِظَائِفِ وَيَنْحَ مَنْ لَمْ يَدْرِ أَيْنَ الْجَاهُ أَوْ أَيْنَ الثَّرَاءُ<sup>(١)</sup>

ثم التفت إلى الدعوات إلى القومية والوطنية فقال فيها:

نَادَوْا بِهَا قَوْمِيَّةَ خِرْقَاءٍ أَوْ وَطَنِيَّةً، لَاحِبِّذَا ذَاكَ النَّدَاءُ<sup>(٢)</sup>

ثم تطرق إلى ما حل بالمدارس الحكومية، وما حل فيها من انحراف،

وتطرق للإلحاد، والبهائية والقاديانية، وفي هذا يقول:

إِنَّ الْمَدَارِسَ كَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا وَعُلُومُهَا مِثْلُ النَّجُومِ لَهَا ضِيَاءٌ

وَكَاثِمًا عِلْمُ الدِّيَانَةِ بَيْنَهَا قَمَرُ السَّمَاءِ إِذَا تَجَلَّى أَوْ ذُكَاءٌ

وَسِيَاسَةُ التَّثْقِيفِ يَشْغَلُ بِأَلْهَا وَيَهْمُهَا غَيْرُ الْهُدَى حَتَّى الْغِنَاءُ

وَمَتَى يُمَاطُ أَدَى الدَّعَايَاتِ الَّتِي تُوحِي ضَلَالًا وَالضَّلَالُ هُوَ الْوِيَاءُ

فَدَعَايَةُ الْإِلْحَادِ يَنْفُثُ سُمُّهَا رَهْطٌ يُوَازِرُهُمْ عَلَيْهَا أَغْبِيَاءُ

إِنْ جِئْتَ نَادِيَهُمْ بِأَبْلَغِ حُجَّةٍ فَجَوَابُهُمْ عَنْهَا التَّهْكُمُ وَالْبِدَاءُ

وَدَعَايَةُ فِي الْفُرْسِ بِيَّتْ أَمْرُهَا يَأَلِيَّتْهَا ذَهَبَتْ كَمَا ذَهَبَ الْجُفَاءُ

جَاسَتْ خِلَالَ الشَّرْقِ وَاغْتَالَتْ بِهِ نَشْنَأُ وَلَمْ يَفْتَلَهُمْ إِلَّا الشَّقَاءُ

خَرَجُوا عَنِ التَّوْحِيدِ وَارْتَدُّوا إِلَى شِرْكٍ أَمَا قَالُوا: الْإِلَهُ هُوَ الْبَهَاءُ<sup>١٩</sup>

وَدَعَايَةُ فِي قَادِيَانٍ تَبَرَّجَتْ لَكِنَّ حَلِيَّتَهَا خِدَاعٌ وَافْتِرَاءُ

زَعَمَ أُوهُهُمْ - وَغُلَامُ أَحْمَدَ رَأْسُهُمْ - زَعَمُوا بِأَنَّهُمْ دُعَاةُ أَنْبِيَاءٍ<sup>(٣)</sup>

١- المرجع السابق ص ١٥ .

٢- المرجع السابق ص ١٥ .

٣- المرجع السابق ص ١٦-١٧ .

ثم يعرج على المدارس الأجنبية ، فيقول :

لِمَنْ الْمَدَارِسُ نَبَلُهَا شُبَّةٌ وَمَرُّ مَاهَا جُحُودٌ فِي النَّفْسِ أَوْ امْتِرَاءُ  
عَجَباً لَنَا نُلْقِي إِلَى أَحْضَانِهَا أَكْبَادَنَا مِنْ بَعْدِ أَنْ بَرِحَ الْخَفَاءُ<sup>(١)</sup>

ثم يحتم تلك القصيدة بهذا النداء المدوي فيقول :

أَعْطَيْتُ عِلْماً مَا جَنَيْتُ بِهِ سِوَى ذَهَبٍ، وَصَارَ الْبَيْتُ هَمِّي وَالْغَدَاءُ  
إِنْ لَمْ أَذْكَرْ بِالْحَقَائِقِ دَائِباً فَأَنَا وَغَيْرُ الْعَالِمِينَ بِهَا سَوَاءُ  
هِيَ تِلْكَ أَمْرَاضٌ نَنِينُ لَهَا وَلَمْ يَهْدَأْ صَبَاحٌ مُذْ عَرَّتْنَا أَوْ مَسَاءُ  
لَا خَيْرَ فِي الرُّؤْسَاءِ إِنْ لَمْ يَنْهَضُوا بِالشَّرْقِ حَتَّى يَخْلُفَ الدَّاءَ الشَّقَاءُ  
قَالُوا: حَوَالَيْنَا غَرِيبٌ رُبَّمَا يُبْدِي رَغَائِبَ قَدْ تُعَارِضُ مَا نَشَاءُ  
قُلْنَا: الرَّئِيسُ الْحُرُّ لَا يَثْنِيهِ عَنِّ إِصْلَاحِ شَأْنِ الشَّعْبِ خَوْفٌ أَوْ رَجَاءُ<sup>(٢)</sup>

٢. قصيدة (العرب والسياسة) يقول في مقدمة هذه القصيدة: «كنت في قطار

بضواحي برلين يرافقني مدير الأمور الشرقية بوزارة الخارجية، وكان يتحدث مع شاب ألماني باللغة الألمانية.

ثم أقبل عليّ، وقال لي: أليس هكذا يقول ابن خلدون: إن العرب أبعد

الناس عن السياسة؟ فقلت: يريد: العرب قبل دخولهم الإسلام.

وبهذه المناسبة نظمت هذه الأبيات:

عَذِيرِي مِنْ فَتَى أَرَزَى بِقَوْمِي وَفِي الْأَهْوَاءِ مَا يَلِدُ الْهَذَا  
يَقُولُ: الْعَرَبُ ظَلُّوا فِي جِزَاءٍ وَمَا عَرَفُوا السِّيَاسَةَ وَالِدَهَاءَ  
سَلُوا التَّارِيخَ عَن حَكْمِ تَمَلَّتْ رَعَايَاهُ الْعَدَالَةَ وَالرَّخَاءَ

١- المرجع السابق ص ١٧ .

٢- المرجع السابق ص ١٧ .

عَرُوفِ النَّفْسِ عَنِ تَرْفِ ذُكُورِ      لِعُقْبِي مَنِ أَجَادَ وَمَنِ أَسَاءَ  
هُمَامٍ كَانَ سَامِرُهُ وَأَقْصَى      بِإِلَادٍ فِي مَهَابَتِهِ سَوَاءَ  
هُوَ الْفَارُوقُ لَمْ يُدْرِكْ مَدَاهُ      أَمِيرٌ هَزَّ فِي الدُّنْيَا لِوَاءِ<sup>(١)</sup>

٣. وهذه قصيدة عنوانها (الانتصاف للشريعة) وقد قالها بمناسبة تقليد بعض

الجهال من شأن علوم الشريعة في مجلس بالقاهرة سنة ١٣٤١ هـ:

أَغَاظَ الْحَسُودَ الْخَبَّ أَنْ بَتَّ مُقْبِلًا      بِفِكْرِي عَلَى عِلْمٍ بَدِيعِ الْمُبَاحِثِ  
وَأَوْجَسَ خَوْفًا أَنْ أَزِيدَ بِهِ عَلَا      وَذَاكَ لَدَى الْحُسَّادِ إِحْدَى الْكَوَارِثِ  
فَقَضَّ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي خُضَّتْ بَحْرُهُ      وَلَقَبَ مَنْ يَرْتَادُهُ بِاسْمِ عَابِثِ  
يُحَاوِلُ كَيْدًا أَنْ يُثْبِطَ هِمَّةً      تَسَامَتَ فَكَانَ الْكَيْدُ بَعْضَ الْبُوعَاثِ  
فَعَادَ وَمَا فِي كَفِّهِ غَيْرُ خَيْبَةٍ      كَمَا أَخْفَقَتْ فِي الْحَجِّ آمَالُ رَافِثِ<sup>(٢)</sup>

٤. وهذه قصيدة عنوانها (حياة اللغة العربية) قالها في تونس سنة ١٣٢٦ هـ،

وجعلها على طريقة رواية، وقد رد بها على مقال للفرنسي (شارل نويل) الذي اتهم  
العربية بالجمود، وعدم مسايرة العصر، وتقع في ثلاثة وثلاثين بيتاً، ومنها قوله:

بَصْرِي يَسْبَحُ فِي وَادِي النَّظَرِ      يَتَّقَصِي أَثَرًا بَعْدَ أَثَرِ  
وَسَبِيلُ الرُّشْدِ مَمْهُودٌ لِمَنْ      يَتَحَامَى الْغُمُضَ مَا اسْتَطَاعَ السَّهْرُ  
إِنَّمَا الْكَوْنُ سِجِلٌ رُسِمَتْ      فِيهِ لِلْأَفْكَارِ آيٌّ وَعَبْرُ  
وَإِذَا أَرَخَى الدُّجَى اسْتَارَهُ      ظَفَرَ السَّمْعِ بِمَا فَاتَ الْبَصْرُ  
لَسْتُ أَنْسَى جُنْحَ لَيْلٍ خَفَقَتْ      فِيهِ بِالْأَخْشَاءِ أَنْفَاسُ الضُّجْرِ  
قُمْتُ أَسْعَى لِتَقَاضِي سَلْوَةٍ      وَمَطَايَا السَّعْيِ مِرْقَاةُ الْوَطْرِ  
لَجَّ بِي التَّسْهِيدُ حَتَّى أَوْشَكَتْ      غُرَّةَ الْإِصْبَاحِ أَنْ تَغْشَى السَّحْرُ

١- خواطر الحياة ص ١٨ .

٢- المرجع السابق ص ٥٣ .

حَبَّذَا رِيحُ الصَّبَا رِيحاً جَرَّتْ بِحَسْبِيسٍ مِنْ أَحَادِيثِ السَّمَرِ  
فَحَدَّتْ بِي نَحْوِ نَادٍ نَشَبُوا فِي لِحَاءٍ وَلَجَاجٍ مُنْتَشِرِ  
وَإِذَا الْخَصْمَانِ لَمْ يَهْتَدِيَا سُنَّةَ الْبَحْثِ عَنِ الْحَقِّ غَبِرَ  
هَذِهِ طَائِفَةٌ تَشْدُو بِمَا فِي لِسَانِ الْعُرْبِ مِنْ فَضْلِ ظَهَرَ  
وَجَفَّتْهُ فِتْنَةٌ فَاهَتَتْ ضَمُّوا حَقُّهُ وَالْجَهْلُ مَدْعَاةُ الْهَنْزِ  
وَتَرَاضَوْا بَعْدَ ذَا أَنْ تَصَبُّوا حَكَمًا بَيْنَهُمْ فِيمَا شَجَرَ  
أَبْدَعَ الْقَوْلَ وَقَدْ أَسْعَدَهُ لَهْجَةً فَصَحَى وَجَاشَ مُسْتَقِرُّ  
لُغَةً أُودِعَ فِي أَصْنَدِهَا مِنْ قَوَانِينِ الْهُدَى أَنْهَى دُرُزَ  
أَقْلَمَ يَنْسُجُ عَلَى مِنْوَالِهَا كَلِمَ التَّنْزِيلِ فِي أَسْمَى سُوزَ  
لُغَةً تَقْطِفُ مِنْ أَغْصَانِهَا زَهْرَ آدَابٍ وَأَخْلَاقٍ غُرُزَ  
هِيَ بَحْرٌ غُصْنٌ عَلَى جَلِيَّتِهَا فَالَالِي الْبُخْرِ لَيْسَتْ تَنْحَصِرُ  
ضَرِيَّتُ فِي كُلِّ فَنٍّ سَاحِرٍ مِنْ فَنُونِ الْقَوْلِ بِالسَّهْمِ الْأَغْرُ  
أَقَمَّا أَحْسَسْتِ فِي أَجْرَاسِهَا رِقَّةً تُذْهِلُ عَنِ نَعْمِ الْوَتْرِ<sup>(١)</sup>

إلى أن قال:

فَأَسْأَلُ التَّارِيخَ يُبَيِّنُكَ بِمَا أَنْجَبَتْ أَرْضُ قُرَيْشٍ وَمُضَرَ  
مِنْ خَطِيْبٍ مِصْنَعٍ أَوْ شَاعِرٍ مُفْلِقٍ يَسْحَبُ أَدْيَالَ الْفَخْرِ  
ضَلَّ قَوْمٌ سَالَكُوا فِي حِفْظِهَا سَبِيبًا أَوْهَنَ مِنْ حَبْلِ الْقَمَرِ  
أَقَمَّتْ فِي نَطْقِ قَوْمِي أَحْرَفًا مِنْ لُغَى أُخْرَى فَأَضْنَاهَا الْخَدْرَ<sup>(٢)</sup>

١- خواطر الحياة ص ٩٦ .

٢- المرجع السابق ص ٩٦-٩٩ .

٥. مقطوعة عنوانها (على لسان قلم ناضل عن الحق): وقد قالها على لسان القلم الذي كان آخر أقلام استعملها في الرد على كتاب (في الشعر الجاهلي) لطف حسين، وقد أهدى بقية القلم إلى خزانة صديقه أحمد تيمور باشا في القاهرة: سَفَكَتْ دَمِي فِي الطَّرْسِ أَنْمَلُ كَاتِبِي وَطَوْتُنِي الْمِبْرَاةُ إِلَّا مَا تَرَى نَاضَلْتُ عَنْ حَقِّ يُحَاوِلُ دُو هَوَى تَصْوِيرُهُ لِلنَّاسِ شَيْئًا مُنْكَرًا لَا تَضْرِبُوا وَجْهَ النَّسْرِ بِبَقِيَّةِ مِئِّي كَمَا تُرْمَى النَّوَاةُ وَتُزْدَرَى فَخِرَانَةُ الْأُسْتَاذِ تَيْمُورِازْدَهَتِ بِحَلَى مِنَ الْعِرْفَانِ تَنْهَرُ مَنْظَرًا فَأَنَا الشَّهِيدُ وَتِلْكَ جَنَاتُ الْهُدَى لَا أَبْتَغِي بِسِوَى ذُرَاهَا مَظْهَرًا<sup>(١)</sup>

٦. قصيدة عنوانها (خواطر في دمشق) وقد ألقاها في حفلة وداع أقامها له نخبة من رجال النهضة الإصلاحية في دمشق سنة ١٣٦٣هـ، وقد ضمنها الرد على المستبدين والمستعمرين، والذين يهاجمون الشريعة، ويقفون في طريق الدعوة، يقول في مطلعها:

وَلَدَتُّكَ تَبْغِي فِي الْحَيَاةِ أَنْيَسَا  
وَلَرُبُّ أُمَّ أُمَّلَّتْ فِي طِفْلِهَا  
فَكُنِ الْهَمَامُ يَخُوضُ لُجَّةَ حِكْمَةٍ  
وَلَدَتُّكَ سَمَحَ النَّفْسِ لَا تَدْرِي لِمَا  
تَبْدُو عَلَى فَمِكَ ابْتِسَامَةٌ زَهْرَةٌ  
وَقَضِيَّتَ حِينًا لَا تُسِرُّ ضَغِينَةً  
وَشَعَرْتَ مِنْ رُعْيَا أَبِيكَ بَأَنَّ فِي  
يَرْعَى عَقُولًا أَوْ يَقُودُ خَمِيْسَا  
هَمَمَ الْمُلُوكِ فَقَامَ يَحْدُو الْعِيْسَا  
أَوْ يَرْتُدِّي سَيْفًا وَيَفْتَحُ خِيْسَا  
وَضَعُوا السُّجُونَ وَأَرْسَلُوا الْجَاسُوسَا  
جَادَ الْحَيَا بُسْتَانَهَا الْمَآنُوسَا  
يَوْمًا وَلَا تُبْدِي الرُّضَا تَدْلِيْسَا  
أَبْنَاءَ قَوْمِكَ سَائِسًا وَمَسُوسَا

يا لَيْتَ قَلْبَ أَبِيكَ بَيْنَ ضُلُوعِ مَنْ  
سَأْتَكُونُ فِي يَوْمٍ لَهُ مَرُوسَا  
ما كُنْتَ تَفْقَهُ أَنَّ فَوْقَ الْأَرْضِ مَجْدٌ  
— روماً عليه وجارماً غَطْرِيسَا  
فَظَنَنْتَهَا الْفِرْدَوْسَ حَتَّى أَبْصَرْتَ  
عَيْنَاكَ حَقَّ ضَعِيفِهِمْ مَبْخُوسَا  
يَسْطُو الْقَوِيَّ عَلَى الضَّعِيفِ وَرَبِّمَا  
صَارَ الضَّعِيفُ عَلَى الْقَوِيِّ رَيْسَا<sup>(١)</sup>  
إلى أن قال:

هِيَ فِطْرَةُ الْخَلَاقِ كَالْمِرْآةِ لَا  
تَزْدَادُ يُمْنًا مَا اتَّقَيْتَ، فَإِنْ دَنَا  
وَرَبَّتْ زِنَادُ يَدِ ثَوَاسِي بَائِسَا  
وَكَبَتْ زِنَادُ يَدِ غَدَتِ تَبْنِي لَا  
يَا مَنْ يَعُوقُ الْخَيْرَ لَسْتَ بِفَائِتِ  
تَرْتِي لِأَقْمَارِ الدُّجَى وَالْأَرْضُ قَدْ  
وَالْأَرْضُ لَوْلَا هَذِهِ الْأَقْمَارُ لَمْ  
فِي الْعَيْشِ آلامٌ وَفِي الْأَلَامِ مَا  
شَدُّوا عَلَى الطِّفْلِ الْقِمَاطَ فَصَاحَ مِنْ  
تَلْقَى بِهَا عَوْجاً وَلَا تَدْنِي سَا  
مِنْهَا الْخَنَا كَانَتْ عَلَيْكَ بَسُوسَا  
وَيَدِ تُحَطِّطُ لِلطُّغَاةِ رُؤُوسَا  
مَالِ الدُّعَاةِ الْمُصْلِحِينَ رُمُوسَا  
يَوْمًا وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ عُبُوسَا  
طَمَسَتْ سَنَاها بِالْخُسُوفِ طُمُوسَا  
تَلْبَسُ لِأَيَّامِ الْكُسُوفِ دُمُوسَا  
يُدْنِي رَعَائِبَ أَوْ يُزِيحُ بؤُوسَا  
جَزَعُ يَرُومٍ لِشِدَّةِ تَنْفِيْسَا<sup>(٢)</sup>

٧. قصيدة عنوانها (الخلافة والانقلاب التركي) قالها بمناسبة إلغاء كمال

أتاتورك للخلافة الإسلامية، وإعلانه أن الحكومة لا دينية سنة ١٩٢٢م.

وهي قصيدة تقع في واحد وثلاثين بيتاً، يقول طالعها:

ما خَطَبُ قَوْمٍ طَالَمَا وَصَلُوكِ  
وَاعْتَزَّ بِاسْمِكَ عَرْشُهُمْ هَجْرُوكِ

١- المرجع السابق ص ١١٧-١١٨.

٢- المرجع السابق ص ١١٩.

حَرَسُوكَ أَحْقَاباً وَحَلَّقَ صِيْتَهُمْ  
كُنْتِ الْوَقَارَ عَلَى وُجُوهِ غَزَاتِهِمْ  
كُنْتِ الْبَطُولَةَ تَزْدَرِي نَارَ الْوَعَى  
مَا زِلْتِ سِمْطَ قِبْلَادَةِ خَرَزَاتِهَا  
تَصْبُو إِلَى دُسْتُورِكَ الْأَحْرَارُ إِذْ  
وَزَنَ الْحُقُوقَ فَمَا الثَّرِيُّ بِرَاجِحٍ  
حَتَّى تَحْكَمَ فِيهِ رَهْطٌ بَدَلُوا  
نَزَعَاتٍ وَسَوَاسٍ تَخْبِطُهُمْ فَمَا  
حَازُوا مَنَاصِبَ أَفْرَعُوا سُلْطَانَهَا  
نَكَثُوا بِمَا نَقَضُوهُ مِنْ لَبِنَاتِهِ  
هَذَا النُّشُورُ عَلَى الشَّرِيعَةِ مُؤَذِّنٌ  
هَاجَ الشَّقَاقُ وَفَتَّ فِي غُلُوقِهِ  
أُورَى الزَّنَادَ كَمَا يُقَالُ عِصَابَةٌ  
زَادَ اللَّظَى حَطْباً هَوَى قَوْمِيَّةٍ  
إِلَى أَنْ قَالَ فِي آخِرِهَا:

نَاطُوا بِهِ أَمَلَ النَّهْوِضِ بِدَوْلَةٍ  
نَهَضَ الرُّعَيْمُ وَمَا رَعَى عَهْدَ الَّتِي  
بَرَحَ الْخَفَاءُ وَحَادَ وَهُوَ مُظْفَرٌ

فِي الْخَافِقَيْنِ لِأَنَّهُمْ حَرَسُوكَ  
وَالْأَمْنُ إِنْ نَظَرُوا بِعَيْنِ ضَحُوكِ  
وَالنَّصْرُ يُعْقَدُ بِالْقَنَا الْمَشْبُوكِ  
أُمَّمٌ بِأَعْلَى فِدْيَةِ تَفْدِيكَ  
يَضَعُ الْمَلِيكَ بِجَانِبِ الْمَمْلُوكِ  
فِي حُكْمِهِ يَوْمًا عَلَى الصُّعْلُوكِ  
خَبَثَ الْحَدِيدِ بِعَسْجَدِ مَسْبُوكِ  
لَبِثُوا أَنْ اغْتَرُّوا بِوَحْيِ أَفُوكِ  
فِيمَا يَمِيدُ بِصَرْحِكَ الْمَسْمُوكِ  
عَهْدَ الرَّسُولِ وَأَغْضَبُوا أَهْلِيكَ  
بِغُرُوبِ شَمْسِكَ بَعْدَ طَوْلِ سُمُوكِ  
عَضُدَ اتِّحَادِ شُعُوبِكَ الْمَنْهُوكِ  
فِي الْغَرْبِ خَلْفَ سِتَارِهَا الْمَهْتُوكِ  
غَشِيَ الْقُلُوبَ بِرَجْفَةِ الْمَوْعُوكِ<sup>(١)</sup>

رَمَتِ الثَّرِيُّ بِجَنَاحِهَا الْمَفْكُوكِ  
لَوْلَا اسْمُهَا مَا صَالَ صَوْلُ مَلُوكِ  
نَشْوَانٌ عَنِ مَنِهَاجِهَا الْمَسْلُوكِ

عَدْرُوهُ إِذْ أَقْصَى الْخِلَافَةَ جَانِباً  
وَمَحَا اسْمَهَا لِيُزِيلَ غَيْنَ شُكُوكِ  
مَا بِالْقِسْطِ الشَّرِيعَةِ ضَاعَ فِي  
أُفُقِ السِّيَاسَةِ ضَيْعَةَ الْمَثْرُوكِ ١٩  
وَالْقَوْمُ قَوْمٌ مُحَمَّدٌ إِنْ زُحْزِحُوا  
عَنْ هَدْيِهِ اقْتَحَمُوا شِعَابَ النَّوْكِ  
وَهُدَاهُ حِصْنٌ لَا أَرِيكَهُ مُشْرِفٍ  
وَرَثِيرٌ لَيْسَ لِأَصِيَاخِ دِيُوكِ<sup>(١)</sup>

٨. وهذه قصيدة عنوانها (وفي كل شيء له آية) يرُدُّ بها على من يؤمن بالمحسوس

فحسب، وينكر الغيب، يقول فيها:

يَعْجَبُ النَّاسُ فِي الْحَيَاةِ وَأَقْضَى  
عَجَبِي مِنْكَ أَنْ ضَلَلْتَ السَّبِيلَا  
أَنْتَ تَرْتَابُ أَنْ يُدَبَّرَ أَمْرَانَا  
كُونَ مَنْ جَلَّ مَلَكُهُ أَنْ يَزُولَا  
وَتَخَالُ الْوُجُودَ وَقَضَا عَلَى مَا  
تُبْصِرُ الْعَيْنُ بُكْرَةً وَأَصِيلَا  
وَكَأَيْنَ فِي الْكَوْنِ مِنْ آيَةٍ إِنْ  
كُنْتَ تَبْغِي إِلَى الْيَقِينِ وَصُولَا  
كُلُّ مَا أَبْصَرْتُهُ عَيْنَاكَ لَيْلَا  
أَوْ نَهَارَا يُمَلِي عَلَيْكَ دَلِيلَا<sup>(٢)</sup>

وهكذا اتخذ الشيخ الغضنفر الشُّعْرَ وسيلة من وسائله التي ينافح بها عن الحق، ويرد من خلالها على المخالفين.

١- المرجع السابق ص ١٦٦.

٢- المرجع السابق ص ١٩٢.

**الفصل الثاني: أساليب الشيخ محمد الغنر في الرد على المخالفين**

وفيه: تمهيد وثلاثة مباحث:

تمهيد

المبحث الأول: أساليبه الأدبية

المبحث الثاني: أساليبه البيانية

المبحث الثالث: أساليبه المنهجية



### الفصل الثاني: أساليب الشيخ محمد الخضر في الرد على المخالفين

#### تمهيد

للشيخ محمد الخضر منهج متميز في الرد على المخالفين، وقد مر فيما مضى من فصول أن عبقريته الفذة تتجلى في ردوده على المخالفين. كما مر - أيضاً - إشارات عابرة مجملة عامة لذلك المنهج. والحديث في هذا الفصل سيتناول - على نحو مُفصّل - أساليبه في ذلك، وهي طُرُقُه التي اتبعها، وسار عليها في منازلاته، وردوده على المخالفين. وستتخلل ذلك بيانٌ لتلك الأساليب، وضربٌ للأمثلة التي تبين معالمها، وتزيدها إيضاحاً.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ذلك الصنيع يحتاج إلى مزيد تحرُّ، ودقة؛ وذلك لما بين مباحث هذا الفصل ومطالبه من التشابك، والتشابه، والاشتراك الذي يصعب معه فصلُ بعضها عن بعض؛ فقد يكون المثال، أو الشاهد، أو العنصر الأساس صالحاً لأن يدخل ضمن أكثر من مطلب أو مسألة.

ومهما يك من شيء فإن ذلك لا يمنع من الوقوف على تلك الأساليب التي يستبين مجموعها معالمُ ذلك المنهج الذي كانت عليه منازلات الشيخ، وردوده، وذلك من خلال المباحث التالية، وما تحتها من مطالب، ومسائل:

المبحث الأول: أساليبه الأدبية

المبحث الثاني: أساليبه البيانية

المبحث الثالث: أساليبه المنهجية

وسيوضح في كل مبحث ما يراد به، وما ينضوي تحته؛ فإلى تفصيل ذلك.

## المبحث الأول: أساليبه الأدبية

المقصود بالأساليب الأدبية ههنا: الطرق، والنظم التي ينبغي أن يسير عليها الرد من الآداب، والأخلاق التي ترقى به، وتقوده إلى الانضباط، وتأنى به عن السقوط. فإذا توافرت تلك الأساليب في الرد أَوْشَكَ أن يكون علمياً، نافعاً، مرتقياً بالعقول، والعلوم.

وإذا كانت الأخرى أشرف الرد على حضيض الإسفاف والمهاترة؛ فيكون سبباً لهبوط الأفكار، والعقول، والعلوم؛ فهذا هو المراد بالأساليب الأدبية في هذا المطلب. والشيخ محمد الخضر حسين من خير مَنْ يقوم بالردود، ويتمثل آداب الرد، ويأخذ بأخلاق المحاورة، والمناقشة، والنقد؛ فلا غرو - إذاً - أن كانت منازلته العقدية، والفكرية في الذروة والسنام، وأن كانت مرموقةً بعين التَّجَلَّة والاحترام؛ فلقد وطن نفسه في ردوده على آداب عظيمة تعد أصولاً في هذا الباب؛ فلا يكاد يستغني عنها من يقوم بتلك المهمة الخطيرة.

وكان ﷺ يلقي المحاضرات، ويكتب المقالات التي تشير إلى كثير من تلك الآداب، ثم هو في غضون منازلته يطبق ذلك عملياً، فيجمع بين النظرية والتطبيق، فيحاور مخالفه في أدب رفيع، وبراعة في الجدل، تكشف عن عقل متمرس في ميدان البحث، والمناظرة - كما يقول الدكتور محمد عمارة<sup>(١)</sup>.

مع أنه عاش في وقت شاعت فيه الردود والمعارك الفكرية والأدبية التي كانت في أغلبها - تجنح إلى المسابة، والمهاترة، والإقذاع.

وفيما يلي بسط لتلك الآداب التي كان الشيخ الخضر يأخذ بها في ردوده على المخالفين، وذلك من خلال المطلبين التاليين، وما يندرج تحتها:

١- انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٣٤٩.

## المطلب الأول: لزوم الإخلاص والأمانة والإنصاف

أولاً: إخلاص النية، وسلامة المقاصد في الردود: فذلك أعظم آداب الردود، وأهم مقومات نجاحها.

ويتجلى ذلك الأدب في البعد عن الأغراض الشخصية، وفي الرغبة في الوصول إلى الحق؛ فلا يريد صاحب الرد برده إظهار براعته، وإبراز مقدرته، وإفحام خصومه، ولفت الأنظار إليه، وما إلى ذلك من قوادح الإخلاص<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان الشيخ الخضر حسين في تقريره لهذا المعنى تنظيراً؛ حيث يقرر في مقالة له عنوانها (فضيلة الإخلاص)<sup>(٢)</sup> أن الإخلاص يرفع شأن الأعمال حتى تكون في مراقي الفلاح، وأن الإخلاص الذي يقوم على الإيمان الصادق، والتهديب الديني يسمو سلطانه على كل سلطان، ويبلغ أن يكون مبدأ راسخاً تصدر عنه الأعمال الصالحة بانتظام، ويقرر أن النفس التي تتحرر من رق الأهواء، ولا تسير إلا على ما يمليه عليها الإخلاص هي النفس المطمئنة بالإيمان، المؤدبة بحكمة الدين، ومواعظه الحسنة<sup>(٣)</sup>.

ويقرر في آخر مقالته أن الإخلاص يردع قلم الكاتب عن أن يقلب الحقائق،

١- انظر في ذلك: آداب البحث والمناظرة للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية القاهرة، ومكتبة العلم بجدة ص ٩٤، وأصول الحوار، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وحدة الدراسات والبحوث، ط ٣، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ص ٣٠، والحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة د. يحيى ززمي، دار المعالي، الدمام، ط ٣، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م، ص ١٣٩-١٤٠، وقواعد ومنطلقات في أصول الحوار ورد الشبهات، د. عبدالله الرحيلي، دار المسلم، الرياض، ط ١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م ص ٣٨-٣٩، وفقه الرد على المخالف د. خالد بن عثمان السبت، مركز المصادر للمعلومات للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، جدة، ط ١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ص ١٧١-٢٦٨، وآداب الخلاف د. صالح بن عبدالله بن حميد، مكتبة الضياء، ط ١، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

٢- انظر رسائل الإصلاح ص ٧٦-٨٠.

٣- انظر المرجع السابق ص ٧٨.

أو يكسوها لوناً غير لونها؛ إرضاءً لشخص، أو طائفة<sup>(١)</sup>.  
وكما قرر ذلك تنظيراً فكذلك سارت ردوده على هذا الفرار؛ إذ لم يكن يكتب الردود إرضاءً لأحد، أو طمعاً في جاه، أو مال، أو منصب.  
وإنما كان يكتبها؛ حسبةً لله، وبحثاً عن الحقيقة، وإعادة للحق إلى نصابه، ودفاعاً عن الإسلام، وعن سنة سيد الأنام -عليه أفضل الصلاة والسلام- وعن لغة القرآن، وعن عظماء الأمة، وعن شعوبها من أن تَمَسَّها لفحةٌ من ضيم، أو خسف من هوان؛ هكذا يُحَسَّبُ والله حسيبه.

ولا أدل على ذلك من كونه -كما مر عند الحديث عن شجاعته- رجلاً غريباً في مصر، وحيداً ليس له أشياغٌ، أو أقارب، وكونه -مع ذلك- قليل ذات اليد.  
ثم تراه يناطح أساطين الفكر، ومن لهم قيمة، ووجاهة، كالشيخ علي عبدالرازق، والدكتور طه حسين، والشيخ محمود شلتوت، والأستاذ محمد فريد وجدي، والأستاذ عبدالمتعال الصعيدي؛ فيواجههم بالبينة، ويفلجهم بالحجة، غير هيب، ولا وجل.

بل يقود تلك المعارك الضارية التي تُصَوَّرُ -بحق- أعتى المعارك الفكرية والأدبية في ذلك العصر؛ فلا يكاد أحد يصمد في وجهه، أو يقف أمام بيانه، وقوة حجته<sup>(٢)</sup>.  
بل إن مما يدل على إخلاصه، ونزاهته، وطهارة ساحته أن علاقته الحميمة بأسرة آل عبدالرازق لم تمنعه -وهو الغريب- من الرد على علي عبدالرازق لما طَبَعَ كتابه (الإسلام وأصول الحكم) أو تجعله يجامل فيه.  
بل ضحى بتلك العلاقة في سبيل إحقاق الحق.

ولقد كان لذلك الشأن قصة عجيبة يرويها الشيخ محب الدين الخطيب صديق الشيخ الخضر؛ حيث يقول: «كان السيد محمد الخضر صديقاً حميماً لآل عبدالرازق

١- انظر المرجع السابق ص ٨٠.

٢- انظر كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين ص ٦٧.

ويزورهم ، ويسر بلقائهم.

فلما كاد الكتاب<sup>(١)</sup> ينتهي طبعه ، وكان لا يعرف مذهب مؤلفه فيه طلبوا منه أن يمدهم بعناوين كبار العالم العربي والإسلامي؛ ليهدوا الكتاب إليهم ، فطلب الشيخ هذه العناوين مني ، وكتبت له بها قائمة طويلة ، ثم صدر الكتاب ، وأهدوا نسخة منه إلى الشيخ ، ونسخة أخرى لمجلة (الزهراء) التي كنتُ أصدرها؛ فراعنا من الكتاب أنه ينكر كون الإسلام دينَ حكم ، فانتقدته أنا في (مجلة الزهراء) وكتب الشيخ علي مقالة افتتاحية في جريدة (السياسة) يجيب بها على نقدي ، وتفرغ فقيدنا لنقد الكتاب فقرةً فقرةً ، وفي أقرب وقت صدر كتاب (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) وفي شهر واحد نفذت طبعته؛ لشدة الإقبال عليها<sup>(٢)</sup>.

وهذا مما يدل على إخلاص الشيخ الخضر ، وإيثاره الحقَّ على الخلق؛ إذ لم يمنعه وجاهة أولئك ، وحظوته عندهم من نقض الكتاب ، وتفنيده .  
ومما يدلُّك على إخلاصه أنه - وإن كانت عبقريته الفذة كما مر تتجلى في الردود - لم يكن محباً لها ، ولا مولعاً بها ، ولا مقدماً لها على غيرها .  
بل كان كارهاً لها ، ويرى أنه مضطر إليها حين يُقدِّم عليها .

قال ﷺ في معرض رد له على مقالة عنوانها (ضلالة فصل الدين من السياسة): «ونود - والله يعلم- أن نُقبل على شأننا ، ونمضي في سبيلنا ، وليس في فطرتنا الولوع بأن نفند لكاتب رأياً ، أو نبطل لباحث قولاً .  
ولكن القوم أصبحوا يتساقطون على طمس معالم الحقيقة والفضيلة تساقطَ الفراش على السراج ، والسكوتُ عنهم تفریط في جنب الله ، ومن فرط في جنب الله خسر الدنيا قبل الآخرة»<sup>(٣)</sup>.

١- يعني كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبدالرازق .

٢- محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر ص ٥٧ .

٣- رسائل الإصلاح ص ١٨٧ .

وقال في مقدمة محاضرة (العظمة) التي رد بها علي علي عبدالرازق: «نود من صميم أفئدتنا أن نفرغ بأقلامنا ومحاضراتنا للعمل على رقي شعوبنا، وإصلاح شؤوننا، ونود من صميم أفئدتنا أن نقضي صباحنا ومساءنا في البحث عن وسائل خلاصنا من أذى السلطة الغربية عن أوطاننا.

ولكن نفرأ جلسوا على رأس الفتنة وهي نائمة، وجلسوا يهمزونها بنزق وغرور. ولو صرفنا النظر عن ناحيتهم، وتركنا جبلهم على غاربهم - لهبطوا بكثير من شبابنا في خسار يهتز له قلب عدوهم شماتاً وفرحاً.

والنفوس التي تتزحج عن الإيمان قيد شعرة تبعد عن مراقبي الفلاح سبعين خريفاً. فلا بد -إذن- من أن نكون على مراقبة من دعايتهم، وننفق ساعات في التنبيه على أغلاطهم؛ لعلهم ينصاعون إلى رشدهم، أو لعل الأمة تحذر عاقبة هذا الذي يبدو على أفواههم»<sup>(١)</sup>.

فهذا شيء مما يؤكد إخلاصه، وسيأتي مزيد بيان لذلك في الفقرات التالية. ثانياً: الأمانة العلمية: فهذه الخصلة من أعظم الأساليب، وأمضى الأسلحة لكل من يريد الكتابة أو الحديث في أي شأن من شؤون العلم، أو التاريخ، أو الأدب، أو نحو ذلك.

ولا ريب أن الناقد، أو المعقب، أو المحاور أولى من يتمثل ذلك الأدب السامي الذي يرفع صاحبه درجات؛ إذ مقام الرد والتعقيب والحوار يعتره ما يعتره من الآفات التي تنشأ عن حظ النفس، وحب الغلبة؛ فيقودهما ذلك -أحياناً- إلى التفريط بأمانة العلم.

فإذا كان الإنسان متمثلاً ذلك الخلق أبت له أمانته أن يفرط بشيء من ذلك كثر أو قل. والشيخ الخضر قد قرر ذلك المعنى أيما تقرير؛ فقد أوضح في مقالة له عنوانها (الأمانة في العلم) أن فلاح الأمة في صلاح أعمالها، وأن صلاح أعمالها في صحة

علومها ، وصحة علومها في أن يكون رجالها أمناء فيما يروون أو يصفون؛ فمن تحدث في العلم بغير أمانة فقد مسَّ العلم بقرحة ، ووضع في سبيل فلاح الأمة حجر عثرة<sup>(١)</sup>.

كما تعرض لبعض الطوائف المنتمية إلى العلوم ممن فرط في هذا الجانب ، ممن لا يتخرجون أن يرووا ما لم يسمعوا ، أو يصفوا ما لم يعلموا.  
وقرر أن الأمانة زينة العلم التي تجعله زاكي الثمر ، لذيد المطعم ، وأنك إذا قلبت النظر في تراجم رجال العلم رأيت بين العالم الأمين وقرينه غير الأمين بونا شاسعاً؛ ترى الأول في مكانة محفوفة بالوقار ، وانتفاع الناس منه في ازدياد. وترى الثاني في منزلة صاغرة ، ونفوس طلاب العلم منصرفة عن الأخذ عنه أو متباطئة.

ثم يذكر نماذج من التاريخ على من يتمثل الأمانة ، ومن يفرط فيها<sup>(٢)</sup>.  
ويواصل كلامه على الأمانة ، فيقول: «قد يقع الرجل في حال يرى أن الاعتراف فيه بالجهل يذهب بشيء من احترام سائليه له ، فيقف بين داعيين: فضيلة الأمانة تدعوه إلى أن يقول: (لا أدري) وحرصه على أن يبقى احترامه في نفوس سائليه غير منقوص يدعوه إلى أن يستمد من غير الحقيقة جواباً.  
وفي مثل هذا الحال يظهر مقدار صلة العالم بمزية الأمانة؛ فإن كان راسخاً فيها رسوخ الجبل تشتد به العواصف ، فلا تزحزحه قيد شعرة - أجاب داعيها ، واستيقن أن الاحترام الحق في الوقوف عند حدودها.  
وإن كانت الأمانة كلمة يقولها بفمه ، ويسمعها بأذنه ، دون أن تتخلل مسلك الروح منه - آثر لذة الاحترام في ذلك المشهد ، وأجاب بما ليس له به علم»<sup>(٣)</sup>.

١- انظر رسائل الإصلاح ص ٨١ .

٢- انظر رسائل الإصلاح ص ٨٤ .

٣- المرجع السابق ص ٨٥ .

ويقول -أيضاً-: «وإذا أبديت في العلم رأياً، ثم أراك الدليل القاطع أو الراجح أن الحق في غير ما أبديت - فمقتضى الأمانة أن تصدع بما استبان لك أنه الحق، ولا يمنعك من الجهر به أن تُنسب إلى سوء النظر فيما رأيته سالفاً؛ فما أنت إلا بشر؛ وما كان لبشر أن يبرئ نفسه من الخطأ، ويدعي أنه لم يقل ولن يقول في حياته إلا صواباً.

والأمانة هي التي كانت تحمل كبار أهل العلم على أن يعلنوا في الناس رجوعهم عن كثير من آراء علمية، أو اجتهادات دينية تبينوا أنهم لم يقولوا فيها قولاً سديداً»<sup>(١)</sup>.

ثم يقرر أن هذه الفضيلة موجودة في الأئمة المقتدى بهم، كأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، ويذكر بعد ذلك نماذج على الرجوع إلى الحق بعد أن تبين<sup>(٢)</sup>.

ثم يقرر أنواعاً من الأمانة، فيذكر منها: الرجوع إلى الحق، وأنه كمال لا تحرص عليه إلا نفوس دُلَّت لها سبل المكارم تذكلياً. ومنها: أن تتقَدَّ الآراء؛ فلا تغمض فيما تراه باطلاً وإن كان بينك وبين صاحبه صلة الصداقة أو القرى.

ثم يواصل حديثه الماتع عن الأمانة بما يعزُّ أن تجده في غير ذلك الموضوع<sup>(٣)</sup>. ولئن كان يقرر ذلك الأدب العظيم في كتاباته ومحاضراته فإنه كان يتمثله في ردوده ومنازلاته؛ حيث سارت على هذا النحو؛ فلقد كان يرعى الأمانة في ذلك حق رعايتها.

ومن أعظم مظاهر الأمانة عنده الثبوت؛ فلقد كان يراعي في ردوده الحقائق

١- المرجع السابق ص ٨٦.

٢- انظر المرجع السابق ص ٨٦-٨٩.

٣- انظر المرجع السابق ص ٨٩-٩١.

الثابتة، والأدلة الصريحة الواضحة التي تقوم على الصدق، واليقين لا على مجرد الأوهام والظنون.

وهذا ما شهد له به خصومه، ولم يوجد منهم من يرميه بقله الثبوت.

وقد مر في الباب الأول شيء من ذلك كما في قول طه حسين للعلامة محمد الفاضل بن عاشور: «إن رد الشيخ الخضر من أهم الردود، وأشدّها حجة»<sup>(١)</sup>. فقد كان ﷺ مُثَبِّتاً في بحوثه، مُثَبِّتاً في نقله، مُثَبِّتاً في نقده؛ فلم يكن يكتفي بمجرد السماع أو الظن، أو ما يدور في الساحة؛ لكي ينبري للرد، بل كان لا يعتمد إلا على التيقن، والتأكد مما يقال أو يطرح.

ومن الأمثلة على تثبته: قوله في مقدمة رده على الدكتور محمد أحمد خلف في كتابه (الفن القصصي في القرآن): «قدم أحد طلاب الجامعة المصرية رسالة موضوعها: (الفن القصصي في القرآن) لينال بها لقب: (دكتور) وقد تناولت الصحف الحديث عن هذه الرسالة، ودارت مناقشات حادة، هذا يعدّها من قبيل الإلحاد في آيات الله، وذاك يقف بجانبها، ويناضل عنها مناضلة الراضي عن آرائها. ووقف بعض الشبان بين هؤلاء يتعرفون وجه الحق فيما يتناظر فيه الفريقان»<sup>(٢)</sup>. ثم يقول: «وكنا ننتظر أن تقع الرسالة في أيدينا؛ لنلقي عليها نظرة فاحصة، حتى اطلعنا في (مجلة الرسالة) على نص التقرير الذي بعث به إلى عميد كلية الآداب أحد أعضاء اللجنة التي أُلِّفَتْ لفحص الرسالة، وهو الأستاذ أحمد أمين، ثم اطلعنا في (جريدة أخبار اليوم) على مقال لأستاذ من أعضاء هذه اللجنة -أيضاً- يعلن فيه: أنه راضٍ عما تضمنته الرسالة، وأنه هو الواضع للمنهج الذي تقدم عليه كاتب الرسالة لدرس القرآن، ثم اطلعنا في (مجلة الرسالة) على مقال لكاتب الرسالة ساق فيه نصوصاً لبعض المفسرين والأصوليين، وأخرى للشيخ محمد

١- نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٤.

٢- بلاغة القرآن ص ١٢٠.

عبده، والشيخ رشيد رضا؛ بدعوى أن هذه النصوص تشد عضده، وتجعل ما كتبه حقيقةً مُعترفًا بها من قبل»<sup>(١)</sup>.

ثم يقول الشيخ الخضر بعد ذلك: «ولما تجمع لديّ تقرير الأستاذ أحمد أمين، وما كتبه الأستاذ الراضي عما كتب في الرسالة، بل المُوجّه لصاحبها إلى ما وضع، ثم ما نشره كاتب الرسالة نفسه من بعد - رأيت أن أكتب كلمة على حسب ما اطلعت عليه في الصحف، وفيما اطلعت عليه الكفاية»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا ترى كيف تأنى في الرد؛ فلم يبدأ به إلا بعد أن تأكد تماماً من صحة ما نسب إلى الكاتب، ومن وجود ما يستوجب الرد.

ومن الأمثلة على تثبته في ذلك أنه اختار لنفسه طريقة في مناقشة ما يبدو له أنه جدير بالمناقشة، فينقل عبارات الردود عليه بأعيانها؛ ليسير - كما يقول - هو والقارئ في النقد جنباً إلى جنب، ولا يظلم صاحب المقال، ولا يظلم الحق والعلم. يقول ذلك في رده على الشيخ شلتوت في كتابه (الهجرة وشخصيات الرسول)<sup>(٣)</sup>.

ويقول في رده على طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي): «وقد رأيت ألا أنقد فقرة إلا بعد أن أنقلها بحروفها، وأحكيها كما صدرت من منشئها»<sup>(٤)</sup>.

وهكذا كان صنيعه في سائر ردوده على طه حسين، وعلي عبد الرازق، وغيرهما. ثالثاً: لزوم الإنصاف: فذلك من أعظم مقومات الردود، وأفضل ما يتسم به الإنسان عموماً، والمحاور الناقد على وجه الخصوص؛ إذ الإنصاف دليل الإخلاص، والأمانة، والصدق، والتجرد، والرغبة في الوصول إلى الحق.

ويتجلى ذلك الخلق العظيم مع الخصم: في الحذر من ظلمه، والحرص على التماس المعاذير له، والبعد عن إلزامه ما لا يلزم.

١- المرجع السابق ص ١٢١ .

٢- المرجع السابق ص ١٢١ .

٣- انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٢٢٨ .

٤- نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢ .

ويتجلى - كذلك - في الحذر من التزوير، وقلب الحقائق، وبتري النصوص، وتحريفها إلى غير ذلك فيما هو داخل في ذلك الأدب الراقي.

ولا يُفَرِّطُ في هذا الأدب في الرد إلا صاحب هوى وبدعة<sup>(١)</sup>.

والشيخ الخضر قد أشاد بالإنصاف، وأبرز معالمه، وحذّر من الظلم والاعتساف، وذلك في كثير من مقالاته، ومحاضراته، وكتبه.

ولعل أجلى ما قرر به ذلك بحثه المُعْتَوْن بـ: (الإنصاف الأدبي) حيث أوضح معنى الإنصاف الأدبي، وضرب له أمثلة، فأبان أنه الإقرار للناس بالصواب، والاعتراف بخصال الحمد، ويقابل ذلك: العناد، وهو جحود الحق، ورده مع العلم بأنه حق.

ويقرر أن الإنصاف الأدبي من الخصال التي لا ترسخ إلا في نفس نبتت في بيئة صالحة، وارتضعت من ثدي التربية الصحيحة لبناً خالصاً.

وأن الجماعة التي تفقد هذا الخلق تفقد جانباً عظيماً من أسباب السعادة، ويدخلها الوهن بعد الوهن حتى تتفرق أيدي سبأ<sup>(٢)</sup>.

ويرى أن «من أراد أن يطبع ناشئاً على خلق الإنصاف نَقَبَ على عِلَّتِي الحسد، والغلو في حب الذات؛ فإن وجد لهما في نفس الناشئ أثراً - راوضه بالحكمة، والموعظة الحسنة؛ حتى يتهيأ الناشئ لأن يكون على هذا الخلق العظيم»<sup>(٣)</sup>.

ثم بيّن السبل التي تعين على علاج هذين الخلقين: الحسد، والغلو في حب الذات.

١- انظر: تحريف النصوص من مأخذ أهل الأهواء في الاستدلال د. بكر بن عبدالله أبو زيد، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤١٢هـ.

٢- انظر رسائل الإصلاح ص ١٠٤-١٠٥، ومعنى أيدي سبأ: كناية عن التفرق، والتلاشي إشارة إلى سبأ التي قصَّ الله علينا خبرها في القرآن، فصارت مثلاً يضرب للتفرق بعد الاجتماع، كما قال ذو الرمة:

فيا لئلك من دار تشرق أهلها أيادي سبأ فيها وطال انتظارها

انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤٧/٢٢-١٧٩.

٣- رسائل الإصلاح ص ١٠٥.

وانتقل بعد ذلك إلى التحذير من قلة الإنصاف، وبيان آثاره الوخيمة، كالتباعد، والتقاطع، وإسقاط الاحترام.

ويُبين مقابل ذلك فضائل الإنصاف، وأنه يرفع من قيمة الإنسان، ويدل على صفاء سريره، ونقاها من دنس الحسد، والغلو في حب الذات<sup>(١)</sup>.

ويقرر -أيضاً- أن قلة الإنصاف تحول بين الرجل وبين أن يزداد علماً، وأن من لم تنصفه من أهل العلم وجد في نفسه مثبّطاً من أن يسرع إلى إفادتك، أو يفيض القول في مذاكرتك.

ويرى أن قلة الإنصاف تُحدِّث في العلم فساداً كبيراً؛ ذلك لأن من لا يقدر الإنصاف قدره قد يرى بعض الآراء الصحيحة قد صدرت من شخص لا يرتاح لأن تكون قد صدرت منه؛ فيقابلها بالرد والإنكار، وقد تكون له براعة بيان؛ فيصرفها في تشويه وجه الحق، وهو يعلم أنه حق؛ فيظهر الجهل على العلم، ولو في فئة قليلة، أو دائرة صغيرة<sup>(٢)</sup>.

ويزيد الأمر وضوحاً فيقول: «قلة الإنصاف تخذل العلم، وتطمس شيئاً من معالمه، والإنصاف يؤيد العلم، ويجعل موارده صافية سائغة.

ولو أخذ الإنصاف حظه من نفوس جميع الباحثين عن الحقائق - لقلَّت مسائل الخلاف في كل علم؛ فيكون حفظ العلوم أيسر، ومدة دراستها والرسوخ فيها أقصر»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا يواصل حديثه الماتع عن الإنصاف، فينعي على التعصب المذهبي، ويضرب الأمثلة على الإنصاف، ثم يعطِف الحديث على إنصاف البعيد، والقريب، وإنصاف الإنسان خصمه، أو قرينه، أو من هو أصغر سناً منه، وأن

١- انظر المرجع السابق ص ١٠٧.

٢- انظر المرجع السابق ص ١٠٨-١٠٩.

٣- المرجع السابق ص ١٠٩.

الناس يتفاضلون في خصلة الإنصاف حسب أنصبتهم من إنصاف غيرهم. وأخيراً يقرر أن التاريخ قد « ينقل شذرات من حوادث المنصفين لمن خالفهم في أمر، أو المعترفين لبعض خصومهم بفضيلة، فتهتز في نفوس قرائها عاطفة احترام لمن أقر بالخطأ، أو اعترف لخصمه بخصلة حمد.

وربما كان إكبارهم لمن أقر بالخطأ فوق إكبارهم لمن خالفه في الرأي فأصاب. وربما كان إكبارهم لمن شهد لخصمه بمكرمة فوق إكبارهم للشخص المشهود له بتلك المكرمة.

وسبب هذا الإكبار: عظمة الإنصاف، وعزّة من يأخذ نفسه بها في كل حال»<sup>(١)</sup>.

ثم يختم كلامه محذراً من ترك الإنصاف حتى في حال عدم إنصاف غيرك لك، فيقول: «وإذا لم ينصفك الرجل، فردّ عليك الحق بالشمال واليمين، أو جحد جانباً من فضلك وهو يراه رأي العين - فلا تكن قلةً إنصافه حاملة لك على أن تقابله بالعناد؛ فتردّ عليه حقاً، أو تجحد له فضلاً، واحترس من أن تسري لك من خصومك عدوى هذا الخلق المقوت؛ فيلجّ في نفسك، وينشط له لسانك أو قلمك، وأنت تحسبه من محاربة الخصوم بمثل سلاحهم.

كلا، لا يحارب الرجل خصومه المبطلين بمثل الاعتصام بالفضيلة، ولا سيما فضيلة كفضيلة الإنصاف تدل على نفس مطمئنة، ونظر في العواقب بعيد. ومن وجد في خصمه فضائل حصر محاربتة في الأمر الذي هو منشأ للخصومة؛ وترك تلك الفضائل قارةً في مكانها، بادية لمن أراد أن يقتدي بها»<sup>(٢)</sup>.

فهذا هو تقريره النظري للإنصاف؛ تقريرٌ رائعٌ؛ فهل كان ذلك دأبه في ردوده، ومنازلاته الفكرية؟

١- المرجع السابق ص ١١٤ .

٢- المرجع السابق ص ١١٤-١١٥ .

والحقيقة أن المطلع على تلك الردود والمنازلات لا يسعه إلا أن يُسلم بأنها كانت صورة لما كان يقرره، وينظر له؛ فقد كان يلزم العدل، والإنصاف في ردوده. وقد شهد له بذلك كل من اطلع على تلك الردود -بعده وإنصاف..- وقد مرت إشارات من ذلك القبيل فيما مضى، وإليك فيما يلي مزيد بيان لمظاهر عدله وإنصافه مع المخالفين:

١. تحري الصدق، والأمانة في النقل: فما كان يتزيد على الخصم، ولا يقوله ما لم يقله، ولا يأتي بكلامه مبتوراً.

وإنما ينقل ما يريد نقده بحروفه، وإن نقله بمعناه لم يخل بشيء من ذلك -كما مضى التمثيل على ذلك في الفقرة الماضية عند الحديث عن أمانته العلمية..-

وهذا ظاهر في جميع ردوده، ومن الأمثلة على ذلك -زيادة على ما مضى- قوله في مقدمة رده على علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم): «وطريقتنا في النقد أن نضع في صدر كل باب ملخصاً ما تناوله المؤلف من أمهات المباحث، ثم نعود إلى ما نراه مستحقاً للمناقشة من دعوى أو شبهة، فنحكي ألفاظه بعينها، ونتبعها بما يزيح لبسها، أو يحل لغزها، أو يجتثها من منبتها.

وتخبرنا هذا الأسلوب؛ لتكون هذه الصحف قائمة بنفسها، ويسهل على القارئ تحقيق البحث، وفهم ما تدور عليه المناقشة، ولو لم تكن بين يديه نسخة من هذا الكتاب المطروح على بساط النقد والمناظرة»<sup>(١)</sup>.

وهكذا سار على هذا النحو إلى نهاية الكتاب، وهكذا كان صنيعه في بقية ردوده.

٢. إحسان الظن بالمخالف: فقد كان ﷺ يحسن الظن بالمخالفين، خصوصاً من أهل العلم ممن لهم فضل، وسابقة، حتى ولو كان بينه وبينهم خلاف حول بعض المسائل.

ومن الأمثلة على ذلك: ما جاء في خطابه المفتوح للشيخ محمد رشيد رضا، والمعنون بـ: (خطاب مفتوح إلى الأستاذ السيد محمد رشيد رضا).

وهذا الخطاب ردّ به الشيخ الخضر على الشيخ رشيد رضا الذي كتب قبل ذلك مقالاً تعرض فيه لمجلة (الهداية الإسلامية) وصاحبها، وأسرف ﷺ في النقد، وقسى في العبارة.

والكلام يطول في هذه القضية، وهي ما كان بين الشيخين من الخلاف<sup>(١)</sup>، وسيأتي مزيد حديث عنه.

والذي يعني ههنا إحسان الشيخ الخضر الظنّ بالشيخ رشيد رضا؛ حيث قال في نهاية الخطاب: «هذا وظننا في الأستاذ أنه يتقد في إخلاص، ويتلقى الجواب في سكينه وإنصاف، وسلام عليك يوم تقرظ، ويوم تنقد، ويوم تكون للحق ولياً»<sup>(٢)</sup>.

كما كان يحسن الظن بمن لهم سابقة وفضل، أو ممن لم يصدر منهم شيء يخالف الشريعة من قبل، وذلك كما في صنيعه مع كتاب (الإسلام وأصول الحكم) فقد كان يحسن الظن بمؤلفه؛ إذ كان الشيخ علي عبدالرازق معدوداً قبل كتابه الآنف الذكر- في زمرة العلماء والقضاة.

فلما خرج كتابه المذكور لم يدُر في خلد الشيخ الخضر أنه مشتمل على الباطل والزيف؛ لذا كان يسعى جاهداً لنشره - كما مر-.

ولما بدأ بقراءته لم يبادر إلى إساءة الظن؛ بل كان محسناً الظن بالكتاب، وبصاحبه، حتى تبين له ما تبين مما يرمي إليه الكتاب؛ فكان له -بعد ذلك- شأن آخر.

يقول الشيخ الخضر في مقدمة كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم): «وقع في يدي كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبد الرازق، فأخذت أقرؤه قراءة من يتغاضى عن صفائر الهفوات، ويدراً تزييف الأقوال بالشبهات.

وكنت أمر في صحائفه الأولى على كلمات ترمز إلى غير هدى، فأقول: إن في اللغة كناية ومجازاً، ومعميات وألغازاً؛ ولعلها شغفتها حباً حتى تخطى بها المقامات الأدبية إلى المباحث العلمية.

١- انظر تفصيل ذلك في: من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين -رسائل الخضر- ص ٨٤-٩٦.

٢- المرجع السابق ص ٩٠.

وما نُسبتُ أن جعلت المعاني الجامحة عن سواء السبيل تبرح عن خفاء،  
وتناديها قوانين المنطق، فلا تعباً بالنداء.

وكنت - بالرغم من كثرة بوارحها- أصبر نفسي على حسن الظن بمصنفها، وأرجو  
أن يكون الغرض الذي جاهد في سبيله عشر سنين حكمة بالغة، وإن خانه النظر،  
فأخطأ مقدماتها الصادقة.

وما برحت أنتقل من حقيقة وضآءة ينكرها، إلى مزية مجاهد خطير يكتمها،  
حتى أشرفت على خاتمته، وبرزت نتائجه، وهي أشبه بمقدماته من الماء بالماء،  
أو الغراب بالغراب»<sup>(١)</sup>.

هكذا تراه يحسن الظن بالشيخ علي عبدالرازق؛ لأنه كان من أهل العلم، ولم  
يكن معروفاً قبل ذلك بشيء من تلك المباحث التي أطلقها، وخالف بها جمهور  
المسلمين.

وهكذا كان صنيعه مع الأستاذ فريد وجدي في رده عليه المعنون بـ: (نقد آراء  
الأستاذ فريد وجدي من الناحية الدينية والاجتماعية)<sup>(٢)</sup> حيث أحسن الظن به،  
واعترف له بسابقته - كما سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن أساليبه البيانية..

بخلاف طه حسين؛ فإن الشيخ الخضر كان عالماً بمنهجه قبل رده عليه؛ فلم يكن  
إحسانه الظن به كإحسانه الظن بعلي عبدالرازق وفريد وجدي؛ لذا تراه يقول في  
مقدمة كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي): «وقع تحت نظري هذا الكتاب، وكنت  
على خبرة من حذق مؤلفه في فن التهكم - ولو بالقمر إذا اتسق - والتشكيك - ولو في  
مطلع الشمس الضاربة بأشعتها في كل واد - فأخذت أقرؤه بنظر يزيح القشر عن لبابه،  
وينفذ من صريح اللفظ إلى لحن خطابه، وما نفضت يدي من مطالعة فصوله حتى  
رأيتها شديدة الحاجة إلى قلم ينبه على علاقتها، ويرد كل بضاعة على مستحقيها.

١- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٨.

٢- انظر محاضرات إسلامية ص ٢٠.

وما هو إلا أن نذبت القلم لقضاء هذا المأرب، وسداد هذا العوز، فلم يتعاص عليّ<sup>(١)</sup>.

٣. قبول الحق من المخالف: فهذا من أمارات عدله، وإنصافه؛ إذ كثيراً ما يؤيد، أو يستشهد، أو يثني على كلام لأحد المخالفين له في المنهج، أو الدين إذا كان موافقاً للحق في أي شأن من الشؤون، حتى ولو كان ممن يخالفونه في الملة، كالنصارى، وبعض المستشرقين.

ولا ريب أن قبول الحق من المخالف أياً كان - أصل عظيم من أصول العدل والقسط. ونصوص الوحيين حافلة بتأييد هذا الأصل العظيم<sup>(٢)</sup>.

وهو ما يؤكد علماء الملة؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «وأمرنا بالعدل والقسط؛ فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني، فضلاً عن الرافضي قولاً فيه حق أن نتركه، أو نرده كله.

بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق»<sup>(٣)</sup>.

ومن الأمثلة على ذلك إنصافه جورج زيدان، وقبوله الحق منه؛ فمن المعلوم أن جورج زيدان مؤلف وباحث نصراني، له أبحاث وكتب في اللغة والأدب، والتواريخ والأديان وغيرها.

والشيخ الخضر يخالفه في أصل الدين، ويخالفه في بعض ما ذهب إليه في بعض أبحاثه، كما في تقريره أن أكثر ما وصل إلينا مما خلفه العرب من أخبارهم وآدابهم لا يخلو من التمثيل، وأنه - كما يقول جورج - وصل إلينا في قالب القصص والحقائق التاريخية، لكن أكثره موضوع، أو كان له أصل، فوسَّعه، وطوَّله؛

١- نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٠.

٢- انظر فقه الائتلاف، قواعد التعامل مع المخالفين بالإنصاف، محمود محمد الخزندار، مراجعة وتعليق الشيخ علي خشان، دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٤٢١هـ، ص ٩٨-١٠٢.

٣- منهاج السنة النبوية ٣/٣٤٣.

ليكون عبرة، أو قدوة في الموقف المطلوب<sup>(١)</sup>.

ويخطئه الشيخ الخضر - كذلك - في نحو تقريره أن العرب قد بالغوا في القبائل البائدة، مثل: عاد، وثمود، حتى سبق إلى أذهان المحققين - كما يقول - أنها موضوعة، وأنه لولا ورودها في القرآن، والحديث لقال المسلمون ذلك - أيضاً<sup>(٢)</sup>.

وإزاء هذه المواقف من جورجي زيدان، وتخطئته له - فإن الشيخ الخضر لا يستكف من التسليم لجورجي زيدان فيما أصاب فيه.

ومن ذلك ما جاء في معرض رده على طه حسين في كتابه (الشعر الجاهلي) حين ادعى طه أن الشعر الجاهلي خالٍ من الشعر الديني<sup>(٣)</sup>.

قال الشيخ الخضر: «هذه الشبهة مما استلبه المؤلف من مقال (مرغليوث) حيث يقول: (تجد في هذه الأشعار ما يبعث على الدهشة؛ فشعراء كل أمة يشرحون دينهم وعقائدهم شرحاً واضحاً، والمخطوطات العربية مملوءة بذلك، ففي كل مخطوطة نجد اسم معبود أو أكثر، وأشياء تتعلق بعباداتهم... وقلما نعثر في هذه الأشعار على شيء يتعلق بالدين إلا نادراً)»<sup>(٤)</sup>.

ثم قال الشيخ بعد ذلك: «وقد تعرض جورجي زيدان في (تاريخ آداب اللغة العربية) إلى هذه الشبهة وما يدفعها، فقال: (أما العرب، فيخالفون العبرانيين من حيث الشعر الديني؛ لأنه لم يكن عندهم في الجاهلية كما كان عند العبرانيين، ولا يعقل أنهم خالفوا إخوانهم فيه، ولا بد أنهم نظموا الأشعار، وخاطبوا بها هبل واللات والعزى وغيرها، واستعطفوها، وصلّوا إليها، وتخشعوا لها، ولكن منظوماتهم في هذا الموضوع ضاعت في ثنايا الأجيال؛ لعدم تدوينها، ولاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب التي قامت بينهم قبل الإسلام.

١- انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٩٩.

٢- انظر العرب قبل الإسلام لجورجي زيدان ٤٤/٢.

٣- انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٦٧.

٤- انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٦٧.

فلما جاء الإسلام، أغضى الرواة عنها؛ لأنها وثنية، والإسلام يحو ما كان قبله»<sup>(١)</sup>.

وقال في موضع آخر في معرض رده على طه حسين: «يبخس المؤلف قيمة الشعر الجاهلي، ويريد أن يجعله مثال الجهل والغباوة والخشونة، وهذا جورجي زيدان - وهو عربي لا يقل في تذوق الشعر عن هذا المؤلف - قد عرف كيف يستدل بهذا الشعر على أن العرب لم يكونوا أصحاب جهالة وهمجية»<sup>(٢)</sup>.  
ثم نقل كلاماً لجورجي زيدان في هذا السياق من كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية)<sup>(٣)</sup>.

وهناك مواضع قريبة مما ذكر في حاله مع جورجي زيدان؛ حيث بين أنه أصبر في البحث من طه حسين، وأعرف بحال الشرق من مرجليوث<sup>(٤)</sup>.  
كما أيده في بعض آرائه، كما في قوله: «وقال جورجي زيدان: (إن العرب أصبحوا بعد الإسلام غير ما كانوا عليه قبله - كانوا قبائل مشتتة مبعثرة، فأصبحوا أمة واحدة بقلب رجل واحد).

وذكر أسباباً أخرى من جملتها: اعتقادهم بالقضاء والقدر، وعدل المسلمين ورفقهم وزهدهم، ثم قال: (وكان لتلك المناقب تأثير عظيم، ومن هذا القبيل التسوية بين طبقات الناس رفيعهم ووضيعهم).

وعطف على هذا استبقاء الناس على أحوالهم.  
وقال: (كان العرب إذا فتحوا بلداً، أقرؤا أهله على ما كانوا عليه من قبل، لا يتعرضون لهم في شيء من دينهم أو معاملاتهم، أو أحكامهم المدنية أو

١ - المرجع السابق .

٢ - المرجع السابق ص ٧٢ .

٣ - انظر تاريخ آداب العربية لجورجي زيدان ٢٩/٢ .

٤ - انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٥٧ .

القضائية، أو سائر أحوالهم»<sup>(١)</sup>.  
 وقل مثل ذلك في موافقه مع المستشرقين مثل إدوارد براونلش؛ حيث نقل عنه،  
 وأيده في ردوده على مرجليوث<sup>(٢)</sup>.  
 كما نقل عن تشارلس ليال، وأيده في ردوده على مرجليوث<sup>(٣)</sup>.  
 ولو ذُكرت أقواله في ذلك لطال المقام، والمراد هنا التمثيل على عدله، وإنصافه،  
 وقبوله الحق حتى من المخالف.

١- المرجع السابق ص ١٦٩ .

٢- انظر المرجع السابق ص ٧٣ و١٣١ و ٢٦٢ .

٣- انظر المرجع السابق ص ١٣٠ و١٣١ و ٢٦٣ .

المطلب الثاني: طهارة المنطق، ونزاهة القلم، ومقابلة الإساءة بالإحسان أولاً: طهارة المنطق، ونزاهة القلم: فالناظر في ردود الشيخ الخضر على اختلاف الردود عليهم يلحظ هذا الأدب العالي؛ فلا تجد في ردوده، بل سائر كلامه عبارةً سفه، أو لفظةً فحش، أو انحداراً في سباب.

بل تجد المنطق الطاهر، والقلم النزيه، والترفع عن كل ما يشين. بل إنه نفسه ليُكَبَّر من تحلى بهذا الأدب الجميل، وينعى على من فقده، ويقرر ذلك قائلاً: «كبير الهمة في العلم يريد أن يكون النفع بعلمه أشمل، ومما يدرك به هذا الغرض: احترامه لآراء أهل العلم.

ولا نعني باحترامها: أخذها بالقبول والتسليم على أي حال، وإنما نريد: نقدها بثبت، وعرضها على قانون البحث، ثم الفصل فيها من غير تطاول عليها، ولا انحراف عن سبيل الأدب في تنفيذها.

والفطر السليمة، والنفوس الزاكية، لا تجد من الإقبال على حديث من يستخفه الغرور بما عنده مثلما تجد من الإقبال على حديث من أحسن الدرس أدبه، وهذب الأدب منطقه»<sup>(١)</sup>.

ويرى أنه «إذا كان الأستاذ كمدرسة يتخرج في مجالس درسه خلق كثير - فحقيق عليه أن يكون المثال الذي يشهد فيه الطلاب كيف تناقش آراء العلماء مع صيانة اللسان من هُجْر القول الذي هو أثر الإعجاب بالنفس، والإعجاب بالنفس أثرُ ضعفٍ لم تتناوله التربيةُ بهتديب»<sup>(٢)</sup>.

ويرى - أيضاً - أن «كبير الهمة يستبين خطأً في رأي عالم، أو عبارة كاتب؛ فيكتفي بعرض ما استبان من خطأ على الطلاب؛ ليفقهوه، ويأبى له أدبه أن ينزل إلى سِقط الكلام، أو يخف إلى التبعُّج بما عنده»<sup>(٣)</sup>.

١- رسائل الإصلاح ص ١٦٦-١٦٧.

٢- المرجع السابق ص ١٦٧.

٣- المرجع السابق ص ١٦٧.

ويقرر أن التاريخ حدثنا « عن رجال كانوا أذكياء ، ولكنهم ابتلوا بشيء من هذا الخلق المكروه؛ فكان عوجاً في سيرهم ، ولطخاً في صحفهم . ولو تحاموه لكان ذكرهم أعلى ، ومقامهم في النفوس أسمى ، ومنزلتهم عند الله أرقى»<sup>(١)</sup>.

ولقد عُرف الشيخ الخضر بطهارة منطقته ، ونزاهة قلمه ، وأشاد به - من هذه الناحية - أكثر من ترجم له ، أو كتب عنه ، أو تناول دراسته . وقد مر شيء من ذلك؛ حيث وصفه الشيخ العلامة عبدالرزاق عفيفي بنزاهة القلم<sup>(٢)</sup>.

ويقول عنه الدكتور أحمد الشرباصي في معرض حديث له عن الشيخ الخضر ، وكتابه (رسائل الإصلاح): « ولعل بعض القراء الذين لا ينسون التاريخ يذكرون للشيخ الخضر حسين أنه نصب نفسه في أحيان كثيرة مدافعاً عن الدين الإسلامي ، مجاهداً أولئك الذين حاولوا في خبث ودهاء أن يقوضوا دعائم الشريعة المحمدية ، والله يتم نوره ولو كره الكافرون؛ فلم يتخذ طريقة السب والشتم والمناداة بالويل والثبور ، والإسراف في الغضب والثورة وسيلة إلى أداء واجبه نحو ربه ونبيه .

بل تناول قلمه الرزين العفيف المحكم الذي خط به كتابه (القياس في اللغة العربية) ذلك الكتاب الذي يعد آية بينة على الدراسة اللغوية الصحيحة الأصول ، المسددة الخُطى ، الطيبة الثمرات؛ فكتب بهذا القلم ردوده ودفاعه عن الإسلام ، وأظهر تلك الردود في كتب كثيرة شرقت وغربت .

وكان من جميل عمله ، ونبيل خلقه : أنه في مجادلته أو نقده يورد عبارة المنقود بنصها ، ثم يكرُّ عليها بالهدم والتفنيد دون أن يستعمل كلمة نابية ، أو تصدر عنه عبارة جافية»<sup>(٣)</sup>.

١- المرجع السابق ص ١٦٧ .

٢- انظر الشيخ عبدالرزاق عفيفي حياته ، وجهوده العلمية والدعوة ، وآثارها الحميدة ١/٢٤٥-٢٥٣ .

٣- رسائل الإصلاح ص ٢٨٣ .

ثانياً: مقابلة الإساءة بالإحسان أو الإغضاء: فيحصل - أحياناً - من بعض من يتحاور معهم في قضية، أو مسألة أن يتجاوزوا حدود البحث إلى التجريح، والإساءة؛ بحيث لا تكون القضية، أو المسألة المثارة هي محلّ البحث، بل تنتقل إلى الشخص نفسه؛ فما يكون من الشيخ الخضر إلا أن يقابل تلك الإساءات بانسراح الصدر، وحسن التلقي، ومقابلة تلك الإساءات بالإحسان، أو الإغضاء، على حد قول الحكيم العربي:

ضريتني بكفها ابنةً معني أوجعتُ كفها وما أوجعتني  
ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رده المعنون بـ: (قصة أيوب - عليه السلام - ونقض آراء حديثه في تفسيرها) حيث جاء في الرد الثاني المنشور في (مجلة الهداية الإسلامية) قول صاحب المقال في رده على الشيخ الخضر «اللهم إنك تعلم ما في نفسي، وتعلم ما نفس الكاتب - يعني الشيخ الخضر - فإني أكملُ أمرَ جزائه إليك؛ فأنت العليم بذات الصدور»<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ الخضر معلقاً على ذلك: «دعوةٌ صالحة نرجو من الله قبولها، ونسأل الله - تعالى - أن يهدي صاحب المقال إلى الطريقة المرضية في تفسير كتابه المجيد»<sup>(٢)</sup>. وقال صاحب المقال - أيضاً - في تعقيبه على الشيخ الخضر: «أعرف فريقاً من الناس - منهم هذا الكاتب - اعتادوا ألا يفاجئوا العامة بحق يخالف خرافاتهم وأوهامهم، ويرون أن هذا سبيل إلى تزعم العامة، وأن في ذلك منافع لهم ومصالح، كما اعتادوا أن يستعدوا العامة على أنصار الحق»<sup>(٣)</sup>.

فرد عليه الشيخ الخضر بقوله: «حاربتُ، وأحاربُ الخرافات والأوهام، ولتزعُم العامة سيرةً غيرُ السيرة التي أغدو عليها وأروح، ولو كنت أحرص على هذا التزعم، لآثرت السلامة من السنة بعض الخلق على الحق، ولست ممن يرى استعداد العامة على

١ - بلاغة القرآن ص ٢١٠ .

٢ - المرجع السابق ص ٢١٠-٢١١ .

٣ - المرجع السابق ص ٢٦٨-٢٦٩ .

أهل البدع والضلالات والأهواء فضلاً عن استعدادهم على أنصار الحق. وأرى أن خير ما يستعدى على هؤلاء الحجّة، والمجادلة على طريق آداب البحث؛ ذلك أن الحجّة والمجادلة على قانون المنطق هي التي تقتل آراءهم، وتستأصلها من منابتها»<sup>(١)</sup>.

ومما قاله صاحب المقال في رده على الشيخ الخضر: «وإنما اندفع هذا الكاتب إليها -أي: إلى تلك الدعاوى- لتأثره بإسرائيليات نشأ عليها، فغدت عقيدة عنده لا يستند فيها إلا إلى التقليد، وقديماً رمى الناس الأنبياء بالسحر والجنون، وغير ذلك، مع وضوح حجتهم، وسطوع برهانهم، ولكنه التقليد أعماهم حتى قالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ الشعراء: ٧٤»<sup>(٢)</sup>.

فرد عليه الشيخ الخضر بقوله: «يريد من الدعاوى: ما بينته من حمله للآيات على استعارات وكنيات بعيدة لا داعي إليها، ولا قرينة تساعد عليها، وقد أكثر من ذكر أنني أكتب متأثراً بالإسرائيليات، أو أكتب عن تقليد.

وهذا حديث لا يعود على البحث بجدوى؛ فإننا نكتب لذوي الفطر السليمة، والأفكار النبيهة، وهؤلاء يميزون الشبهة من الحجّة، ويفرقون بين المعقولات والخيالات، ولا يتجافون عن رأي مجرد أنه رأي قديم، أو يطيشون إلى آخر لمجرد أنه رأي جديد، فلا يضر الباحث أن يقال عنه إنه متأثر بالإسرائيليات، وهو غير متأثر بها، أو يقال عنه: إنه مقلد، وهو يسوق بحثه على طرق منطقية»<sup>(٣)</sup>.

ولئن كانت هذه هي طريقته مع كافة المخالفين -خصوصاً إذا توجه المخالف إلى شخص الشيخ دون بحثه- فإن طريقته مع أهل الفضل والعلم أكد، وأوضح؛ فلقد كان يعرف أقدار الرجال، وينزلهم منازلهم حتى لو بدرت منهم إساءات، أو تجريح في حقه.

١- المرجع السابق ص ٢٦٩ .

٢- المرجع السابق ص ٢٧١ .

٣- المرجع السابق ص ٢٧١ .

ولعل أجلى ما في ذلك ما كان بينه وبين الشيخ العلامة محمد رشيد رضا رحمته الله وقد مرت الإشارة إلى شيء من ذلك.

وفيما يلي مزيد إيضاح لتلك الخصومة التي كانت بينهما؛ لما فيها من الإشارات، والدلالات على كثير مما مضى، ومما سيأتي من منهج الشيخ في الرد.

والذي يعني هنا هو موقف الشيخ الخضر من هذه الخصومة، التي يمكن إجمالها بأن يقال: لقد كان بين الشيخين علاقة تعود إلى سنة ١٣٢٢هـ عندما أسس الشيخ الخضر مجلة (السعادة العظمى) التي كانت رداً ضمنياً على مجلة المنار؛ حيث لم تقم المجلة العربية الأولى بتونس بهذا الدور بصورة واضحة، لكن الخلاف بين المجلتين كان قائماً؛ من جهة بعض وجهات النظر؛ حيث إن الشيخ رشيد رضا كان من الإصلاحيين، والشيخ الخضر كان إصلاحياً محافظاً - كما مر..

وتجد في أبواب عدة من مجلة (السعادة العظمى) ردوداً غير مباشرة تبين أن الشيخ الخضر لم يكن على رأي الإصلاحيين في كثير من الموضوعات - كما يقول الأستاذ محمد مواعدة<sup>(١)</sup>.

وقد بقي خلافه معهم كامناً، ولم يمنعه ذلك من الاتفاق معهم في بعض القضايا، مثل علاقة اللغة العربية بالدين الإسلامي، ونحو ذلك مما سيمر.

وقد تقابل الرجلان سنة ١٩٢٢م عندما نزل الشيخ الخضر في القاهرة، وهو في طريقه إلى دمشق؛ للاستقرار بها مع إخوته وذويه.

ولما انتقل إلى مصر سنة ١٩٢٠م اتصل مرة أخرى بالشيخ رشيد، ونشر خلال سنة ١٩٢١م سلسلة من المقالات في مجلة المنار حول موضوع (الخيال في الشعر العربي)<sup>(٢)</sup>.

١- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٩٧-٢٠٦.

٢- انظر مجلة المنار مجلد ٢٢ الأجزاء ٢ و٣ و٤ و٥ و٧ و٩، وانظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٩٧-٩٨.

كما كتب فيها مجموعة أخرى من المقالات في السنة التالية حول موضوع (القياس في اللغة العربية)<sup>(١)</sup>.

وكان الرجلان متفقين في النظرة إلى اللغة العربية، وآدابها من حيث الدفاع عنها، وعدّها وسيلةً للتعريف بدين الإسلام، وكونها لغة القرآن الكريم، والسنة النبوية.

وازدادت الصلة بين الشيخين متانة إبان صدور كتابي (الإسلام وأصول الحكم) و (في الشعر الجاهلي) ورد الشيخ الخضر عليهما؛ حيث ساندته الشيخ رشيد، وأثنى على كتابيه، وقرّطهما، وأشاد بقيمة صاحبهما العلمية، والدينية، كما قرظ مجلة (الهداية الإسلامية)<sup>(٢)</sup>.

وبعد ذلك برزت القطيعة بينهما عند صدور العدد الأول من مجلة (نور الإسلام) وما كتبه في شأنها صاحب المنار، وخاصة لومته رئيس تحريرها الشيخ محمد الخضر في أمرين، وهما: عدم ذكره الشيخ مصطفى المراغي، وابتعاد المجلة عن السياسة<sup>(٣)</sup>. ذلك أن الشيخ الخضر تعرض إلى ظروف تأسيس هذه المجلة، والعلماء الذين اهتموا بها، ولم يذكر الشيخ المراغي الذي كان رئيساً للمجلس الأعلى للأزهر عند اقتراح ودراسة هذه المجلة، وذكر في الوقت نفسه- الشيخ أحمد الظواهري شيخ الأزهر الذي صدرت عنه هذه المجلة.

فهذه هي الشرارة الأولى التي تجاوزت ذلك إلى خلاف، وخصومة. يقول الأستاذ محمد مواعدة: «وتجدر الإشارة إلى أن صاحب المنار لم يهتم بذكر الأسماء بدافع تاريخي فقط؛ ليتعرف القراء على ردود كل من الرجلين، وما قاما به من

١- انظر مجلة المنار مجلد ٢٩ .

٢- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٩٨ .

٣- انظر المرجع السابق ص ٩٨ .

جهود لإصدار مجلة الأزهر التي انتظرها المثقفون، وعلماء الدين، وابتهجوا بتأسيسها. وإنما اهتم بذلك، واشتد غَيْظُهُ؛ لأن الشيخ المراغي كان من أنصار الأستاذ الإمام محمد عبده والعاملين على نشر الحركة الإصلاحية في جميع الميادين. أما الشيخ أحمد الظواهري فقد تلمذ على الأستاذ الإمام إلا أنه كان معروفاً بنزعة المحافظة، وبعدم تأييده لأستاذه، ومناصرته له.

وبذلك انقلبت الخصومة من إطار شخصي إلى إطار ديني، واجتماعي، وأصبحت خلافاً شديداً واضحاً بين الإصلاحيين الذين تزعمهم الشيخ رشيد رضا، والمحافظين الذين تزعمهم الشيخ محمد الخضر حسين<sup>(١)</sup>.

ويواصل الأستاذ مواعده حديثه فيقول: «ونستنتج مما تقدم أن الرجل -يعني الشيخ الخضر- لم يكن مناصراً للمحافظين في كل شيء، ولا مخالفاً للإصلاحيين في كل شيء؛ فقد كان يوافق الأولين في ضرورة التمسك بما جاء به السلف الصالح من نصوص وتعاليم، وكان يخالفهم في فتح باب الاجتهاد، والاستفادة به حتى تتمكن الشريعة الإسلامية من مسابقة العصر، وتستجيب لحاجيات المدينة الحديثة، لكنه لا يتطرف في المسابقة، ولا يغالي فيها؛ (حتى لا يزيغ الكلم عن مدلولها، ولا يتتزع الفروع من أصولها)<sup>(٢)</sup>».

وهذا ما يخالف فيه أنصار الإصلاح الديني، بينما يرى رأيهم في أسلوب إصلاح المجتمع الذي يعتمد على التعليم، والتربية، ومكافحة البدع<sup>(٣)</sup>. وبعد هذا الاستطراد الذي يبيِّن العلاقة والخصومة بين الشيخين: رشيد رضا والخضر ينتقل الحديث إلى موقف الشيخ الخضر من تلك الخصومة، وكيف دفع بالتي هي أحسن، ولم يسارع إلى إذكاء جذوة ذلك الخلاف.

١- المرجع السابق ص ٢٠٧.

٢- ما بين القوسين مقتبس من كلام الشيخ محمد الخضر حسين.

٣- محمد الخضر حسين حياته وأثاره ص ٢٠٧-٢٠٨.

فبعد أن نقد الشيخ رشيد رضا الشيخ الخضر بعدم ذكر الشيخ المراغي ، وابتعاد المجلة - أي مجلة نور الإسلام التي تصدر عن الأزهر- عن السياسة أجابه الشيخ الخضر بمقال عنوانه (خطاب مفتوح إلى الأستاذ السيد محمد رشيد رضا)<sup>(١)</sup>.  
وبمقال آخر عنوانه (للحقيقة والتاريخ نقد مقال في مجلة المنار)<sup>(٢)</sup>.  
وقد نُشر هذان المقالان في مجلة (الهداية الإسلامية).

ويبدو - كما يقول الأستاذ محمد مواعده- أن الشيخ الخضر لم يرد إقحام مجلة الجامع الأزهر في خصومة أخذت منطلقاً شخصياً بالدرجة الأولى؛ لذا كتب إجابته في مجلة هو مسؤول عنها من الناحية الإدارية، والقانونية<sup>(٣)</sup>.  
وقد افتتح الشيخ الخضر خطابه بقوله: «حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة (المنار) الغراء.

السلام عليكم ورحمة الله

أما بعد:

فقد قرأت ما كتبتموه في الجزء الصادر في ربيع الأول من مجلتكم الزاهرة تقریباً ونقداً لمجلة (نور الإسلام) فأشكركم على النقد بمقدار ما أشكركم على التقريظ. وإنا لنعلم أن مجلة كمجلة (نور الإسلام) يراقبها طوائف تختلف مذاهبهم، وتتفاوت أنظارهم، وتتباعد أغراضهم، ليس في استطاعة القائمين بها أن يخرجوها على ما يوافق رغبة الطوائف بأجمعها حتى لا تلاقى إلا رضاً عنها وتقریباً<sup>(٤)</sup>.  
ثم بين أنه على يقين بأن مجلة (نور الإسلام) ستواجه ضرباً من النقد، وأنه ربما كان بعضها صادراً عن حسن نية، وسلامة قصد، وإذا كان مصيباً قبل؛ حرصاً

١- انظر من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين ص ٨٤-٩٠ .

٢- انظر المرجع السابق ص ٩٦-٩١ .

٣- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٩٨ .

٤- من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين ص ٨٤-٨٥ .

على أن يكون العلم صلة تعارف وائتلاف.

ثم يخلص من ذلك إلى قوله: «فلا عتب علينا إذا كنا قد قرأنا في تقريركم كلمات معدودة أقيمتوها بقصد خدمة الحقيقة والتاريخ، فلم تقع الموقع الذي قصدتم إليه؛ فكانت وجهة نظرنا فيها غير وجهة نظركم، وشعرنا بأن الحقيقة والتاريخ لا يسمحان لنا بالسكوت عنها، وفضيلتكم من أول الداعين إلى إثارهما على كل ما يقضي الأدب الجميل برعايته»<sup>(١)</sup>.

وبعد ذلك شرع في مناقشة ما جاء في مقال صاحب المنار؛ فيقول: «قلتم في التقرير: (إن فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر قد جعلني مدرساً في قسم التخصص من الأزهر بعناية خاصة استثنائية).

والواقع أن مجلس الأزهر قد ندبني للتدريس بقسم التخصص قبل ولاية فضيلة الشيخ المراغي مشيخة الأزهر بنحو سنة.

وكان الذي يرأس المجلس الأعلى وقتئذ صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبدالرحمن قراعة مفتي الديار المصرية سابقاً، وكان لذلك الحين رئيساً لقسم التخصص -أيضاً-»<sup>(٢)</sup>.

ويواصل الشيخ الخضر في خطابه الرد على كل القضايا التي أثارها صاحب المنار بأسلوب واضح، وحجج منطقية دون تحامل أو إثارة؛ فيبدو وكأنه يتحاشى قيام خصومة بينه وبين صاحبه الشيخ رشيد رضا؛ حيث أوضح السبب لعدم ذكره لاسم الشيخ المراغي، وأن ذلك لا يعني شيئاً؛ حيث لم يذكر اسم الشيخين: أبي الفضل الجيزاوي، وعبدالرحمن قراعة، وقد سبقا المراغي في ذلك؛ حيث كان الشيخ الجيزاوي يرأس المجلس الأعلى قبل اقتراح مشروع المجلة سنة ١٩٢٦م، والشيخ قراعة يرأس المجلس الذي أُلّف لجنة لوضع تقرير في هذا الاقتراح سنة ١٩٢٧م<sup>(٣)</sup>.

١- المرجع السابق ص ٨٥.

٢- المرجع السابق ص ٨٥-٨٦.

٣- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ٩٩.

وهذا العمل بالنظر إلى كونه الأساس الذي يقام عليه المشروع عمل لا يستهان به. ومع ذلك لم يثر مريدو الشيخين كما ثار الشيخ رشيد<sup>(١)</sup>.

وبعد أن أوضح ذلك قال: «وعلى فرض أن أكون قد أجملت القول في مواضع تعلمون منها أكثر مما أعلم - كان لفضيلتكم أن تكتبوها للتاريخ في صفاء خاطر، متحامين الكلمات التي يسبق إلى أذهان بعض الناس أنها مصنوعة لتثير غبار فتنة، ومثل هذه الفتنة لو أيقظها غيركم لكان من واجب الدين وسماحة الأخلاق عليكم أن تبادروا إلى إخمادها، وواجب الدين وسماحة الأخلاق قبل كل داعية»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن يقول: «وأنا لا أستنكف أن يكون للأستاذ المراغي عندي يد، ولكن التدريس الذي تعنونه بقولكم: (كما أن له الفضل عليه نفسه) قد عرف الناس أنني نذبت له من قبل أن يتولى فضيلته منصب المشيخة، على أنني أربأ بكم أن تزنيوا العلم بهذا الميزان، وتجعلوه أنقص قدرًا من متاع هذه الحياة؛ إذ سميتم ندبي للتدريس فضلاً من النادب علي، بدل أن تجعلوه إخلاصاً منه للمعهد الذي تولي أمره؛ ليدبر شؤونه بنصح وأمانة»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا يورد الشيخ الخضر حججه، ويرد على مقال المنار، فيتناول نقد الشيخ رضا في كون مجلة (نور الإسلام) لا تمس السياسة في شأن؛ فيجيب الشيخ الخضر عن هذا بأن المقصود من ذلك تجنب النزاعات السياسية وإلا فإن أقلام محرريها: «لا تقف دون الكتابة فيما يصيب الشعوب الإسلامية من مكاره، أو فيما تراه مخالفاً للدين، ولو كان من أعمال الإدارة الداخلية غير أنها تكتب في مثل هذا على وجه الوعظ والإرشاد؛ فلا يخرج عن دائرة مجلة (نور الإسلام) أن تكتب في إنكار بعض تصرفات يُعتدى بها على حق ديني لأحد الشعوب الإسلامية، ولا يخرج

١- انظر من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين ص ٨٧ .

٢- المرجع السابق ص ٨٧-٨٨ .

٣- المرجع السابق ص ٨٨ .

عن دائرتها أن تطالب بنحو إلغاء البغاء الرسمي ، أو احترام المحاكم الشرعية فيما إذا خطر لأحد رجال الإدارة أن ينقص مما هو داخل في اختصاصاتها ، أو الاحتفاظ باللغة العربية فيما إذا رأى ذو سلطة اهتمام جانبها ، إلى غير هذا من الشؤون التي تحفظ على الأمة دينها ولغتها ، ويرغب أولو السياسة الرشيدة أنفسهم أن يعلموا حكم الدين في أمثالها»<sup>(١)</sup>.

وبعد ذلك يقول مخاطباً الشيخ رشيد رضا: «ونقدتم ما جاء في فاتحة المجلة من قولنا: (لا تنوي أن تهاجم ديناً بالطعن ، ولا أن تتعرض لرجال الأديان بمكروه من القول) وحملتكم هذه العبارة على معنى أنها لا ترد على المخالفين إذا هاجموا الإسلام ، وقلتم: (إن العلماء لا يستطيعون القتال بالسلاح فهم يستطيعون الجهاد بالقلم واللسان ، ومجادلتهم بالتي هي أحسن ، وإن كرهوها).

ولو صدر هذا النقد من غير فضيلتكم ، لقلنا: إنما يريد أن يكثر سواد وجوه النقد ، ولكن مكانكم أرفع من أن يقصد إلى هذه الغاية؛ ذلك لأننا نقول في فاتحة المجلة: (تناقش المجلة الأشخاص والجماعات الذين يقولون في الدين غير الحق ، مقتدية في مناقشتها بأدب قوله -تعالى-: ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥).

وإذا قالت: إنها لا تنوي أن تهاجم ديناً بالطعن ، أو قالت: لا تتعرض لرجال الأديان بمكروه من القول - فإنما تريد الترفع عن بذاءة القول ، والخروج عن دائرة البحث العلمي إلى ما يهيج البغضاء ، دون أن يكون له في تقرير الحقائق أو إزهاق الباطل أثر كثير أو قليل»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن يقول: «وأظن حضرات قراء مجلة (نور الإسلام) إنما يذهبون في فهم

١- المرجع السابق ص ٨٨-٨٩.

٢- المرجع السابق ص ٨٩.

هذه الجمل إلى أننا نظرنا عند صوغها إلى قوله -تعالى-: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت: ٣٤ .

وقد أصبح حكماء الكتاب يصوغون دفاعهم على قدر بيان الحق ، أو كشف شبه الباطل ، ولا يحسون من أقلامهم نزوعاً إلى السوء من القول .  
ومن كان في ثروة من الحجج لا يرى نفسه في حاجة إلى أن يستعين في دفاعه أو هجومه بشيء من اللمز والبداء .

هذا ووطننا في الأستاذ أنه ينقد في إخلاص ، ويتلقى الجواب في سكينة وإنصاف ، وسلام عليك يوم تقرظ ، ويوم تنقد ، ويوم تكون للحق ولياً<sup>(١)</sup> .  
ولم يتلق الشيخ رشيد هذا الرد في سكينة ، بل أجابه بمقال عنوانه : (رد المنار الذي تتجلى به الحقيقة ، ويُنصف التاريخ) .

وكان هذا الرد أطول من (الخطاب المفتوح) بأربع مرات؛ فالشيخ الخضر نشر مقاله المفتوح في أربع صفحات في مجلة الهداية ، بينما نشر الشيخ رشيد رضاه في ست عشرة صفحة من المنار<sup>(٢)</sup> .

كما أنه -كما يقول الأستاذ مواعده-: «أكثر حدةً ، وأشد حماساً ، وأقذع عبارةً ، وأدعى إلى الخصومة ، بل إلى الفتنة»<sup>(٣)</sup> .

ويضيف الأستاذ مواعده قائلاً: «إن الشيخ رشيداً أكد التزامه باتباع الحق في مناقشته للشيخ الخضر مع المحافظة على سابق مودته إن شاء .

إلا أنني أعتقد أن تلميذ الإمام محمد عبده لم يحافظ على ما تعهد به بل تجاوز حدود القواعد المتبعة في المناقشات العلمية»<sup>(٤)</sup> .

١- المرجع السابق ص ٨٩-٩٠ .

٢- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٠٠ .

٣- المرجع السابق ص ١٠٠ .

٤- المرجع السابق ص ١٠٠ .

فمما ذكره الشيخ رشيد في ذلك الرد وهو يتحدث عن انتداب الشيخ الخضر للأزهر قوله: «ندب الأستاذ محمد الخضر التونسي الفرنسي التبعة للتدريس». وهو «أحد الغرباء المشمولين بالحماية الفرنسية»<sup>(١)</sup>.

ويشير إلى أن الرجل كان يتقاضى مكافأة شهرية قدرها ثمانية جنيهات، وعند دخول المراغي المشيخة أصبح يتقاضى خمسة عشر جنيهاً؛ فليست -كما يقول- هذه عناية خاصة بصفة استثنائية؛ لأن الأستاذ أجنبي غير مصري<sup>(٢)</sup>.

يلقى الأستاذ محمد مواعده على هذا الكلام فيقول: «والذي يبدو أنه كتبه في حالة غضب شديد»<sup>(٣)</sup>.

ورغم ما ذكره صاحب المنار من مس، وتعرض بشخصية محمد الخضر، وبقيمته العلمية فهو -أي الشيخ رضا- يختتم القسم الأول من توضيحه للحقيقة، وإنصافه للتاريخ بقوله: «وإني لأود أن أكون مخطئاً فيما فهمت من مقالته، ومجلة جمعيته، وما يعنيه من إثارة الفتنة، ومن الأمراض العقلية والخلقية، وأن يكون كما كنت أظن من حزب المصلحين المعتدلين بين الجامدين والمتفرنجين، فنعود بعد هذا التنازع متعاونين، وبعد هذا الاختلاف متفقين، وتلك عقبى المخلصين»<sup>(٤)</sup>.

وبعد أن اطلع الشيخ الخضر على المقال المنشور في المنار قابله -كعادته- بهدوء، وسكينة، وأناة، وكتب مقالاً عنوانه (للحقيقة والتاريخ نقد مقال في مجلة المنار) ولم يتهجم فيه على صاحب المنار، بل أحسن الظن به، وناقشه عند بعض ما ورد في المقال بكل أدب واحترام، وإليك بعض ما جاء في ذلك الرد. يقول الشيخ الخضر في مقدمة رده: «كتبت مجلة (المنار) الغراء مقالاً سمته رداً

١- المرجع السابق ص ١٠٠.

٢- انظر مجلة المنار م ٣١ ج ٣ ص ٣٧٧.

٣- محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٠٠.

٤- مجلة المنار م ٣١ ج ٥ ص ٣٨٦، وانظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٠١.

تتجلى فيه الحقيقة والتاريخ، وقد وقع في هذا المقال -على الرغم من سلامة ضمير الأستاذ صاحب المجلة، وقصده إلى بيان الحقيقة- جملٌ غيرُ قابلةٍ لأن تدخل في التاريخ الصحيح.

وأحقُّ هذه الجمل بتهديب يجعلها صالحة لأن تدل على حقيقة، أو تحفظ تاريخاً - ثلاثة مواضع أحسنا أن التاريخ يدعوننا بالحاف أن نقول فيها ما نعلم، وللتاريخ الذي يتحرى الحقائق دعوة لا بد لها من إجابة، وما عدا هذه المواضع الثلاثة ليس في وقتنا ما يسع نقده»<sup>(١)</sup>.

ثم بدأ في الموضوع الأول، فقال: «قال فضيلة الأستاذ متعرضاً لجمعية الهداية الإسلامية: (ويعتقد كثير من الناس أن لجمعية الخضر مقاصد حزبية)».

ثم بدأ الشيخ الخضر بتفنيد هذا القول، فبين أسباب نشأة الجمعية، وانتخاب أعضائها، وأنه لو ظهر للحزبية يدٌ في تأسيس هذه الجمعية لظهر لها أثر في انتخاب مجلس الإدارة، وأن أهل القاهرة، بل أهل مصر يعلمون أن هيئة مؤلفة من هؤلاء الأساتذة لا تخدم حزباً، ولا تعمل لغير مصلحة الإسلام والأمة<sup>(٢)</sup>.

ثم قال بعد ذلك: «فأعضاء جمعية الهداية الإسلامية برآء من أن يتخذوا اسم الدين وسيلة إلى مقاصد حزبية، وإذا كان في أهل العلم من يعمل لغير الدين باسم الدين فذلك صنف لا تعرفه جمعية الهداية.

وهل لفضيلة الأستاذ أن يقيم شاهداً، أو أمانة -ولو خفية- على أن الجمعية أنشئت لمقاصد حزبية؟.

وإذا كان هذا الشيء قد أوحاه إليه بعض من مرد على مناوأة الجمعيات الإسلامية فما كان للأستاذ أن ينسى قوله -تعالى-: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَصَبَّوْا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَجْهَلَةٍ فَضَبُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الحجرات: ٦ «<sup>(٣)</sup>.

١- من أوراق ومذكرات الإمام محمد الخضر حسين ص ٩١.

٢- انظر المرجع السابق ص ٩١-٩٤.

٣- المرجع السابق ص ٩٤.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الموضوع الثاني، فقال: «وذكر فضيلة الأستاذ ندبي للتدريس بقسم التخصص سنة ١٩٢٧، وقال: إنه (بمكافأة شهرية قدرها ثمانية جنيهاً مصرية في كل شهر من شهور الدراسة فحسب).

وقال: (هذا ما كان قبل مشيخة المراغي، وأما ما كان فيها فهو أنه قد عرض على مجلس الأزهر الأعلى مذكرة بطلب تعيين الشيخ الخضر مدرساً بالأزهر براتب قدره خمسة جنيهاً في كل شهر بعقد من ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٧، فوافق المجلس عليها، فصار مدرساً ثابتاً، وارتقى ما يأخذه من مكافأة في مدة العمل، وقدرها ٧٢ جنيهاً إلى راتب يبلغ في السنة ١٨٠ جنيهاً).

الواقع أنني كنت مصححاً بالقسم الأدبي من دار الكتب، وأتسلم منها نحو ثلاثة عشر جنيهاً في الشهر، ثم نذبت للتخصص على أن ألقى فيه أربعة دروس في الأسبوع بمكافأة قدرها ثمانية جنيهاً، وكنت أجمع بين التدريس في التخصص، والتصحيح بدار الكتب، وانقضت السنة وأنا أقوم بالعملين، وأتسلم المكافأتين.

وليس بموافق للحقيقة ما جاء في عبارة فضيلة الأستاذ من أن المكافأة في التخصص لشهور الدراسة فحسب، بل كنت أتسلمها لشهور السنة كلها، إذاً كانت مكافأتي من التخصص ٩٦ جنيهاً، لا ٧٢ كما قال صاحب الفضيلة.

ولما جاء عهد مشيخة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ المراغي جرى حديث مع المشيخة أن أترك التصحيح بدار الكتب، وأقتصر على التدريس بالأزهر؛ فزيد على المكافأة سبعة جنيهاً، وصارت الدروس سبعة في الأسبوع بعد أن كانت أربعة، وكتب على هذا عقد بسنة فحسب.

والتعيين بعقد لا يصير به المعين مدرساً ثابتاً كما جاء في عبارة فضيلة الأستاذ. وبعد انتهاء مشيخة فضيلة الأستاذ الشيخ المراغي جدد العقد لستين، وجعلت الدروس خمسة فحسب»<sup>(١)</sup>.

ثم انتقل الشيخ الخضر إلى الموضوع الثالث فقال: «وقال فضيلة الأستاذ: (إني فرنسيٌّ تَبِعَةٌ، وإني مشمول بالحماية الفرنسية).

والواقع أنني بارحت تونس بقصد الإقامة في دمشق الشام سنة ١٣٣١، وعندما نزلتها كتبت اسمي في سجل التابعين للحكومة العثمانية، وأعطيت الورقة الرسمية المسماة: (ورقة النفوس) وبعد انتهاء الحرب قَدِمْتُ مصر، وكلما اقتضى الحال أن أكتب تبعيتي في ورقة رسمية أُبْتُ فيها أنني تابع للحكومة المحلية، ولا أعرف إلى كتابة هذه الأسطر مكان السفارة أو القنصلية الفرنسية في القطر المصري، ولا أدري في أي شارع من شوارع القاهرة هي؛ فإن أراد فضيلة الأستاذ من الحماية أو التبعة: أن فرنسا واضعة يدها على تونس فذلك وصف يشترك فيه من وقعت أوطانهم تحت تلك اليد الأجنبية؛ كالجزائر، ومراكش، وسوريا»<sup>(١)</sup>.

ثم ختم ذلك الرد بقوله: «ونحن نذكر فضيلة السيد بأن مثل هذا الذي شغل به صحفاً كثيرة من مجلته الدينية الخلقية غير أهل العلم أقدَرُ عليه من أهل العلم»<sup>(٢)</sup>. فهذا مثال رائع يصور ما كان عليه الشيخ الخضر من مقابلة الإساءة بالإحسان، ومن ترك الانتصار للنفس.

وذلك نابع من أدبه المعروف، ومن تقديره لمكانة الشيخ العلامة محمد رشيد رضا، واعترافه بفضله، وسابقته، وجهوده الإصلاحية<sup>(٣)</sup>.

وفي نهاية هذا المبحث يتبين لنا أن الشيخ الخضر كان ملتزماً بأدب الرد، والمناقشة؛ من حيث حرصه على إخلاص النية في الردود، ولزوم العدل والإنصاف فيها، وسمو العبارة، والترفع عن السبِّ والشتيم، ولزوم الرفق واللين.

١- المرجع السابق ص ٩٦.

٢- المرجع السابق ص ٩٦.

٣- المقصود من الاستطراد السابق، هو ذكر ما كان عليه الشيخ الخضر من الأدب في ردوده، وإلا فإن الشيخين الكبيرين الخضر ورضا من أعلام الإسلام في العصر الحاضر، ومن لهم الأيادي البيضاء في نشر العلم، والدعوة، والإصلاح.

ولا يمنع من لينه ورفقه أن يشتد أحياناً؛ فيقسو على المردود عليه بحسب ما يليق بالمقام، دون أن يخرج ذلك عن طوره، أو يلقي به في وهدة الظلم والسباب. والذي يحمله على ذلك الاشتداد غيرته الإسلامية الصادقة، ورغبته في الانتصار للحق، وما يراه من بعض خصومه من اللدد، والمغالطات في الأمور الواضحات -كما سيأتي في غضون المباحث التالية-.

### المبحث الثاني: أساليبه البيانية

مدخل: المقصود بالأساليب البيانية

المقصود بالأساليب البيانية ههنا: أجناس الكلام، وطرقه، وأفانيه، وضروبه، وقوالبه التي تُصَبّ فيها المعاني، والأفكار، فتكون في أثواب ملائمة، يراعى فيها حسنُ البيان، وفصاحة المنطق، وبلاغة القول، ومراعاة مقتضيات الأحوال؛ فيكون الرد أو المناقشة على حالٍ من إشراق العبارة، وجمال العرض، وحسن التأليف، والسير على وفق الأساليب البلاغية من بديع، ومعانٍ، وبيان؛ فهذا هو المقصود بالأساليب البيانية<sup>(١)</sup>.

ولا يمتري عاقل في أن لتلك الأساليب مكانتها العليا في الرد والنقد؛ فإذا كان الناقد أو الناقض ذا أسلوب حسن، وتفنن في عرض أفكاره - كان ذلك أدهى لقبول ما يطرحه، وحلوله في قرارات النفوس محلاً أرفع.

ولا يكفي في الرد - كما يقرر الشيخ الخضر - أن يكون في يد القائم به حجة، أو نقض؛ فيلقي ذلك في أيّ ثوب شاء.

بل اللائق أن تصاغ الردود بحسب ما يليق بحال الرد والمردود عليه من ثقافة، وبيئة، وما يلائم ذلك من لين، وشدة ونحو ذلك.

وقد تكون معاني المناقشة والرد حاضرةً في ذهن المتلقي ولا يجد في نفسه تأثراً بها، حتى إذا عُرِضت عليه تلك المعاني في أسلوب بارع وقعت منه موقع الإعجاب حتى لكانها معانٍ لم يسبق له بها علم<sup>(٢)</sup>.

والحاصل أن الأساليب البيانية الرائعة تضفي على الرد والبحث إشراقاً، وبهجةً، وجمالاً، وتشويقاً.

١- انظر الصحاح للجوهري ٢٧/٧، ودلائل الإعجاز لقاهر الجرجاني ص ٣٣٨، ولسان العرب ٤٧١/١.

٢- انظر الدعوة إلى الإصلاح ص ٣١.

ولقد قرر الشيخ الخضر ذلك في كثير من أبحاثه؛ حيث قرر «أن العمل على إنقاذ النفوس من وادي الغواية والإقبال بها على مطالع السعادة مسلكٌ وَعِرٌّ لا يمر فيه على استقامة إلا من بلغ في صناعة البيان أمداً قصياً»<sup>(١)</sup>.

ويقرر أن الخبرة بما للطوائف من أحوال نفسية، وإلقاء الدعوة في الثوب الملائم لهذه الأحوال موكولٌ إلى ذكاء الداعي، ورسوخه في فنون البلاغة، وأدب اللسان. وأنه إذا لم يكن لعصبة المضلين سبيل على المستضعفين سوى أنهم يُحَبَّرُونَ لهم القول تحبيراً - فمن الميسور لدعاة الإصلاح أن يسابقوهم في مضمار البراعة؛ فإنهم متى ألبسوا الدعوة إلى الحق والفضيلة أساليب بديعة أحرزوا الغاية، وأنقذوا أولئك المستضعفين من ضلال بعيد.<sup>(٢)</sup>

ويرى أن نفرًا ممن تصدوا للكتابة في العلم، أو الاجتماع، أو السياسة قد عُنوا بأدب اللغة «وكانت آراؤهم بعيدة من الرشد، واستطاعوا أن يسوقوا بعض الشبان الغافلين إلى غير حق، أو غير فضيلة، ويقذفوا بهم في إباحية هوجاء. ومن طبائع هؤلاء القادة غير الراشدين أن يَسْتَخِفُّوا بمن يقف في سبيلهم، ولو كان غزير العلم، قوي الحججة، إلا أن ينطق بأفصح من ألسنتهم، أو يكتب بأبرع من أقلامهم.

وإذا اتخذ بعض الكتاب أو الخطباء أدب اللغة سلاحاً يقطعون به سبيل الخير والفلاح أفلا يجدر بدعاة الحق والفضيلة أن يسبقوا إلى تقلد هذا السلاح، ويغوصوا في علم الأدب إلى غاية بعيدة، ويعملوا لإعلاء شأن هذا العلم، حتى تخرج لنا المعاهد الدينية والمدارس العلمية رجالاً يوردون الحجج في أساليب سائغة، ويزيحون عن الشبه والمغالطات ما تضعه على وجوهها من صبغة خادعة؟!»<sup>(٣)</sup>.

١- الدعوة إلى الإصلاح ص ٣١.

٢- انظر المرجع السابق ص ٣١-٦٥.

٣- المرجع السابق ص ٦٨.

وهكذا كانت ردود الشيخ الخضر؛ فهي مُمتَّعة بالجلال، والروعة، والجمال، والجزالة، ومراعاة مقتضيات الأحوال، والبعد عن التكلف، والسلامة من الإثقال والإملال؛ حيث طبق ما كان يقرره مما ينبغي أن تكون عليه الردود من الأساليب البيانية الرائعة، مع أن أجواء الردود - كما هو معلوم - مشحونة بالتوتر، والقلق، والترقب، وقلّة المراعاة لجمال الأساليب.

ولكن الشيخ رحمته الله رعى هذا الجانب حق رعايته، وأولاه جل اهتمامه؛ فجاءت ردوده على درجة عالية من الجودة، والحسن، والإتقان.

وفيما يلي إجمال لمظاهر أساليبه البيانية في ردوده على المخالفين، وذلك من خلال المطلبين التاليين، وما يندرج تحتها من تفصيلات.

## المطلب الأول: جمال العرض

فذلك من أعظم ميزات الأسلوب البياني في الردود وغيرها. والمقصود بجمال العرض ههنا: إبراز مادة الرد في حلة قشبية، وإظهاره في معرض حسن، وقالب منظم، واحتواؤه على عنصر التشويق، وتجنبه الإثقال والإملال. وهذا ما كانت عليه ردود الشيخ الخضر، مما جعل لها المحل الأرفع من بين سائر الردود عموماً، وفي عصره على وجه الخصوص.

ومن أعظم ما يتجلى به جمال العرض في ردود الشيخ ما يلي:  
 أولاً: العناية باختيار عناوات الردود: فعنوان البحث رداً كان أو غيره من أهم ما ينبغي للكاتب، والمؤلف، والباحث أن يُعنى به؛ إذ هو مطلعُ البحث، وأول ما يقع عليه نظرُ القارئ؛ فينبغي أن يكون لائقاً بالموضوع، مطابقاً لأفكاره؛ فهو الذي يعطي الانطباع الأول في عبارة موجزة تدل بمضمونها على ما تحتها من الدراسة المقصودة<sup>(١)</sup>.

ويرى المختصون في البحث العلمي أن العنوان الجيد هو الذي يراعى فيه الأمور التالية:  
 ١. أن يكون مفصلاً عن موضوعه. ٢. أن تبيّن منه حدود الموضوع، وأبعاده.  
 ٣. ألا يتضمن ما ليس داخلاً فيه. ٤. أن يوحي بالأفكار الرئيسة بصورة ذكية.  
 ثم إن الدراسة العلمية المنهجية تقضي بأن يحْمِلَ العنوانُ الطابعَ العلميَّ الهادئ، الرصين بعيداً عن العبارات الدعائية المثيرة.  
 كما أن الباحث الجاد يتجنب العناوات الوصفية، المسجّعة، المتكلفة التي لا تتلاءم وأسلوب العصر الحديث<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كانت عناوات الشيخ الخضر؛ حيث كانت تسير على ذلك الغرار مما

١- انظر كتابة البحث العلمي صياغة جديدة أ.د. عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، مكتبة الرشد

ناشرون ط ٩، ١٤٢٣ هـ.

٢- انظر المرجع السابق ص ٥٣.

ينبغي أن تكون عليه عنوانات الكتب، والبحوث، والردود؛ فلقد عني عناية فائقة بعنوانات ردوده؛ فجاءت دقيقة معبرة، موحية، رصينة.

وكان يراعي فيها حال الرد، وحال الردود عليه، من جهة الشماسة والقوة، واليسر والسهولة، وما بين ذلك؛ فكل رد من ردوده له عنوانه الخاص الذي يليق به. وهذا ظاهر في جميع ردوده، وتعقيباته، ومنازلاته.

ومما يشهد لذلك استعماله كلمة (نقض) في العنوان؛ فعندما أراد الرد على الشيخ علي عبدالرازق، والدكتور طه حسين سمى كتابيه: (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) و (نقض كتاب في الشعر الجاهلي).

والسبب في ذلك أن موقفه من هذين الكتابين كان موقف الرفض؛ حيث كان يرى أن الغرض الذي قام عليه هذان الكتابان باطل من أصله؛ فرام هدمه من أساسه، فاستعمل كلمة (نقض) التي تفيد الهدم، والإبطال لما جاء في الكتابين السابقين. وهذه الكلمة (نقض) أكثر حدة، وألدغ ميسماً؛ فأثرها الشيخ على كلمة (نقد) التي تفيد التمييز بين المحاسن والمساوي؛ لأنه يعتقد بطلان هذين الكتابين على القراء، وضرورة تجنيب المسلمين والشبان منهم خاصة- خطرهما، وما فيهما من تحريف وضلال<sup>(١)</sup>.

ثم إن كلمة (نقد) على شدتها أطف من كلمة (نقض) من جهة أن حرف الدال أخف من حرف الضاد؛ فالضاد أقوى، فكانت كلمة (نقض) أنسب، وأنجع في مثل هذه الأحوال من كلمة (نقد).

وهكذا صنع شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العظيم (نقض تأسيس الجهمية)، وكتابه الآخر (نقض المنطق)<sup>(٢)</sup>.

وليس مقصود الشيخ الخضر من قوة العنواوين الرد على طه حسين وعلي

١- انظر محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٥١ .

٢- انظر نقض المنطق لشيخ الإسلام ابن تيمية، صححه الشيخ حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية .

عبدالرازق لذاتهما، وإنما كان لموضوع الكتابين السابقين اللذين ناسبهما العنوان الذي اختاره في الرد عليهما.

بدليل أنه رد على طه حسين وعلي عبدالرازق في أكثر من مناسبة دون أن يستخدم كلمة (نقض).

وما ذلك إلا لأن المقام اختلف؛ فناسبه عنوان يليق به.

وذلك كما في رده على طه حسين الذي عنون له بـ: (حقيقة ضمير الغائب في القرآن)<sup>(١)</sup> ورده الآخر عليه، والمعنون بـ: (إصلاح المعاهد الدينية والدكتور طه حسين)<sup>(٢)</sup>.

وكما في رده على علي عبدالرازق المعنون بـ: (العظمة)<sup>(٣)</sup> ورده الآخر المعنون بـ: (ملاحظات على مقال مولد النبي ﷺ)<sup>(٤)</sup>.

وهكذا اختلف العنوان؛ نظراً لاختلاف المضمون على أن المردود عليه واحد؛ فأين كلمة (ملاحظات) من كلمة (نقض)؟.

وأحياناً يُعَنُونُ للرد بكلمة (نقد) بحسب ما يلائم المقام كما في رده المُعَنُونُ بـ: (نقد اقتراح ببعض الإصلاح في متن اللغة) وقد رد به على أحمد أمين.

وأحياناً يسميه نقداً، ويذكر اسم المردود عليه في العنوان، وذلك نادر، كما في رده المعنون بـ: «نقد آراء الأستاذ فريد وجدي من الناحية الدينية والاجتماعية»<sup>(٥)</sup>.

وأحياناً يسميه بالرد كما في رده (حول تبسيط قواعد النحو والصرف والرد عليهما) وقد رد به على اللجنة المؤلفة من طه حسين، وأحمد أمين، وعلي الجارم، وأبي بكر إبراهيم في مجمع اللغة العربية.

١- انظر بلاغة القرآن ص ٧٩-١١٦.

٢- انظر الهداية الإسلامية ص ١٥٨-١٦٣.

٣- انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٢٠٧-٢٢٦.

٤- المرجع السابق ص ٣٠٣-٣١٠.

٥- انظر محاضرات إسلامية ص ٢٠.

وأحياناً يعنون بكلمة (تعقيب) كما في مقال: (تعقيب على حديث) الذي عقب به على مقالة للأستاذ علي زكي العرابي باشا وعنوانها (الشريعة الإسلامية والقانون المصري) وهو ردٌ لطيف أثنى فيه على الكاتب في بعض الجوانب، وناقشه في بعضها الآخر؛ لذا سماه تعقيباً؛ لأن المسائل التي ناقشها لا تمس أصل الدين، فكان العنوان لطيفاً - كما ترى-<sup>(١)</sup>.

وأحياناً يعنون للرد باسم الكتاب المردود عليه فقط كما في رده على الشيخ محمود شلتوت (الهجرة وشخصيات الرسول).

وكما في رده على محمد أحمد خلف الله (الفن القصصي في القرآن).

وأحياناً يعنون للرد بعنوان مغاير لاسم الكتاب المردود عليه، دون أن يذكره، أو يذكر كلمة نقد، أو نقض، أو رد، أو ملاحظة، أو تعقيب؛ فيكون الرد مشتملاً على قوة، أو شدة، وذلك كما في رده المعنون بـ: (كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد) الذي رده به على محمد أبو زيد الدمهوري في كتابه (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن).

ورده المعنون بـ: (كتاب يلحد في آيات الله) الذي رده به على كتاب (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) للطاهر حداد.

ورده المعنون بـ: (تحريف آيات الحدود عن مواضعها) الذي رده به على مقال المتعال الصعيدي (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي)<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان يُعنى بالعنوان، ويضع لردوده من العنونات ما تقتضيه الحال، والمناسبة. ثانياً: براعة الاستهلال: وهي روعة الاستفتاح، وجودة المطلع؛ فذلك دليلٌ على الألمعية، وحسن البيان، وسلامة الذوق.

كما أنه سبيل إلى بلوغ المعاني إلى الأذهان؛ فذلك ينبغي أن يكون الاستهلال

١- انظر هدى ونور ص ٩٦-٩٨.

٢- انظر ملتقى الإمام محمد الحنبل في الجزائر ص ٤١-٤٢.

حسناً مقبولاً، دالاً على الغرض ولو من طرفٍ خفي؛ فالفكرة الأولى عن شيء، أو أمر، أو شخص تثبت وتقرُّ في النفس. ومحوها يحتاج إلى عناء؛ فإن كانت حسنةً صعبٌ تهجينها، وإن كانت سيئةً عزٌّ تزيينها.

ولهذا عني علماء البلاغة في مبادئ الكلام، وعقدوا له الفصول في كتبهم، ونبهوا على ما ينبغي للكاتب، والشاعر في هذا الشأن.

قال أبو هلال العسكري رحمته الله: «إذا كان الابتداء حسناً بديعاً ومليحاً ورشيقاً كان داعية الاستماع لما يجيء بعده من الكلام.

ولهذا المعنى يقول الله - عز وجل -: ﴿الْمَ﴾، ﴿حَمَ﴾، ﴿طَسَ﴾، ﴿كَهَيْعَصَ﴾. فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد؛ ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده، والله أعلم بكتابه.

ولهذا جعل أكثر الابتدئات بـ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأن النفوس تتشوق للثناء على الله؛ فهو داعية الاستماع»<sup>(١)</sup>.

وقال رحمته الله: «قال بعض الكتاب: أحسنوا معاشر الكتاب الابتدئات؛ فإنهن دلائل البيان»<sup>(٢)</sup>.

ولذا فإنه يحسن بالكاتب عموماً، والناقد الناقض - على وجه الخصوص - أن يُعنى بمطالعه، وافتتاحات كتبه؛ فالافتتاح - إن وجد - هو أول ما يلقي به محاوريه، وقراءه؛ فإن وقع في نفوسهم موقع القبول كان بقية الكتاب على غراره، واستطاع أن يصل إلى قلوبهم من خلاله.

وإن كانت الأخرى كان الأمر بعكس ذلك<sup>(٣)</sup>.

١ - كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تصنيف أبي الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، تحقيق علي بن محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. ص ٤٣٧.

٢ - المرجع السابق ص ٤٣١.

٣ - انظر الخطابة - أصولها - تاريخها في أزهر عصورها عند العرب للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر

العربي، ص ٧٩.

ومهما يك من أمر الافتتاح فينبغي أن يكون قصيراً موجزاً؛ لثلا يشغل حيزاً. وينبغي كذلك- ألا يكون مبتدلاً تنفر منه النفوس، ولا تسيغه، كأن يشتمل على تزئيد، وتطاول، وتعال، وسفه، وغرور. ولقد كانت ردود الشيخ الخضر سائرة على هذا الطراز من حسن الافتتاح؛ حيث كان يهيب النفوس، ويجتذب الأذهان لما سيورده، فيذكر سبب رده، ودوافع تأليفه، ويشير إلى الغرض الذي يرمي إليه، وطريقته في ذلك؛ فجاءت افتتاحياته على نحو بديع سائغ موجز. والناظر في مقدمات ردوده يلحظ ذلك جلياً سواء كان ذلك في كتبه، أو مقالاته، أو محاضراته.

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١. ما جاء في مقدمة كتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي): حيث استهل ذلك الكتاب بمقدمة تليق بذلك الرد؛ إذ كان حاضراً في ذهنه خطورة ذلك الكتاب، وأنه في نظره- مشروعٌ تنظيريٌّ للمد التغريبي، وطمس هوية الأمة؛ فقدم الشيخ مقدمة تبين ما ينبغي أن يكون عليه مشروع الأمة الثقافي، وكيفية مواجهة ذلك المد التغريبي. يقول ﷺ في مطلع مقدمته: «نهضت الأمم الشرقية فيما سلف نهضة اجتماعية ابتدأت بطلوع كوكب الإسلام، واستوثقت حين سارت هدايته سيرها الخيث، وفتحت عيون هذه الأمم في طريقة الحياة المثلى.

سادت هذه النهضة، وكان لها الأثر الأعلى في الأفكار والهمم والآداب.

ومن فروعها: نهضة أدبية لغوية جعلت تأخذ مظاهرها العلمية لعهد بني أمية، واستوت على ساقها في أيام بني العباس.

أمسك بيدك كتب التاريخ والأدب ملتصقاً الحقيقةً بذكاء موزون، وقلب سليم؛ فلا أحسبك تصدر عنها إلا بنفس مطمئنة لإجلال أولئك الذين درسوا أدب اللغة، وخاضوا في فنونه، فأمتعوا البحث، وكانوا القدوة الحسنة في حسن التصرف

وحكمة البيان»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن بيّن ما كانت عليه الأمة من عز انتقل إلى ما أصابها من وهدة الخمول، وأسباب ذلك، فقال: «تمتع الشرق بنهضته الاجتماعية والأدبية حقاً، ثم وقف التعليم عند غاية، وأخذ شأناً غير الشأن الذي تسمو به المدارك، وتنمو به نتائج العقول؛ فإذا غفوةً تدبّ إلى جفون هذه الأمة، ولم تكذُ تستفيق منها إلا ويدٌ أجنبية تقبض على زمامها»<sup>(٢)</sup>.

ثم انتقل بعد ذلك إلى أن بعض أولي الحكمة هبوا «يُقلّبون وجوههم في العلل التي مست أمم الشرق؛ فقعدت بهم سنين عدداً، وبعثوا أفلامهم من مراقدها تصف هذه العلل، وتنذر الناس مودة اليأس والجبن والخمول، وتلقي عليهم دروساً في أسباب الحياة، ووسائل الخلاص»<sup>(٣)</sup>.

ثم انتقل بعد ذلك إلى المعركة بين الشرق والغرب، والقديم والجديد، وما ينبغي أن تكون الحال عليه، فقال: «التفت الشرق إلى ما كان في يده من حكمة، وإلى ما شاد من مجد، وإلى من شبّ في مهده من أعظم الرجال، أخذ ينظر إلى ماضيه ليميز أبنائه بين ما هو تراث آبائهم، وبين ما يقتبسونه من الغرب، وليشعروا بما كان لهم من مجد شامخ، فتأخذهم العزة إلى أن يضموا إلى التالد طريفاً، وليذكروا أنهم ذرية أولئك السراة، فلا يرضوا أن يكونوا للمستبدين عبيداً.

أنشأ أولو الأحلام الراجحة من الزعماء والكتّاب، يأخذون بما يظهر من جديد صالح، ولا ينكثون أيديهم من قديم نافع، فاستطاعوا بهذه الحكمة والروية أن يسلكوا قلوب الأمة في وحدة، ويخطّوا بها إلى حياة العلم والحرية والاستقلال»<sup>(٤)</sup>.

١- نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٦.

٢- المرجع السابق ص ٦.

٣- المرجع السابق ص ٦-٧.

٤- المرجع السابق ص ٧.

إلى أن قال: «نظر إلى هذه النهضة الزاكية مَنْ لا يرغبون في تقدم هذه الأمم إلى خلاصها ولو خطوة، وعرفوا أن بأيدي هذه الأمم كتاباً فيه نظم اجتماعية، وآيات تأخذ في شرط إيمانهم به ألا يلينوا لسلطة شأنها أن تسوسهم على غير أصوله، فما كان من هؤلاء القوم الذين يَسْتَحِلُّون إرهاب الأمم إلا أن يبتغوا الوسيلة إلى فتنة القلوب وصرفها عن احترام ذلك الكتاب.

والغاية تقويضُ بناءِ هذه الوحدة السائرة بنا إلى حياة سامية، وعزلاً يبلى»<sup>(١)</sup>. ثم تَخَلَّصَ من ذلك إلى الحديث عن يريدون طمسَ هُويَةِ الأمة باسم حرية الفكر، فقال: «فسقت طائفة عن أدب الإسلام، وأرهفت أقلامها؛ لتعمل على هذه الخطة الخاذلة، غير مبالية بسخط الأمة، ولا متحرجة مما سينطق به التاريخ من وضع يدها في يدٍ خفية، لا شأن لها إلا نصب المكاييد لأمة كان لها العزمُ النافذُ، والكلمة العليا.

تلهج هذه الطائفة باسم حرية الفكر، وهي لا تقصد إلا هذا الفن الذي أكبت عليه صباحها ومساءها، وهو النَّيل من هداية الإسلام، والغضُّ من رجال جاهدوا في سبيله بحجة وعزم وإقدام.

يكفي شاهداً على رياء هؤلاء الرهط: أنهم يقيمون مآثم يندبون فيها حرية الفكر، ثم ينصرفون ويقولون فيما يكتبون: للحكومة أن ترهق الشعب، وترغمه على ما تراه أمراً لاثقاً.

ولو سبق ظنك إلى أن مؤلف كتاب (في الشعر الجاهلي) هو عينهم الناظرة، وسهمهم الذي يرمون به في مقاتل أمتهم الغافلة - لخليت بينك وبين هذا الظن؛ إذ ليس لي على هذه الظنون الغالبة من سبيل»<sup>(٢)</sup>.

وبعد ذلك بين الغاية من ذلك الرد، فقال: «فالقلم الذي يناقش كتاب (في

١- المرجع السابق ص ٧.

٢- المرجع السابق ص ٧.

الشعر الجاهلي) إنما يطأ موطئاً يغيظ طائفة احتفلت بهذا الكتاب، وحسبته الطعنة القاضية على الإسلام وفضل العرب.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ (الأحزاب: ٢٥) «<sup>(١)</sup>.

وبعد ذلك انتقل إلى مقدمة ثانية؛ فلعله عدَّ الأولى تمهيداً، وتوطئة.

وفي مقدمته الثانية بعد البسمة، والحمدلة قال معرفاً بكتابه: «هذا طرُّزٌ من نقد كتاب (في الشعر الجاهلي) طريفٌ، سيألفه الناس لهذا العهد، وسيألفه أبناء الأجيال القابلة من بعد، وأكاد أثق بأن الدكتور طه حسين سيلقاه ساخطاً عليه، وبأن فريقاً من أشياعه سيَزورون عنه ازوراراً، ولكنني -على الرغم من سخط ذلك، وازورار هؤلاء- أريد أن أذيع هذا النقد؛ فرضا الحقيقة خيراً من رضا الناكب عنها، وإقبال مريدِها أجلّ من إقبال المظاهر عليها»<sup>(٢)</sup>.

وبعد ذلك أخبر أنه وقع نظره على كتاب (في الشعر الجاهلي) وأنه كان على خبرة من «حذق مؤلفه في فن التهكم -ولو بالقمر إذا اتسق- والتشكيك -ولو بالشمس الضاربة بأشعتها في واد-».

وأنه قرأه بنظر يزيل القشر عن لبابه، وينفذ من صريح اللفظ إلى لحن خطابه. وما نفض يده عن مطالعة فصوله حتى رآها شديدة الحاجة إلى قلم ينبه على علاتها، ويرد كل بضاعة على مستحقيها<sup>(٣)</sup>.

ثم بيّن منهجه في ذلك، وقد مضى عند العرض لكتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي).

ثم أورد بإشارة موحية خلاصة ما كان يأخذه على طه حسين من الغمز، والأخذ من الآخرين، فقال: «وإننا لا نغمض لذلك الكتاب من مقال ينهيه، أو

١- المرجع السابق ص ٨.

٢- المرجع السابق ص ١٠.

٣- انظر المرجع السابق ص ١٠-١١.

غمز في الإسلام يستعذبه؛ فإن وجدتنا نحاوره في نهب أو غمز فإننا لا نخرج عن دائرة نقده، ولم نتجاوز حد الباحث عن مقتضيات لفظه؛ فإن كان في فمك ملامم فمُجَّه في سمعه؛ فهو الذي ألقى على سمعك نحواً من حديث قوم لا يتدبرون»<sup>(١)</sup>. وهكذا احتوت تلك المقدمة على البراعة، والجمال، والإيجاز، والإيجاء بمضمون الكتاب.

٢. ما جاء في مقدمة كتاب (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم): حيث قدم لهذا الكتاب بصفتين ونصف، واستهل كلامه بفتاحية تشير إلى موضوع الكتاب، وهي مسألة الحكم في الإسلام، فقال: «أحمد الله على الهداية، وأسأله التوفيق في البداية والنهاية، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد المبعوث بأكمل دين وأحكم سياسة، وعلى آله وصحبه وكل من حرس شريعته بالحجة أو الحسام وأحسن الحراسة»<sup>(٢)</sup>.

ثم بين بعد ذلك وقوفه على الكتاب المردود عليه، وقراءته له، وإحسانه الظن بمؤلفه في بداية الأمر إلى أن اتضح له يقيناً ما يرمي إليه ذلك الكتاب - كما مر في المطلب الماضي -.

ثم انتقل بعد ذلك إلى بيان موجز لخلاصة ما تضمنه ذلك الكتاب من باطل، فقال: «فوق المؤلف سهامه في هذا الكتاب إلى أغراض شتى، والتوى به البحث من غرض إلى آخر، حتى جحد الخلافة، وأنكر حقيقتها، وتخطى هذا الحد إلى الخوض في صلة الحكومة بالإسلام.

وبعد أن ألقى حبالاً وعصياً من التشكيك والمغالطات زعم أن النبي - عليه السلام - ما كان يدعو إلى دولة سياسية، وأن القضاء وغيره من وظائف الحكم ومراكز الدولة ليست من الدين في شيء، وإنما هي خطط سياسية صرفة لا شأن

١- المرجع السابق ص ١١.

٢- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٨.

للدين بها.

ومسّ في غضون البحث أصولاً لو صدق عليها ظنّه لأصبحت النفوس المطمئنة بحكمة الإسلام وآدابه منزللة العقيدة، مضطربة العنان»<sup>(١)</sup>.

ثم انتقل بعد ذلك إلى بيان أن خطورة ذلك الكتاب تكمن في كونه قد صدر من ذي علم، وانتساب للقضاء الشرعي، فقال: «كنا نسمع بعض مزاعم هذا الكتاب من طائفة لم يتفقهوا في الدين، ولم يحكموا مذاهب السياسة خبرة، فلا نقيم لها وزناً، ولا نحرك لمناقشتها قلماً؛ إذ يكفي في ردها على عقبيها صدورُها من نفرٍ يرون الحطّ في الأهواء حرية، والركض وراء كل جديد كياسة. كنا نسمع هذه المزاعم، فلا نزيد أن نعرض عمّن يلغظون بها حتى يخوضوا في حديث غيرها.

أما اليوم، وقد سرت عداوها إلى قلم رجلٍ ينتمي للأزهر الشريف، ويتبوأ في المحاكم الشرعية مقعداً - فلا جرم أن نسوقها إلى مشهد الأنظار المستقلة، ونضعها بين يدي الحجّة، وللحجّة قضاء لا يستأخر، وسلطان لا يحابي ولا يستكين»<sup>(٢)</sup>.

ثم بين -بعد ذلك- مراده من ذلك الرد، فقال: «لا أقصد في هذه الصحف إلى أن أعجم الكتاب جملة، وأغمز كل ما ألاقه فيه من عوج؛ فإن كثيراً من آرائه تحدثك عن نفسها اليقين، ثم تضع عنقها في يدك، دون أن تعتصم بسند، أو تستتر بشبهة.

وإنما أقصد إلى مناقشته في بعض آراء يتبرأ منها الدين الحنيف، وأخرى يتذمر عليه من أجلها التاريخ الصحيح، ومتى أميط اللثام عن وجه الصواب في هذه المباحث الدينية التاريخية بقي الكتاب ألفاظاً لا تعبر عن معنى، ومقدمات لا تتصل بنتيجة»<sup>(٣)</sup>.

١- المرجع السابق ص ٨-٩.

٢- المرجع السابق ص ٩.

٣- المرجع السابق ص ٩-١٠.

ثم بين بإيجاز شديد خطته في الرد، فقال: «والكتاب مرتب على ثلاثة كتب، وكل كتاب يحتوي على ثلاثة أبواب، وموضوع الكتاب الأول: الخلافة والإسلام، وموضوع الكتاب الثاني: الحكومة والإسلام، وموضوع الكتاب الثالث: الخلافة والحكومة في التاريخ»<sup>(١)</sup>.

ثم بين بإيجاز وبلاغة طريقتَهُ في النقد، فقال: «وطريقتنا في النقد أن نضع في صدر كل باب ملخصاً ما تناوله المؤلف من أمهات المباحث، ثم نعود إلى ما نراه مستحقاً للمناقشة من دعوى أو شبهة، فنحكي ألفاظه بعينها، ونتبعها بما يزيح لبسها، أو يحل لغزها، أو يجتثها من منبتها»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا أفصح من خلال هذه المقدمة البليغة المحكمة عما يريده من تأليف ذلك الرد.

٣. يبدأ - أحياناً - في مقدمات ردوده في تقرير الصواب في المسألة المتنازع عليها، ثم يتخلص إلى الداعي إلى كتابة الرد، ثم يبدأ بالنقض أو النقد. ومن أمثلة ذلك صنيعه مع محمد أبو زيد الدمهوري الذي ألف كتاباً سماه (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن).

فرد عليه الشيخ الخضر رداً سماه (كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد) وقدم لذلك الرد بمجديث عن حكمة الله، وأن في وجوه الخير ما لا تصل إليه عقول البشر نفسها، ثم انتقل إلى الحديث عن القرآن، وإنزاله باللسان العربي، والعهد ببيانه إلى الرسول الكريم ﷺ، وأنه - عليه السلام - ترك الأمة على البيضاء، وأن الصحابة ورثوا ذلك العلم، وأدوه إلى التابعين، ثم أداه التابعون إلى من بعدهم، وهكذا..

وأن القرآن ما زال يُدرس، وأن الراسخين في العلم لا يختلفون في فهم آياته إلا آياتٍ لا يمس الخلاف فيها أصلاً من أصول الدين، وأنه ليس فيما يعتد به من هذا الخلاف ما يخرج فيه الفهم عن أساليب العربية، ومقتضى وضع ألفاظها.

١- المرجع السابق ص ١٠.

٢- المرجع السابق ص ١٠.

ثم يخلص من ذلك إلى الانحراف في تناول القرآن بقول لا تراعي في فهمه قوانين البلاغة، ولا تدخل إلى تفسيره من باب السنة الصحيحة؛ فأدخلوا في تفسير القرآن آراءً أسخيفةً، ومزاعمَ منبوذةً، ووجدت هذه الآراء، وهذه المزاعم عند بعض العامة وأشباههم مُتَقَبَّلًا.

ثم يُعَرِّج على الباطنية، والبهائية، ومن ضاهاهم؛ ممن انطلقوا إلى القرآن الكريم يؤولونه على ما يوافق شهواتهم، ويقضي حاجات في نفوس ساداتهم<sup>(١)</sup>.

ثم ينتقل إلى المردود عليه، فيقول: «ومن هؤلاء نفر شخص سولت له نفسه أن يخوض في آيات الله كالذين خاضوا فيها على عمية، فكتب جملاً قصيرة قذف فيها شيئاً من وساوسه، وسماها: تفسيراً، بل تنهى في الافتتان بها، فسماها: (الهداية والعرفان).

والذي يقرأ هذه الجمل لا يرتاب في أن صاحبها جامد على المحسوسات، جاحد لكثير مما أخبر به القرآن، منكرٌ لأحكام قررها القرآن والسنة، وأجمع عليها الصحابة وأئمة الإسلام من بعدهم جيلاً بعد جيل، ولكنه يريد أن يدل على إنكاره بما يرتكبه في الآيات من سوء التأويل»<sup>(٢)</sup>.

ثم يبدأ بتفنيد آراء المردود عليه بكلام مفصل.

وهكذا صنع مع الدكتور محمد أحمد خلف الله في كتابه (الفن القصصي في القرآن)<sup>(٣)</sup> ومع طه حسين في (حقيقة ضمير الغائب في القرآن)<sup>(٤)</sup>، ومع الحداد<sup>(٥)</sup> في نقضه لآراء حديثه في (تفسير قصة أيوب - عليه السلام)<sup>(٦)</sup> وفي رده على علي عبدالرازق في (العظمة)<sup>(٧)</sup>.

١- انظر بلاغة القرآن ص ١٤٢-١٤٤.

٢- المرجع السابق ص ١٤٤-١٤٥.

٣- بلاغة القرآن ص ١٢٠.

٤- المرجع السابق ص ٧٩.

٥- المرجع السابق ص ١٦٨.

٦- المرجع السابق ص ١٨١.

٧- محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٢٠٧.

٤. قد يتوجه إلى موضوع الرد مباشرة، ثم يشرع في النقد كما في رده على الشيخ شلتوت (الهجرة وشخصيات الرسول) وقد مضى الحديث عنه<sup>(١)</sup>.  
وكما في رده على علي عبد الرازق (ملاحظات على مقال مولد النبي ﷺ)<sup>(٢)</sup>.  
وكما في رده على الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي (تحريف آيات الحدود عن مواضعها)<sup>(٣)</sup>.

حيث توجه إلى الرد على هؤلاء مباشرة دون مقدمة.

٥. أحياناً يفتح الرد ببيان وجهة نظره في الردود عليه قبل أن يدخل في موضوع الرد.

وهكذا صنع في رده المعنون بـ: (نقد آراء الأستاذ فريد وجدي من الناحية الدينية والاجتماعية) حيث قال في مفتحها: «كنا نقرأ للأستاذ فريد وجدي بعض مؤلفات، فنرى فيها جملاً يجيد بها عن السبيل، ولكننا نزنها بما كان يكتبه في تأييد الإسلام، فيبدو لنا أن صوابه أكثر من خطئه، ونحمل ذلك الخطأ على أنه وليد نظرة متسرعة، أو نلتمس له العذر من ناحية أنه لم يدرس علوم الدين وتاريخ الإسلام دراسة تحميه من أن يشذ عن الجادة إلى مكان بعيد. وللأستاذ المرحوم أحمد تيمور باشا تأليف في بيان ما اشتملت عليه (دائرة معارف) الأستاذ فريد وجدي من الخطأ الفاحش في التاريخ»<sup>(٤)</sup>.

ثم يذكر بعد ذلك بعض ما أنكره فيما بعد على الأستاذ وجدي، فيقول: «ما زلنا نعتقد أن الأستاذ في صفوف الدعاة إلى الحق والإصلاح، على الرغم مما كان يظهر في بعض منشأته من شذوذ، حتى قرأنا له منذ ثلاث سنين مقالاً في مجلة

١- المرجع السابق ص ٢٢٧-٢٢٨.

٢- المرجع السابق ص ٣٠٣.

٣- بلاغة القرآن ص ١٣٥.

٤- محاضرات إسلامية ص ٢٠٠.

تصدر في حلب يقال لها: (الحديث) فأحسسننا في هذا المقال روحاً تحذل الروح الذي كان يتردد فيما ألفه من قبل، ولبثنا غير بعيد، فإذا نحن نقرأ للأستاذ ثلاث مقالات نشرها في جريدة (الأهرام) تحت عنوان: (الدعوة إلى التجديد)، فتزحزح فيها عن سيرته الأولى أكثر مما تزحزح، وجعل ناقدتي مقالاته يحسبون قلمه في الأقسام التي تستخف بأمر الدين في غير رصانة، وأتبع هذه المقالات بمقالة جعل عنوانها: (سطوة الإلحاد على الأديان) وأكبر في هذا المقال حركة الإلحاد، وادّعى أن رجال الدين ليس بيدهم سلاح يقاوم سلاح الملحدين»<sup>(١)</sup>.

ويواصل الشيخ الخضر بيان إحسان الظن بالكاتب، ورغبته في أن يعود إلى سيرته الأولى، فيقول: «كنا نقرأ هذه المقالات، ونصرف عنها النظر؛ رجاء أن يجد الأستاذ من نفسه واعظاً، أو من كتاب الله الذي اقتحم تفسيره منبهاً، حتى نشر الأستاذ الشيخ محمد التفتزاني في جريدة (الأهرام) مقالاً نقد فيه ما وقع في بعض بلاد الإسلام من ترجمة القرآن إلى غير العربية لتقوم الترجمة مقام الأصل، فكان من الأستاذ فريد وجدي أن جرد قلمه، وانهال يجذ ذلك العمل، ويطري من ارتكبوه في إغراق، واستبان من لهجته أنه انقلب إلى دعاية لو أساغتها العقول، وأسلمت إليها النفوس، لقوضت باسم التجديد ما تعبت يد الإصلاح في بنائه»<sup>(٢)</sup>.

ثم يخلص بعد ذلك إلى السبب الذي دعاه إلى الرد، فيقول: «ذلك ما دعاني إلى أن أنقل من تلك المقالات قطعاً متجافية عن الحقيقة، حتى إذا شئت أيها الناشئ أن تقرأ شيئاً مما يخطه قلمه قرأته وأنت على بينة من أنه لا يملك لعواطفه مردأ»<sup>(٣)</sup>.

ثم شرع بعد ذلك في نقد ما يراه يستحق النقد.

١- المرجع السابق ص ٢٠٠-٢٠١.

٢- المرجع السابق ص ٢٠١.

٣- المرجع السابق ص ٢٠١.

ثالثاً. عنوانة الأفكار: فمما يمتاز به الشيخ الخضر أنه يعنون للأفكار التي يريد مناقشتها، والموضوعات التي يعالجها<sup>(١)</sup>.

وهذا مما يضيف على البحث والرد جمالاً، وتشويقاً.

وهذه طريقة يسلكها الشيخ في بعض ردوده؛ حيث يأخذ بهذا الأسلوب البديع؛ فيطرد بذلك المسلك الملل عن نفوس القراء، ويعينهم على فهم المقصود، بخلاف ما إذا كان الرد طويلاً مسترسلاً؛ فقد يبعث على السآمة، وترك المواصلة في القراءة. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رده على القاديانية، وبيان ضلالها، وبطلانها؛ حيث جاء على هيئة عنوانات، وتحت كل عنوان عدة عناصر، وذلك كما يلي:

- طائفة القاديانية

- تفنيد مذهب القاديانية

- نقض شبه القاديانية

وتحت كل عنصر من هذه العناصر بسط، وإيضاح<sup>(٢)</sup>.

وكذلك صنع في بحثه عن الإلحاد: حيث عنون له ب: الإلحاد: أسبابه - طبائعه - مفسده - أسباب ظهوره - علاجه.

وتحت هذه العنوانات - أيضاً - عنوانات جانبية أخرى، وتحت كل عنوان كلام مختصر يفهمه القارئ بيسر وسهولة<sup>(٣)</sup>.

رابعاً: استخدام أسلوب التلخيص: فمما يكمل البحث، ويزيد في جماله حسن الاستخدام لأسلوب التلخيص؛ حيث يعتمد الباحث إلى تلخيص موضوع، أو فكرة شغلت حيزاً كبيراً، فيصوغها بأسلوبه الخاص، مع الاحتفاظ بالفكرة الأساس؛ بحيث يجمع أطراف الموضوع في أخصر ما يكون.

١- انظر ملتقى الإمام محمد الخضر حسين في الجزائر ص ٥٩.

٢- انظر القاديانية والباية والبهائية ص ٦٧٥.

٣- انظر رسائل الإصلاح ص ١٧-٢٥.

وهذا ما كان الشيخ الخضر يأخذ به في ردوده؛ فكثيراً ما كان يلخص محلّ النزاع، أو يلخص كلام الخصم بكل أمانة، أو يلخص الرد بعد أن يفصل فيه حتى يجتمع ولا يتشعب على المطلع، أو يلخص نتيجة البحث وما توصل إليه؛ فتراه كثيراً ما يبدأ مقدماته بملخصة موجزة عن الرد - كما مر عند الحديث عن براعة استهلاله -.

وتراه يبدأ أبواب الرد بملخص لما جاء في كتاب الخصم، وذلك ما سلكه مع علي عبدالرازق في كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) <sup>(١)</sup>.

ومن أقواله في ذلك، قوله: (ملخص الباب) أو قوله في بداية الباب: (ملخصه) <sup>(٢)</sup>. ومن أقواله في معرض رده على طه حسين في كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) قوله: «وصفوة المقال في هذا البحث: أن اللغة القحطانية تقربت من اللغة العدنانية في عهد قبل الإسلام، وصارت تحاذيها في أكثر مفرداتها، وقواعد نحوها و صرفها، ولنا في شعر القحطانيين نظرة أخرى سنلقيها إليك في أمد قريب» <sup>(٣)</sup>.

وقوله في خاتمة الكتاب الثاني من ذلك الرد، وهو أسباب انتحال الشعر: «وصفوة المقال أن الشعر الذي يرويه أولئك الثقات النبهاء، ولم يمسه أحد منهم بنقد فإننا نقبله على أنه شعرٌ من نسبوه إليه إلى أن تقوم على انتحاله بينة» <sup>(٤)</sup>. وقال في خاتمة ذلك: «نتيجة البحث...» <sup>(٥)</sup>.

وقال: «تتلخص هذه النتيجة في ست جمل: ...» <sup>(٦)</sup>.

خامساً: توظيف الثقافة والمعارف لخدمة الموضوع: فمن أعظم ما يرتقي بالكتابة، ومن أجمل ما يحسن بالكاتب - أن يوظف طاقاته، وثقافته، ومعارفه

١- انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٣ .

٢- انظر المرجع السابق ص ١٢٥ و ١٧١ و ٢٠٦ و ٢٣٥ و ٢٦١ و ٢٧٦ .

٣- انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٩٩ .

٤- المرجع السابق ص ٢٤٦ .

٥- المرجع السابق ص ٤٣١ .

٦- المرجع السابق ص ٤٣٤ .

لخدمة الغرض الذي يرمي إليه ، وأن ينزل كل شيء من ذلك منازلها؛ لأجل أن يكون بحثه متكاملًا مشبعًا من جميع الجوانب؛ فيجتمع فيه الدليل النقلي والعقلي ، والشاهد التاريخي ، والبيت الشارد ، والمثل السائر ، والنكتة البلاغية ، والنادرة الأدبية ، وهكذا.

ولقد كانت ردود الشيخ الخضر مثلاً ناطقاً في توظيف الثقافة ، والمعارف لخدمة الموضوع؛ فتجد ذلك ماثلاً في ردوده ، من حيث تنوع مصادره ، وكثرة استشهاده ، وإدماج ذلك في تضاعيف منازلته.

والشواهد على ذلك كثيرة جداً ، حيث تجد تلك الردود ممتعة بالمباحث القرآنية ، والحديثية ، والقواعد الأصولية ، والفقهية ، والحكم التشريعية ، والنظرات المقاصدية ، والشواهد النحوية والبلاغية ، والمباحث الأدبية والتاريخية. كما أنها حافلة بالنقل عن علماء الإسلام ، وغير علماء الإسلام كالمستشرقين ومن نحائهم وهلم جراً.

وكل هذه الثقافات والمعارف يوظفها لخدمة ردوده التي يفند بها حجج المخالفين من كل جانب؛ فتأتي على درجة عالية من جمال العرض. ولا ريب أن ذلك النهج لا يتسنى لكل أحد ، وهذا مما جعل لردوده الريادة والتقدم على غيرها<sup>(١)</sup>.

ولقد مر أمثلة كثيرة من هذا القبيل ، وسيأتي مزيد بيان لذلك في المطلب القادم عند الحديث عن جودة بيانه ، وإحكامه صناعة الكتابة ، وكذلك في المبحث الذي يلي هذا المبحث عند الحديث عن أساليبه المنهجية.

سادساً: العناية بحسن الختام: فالخاتمة هي آخر ما يكتب ، ولها أثرها الباقي؛ إذ هي آخر ما يعلق في النفس ، وأكثر ما يبقى في الذهن ، ويتصل بالقلب؛ فإن

١- انظر على سبيل المثال: نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٩٦ ، ونقض كتاب الإسلام وأصول

الحكم ص ٩ و ١٠ و ٣٠ و ١٤٥ و ١٤٩ .

كان وقعها حسناً انسحب ذلك عن جميع ما مضى، وإلا ساء الأثر، وضاعت الغاية المنشودة؛ فيتعين على الكاتب أن يجتهد في حسن الختام، وأن يجعله رشيقياً، حلواً، مشتملاً على جمال اللفظ، وإصابة الغرض، متضمناً إيجازاً لما مضى بأخصر عبارة، وألطف إشارة.

وكل خاتمة بحسبها؛ فخاتمة المقالة تختلف عن خاتمة الكتاب، كما أن خواتم الكتب تختلف باختلاف كبرها وصغرها، وهكذا..

ولقد سارت خواتيم ردود الشيخ الخضر على هذا النحو، فكان ذا عناية فائقة بختامها؛ حيث يجعل ذلك الختام حلواً رائقاً، مؤدياً للغرض، جامعاً لأطراف الموضوع في بعض الأحيان، مختوماً بآية من كتاب الله - عز وجل -.

والتأمل لخواتيم ردوده يجد ذلك جلياً، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١. قال في خاتمة كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي): «إننا أمة بحث ونظر:

نذهب مع العلم كل مذهب، ولا نقف لحرية الفكر في طريق، وإنما نحن بشر، والبشر تأبى قلوبهم إلا أن تزدرى أقلاماً تثب في غير علم، وتجاوز في غير صدق، وإنما نحن بشر، والبشر تأبى لهم أقلامهم إلا أن تطمس على أعين الكلمات الغامزة في شريعة محكمة أو عقيدة قيمة.

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَلِّبُ يَهْدِ الْمَلِئِئَاتُ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١١) وَأَنْتَ لَهُمْ إِنْ كُنَّ

مَتِينٌ ﴿ القلم: ٤٤ - ٤٥ ﴾ (١).

٢. وقال في خاتمة كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) مقارنة بين صنيع

أتاتورك الذي طبق العلمانية عملياً، وقام بهدم الخلافة، وبين صنيع علي عبدالرازق الذي نظر لها علمياً: «قام في زمن قريب بعض من تخبطه الجهل والغرور، وصاح في وجه حكومة شعب مسلم صيحة المعربد، منكرًا عليها ما

قررت في قانونها الأساسي؛ مِنْ جَعَلَ الإسلام ديناً رسمياً للدولة. وقد ردّ المؤلف في نتيجة أبوابه التسعة هذه الصحيحة؛ إذ حاول أن يقطع الصلة بين الدين والسياسة، ويحارب آداب الإسلام القاعدة للإباحية الفاسقة في كل مرصد. ولكن الفرق بين ذلك الصائح وهذا الصدى: أن الأول وثب على المسألة وثوب أهبل لا يعرف يمينه من شماله.

أما المؤلف، فقد أدرك أن الأمة مسلمة، وأن الإسلام دين وشريعة وسياسة، وأن هاتين الحقيقتين يقضيان على الدولة أن تضع سياستها في صبغة إسلامية؛ فبدأ له أن يعالج المسألة بيد الكيد والمخاتلة، ويأتيها باسم العلم والدين؛ فكان من حذقه أن التقط تلك الآراء الساقطة خلطها بتلك الشبه التي يخزي بعضها بعضاً، وأخرجها كتاباً يحمل سموماً لو تجرّعها المسلمون لتبدلوا الكفر بالإيمان، والشقاء بالسعادة، والذلة بالعزة، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المنافقون: ٨ «<sup>(١)</sup>.

٣. وقال في خاتمة رده (تحريف آيات الحدود عن مواضعها) الذي رد به على عبدالمعتال الصعيدي: «ولو جرى الناس على مثله من تفسير القرآن المجيد لكفوا خصوم الإسلام جانباً من العمل لهدم أركانه، وطمس معالمه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩ «<sup>(٢)</sup>.

٤. وقال في خاتمة رده المسمى (كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد) الذي رد به على الدمنهوري: بعد أن ساق أمثلة كثيرة على ضلال ذلك الكتاب: «هذه أمثلة من كتاب حشو الجحود والهذيان، نسوقها في هذه الرسالة؛ ليزداد المسلمون علماء بأن مؤلفه مهزول الفكر، منحرف عن الرشد، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ

١- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٣٠١.

٢- بلاغة القرآن ص ١٤١.

يَأْتَهُمْ كَذِبًا بَيِّنَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَنِيْلِينَ ﴿ الأعراف: ١٤٦ ﴾<sup>(١)</sup>.

٥. وقال في خاتمة رده على الحداد: «وكان من رأينا صرف القلم عن ذكر هذا الكتاب؛ اكتفاء بما تناولته به أقلام أهل العلم في تونس من الرد المحكم. ولكن الدعاية التي قام بها شركاء صاحب الكتاب في مصر دعتنا إلى أن نذكره، ونُري القراء مثلاً من باطله؛ ليحذروا فتنة، ويعلموا أن في الشرق نفوساً تقضي باسم الشريعة مآرب قوم يبتغون فساد ما بقي فينا من عقيدة سليمة، وأدب نُغبط عليه، ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠»<sup>(٢)</sup>.

فهذه أهم المعالم لجمال العرض الذي كان يسلكه الشيخ الخضر في ردوده على المخالفين.

١- المرجع السابق ص ١٦٧ .

٢- المرجع السابق ص ١٨٠ .

## المطلب الثاني: جودة البيان، وإحكام صناعة الكتابة

ويراد من ذلك: العناية بالألفاظ، والتراكيب، وطرائق الكلام، وملاءمته، وإعطاء كل مقام حقه.

ويعني ذلك -أيضاً- جزالة الألفاظ، ورشاققتها، ووضوحها، وأن يكون الكلام حالاً بين حالين: بين الوحشي الغريب، والسوقي القريب.

ويدخل في هذا القليل: الابتعاد عن التكلف؛ فلا يبالغ المتكلم أو الكاتب في سجع، ولا يقصد إلى التعمية، ولا يعتمد إلى العبارات القلقة إلى غير ذلك مما ينبئ عن جودة البيان.

يقول الشيخ الخضر مبيناً أهمية العناية بالألفاظ: «والألفاظ بمنزلة الظروف تنقل المعاني من نفس إلى أخرى؛ فيحسن أن تكون على قدر المعنى الذي قصد إلى نقله، فإن كانت أقل منه وصل المعنى إلى ذهن المخاطب ناقصاً، وإن كانت أكثر منه حملت لسانك ما لا حاجة إلى حملها، وألقيت في سمع مخاطبك ما لا طعم له ولا رائحة.

والألفاظ للمعاني بمنزلة الثوب للبدن، ومن الأثواب ما يقي من الحر والبرد، ولكن العين تمجُّه؛ لرداءة مادته، أو ضعف نسجه، أو قبح منظره؛ وكذلك الألفاظ قد تفصل على قدر المعنى، ولكن الذوق يمجها؛ لتنافر حروفها، أو تجافي كلماتها، أو تنازل نظمها، أو انحرافها عن هيئة وضعها.

ونقدُ اللفظ إما أن يعود إلى المفرد، وإما أن يعود إلى التركيب»<sup>(١)</sup>.

ولقد كان الشيخ الخضر رحمته الله في ردوده معنياً كل العناية بجودة بيانه، وإحكامه صناعة الكتابة؛ فكان حاضراً في ذهنه -كما مر- أن جودة البيان من أمضى الأسلحة، ومن أولى ما ينبغي العناية به لمن يتصدى للكتابة، والرد.

وكان أسلوبه جارياً على قواعد العربية، من نحو، وصرف، وبلاغة.

بل كانت البلاغة تجري في عروق كلمه؛ حيث ترى الاقتباس، والتضمين، والسجع غير المتكلف، والتشبيهات الرائعة، وموائمة الألفاظ للمعاني.

١- الخيال في الشعر العربي دراسات أدبية ص ١٠٦.

وقد يعمد للإيجاز، أو المساواة، أو الإطناب بحسب ما يقتضيه المقام. وذلك ناتج عن مراعاته لمقتضيات الأحوال التي تقتضي أن يكون الرد بالأسلوب السوي غير المسهب الذي يبعث على الملل، ولا الموجز المخمل الذي لا يشبع نهم القارئ وتطلعه<sup>(١)</sup>.

ولهذا فالغالب على ردود الشيخ الخضر أنها مساوية للرد، متساوقة مع الشُّبه المثارة. ولكنه قد يسهب، أو يوجز حسب ما يستدعيه المقام والحاجة؛ فقد تدعو الحاجة في بعض الردود إلى أن يستطرد، ويطنل؛ رغبة في إثبات الموضوع، وقصدًا إلى الصواب في المسائل المتنازع عليها؛ فتراه يورد مباحث في محل النزاع؛ لكي تتضح الصورة للقارئ، ويلم بالموضوع من جميع أطرافه.

ومع ذلك لم يكن يطيل كثيراً في ذلك، ولا يخرج عن الموضوع، بل يكتفي بما تدعو الحاجة إليه.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) حيث أورد عدة مباحث في داخل الرد، مثل (بحث في قولهم: طاعة الأئمة من طاعة الله) و(بحث في قولهم: النصح للأئمة لا يتم إيمان إلا به) و(بحث في قولهم: السلطان ظل الله في أرضه)<sup>(٢)</sup>، و(بحث في مبايعة الخلفاء الراشدين وأنها كانت اختيارية) و(بحث في قوة الإرادة) و(بحث في الخلافة والملك والقوة والعصبية)<sup>(٣)</sup>، و(بحث في: أعطوا ما لقيصر لقيصر)<sup>(٤)</sup> و(بحث في مكانة الصحابة في العلم والفهم)<sup>(٥)</sup> وفي (معنى كون الدين سهلاً بسيطاً)<sup>(٦)</sup> و(بحث لغوي في خلف واستخلف)<sup>(٧)</sup> و(كلمة في سيرة أبي

١- انظر البحث العلمي صياغة جديدة ص ٢٠١.

٢- انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٧-١٩.

٣- المرجع السابق ص ٨٢-٨٧.

٤- المرجع السابق ص ١٧٦-١٨٠.

٥- المرجع السابق ص ١٩٨.

٦- المرجع السابق ص ٢٠١.

٧- المرجع السابق ص ٢٥٧-٢٥٨.

بكر<sup>(١)</sup>.

وكذلك ما جاء في كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) فهو حافلٌ بكثير من الأبحاث والتحريات التي تأتي عرضاً.

ومن ذلك: (بحث في أن اللذة في اعتناق الحكمة)<sup>(٢)</sup> و (بحث في رحلة الشتاء والصيف)<sup>(٣)</sup> و (بحث في أمانة صاحب الأغاني)<sup>(٤)</sup> و (بحث في وجود الجن)<sup>(٥)</sup> و (بحث في شبهة أن للقرآن مصادر من اليهودية والنصرانية)<sup>(٦)</sup>.

وكذلك ما جاء في (قصة أيوب - عليه السلام - ونقض آراء حديثة في تفسيرها) حيث أورد في داخل الرد عدة أبحاث، منها بحث في (صفوة آراء العلماء في تفسير سورة ص)<sup>(٧)</sup> وبحث عن (المرض وحكمه)<sup>(٨)</sup>.

وكما كان يأخذ بأسلوب الاستطراد، والبسط، والإطناب فكذلك كان يأخذ بأسلوب الإيجاز؛ وهذا واقع في كثير من ردوده، حيث ترى قوة الرد مع وجازته. وقد مضى ذكر لأمثلة من ذلك.

ومن أمثلته - أيضاً - ما جاء في رده المعنون بـ: (كتاب يلحد في آيات الله) الذي رد به على الحداد في كتابه (امراتنا في الشريعة والمجتمع) حيث ادعى الحداد دعوى عريضة وهي أن الإسلام لم يقرر نزول ميراث المرأة عن الرجل كأصل من أصوله التي لا تتخطاها<sup>(٩)</sup>.

فأجابه الشيخ الخضر بعد أن أورد الآيات التي تبين أن ميراث المرأة نصف

- 
- ١- المرجع السابق ص ٢٦٧-٢٦٩.
  - ٢- انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٤.
  - ٣- انظر المرجع السابق ص ٨٤-٨٥.
  - ٤- انظر المرجع السابق ص ٢٠٥-٢٠٦.
  - ٥- انظر المرجع السابق ص ٢٣٦-٢٤٢.
  - ٦- انظر المرجع السابق ص ٢٦٥-٢٦٨.
  - ٧- انظر بلاغة القرآن ص ١٨٢-١٨٥.
  - ٨- انظر المرجع السابق ص ٢٢٤-٢٢٧.
  - ٩- انظر المرجع السابق ص ١٧٤.

ميراث الرجل بقوله: «فإنه -تعالى- يوصي بأن تُعطى الأنثى نصفَ ما يُعطى الذكر، ويجعل هذه الوصية حداً من حدوده، ويتوعد على تعديها بالنار والعذاب المهين.

وذلك الكاتب يريد من المسلمين أن يهملوا وصية ربه، ويتعدوا حدوده، ويجعلوا ميراث الأنثى مساوياً لميراث الذكر، على الرغم من الحكم الواضحة فيما أوصى الله به من إعطاء الذكر مثل حظ الأنثيين»<sup>(١)</sup>.

فهذا مثال للإيجاز في ردوده، وسيأتي مزيد إيضاح لذلك في فقرات تالية. هذا وإن أعظم المعالم البيانية التي سارت عليها ردوده: الجمعُ بين الجزالة والسهولة؛ فأجود الكلام -كما يقول أبو هلال العسكري-: «ما يكون جزلاً سهلاً، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدوداً مستكراً، ومتوعراً متقعراً، ويكون بريئاً من الغثاة، عارياً من الرثاة. والكلام إذا كان لفظه غثاً، ومعرضه رثاً كان مردوداً، ولو احتوى على أجل معنى، وأنبله، وأرفعه، وأفضله»<sup>(٢)</sup>.

والشيخ الغنص في ردوده وغيرها كان جامعاً بين هاتين الخصلتين: الجزالة، والسهولة، وهذا أمر لا يتوافر لكل كاتب.

وكان حريصاً عليهما في جميع ما يكتب، عالماً بأثرهما وشدة وقعهما؛ كيف لا، وهو القائل:

ورقيق اللفظ يسري في الحشا  
ما سرتَ نظرةً ظبي ذي حور<sup>(٣)</sup>  
والقائل -أيضاً-:

١- المرجع السابق ص ١٧٤ .

٢- كتاب الصناعتين ص ٦٧ .

٣- خواطر الحياة ص ٩٨ .

والكلامُ الجزلُ وضِعاً - واقْعَ موقعَ السيفِ إذا السيفُ خطرٌ<sup>(١)</sup> ولذلك ترى الجزالة عنده من جهة ألفاظه وكونها مُتعارِفةً في استعمال الأدباء والبلغاء، سالمةً من الركاة، وضعف المعنى، ومن أثر ضعف التفكير، بريئةً من التكلف، وبما هو مستكره عند النطق بالكلمة أو الكلام<sup>(٢)</sup>.

وترى السهولة عنده من جهة سلاسة كلامه، ونصاعته، وتخثير لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وقلة ضروراته، بل عدمها أصلاً.

وهذا هو أجود ما يكون من الكلام، وهو ما تجد المنظوم منه مثل المنشور في سهولة مطلعته، وجودة مقطعه، وحسن رصفه، وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه - كما يقول أبو هلال العسكري رحمته الله -<sup>(٣)</sup>.

وهذا ما يعبر عنه بالسهل الممتنع؛ السهل: الذي يفهمه من قرأه وسمعه، والممتنع: المتعذر على من رام أن يكتب، أو يقول مثله<sup>(٤)</sup>.

ولئن كان هذا النمط من الكتابة عسيراً، بعيد المنال، وليس في طوق كل كاتب في أي شأن من الشؤون - فلهُو في حال الردود أبعد شأواً، وأجل خطراً؛ إذ حال الرد، والمنازلة، والخصومة لا يخفى؛ فقد يضيق المجال عن العناية بالبيان، وقد يُلجئ الردُّ إلى تحاذل الأسلوب، أو ركائته، أو فقدانه شيئاً من نضارته.

أما ردود الشيخ فكانت على طراز نادر من جودة البيان، وروعته، والموائمة فيه بين المعاني، والألفاظ، والتراكيب - كما مر -.

١- دراسات في العربية وتاريخها ص ١٦٧، وفي ديوان خواطر الحياة ص ٩٨ جاء البيت هكذا:

لفظها الجزل له وقع كما يقع السيف إذا السيف خطر

٢- انظر شرح المقدمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام للشيخ محمد الطاهر بن عاشور،

تحقيق الأستاذ ياسر بن حامد المطيري، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٣١هـ، ص ١١٢.

٣- انظر كتاب الصناعتين ص ٥٥.

٤- انظر المرجع السابق ص ٦١.

والنماذج على ذلك من ردوده كثيرة، وقد مضى أمثلة على ذلك في كثير من الفصول السابقة - خصوصاً في المطلب الأول من هذا البحث -.

ومن الأمثلة التي تتجلى بها تلك العبقرية الفذة ما يلي:

١. قال علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم): «لا معنى لقيام الخلافة على القوة والقهر إلا إرصادهما لمن يخرج على مقام الخلافة، أو يعتدي عليه، وإعداد السيف لمن يمس بسوء ذلك العرش، ويعمل على زلزلة قوائمه»<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ الخضر رحمته الله معقياً على هذه الفقرة: «لا بد للخلافة أن تتقلد سيفاً وترتدي يارهاب؛ لتتقي خطر عدو هاجم أو متحفز، وتقمع شرٌّ من يثير فتنة يضطرب لها نظام الأمن والسلام.

وقد أتى عليها حين من الدهر وهي لا تنتضي حسامها، ولا تلمع بإنذارها ووعيدها إلا في وجه عدو يترصد بالمؤمنين الدوائر، أو نائر عصفت به ريح الأهواء، وماله في أولي الأبواب من ولي ولا عاذر.

وأدركها زمنٌ بعدت فيه عن حقيقتها، فخلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وربما كان إثمها في بعض الأحيان أكبر من نفعها.

وليس إصلاح شأنها وإعادةها إلى سيرتها المثلى ممن يغارون على مصلحة الشرق واتحاد شعوبه ببعيد»<sup>(٢)</sup>.

فانظر إلى قوة النقض مع جماله، وحسن بيانه.

٢. وقال - أيضاً - مبيناً خطأ علي عبدالرازق في استدلاله بآيات من القرآن على أن الجهاد خارج عن وظيفة الرسالة: «من الجلي الواضح: أن الرسول لا يغزو قومياً في سبيل الإقناع بدينه؛ فإن للحجة عملاً لا يقوم به السيف، كما أن للسيف عملاً لا تنهض به الحجة، فالحجة تلج بالعقيدة إلى أعماق القلوب، وهذا عمل لا تنهض به السيوف وإن كانت مشرفية، ولا الرماح وإن كانت سمهرية.

١- الإسلام وأصول الحكم ص ٦٤.

٢- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٩٠.

والسيف يحمل الناس على الشرائع واحترام النظم الاجتماعية، وهو عمل قد تذهب الحجّة دونه ضائعة، وإن لبست بردة الفصاحة من منطلق سحبان، أو قلم الفتح بن خاقان»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال: «فالجهد لا يُقصدُ به نقلُ القلوب من الضلال إلى الهدى، وإشراؤها الإيمان في الحال.

وعدمُ إمكان هذا المعنى لا يمنع من أن يراد من الجهد النبوي قبل شرع الجزية: كفُّ أذى القبائل المشركة العائية في الأرض فساداً، وإلباسها ثوبَ الإسلام -ولو في الظاهر- لتدخل في نظام وشريعة، ويرجى منها بعد مشاهدة أنوار النبوة مرة بعد أخرى أن تدرك الحق حقاً، فينقلب جهلها علماً، ونفاقها إيماناً، وتستتير صدورها كما صلحت ظواهرها.

والجهد لهذا القصد يلتئم مع قوله -تعالى-: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل: ١٢٥.

فإن الجهد الذي يساق به الوثنيون إلى الإسلام يقصد به: إصلاح ظواهرهم، والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، يقصد به: إخراج القلوب من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان»<sup>(٢)</sup>.

ثم شرع في بيان خطأ المؤلف في الاستدلال بالآيات التي أوردها، وبيان وجه الصواب فيها.

٣. ولما قال طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي): «فأنت ترى أن منهج (ديكارت) هذا ليس خصباً في العلم، والفلسفة، والأدب فحسب. وإنما هو خصب في الأخلاق، والحياة الاجتماعية -أيضاً»<sup>(٣)</sup>.

١- المرجع السابق ص ١٨٥.

٢- المرجع السابق ص ١٨٥.

٣- في الشعر الجاهلي ص ١٤.

قال الشيخ الخضر معقّباً عليه: «إن منهج (ديكارت) كمثل منطق (أرسطو) لا يخرج العقل من غسق الجهالة أو الحيرة إلى وضوح اليقين أو الرجحان، وإنما يرسم خطة التفكير.

والسير في هذه الخطة موكولٌ إلى ذكاء الباحث وأمانته؛ فإذا كان عقلُ الباحث غيرَ موزون، أو كان حظه من الإخلاص هضيمًا - لا يروع الناس إلا أن يقول ما يستعيز منه (ديكارت)، ويتهانف<sup>(١)</sup> منه الذين أوتوا الحكمة (الجديدة).

وحسبك شاهداً على أن هذا المنهج لا تصلح له إلا البصيرة الخالصة النافذة: أن أحد دعائه، وهو (سبينوزا) قد ابتغاه وسيلة إلى نظرية (الحلول) وهي نظرية ذاهبة في السخافة إلى مكان سحيق<sup>(٢)</sup>.

٤. ولما قال طه حسين: «وكان عمر قرشياً تكرهه عصبته أن تُزدرى قریش، وتنكر ما أصابها من هزيمة، وما أشيع عنها من منكر»<sup>(٣)</sup> عَقَّب عليه الشيخ الخضر بقوله: «كان عمر قرشياً مسلماً يكره له أدبه أن تُزدرى قریش، كما يكره له أن تُزدرى الأوسُ والخزرجُ، وقيسٌ وتميمٌ، ويكره له ذلك الأدب أن يزدرى عبدالله بن عمر كما يكره له أن يزدرى سلمان الفارسي، وبلال الحبشي.

أما أنه ينكر ما أصاب قریشاً من هزيمة، وقد كان من أحرص الناس على هزيمتها - فذلك ما لا تحتمله إلا عقلية (أقرب إلى الغربية منها إلى الشرقية)<sup>(٤)</sup>.

إلى أن قال: «يسهل على المؤلف أن يضع إصبعه في سيرة يزيد بن معاوية، أو حماد الراوية؛ لأنه يجد في التاريخ الصحيح أو الباطل ما يعبر به إلى الحديث عنهما بغلو وإغراق، ثم لا يعدم أذناً تصغي إليه، أو قلباً يتلهى به.

١- يتهانف: أي يضحك ويستهزئ. انظر لسان العرب ٢٥٠/٩.

٢- نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٥٣-٥٤.

٣- في الشعر الجاهلي ص ٥٣.

٤- نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٩٦.

أما عمر بن الخطاب، فإن سيرته متجلية تحت نبراس من التاريخ الصحيح، لا يستطيع القلم أن يغير منها لونها، أو يسومها كيداً، وإن ركب منهج (ديكارت)، وتناول زاده من حقيية (مرغليوث)»<sup>(١)</sup>.

٥. ومن جملة البليغة الموجزة التي تشتمل على السجع، والاقْتباس، والتضمين، وغيرها من فنون البلاغة قوله في مقدمة (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم): «وبعد أن ألقى حبالاً وعصياً من التشكيك والمغالطات زعم أن النبي -عليه السلام- ما كان يدعو إلى دولة سياسية...»<sup>(٢)</sup>.

وقوله: «ثم نعود إلى ما نراه مستحقاً للمناقشة من دعوى أو شبهة؛ فنحكي ألفاظه بعينها، ونتبعها بما يزيح لبسها، أو يحل لغزها، أو يبحثها من منبتها»<sup>(٣)</sup>.

وقوله في معرض ذلك النقض: «قبض المؤلف قبضة من أثر جورجي زيدان، ونبذهما في كتاب (الإسلام وأصول الحكم)»<sup>(٤)</sup>.

وقوله: «ولا يلاقي هذا الرأي تفصيلاً من إخوان الإسلام فقط، بل يرمي في وجهه التزييف كل من درس تاريخ عهد النبوة، ووقف ساعة من نهار على روح الشريعة»<sup>(٥)</sup>.

وقوله: «كانت المدة منذ شرع الإسلام في بناء دولة تحرس دعوته وشعائره، وتعمل لإسعاد أهله إلى أن انتهى عهد الرسالة، نحو عشر سنين.

ماذا فعل محمد بن عبد الله -صلوات الله عليه- في عشر سنين، تلك المدة التي قضى المؤلف مثلها بالتفكير في منطق، يبيت شريعة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء؟»<sup>(٦)</sup>.

١- في الشعر الجاهلي ص ١٩٦.

٢- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٩.

٣- المرجع السابق ص ١٠.

٤- المرجع السابق ص ٣٠.

٥- المرجع السابق ص ١٤٥.

٦- المرجع السابق ص ١٤٩.

وقوله: «وللإيمان زاجر لا يعصى، وسلطان لا يُرشى»<sup>(١)</sup>.

وقوله: «وهل يرجو المؤلف من أمثال هؤلاء أن تقع أبصارهم على كتاب ينطوي على آراء تضع مكان الإيمان حيرة، ومكان التقوى فسوقاً، ومكان إياية الضيم ذلة، ثم يمرون عليه مرور الجاهل بسوء عاقبتها؟ فلا وريك لا يدعون وباءها يتفشى في النفوس الزكية، والقلوب السليمة، وإن امتلأت الدنيا ألسنة تصفهم بالجمود، وتلقبهم بالحجارة، أو بما هو أشد قسوة»<sup>(٢)</sup>.

٦. ومما جاء من هذا القبيل في كتابه (الحرية في الإسلام) قوله: «وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه من العلم بقوانين الشريعة، والخبرة بوجوه السياسة في منزلة لا تطاولها سماء»<sup>(٣)</sup>.

ومع هذا لا يبرم حكماً في حادثة إلا بعد أن تتداولها آراء جماعة من الصحابة. وإذا نقل له أحدهم نصاً صريحاً ينطبق على الحادثة قال: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا»<sup>(٤)</sup>.

ويقول: «وأهم فوائد المشورة تخليص الحق من احتمالات الآراء. وذهب الحكماء من الأدباء في تصوير هذا المغزى وتمثيله في النفوس إلى مذاهب شتى، قال بعضهم:

إذا عن أمر فاستشر فيه صاحباً      وإن كنت ذا رأي تشير على الصحب  
فإني رأيت العين تجهل نفسها      وتدرك ما قد حل في موضع الشهب

وقال آخر:

١- المرجع السابق ص ١٦٦.

٢- المرجع السابق ص ١٧٠.

٣- هذا تضمن بيت البوصيري:

كيف ترقى رقيق الأنبياء      يا سماء ما طاولتها سماء

والشيخ محمد الحضر رحمته الله من أرباب البيان، خصوصاً في باب الاقتباس والتضمن؛ فهو فارس لا يشق له غبار في هذا الميدان.

٤- الحرية في الإسلام ص ١٧.

أقرن برأيك رأي غيرك واستشر      فالحق لا يخفى على الاثنين  
والمرء مرأة تريه وجهه      ويرى قفاه بجمع مرأتين  
وقال آخر:

الرأي كالليل مسوداً جوانبه      والليل لا ينجلي إلا بمصباح  
فاضم مصابيح آراء الرجال إلى      مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح<sup>(١)</sup>  
ويقول: «لم تغادر الشريعة صغيرة ولا كبيرة من وجوه التصرفات في  
الأموال إلا أحصتها، وعلقت عليها حكماً عادلاً»<sup>(٢)</sup>.

ويقول: «وأما الآيات الواردة في سياق التزهيد، والحط من متاع الحياة الدنيا  
فلا يقصد منها ترغيب الإنسان؛ ليعيش مجانباً للزينة، ميت الإرادة عن التعلق  
بشهوته على الإطلاق.

وإنما يقصد منها - فيما نفهمه - حكم أخرى كسلبية الفقراء الذين لا يستطيعون  
ضرباً في الأرض، ومن قصرت أيديهم عن تناولها؛ لثلا تضيق صدورهم على  
آثارها أسفاً.

ومنها تعديل الأنفس الشاردة، وانتزاع ما في طبيعتها من الشره، والطمع؛ لثلا  
يخرجها عن قصد السبيل، ويتطوَّحاً بها في الاكتساب إلى طرق غير لائقة.  
فاستصغار متاع الدنيا، وتحقير لذائذها في نفوس الناس يرفعهم عن الاستغراق  
فيها، ويكبر بهمهم عن جعلها قبلةً يولون وجوههم شطرها حيثما  
كانوا»<sup>(٣)</sup>.

١- المرجع السابق ص ٢٠.

٢- المرجع السابق ص ٢٦.

٣- المرجع السابق ص ٢٩-٣٠.

ويقول: «حب المال هو الذي ينزع من فؤاد الرجل الرأفة ويجعل مكانها القسوة والفظاظة، حتى إذا أظلم الأفق، واسودَّ جناح الليل تأبط خنجراً، أو تقلد سيفاً، وذهب يخطو خطأً خفافاً<sup>(١)</sup>؛ ليأتي البيوت من ظهورها، ويمد بسبب إلى أمتعتها، فإذا دافعه صاحبها أذاقه طعم المنون، وانصرف ثملاً بلذة الانتصار». ويقول: «ولهذا افتقرت داعية حب المال إلى وازع يسدد طيشها، ويكسر من كعوبها إلى أن تستقيم قناتها<sup>(٢)</sup>».

والوازع ما ورد في مجمل الشريعة ومُفصَّلها من الأصول القابضة على أيدي الهداجين<sup>(٣)</sup> حول اختلاسها، والعاملين على اغتصابها، أو التصرف فيها بغير ما يأذن به صاحبها<sup>(٤)</sup>.

ويقول: «فمن تحيز عن أمته، وطفق يرمي في وجوههم عبارات الازدراء، وينفت في كأس حياتهم سماً ناقعاً - لا نُصِفُه بصفة الغيرة، والوطنية، وإن سُغِفَ بحب ديارهم، وقبَلها جداراً بعد جدار<sup>(٥)</sup>»<sup>(٦)</sup>.

١- هذا تضمن من المؤلف رحمته لقول عمر بن أبي ربيعة:

إذا اسود جناح الليل فلتات ولتكن خطاك خفافاً إن حراسنا اسدا

٢- هذا تضمن للشاهد النحوي في باب نصب المضارع:

وكنت إذا غمزت قناة قوم كسرت كعوبها أو تستقيما

٣- هذا تضمن لقول الشاعر:

قنافذ هدأجون حول بيوتهم بما كان إياهم عطية عوذاً

٤- الحرية في الإسلام ص ٣٣-٣٤.

٥- هذا تضمن لقول الشاعر:

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبُّ الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

ولو تتبع أحد هذا الفن - أعني الاقتباس والتضمن - في مؤلفات الشيخ رحمته لخرج بمادة علمية كبيرة.

٦- الحرية في الإسلام ص ٣٨.

ويقول: «وقد دارت هذه الكلمة - كلمة الحرية - على أفواه الخطباء، ولهجت بها أقلام الكاتبين ينشدون ضالتها عند أبواب الحكومات، ويقفون عند مكانها، وتمكين الراحة من مصافحتها - وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه<sup>(١)</sup>»<sup>(٢)</sup>.

فهذه نماذج تُبين عن جودة بيان الشيخ الخضر، في ردوده، وإحكامه صناعة الكتابة.

١ - هذا تضمن لِقول أبي الطيب المتنبّي:

بَلَيْتُ بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

٢ - الحرية في الإسلام ص ١٢ .

## المبحث الثالث: أساليبه المنهجية

## المطلب الأول: مفهوم أساليبه المنهجية وميزاتها

أولاً: مفهوم أساليبه المنهجية: الشيخ الخضر - كما مر - شخصية مسالمة ، هادئة تؤثر التسامح ، ولا ترغب في الردود.

غير أن تلك الشخصية تلجأ إلى ذلك؛ استجابةً لداعي الضرورة ، وأداءً لأمانة العلم التي تقضي عليه ألا يتوانى في رد الباطل ، والصدع بالحق؛ فللحجة قضاءً لا يستأخر ، وسلطاناً لا يحابي - كما يقول الشيخ الخضر نفسه -<sup>(١)</sup>

والحديث في هذا المبحث سيتناول أساليبه المنهجية التي كان يسلكها في ردوده؛ حيث كان ﷺ يعتمد فيها طرقاً علمية معيارية ، وإجرائية عملية؛ من أجل الوصول إلى نتائج مطلوبة ، يصل من خلالها إلى إبطال شبه الخصوم ، وإثبات ما يراه من الحق في القضايا المتنازع عليها.

ولقد أخذ - في سبيل الوصول إلى تلك الغاية - بطريقة تجمع عدة مناهج ، ويأتي على رأسها: الطريقة الاستقرائية التي تتطلب حصرَ كافة الجزئيات ، والوقائع ، وفحصها ، ثم إعطاء حكمٍ عامٍ عليها.

والطريقة الاستنتاجية التي تعني تنظيم المعلومات المتوافرة في قالبٍ مُعيّنٍ يُستخلص من خلاله النتائج الصحيحة.

ولقد جمع بين هاتين الطريقتين اللتين تتطلبان التجردَ ، والثبتَ ، والتعامل مع الواقع ، والاهتمام بالوقائع العامة المتجانسة لا الشاذة.

ولا يعني ذلك أنه اقتصر في ردوده على هاتين الطريقتين ، بل أخذ بالمنهج الوصفي ، الذي يُعنى بدراسة الظواهر ، وتحليلها ، وكشف خصائصها ، وتأثيرها.

والمنهج التاريخي الذي يبحث في وصف الأحداث، ونشأة الأشياء، وتطورها، وتغييراتها؛ فجمع في ذلك بين عدة مناهج<sup>(١)</sup>.

وسيرد من خلال المطالب التالية مزيداً إيضاح لميزات تلك الأساليب وإجراءاتها، وتطبيقاتها.

ثانياً: ميزات أساليبه المنهجية: لقد جاءت ردود الشيخ متممةً بعدة ميزات منهجية، ولعل أبرزها ما يلي:

١- الاطراد: وذلك من وجوه عديدة؛ فهو مطرد في أسلوبه الأدبي، وأسلوبه البياني - كما مر- فهو يأخذ بأدب الخلاف والرد، ويُعنى بجمال العرض، وحسن البيان.

ثم إن ردوده تتسم بالاتساق، والسير على نمط واحد من حيث القوة والجزالة، وطول النفس، والمحافظة على روح الحوار؛ فلا تجد في ردوده تحاذلاً، أو ضعفاً، أو انقطاع نفس في أي من مواطن الرد سواء في أوله، أو آخره، أو أوسطه، أو أن قوة الرد تكمن في جزئية دون أخرى، أو في مسألة دون غيرها.

بل إن الرد ليس سيراً متسقة، متساوقة.

كيف لا وهو الذي يؤكد في منازلته أن المزية ليست في تصور المنهج، وإنما المزية في العمل به بجد واستقامة؟<sup>(٢)</sup>

بخلاف كثير من الردود التي يضطرب أصحابها فيها، ولا تراها تسير سيراً راشداً مطرداً.

وإنما تراها متباينة متفاوتة من حيث الاطراد؛ بحيث إذا طال البحث، وقطع صاحبه فيه أشواطاً بدأ في التخاذل والضعف؛ فترى في أواخر ردوده ما لا تراه في أوائلها، أو تجده في مناقشته لبعض المسائل أضعف منه في بعضها الآخر؛ فتلاحظ الارتفاع في بعضها، والانحطاط في بعضها الآخر.

١ - انظر كتاب البحث العلمي صياغة جديدة ص ٦٤-٦٥.

٢ - انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٣٧٦.

وكذلك ترى الاطراد عند الشيخ الخضر في أدب الحوار في كافة ردوده - كما مر - مع اعطائه كلِّ مقام ما يلائمه - كما سيأتي -.

وهذه المزية - أعني الاطراد - من أعظم ما تميزت به ردود الشيخ الخضر رحمته الله.

٢- الشمولية: وهذه سمة ظاهرة في ردوده، وهي ناتجة عن موسوعيته، وسعة اطلاعه؛ فإذا أزمع الرد على شخص أو قضية استجمع قواه العقلية، والعلمية، وسخَّرها لخدمة ردوده؛ فتأتي متممة بالشمول؛ فلا تقتصر على جزئية معينة دون غيرها، ولا تُتَّصَبُّ على جانب من الرد، وتُغفل جانباً آخر.

بل تراها شاملة مستوعبة؛ فتلاحظ فيها الإتيان على الموضوع من جميع أطرافه، فترى الاعتراض على الخصم في تحليل المواقف، وترى تخطيطه له من الناحية الشرعية، أو التاريخية، أو اللغوية، أو الأدبية.

وترى تلك الردود مُشَبَّعةً بالأبحاث المتنوعة، والتوضيح للمبهمات، ومواطن الإشكال، والعناية بالتعريفات والمصطلحات.

وتجده يناقش الخصم في تفسير آية، أو تضعيف حديث، أو توهين شخصية، أو نقد مذهب، أو صحة معلومة وهكذا...

وهذا من أعظم الميزات لردوده، وقد مرَّ نماذج من ذلك، وسيأتي مزيد أمثلة له.<sup>(١)</sup>

٣- الواقعية: وهي من أعظم ما يعطي البحث قيمة ومصداقية، وقد كانت ردود الشيخ الخضر متممة بهذه الميزة.

ومن مظاهر تلك الواقعية أنه لم يكن يجنح إلى الغلو أو المبالغة، أو التعميم في الحكم؛ لقصد مخالفة الخصم، أو تخطيطه، والزراية عليه.

بل إن الاعتدال سِمَةٌ ردوده، وإنه ليوافق خصمه إذا أصاب دون أن تكون تلك الموافقة ذريعة إلى تأييد ما يرمي إليه من أغراض باطلة، كما مرت الإشارة إلى ذلك

١ - انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٥٥-٨٥٨، ونقض كتاب الإسلام وأصول الحكم

ص ٢٨ و ٣٠ و ٣٩ و ٩٢ و ١١١ و ١٢٨ و ١٤٨-١٤٩.

عند رده على طه حسين في (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) وذلك عند الحديث عن يزيد بن معاوية، أو مسألة العصية القرشية<sup>(١)</sup>.

وترى الواقعية عند مناقشته للجديد والقديم؛ حيث يرى أن من الخطأ الاعتقاد أن كل جديد حق، أو أن كل قديم يشير إلى التخلف والباطل.

وترى الواقعية في تفرقه بين حقائق الإسلام، وأخطاء المنتسبين إليه؛ فلا هو يسوغ تلك الأخطاء، ولا هو - أيضاً - يوافق من يلصقها بالإسلام.

وترى الواقعية - كذلك - في مسألة الشرق والغرب، وأن ما عند الغرب لا يؤخذ جملة، ولا يترك جملة، وإنما يؤخذ النافع، ويترك الضار، وأن الغرب امتاز بميزات، وسبق في مجالات.

ولكن ذلك لا يعني الصحة لكل ما عنده.

وهكذا ترى الواقعية تسير في ردوده<sup>(٢)</sup>.

٤ - التوجه إلى الأفكار دون الأشخاص: فالأفكار عنده هي ميدان المنازلات.

أما الأشخاص فلم يكن أمرهم يعنيه كثيراً؛ فالتقد عنده مُنصَّبٌ على الأفكار، والمواقف.

ولهذا لا تراه يتعرض للأمور الشخصية الخاصة، ولا يخالط خطابَه سفةً، وشتم، ورمي بالقبيح - كما مر عند الحديث عن أساليبه الأدبية - .

ومما يشهد له بذلك ما كان عليه من منهج في ذكر الأسماء في ردوده، ويتلخص ذلك فيما يلي:

أ - أنه - في الأغلب - لا يذكر اسم المردود عليه كاتباً، أو مؤلفاً، أو محاضراً.

وإنما يكتفي بقوله: (قال المؤلف) وهذا أكثر ما يقوله خصوصاً في ردوده على أصحاب الكتب المؤلفه ككتابي: (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) و (ونقض كتاب في الشعر الجاهلي).

١ - انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٩٦.

٢ - انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٣٧٦.

فإنه في أغلب نقضه لهما يقول: قال المؤلف، أو قال صاحب كتاب كذا... ولم يذكر اسميهما إلا مرة واحدة في مقدمتي الكتابين مقرونين بلبقهما العلمي: الشيخ علي<sup>(١)</sup> والدكتور طه حسين<sup>(٢)</sup>. وقد يقول في بعض ردوده: «قال المحاضر»<sup>(٣)</sup> أو «صاحب المحاضرة»<sup>(٤)</sup> أو «قال الكاتب، أو كاتب الرسالة»<sup>(٥)</sup> أو: «قال صاحب المقال»<sup>(٦)</sup> أو «اطلعت على مقال نشره بعض الكاتبين»<sup>(٧)</sup> أو يقول: «قال الأستاذ...»<sup>(٨)</sup>. وتارة ينعت المردود عليه بوصف يليق به - كما يراه - كما في قوله: «قال المؤول»<sup>(٩)</sup>.

وقوله: «ابتدأ داعية القاديانية...»<sup>(١٠)</sup>.

وقوله: «وقد اتبع المؤول في هذا مهذار البهائية المسمى أبا الفضل...»<sup>(١١)</sup>.

ب- أن الذي يحمله على عدم ذكر اسم المردود عليه أسباب يأتي على رأسها اهتمامه بالفكرة أو الموضوع - كما مر - أو أنه لا يريد أن يُشهر الكاتب أو يُشهر به، أو أنه يتحرى الدقة في نسبة ما قيل إلى المردود عليه، كما في رده على طه حسين في

١ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٨.

٢ - انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٠.

٣ - انظر بلاغة القرآن ص ٨٥-١١٦.

٤ - انظر المرجع السابق ص ١٦٨-١٨٠.

٥ - انظر المرجع السابق ص ١٨١-٢٧١.

٦ - انظر المرجع السابق ص ١٢٥.

٧ - انظر المرجع السابق ص ١٢٠.

٨ - انظر محاضرات إسلامية ص ٢٠٠.

٩ - كما في رده المعنون (كتاب يهذي في تأويل آيات القرآن المجيد) الذي رده على محمد أبو زيد

الدمنهوري. انظر بلاغة القرآن ص ١٤٢-١٦٧.

١٠ - انظر القاديانية والبهائية والبايية ص ٣٠-٣١.

١١ - انظر بلاغة القرآن ص ٨-١٤.

(حقيقة ضمير الغائب في القرآن) حيث قال في مقدمتها: «وقد اعتمدنا في هذا النقد على أن التلخيص مكتوب بإملاء من صاحب المحاضرة، وأخذنا فيه بأمارات منها: أنه قد يعبر بضمير المتكلم في مقام لو كان المُلخِّص غيره لعبر فيه بضمير الغائب...».

وبعد أن ساق كلاماً في ذلك قال: «ولم نُعْنِ ببيان أن ملخص المحاضرة هو صاحب المحاضرة إلا لنرفع عن قلمنا الحرج إذا قلنا عنه حكاية جملة أو جملٍ من هذا التلخيص: قال المحاضر، أو صاحب المحاضرة»<sup>(١)</sup>.

ج- أنه إذا ذكر اسم المردود عليه ذكره إما باسمه مجرداً دون تشهير أو سخرية به، أو أن يذكره بوصف يلائمه كما في قوله: - «قال المؤول» كما مر..

أو أن يذكره مقروناً بلقبه العلمي كما مر في مقدمة كتابي (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) و (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)<sup>(٢)</sup>.

وكما في قوله في مقال (إصلاح المعاهد العلمية والدكتور طه حسين) قال: «كتب الدكتور طه حسين في مجلة الرابطة الشرقية مقالاً تحت عنوان: (إصلاح الأزهر)...»<sup>(٣)</sup>.

وقال في مقدمة (حقيقة ضمير الغائب في القرآن): «رحل الدكتور طه حسين مندوباً إلى مؤتمر المستشرقين بجامعة أكسفورد، وألقى هناك محاضرة عنونها: (ضمير الغائب واستعماله اسم إشارة في القرآن)...»<sup>(٤)</sup>.

وقال في عنوان رده على فريد وجدي: (نقد آراء الأستاذ فريد وجدي من الناحية الدينية والاجتماعية)<sup>(٥)</sup>.

١ - بلاغة القرآن ص ٧٩-٨٠.

٢ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٨، ونقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٠.

٣ - الهداية الإسلامية ص ١٥٨.

٤ - بلاغة القرآن ص ٧٩.

٥ - انظر محاضرات إسلامية ص ٢٠٠.

وهكذا كان منهجه في ذكر أسماء المردود عليهم، مما يؤكد أن توجهه للأفكار دون الأشخاص كان منهجاً مطرداً يسير عليه في ردوده.

٥- إحكام النقض وقوة الإبطال: فلا مرية أن من أعظم مقاصد الرد نقض كلام الخصم، وإبطاله، وإظهار زيفه وعوارفه.

وإلا فما الداعي للرد إذا لم يكن ثمت أخطاء، وزیوف؟.

وما السبيل لإحقاق الحق وإزهاق الباطل إذا لم تكن هناك حجج قوية، وبراهين ساطعة تظهر الحق، وتنقض الباطل؟.

فإذا كان النقض محكماً، والإبطال قوياً - كُشِفَ زيفُ المخالف، وتعرَّتْ شبهته، وذهبت حججه جفاءً، وصارت هباءً منشوراً؛ فلا يبقى للمخالف أو القارئ متعلق يُلبس به الحق بالباطل، أو يوهن فيه الحق لوهاء الرد وتحاذله<sup>(١)</sup>.

فقوة الرد - إذاً - تكمن بقدر ما فيه من إحكام النقض، وقوة الإبطال، ويتسنى ذلك بسطوع الحجة، والسلامة من الضعف، والتهافت، واللجاج، والتناقض.

وهذا ما كانت عليه ردود الشيخ الخضر، وهو من أعظم ما جعل لها مكانة من بين الردود، حتى عند المخالفين المردود عليهم؛ إذ شهد له بذلك كثير منهم، كما في حديث طه حسين عن رد الخضر عليه في كتابه (في الشعر الجاهلي) وقد مرَّ<sup>(٢)</sup>.

بل إن بعض المردود عليهم لم تُقْم له قائمة بعد رد الشيخ عليه، بل اكتفى بردّ الشيخ الخضر دون اعتراض، كما هي الحال بالنسبة لكتاب (الهجرة وشخصيات الرسول) للشيخ محمود شلتوت؛ حيث لم يرد على الشيخ الخضر، بل أظهر

١ - انظر الرد على المخالف من أصول الإسلام، د. بكر أبو زيد، دار الهجرة، المملكة العربية السعودية، دار الهجرة، ١٤١١هـ، ص ٦٢-٦٣.

٢ - انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٤.

إجلاله له في حياته، وبعد مماته<sup>(١)</sup>.

وقد يُؤثّر المردودُ عليه الصمتَ، ويختار العافية، كما كان من الشيخ علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) حيث لم يُعدّ طباعته، ولم يحاول

١ - يقول الشيخ طه محمد الساكت - أحد علماء الأزهر - عن تلك الخصومة الشريفة التي جرت بين الشيخين الخضر وشلتوت، وذلك بعد إعلامه الشيخ شلتوت بوفاة الشيخ الخضر: «ما كنت أحسب -وأنا أنعي إليه شيخنا وإمامنا الراحل، وقد أسلم الروح إلى بارئها- إلا أنه يجاملني بكلمة عزاء تمر كما يمر غيرها من الكَلِم، ولكن ما كان أعظمَ دهشتي حينما فزع واسترجع، ثم أخذ يلقي عليّ درساً في تقدير العظماء الراحلين، درساً خليقاً بأن يسجل ويروي في تاريخ الخالدين.

كانت بين الشيخين خصومة في بعض مسائل العلم، ولكنها كانت خصومة نبيلة كريمة، من قبيل (الخصومة بين الأكابر). وكان من أدب فقيدها الراحل -تعمده الله برحمته-: أن يسجل مسائل الخلاف بينه وبين خصمه في مقال أو رسالة، ثم يأتي عليها بالحجة الساطعة، والبيان الناصع، في أمانة من النقل، وعفة من القول، هما المثال الأعلى لمن يبتغي الإنصاف والحق من أعدل طريق وأمثله.

ويقرأ خصمه الرد عليهم في مقالاته وكتبه، وكلهم أو جُلهم من عليّة القوم، وأكابر الكتاب، فيعجبون للأدب الرشيد، والقول السديد، والحجة البالغة، والعلم المصنّف، والحكم البصير النافذ، الذي يتقدمه الإخلاص والإيمان، ويصعبه العدل والإحسان، فيخشع له كل عالم وأديب، ويهابه كل دفع أو تعقيب. لكن النبلاء من خصمه، يفيدون من ذلك النبع الفياض، والأدب العالمي الرفيع، ثم ينوّهون به في حياته، ويدعون إلى التخلق به بعد وفاته، وكذلك فعل (الرجل العظيم شلتوت).

كانا عضوين بالمجمع اللغوي، إلا أن (إمامنا الخضر) كان أسبق؛ إذ كان ركناً من أركان المجمع منذ أنشئ، وكانا عضوين في جماعة كبار العلماء، إلا أن (عظيمنا شلتوت) كان أسبق منذ بضع سنين.

فلما تقدم إمامنا إلى عضوية الجماعة، ظن من لا يعرفون (الشيخ شلتوت): أن الفرصة قد هيئت للوقوف في طريق خصمه، لكنها كانت مفاجأة كريمة حاسمة أن زكاه الخصم النبيل وهو يقول: (إن من لا يزكي السيد الخضر في عضوية الجماعة فإنما يلغي عقله، أو يسقط نفسه) أو قال كلمة نحوها.

فلما قضى الله قضاءه، واستأثر شيخنا برحمته، هزّني الرجل بكلماته هزاً، وهو يدعو إلى التأسّي به، حتى كأن المسرة كانت ترتجف من هول ما أصابه، أو من عظمة ما يقول.

أما بعد:

فإن أهمك أن تعرف (الرجل) فحسبك أنه يشغل مركزاً اجتماعياً خطيراً، ما خلا منصباً أزهرياً كبيراً، فإن لم تعرفه بعد ذلك، فحسبك درس عظيم، من رجل عظيم، في إمام كريم، عاش في الله، وجاهد في الله، ثم مات في الله، ورحل -ياذن الله- إلى الرفيق الأعلى ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ النساء: ٦٩. انظر الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٤١٦-٤١٨.

الرد على الشيخ مرة أخرى.

بل كان ضائعاً متبرماً من هذا الرد إلى أن فارق الدنيا.

يقول الدكتور محمد رجب البيومي رحمته الله عن معركة الشيخ الخضر مع علي عبدالرازق: «وقد ظل الأستاذ علي عبدالرازق ضائعاً به - يعني رد الخضر - حتى بعد ربع قرن من صدوره، وانتهاء المعركة على نحو يرضي المخلصين، فقد قرأت بالسنة الثامنة - على ما أذكر - من مجلة (لواء الإسلام) كلمة للأستاذ علي عبدالرازق تنبئ عن غضبه الموقد على الأستاذ، وتعيب طريقته في نقد الكتاب. ومجمل العيب في رأي الأستاذ عبدالرازق أن الأستاذ الخضر ينقل كل نص من نصوص الكتاب على حدة، ثم يفنده بالرأي والدليل، وذلك أدعى إلى تمزيق الفصل الواحد وتشتيته»<sup>(١)</sup>.

ويرد الدكتور البيومي هذا الكلام بقوله: «ونحن نقول للأستاذ عبدالرازق: إنه قد ظلم الحق فيما قال؛ لأن هذه النصوص تأتي متوالية متعاقبة، وقارئ النقد يستطيع أن يجمعها بسهولة لتكون كل ما جاء بالفصل الواحد من الكتاب، وهي - بعد - خير وأقوم من مسلك ناقدٍ يُلخِّصُ الموضوعَ من عنده، ثم يعقب عليه؛ إذ ربما فات من التلخيص شيء هام لا يعرفه القارئ المحايد، ولا ندري كيف يحافظ الخضر على نصوص الكتاب جميعها، فلا يسقط منها شيئاً ذا بال، ثم يكون ذلك مطعناً يوجه إليه من ناقد نبيه؟!»

إن الغيظ وحده لم يستطع أن يخمد في نفس المنقود على تطاول الأيام به حتى وجد المنقود على صفحات (لواء الإسلام)!

ولو كان نقد الأستاذ عبد الرازق للأستاذ الخضر علمياً نزيهاً ما تعرض لأمر شخصية لا تتصل بالبحث في شيء، ولكنه تخيل الموهوم، ثم خاله حقيقة،

فتيقنه! على طريقة بعض الناس»<sup>(١)</sup>.

بل إن الشيخ علياً نفسه عُرِضَ عليه قبل وفاته عام ١٩٦٦م إعادة طبع الكتاب مرة أخرى فرفض<sup>(٢)</sup>.

يقول الأستاذ فتحي رضوان في معرض مخالفته للدكتور حسين مؤنس الذي أشاد بأهمية كتاب (الإسلام وأصول الحكم) قال -أي فتحي رضوان-: «وقد تقدم العلماء بنقد متسم بالوقار والرصانة لكتاب (الإسلام وأصول الحكم) وفي مقدمة هذه الدراسات: كتاب (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) للشيخ محمد الخضر حسين، وهو من علماء تونس، وكان قد لجأ إلى مصر يطارده حكم بالموت من محاكم فرنسا العسكرية بتونس، فجاء كتابه أثراً علمياً جليل القدر؛ فقد خلا من كلمة جارحة يوجهها للمؤلف الشيخ علي عبدالرازق، أو عبارة نابية، بل قنع بتوجيه الكلام إليه، إما بلفظ: (المؤلف) أو: (صاحب الكتاب)»<sup>(٣)</sup>.

ويواصل الأستاذ رضوان كلامه فيقول: «وكان المأمول أن يرد الشيخ علي عبدالرازق على كتاب الشيخ الخضر حسين -رحمهما الله- بشيء يساويه عمقاً وشمولاً، ولكنه آثر الصمت، واختار العافية، ولا يستطيع أن يدعي أنه فعل ذلك إشفاقاً من شرٍ خطير يناله؛ فقد وجّه -وهو يودع العمامة والزيّ الأزهرى- إلى علماء الأزهر كلاماً عنيفاً، وهو يعلم أن هؤلاء الأزهريين قادرون على أن يؤلّبوا عليه الرأي العام.

ثم ماذا كان معه؟ اشتغل بالمحاماة الشرعية، واطمأن إليها، وكسب منها مالاً غير قليل -كما يقول بعض المتصلين به- ثم شارك في السياسة، حتى اختير وزيراً، وظفر بقلب الباشاوية.

١ - المرجع السابق ص ١٧٥-١٧٦.

٢ - انظر تحطيم الصنم العلماني للشيخ محمد بن شاکر الشريف ص ١٤-١٥.

٣ - الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين ص ٤٠٥-٤٠٦.

وهذا كله يدل دلالة قاطعة على أنه كان في وسعه أن يواصل نشر فكرته ،  
 وبيث دعوته ، وأن يخلق من كتابه حركة فكرية<sup>(١)</sup> .  
 ومن خلال هذا المطلب يتبين شيء من مفهوم أساليبه المنهجية ، وميزاتها .  
 وبعد ذلك ينتقل الحديث إلى المعالم المنهجية الرئيسة لأساليبه ، وطرائقه التي  
 كان يأخذ بها في نقضه وإبطاله لحجج الخصوم والمخالفين .

## المطلب الثاني: أسلوب الاستقراء والتتبع والاستقصاء

فمن أعظم صفات الناقد الناقض الذي يريد الانتفاع بنقده - أن يكون ذا بالٍ طويل يستقرأ من خلاله الموضوعات المراد نقضها أو نقدها، ويتتبع مسألها، ويحيط بها خبراً من كل جانب، وينظر إليها بروية وأناة وبعدٍ نظرٍ. وهكذا كان الشيخ الخضر؛ فمن أهم صفاته - كما يقول الدكتور أحمد الشرباصي - : « الهدوء، والاتزان، والعمق؛ فهو يفكر طويلاً، ويستقصي في بحثه، ويدير الفكرة في ذهنه أياماً، ويأخذ لها زادها من إحساسه، ومطالعاته، واستنتاجاته.

ثم إذا جلس ليكتب كتب في هدوء، وأناة، يزن لفظه قبل أن يحطه، ويتدبر عبارته قبل أن يصوغها؛ فإذا جئت بعد ذلك لتقرأ ما كتب أعجبك أن ترى عقلاً واسعاً نيراً، وتفكيراً عميقاً سليماً، ونظرة بعيدة صحيحة، وأسلوباً رزيناً محكماً»<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان دأبه في جميع ردوده، التي ترى فيها الدراسة، والعرض، والاستنتاج، والحكم<sup>(٢)</sup>.

ولو ألقيت نظرة - على سبيل المثال - في كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) لوجدت مصداق ذلك واضحاً جلياً.

ومن أمثلة ذلك أنه لما أورد كلام طه حسين في القحطانية والعدنانية، وأنه يذكر أن الرواة يذهبون إلى أن العرب ينقسمون إلى: قحطانية، وعدنانية، وأنه يقول: « وهم متفقون على أن القحطانية عربٌ منذ خلقهم الله، فطروا على العربية، فهم العاربة، وعلى أن العدنانية اكتسبوا العربية اكتساباً»<sup>(٣)</sup>.

١ - رسائل الإصلاح ص ٢٨٢-٢٨٣ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ٢٨٣ .

٣ - في الشعر الجاهلي ص ٢٥ .

عَقَّب عليه الشيخ الخضرُ بعد أن استقرأ المسألة، وتتبعها، وطالع أقوال العلماء فيها ووصل إلى نتيجة في شأنها، فقال: «لم يتفق الرواة على أن القحطانية عرب منذ خلقهم الله، فمن الرواة من شأنهم العدنانية، وهم الذين يذهبون أنهم من ولد إسماعيل -عليه السلام-»<sup>(١)</sup>.

ثم ساق أقوال العلماء الذين ذكروا الخلاف، فأورد كلام ابن حزم في الجمهرة، وكلام ابن كثير في تاريخه.

ثم أورد بعد ذلك قول الرواة الذين يرون أن قحطان من ولد إسماعيل؛ فذكر منهم الزبير بن بكار، و ابن الكلبي.

ثم ذكر أن من الرواة من يجعل يعرب بن قحطان كإسماعيل -عليه السلام- انتقل لسانه من السريانية إلى العربية، وأورد بعد ذلك كلاماً لابن دريد في الجمهرة في مادة برع، وكلاماً قريباً من ذلك لابن خلدون في تاريخه<sup>(٢)</sup>.

ثم خلاص إلى النتيجة في ذلك فقال: «وإذا كان من الرواة من يذهب إلى أن القحطانية كالعدنانية من ولد إسماعيل، ومنهم من يقول: إن يعرب بن قحطان أول من انعدل لسانه عن السريانية إلى العربية.

ومنهم من يقول: إن أول من تكلم بالعربية قحطان نفسه؛ فأين اتفاهم على أن القحطانية عرب منذ خلقهم الله؟!»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا تتبع هذه المسألة، واستقرأها، حتى وصل إلى النتيجة الصحيحة التي تبطل كلام طه حسين في المسألة.

وقل مثل ذلك في الكتاب المذكور في حديثه عن اللغة القحطانية والعدنانية<sup>(٤)</sup>،

١ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٩١ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ٩١-٩٢ .

٣ - المرجع السابق ص ٩٢ .

٤ - المرجع السابق ص ٩١-٩٥ .

وفي حديثه عن أطوار اللغة العربية<sup>(١)</sup>، وعن قصة إسماعيل -عليه السلام-<sup>(٢)</sup>. وغير ما ذكر كثير في سائر ردوده، ونقائضه، وتعقيباته؛ فلا يكاد ينقض مسألة، أو يعقب عليها إلا بعد أن يوفيها حقها استقراءً، وتتبعاً، واستقصاءً. هذا ويدخل أو يقرب من هذا الأسلوب -أسلوب التتبع والاستقراء مما كان الشيخ يأخذ به في ردوده- عدة أساليب، وأهمها ما يلي:

أولاً: التمحيص والتدقيق؛ فالشيخ رحمته الله كان يسلك هذا المهيغ حال نقضه وإبطاله شبه خصومه؛ فلا يرضى بأن يُلقَى الكلامُ على عواهنه، ولا أن تُورد الأدلة جزافاً بلا خطام ولا زمام.

وإنما كان يدعو إلى التمحيص، والتدقيق؛ حتى لا يقع الخطأ أو اللبس، أو الغرر. وفي هذا يقول: «إننا أمة بحث واستدلال، لا نُفتن بزخرف الأقوال، ولا بمظاهر القائلين، ولا نقبل الآراء إلا أن تخرج من نور من الحجة مبين»<sup>(٣)</sup>. ومن الأمثلة على ذلك قوله في (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) بعد أن أورد كلام الشيخ علي عبدالرازق الذي قال: إن البحث في أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان ملكاً أم لا، بحث جديد في الإسلام<sup>(٤)</sup>.

قال الشيخ الخضر معقباً على ذلك: «وهذا لا يصح إلا إذا عنى بالبحث: نفي أن يكون للرسول -عليه السلام- رئاسةً سياسية؛ فإن البحث في ذلك على وجه الإنكار بحث مختلق في الإسلام.

وأما كون الرسول ذا رئاسة سياسية فأمر تقرر بالكتاب والسنة المتواترة، وتناوله المسلمون من قبل على وجه صريح، واستقر للعلماء فيه رأي واضح»<sup>(٥)</sup>.

١ - المرجع السابق ص ٩٩-١٠٠.

٢ - المرجع السابق ص ١٠٢-١٠٤.

٣ - انظر الخيال في الشعر العربي، ودراسات أدبية ص ١٦٠-١٦١.

٤ - انظر الإسلام وأصول الحكم ص ٨٨-٨٩.

٥ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٧٥.

ثم فصل بعد ذلك الكلام على أدلة الكتاب والسنة في ذلك، وختم نقضه بقوله: «فاستخفاف المؤلف بذهاب الباحث إلى أن النبي ﷺ لم يكن رسولاً ملكاً، وقوله: إن ذلك ليس بدعاً في الدين، ولا شذوذاً عن مذاهب المسلمين - ما هو إلا افتيات على الإسلام.

ومن ذهب إلى أن الرسول لم يكن مدبراً لشؤون السياسة فقد نبذ كتاب الله وراء ظهره، وشاقق الرسول، واتبع غير سبيل المؤمنين»<sup>(١)</sup>.

وقال في معرض رده على طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي): «ادعى المؤلف أن التكلف والانتحال للأغراض التعليمية الصرفة كان شائعاً معروفاً في العصر العباسي، وقال: (لا أطيل، ولا أعمق في إثبات هذا، إنما أحيلك إلى كتاب (الأمالي) لأبي علي القالي، وإلى ما يشبهه من الكتب)»<sup>(٢)</sup>.

ثم أورد كلام طه حسين الذي قال فيه: «سترى -مثلاً- بناتاً سبعاً اجتمعن، وتواصفن أفراس آبائهن، فتقول كل واحدة منهن في فرس أبيها كلاماً عربياً ومسجوعاً يأخذه أهل السذاجة على أنه قد قيل حقاً، في حين أنه لم يُقَلْ. وإنما كتبه معلم يريد أن يحفظ تلاميذه أوصاف الخيل، وما يقال فيها، أو عالم يريد أن يتفهيق، ويظهر كثرة ما وعى من العلم.

وقل مثل ذلك في سبع بنات اجتمعن وتواصفن المثل الأعلى للزوج الذي تطمع فيه كل واحدة منهن، فأخذن يقلن كلاماً غريباً مسجوعاً في وصف الرجولة والفتوة، والتعريض والتلميح إلى ما تحب المرأة من الرجل»<sup>(٣)</sup>.

١ - المرجع السابق ص ١٧٦.

٢ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٥٣.

٣ - في الشعر الجاهلي ص ٤١.

قال الشيخ معقّباً على ذلك: «لا يعيننا أن تبقى قصتنا البنات السبع في هذا الأدب القديم، أو تطرحا من حسابه، وتذهب كما ذهب أولئك البنات عيناً وأثراً. والذي يعيننا نقده هنا: أن المؤلف يكاد يذهب إلى أن ما يذكر في تاريخ الأدب قسماً: ما هو ثابت قطعاً، وما هو مكذوب لا محالة.

والمعروف أن من بين هذين القسمين قسماً يقف فيه المؤرخ المحقق؛ فلا يستطيع أن يقول عليه: إنه موثوق بصحته، ولا يستطيع أن يصفه بالكذب الذي لا مرية فيه، وشأنه فيما يقضي عليه بالكذب قضاء فاصلاً أن يذكر الطريق الذي وصل منه إلى معرفة اصطناعه.

والمؤلف حكم على حديث البنات، ولم يأت بدليل أو أمارة على اختلاقه ما عدا وصفه له بأنه كلام غريب مسجوع؛ إذا لم ينكره المؤلف إلا لأنه غريب مسجوع. واشتمال الكلام على الغرابة والسجع غير كافٍ في الحكم عليه بالاختلاق»<sup>(١)</sup>.

ثم تكلم على مسألة الغرابة والسجع، وكون ذلك لا ينهض في أن يجعل حجة لنفي القصة، ثم ختم الشيخ تعقيبه بقوله: «ونحن لا نذهب إلى أن مثل هذه القصة داخل في التاريخ الموثوق بصحته؛ لأن طريق روايتها لا يكفي في الدلالة على أنها وقعت حقاً، ونرى مع هذا- أن الباحث الحكيم- وهو الذي يفصل الحكم على قدر البحث- لا يقول على حديث: (إنه لم يُقل) إلا أن يأتي في بحثه بما يستدعي هذا الحكم القاطع.

وقد عرفت أن المؤلف إنما وضع حكمه على غرابة الكلام وسجعه، وهما جائزان على العربي القح؛ فلا تدخل هذه القصة وأمثالها في قبيل ما يحكم عليه بأنه كذب لا محالة، ولا تتعدى في نظر المؤرخ المحقق موقع الظن الذي يُسوِّغ له تدوينها؛ لِيُنتَفَعَ بما فيها من أدب، وليتألف من مجموع أخبارها ما يكون كالمرآة ينظر فيه كيف كان حال المرأة في الجاهلية»<sup>(٢)</sup>.

فهذه أمثلة على تمحيصه وتدقيقه حال ردوده.

١ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٥٤-١٥٥.

٢ - المرجع السابق ص ١٥٥.

ثانياً: قوة الملاحظة ، وقراءة ما بين السطور: فالشيخ الخضر حينما يحاور خصومه يستجمع قواه الذهنية ، وينظر في أقوالهم نظرةً فاحصةً؛ فلذلك ترى في تلك الردود قوة الملاحظة؛ فتجده يقع على هفوات تنبئ عن بعض ما يكنه الخصم في دخيلة نفسه.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رده المعنون بـ: (كتاب يهذي في تأويل القرآن المجيد) الذي رد به على الدمهوري ، حيث زعم الدمهوري أن المسلمين يروون الأحاديث عن اليهود ، وقال: «من الغريب -مع هذا الدليل المبين- أن المسلمين ينقلون في كتبهم أن النبي سُحر؛ بناءً على حديث رواه اليهود ، كما ينقل النصارى أن المسيح صُلب؛ بناءً على حديث رواه اليهود -أيضاً-»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن فند الشيخ الخضر ذلك الكلام ، وبين أن حديث سحر النبي ﷺ مروى بأسانيد عن النبي ﷺ نفسه ، وأنه عَلِمَ بهذا السحر من طريق الوحي ، وذكر رواته من الصحابة ، وأن أئمة الحديث كالبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، والبيهقي ، وغيرهم رووا ذلك الحديث ، ورد على من ينكر ذلك في الحديث والقديم - تفتن إلى كلمة قالها الدمهوري في الكلام السابق ، فقال الشيخ الخضر في خاتمة رده: «انظر إلى قوله: (إن المسلمين ينقلون في كتبهم) فإنها كلمة لا أحسبها صدرت منه إلا في حالة نسيانه أنه استعار ثوب الإسلام؛ ليتمكن من سحر أبناء المسلمين ، وصدِّهم عن السبيل»<sup>(٢)</sup>.

ومن الأمثلة -أيضاً- على قوة ملاحظته ، ما جاء في تعقيبه على كلمة قالها علي عبدالرازق في مقاله (مولد النبي) حيث قال في صدر مقاله: «قد يلاحظ بعض الباحثين أن ميلاد محمد ﷺ قد تم على وفق السنن الطبيعية التي بنى الله عليها هذا الكون ، وأجرى عليها نظام الحياة بين جميع البشر ، فلم يقترن ميلاده بالمعجزات

١ - بلاغة القرآن ص ١٦٥ .

٢ - المرجع السابق ص ١٦٦ .

الصاعدة التي اقترن بها ميلاد عدد من إخوانه السابقين من الرسل ، ولاسيما موسى وعيسى -عليهم السلام-»<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ الخضر معلقاً ومعقّباً على ذلك: «أراد الأستاذ من بعض الملاحظين نفسه؛ فإنه حكم في هذه الدعوى الخطيرة في أسلوب جديد؛ ليُقبل الناس على سماعها وإن لم يعقبها بدليل معقول»<sup>(٢)</sup>.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

وكما كان قوي الملاحظة فقد كان -أيضاً- يقرأ ما بين السطور من غمز ، وطعن ،

وغايات.

ولا يعني ذلك أنه يحمل الخصم ما لا يحتمل ، أو أنه يلزمه ما لا يلزم.

وإنما يذكر ذلك عن أمارات تلوح ، وقرائن تظهر له ما بين الفينة والأخرى.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في كتاب (في الشعر الجاهلي) حيث أخذ المؤلف طه حسين بعقد مقارنة بين الأمم الثلاث: العربية، واليونانية، والرومانية، وأن كلاً من هذه الأمم تحضّر بعد بدوّة، وخضع في حياته الداخلية لصروف سياسية مختلفة، وانتهى إلى نوع من التكوين السياسي دفعه إلى تجاوز حدوده الطبيعية، وبسط سلطانه في الأرض<sup>(٣)</sup>.

ثم قال طه حسين: «وفي الحق أن التفكير الهادئ في حياة هذه الأمم الثلاث

ينتهي بنا إلى نتائج متشابهة، إن لم نقل متحدة.

ولم لا؟ أليست هذه الإشارة التي قدمناها إلى ما بين هذه الأمم الثلاث من شبه

تكفي لتحملك على أن تفكر في أن مؤثرات واحدة أو متقاربة قد أثرت في حياة

هذه الأمم؛ فانتهدت إلى نتائج واحدة أو متقاربة؟»<sup>(٤)</sup>.

١ - محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٣٠٤ .

٢ - المرجع السابق ص ٣٠٤ .

٣ - انظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٦٥ .

٤ - في الشعر الجاهلي ص ٤٤ .

قال الشيخ الخضر تعليقاً على هذا الكلام: «في استطاعتنا أن نناقش هذه الجمل كما جاءت في غير صراحة، ولكن القلم لا يرغب حين يخوض بحثاً علمياً أن يمتطي المواربة، أو يكلم الناس رمزاً؛ فلنطو الستار الذي سدله المؤلف، وجلس يتحدث من ورائه؛ فقد ينزع محارب الحقيقة إلى الكنايات البعيدة، والإيماء الخفي، حتى يحوك مقاله في بعض النفوس دون أن يجد في طريقه زاجراً، ولا يرضى الذائد عن سبيلها إلا أن يضع الغرض على ظاهر يدك، ويريك المعنى في مرآة نقية، فإما أن تقبل، وإما أن تأبى»<sup>(١)</sup>.

ثم أفصح الشيخ الخضر عما يراه من مقاصد المؤلف في كلامه فقال: «يذهب المؤلف إلى أن شأن العرب حين فتحوا الممالك، وقاموا على سياسة الأمم - لا يختلف عن شأن الأمتين اليونانية والرومانية في المؤثرات والنتائج، يقول هذا، وهو يقصد إلى أن يجحد ما للإسلام وشريعته من مزية أو أثر في تلك النهضة العربية؛ لأنه يزعم أن مؤثراتها ونتائجها متحدة، أو متقاربة مع مؤثرات ونتائج نهضة لم تقم على أساس شريعة سماوية.

وقد تعرض لهذه المؤثرات المشتركة بين الأمم الثلاث، فإذا هي تحضر بعد بداوة، وصروف سياسية مختلفة، وتكوين سياسي انتهى بها إلى تجاوز الحدود الطبيعية.

أما النتائج الواحدة أو المتقاربة فهي بسط السلطان على الأرض. ثم إن اليونان تركوا فلسفة وأدباً، والرومان تركوا تشريعاً ونظاماً، والعرب تركوا أدباً وعلماً وديناً»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن قال: «فمن المحتمل أن المؤلف لم يدرك بعض أسباب النهضة العربية، أو أنه تخيله في غير صورته الواقعة، ولا سيما بعد أن عرفتم أن إمامه بجانب من تاريخ

١ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٦٥-١٦٦ .

٢ - المرجع السابق ص ١٦٦ .

اليونان أو الرومان لم يَحْمِه من أن يضع في كتابه رأياً ذا عوج ، أو خيالةً في ثوب حقيقة.

لا يلتبس على أحد أن هذه الأمم تحضرت بعد بدَاوة ، وأنت عليها صروف سياسية مختلفة ، ثم انتهى بها تكوينها السياسي إلى بسط سلطتها في الأرض. وهل اشتراكها في هذه الأطوار العامة يكفي لتحقيق أن مؤثراتها ونتائجها واحدة أو متقاربة؟»<sup>(١)</sup>.

إلى أن قال الشيخ الخضر: «ذلك ما نريد بحثه في كلمة نُفَصِّلها على مقدار ما يذكرك بانحراف المؤلف ، ويريكه كيف يخرج عن نظام البحث؛ ليقضي وطر الدعوة إلى غير هداية القرآن»<sup>(٢)</sup>.

ثم بين بعد ذلك أن الذين يدرسون تاريخ الأمم لا يكادون يختلفون في أن فتح العرب لهذه الممالك كان أمراً عجباً ، وأن شهود هذا لا يأخذهم عدٌ ، ثم ساق شاهدين على ذلك: أحدهما غربي ، والآخر شرقي ، وكلاهما - كما يقول - لا يُتَّهم بأنه تحدث عن عاطفة أو محاباة للإسلام<sup>(٣)</sup>.

ثم نقل عن الغربي وهو (لوثرود ستودارد) في كتابه (حاضر العالم الإسلامي) وعن الشرقي وهو (جورجي زيدان) في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي).

ثم قال بعد ذلك: «هؤلاء الذين عجبوا المظهر الأمة العربية في صدر الإسلام قد درسوا تاريخ اليونان والرومان ، ولو كانت المؤثرات والنتائج في هذه الأمم واحدة أو متقاربة لما تلقوا نبأ الحركة العربية بعجب وانبهار ، ولما جرى للكتاب وأهل النقد بحث طويل وجدال عنيف في الأسباب التي ساعدت العرب على قهر القياصرة والأكاسرة. ثم إن هؤلاء الكتاب قد بعثوا أنظارهم في البحث عن أسباب هذه النهضة

١ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١٦٦ .

٢ - المرجع السابق ص ١٦٦-١٦٧ .

٣ - انظر المرجع السابق ص ١٦٧ .

العربية، ولم يستطيعوا إلا أن يحوموا حول المؤثر الأكبر، وهو الروح الذي بثه الإسلام في صدور العرب، والنُّظْم التي أخذ بها أعمالهم»<sup>(١)</sup>.

وأثبت بعد ذلك أن الواقع ينفي أن تكون المؤثرات في حياة الأمم الثلاث واحدة أو متقاربة، وأن التحضر بعد البداوة، وصروف السياسات المختلفة، والتكوين السياسي الدافع إلى فتح البلاد ليست إلا أطواراً عامة.

وقال بعد ذلك: «ولعل القارئ يفهم رجحان حياة العرب على حياة اليونان والرومان من تسوية المؤلف بينهما في المؤثرات والنتائج؛ فإن ما يحمله للأمة العربية المسلمة يدعوه إلى أن يغير تاريخها، ولو في أذهان طلابه في الجامعة، فإذا جعل نتائج حياة العرب ماثلة لنتائج حياة اليونان والرومان - فذلك الشاهد على أن فضل حياة العرب واضح، وأنه لو وجد كفة العرب تساوي كفة تينك الأمتين، أو ترجح عنها بقليل لصاغ البحث في غير هذه الصورة، ونحا بالعبارة نحو الغض من العرب، وإنزالهم إلى الدرجة السفلى»<sup>(٢)</sup>.

ثم يختم كلامه بقوله: «ليس الدين من نتائج التحضر بعد بداوة، أو صروف السياسات المختلفة، أو التكوين السياسي الدافع إلى فتح البلاد. وإنما هو هداية سماوية أطلت شمسها على أفق عربي، ثم ألقَتْ أشعتها هكذا وهكذا.

وما كانت الصلة بين العرب وهذا الدين إلا صلة الإيمان والجهاد في سبيله، وقد انعقدت هذه الصلة بينه وبين أمم أخرى ليست بالعدنانية، ولا القحطانية، وإنما هي العقول الراجحة تبصر الحقائق محمولة على سواعد الحجج؛ فلا تقعد حتى تعتنقها»<sup>(٣)</sup>.

١ - المرجع السابق ص ١٦٨ .

٢ - المرجع السابق ص ١٦٩-١٧٠ .

٣ - المرجع السابق ص ١٧٠ .

فهذا شاهد على فطنته ، وقوة ملاحظته ، وقراءته ما بين السطور في غضون ردوده .  
ثالثاً: حَلُّ الالتباس ، وتصحيح الخطأ: فمن أساليبه التي تنتج عن تتبعه  
واستقرائه - وقوفه عند ما يورده الخصم من اللبس ، والخطأ؛ فتراه يحلُّ اللبس ،  
ويصحح الخطأ ، ولا يقنع بما يورده الخصم خصوصاً إذا علم أنه ذو هوى يركب في  
سبيل ما يرمي إليه كل صعب وذلول .

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في كتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم)  
حيث التبس على علي عبدالرازق حاتم الأصم بحاتم الصوفي ، فقال بعد أن نقل  
كلام ابن خلدون: «وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا المنصب رأساً لا  
بالعقل ولا بالشرع ، منهم: الأصم من المعتزلة»<sup>(١)</sup> .

ثم ذكر علي عبدالرازق أسفل الصحيفة معرفاً بالأصم ، فقال: «حاتم الأصم  
الزاهد المشهور البلخي»<sup>(٢)</sup> .

قال الشيخ الخضر معلقاً: «التبس على المؤلف حال الأصم المعتزلي ، وهو أبو بكر  
عبد الرحمن بن كيسان بحاتم الأصم الصوفي ، وقد ذكره السيد في (شرح المواقف)  
والسعد في (شرح المقاصد) بلقب أبي بكر ، وذكره إمام الحرمين في كتاب (غياث  
الأمم) باسمه عبد الرحمن بن كيسان ، وجمع أحمد بن يحيى المرتضى في (طبقات  
المعتزلة) بين اسمه ولقبه ، فقال: أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم»<sup>(٣)</sup> .

وقال في موضع آخر مبيناً وجه الخطأ واللبس في كلام لعلي عبدالرازق قال فيه:  
«ولكن المنصفين من العلماء ، والمتكلفين منهم ، قد أعجزهم أن يجدوا في كتاب الله  
-تعالى- حجة لرأيهم ، فانصرفوا عنه إلى ما رأيت من دعوى الإجماع تارة ، ومن  
الالتجاء إلى أقيسة المنطق وأحكام العقل تارة أخرى»<sup>(٤)</sup> .

١ - الإسلام وأصول الحكم ص ٤٧ .

٢ - المرجع السابق ص ١٥٠ .

٣ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٤٠ .

٤ - الإسلام وأصول الحكم ص ٤٩ .

قال الشيخ الخضر مزياً هذا اللبس ، ومصححاً ما وقع فيه المؤلف من خطأ : «سمى المؤلف طريق الاستدلال الذي نحاه الأستاذ الشيخ محمد بنجيت ، ومن تقدمه من علماء الكلام : قياساً منطقياً ، وحكماً عقلياً . وهذا مما يخيل إلى القارئ أن هذا الضرب خارج عن الأدلة الشرعية ، والتحقيق أنه راجع إلى الأدلة السمعية ، ويشهد بهذا قولهم : إن نصب الإمام عندنا واجب سمعاً ؛ لوجهين : الوجه الأول : الإجماع ، والثاني : هذا الدليل الذي اختار المؤلف أن يسميه : حكماً عقلياً»<sup>(١)</sup> .

ثم شرع في تفصيل ذلك ، وختم كلامه بقوله : «فالذين يستدلون على وجوب نصب الإمام بأن ترك الناس فوضى لا يجمعهم على الحق جامع ، ولا يزعهم عن الباطل وازع - يفضي إلى تبدد الجماعة ، وإضاعة الدين ، وانتهاك حرمة الأموال والنفوس والأعراض - إنما يطبقون قاعدة شرعية ، وهي قاعدة : (الضرر يزال) أو قاعدة : (ما لا يتم الواجب المطلق إلا به ، وكان مقدوراً ، فهو واجب)»<sup>(٢)</sup> .

فهذه نماذج وأمثلة تدل على استقراره ، وتبعه ، واستقصائه .

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٤١ .

٢ - المرجع السابق ص ٤٢ .

## المطلب الثالث: أسلوب محاصرة الخصم بالعجج

فالرد - كما مر - لا بد أن يكون عند أمر يستدعيه ، وإلا فما للداعي للإثارة والجلبة؛ فإذا كان ثمّ داعٍ لذلك كان من الحكمة ، والمجادلة بالتي هي أحسن أن يُنظر في مسائل الخلاف ، وتحاصر الشبه المثارة ، وتُبرز الحقائق التي يراد الوصول إليها. ولا ريب أن ذلك يحتاج إلى طرق توصل إلى ذلك الهدف المنشود. وهذا ما كان حاضراً في ذهن الشيخ الخضر إبان ردوده على مخالفه؛ لذلك سلك طرقاً عدة في محاصرته لخصومه.

وأبرز ما سلكه في ذلك الشأن ما يلي :

أولاً: إلزام الخصم : فالشيخ الخضر يأخذ بهذا الأسلوب في ردوده أحياناً.

مثال ذلك : أن يدعي الخصم دعوى لا حقيقة لها ، ولا يستطيع إثباتها ، فيلزمه الشيخ بلوازم قوله ، فيكون الخصم بين مطرقة وسندان ، فإما أن يعترف بجهله ، أو بتلبيسه.

ولا يعني ذلك أن الشيخ يُلزم خصومه بلوازم متكلفة ، أو بما لا يلزم من الكلام الذي ساقوه.

وإنما يلجأ إلى هذا الأسلوب إذا رأى تعنتاً ، وتمادياً في الإضلال والصد.

مثال ذلك : أن الشيخ علي عبدالرازق لما ادعى أن رسالة النبي رويحه ، وولاية الحاكم مادية ، وذهب إلى أن الإسلام إنما هو وحدة دينية ، وزعم أن ظواهر القرآن تؤيد القول بأن النبي ﷺ لم يكن له شأن في الملك السياسي ، وساق على هذا آيات تحيّل أنها تسعده فيما يدعي<sup>(١)</sup> ، وقال في ذلك ما نصه : « رأيت - إذاً - أن هنالك عقبات لا يسهل أن يتخطاها الذين يريدون أن يذهب بهم الرأي إلى اعتقاد أن النبي ﷺ كان يجمع إلى صفة الرسالة أنه كان ملكاً سياسياً ، ومؤسساً لدولة سياسية.

رأيت أنهم كلما حاولوا أن يقوموا من عثرة لقيتهم عشرات، وكلما أرادوا الخلاص من ذلك المشكل عاد ذلك المشكل عليهم جذعاً»<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ الخضر في نقضه لهذه الدعوى: «يعتقد المسلمون أن النبي ﷺ كان رسولاً نبياً، ومؤسس دولة سياسية، وساروا على هذه العقيدة ألفاً وثلاث مئة سنة، فلم يجدوا في طريقهم مشكلاً تتعثر فيه أفهامهم، أو قتام شبهة يثور في أذهانهم، فضلاً عن عقبات تقوم في وجوههم»<sup>(٢)</sup>.

ثم قال ملزماً علي عبدالرازق: «ولكن المؤلف بين خطتين: إما أن يكون تلقى الدين بصورة جامدة، ولم يدرك أنه يرشد إلى الحقائق والمصالح، ويدع كثيراً من وسائلها إلى اجتهادات العقول، وما يقتضيه حال الشعوب.

وإما أن يكون عرف الحقيقة، وأثار حولها هذه الضجة؛ ليكتم صوتها؛ حتى لا يسمع الناس إلا نعمة الإباحية الفاسقة»<sup>(٣)</sup>.

ثانياً: مطالبة الخصم بأرضية لحسم الخلاف: بحيث يطلب من الخصم أن يحتكم هو وإياه إلى قاعدة يُرجع إليها، أو أرضية يتكى في حال الخلاف عليها، فيعرف بذلك حال الخصم، وما يلائمه من الحوار، والمناظرة، والمحاجة.

مثال ذلك: أن طه حسين أنكر كل ما يُروى من الشعر الذي قيل في الجاهلية ممهداً للبعثة النبوية، وكل ما يتصل به من الأخبار، وزعم أن تلك الأشعار «تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم، وأحبار اليهود ورجال النصارى كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش أو من مكة»<sup>(٤)</sup>.

قال الشيخ الخضر في نقضه للكلام السابق: «كان حماة حقائق الإسلام في

١ - الإسلام وأصول الحكم ص ١٤٠ .

٢ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٢٠٧ .

٣ - المرجع السابق ص ٢٠٧-٢٠٨، وانظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٣٨٥ .

٤ - في الشعر الجاهلي ص ٦٩ .

المناظرة موقفان: موقفٌ مع المخالفين، وهؤلاء إنما كانوا يناضلونهم في أصول العقائد، ويحاكمونهم إلى النظر والحجج العقلية البحتة.

وموقف مع موافقيهم في الأصول، ومناظرة هؤلاء إنما تكون في ظل تلك الأصول، فتجري المناظرة في نظام، وتنتهي في الغالب بسلام.

وقد خرج في هذا العصر طائفة يقولون بأفواههم: إنهم مسلمون بقلوبهم، جاحدون بعقولهم؛ فإذا أنكروا رواية، أو فرعاً يتصل بالدين، لا تدري أتجاوزهم تحت ظل الأصول المقررة، أم ترجع بهم إلى النظر الصرف، وتعود بهم إلى البحث في الإيمان بالله وكتبه ورسله؟<sup>(١)</sup>

ثم شرع في إكمال بقية النقض.

ثالثاً: إظهار تناقض الخصم: وهذا من أعظم ما يبطل حجة الخصم، ويبين

عوار منهجه.

وقد كان الشيخ الخضر؛ لسعة اطلاعه، وشمول معارفه، وتمرسه في الرد والنقض، ولكونه لا يردُّ إلا على ما يستدعي ذلك، وما يكون قد أحاط به خيراً - يأخذ بهذا الأسلوب، فينسف به حجج الخصوم.

ولا ريب أن أشد ما يكون من إظهار تناقض الخصم ما يكون في مسألة المنهج الذي يتكئ عليه الخصم، وينطلق من خلاله؛ فإذا تبين التناقض في المنهج كان ذلك أدعى لرد كلام الخصم، وظهور زيفه.

ومن الأمثلة على ذلك ما أظهره الشيخ الخضر من تناقض طه حسين، واضطرابه في منهجه؛ فالشيخ الخضر يبين أن طه حسين يضطر للشك في المتواتر من أخبار القرآن بحكم منهج (ديكارت) القائم على الشك، ثم هو - في الوقت نفسه - يقبل كل رواية مريضة واهية يذكرها كتاب (الأغاني) كحقٍّ مُسلمٍ يستند

إليه في قضية الانتحال، حتى اضطر القارئ إلى الاعتقاد بأن المنهج الديكارتى لا يصلح فقط إلا حين يجابه الحقائق لا الأراجيف<sup>(١)</sup>.

يقول طه حسين في معرض شكه في الشعر الجاهلي: «هم لم يُغَيِّرُوا في الأدب شيئاً، وما كان لهم أن يغيروا فيه شيئاً، وقد أخذوا أنفسهم بالاطمئنان إلى ما قال القدماء، وأغلقوا على أنفسهم في الأدب باب الاجتهاد كما أغلقه الفقهاء في الفقه، والمتكلمون في الكلام»<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ الخضر في نقضه لهذا الكلام: «من الحقائق ما لا يسعى إليه الباحث إلا على مسالك الظنون، ولا يجد السبيل إلى أخذه بما فوق الاحتمال الراجح. وأكثر مباحث تاريخ الأدب من هذا القبيل؛ فتغيير الأدب على معنى البحث في نسبة قصيدة أو بيت إلى شاعر لا يزال بابه مفتوحاً على مصراعيه. وأما تغييره بقلب رأسه على عقبه فإن الأقلام التي يمكنها أن تعمل في سبيله لم تنبت بعد»<sup>(٣)</sup>.

إلى أن قال: «فلسنا ممن يدعي أن في مؤلفات الأدب تبيناً لكل شيء، أو يبرئها من أن تكبو في بعض المباحث، أو تنطوي بعض رواياتها على دُخَل؛ فذلك ما لا يستطيع الخلاص منه، وهذا صاحب كتاب (في الشعر الجاهلي) على الرغم من قبضه على منهج (ديكارت) ونعيه الاطمئنان إلى ما يقوله القدماء - قد اطمأن في كثير من هذا النحو الجديد من البحث إلى ما يرويه صاحب (الأغاني) وغيره، وسنريك أن في تلك الروايات ما لا يقبله إلا ذو عاطفة نائرة»<sup>(٤)</sup>.

ويتحدث طه حسين عن أنصار الجديد، ووصف الطريق أمامهم بأنها معوجة

١ - انظر الإمام محمد الخضر حسين بأقلام نخبة من أهل الفكر ص ١٧٣ .

٢ - في الشعر الجاهلي ص ٤ .

٣ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٤ .

٤ - المرجع السابق ص ٢٤ .

ملتوية ذات عقبات لا تكاد تحصى، وهم لا يكادون يمشون إلا في أناة وريث. ثم يقول: «ذلك لأنهم لا يأخذون أنفسهم بإيمان ولا اطمئنان، أو هم لم يرزقوا هذا الإيمان والاطمئنان؛ فقد خلق الله لهم عقولاً تجد في الشك لذة، وفي القلق والاضطراب رضاءً.

وهم لا يريدون أن يخطوا في الأدب خطوة حتى يتبينوا موضعها، وسواء عليهم وافقوا القدماء وأنصار القديم، أم كان بينهم وبينهم أشد الخلاف»<sup>(١)</sup>. قال الشيخ الخضر في رده مبيناً تناقض طه حسين في منهجه الديكارتي القائم على الشك: «البحث في الرأي أو الرواية دأب كل عالم نقاد، وما البحث إلا أثر الشك في صحة الرأي، أو صدق الرواية.

والشك قد يكون ذريعة للعلم، وقد ينحدر بصاحبه في جهالة، وربما تلجلج فيه القلب؛ فلا يجد متقدماً عنه ولا متأخراً.

والأول محمود العاقبة، والثاني والثالث لا خير فيهما، والأنواع الثلاثة حرج في الصدر، وعنت للضمير، وهيهات أن تجد النفوس في واحد منها لذة؛ إذ لا لذة إلا في اعتناق الحكمة»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن يقول: «قد نغمض للمؤلف في زعمه أن في الشك لذة؛ أو نحمل كلمته على أنها ضرب من الشعر؛ فقد يعمد الخيال إلى معنى يختص بحقيقة، وينقله إلى بعض وسائلها.

ولا نكتمه أننا منذ الآن لا نعدّه في أنصار الجديد؛ لأن هذه النعوت التي شرح بها حالهم لا تنطبق على سيرته في البحث؛ فأنصار الجديد لا يكادون يمشون إلا في أناة وريث، وهو لا يكاد يمشي إلا في عجل واندفاع، كأنه لا يحس بأن الطريق أمامه معوجة ملتوية ذات عقبات لا تكاد تحصى.

١ - في الشعر الجاهلي ص ٥ .

٢ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٥ .

وأَنْصار الحديد لا يأخذون أنفسهم بإيمان ولا اطمئنان، وهو لا يعثر في رواية تحدش سيرة رجل من عظماء الشرق، أو ترمي أحداً بزيف العقيدة - إلا قبض عليها بكلتا يديه، وآمن بها إيماناً جامداً، ولو رواها مسيلمة عن فاختة! <sup>(١)</sup>

فهذا مثال على إظهاره تناقض الخصم، والأمثلة على ذلك كثيرة، بل لا يكاد ردُّ من ردوده يخلو من ذلك <sup>(٢)</sup>.

رابعاً: مناقشة الخصم في إخلاله بالأمانة العلمية: فالأمانة العلمية من أهم مقومات البحث، فإذا رُمِيَ الباحثُ أو المؤلفُ في أماته كان خليقاً بألا يكون لكلامه وزن ولا اعتبار.

والشيخ الخضر كان يناقش خصومه في ذلك؛ فإذا رأى إخلالاً بالأمانة نَقَدَهُ، وبينَ أن ذلك لَطَخَةٌ في سيرة من يُخِلُّ بها.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رده على علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) فقد أورد عبد الرازق جملاً للدلالة على أن المسلمين يتغالون في احترام الخليفة؛ حيث افتتح كتابه بحكاية كلماتٍ وردت في تعريف الخليفة، ثم أخذ يبحث - كما يقول الشيخ الخضر - في تفسير هذه الكلمات جملاً تُشعر بما انطوت عليه من غلوٍّ وإسهاب أن منشئها سيتخذها سُلماً لدعوى إفراط المسلمين في إكبار مقام الخليفة، وتوسيع سلطته <sup>(٣)</sup>.

إلى أن قال الشيخ علي عبد الرازق: «فالخليفة عندهم ينزل من أمته بمنزلة الرسول ﷺ من المؤمنين، له عليهم الولاية العامة، والطاعة التامة، والسلطان الشامل» <sup>(٤)</sup>.

ثم قال: «وعليهم أن يجوه بالكرامة كلها؛ لأنه نائب رسول الله ﷺ وليس عند

١ - المرجع السابق ص ٢٥ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ١٠٢-١٠٤ و ١١٣ و ١٩٤-١٩٥ .

٣ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٤ .

٤ - كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٣٥ .

المسلمين مقام أشرف من مقام رسول الله ﷺ فمن سما إلى مقامه؛ فقد بلغ الغاية التي لا مجال فوقها لمخلوق من البشر»<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ الخضر في نقض الكلام السابق: «شغل المؤلف مقدار صحيفتين أو أزيد بتكرار معان تُعدّ من المعلومات الموضوعية على ظاهر اليد؛ لِيُلمَحَ بتأكيد إلى أن المسلمين يقررون لمقام الخلافة سلطاناً ومكانة فوق ما يستحقه رئيس حكومة عادلة، ثم هو لم يقف في بيان عبارات أولئك العلماء على حد ما تحتمله ألفاظهم - كما هو شأن طلاب الحقيقة بإنصاف - بل أخذ يرمي الكلم على عواهنه، وَيَعْدِلُ عن الألفاظ المطابقة إلى غيرها من الألفاظ التي ربما قدحت في الذهن معاني غير صحيحة»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن قال مبيناً إخلال المؤلف بالأمانة العلمية: «فعلماء الإسلام يقولون: تجب طاعة الخليفة فيما يأمر به من معروف. والمؤلف يقول: (له عليهم الطاعة التامة).

فيحذف ما اشترطوه للطاعة من الاقتصار بها على المعروف، ويضع بدله كلمة تذهب بها إلى أن تتناول الطاعة العمياء.

وهم يقولون: (يجب أن يكون مكرماً بين الناس - أي: غير مهان - ليكون مطاعاً). والمؤلف يقول: (وعليهم أن يجوبه بالكرامة كلها) فيصرف القلم عن تعليلهم الذي يأخذ به المعنى قوة الحقائق، ويضع مكانه لفظ الشمول الذي يذهب بنفس القارئ إلى أقصى غاية»<sup>(٣)</sup>.

ثم يعلق الشيخ الخضر على ذلك بقوله: «وهذا النوع من التصرف في أقوال أهل العلم مما يَغْمِزُ في أمانة صاحبه.

١ - المرجع السابق ص ٣٥ .

٢ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٥ .

٣ - المرجع السابق ص ١٥ .

وقد يُعْمَضُ عنه الطرفُ في المقالات الأدبية، أو في مقام الوعظ. أما الباحث في العلم فإنه حقيق بأن يؤاخذ به، وبالأحرى حيث يكون بصدد بيان رأي أو حكم انتصب لمناقشته أو نقضه»<sup>(١)</sup>.

وللشيخ الخضر كلام قريب من ذلك من جهة بيان إخلال المؤلف بالأمانة، وذلك عند ادعائه أن حظ العلوم السياسية عند المسلمين بالنسبة لغيرها من العلوم أسوأ حظاً؛ فبين الشيخ بطلان تلك الدعوى<sup>(٢)</sup>.

وكذلك بين إخلاله بالأمانة عندما قال -أي علي عبدالرازق-: «ولو وضعنا هذا الكتاب كله في بيان الضغط الملوكي الإسلامي على كل علم سياسي، وكل حركة سياسية، أو نزعة سياسية - لضاق هذا الكتاب وأضعافه عن استيعاب القول في ذلك، ثم لعجزنا عن بيانه على وجه كامل»<sup>(٣)</sup>.

فرد عليه الشيخ الخضر بقوله: «اقتحم المؤلف في هذه العبارة شططاً لا يقع فيه خبير بالتاريخ، عارف بقيمة الأمانة في العلم.

طالع -أيها القارئ- كتب التاريخ كتاباً كتاباً، وقلّبها إن شئت صحيفة صحيفة، فلا أحسبك تعثر على مثال يشهد بأن ملكاً من ملوك الإسلام غضب لكتاب ألف في السياسة، أو كره للناس أن يترجموا كتباً في السياسة، أو عَنَف شخصاً ألف في السياسة، أو أصدر إنذاراً على التأليف في السياسة»<sup>(٤)</sup>.

إلى أن قال: «ضغط بعض ملوك الإسلام على الفلسفة؛ كما قصصناه عن المتوكل العباسي، والمنصور بن أبي عامر؛ لاعتقاد ضررها، أو تقريباً من قلوب العامة، ولا تكاد تعلم أن أحداً منهم اضطهد علم السياسة إلا ما كان من

١ - المرجع السابق ص ١٦ .

٢ - انظر المرجع السابق ص ٦٠-٦٧ .

٣ - الإسلام وأصول الحكم ص ٦٧ .

٤ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٩٨ .

السلطان عبد الحميد الذي انتهى به الاستبداد والضغط على حرية الفكر إلى غاية لم يسبق لها نظير، ومن ذلك المتناهي تعلمُ عبد الرحمن الكواكبي كيف يؤلف كتابي: (طبائع الاستبداد) و (جمعية أم القرى)»<sup>(١)</sup>.

خامساً: رد البضاعة إلى أصحابها: وهذا الأسلوب في الرد قريب مما قبله؛ من حيث إن الأخذ من الآخرين دون عزو أو إشارة نوع من الإخلال بالأمانة. فإذا كان الرادُّ ذا اطلاع واسع أمكنه معرفة ذلك، وردَّ البضاعة إلى أصحابها الأصليين.

وما من ريب أن ذلك يضعف قيمة البحث المردود عليه، وقد يفقده الثقة أو شيئاً منها؛ فالقارئ يحسن الظن بالباحث بادّي الرأي، وقد يُعجَب بآرائه أول وهلة.

فإذا تبين له أن ذلك ليس من بنات أفكار المؤلف، وأنه - مع ذلك - لم يشر إلى مُفترع تلك الأفكار - قلَّ ذلك الإعجاب، أو تلاشى.

والشيخ الخضر يقعد بالمرصاد لمن يرد عليهم إذا وقعوا في مثل ذلك. والأمثلة في ردوده على ما ذُكِرَ كثيرة جداً، ومنها: ما جاء في نقضه لظه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) وذلك لما قال طه: «وفي الحق أن الأدب العربي لم يُدرَس نفسه، وإنما دُرِس في حيث هو وسيلة إلى تفسير القرآن، وتأويله، واستنباط الأحكام منه»<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ الخضر في معرض نقضه لهذا الكلام: «قال المؤلف هذا، وعينه تنظر إلى قول الأستاذ الرافعي في تاريخ آداب العرب»<sup>(٣)</sup>: (وكانوا جميعاً إنما يطلبون رواية الأدب للقيام به على تفسير ما يشته من غريب القرآن

١ - المرجع السابق ص ٩٨-٩٩ .

٢ - في الشعر الجاهلي ص ٩٢ .

٣ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٩٢ .

والحديث))<sup>(١)</sup>.

وفي معرض كلام آخر في نقض له في أصل الاختلاف الذي كان بينه وبين طه حسين وذلك في قضية الشك في الشعر الجاهلي وقع شيء من رد البضاعة إلى أهلها، وذلك لما قال طه حسين: «وأول شيء أفجؤك به في هذا الحديث: هو أنني شككت في قيمة الشعر الجاهلي، وألححت في الشك، أو قل: ألحّ عليّ الشك؛ فأخذت أبحث وأفكر، وأقرأ وأتدبر حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقيناً؛ فهو قريب من اليقين، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء»<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ الخضر في نقضه لهذا الكلام، وإثبات أن المؤلف قد أخذ هذه النظرية من الدكتور مرجليوث: «كان الدكتور (مرغليوث) قد ادعى أن الشعر الجاهلي مزور ومصنوع، وتعرض لهذا البحث في مجلة الجامعة الآسيوية الملكية سنة ١٩١٦م (ص ٣٩٧) وفي مادة (محمد) من (دائرة معارف الأديان والعقائد) وفي كتابه (محمد) المطبوع سنة ١٩٠٥م (ص ٦).

ومن تصدى للرد عليه السر (تشارلس جيمس ليل) في مقدمة ترجمة (المفضليات) المطبوعة سنة ١٩١٨م.

ثم عاد الدكتور (مرغليوث) وكتب في مجلة الجامعة الآسيوية الملكية الصادرة سنة ١٩٢٥م مقالاً مسهباً أتى فيه على الشُّبه التي جرّت إلى نظرية الشك في الشعر الجاهلي، فابتدأه بقوله: (بدأ المسلمون في حوالي نهاية العصر الأموي يدعون وجود شعر جاهلي عربي، ولم يكتفوا بذلك حتى زعموا أنهم جمعوا الجزء الأعظم منه).

١ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٨٢.

٢ - في الشعر الجاهلي ص ٧.

وأنهاه بقوله: (أما الجواب عن الشعر الجاهلي: هل هو يرجع إلى عهد عتيق، أو أنه إسلامي؟ فخير ما يسلك الإحجام عنه؛ لأن الأدلة الموجودة أمامنا موقعة في حيرة)»<sup>(١)</sup>.

وقال الشيخ الخضر بعد ذلك: «أغار المؤلف على نظرية الشك في الشعر الجاهلي، ولم يفترق عن (مرغليوث) إلا في تسليمه بأن هناك شعراً جاهلياً، فأخذ أصل النظرية، وأقوى الشبه التي استند إليها (مرغليوث)، وجعل يقول لك: (هو أني شككت في الشعر الجاهلي)، ويداعبك بقوله: (ألححت في الشك، أو قل: ألح علي الشك).

والحديث في صدق وأمانة خير من هذه المداعبة»<sup>(٢)</sup>.

وقال في معرض رده على علي عبدالرازق في كلامه عن مبالغة الناس في احترام الخلفاء، وذلك عندما قال: «ولقد كان شيوع هذا الرأي، وجريانه على الألسنة مما سهل على الشعراء أن يصلوا في مبالغاتهم إلى وضع الخلفاء في مواضع القدسية، أو قريباً منها...»<sup>(٣)</sup>.

قال الشيخ الخضر في نقضه لهذه الفقرة مبيناً ممن أخذ علي عبدالرازق هذا الكلام، رادا البضاعة إلى صاحبها: «قبض المؤلف قبضة من أثر جرجي زيدان، ونبذها في كتاب (الإسلام وأصول الحكم).

اقرأ كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي) تجده تعرض إلى ما حدث من الغلو في احترام الخلفاء أيام الدولة العباسية...»<sup>(٤)</sup>.

سادساً: نقد المنهج الذي يستقي منه الخصم: فقد مر في فقرة ماضية من هذا

١ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٣١ .

٢ - المرجع السابق ص ٣١، وانظر ص ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٦ و ٦٧ .

٣ - الإسلام وأصول الحكم ص .

٤ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٣٠ .

المطلب أن طه حسين كان يأخذ بمنهج ديكرارت ، وأن الشيخ الخضر يرى أنه متناقض في أخذه بذلك المنهج ، وأن ذلك يعد زراية في حقه. والحديث هنا سيكون عن نقد الشيخ الخضر للمنهج الذي استقى منه طه حسين ، وادعى السير عليه.

يقول طه حسين: «وأنت ترى أنني غير مسرف حين أطلب منذ الآن إلى الذين لا يستطيعون أن يبرؤوا من القديم ، ويخلصوا من أغلال العواطف والأهواء ، حين يقرؤون العلم ، أو يكتبون فيه - ألا يقرؤوا هذه الفصول؛ فلن تفيدهم قراءتها إلا أن يكونوا أحراراً حقاً»<sup>(١)</sup>.

وقال الشيخ الخضر معقباً على هذا الكلام: «إني غير مسرف حين أطلب منذ الآن إلى الذين يستطيعون أن ينقدوا الجديد ، ويخلصوا من أغلال التقليد ، حين يقرؤون العلم ، أو يكتبون فيه ، أن يقرؤوا تلك الفصول؛ فقد تفيدهم قراءتها؛ إذ يجدون فيها المثل الأعلى لتهافت الديكارتيين على ما يسميه المناطقة: تناقضاً أو تخيلاً.

والوجه الذي يخرج منه مقلدة هذا المنهج إلى ما يؤاخذهم عليه العلم ، هو أن واضعه يجعل من أركانه عدم التسليم بشيء إلا أن يكون واضحاً لدى العقل. ومن هنا يمكن لغير المخلص إنكار بعض الحقائق بزعم إبهامها ، وعدم إيضاح أمرها ، كما يمكنه تقرير شيء من الباطل بإيهام أنه فحصه؛ فكان حقيقة واضحة.

فمنهج (ديكرارت) لا يحمي المؤلف من أن يناقشه الأحرار حقاً ، فيوضحوا حقيقة أنكرها ، أو يفضحوا زوراً ادعى أنه حق لا غبار عليه»<sup>(٢)</sup>.

١ - في الشعر الجاهلي ص ١٤ .

٢ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٥٤-٥٥ .

سابعاً: مطالبة الخصم بصحة الدليل ، وصدق الدعوى : وذلك كثير في ردوده؛ حيث إنه لا يمانع أن يدّعي خصومه أي دعوى ، وأن يذهبوا في الرأي كل مذهب؛ غير أنه يطالبهم بصحة الدليل ، وصدق الدعوى.

والأمثلة في ردوده كثيرة جداً ، ومنها قوله في معرض رده على طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) : « ما برح الناس في القديم والحديث يبحثون في العلوم ما استطاعوا ، ويقلبون أنظارهم في الفنون كيف أرادوا.

وليس هناك خطة لا يلوي الباحث عنها ، أو حدود لا يتجاوزها.

وما على العلماء النقاد إلا أن يكونوا الهؤلاء الكتاب بالمرصاد ، ويعرضوا أقوالهم على قانون العلم الصحيح ، فإما أن يرجح وزنها ، فيرفعوا لها ذكراً ، وإما أن يطيش وزنها ، فينسفوها بالحجج الرائعة نسفاً.

فللمؤلف وغير المؤلف أن يقول : أخطأ الأصمعي ، ولم يوفق أبو عبيدة ، وضلّ الكسائي.

وله أن يضع علم المتقدمين كله موضع البحث أو الشك ، على شرط أن يتحرى في بحثه أو شكه أدباً يشهد بأنه ينشد حقيقة ، ويسعى وراء علم.

وستفضي إليك الفصول الآتية أن المؤلف حريص على إرضاء عاطفته ، ولو ذهب الأدب والمنطق إلى غير لقاء»<sup>(١)</sup>.

ومن الأمثلة - أيضاً - على ذلك ما قاله طه حسين في مقدمة كتابه (في الشعر الجاهلي) : « وأنا مطمئن إلى أن هذا البحث - وإن أسخط قوماً ، وشق على آخرين - فسيرضي هذه الطائفة القليلة من المستتيرين الذين هم في حقيقة الأمر عدة المستقبل ، وقوام النهضة الحديثة ، وذخر الأدب الجديد»<sup>(٢)</sup>.

١ - المرجع السابق ص ١٨-١٩ .

٢ - في الشعر الجاهلي ص ١ .

قال الشيخ الخضر في نقضه للكلام السابق مطالباً بصدق الدعوى: «كم كتاب صنع ليظعن حقاً، وكم كتاب صنع ليمحو أدباً، ولا يعجز أحد من صانعي هذه الكتب أن يقول: وأنا مطمئن إلى أن هذا البحث وإن أسخط قوماً، فسيرضي هذه الطائفة المستتيرة، ويأتي في وصف هذه الطائفة على كل ما تحمله اللغة من ألقاب المديح والإطراء.

ولكن الذي يعجزه، ولا يهتدي إليه طريقاً: أن يصدق اطمئنانه، ويأخذ كتابه في نفوس الطائفة المستتيرة مأخذ الرضا؛ فإن هذه الطائفة إنما تقاد بزمام الحجة، وصدق اللهجة، لا بكلمات تحرف عن مواضعها، وشبهه من الباطل تخرج في غير براقعها»<sup>(١)</sup>.

ثامناً: إظهار جهل المخالف بالمسألة المثارة: ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبدالرازق؛ حيث تكلم في أحد مباحث كتابه على تولية عمر وعلي ومعاذ -رضي الله عنهم- القضاء في كلام يطول، وفيه من الشبه التي تولى الشيخ الخضر كشفها، ونقضها.

والذي يعني في هذا المقام إظهار الخضر جهل الشيخ علي في تلك المسألة. يقول الشيخ الخضر في معرض نقضه: «يقول الإمام البخاري: بعث علياً بعد ذلك ليقبض الخمس.

ومن الجليّ لدى المبتدئين من طلاب العلم أن المراد: خمس الغنيمة. ولكن المؤلف الذي لم يقنع برتبة مجتهد، وحاول أن يكون مشرعاً، يقول: (ويروي الآخر: أنه كان لقبض الخمس من الزكاة).

وليس في الزكاة شيء يقال له: الخمس، ولكن الله ضرب هذا المثل؛ لنشهد به حظ المؤلف من فهم كتب الشريعة، وليعلم الذين يريدون أن يتبعوا خطواته

أنهم ركبوا غارب عشواء، وفتحوا أعينهم في ليلة ظلماء»<sup>(١)</sup>.

وفي معرض بحث عن الحنيفية في كتاب (في الشعر الجاهلي) قال طه حسين: «القرآن يحدثنا عن هذه الكتب، فهو يذكر التوراة والإنجيل، ويجادل فيهما اليهود والنصارى، وهو يذكر غير التوراة والإنجيل شيئاً آخر هو صحف إبراهيم، هو هذه الحنيفية التي لم نستطع إلى الآن أن نتبين معناها الصحيح»<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ الخضر في نقضه مبنياً معنى الحنيفية: «اتفقت الأديان الثلاثة على نبوة إبراهيم - عليه السلام - ودل القرآن؛ بما يحكيه من حاجته لقومه، وما يأتي عليه من آداب شريعته: أنه كان يدعو إلى التوحيد، ومكارم الأخلاق، ولهذا المعنى سمي حنيفاً؛ أي: مستقيماً، وكذلك سميت ملته: الحنيفية، نسبة إلى الحنيف، وهو المستقيم، وكل نبي حنيف، وكل شريعة سماوية حنيفية، وإنما سمي إبراهيم - عليه السلام - حنيفاً، وملته حنيفية؛ تبيهاً على خطأ من يدعون أنهم على ملة إبراهيم، وهم يعملون على شاكلة غير مستقيمة، ولذلك ترى القرآن يصفه بقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ آل عمران: ٩٥، ويتبع هذا الوصف بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ آل عمران: ٩٥»<sup>(٣)</sup>.

ثم أعقب الشيخ الخضر ذلك بقوله: «فإن أراد المؤلف أنه لم يستطع أن يتبين معنى الحنيفية من القرآن فالقرآن ينادي على هذا المعنى، ويعبر عنه بأفصح بيان، وإن أراد أنه لم يستطع أن يتبينه من ناحية غير ناحية القرآن - فليدعه إلى ما لا يستطيع أن يتبينه؛ كالعلوم الرياضية والطبيعة»<sup>(٤)</sup>.

تاسعاً: تهوين شبه الخصم وإرهابه: فقد يأتي بعض الخصوم بشبه، ويُلبسها لبوس التحقيق والعلم، ويرمي المنكرين لها بالجمود؛ فيسحر بذلك أعين

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٤٠ .

٢ - في الشعر الجاهلي ص ٢٥٨ .

٣ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٥٨-٢٥٩ .

٤ - المرجع السابق ص ٢٥٩ .

المستضعفين علماءً وعقيدة - كما يقول الشيخ الخضر -<sup>(١)</sup>.

ومن الأمثلة على ذلك قول علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم): «وأما ثانياً فلأن المغامرة في بحث هذا الموضوع قد تكون مثاراً للغارة يشبّ نارها أولئك الذين لا يعرفون الدين إلا صورة جامدة، ليس للعقل أن يحوم حولها، ولا للرأي أن يتناولها»<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ الخضر معقّباً على الكلام السابق ومهوناً من شأنه: «يريد المؤلف بهذه القذيفة إرهاب أهل العلم؛ ليحجموا عن نقض آرائه؛ حذراً من وصمة الجمود، وينوي مع هذا استدراج ضعفاء الأحلام إلى اعتناق مذهبه؛ إذ يريدهم أنه مذهب الباحث بقريحة مرنة، ونظر مستقل.

ألا إن أهل العلم لا يرهبون، وذوي الفطرة السليمة لا يفتنون، وإن سرّه أن يحبّ في أثره قوم لا يبصرون؛ فإن الفرق التي لا تتقلد الإسلام ديناً ليسوا بقليل»<sup>(٣)</sup>.  
إلى أن قال مواصلاً تهوين الشبهة الماضية: «إن في العالم الإسلامي علماء شبّوا على حرية الفكر، وإطلاق العقل من وثاق التقليد الأصم؛ فهم لا يكرهون لذوي الأبواب أن يبحثوا حتى في أصل العقائد (وجود الخالق) وهم لا يستطيعون أن يحولوا بين المرء وما يعتقد من باطل، وليس في أيديهم سوى مقابلة الآراء بما تستحقه من تسليم أو تفنيد.

وهل يرجو المؤلف من أمثال هؤلاء أن تقع أبصارهم على كتاب ينطوي على آراء تضع مكان الإيمان حيرة، ومكان التقوى فسوقاً، ومكان إياية الضيم ذلة، ثم يميرون عليه مرور الجاهل بسوء عاقبتها؟!.

١ - انظر نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٦٩ .

٢ - الإسلام وأصول الحكم ص ٨٦ .

٣ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٧٠ .

فلا وربك لا يدعون وباءها يتفشى في النفوس الزكية، والقلوب السليمة، وإن امتلأت الدنيا ألسنة تصفهم بالجمود، وتلقبهم بالحجارة، أو بما هو أشد قسوة»<sup>(١)</sup>.  
عاشراً: ترك المناقشة لبعض الشبه: لوضوح بطلانها، أو لأن فسادها يغني عن إفسادها، وتصورها كافٍ في الرد عليها، أو لأنه كما يقول: «يتغاضى عن صغائر الهفوات، ويدراً تزييف الأقوال بالشبهات»<sup>(٢)</sup>.

ومن الأمثلة على تركه الإفاضة في نقض بعض الشبه ما جاء في تعليقه على قول علي عبدالرازق: «أولسنا مأمورين شرعاً بطاعة البغاة والعاصين وتنفيذ أمرهم إذا تغلبوا علينا، وكان في مخالفتهم فتنة تخشى من غير أن يكون ذلك مستلزماً لمشروعية البغي، ولا لجواز الخروج على الحكومة؟»<sup>(٣)</sup>.

قال الشيخ الخضر في نهاية نقضه لهذا الكلام: «ولسنا في حاجة إلى مناقشة هذه الأمثلة بعد أن كشفنا لك عن وجه دلالة الأمر بإطاعة صاحب الدولة على حكم وولاية».

وذلك الوجه من الدلالة لا يوجد في هذه الأمثلة.

وما كان لها إلا أن تلف رؤوسها حياءً، وتزدحم على باب هذا المبحث متسابقة إلى الخروج منه»<sup>(٤)</sup>.

فهذه أبرز معالم أخذه بأسلوب المحاصرة بالحجج حال ردوده.

١ - المرجع السابق ص ١٧٠ .

٢ - المرجع السابق ص ٨ .

٣ - الإسلام وأصول الحكم ص ٥٤ .

٤ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ٥٤ .

## المطلب الرابع: الأخذ بالشدة، وطول النفس

## أولاً: الأخذ بأسلوب الشدة، والنقد اللاذع

لئن كان الشيخ الخضر - كما مر - ذا شخصية هادئة متسامحة تأخذ بالرفق، وتجنب اللين، وتقابل السيئة بالحسنة - فإنه يأخذ - أحياناً - في ردوده بالشدة، ويجنح إلى النقد اللاذع؛ فإذا دعيت نزال كان أول نازل؛ فإذا توغل في معاركه الفكرية لبس لها لبوسها، وعامل الخصوم بما يليق بهم؛ فلم تكن نزاهة قلمه، وحسن أدبه، ونبيل أخلاقه لِيَمْنَعَهُ من أن ينقد من انحرف عن الصراط المستقيم نقداً لا دعماً لا يخرج به عن حدود الإنصاف، ولا يتجاوز حد الأدب في المناقشة - كما يقول الشيخ عبدالرزاق عفيفي رحمته الله -<sup>(١)</sup>.

والذي يدعوه إلى الأخذ بهذا الأسلوب - أحياناً - ما يراه من بعض الخصوم من التعسف، والمكابرة، والتلبيس، وسوء التأويل، والنيل من القرآن والسنة، ورجالات الأمة وتاريخها المجيد؛ فحينئذ تتحرك عاطفته الدينية، وغيرته الإسلامية؛ فيلذع في نقده، ويخفف بهتهم من غلواء خصمه، ويسم المردود عليه بميسم لا يكاد يفارقه؛ فلم يكن - إذاً - لينتصر لنفسه، وإنما ينتصر لدينه، وتاريخ أمته. وإلا فقد حصلت له ردود مع بعض من نالوا من شخصه؛ فلم يقابلهم بمثل ما قابل به أولئك الذين اشتد نكيره عليهم خصوصاً أصحابي كتاب: (الإسلام وأصول الحكم) وكتاب: (في الشعر الجاهلي).

يقول الأستاذ محمد مواعده عن نقض الشيخ الخضر لكتاب: (الإسلام وأصول الحكم): «وتقد الشيخ هذه الآراء بأسلوب جاد اللهجة، وبمجاج علمية قوية»<sup>(٢)</sup>. إلى أن قال: «إن الدارس لهذا النقض ليتبين قدرة الرجل العلمية والعقلية على إقامة الحجة، وتقديم الدليل المقنع، مما يجعل هذا الكتاب وثيقة هامة يرجع إليها

١ - انظر الشيخ عبدالرزاق عفيفي حياته وجهوده العلمية والدعوية وآثاره الحميدة ١/٢٤٥-٢٥٣.

٢ - محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٥٩.

المهتمون بقضايا الخلافة وشؤون الحكم في الإسلام»<sup>(١)</sup>.

ثم يستدرك الأستاذ مواعداً فيقول: «إلا أن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى أن المؤلف بالغ أحياناً في التهجم على صاحب (الإسلام وأصول الحكم) باستعمال عبارات حادة»<sup>(٢)</sup>.

ولم يذكر الأستاذ مواعداً أمثلة مما يراه مبالغة في التهجم، غير أنه اعتذر له في ذلك فقال: «إنه استعمل هذه العبارات خاصة في المواضيع التي تتصل بالإسلام، ورسوله، وبالخلفاء الراشدين، وذلك لسيطرة النزعة الدينية على نفسه، وعقله، وقوة عقيدته، وإيمانه، وشدّة حساسيته وغيرته على الدين الحنيف ورجاله.

وهذا ما جعله يبتعد عن الاعتدال المعهود به عند بحث هذا الموضوع، فينقض كل ما جاء في كتاب الشيخ علي عبدالرازق، ويهدم محتواه حتى يبقى ألفاظاً لا تعبر عن معنى، ومقدمات لا تتصل بنتيجة»<sup>(٣)</sup>.

والحقيقة أن الشيخ الخضر لم يبتعد عن اعتداله المعهود، وإنما عامل الشيخ علياً بحسب ما جاء في كتابه الآنف الذكر من المغالطات، والمكابرة، ونحو ذلك مما مر. وإلا فقد ناقشه الشيخ الخضر في ردّين، وهما (العظمة) و (ملاحظات على مقال مولد النبي ﷺ) ولم تكن تلك الحدة موجودة؛ لأن ما جاء في (العظمة) و (مولد النبي) لم يبلغ في الخطورة - في نظر الشيخ الخضر - ما بلغه كتاب (الإسلام وأصول الحكم).

وقال الأستاذ مواعداً - أيضاً - عن الفصل الأول من رد الشيخ الخضر على طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي): «وقد ناقش الشيخ محمد الخضر حسين هذا

١ - المرجع السابق ص ١٦١ .

٢ - المرجع السابق ص ١٦١ .

٣ - المرجع السابق ص ١٦١ .

الفصل بأسلوب قوي ، ولهجة حادة ، وكلمات نابية في بعض الأحيان»<sup>(١)</sup>.  
والحقيقة أن قوة الرد وحدثه موجودتان - كما هي الحال في الرد على علي عبدالرازق- ولكن (الكلمات النابية) التي أشار إليها الأستاذ مواعده تحتاج إلى تأمل؛ حيث لم يورد أمثلة عليها سوى أنه جعل من عبارات التهجم قول الشيخ الخضر «يعرف كل من قرأ كتاب (في الشعر الجاهلي) أن ليس فيه ما يثير سخط الناس سوى ما كان طعناً في الإسلام صراحة أو غمزا.  
وما عدا هذا إنما هو الخطأ أو الشذوذ»<sup>(٢)</sup>.

ويورد الأستاذ مواعده من كلام الشيخ الخضر في هذا السياق قوله: «ولو صح أن تعصر هذه العبارات ، لتقاطر من خلالها قذف فاحش ، وفسوق كثير»<sup>(٣)</sup>.  
ويضيف -أيضاً- أن الشيخ الخضر يتهم المؤلف بأنه أغار على نظرية المستشرق الإنجليزي مرجليوث في الشك في الشعر الجاهلي التي نشرها في مقال بمجلة الدراسات الآسيوية الملكية سنة ١٩٢٥م ونسبها إلى نفسه مع تحريف وتزوير<sup>(٤)</sup>.  
والحقيقة أن ما ذكره الأستاذ مواعده ليس فيه ما يدل صراحة أن الشيخ الخضر ناقش طه حسين (بعبارات نابية) وإنما هي عبارات حادة استدعاها المقام ، وقد قال الشيخ الخضر في مقدمة رده: «وإننا لا نغمض لذلك الكتاب في مقال ينهيه ، أو غمز في الإسلام يستعذبه؛ فإن وجدنا نحاوره في نهب أو غمز ، فإننا لم نخرج عن دائرة نقده ، ولم نتجاوز حد الباحث عن مقتضيات لفظه؛ فإن كان في فمك ملام فمُجّه في سمعه؛ فهو الذي ألقى على سمعك نحواً من حديث قوم لا يتدبرون»<sup>(٥)</sup>.  
وقال الأستاذ مواعده في نهاية عرضه لما جاء في الباب الثاني من الرد: «ويبدو في

١ - المرجع السابق ص ١٦٣ .

٢ - المرجع السابق ص ١٦٤ ، وانظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٢٩ .

٣ - المرجع السابق ص ١٦٤ ، وانظر نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٣٠ .

٤ - انظر المرجع السابق ص ١٦٤ .

٥ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ١١ .

رأينا أن صاحب النقض قد نحنا منحى الاعتدال في نقد هذه الفصول، وقد تهجم في بعض الفقرات على المؤلف، وخاصة منها ما يتصل بالخلفاء الراشدين، وعلماء الإسلام، لكنه لم يتطرف في أحكامه»<sup>(١)</sup>.

وقال في خاتمة حديثه عن كتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي): «وخلاصة القول أن نقض كتاب في الشعر الجاهلي وثيقة هامة مفيدة لدارسي الأدب الجاهلي وخاصة منهم المهتمين بقضية الشك في شعر العرب الجاهليين، ولما قدمه صاحبه من حجج لغوية، وتاريخية، وفنية خلال نقاشه لكتاب طه حسين، وما أبداه من اعتدال ونزاهة في كثير من الفقرات والفصول رغم سيطرة النزعة الدينية عليه، واستعمال اللهجة الحادة والعنيفة.

ولذلك حُصَّ هذا الكتاب بتقدير عدد من علماء الإسلام المعاصرين، والأدباء العرب البارزين منهم الدكتور طه حسين نفسه»<sup>(٢)</sup>.

والحقيقة أن استعمال الشيخ الخضر لأسلوب الشدة أو التهكم في بعض الأحيان لا ينافي حلمه، ورفقه، وسعة صدره، ومراعاته أدب الخلاف والحوار. بل إن هذا سائر على وفق ما كان يقرره في كثير من تحريراته؛ حيث قرر في مقالة له عنوانها (الحلم وأثره في سعادة الحياة الفردية والاجتماعية) أن من بلغ أن تكون قوة حلمه منقادة للعقل، جارية على مقتضى العلم - فهو الحلیم بحق<sup>(٣)</sup>.

ويقرر - أيضاً - أن «الحلم لا يعارض الأخذ بالحزم، شأن الفضائل يأخذ بعضها بيد بعض، وتتلاقى؛ لتعاون على البر والتقوى؛ فإذا كان الحلم سكون النفس، وعدم تهيجها للمكروه الذي يكفي في دفعه الصفع عنه - فإن من الحزم الغضب للأذى الذي يصدر عن لؤم، ويتمادى ولو مع الإغضاء عنه»<sup>(٤)</sup>.

١ - محمد الخضر حسين حياته وآثاره ص ١٦٩ .

٢ - المرجع السابق ص ١٧٠ .

٣ - انظر رسائل الإصلاح، طبعة دار الإصلاح - الدمام - ص ١٨٥ .

٤ - انظر المرجع السابق ص ١٨٦ .

ويستشهد على أن الجمع بين الحلم، والحزم، واللين، والشدة سائغ إذا وضع كلٌّ في مكانه اللائق به - بقول المتنبي:

إذا قيل رفقاُ قال للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل<sup>(١)</sup>  
وقول النابغة الجعدي:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادٍ تحمي صفوه أن يكدر<sup>(٢)</sup>  
وقول الحسين بن عبد الصمد يمدح بعض الأمراء بجمعه بين الحلم والحزم،  
والشدة واللين:

عجبوا لحلمك أن تحوّل سَطْوَةً وزلالٍ خلقتك كيف عاد مكدرا  
لا تعجبوا من رقةٍ وقساوةٍ فالنار تقدح من قضيب أخضرا<sup>(٣)</sup>

ويقرر في موضع آخر في معرض حديث له عن أدب الدعوة ما ينبغي أن تكون عليه الردود والمحاورات من الأدب اللائق بها، فيرى أن الفرق واللين هو الأصل، ويخطئ من يشتد في ذلك دون مسوغ، فيقول: «يذهب بعض الناس في الإنكار على من يراه مبطلاً مذهب الفظاظ في القول، فيرميه باللعن والشتائم، وفنّ الشتم والهجاء مما يبذر الشقاق الذي نهينا عنه، وربما حمل المبطل على التعصب لرأيه أو هواه، وقبض عليه باليمين والشمال»<sup>(٤)</sup>.

ثم يقرر أن الناس يعرفون أن طريق السباب إنما يسلكها العاجز عن إقامة الحجج الدامغة، وأن المقال الذي يحرر في سعة صدر وأدب مع المخالف يجد من القبول وشدة الأثر ما لا يجده المقال الذي يخالطه السفه والحماسة<sup>(٥)</sup>.

١ - ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ١٨٧/٣ .

٢ - جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، شرحه، وضبطه، وقدم له الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. ص ٣٥٨ .

٣ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٣٢ .

٤ - انظر الدعوة إلى الإصلاح ص ٣٤ .

٥ - المرجع السابق ص ٣٤ .

ويؤكد ذلك بقوله: «وكذلك ترى المستيقن أنه على حق، مطمئن الخاطر، آمناً على مذهبه من صولة الباطل، فينطق عن أناة وتخيّر للأقوال الصائبة. أما من لم يكن على بصيرة من رأيه أو عقيدته، فإنه ينزعج عند المجادلة، ويطيش به الجدل حتى يقذف بالسباب، ويلفظ بالكلام من قبل أن يقيم له وزناً»<sup>(١)</sup>.

ثم يقرر في السياق ذاته أن الحديث قد يكون مع طائفة باعوا نفوسهم بمتاع هذه الحياة، واندفعوا لإغواء الأمة، والكيد لشريعتها وحياتها السياسية بجميع ما ملكوا من صفاقة وعناد وسوء طوية؛ فيرى أن الحوار مع هؤلاء قد يناسبه أن ينحو منحى آخر، فيقول: «ولعل الناس يعذرونك حين تصدّي لكفّ بأس هؤلاء، ويجري على لسانك أو قلمك في خلال جدالهم كلمة تتهمك بعقولهم، أو تزدرى آراءهم، أو تنبه على مكر انطوت عليه دعايتهم.

فإنك إن تهكمت بعقول هؤلاء، أو ازدريت آراءهم فإنما تضعها في مواضعها، وتمس خيلاءهم بما يخفف من غلوائها، وإن رفعت الغطاء عن مكابدهم فإنما تجادل قوماً يجعلون مكان الصريح رمزاً، ومكان الطعن غمزاً، ويلبسون أقوالهم المعبرة عن آرائهم تردداً أو ريباً»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان الشيخ يراوح في أساليبه من حيث اللين والشدّة بحسب المقام، وما تستدعيه الحال، مع مراعاة أدب الخلاف، ونزاهة القلم، والتجافي عن السفه والإسفاف.

وفيما يلي أمثلة من نقده اللاذع، مع ملاحظة أنه قد مر شيء من ذلك في كثير من الفصول الماضية.

١. قال الشيخ الخضر في معرض رده على طه حسين في كتابه (في الشعر

١ - انظر المرجع السابق ص ٣٤.

٢ - المرجع السابق ص ٣٤.

الجاهلي): «توارد المؤلف و(مرغليوث) على هذا المعنى، بيد أن المؤلف يفوق على الثاني بنكته، وهي أنه سيقول: إن هذا الشعر الجاهلي يمثل الجهل والغباوة، والغلظة والحشونة، والعرب في الجاهلية كانوا أصحاب علم وذكاء وعواطف رقيقة.

وقال هنا: إن هذه الأشعار إسلامية تمثل حياة المسلمين؛ إذاً تكون حياة العرب قبل الإسلام في نظر المؤلف أرقى من حياتهم بعد أن صاروا مسلمين.

وليس لهذا معنى سوى أن المؤلف قد يمسح الحقائق لا عن خلل في التفكير، ولا عن اندفاع مع العاطفة، وإنما يمسحها ليضحك القراء حتى لا يسأموا»<sup>(١)</sup>.

٢. وقال: «ختم المؤلف الكتاب الأول بهذه الفقرات، وكأنه آنس في نفسه الفوز على (أنصار القديم) فدارت في رأسه نشوة، وانطلق يمزح معك بقوله: (ولكنني بعدت عن الموضوع فيما يظهر).

يقول هذا، وهو لا يشعر بما تصنع الأقلام فيما تركه خلفه من آراء منهوية، ومعان لا توجد إلا في خياله»<sup>(٢)</sup>.

٣. وقال تعليقاً على قول طه حسين: «وإذن، فلأعتمد على الله، ولأحدثك بما أحب أن أحدثك به في صراحة وأمانة وصدق، ولأجتنب في هذا الحديث هذه الطرق التي يسلكها المهرة من الكتاب؛ ليدخلوا على الناس ما لم يألفوا في رفق وأناة، وشيء من الاحتياط كثير»<sup>(٣)</sup>.

قال الشيخ الخضر معقّباً: «كأنني بالمؤلف يتسم لقوله: فلأعتمد على الله، وكأنني بك تتسم لقوله: ولأحدثك في صدق وأمانة، ونحن نتسم لقوله: ولأحدثك في صراحة، وادعائه أنه اجتنب طرق المهرة من الكتاب؛ حيث

١ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٣٢.

٢ - المرجع السابق ص ١٥٦.

٣ - في الشعر الجاهلي ص ٧.

يدخلون على الناس ما لم يألفوا في رفق واحتياط.

والواقع أنه سطا حول القرآن ومقام النبوة بلسان غليظ، وأبى قلمه أن يسلو حرفه الغمز؛ فسلك في كثير من المواضع طرق المهرة من الكتاب في صوغ عبارات ظاهرها البحث في الشعر الجاهلي، وباطنها الدعاية إلى غير سبيل المؤمنين، ولو صح أن تعصر هذه العبارات، لتقاطر من خلالها قذف فاحش، وفسوق كثير<sup>(١)</sup>.

٤. وقال في خاتمة رده (إصلاح المعاهد الدينية والدكتور طه حسين): «ولقد أبى ذلك الكاتب إلا أن يختم مقاله بشيء من المرح، فدعا طلاب العلم بهذه المعاهد أن يدعوا الدنيا وأعراضها، وتلا الآية الكريمة في غير موضعها.

كلا، لا رهبانية في الإسلام، وآية ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الكهف: ٤٥ إنما يراد بها كبح جماح المفتونين بزينة هذه الحياة، فخطابها لا يختص بالمتخرجين في المعاهد الدينية، بل هم، وأساتذة الجامعة، وسائر المسلمين أمام موعظتها الحسنة على سواء<sup>(٢)</sup>.

٥. وقال في معرض رده على علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) لما قال -أي علي عبدالرازق-: «الواقع المحسوس الذي يؤيده العقل، ويشهد به التاريخ قديماً وحديثاً: أن شعائر الله -تعالى- ومظاهر دينه الكريم لا تتوقف على ذلك النوع من الحكومة الذي يسميه الفقهاء: خلافة، ولا على أولئك الذي يلقبهم الناس خلفاء.

والواقع -أيضاً-: أن صلاح المسلمين في دنياهم لا يتوقف على شيء من ذلك؛ فليس بنا من حاجة إلى تلك الخلافة لأمر ديننا، ولا لأمر دنيانا، ولو شئتنا لقلنا أكثر من ذلك، فإنما كانت الخلافة ولم تنزل نكبة على الإسلام، وعلى المسلمين، وينبوع شر وفساد<sup>(٣)</sup>.

١ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي ص ٣٠.

٢ - الهداية الإسلامية ص ١٦٣.

٣ - الإسلام وأصول الحكم ص ٧٢.

قال الشيخ الخضر معقباً: «لا يرقب المؤلف في الحقائق الشرعية إلا ولا ذمة، يصورها بقلمه كيف يشاء، ثم يقع في عرضها بأشد من هجاء الخطيئة. يصور الخلافة بعرش يجلس عليه مستبد غشوم، حواليه وحوش ضارية، ورماح مسنونة، وسيوف مصلطة، وهو إنما أعد هذه القوة المسلحة لسفك الدماء الطاهرة، والفتك بالنفوس البريئة.

وليست الرعية تحت سلطته القاهرة إلا عبيداً يعتقدون أنه يستمد سلطانه من سلطان الله، ويسخرهم في شهواته كما تسخر الأنعام»<sup>(١)</sup>.

ثم يواصل الشيخ نقضه لكلام علي عبدالرازق الآنف إلى أن يقول: «وأما قوله (وإنما كانت الخلافة ولم تنزل نكبة على الإسلام والمسلمين وينبوع شر وفساد) فكلمة هو قائلها، والتاريخ من ورائه محيط»<sup>(٢)</sup>.

٦. ولما أنكر علي عبدالرازق الخلافة، وادعى أن مظاهر الحكومة وآثارها مما لا يوجد منه شيء في أيام النبوة، ولا أشار إليه النبي ﷺ أجابه الشيخ الخضر بجدة وتهكم فقال: «إن القارئ لبيتسم لهذه الجملة عجباً، بل يتمزق لها قلبه أسفاً؛ فإن هذه المقالة إن صح أن تخرج من فم عالم فإنما تصدر من حافظ حجة خاض في علم السنّة، وعرف الصحيح والضعيف والموضوع، ونقد الأسانيد بقانون علمي مستقيم.

ولكن المؤلف لم يزل في طبقة من ينقلون الأحاديث من (الكامل) للمبرد. وأصحاب هذه الطبقة لا يدخلون في حساب علماء الشريعة، وإن وضعوا على رؤوسهم عمائم، وجلسوا مجلس الفتوى أو الحكم بين الناس»<sup>(٣)</sup>.

٧. وقال الشيخ الخضر في معرض نقده لأخطاء علي عبدالرازق في كتابه الآنف

١ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١١٦.

٢ - المرجع السابق ص ١١٨.

٣ - المرجع السابق ص ٢٠٤-٢٠٥.

الذكر: «لو التزم أحد على وجه المزح أن لا يقول إلا خطأً، ثم تحدث بمقدار ما تحدث به المؤلف في ذلك الكتاب - لسبق لسانه إلى الصواب مراراً، وربما لا يكون خطؤه أكثر من خطأ كتاب (الإسلام وأصول الحكم)»<sup>(١)</sup>.

٨. وقال مستبشعاً مكابرة علي عبدالرازق: «لا يهول المسلم أن يسمع من مخالف أن عملاً كالجهاد والتصرف في شؤون الزكاة والجزية والغنيمة - كان النبي ﷺ يتولاه من نفسه دون أن يهبط عليه وحي بذلك؛ فإن المخالف لا يصدق بالقرآن، ولا يطمئن لإجماع.

وإنما يهول المسلم أن يسمع رجلاً نبت في بيت إسلامي، وشبَّ في معهد ديني، وهو يتشدد بهذا الرأي، رافعاً به عقيرته، شأن من لم يطرق أذنه أمثال قوله - تعالى -: ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٤١ .

وقوله - تعالى -: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ التوبة: ١٠٣ .  
وقوله - تعالى -: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ الأنفال: ٤١ .

وقوله - تعالى -: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩ «<sup>(٢)</sup>.  
إلى أن قال: «وإذا كانت الشؤون الحربية والمالية والقضائية مما جاء به صريح القرآن - فأبي شبهة تبقى بيد من يزعم من أن قواعد الإسلام، ومعنى الرسالة، وروح التشريع، وتاريخ النبي ﷺ لا تصادم القول بأن تأسيس المملكة خارج عن وظيفة الرسالة؟

ولا ندري ما هذا الأمر الذي يصلح أن يكون دعامة وسندا للرأي لو علقَ

١ - المرجع السابق ص ٢٢٠ .

٢ - المرجع السابق ص ١٩١-١٩٢ .

طلاؤه بأذهان المسلمين لنبدو أشطرَ كتابِ ربهم، وستة رسولهم، وكانوا من القوم الذين خسروا أنفسهم وهم لا يشعرون!»<sup>(١)</sup>.

فهذه نبذة مما كان يأخذ به الشيخ الخضر من الشدة، والتهمك، والنقد اللاذع. وأنت ترى أنه لم يخرج بذلك عن حدود الأدب واللياقة، إنما حمّله على ذلك ما يراه من الطعن، والغمز، والتعامي، والمكابرة. ولم يخرج في الوقت نفسه عن المنهج الذي رسمه، ونظّر له، وجمع فيه بين اللين والشدة، وإنزال كل منازله اللاتقة به.

### ثانياً: الأخذ بأسلوب النفس الطويل

فمن أعظم الميزات المنهجية للشيخ الخضر في سائر ردوده - طول نفسه في الردود، ومطاردة بعض الشبه.

ولقد مرت الإشارة إلى ذلك، وهو مبثوث في سائر ردوده؛ بحيث إذا اقتضى المقام ذلك قام بحقه، ووفاه.

ومن تلك الأمثلة على طول نفسه في الرد ما جاء في رده المعنون بـ: (قصة أيوب - عليه السلام - ونقض آراء حديثه في تفسيرها) حيث بلغت الردود في هذه القصة خمسة ردود، وجاءت في سبع وتسعين صفحة حتى انقطع الخصم عن الرد<sup>(٢)</sup>.

ومن الأمثلة على مطاردته للشبه ما جاء في غضون تفنيده لمذهب القاديانية؛ حيث كتب مقالاً في نشأة القاديانية، وأورد فيها شيئاً من نزعات تلك النحلة، وأبان للقراء أنها نحلة مارقة من الدين، عاملة على تقويض أركانه تحت ستار الدعوة إليه.

وقد كان لذلك المقال أثر في إيقاظ من كانوا عن هذه النحلة في غفلة؛ حتى تبرأ فريق كانوا يحسبونها على شيء من الرشد.

١ - المرجع السابق ص ١٩٢ .

٢ - انظر بلاغة القرآن ص ١٨١-٢٧٨ .

أما من جعل الله صدورهم ضيقة حرجة - كما يقول - فقد استغاثوا داعيتهم بفلسطين؛ لعلهم يجدون عنده من قوة الجدل ما يذود عن ترهاتهم، ويستر فضائحهم؛ فكتب مقالاً شغل به صفحات كثيرة من أوراق يصدرونها؛ لترويج مزاعمهم في البلاد العربية<sup>(١)</sup>.

ثم رد الشيخ الخضر على داعية القاديانية رداً مفصلاً، والشاهد ههنا ما يتعلق بطول نفس الشيخ في الرد، ومطاردته لشبهة أوردها ذلك الداعية.

يقول الشيخ الخضر في هذا الشأن: «قلنا في مقالنا السابق: إن مدعي النبوة قد يذهب فينقطع أثره، وقد يبقى لدعوته بين طائفة من الجاهلين أثر، فاندفع داعية القاديانية بعد هذا مخالفاً للنصوص القرآنية، ويزعم أن كل من يدعي النبوة لا يمهل الله - تعالى - سنين دون أن يبیده، ولا تروج دعوته، ولو عند طائفة لا يكادون يفقهون حديثاً، وأخذ يسرد آيات من القرآن يضعها في غير مواضعها، ويضيف إليها من المعاني ما لا يصح أن يستنبط منها، فأورد قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ يونس: ٦٩ .

وقوله - تعالى -: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يونس: ١٧ .

وقوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ عَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرِمُونَ﴾ هود: ٣٥ .

وقوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ غافر: ٢٨ .

وقوله - تعالى -: ﴿لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَدَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾

طه: ٦١ .

وقوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَابِلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾﴾

الحاقة: ٤٤ - ٤٦»<sup>(٢)</sup>.

إلى أن قال الشيخ: «أورد داعية القاديانية هذه الآيات، وبنى عليها أن غلام

١ - انظر القاديانية والباوية والبهائية ص ٢٩-٣٠ .

٢ - المرجع السابق ص ٣٠-٣١ .

أحمد ادعى النبوة، وبقي نحو ثلاثين سنة، ولم يأخذ الله منه باليمين، ولم يقطع منه الوتين، وأفلح في دعوته؛ فدعواه الوحي والنبوة إذن صادقة»<sup>(١)</sup>.  
ثم شرع ﷺ في تنفيذ ذلك القول، ومطاردة تلك الشبهة بنفسٍ طويل، قضى من خلاله على تلك الشبهة قضاءً مبرماً.

قال ﷺ: «والواقع أن هذا الداعية لا يفهم آيات الله معني، ولا يعرف لسنن الله في الخليفة حكمة؛ يدلنا القرآن والمشاهدة على أن الله -تعالى- قد يملي لبعض المبطلين، فيمُدُّ لهم في أعمارهم، أو يكثر أموالهم وأولادهم، أو يجعل لهم من صنف الجاهلين شيعة، ثم يأخذهم بعد هذا أخذ عزيز مقتدر، قال الله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ القلم: ٤٤ - ٤٥.

وقال -تعالى-: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ التوبة: ٥٥.  
ومما يدل على أن بعض المضلين قد يجد في الناس مَنْ يَتَّبِعُونَ خطواته، ويهيمون في واد من ضلالاته، فتحق عليهم كلمة العذاب التي حقت على من قبلهم قوله -تعالى-: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِثْلَ مَتْنِنَا﴾ الأعراف: ٦٧ - ٦٨.  
وقوله -تعالى-: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ البقرة: ١٦٦»<sup>(٢)</sup>.

ثم أردف قائلاً: «فبقاء بعض المضلين أمداً يعيشون فيه مفسدين، ويأخذون فيه بأعنة بعض الغافلين أو المغفلين - لا ينتقض سنة من السنن الكونية، ولا

١ - المرجع السابق ص ٣١.

٢ - المرجع السابق ص ٣١-٣٢.

يخالف نصاً من النصوص الشرعية.

وقد وافق داعية القاديانية على أن مدعي الإلهية قد ينتشر مذهبه في طائفة من الناس، ويترك من بعده أتباعاً، وجعل طائفة البهائية من هذا القبيل. ويحصر سرعة الإهلاك وعدم انتشار الدعوة فيمن يدعي الوحي والنبوة، وقال في الفرق بين مدعي النبوة ومدعي الإلهية: إن نشر دعوة النبوة آية من آيات الله، ولا يُعطى مُفتر هذه الآية؛ لئلا يلتبس أمر النبي بالمتنبي. أما مدعي الإلهية فإنه يدعي أمراً مستحيلاً؛ فليس هناك موضع التباس. وكلامه هذا يقتضي أن الله -تعالى- يهلك المفتري إذا كانت دعوة محتملة للصدق؛ لئلا يلتبس على الناس أمره، أما إذا قامت الأدلة الكافية على بطلان دعواه - فإنه يجوز إمهاله، وانتشار دعواه في طائفة من الناس»<sup>(١)</sup>.

ويواصل الشيخ إيراد حججه ومطاردة حجة الخصم فيقول: «وإذا كان داعية القاديانية يعترف بأن المضلل الذي تقوم الأدلة على افتراءه قد تتأخر عقوبته؛ إذ يلتبس المبطل بالحق قلنا له: إن الأدلة القائمة على انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ قاطعة؛ فقد تظافر على ذلك الكتاب والسنة المتواترة والإجماع؛ فيجوز أن يكون تأخير إهلاك غلام أحمد، وترك أباطيله تنتشر بين طائفة من الناس من ناحية أن الأدلة القائمة على بطلان دعواه الوحي والنبوة قاطعة، وليس بينها وبين إزهاق روح تلك النحلة المارقة إلا أن يتناولها أهل العلم بالبيان، ويطاردوا بها دعاة القاديانية في كل زمان ومكان»<sup>(٢)</sup>.

ثم يتساءل الشيخ قائلاً: «فإن قال داعية القاديانية: لو كانت الأدلة على انقطاع النبوة قاطعة لم يخالف فيها غلام أحمد ومن انحدروا في ضلالته - قلنا: إنكم سلمتم أن الأدلة القائمة على افتراء رئيس البهائية قاطعة، وقد عمي طائفة

١ - المرجع السابق ص ٣٢-٣٣ .

٢ - المرجع السابق ص ٣٣ .

البهائية عن هذه الأدلة ، وليسوا بأوفر في الغباوة منكم نصيباً ، ولا أخط منكم في الجهالة دركاً ، ولا أشد منكم في اشتراء الدنيا بالدين تهالكاً»<sup>(١)</sup> .

ثم يقرر أن «دعوى النبوة بعد رسول الله ﷺ معلومة البطلان من الدين بالضرورة؛ فمن ادعاها لا يشتهه حاله بحال المحق البتة؛ فمن الجائر -إذاً- أن يمهله الله -تعالى- كما يمهله مدعي الإلهية ثم يسحته بعذاب في الدنيا أو الآخرة»<sup>(٢)</sup> .

ثم ينكر بعد ذلك على تخبط داعية القاديانية في الآيات التي ساقها على أن من يدعي النبوة يعجل الله له العقوبة في الدنيا ، ويمنع من انتشار دعوته فيقول: «أما قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿يونس: ٦٩ .

وقوله -تعالى-: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُنْجِرُونَ﴾ ﴿يونس: ١٧ - فإنما يدلان على أن المفترى على الله -تعالى- لا يفلح ، وليس معنى عدم الفلاح بمقصود على إهلاكه بسرعة ، وخيبة دعوته بحيث لا تجد سامعاً -ولو من الطبقة التي هي أقرب إلى الحيوان الأعجم منها إلى الإنسان- بل يكفي في تحقيق عدم الفلاح : فوز أنصار الحق عليه في الدنيا ، والتحاقه بزمرة الأشقياء في الأخرى .

ثم إن عدم الفلاح قد جعل في الآية الثانية مما يترتب على التكذيب بآيات الله ، أفيلغ الخلط في الحديث بهذا الداعية أن يدعي أن كل من يكذب بآيات الله بعجل الله بإهلاكه في الدنيا؟!»<sup>(٣)</sup> .

ويواصل بيان تخبط ذلك الداعية فيقول: «وأما قوله -تعالى-: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ ﴿غافر: ٢٨ ، وقوله: ﴿لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَٰتِكُمْ﴾

١ - المرجع السابق ص ٣٣ .

٢ - المرجع السابق ص ٣٣-٣٤ .

٣ - المرجع السابق ص ٣٤ .

بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿ طه : ٦١ - فإن هاتين الآيتين لا تدلان على أكثر من أن الذي يكذب على الله - تعالى - يصيبه جزاء كذبه في الدنيا أو في الآخرة ، ويجازى مع ذلك بالخيبة والحرمان من بلوغ المقصود والظهور على حماة الحق .  
وقد أجرى الله - تعالى - على لسان غلام أحمد ما دل على سخافة عقله ، وفساد سريرته ، وألقى به في خذلان حال بينه وبين الفلاح في الدنيا ، وما بعد الموت أشد وأبقى .

على أن الآية الثانية لم تقع خطاباً لنبي ، وإنما هي من قول موسى - عليه السلام - خطاباً لقوم فرعون ، وليس فيها ما يدل على أن الله - تعالى - يسرع بإهلاك مدعي النبوة كذباً ، ويصرف عنه حتى القلوب التي تقضي فيها الشياطين ليلها ونهارها .

وغاية ما تدل عليه : أن المفترى على الله يخيب في دعوته ، ويصيبه جزاء فريته . وإن دعوة لا تروج إلا عند نفر لا يُفَرِّقون ، أو لا يريدون أن يفرقوا بين الليل إذ يغشى ، والنهار إذا تجلّى - لدعوة خاسرة <sup>(١)</sup> .

ثم يواصل نفيه استدلال داعية القاديانية بالآيات فيقول : « وأما قوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَتَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَالِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾ الْحَاقَّةُ : ٤٤ - ٤٦ ، فليس المراد منه تقرير أن الله يعجل بإهلاك كل من يدعي النبوة كذباً ، ويقطعه عن الحياة لأول ما يدعي النبوة ، حتى إذا ادعى أحد السخفاء النبوة ، وعبث بعقول طائفة من البُلّه ، أو اشترى نفوس طائفة من البؤساء ، وعاش نحو ثلاثين سنة - قلنا : هذا صادق في دعوى النبوة ! وإنما نزلت هذه الآية في حق محمد ﷺ ، وقد حفه الله - تعالى - بدلائل الصدق من كل جانب ؛ بحيث لا يجد ذو الفطرة السليمة أو العقل الراجح إلى تكذيبه فيما يجرب به عن الله - تعالى - منفذاً ؛ فلو كان

هذا الذي استقامت سيرته ، وبهرت حكمته ، وثبتت معجزته - قد تقول على الله - تعالى - بعض الأقاويل لكان الضرر من تقوله على الله - تعالى - عظيماً؛ إذ ليس في أيدي الناس ما من شأنه أن يدل على أن ما بلغه متقول على الله؛ فكان من مقتضى الحكمة أن يأخذ الله منه باليمين ، ثم ليقطع منه الوتين.

أما من تقوم الأدلة الجلية على أنه كاذب - كغلام أحمد - فقد يملي له الله - تعالى - لحكم ، منها: إظهار فضل العلماء الذين يجاهدون في إنقاذ الغافلين من مهالك دعوته الخاسرة<sup>(١)</sup> . ثم يُعقب ذلك ببيان أن الله - تعالى - قد نصب الأدلة على كذب غلام أحمد ، وقبض له بعد ذلك طائفة من العلماء ، فدفعوا باطله بالحجة ، ونادوا على الناس بأنه مزمار من مزامير الشيطان ، حتى ازداد كذبه وضوحاً ، ودعوته خيبة ، وسريرته افتضحاً.

وأن الله قد أجرى على لسان غلام أحمد آيات تدل على أن ما يدعيه زور وبهتان<sup>(٢)</sup> . ثم يحتم تنفيده بذكر بعض الآيات التي تدل على كذب المتنبئ غلام أحمد القادياني ، فيقول: «ومن هذه الآيات: أنه كان قد رغب في الزواج بفتاة من بنات بعض أقاربه ، وسبق إلى ظنه أن والدها لا يحجم عن تزويجه إياها ، فزعم أن اقترانه بها قد تقرر بطريق الوحي.

ولكن أهل الفتاة امتنعوا من تزويجه إياها ، وعزموا على أن يزوجوها برجل غيره ، فلما بلغه هذا العزم زعم أنه أوحى إليه مرة أخرى: أن من يتزوجها غيره يموت في مدة لا تتجاوز ثلاث سنين ، ثم تصير الفتاة زوجاً له ، ولكن أهل الفتاة موقنون بأن غلام أحمد غير صادق فيما يزعم؛ فزوجوا ابنتهم من رجل مسلم يدعى: (ميرزا محمد سلطان) ، ودامت العشرة بين الزوجين ، واستمر في حياة ، وقد مات القادياني في ٢٦ من مايو سنة ١٩٠٨ ، وبقي محمد سلطان يعيش مع زوجته عيشة راضية إلى ما بعد سنة ١٩٢٠»<sup>(٣)</sup>.

١ - المرجع السابق ص ٣٥-٣٦ .

٢ - المرجع السابق ص ٣٦ .

٣ - المرجع السابق ص ٣٦-٣٧ .

ويذكر الشيخ الخضر في آخر تفنيده كذبة من كذبات القادياني الظاهرة أمام الملأ، فيقول: «ووقع غلام أحمد في بهتان آخر؛ إذ زعم في تأليفه المسمى: (إعجاز أحمد): أن من علامات صدقه سير القطار بين الحرمين الشريفين، فقال: (شهدت السماء والأرض على صدقي، ولكن أكثر الناس لم يقبلوني، أنا الذي عطلت الإبل، وصدق الخبر الغيبي: ﴿وَإِذَا الْعُشُورُ عُطِّلَتْ﴾ التكوير: ٤ في وقته، وأيضاً صدق الحديث: (ليتركن القلاص، فلا يمشي عليها أحد) حتى إن منشئي جرائد العرب والعجم كتبوا في جرائدهم: أن القطار الذي يجري بين مكة والمدينة من علامات المسيح الموعود»<sup>(١)</sup>.

ثم يعلق الشيخ على هذا البهتان بقوله: «يقول هذا وهو لم يدخل الحرمين الشريفين، ولو لأداء فريضة الحج.

والإبل لم تعطل في وقته، والقطار لم يسر بين مكة والمدينة في وقته، بل إلى هذا اليوم»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا استمر في مطاردة تلك الشبهة، وتفنيدها؛ بحيث لا يبقى بعد ذلك حجة لمحتج.

فهذا شاهد على طول نفسه، وصبوره، وتمرسه في الرد.

فهذه أبرز المعالم لأساليبه المنهجية التي كان يسلكها في ردوده على المخالفين، وسيأتي مزيد بيان لها في البابين القادمين.

١ - المرجع السابق ص ٣٧.

٢ - المرجع السابق ص ٣٧.